الرافدين على الجلالين

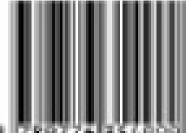
بسم الله الرحمن الرحيم

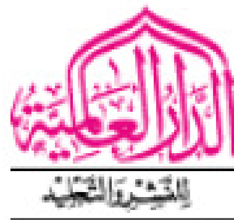
الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء التاسع والعشرون





بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَة فَاطِر(١)

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدها: أنها نزلت بمكة. قاله ابن عباس، وقتادة، ومقاتل، ويحيى بن سلام.

قال ابن الجوزي:"هي مكية بإجماعهم".

قال القرطبي:"سورة فاطر مكية في قول الجميع".

قال الفيروزآبادى:"السورة مكية إجماعا".

الثاني: أنها مكية إلا آيتين: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ} [فاطر: ٢٩] الآية: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ} [فاطر: ٣٢] الآية. حكاه الطبرسي عن الحسن.

* عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين، وعند الشاميّين ستّ. وكلماتها سبعمائة وسبعون. وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاثة وثلاثون. المختلف فيها سبع آيات؛ {الذين كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} جديد، النور، البصير {مَنْ فِي القُبُوْرِ}، {أَنْ تَزُوْلا} تبديلًا. فواصل آياتها (زاد من بز).

* أسماء السورة.

تسمى «سورة فاطر» اشتهرت تسميتها باسم «سورة فاطر»، وكتبت في كثير من المصاحف وكتب التفسير، ووجه تسميتها «سورة فاطر» أن هذا الوصف وقع في طالعة السورة، ولم يقع في أول سورة غيرها.

قال القاسمي:"وتسمى هذه السورة سورة «فاطر» لذكر هذا الاسم الجليل والنعت الجميل في طليعتها".

وتسمى «سورة الملائكة» ووجه تسميتها «سورة الملائكة» أنه ذكر في أولها صفة الملائكة، ولم يقع في سورة أخرى.

قال القاسمي:"سميت بذلك لما جاء فيها من خلق الملائكة، وجعلهم ذوي =

أجنحة متنوعة في العدد، الدال على عجيب صنعه تعالى وباهر قدرته".
وقال المهايمي: "سميت بها لاشتمالها على بيان تفصيل رسالتهم، من جهة أخذهم الفيض عن الله، وإيصاله إلى خلقه، من جهة أو جهتين أو ثلاث أو أكثر، ليشعر أن الرسالة العامة لهم، إذا كانت كذلك، فكيف الرسالة الخاصة؟ مثل إنزال القرآن. فيجوز أن يكون له جهات كثيرة. وقد روي أنه كان لجبريل ستمائة جناح".

* معظم مقصود السّورة: بيان تخليق الملائكة، وفتح أَبواب الرّحمة، وتذكير النّعمة، والتحذير من الجِنّ، وعداوتهم، وتسلية الرّسول (وإِنشاءِ السحاب، وإِثارته، وحوالة العزَّة إِلى الله، وصعود كلمة الشهادة وتحويل الإنسان) من حال إِلى حال، وذكر عجائب البحر، واستخراج الحِلْية منه، وتخليق اللَّيل، والنَّهار، وعجز الأَصنام عن الرُّبوبيّة، وصفة الخلائق بالفقر والفاقة، واحتياج الخَلْق فى القيامة، وإقامة البرهان، والحجة، وفضل القرآن، وشرَفَ التلاوة، وأَصناف الخَلْق فى ميراث القرآن، ودخول الجنَّة من أَهل الإِيمان، وخلود النار لأَهل الكفر والطغيان، وأَن عاقبة الكفر الخسران، والمِنَّة على العباد بحفظ السّماءِ والأَرض عن تخلخل الأَركان، وأَنَّ العقوبة عاقبة المكر، والإِخبار بأَنَّه لو عَدَلَ رَبُّنَا فى الْخَلْقِ لم يسلم من عذابه أَحد من الإِنس والجانّ.

* المتشابهات: قوله: {والله الذي أَرْسَلَ الرياح} بلفظ الماضى؛ موافقة لأَوّل السّورة {الحمد للهِ فَاطِرِ السماوات والأرض جَاعِلِ} لأَنهما للماضى لا غير وقد سبق قوله: {وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ} بتقديم (فيه) موافقة لتقدّم {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُوْنَ} وقد سبق.

قوله: {جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات وبالزبر وبالكتاب} بزيادة الباءَات قد سبق.
قوله: {مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} وبعده {أَلْوَانُهَا} ثمّ {أَلْوَانُهُ} لأَنَّ الأَوّل يعود إِلى

=

ثمرات، والثاني يعود إلى الجبال؛ وقيل إلى حُمْر، والثالث يعود إلى بعض الدّال عليه (مِن)؛ لأَنه ذكر (من) ولم يفسّره كما فسّره فى قوله {وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ} فاختصّ الثالث بالتذكير.

قوله: {إِنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} بالتصريح وبزيادة اللاَّم، وفى الشُّورى {إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، لأَن الآية المتقدمة فى هذه السّورة لم يكن فيها ذكر الله فصرّح باسمه سبحانه وتعالى، وفى الشورى متَّصل بقوله: {وَلَوْ بَسَطَ الله} فخُصّ بالكناية، ودخل اللام فى الخبر موافقة لقوله {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}.

قوله: {جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض} على الأَصل قد سبق.

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي} سبق.

{عَلَى ظَهْرِهَا} سبق.

قوله: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلًا} كرّر، وقال فى الفتح: {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا} وقال فى سبحان {وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا} التبديل تغيير الشئ عمّا كان عليه قبلُ مع بقاءِ مادّة الأَصل؛ كقوله تعالى: {بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}، وكذلك {تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات}؛ والتحويل: نقل الشئ من مكان إلى مكان آخر، وسنة الله لا تبديل ولا تحوّل، فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لمّا وصف الكفار بوصفين، وذكر لهم عَرَضين، وهو قوله، {وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا} وقوله: {استكبارا فِي الأرض وَمَكْرَ السيئ} وقيل: هما بدلان من قوله: {نُفُورًا} فكما ثنَّى الأَوّل والثَّانى ثَنَّى الثالث؛ ليكون الكلام كلُّه على غِرار واحد. وقال فى الفتح {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا} فاقتصر على مرّة واحدة لمّا لم يكن (التكرار موجَبًا) وخصّ سورة سبحان بقوله: {تَحْوِيلًا} لأَنَّ قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ: "لو كنت نبيًّا لذهبت إلى الشأم؛ فإِنَّها أَرض

=

مَكِّيَّة وَآيَاتهَا ٤٥ أَوْ ٤٦ نَزَلَتْ بَعْد الفرقان.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

{الْحَمْد لِلَّهِ} حَمِدَ تَعَالَى نَفْسه بِذَلِكَ كَمَا بَيَّنَ فِي أَوَّل سُورَة سَبَأ {فَاطِر السَّمَاوَات وَالْأَرْض} خَالِقهمَا عَلَى غَيْر مِثَال سَبَقَ {جَاعِل الْمَلَائِكَة رُسُلًا} إلَى الْأَنْبِيَاء {أُولِي أَجْنِحَة مَثْنَى وَثُلَاث وَرُبَاع يَزِيد فِي الْخَلْق} فِي الْمَلَائِكَة وغيرها {ما يشاء إن الله على كل شيء قدير}(٢).

=

المبعث والمحشر، فهَمّ النبى ﷺ بالذهاب إليها، فهيّأ أسباب الرّحيل والتحويل، فنزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآيات، وهى: {وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا} وختم الآيات بقوله {تَحْوِيلًا} تطبيقا للمعنى. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٨٦ - ٣٨٩).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: ١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الشكر الكامل للمعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي أن تكون لغيره خالق السماوات السبع والأرض".

قال يحيى:"قوله: {الحمد للهِ فَاطِرِ السماوات والأرض} يعني: جميع الأَرض".

قال الزمخشري:"{فاطر السماوات}: مبتدئها ومبتدعها".

عن قتادة، قوله: {فاطر السماوات والأرض}، قال: خالق السماوات والأرض".

=

قال الضحاك:"كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض فهو خالق السموات والأرض".

وقال ابن عباس:"بديع السموات والأرض".

قال ابن عباس:"كنت لا أدري ما «فاطر السماوات والأرض»، حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: «أنا فَطَرتها»، يقول: أنا ابتدأتها".

قال كعب:"«الحمد لله»: ثناء على الله".

قوله تعالى: {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا} [فاطر: ١]، أي:"جاعل الملائكة رسلا إلى مَن يشاء من عباده، وفيما شاء من أمره ونهيه".

قال الطبري:"{جَاعِلِ الْمَلائِكَةَ رُسُلا} إلى من يشاء من عباده، وفيما شاء من أمره ونهيه".

قال ابن كثير:"أي: بينه وبين أنبيائه".

عن السدي:"{جاعل الملائكة رسلا}، قال: إلى العباد".

قوله تعالى: {أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [فاطر: ١]، أي:"ومِن عظيم قدرة الله أن جعل الملائكة أصحاب أجنحة مثنى وثلاث ورباع تطير بها؛ لتبليغ ما أمر الله به".

قال الطبري:"يقول: أصحاب أجنحة يعني ملائكة، فمنهم من له اثنان من الأجنحة، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة".

قال ابن كثير:"أي: يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعًا {مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ} أي: منهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة ومنهم مَنْ له أربعة، ومنهم مَنْ له أكثر من ذلك".

قال قتادة:": بعضهم له جناحان وبعضهم ثلاثة وبعضهم أربعة".

عن شقيق بن سلمة، قال: "سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل على سدرة المنتهى، وله ستمائة جناح»، قال سألت عاصما عن الأجنحة؟، فأبى أن يخبرني، قال: فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب".

قوله تعالى: {يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} [فاطر: ١]، أي:"يزيد الله في خلقه ما يشاء".

قال الطبري:"وذلك زيادته تبارك وتعالى في خلق هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء، ونقصانه عن الآخر ما أحب، وكذلك ذلك في جميع خلقه يزيد ما يشاء في خلق ما شاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر وله القدرة والسلطان".

عن السدي:"{يزيد في الخلق ما يشاء}: يزيد في أجنحتهم وخلقهم ما يشاء".

قال الزمخشري:"أى: يزيد في خلق الأجنحة، وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته. والأصل الجناحان، لأنهما بمنزلة اليدين، ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل، وذلك أقوى للطيران وأعون عليه. فإن قلت: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه، فما صورة الثلاثة؟ قلت: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة. أو لعله لغير الطيران، فقد مربى في بعض الكتب أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة فجناحان يلفون بها أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله، وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله.. والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق: من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأى، وجراءة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف".

=

وروي عن الزهري، قوله: " {يزيد في الخلق ما يشاء}، قال: حسن الصوت".

وقال ابن عباس:"الصوت الحسن".

وقال قتادة:"الملاحة في العينين".

روي عن حذيفة:"أنه سمع أبا التياح يؤذن، فقال: من يرد الله أن يجعل رزقه في صوته فعل".

وقرئ في الشاذ: «يَزِيدُ في الحلق»، بالحاء المهملة.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر: ١]، أي:"إن الله على كل شيء قدير، لا يستعصي عليه شيء".

قال الطبري:"يقول: إن الله تعالى ذكره قدير على زيادة ما شاء من ذلك فيما شاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده سبحانه وتعالى".

قال العثيمين: اعلم أن الحمد هو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، وقد حمد الله سبحانه وتعالى نفسه في أول الأمور وآخرها.

ففي أول الأمور الكونية قال: {الحمد لله فاطر السماوات والأرض}، وقال: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور} [الأنعام: ١].

وفي أول الأمور الشرعية قال: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا} [الكهف: ١].

كما حمد نفسه على منتهى الأمور أيضا، قال الله تعالى في آخر سورة الزمر: {وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين} [الزمر: ٧٥].

فحمد الله سبحانه وتعالى نفسه في أول الأمر وفي منتهى الأمر؛ لأن الله تعالى له الأمر أولا وآخرا، وكل أمره فإنه محمود عليه؛ لأنه مبني على الحكمة والرحمة.

=

وهنا يقول: {الحمد لله} الحمد: مبتدأ، لله: خبره، واللام هنا للإستحقاق والإختصاص؛ للمعنيين جميعا، أما كونها للإستحقاق؛ فلأنه لا أحد أحق بالحمد من الله ﷻ؛ فإنه محمود على كل حال؛ لأن كل ما يفعله وكل ما يشرعه فإنه محمود عليه لكماله، وأما كونها للإختصاص فلأن (أل) في (الحمد) هنا للإستغراق؛ أي: كل حمد فهو لله، ثابت له، ومعلوم أنه لا أحد يختص بهذا الوصف العام الشامل إلا الله ﷻ؛ لأن من يحمد سوى الله لا يحمد إلا على أشياء جزئية غير شاملة، لكن الذي يحمد على كل شيء هو الله، وبهذا عرفنا أن اللام للإستحقاق والإختصاص أيضا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{الحمد لله} حمد الله تعالى نفسه بذلك كما بين في أول سورة (سبأ)].

ففي أول (سبأ) قال: {الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة} [سبأ: ١]، لكن هناك حمد نفسه لعموم ملكه الذي له ما في السموات والأرض، وهنا حمد نفسه لابتداء خلقه.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{فاطر السماوات والأرض}: خالقهما على غير مثال سبق].

وقوله تعالى: {جاعل الملائكة رسلا} لهم عقول أخص من عقول البشر؛ لأن عقول البشر قد تستولي علمها الشهوة فيضيع الإنسان عقله. قوله تعالى: {رسلا} جمع (رسول) يقول: [إلى الأنبياء]، والأصح إلى الأنبياء وغيرهم؛ يقول الله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} [الأنعام: ٦١] رسل الله تعالى إلى هذا المحتضر ليقبضوا روحه، فهم رسل إلى الأنبياء وإلى غيرهم؛ فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصورا في التفسير.

قوله تعالى: {أولي أجنحة}: {أولي} بمعنى أصحاب؛ يعني أن الملائكة لهم أجنحة، وهو جمع (جناح)، هذا الجناح يطيرون به بسرعة فائقة أسرع من الجن

=

بدليل أن العفريت من الجن قال لسليمان لما قال {أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين (٣٨) قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك} [النمل: ٣٨ - ٣٩] وكان له عادة أنه يقوم في وقت معين فقال: {قبل أن تقوم من مقامك} يعني: في الوقت المعين وإلا لكان الأمر مبهما {قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك} [النمل: ٤٠].

يعني مثلا: إن نظرت مثلا أبعد شيء - هم قالوا هكذا - قبل أن يرتد إليه طرفه، فإنه يأتيه به، وفعلا أتاه؛ ولهذا قال: {فلما رآه مستقرا} [النمل: ٤٠].

قال العلماء رحمهم الله: إن الذي عنده علم من الكتاب كان يعرف اسم الله الأعظم، وأنه دعا باسم الله الأعظم، فحملته الملائكة وألقته بين يدي سليمان، وهذا يدل على أن الملائكة أسرع من الجن، ولا شك في هذا؛ أنهم أسرع وأقوى، فهم لهم أجنحة يطيرون بها بسرعة فائقة عظيمة.

جبريل عليه الصلاة والسلام كان له ست مئة جناح، كل جناح له قوة عظيمة في الحمل والطيران، ماذا تكون سرعته؟

لا شك أنها سرعة فائقة جدا؛ لأننا إذا رأينا الآن الطيارات النفاثة أجنحتها التي تحملها وهي المراوح التي تدخل الهواء ليحمل الطائرة لا تبلغ هذا المبلغ ولا عشره، ومع ذلك تنتقل بهذه السرعة العظيمة وهذا الإرتفاع العظيم، فجبريل عليه الصلاة والسلام له ست مئة جناح قد سد الأفق، وهذا يدلك على أن لهم سرعة فائقة عظيمة.

وهذه الأجنحة {مثنى وثلاث ورباع} وأكثر؛ ولذا قال: {يزيد في الخلق ما يشاء}.

قوله تعالى: {مثنى} ظاهرها أن ذلك في العدد لا في الصنف؛ لأن هذا هو الأصل، ويحتمل أن يكون في الصنف؛ لأننا نرى الطائر مثلا له جناحان، لكن كل

=

=

ريشة من هذه الأجنحة لها عمل خاص في تكييف الطيران، منها مثلا ما ينصبه حتى يرتفع، ويخفضه حتى ينزل، ويفرشه حتى يستقر، هذا شيء مشاهد؛ ولهذا بعض الأحيان تنتف أشياء معينة من الجناح ثم لا يطير، مع أن الباقي في جناحه أكثر مما نتف بكثير، فيحتمل أن قوله تعالى: {مثنى} يعني: باعتبار الصنف.

{وثلاث ورباع} ويحتمل أنه باعتبار العدد وأن الملائكة بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ولا ينافي ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام له ست مئة جناح؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {يزيد في الخلق ما يشاء} ويكون مما زاده أن جعل لجبريل ست مئة جناح.

فإذا قلت: هل نعرف كيفية هذه الأجنحة؟

فالجواب: لا؛ كيفية هذه الأجنحة لا نعلمها، وهذا نظيره تماما ما جاء في صفات الله ﷻ؛ فإننا نعلم معنى الصفة، ولكننا نجهل كيفية الصفة، لله ﷻ وجه، نعلم معنى الوجه، لكن هل نعلم كيفيته؟

الجواب: لا؛ لأن ما غاب عنك لا يخاطبك الله به إلا ببيان معناه فقط، وأما كيفيته فلا يمكنك إدراكها؛ لأنه غائب ولا نظير له، والشيء لا يعرف إلا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه.

ونعرب: {مثنى} بدلا أو صفة لـ {أجنحة} وبدل المجرور مجرور، وعلامة جره فتحة مقدرة على الألف نيابة عن الكسرة، والمانع من الصرف الوصفية والعدل.

وكذلك نقول في {وثلاث ورباع} ولذلك قال: (ثلاث) ولم يقل: (ثلاث)، وقال: {ورباع} ولم يقل: (ورباع).

قوله تعالى: {يزيد في الخلق ما يشاء}؛ أي: يزيد في الخلق سواء كان في الملائكة أو غيرهم، يزيد ما يشاء مما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى؛ ولذلك تجد المخلوقات لها أيد وأرجل بحسب حاجتها إلى هذه الأيدي والأرجل، فبنو آدم

=

=

لهم أرجل يمشون بها، ولهم أيد يبطشون بها ولا يمشون بها؛ لأن هذه الأيدي محل الأخذ والعطاء، فأكرم الإنسان بأن تكون يداه غير مستعملة في المشي، بخلاف الحيوان؛ فالحيوان يداه مستعملة في المشي؛ لأنه يأخذ بفمه، ويعطي بفمه، وينقل بفمه، حتى الهرة إذا أرادت أن تنقل أولادها تنقلهم بفمها، لكن الآدمي مكرم، فجعل الله تعالى يديه غير مستعملتين في المشي، فهو يزيد في الخلق ما يشاء على حسب ما تقتضيه الحكمة وحاجة ذلك المخلوق، وكل ما ذكره الله ﷻ مما هو معلق بمشيئته فقد تقدم أنه مقرون بالحكمة.

قوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير} هذا تعليل لقوله تعالى: {يزيد في الخلق ما يشاء} يعني: كأن سائلا يسأل: وهل ذلك صعب عليه؟

فكان الجواب من هذه الجملة أنه سهل؛ لأن الله على كل شيء قدير، فكل شيء موجود قادر على إعدامه، وكل معدوم قادر على إيجاده.

لكن لو قال لك قائل: هل يقدر على أن يجعل الشيء المتحرك ساكنا في آن واحد؟

نقول: كلمة (متحرك) نقيض (ساكن) إذا وصفته بالمتحرك فيقينا ليس بساكن، وإذا وصفته بأنه ساكن، فيقينا ليس بمتحرك؛ فلذلك قال العلماء رحمهم الله: إن المستحيل غير وارد؛ لأن المستحيل لا يمكن وجوده، ليس المعنى أنه لا يمكن باعتبار قدرة الله، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يجعل هذا المتحرك متحركا صار متحركا لا ساكنا، أما أن يكون متحركا ساكنا في آن واحد، كيف ذلك والمتحرك غير ساكن؟

يقال: إن الشيطان كان يفرح بموت العالم، إذا قيل: (مات فلان العالم) فرح واستأنس، لكن إذا قيل: (مات عابد) يقول: هذا هين، فقال له جنوده: لماذا تفرح بموت العالم هذا الفرح العظيم، وموت العابد لا يهمك مع أن العابد منقطع عن

=

=

الدنيا، وزاهد في الدنيا، ويكثر الذكر والصلاة وغيرها؟

قال: لأن العالم أشد علي من العابد، قالوا: كيف؟ قال: سأثبت لكم الآن، اذهبوا إلى العابد وقولوا له: هل يقدر الله ﷻ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة أو لا؟ فذهبوا إلى العابد، قالوا له: هل يقدر الله على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: هذا مستحيل، ولا يقدر الله على هذا، ثم قال لهم قولوا له: هل يقدر الله أن يخلق مثله؛ أي: أن يخلق مثل الله؟ فذهبوا له، وقالوا له: ما تقول: هل يقدر الله أن يخلق مثل الله؟ قال: نعم، إن الله على كل شيء قدير، يقدر الله على أن يخلق ربا مثله.

إذن: كفر هذا العابد سلبا وإيجابا؛ نفيه القدرة في الأول كفر، وإثباته القدرة في الثاني كفر.

ثم قال لهم: اذهبوا إلى العالم، واسألوه عن هذين السؤالين، فذهبوا إلى العالم قالوا له هل يقدر الله ﷻ على أن يجعل السموات والأرض في جوف بيضة؟ قال: نعم، يقول: {كن فيكون} [البقرة: ١١٧] إما أن تصغر السموات والأرض، أو تكبر البيضة، المهم إذا أراد قال فكان، قالوا: فهل يقدر الله أن يخلق مثله؟

قال: هذا أمر مستحيل، والمثلية لا يمكن أن تتطابق أبدا؛ لو لم يكن من الفارق العظيم إلا أن هذا حادث وذاك واجب الوجود، هذا مستحيل.

المهم: أن الله ﷻ على كل شيء قدير، لكن الشيء المستحيل الذي لا يتصور لا يتصور، وليس المراد هنا المستحيل عادة؛ فالمستحيل عادة يخلفه الله ﷻ؛ لأن الله هو خالق العادة وقادر على تغييرها، وهذه النار التي تحرق كانت بردا وسلاما على إبراهيم، وهذا الماء السيال صار جامدا كالطود العظيم، والعادة يمكن أن يغيرها الله ﷻ بكل سهولة، لكن الكلام على الأمر الممتنع المستحيل.

يقول العلماء رحمهم الله: إنه لا تتعلق به القدرة؛ لأنه مستحيل؛ ولهذا قال

=

=

السفاريني في العقيدة:

"...واقتدر

بقدرة تعلقت بممكن .... "

وهذا أمر متفق عليه عند العقلاء.

قوله تعالى: {إن الله على كل شيء قدير} هذا ليس فيه استثناء، كتب الجلال رَحِمَهُ اللهُ وهو السيوطي - على هذه الآية في سورة (المائدة) قال: "وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر"؛ يعني: على كل شيء قدير إلا على ذاته فليس عليها بقادر.

نقول: هذا الإستثناء لا شك أنه باطل؛ لأن الآية {إن الله على كل شيء قدير} فقال: {على كل شيء} وقوله: "إن العقل خص ذاته فليس عليها بقادر" نقول: إن العقل لا يمكنه أن يخصص هذا الخبر بدون دليل، ولو ذهبنا نخصص مثل هذه العمومات بالعقول لأبطلنا كثيرا من دلالات الكتاب والسنة.

وماذا تريد بقولك: "خص العقل ذاته فليس عليها بقادر؟ " إن أردت أنه سبحانه وتعالى لم يكن قادرا على ذاته؛ بمعنى أنه لا يقدر مثلا أن يمرض نفسه أو أن يعدم نفسه سبحانه وتعالى فهذا أصل لم تتعلق به القدرة؛ لأن هذا من الأمور المستحيلة، وإن أردت أنه ليس قادرا على أن يفعل، فلعل هذا مراده - لأن الأشاعرة ومن شابههم ينكرون الأفعال الإختيارية - فهذا كذب؛ بل العقل يدل على أنه سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال فعالا لما يريد.

وتوجد عبارة تقع كثيرا بين الناس تقول: (إن الله على ما يشاء قدير) نقول: هذه عبارة خطأ؛ لأن هذا يوهم أن ما لا يشاؤه فليس قادرا عليه، هذا أولا.

وأما قوله تعالى: {وهو على جمعهم إذا يشاء قدير} [الشورى: ٢٩]، فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة بل عائدة على الجمع؛ يعني: إذا شاء جمعهم فإنه

=

=

قدير عليه ردا على من أنكروا البعث، وقالوا: كيف يجمع الله الناس ويبعثهم بعد أن ماتوا؟

ثانيا: أنك إذا قلت: (إنه على ما يشاء قدير) فقد خالفت التعبير القرآني الذي أطلق الله فيه وعمم: {إن الله على كل شيء قدير}.

ثالثا: أن هذا مأخوذ من مذهب القدرية؛ لأن القدرية يقولون: (إن الله لا يقدر على عمل العبد) فهو غير داخل في قدرة الله، وإذا لم يقدر عليه فإنه لا يشاؤه، وكذلك يقولون: إنه سبحانه وتعالى إذا كان فعل العبد في غير مشيئته فإنه غير قادر عليه؛ لأن الله قادر على ما يشاء فقط.

فلأجل هذا نقول: إن هذه العبارة لا تنبغي، وإن كان صاحبها يريد بها معنى صحيحا، فقد يريد بها معنى صحيحا كما هو ظاهر عبارة كثير من المسلمين الذين ينطقون بهذا الشيء، ونقول: إن الأكمل أن تقول: "إن الله على كل شيء قدير".

فإن قلت: إنه ورد في قصة آخر من يدخله الله الجنة فيقول الله له: لما قال هذا لك وعشرة أمثاله، قال الله له: "إني على ما أشاء قادر" هذا حديث قدسي؟

فالجواب: أن هذا في قضية معينة؛ يعني: لو وقع شيء يستغرب الإنسان وقوعه ويستبعده، فلنا أن نقول: إن الله تعالى إذا شاء شيئا فهو قادر عليه؛ بمعنى أنه فاعله كقوله تعالى: {ويفعل الله ما يشاء} [إبراهيم: ٢٧] بخلاف القدرة المجردة عن الفعل، فإن هذه لا تقيد بالمشيئة.

وظاهر الآية الكريمة أن جميع الملائكة رسل، فهل هذا الظاهر مراد؟

الجواب: غير مراد بدليل قوله تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} [الحج: ٧٥].

* **مسألة** في ذكر مباحث الملائكة.

=

=

المسألة الأولى: الملائكة لغة: جمع ملك، قال ابن فارس: (الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة).

والملك أصله (ملاك) نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حذفت الألف تخفيفًا فصارت ملكًا، وهو مشتق من الألوكة والملأكة وهي: الرسالة، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى، يقال: ألك؛ أي تحمل الرسالة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فسميت الملائكة ملائكة بالرسالة؛ لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ومن أرسلت إليه من عباده).

وإنما سميت الرسالة ألوكة ومألكة لأنها تؤلك في الفم، من قولهم: يألك اللجام ويعلكه.

وتعريف الملائكة اصطلاحًا: خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله ﷻ من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصوفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله.

وقد عرفها بعضهم بأنها: (أجسام نورانية، أعطيت قدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى).

والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، والذي لا يصح إيمان عبد حتى يقر به، فيؤمن بوجودهم، وبما ورد في الكتاب والسنة من صفاتهم وأفعالهم، قال الله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ) [البقرة: ٩٨].

وقد حكم الله ﷻ بالكفر على من أنكر وجود الملائكة؛ ولم يؤمن بهم، فقال تبارك وتعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ

=

=

ضَلاَلًا بَعِيدًا) [النساء: ١٣٦]. والملائكة خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله ﷻ من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله.

والإيمان بالملائكة: هو الإيمان بوجودهم إيمانًا جازمًا لا يتطرق إليه شك، ولا ريب، قال الله تبارك وتعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إليه مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ [البقرة:٢٨٥]، لقوله تعالى: وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا [النساء:١٣٦]. فأهل السنة والجماعة: يؤمنون بهم إجمالًا، وأما تفصيلًا فبمن صح به الدليل ممن سماه الله ورسوله ﷺ؛ كجبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالمطر، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، وملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ومالك خازن النار. وأهل السنة والجماعة: يؤمنون بوجودهم، وأنهم عباد مخلوقون، خلقهم الله تعالى: من نور، وهم ذوات حقيقية، وليسوا قوى خفية، وهم خلق من خلق الله تعالى. والملائكة خلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وثبت أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. وهم جند من جنود الله، قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بأشكال جسمانية؛ حسبما تقتضيها الحالات التي يأذن بها الله سبحانه وتعالى وهم مقربون من الله ومكرمون.

قال العلامة الحكمي في معارج القبول (ص٨٠٨): الإيمان (بالملائكة) الذين هم عباد الله المكرمون والسفرة بينه تعالى: وبين رسله عليهم الصلاة والسلام (المرام) خَلقا وخُلقا والكرام على الله تعالى: (البررة) الطاهرين ذاتا وصفة وأفعالا المطيعين لله ﷻ خلقهم الله تعالى: من النور لعبادته ليسوا بناتا لله ﷻ ولا

=

=

أولادا ولا شركاء معه ولا أندادا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علوا كبيرا قال الله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُون لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون وَمَنْ يقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نُجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِين [الأنبياء:٢٦ - ٢٩]، وقال الله تعالى: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُون وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِين مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُون - إلى قوله: - وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومْ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون [الصافات:١٥١ - ١٦٦]، وقال الله تعالى: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِين أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالبَنِين - إلى قوله - وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الذِّينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَنكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُون [الزخرف:١٥ - ١٩]، الآيات. وقال الله تعالى: لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَيَحْشُرُهُمْ إليه جَمِيعا [الأنبياء:١٧٢]، وقال الله تعالى: وَمَنْ عِنْدَهَ لا يَسْتِكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتَرُون [الأنبياء:١٩ - ٢٠]، وقال الله تعالى: الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاع يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيء قَدِير [فاطر:١]، وقال الله تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنَزَّلَ المَلائِكَةَ تَنْزِيلًا المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحْمَن وقال الله تعالى: يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ للمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورا [الفرقان:٢٢]، وقال الله تعالى: إِنَّ الذِّينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون [الأعراف:٢٠٦]، وقال الله تعالى: وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ

=

=

رَبُّكَ نَسِيًا [مريم:٦٤] وقال الله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعًا ثُمَّ يقول للمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُون [سبأ:٤٠] وقال الله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ الله عَدُوٌّ للكَافِرِين [البقرة:٩٨] والآيات في ذكر الملائكة في القرآن كثيرة.

المسألة الثانية: من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الملائكة مخلوقات قائمة بنفسها، خلقها الله ﷻ من نور، وأنها حية ناطقة تنزل وتصعد، وتجيء وتذهب، وتتكلم بتبليغ الوحي، وبغيره.

فهي أعيان مخلوقة موجودة، وليست مجرد أعراض كما زعمت الفلاسفة.

نص الإجماع الذي حكاه شيخ الإسلام: قرر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الملائكة من المخلوقات بقوله: (والملائكة من الأعيان لا من الأعراض، فهي من المخلوقات باتفاق المسلمين، وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون، ولم يجعل أحد منهم المصنوعات نوعين: عالم خلق وعالم أمر، بل الجميع عندهم مخلوق، ومن قال: إن قوله تعالى: أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف: ٥٤] أريد به هذا التقسيم الذي ذكره، فقد خالف إجماع المسلمين).

وبين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه المخلوقات موجودة في الحقيقة، وليسوا مجرد صفات أو أعراض، فقال: (فنقول إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة والجن كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة).

وقرر أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ أن الملائكة أعيان قائمة بنفسها، حية وناطقة، خلافًا للفلاسفة ومن سار على نهجهم ممن يجعل الملائكة أعراضًا تقوم بالنفس، حيث قال: (ومعلوم أن الملائكة الذين وصفهم الله تعالى في الكتاب والسنة لا ينطبقون على هذه العقول العشرة والنفوس التسعة التي يذكرونها، ولهذا يؤول بهم الأمر إلى

=

=

أن يجعلوا الملائكة والشياطين أعراضًا تقوم بالنفس؛ ليست أعيانًا قائمة بنفسها حية ناطقة، ومعلوم بالاضطرار أن هذا خلاف ما أخبرت به الرسل واتفق عليه المسلمون).

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: الملائكة خلق من خلق الله ﷻ؛ خلقهم الله من نور، وعلى هذا تواترت أقوال السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين.

فقد روى الإمام أبو سعيد الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عمرو بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق وما سواه مخلوق...).

وعقد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بابًا بعنوان: (باب ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق، وهو فعل الرب تبارك وتعالى وأمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره وهو الخالق المكون غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه؛ فهو مفعول مخلوق مكون).

وقال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف: ٥٤] قال: (يعني: أن جميع ما في العالم مخلوق له).

فيدخل في ذلك الملائكة بلا شك، إذ ليس هناك نص من القرآن الكريم، ولا من السنة الشريفة يخرج الملائكة عن هذا العموم، بل إن النصوص جاءت مقررة لكون الملائكة عليهم السلام مخلوقون مربوبون...

وقد ذكر الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعاني التي ينتظمها الإيمان بالملائكة، وذكر منها: (إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن).

وهذا ما قرره ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وإن الملائكة حق، وهم خلق من خلق الله ﷻ، مكرمون، كلهم رسل الله، قال الله تعالى: وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ

=

=

بَابٍ [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ [فاطر: ١])

وقال الطوفي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذا الملائكة، فإن الشياطين خلقوا من نار، والملائكة من نور، كما صح في السنة النبوية)

وتواترت أقوال السلف أيضًا على أن الملائكة أحياء عقلاء ناطقون.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء، والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم)

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال بعض السخفاء: إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح. وهذا كذب وقحة وجنون؛ لأن الملائكة بنص القرآن والسنن وإجماع جميع من يقر بالملائكة من أهل الأديان المختلفة عقلًا متعبدون منهيون مأمورون، وليس كذلك الهواء والرياح، لكنها لا تعقل ولا هي متكلفة متعبدة؛ بل هي مسخرة مصرفة لا اختيار لها، قال تعالى: وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ [البقرة: ١٦٤])

ومن المعلوم ضرورة أن الإيمان والعقل والفضل لا يوصف به غير الأحياء، فظهر من كلام العلماء رحمهم الله أنهم مقرون لكون الملائكة من الأحياء.

مستند الإجماع في المسألة: مما يستدل به على أن الملائكة مخلوقة عموم قوله تعالى: اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [غافر: ٦٢].

يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فكل شيء من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك: فالله خلقه)

ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

=

=

سَمَاء أَمْرَهَا [فصلت: ١٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا قال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها، ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها).

ومن الأدلة قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ [الشورى: ٢٩].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ قال: (يدخل في هذا الملائكة والناس).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات؛ على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السماوات والأرض).

ومن أدلة السنة ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم).

فهذا نص صريح صحيح من النبي ﷺ بأن الملائكة مخلوقة، فلم يبق بعد ذلك لمخالف مقال.

أما الأدلة على أن الملائكة متصفون بالكلام فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن المحاورة التي جرت بينه عز وجل وبين ملائكته عليهم السلام فقال تبارك وتعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

=

[البقرة: ٣٠ - ٣٢].

فأثبت الله ﷻ في هذه الآيات أنه كلم الملائكة عليهم السلام وكلموه.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أيضًا أن الملائكة عليهم السلام يكلم بعضهم بعضًا كما في قوله تعالى: حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [سبأ: ٢٣].

وقد ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الآية فيها: (إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ويجابون: قال الْحَقَّ، خلافًا لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب).

وفي هذه الأدلة - التي تثبت صفة الكلام للملائكة عليهم السلام - دلالة أيضًا على أنهم أحياء.

ومما يدل على ذلك أيضًا ما أخبر الله ﷻ عنهم من أنهم يصعدون وينزلون، كما في قوله تعالى: تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ [المعارج: ٤]، وقوله تعالى: تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ [القدر: ٤]. وغير الحي لا يمكن وصفه بذلك.

أما من السنة فقد ثبت أن الملائكة عليهم السلام يتمثلون في صورة البشر، كما في حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بينا نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟...).

ثم قال النبي ﷺ في آخر الحديث: (يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله =

=

ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله ﷻ، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)

وهذا إثبات قاطع على أن الملائكة عليهم السلام أحياء، وأنهم يتكلمون.

فظهر جليًا بما لا يدع مجالًا للشك - بجموع هذه الأدلة - أن الملائكة عليهم السلام خلق من خلق الله ﷻ، وهم أحياء ناطقون.

(فرع): وظائف الملائكة.

الملائكة جند من جنود الله تعالى، أسند الله إليهم كثيرًا من الأعمال الجليلة، والوظائف الكبيرة، وأعطاهم القدرة على تأديتها على أكمل وجه. وهم بحسب ما هيأهم الله تعالى له ووكلهم به على أقسام: فمنهم الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ - عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ - بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) وقد تقدم أنه أفضل الملائكة وأكرمهم على الله، وقد وصفه الله بالقوة والأمانة على تأدية مهمته.

ولم يره النبي ﷺ في صورته التي خُلق عليها إلا مرتين، وبقية الأوقات يأتيه في صورة رجل، رآه مرة بالأفق من ناحية المشرق وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير: ٢٣] (التكوير: ٢٣). ورآه مرة ثانية ليلة الإسراء في السماء وهذا ما أخبر الله عنه بقوله: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاوَى} [النجم: ١٣ - ١٥] (النجم: ١٣ - ١٥).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ عن

=

تفسير الآيتين المتقدمتين فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين. رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بين السماء إلى الأرض».

ومنهم الموكل بالقطر والنبات قيل هو ميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد ورد ذكره في القرآن. قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨] (البقرة: ٩٨) وهو ذو مكانه عالية، ومنزلة رفيعة عند ربه، ولذا خصه الله هنا بالذكر مع جبريل، وعطفهما على الملائكة، مع أنهما من جنسهم لشرفهما، من قبيل عطف الخاص على العام. وكذا ورد ذكره في السنة على ما تقدم في دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل أنه يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل»..). ولذا قال العلماء إن هؤلاء الثلاثة المذكورين هم أفضل الملائكة.

ومنهم الموكل بالصُّور وهو إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ثالث الملائكة المفضلين المتقدم ذكرهم. وهو أحد حملة العرش. والصور: قرن عظيم ينفخ فيه. روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ فقال: قرن ينفخ فيه» وهو حديث ثابت، وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينظر متى يؤمر، قال المسلمون: يا رسول الله فما نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا» وهو حديث صحيح.

وينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات، وقيل نفختان وهو الصواب: نفخة الصعق، ونفخة البعث. قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر:
=

=

٦٨] (الزمر: ٦٨).

ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [السجدة: ١١] (السجدة: ١١).

ولملك الموت أعوان من الملائكة، يأتون العبد بحسب عمله، وإن كان محسنًا ففي أحسن هيئة، وإن كان مسيئًا ففي أشنع هيئة، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١] (الأنعام: ٦١).

ومنهم الموكل بالجبال وهو ملك الجبال، وقد ورد ذكره في حديث خروج النبي ﷺ إلى أهل الطائف في بداية البعثة ودعوته إياهم وعدم استجابتهم له وفيه يقول النبي ﷺ: «فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال. فسلم عليّ ثم قال: يا محمد. فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا». والأخشبان: هما جبلا مكةَ: أبو قبيس والذي يقابله.

ومنهم الملك الموكل بالرحم على ما دل عليه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ وكَّل ملكًا يقول: يا ربِّ! نطفة. يا ربِّ! علقة. يا ربِّ مضغة. فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه».

ومنهم حملة العرش قال تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: ٧] (غافر: ٧).

وقال تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: ١٧] (الحاقة: ١٧).

=

ومنهم خزنة الجنة. قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣] (الزمر: ٧٣). وقال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد: ٢٣] (الرعد: ٢٣).

ومنهم خزنة النار عياذا بالله منها وهم الزبانية ورؤساؤهم تسعة عشر. قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٩] (غافر: ٤٩). وقال تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ - سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق: ١٧ - ١٨] (العلق: ١٧، ١٨). وقال تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ - وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [المدثر: ٣٠ - ٣١] (المدثر: ٣٠، ٣١)، وقال تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [الزخرف: ٧٧] (الزخرف: ٧٧). وقد جاء في السنة ذكر مالك وأنه خازن النار ورؤية النبي ﷺ له، ففي صحيح البخاري من حديث سَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني فقالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل».

ومنهم زوار البيت المعمور: يدخل في كل يوم منهم البيت المعمور سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه على ما ثبت من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (... ثم رفع لي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور. يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم».

ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر فقد روىَ الشيخان من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل

=

الذكر فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»...) قال العلماء: وهؤلاء الملائكة زائدون عن الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق.

وقد ثبت أيضًا أنهم يبلغون النبي ﷺ من أمته السلام لما روى أحمد والنسائي بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله ﷻ ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام».

ومنهم الكرام الكاتبون وعملهم كتابة أعمال الخلق وإحصاؤها عليهم. قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ - كِرَامًا كَاتِبِينَ - يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: ١٠ - ١٢] (الانفطار: ١٠ - ١٢) وقال تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ - مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧ - ١٨] (ق: ١٧، ١٨) قال مجاهد في تفسير الآية: ملك عن يمينه وآخر عن يساره فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

ومنهم الموكلون بفتنة القبر وسؤال العباد في قبورهم وهما مُنْكَر ونَكِير. وقد دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة. أخرج الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة فيراهما جميعًا». وأخرج الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل»...) وهو حديث حسن.

فهؤلاء هم أشهر من جاءت النصوص بذكر وظائفهم وأسمائهم من الملائكة

=

=

ممن يتعين على العبد الإيمان بهم والتصديق بمدلولات النصوص في حقهم والله تعالى أعلم.

المسألة الثالثة: قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (٢/ ٢٣): عند قول الطحاوي (ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين) وهاهنا مسائل

المسألة الأولى: قوله (ونؤمن بالكرام الكاتبين) إلى آخره، أخذه من قول الله - ﷻ - {وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين *يعلمون ما تفعلون} [الانفطار:١٠-١٢]، فوصفهم الله - ﷻ - بأنهم حفظة علينا وبأنهم كرام وبأنهم كتبة، والآيات التي تدل لهذا الأصل متعددة -يأتي بيان بعضها إن شاء الله تعالى- لكن هاهنا على هذه الآية وعلى لفظ الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: وصف الله - ﷻ الملائكة هؤلاء:

الوصف الأول: بأنهم حفظة على ابن آدم.

الوصف الثاني: بأنهم كتبة.

الوصف الثالث: بأنهم يعلمون ما تفعلون.

أما الوصف الأول: وهو أنهم حفظة على ابن آدم ففرق ما بين أن يكون حافظا على ابن آدم وما بين أن يكون حافظا لابن آدم -وسيأتي بيان الفرق في المسائل التي بعدها-، ففي هذه الآية أنهم حفظة على ابن آدم؛ يعني يحفظون على ابن آدم ما يصدر منه.

ثم وصفهم بوصف ثان: أنهم إذا حفظوا على ابن آدم ما صدر منه فإنهم يكتبونه في صحف عندهم بأيدي الملائكة، فملك موكل بكتابة الحسنات والملك الآخر موكل بكتابة السيئات، فإذا الكتابة منقسمة إلى كتابة للحسنات في صحف والكتابة للسيئات في صحف.

=

=

الوصف الثالث: أنه قال {يعلمون ما تفعلون}، والفعل الذي يفعله ابن آدم يكون بقلبه فيشمل أعمال القلوب، ويكون بلسانه ويشمل ما يحرك به لسانه ولو لم ينطق به، ما يعمله بجوارحه المختلفة من الأيدي والأرجل والفرج واللسان إلى آخره، فكل ما يعمله بجوارحه أيضا تعلمه الملائكة، هذه دلالة الآية.

هل يكتب هذا كله؟ ظاهر الآية أن هذا بأجمعه يكتب، وآية سورة (ق) فيها قول الله ﷻ {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق:١٨].

{رقيب} يراقبه، و{عتيد} يعني معد للحفظ عليه ولمراقبته، فكل شيء -يعني مما يلفظه- يعلم فيكتب.

ودلالة آية الانفطار هذه تشمل الأصناف الثلاثة، وهذا هو الصحيح أن الملائكة تكتب أعمال القلوب؛ لأنها أفعال، وتكتب عمل اللسان ونطق اللسان، وتكتب عمل الجوارح؛ وذلك لأن عمل القلب منه ما هو واجب وهو إخلاصه ونيته وتوكله على الله وخوفه ورجاؤه ونحو ذلك، من أعمال القلوب، وهي أعظم العبادات التي يتعبد بها المرء ربه هذه العبادات الجليلة.

ثم من أعمال القلوب ما يكون من باب إتيان السيئات من: الهم، أو إرادة السيئة والعزم عليها، أو من المنهيات من سوء الظن بالمسلم، أو سوء الظن بالله ﷻ، أو نحو ذلك من الكبر إلى آخره من المنهيات، والملائكة يعلمون هذا كله.

وعلمهم به، هل هو لقدرتهم عليه ذاتا؟ أو لأن الله ﷻ أقدرهم عليه لأنهم موكلون بهذا الأمر؟ الظاهر هو الثاني؛ لأن الملائكة ليس لهم سلطان على ابن آدم ولا علم بالغيب، وإنما الله ﷻ أقدر هذا الصنف من الملائكة بخصوصه على الإطلاع لأنهم موكلون بالكتابة، والقلب يحاسب عليه الإنسان واللسان يحاسب عليه وكذلك الجوارح يحاسب عليها.

فإذا كل هذه تكتب وحتى ما يكون من قبيل الهم الذي يهم به الإنسان فإنه يعلم

=

=

ويحفظ، ثم هل يكتب عليه أو يكتب له؟ هذا فيه البحث المعروف لديكم في أن «الله تجاوز لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم» والمقصود بـ (ما حدثت به أنفسها) ما هو من قبيل الهم أو من قبيل الوسوسة أو من قبيل حديث النفس؛ لكن إذا انتقل الهم أو حديث النفس إلى العزم والإرادة على الشر صار مؤاخذا عليه، إذا انتقل حديث النفس أو الهم هذا إلى شرف المكان وهو مكة فإنه يؤاخذ عليه في قول بعض أهل العلم وهكذا.

فإذا {يعلمون ما تفعلون} هذه عامة يمكن أن يستثنى منها ما تجاوز الله ﷻ لهذه الأمة عنه والباقي على عمومه، وهذا مما يعظم الخوف من حركات العبد وفي قلبه ولسانه وجوارحه، ويعظم عند العبد المؤمن شأن الاستغفار فإذا كان النبي ﷺ يحسب له في المجلس الواحد أنه يستغفر ويتوب إلى الله مائة مرة؛ لأجل عظم ما يفعله وما تعلمه الملائكة، فإن أشباهنا أعظم وأعظم وأعظم حاجة إلى كثرة الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ﷻ.

المسألة الثانية: كثير من العلماء عند هذه المسألة -عند ذكر الكرام الكاتبين وعند الآية- يجعلون الكتبة والحفظة شيئا واحدا، فيجعلون الجميع أربعة ملائكة منهم اثنان للكتابة، واثنان للحفظ، وهذا درج عليه كثير من العلماء في شروحهم حتى شارح الطحاوية عندكم نسج على هذا المنوال.

وهذا الأمر يحتاج إلى نظر وجمع للنصوص والأحاديث حتى تنظر في دلالتها، والذي يظهر لي بنوع من التأمل وليس ببحث مستفيض أن الملائكة الكتبة غير الحفظة، فالحفظة يحفظون الإنسان، وأما الكتبة فإنهم يحفظون عليه.

الحفظة هم المعقبات الذين ذكرهم الله ﷻ في قوله في سورة الرعد {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} [الرعد:١١]، أوجه التفاسير فيها أن معنى {يحفظونه من أمر الله} يعني يحفظونه بأمر الله؛ يعني يحفظونه

=

=

وحفظهم له بأمر الله لهم أن يحفظوه، وفيه -يعني في الحفظة- قوله ﷺ «يتعاقبون فيكم ملائكة أربعة بالليل وأربعة بالنهار فيجتمعون» إلى أخر الحديث «فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: آتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون» وهذا الحديث يدل على أن الحفظة هؤلاء يتعاقبون، منهم من يحفظ بالليل ومنهم من يحفظ بالنهار، وأن هؤلاء يلتقون في وقت الصلاة، يعني في هذا الوقت من اليوم ثم يفارقون العبد، وهذا خلاف ما دلت عليه الآية الأخرى والأحاديث في وصف الملائكة الكتبة في أنهم لا يغادرون ابن آدم ولا يفارقونه على أي حال كان فيها حاشا الجنابة.

فإذا نقول: الذي يظهر من الأدلة التفريق في الحفظ ما بين الحفظ لابن آدم والحفظ عليه، فحفظ ابن آدم هذا عمل الملائكة الذين يتعاقبون؛ المعقبات، وأما الحفظ عليه فهذا عمل الكتبة.

والكتبة اثنان: أحدهما يكتب الحسنات والآخر يكتب السيئات، وأما الحفظة: فكما قال النبي ﷺ إنهم أربعة يتعاقبون في الليل والنهار.

المسألة الثالثة: الإيمان بالكتبة يقتضي الإيمان بأنهم يكتبون؛ لأن أصل المسألة الإيمان بالملائكة الكتبة، ويقتضي ذلك الإيمان بأنهم يكتبون في صحف، وقد جاءت الأدلة في السنة أن منهم من يكتب الحسنات ومنهم من يكتب السيئات، وربما تنازعوا في كتابة بعض الأشياء فيحكم الله ﷻ بينهم، والكتابة هذه في صحف الملائكة هذه هي التي تجمع على العبد، وهي كتابه الذي يجمع معه في عنقه إذا أدخل القبر، وهو الذي جاء فيه قول الله ﷻ {اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا} [الإسراء:١٤]، وهي الصحف التي يحاسب الله ﷻ العبد بها فيقرره على ما فيها من أعمال، وفيه أنه يسألهم ربنا ﷻ هل ظلمكم ملائكتي؟ فيقولون لا يا رب، يعني بعد أن يحاسبهم الرب جل جلاله.

=

=

وإذا كان كذلك فإن مقتضى الإيمان بالكتابة وأن الإنسان على ما في قلبه يكتب له أو عليه، وحركة لسانه يكتب له أو عليه، وحركة جوارحه يكتب له أو عليه، فإن عظم الإيمان بهذا الأصل يطلب العبد إلى أن يجعل صحائفه ليس فيها إلا الخير، وإذا عمل شيئا من السوء فليعظم الحسنات الماحية وليعظم الاستغفار الذي يمحو الله ﷻ به السيئات، ولهذا صار من نتائج الاعتقاد الصحيح أن العبد يكون أذل ما يكون لله ﷻ، فأصحاب العقيدة الحقة يذلون لله ﷻ حتى ولو عصوا أو صار عندهم ما صار فإنهم أكثر ذلا لله ﷻ؛ لأن عندهم من الإيمان بالغيبيات واليوم الآخر وبالكتابة وبمعرفة الله ﷻ والعلم به وصفاته وما هو عليه جل جلاله من نعوت الجلال والكمال ما يوجب عليهم قسرا أن لا يكون في قلوبهم إعراض أو كبر أو طاعة للشيطان في البعد عن ربهم جل جلاله.

ولهذا الوصية للجميع أنهم إذا علموا العقيدة فإنهم يعلمونها لأن صلاح القلب به تصلح الأعمال، وهذا واقع، وأما أهل الكلام وأهل البدع فإنهم يعلمون مسائل الاعتقاد كمسائل عقلية، مسائل عقلية ينظرون إليها نظرا عقليا برهانيا، عقليا أو نقليا دون نظر في آثار ذلك، ولهذا تجد فيهم من قسوة القلوب ومن قلة العبادة، وترك التواضع، والكبر إلى آخره من الصفات المذمومة ما فيهم، بخلاف أهل الحق من أهل السنة والحديث والعبادة، فإنهم ألين قلوبا لأجل ما معهم من العلم بالله ﷻ، وأكثر تواضعا للخلق، ونفع للعباد وخوف من الله ﷻ، لأجل صحة العقيدة أثمرت في قلوبهم وفي أعمالهم ا.هـ من شرح الطحاوية.

المسألة الرابعة: هل تكتب الحفظة ما لا ثواب فيه، ولا عقاب.

قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٤٢٨): اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائز الذي لا ثواب ولا عقاب عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أو لا؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأنين في المرض، وهذا هو ظاهر قوله:

=

=

{ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}؛ لأن قوله: من قول نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة من، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلا، وبعضهم يقولون: يكتب أولا ثم يمحى. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشآء ويثبت}.

والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتا محذوفا سوغ حذفه العلم به، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء، وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه أسلوب عربي معروف ا.هـ

المسألة الخامسة: عدد الملائكة مع كل شخص.

الملائكة الكرام يصحبون بني آدم من يوم تكوينهم في بطون أمهاتهم حتى نزع أرواحهم من أجسادهم يوم موتهم، وهم أيضا يصحبونهم في قبورهم وفي الآخرة.

أما صحبتهم له في الدنيا فتكون كما يلي:

أولا: يقومون عليه عند خلقه: فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (وكل الله بالرحم ملكا، فيقول أي رب نطفة؟ أي رب علقة؟ أي رب مضغة ؟ فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال أي رب ذكر أم أنثى ؟ أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه).

ثانيا: حراستهم لابن آدم: قال تعالى {سوآء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ❋ له معقبات من بين يديه ومن خلفه

=

=

يحفظونه من أمر الله} [الرعد/ ١٠-١١]، وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه، فإذا جاء قدر الله - الذي قدر عليه أن يقع به من حادث ومصاب ونحوه - تخلوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال رجل لعلي بن أبي طالب إن نفرا من مراد يريدون قتلك، فقال - أي: علي -: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة.

والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى {وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون} فالحفظة الذي يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له.

قال البغوي في التفسير: يحفظونه من أمر الله، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجئ المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه. وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه. وقال القرطبي في التفسير: اختلف في هذا الحفظ، فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفا منه به، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبينه، قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي فقال: احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة، وعلى هذا، (يحفظونه من أمر الله) أي بأمر الله وبإذنه، فـ (من)

=

=

بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقيل (من) بمعنى (عن)، أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول، أي حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم، وهذا قول الحسن، تقول: كسوته عن عري ومن عري، ومنه قوله ﷻ: أطعمهم من جوع {قريش: ٤} أي عن جوع، وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحل به عقوبة، لأن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإن أصروا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النقمة، وتزول عنهم الحفظة المعقبات. وقيل: يحفظونه من الجن، قال كعب: لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن.

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٥٣): وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان أحدهما حفظه له في مصالح دنياه كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله قال الله ﷻ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله قال ابن عباس هم الملائكة يحفظونه بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه وقال علي رضي الله عنه إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة وقال مجاهد ما من عبد إلا وله ملك يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه إلا قال له وراءك إلا شيئا أذن الله فيه فيصيبه.

ثالثا: الملائكة الذين يكتبون الحسنات والسيئات: ما من أحد من الناس إلا وله ملكان يكتبان أعماله من الخير والشر من صغير أو كبير، قال تعالى: {وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين، يعلمون ما تفعلون} [الانفطار/ ١٠ -١٢].

وقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من

=

=

قول إلا لديه رقيب عتيد} [ق/ ١٦-١٨]، ويكتب صاحب اليمين الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات.

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كتبت واحدة).

وإذا علمنا هذا تبين أن عدد الذين يصحبون ابن آدم بعد ولادته: أربعة ملائكة.

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٤): وقوله: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله} أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل.

المسألة السادسة: كيف تعلم الملائكة ما في قلب الإنسان؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه ﷻ قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة).

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٢٥):"وفيه دليل على أن الملك يطلع على ما في قلب الآدمي؛ إما بإطلاع الله إياه، أو بأن يخلق له علما يدرك به ذلك.

ويؤيد الأول ما أخرجه بن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني، قال: ينادى الملك

=

=

اكتب لفلان كذا وكذا، فيقول يا رب: إنه لم يعمله، فيقول: إنه نواه.

وقيل: بل يجد الملك للهم بالسيئة رائحة خبيثة، وبالحسنة رائحة طيبة وأخرج، ذلك الطبري عن أبي معشر المدني، وجاء مثله عن سفيان بن عيينة " ا.هـ

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٣) عن قوله ﷺ: (إذا هم العبد بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة.... الحديث) فإذا كان الهم سرا بين العبد وبين ربه فكيف تطلع الملائكة عليه ؟

فأجاب: " الحمد لله، قد روي عن سفيان بن عيينة في جواب هذه المسألة، قال: إنه إذا هم بحسنة شم الملك رائحة طيبة، وإذا هم بسيئة شم رائحة خبيثة، والتحقيق: أن الله قادر أن يعلم الملائكة بما في نفس العبد كيف شاء، كما هو قادر على أن يطلع بعض البشر على ما في الإنسان، فإذا كان بعض البشر قد يجعل الله له من الكشف ما يعلم به أحيانا ما في قلب الإنسان: فالملك الموكل بالعبد أولى بأن يعرفه الله ذلك، وقد قيل في قوله تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [ق:١٦].

أن المراد به الملائكة، والله قد جعل الملائكة تلقي في نفس العبد الخواطر، كما قال عبد الله بن مسعود: إن للملك لمة (وللشيطان لمة) فلمة الملك تصديق بالحق ووعد بالخير، ولمة الشيطان تكذيب بالحق وإيعاد بالشر، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وأنا؛ إلا أن الله قد أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير.

فالسيئة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الشيطان: علم بها الشيطان، والحسنة التي يهم بها العبد إذا كانت من إلقاء الملك، علم بها الملك أيضا بطريق الأولى، وإذا علم بها هذا الملك أمكن علم الملائكة الحفظة لأعمال بني آدم. " انتهى.

=

=

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضا في مجموع الفتاوى (٥/ ٥٠٨): " وهم وإن شموا رائحة طيبة ورائحة خبيثة، فعلمهم لا يفتقر إلى ذلك، بل ما فى قلب ابن آدم يعلمونه، بل ويبصرونه ويسمعون وسوسة نفسه، بل الشيطان يلتقم قلبه؛ فاذا ذكر الله خنس، وإذا غفل قلبه عن ذكره وسوس، ويعلم هل ذكر الله أم غفل عن ذكره، ويعلم ما تهواه نفسه من شهوات الغى فيزينها له، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى فى حديث ذكر صفية رضى الله عنها (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم) وقرب الملائكة والشيطان من قلب ابن آدم مما تواترت به الآثار، سواء كان العبد مؤمنا أو كافرا " انتهى.

وسئل العلامة ابن باز كما في مجموع فتاواه (٩/ ٣٧٠): إذا نويت عمل خير في قلبي هل يعلم به الشيطان ويحاول صرفي عنه؟

فأجاب:... وكل إنسان معه شيطان ومعه ملك ، كما قال النبي ﷺ: « ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وأخبر ﷺ أن الشيطان يملي على الإنسان الشر ويدعوه إلى الشر وله لمة في قلبه وله اطلاع بتقدير الله على ما يريده العبد وينويه من أعمال الخير والشر ، والملك كذلك له لمة بقلبه يملي عليه الخير ويدعوه إلى الخير فهذه أشياء مكنهم الله منها: أي مكن القرينين القرين من الجن والقرين من الملائكة ، وحتى النبي ﷺ معه شيطان وهو القرين من الجن كما تقدم وهو الحديث بذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: « ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال: وأنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » والمقصود أن كل إنسان معه قرين من الملائكة وقرين من الشياطين ، فالمؤمن يقهر شيطانه بطاعة الله والاستقامة على دينه ، ويذل شيطانه حتى يكون ضعيفا لا يستطيع أن يمنع

=

=

المؤمن من الخير ولا أن يوقعه في الشر إلا ما شاء الله ، والعاصي بمعاصيه وسيئاته يعين شيطانه حتى يقوى على مساعدته على الباطل ، وتشجيعه على الباطل ، وعلى تثبيطه عن الخير. فعلى المؤمن أن يتقي الله وأن يحرص على جهاد شيطانه بطاعة الله ورسوله والتعوذ بالله من الشيطان ، وعلى أن يحرص في مساعدة ملكه على طاعة الله ورسوله والقيام بأوامر الله سبحانه وتعالى ا.هـ

المسألة السابعة: هل الملائكة ذكور؟

قال كثير من العلماء الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ومن قال هم إناث فقد كفر لمخالفته كتاب الله، ولا يقال إنهم ذكور؛ إذ لم يرد في ذلك نص صحيح.

وقد سئل العلامة العثيمين كما في لقاءات الباب المفتوح: هل الملائكة فيهم ذكور وإناث أم ذكور فقط، أم إناث فقط؟

فأجاب: هناك قاعدة للمؤمن الذي يريد أن يرتاح ويريح، ويتأدب مع الله ورسوله ألا يسأل عن شيء من أمور الغيب، نؤمن بها كما جاءت، ولذلك لو كان هذا السؤال فيه خير لكان أول من يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وإن شاء الله سؤالك جيد؛ لأننا استفدنا هذه النصيحة، إن أمور الغيب لا تسأل عنها، لما قال رجلٌ للإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:٥] غضب، كيف تسأل كيف استوى؟ وقال له: ما أراك إلا مبتدعًا، وأمر به أن يخرج من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام من المسجد النبوي.

وأما العلامة ابن باز فسئل كما في فتاواه (٨/ ٤٢٣): نقرأ ونسمع كثيرا من عامة الناس وكتابهم وشعرائهم من يصف في كتابه أو شعره الممرضات بأنهن ملائكة الرحمة؟ هل يجوز ذلك؟.

فأجاب: هذا الوصف لا يجوز إطلاقه على الممرضات، لأن الملائكة ذكور وليسوا إناثا، وقد أنكر الله سبحانه على المشركين وصفهم الملائكة بالأنوثة،

=

ولأن ملائكة الرحمة لهم وصف خاص لا ينطبق على الممرضات ولأن الممرضات فيهن الطيب والخبيث ، فلا يجوز إطلاق هذا الوصف عليهن. والله الموفق ا. هـ

ولعل مستند العلامة ابن باز في ذلك بعض سياقات الأدلة من القرآن والسنة فجبريل عليه السلام لما قدم إلى نبينا محمد ﷺ وضيوف ابراهيم والملائكة في بدر وغيرها من الغزوات كلهم على صفة ذكور. ا.هـ

وقد يقال هذه الفتوى ليست صريحة في المطلوب لأن الفتوى ليست في الموضوع، لأن السؤال الذي ورد للشيخ لم يكن هل الملائكة ذكور أو إناث، بل كان عن حكم وصف الممرضات بملائكة الرحمة، فليست الفتوى اصيلة في الموضوع.

وهناك قدر مشترك لاخلاف فيه، أن وصف الملك (المفرد) لا يجوز بوصف التأنيث، لنص القرآن، أما الجمع فذكرهم بالتأنيث في الفعل غير حقيقي، فيجوز فيه التذكير والتأنيث للتكسير في جمعه، مالم يكن متقدما على الفعل فيجب التأنيث، فتقول (نزل الملائكة، ونزلت الملائكة) وتقول (الملائكة نزلت)، فمثله كـ (قال نسوة) و (قالت الأعراب) ونظائره في القران وفصيح العرب كثيرة جدا.

واللغويون وعلماء الكلام وغيرهم يذكرون نفس الكلام عن الباري تعالى، إنه لا يجوز وصفه بالتأنيث، ولا الإشارة إليه بضمير المؤنث، ولا يلزم من ذلك بمفهوم المخالفة شيء.

فالوصف بالذكورية من حيث الاستخدام اللغوي صحيح، فيقال (هذا ملك) و (نزل الملك)، ولا يجوز ـ شرعا ـ أن يقال (هذه ملك) و (نزلت الملك).

واستخدام مفهوم المخالفة في نحو ذلك خطأ لوجوه:

=

منها أن مفهوم المخالفة نفسه ليس حجة في كل الموارد، والموارد التي يجوز الاستدلال به فيها متفاوتة في القوة.

ومنها أن المورد المفروض هنا ليس من موارد مفهوم المخالفة، لكونه غيبيا محضا، وافتراض إعمال مفهوم المخالفة قائم على قسمة عقلية حاصرة، وهي هنا غير موجودة، لأن الحصر العقلي في التقسيم لا يكون إلا بنص، أو استقراء تام، وكلاهما هنا معدوم، فالمسألة برمتها غيبية.

ومنها أن الحكم بالذكورة والأنوثة الحقيقية عند علماء العربية هو بأن يلد الموصوف بالأنوثة أو يبيض، وهذا ليس في الملائكة، ولم يرد في الشرع أنهم يتكاثرون أصلا، بل ورد أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأنهم يسبحون الليل والنهار.

والاستدلال بقوله تعالى (ومن كل شيء خلقنا زوجين) لإفادة القسمة الحاصرة، والاستدلال منها على كون الملائكة ذكورا، لا يسلم.

لأنه يرد عليه أن الكلية في الآية أغلبية لا مطلقة، ونظائرها كثيرة في القرآن، ويرد عليه أن المراد بالزوجية ما هو أعم من الذكورة والأنوثة كما يذكر المحققون من أهل العلم، فالزوجية حاصلة بين السماء والأرض، والحلو والحامض والمر والتافه ونحو ذلك، ولا شيء مما سبق ذكر أو أنثى.

وأخيرا فرفع الذكورة والأنوثة عن الملائكة لو سلم تنزلا بالقسمة الحاصرة بين الذكورة والأنوثة لا شيء فيها، لأن وصف الذكورة والأنوثة من قبيل الملكة والعدم، فرفعهما عن المحل غير القابل لهما لا محظور فيه، فيجوز أن يقال الحجر ليس ذكرا ولا أنثى، ولو قال قائل الحجر ليس ذكرا، لم يجز لقائل أن يقول هو أنثى بمفهوم المخالفة.

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (له معقبات من بين يديه ومن خلفه

=

يحفظونه من أمر الله) قوله تعالى: " له معقبات " أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. وقال: " معقبات " والملائكة ذكران لأنه جمع معقبة.

وقال ابن كثير: وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى " وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم" قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال " ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة " قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة" ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون". وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم ولم يعقب ابن كثير على قوله أنهم ذكور بل تعقبه في تفسيره للآية ا.هـ

وقال الإمام البخاري في صحيحه (١١/ ٣٣-فتح): (باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال) حدثنا ابن مقاتل، أخبرنا عبد الله، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ (يا عائشة، هذا جبريل يقرأ عليك السلام». قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا نرى. تريد رسول الله ﷺ).

المسألة الثامنة: هل الملائكة يموتون؟

=

ورد في الحديث عند البخاري (٧٣٨٣) ومسلم (٢٧١٧) عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٩).: هل جميع الخلق حتى الملائكة يموتون؟

فأجاب: " الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى ملك الموت، وروي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، والمسلمون واليهود والنصارى متفقون على إمكان ذلك وقدرة الله عليه، وإنما يخالف في ذلك طوائف من المتفلسفة أتباع أرسطو وأمثالهم، ومن دخل معهم من المنتسبين إلى الإسلام أو اليهود والنصارى، كأصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم ممن زعم أن الملائكة هي العقول والنفوس، وأنه لا يمكن موتها بحال، بل هي عندهم آلهة وأرباب لهذا العالم.

والقرآن وسائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون كما قال سبحانه (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا)، وقال تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، وقال: (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى).

والله سبحانه قادر على أن يميتهم ثم يحييهم، كما هو قادر على إماتة البشر والجن ثم إحيائهم، وقد قال سبحانه (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ من غير وجه، وعن غير واحد من الصحابة أنه قال: (إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة مثل الغشي) وفي رواية

=

=

(إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا) وفي رواية (سمعت الملائكة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فإذا فزع عن قلوبهم) أي أزيل الفزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق فينادون الحق الحق).

فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعق الغشي، فإذا جاز عليهم صعق الغشي جاز صعق الموت وأما الاستثناء [أي قوله سبحانه: إلا من شاء الله] فهو متناول لمن دخل في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي قال (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى آخذا بساق العرش فلا أدرى هل أفاق قبلي أم كان ممن استثناه الله)...؛ فإذا كان النبي ﷺ لم يخبر بكل من استثنى الله لم يمكنا نحن أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بوقت الساعة وأعيان الأنبياء، وأمثال مما لم يخبر به، وهذا العلم لا ينال إلا بالخبر، والله أعلم.

المسألة التاسعة: في مصير الملكين الموكلين بكتابة أعمال الإنسان بعد وفاته.

روي في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وكل بالمؤمن ملكان يكتبان عمله ويحفظان عليه، فإذا مات ووضع في قبره قالوا: سبحانك وكلتنا بعبدك هذا نحفظ عليه عمله وقد قبضته، فائذن لنا فلنصعد إلى السماء فنسبحك، فيقول ﷻ: سمائي مملوءة من ملائكتي، فيقولان: فائذن لنا فلنكن في الأرض، فيقول ﷻ: أرضي مملوءة من خلقي، ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وهللاني، واكتبا ذلك لعبدي حتى يبعث) ولكنه حديث موضوع.

وقد سئل علماء اللجنة الدائمة (٢/ ٤٠٢): أفتونا عن الملائكة الموكلين بالإنسان لإحصاء أعماله في مدة الحياة عندما يموت الإنسان، هل يموت

=

=

الملكان الموكلان به أو أين يكون مصيرهما بعد وفاة الإنسان؟

فأجابوا: أحوال الملائكة وشؤونهم من الغيبيات، ولا تعرف إلا من قبل السمع - الكتاب والسنة-، ولم يرد نص في موت كتبة الحسنات والسيئات عند موت من تولوا كتابة حسناته وسيئاته، ولا نص ببقاء حياتهم ولا عن مصيرهم، وذلك إلى الله، وليس ما سئل عنه مما كلفنا اعتقاده، ولا يتعلق به عمل، فالسؤال عن ذلك دخول فيما لا يعني؛ لذا ننصح السائل أن لا يدخل فيما لا يعنيه، ويبذل جهده في السؤال عما يعود عليه وعلى المسلمين بالنفع في دينهم ودنياهم ا.هـ

المسألة العاشرة: هل ثبت شئ في الملائكة الكروبيون شئ؟

أن ما يطلق عليه "الملائكة الكروبيون" ليس له أصل في الأحاديث النبوية الصحيحة -فيما نعلم - وغاية ما جاء ذكرهم فيه: أحاديث ضعيفة جدا، وموضوعة، وآثار عن السلف، وطائفة من المفسرين، وقد ذكر بعض العلماء أن الكروبيين هم:

من يكونون حول عرش الرحمن، أو هم حملة العرش أنفسهم.

وقال آخرون: هم سادة الملائكة وعظماؤهم.

وقال فريق ثالث: هم ملائكة العذاب.

قال الآلوسي في روح المعاني (١٣/ ٧٠): يقال لحَمَلَة العرش والحافِّيْن به: الكَرُوْبِيُّون، جمع كَرُوْبِي، بفتح الكاف وضم الراء المهملة المُخَفَّفَة وتشديدها خطأ، ثم واو بعدها باء موحَّدة ثم ياء مشددة، من (كرب) بمعنى قرب وقد توقَّف بعضهم في سماعه من العرب، وأثبته أبو علي الفارسي، واستشهد له بقوله:

كَرُوْبِيَّةٌ مِنْهُمْ رُكُوْعٌ وَسُجَّدُ

وفيه دلالة على المبالغة في القُرْب لصيغة فَعُوْل والياء التي تُزَاد للمبالغة.

=

=

وقيل من (الكَرْب) بمعنى الشدَّة والحزن، وكأن وصفهم بذلك لأنهم أشد الملائكة خوفًا.

وزعم بعضهم أن الكروبيين حملة العرش، وأنهم أول الملائكة وجودًا، ومثله لا يُعْرف إلا بسماع.

وعن البيهقي أنهم ملائكة العذاب، وكأن ذلك إطلاق آخر من الكرب بمعنى الشدَّة والحزن) انتهى.

والمعروف أن الكروبيين هم المُقَرَّبُوْن من الملائكة، قال الخطابي رحمه الله تعالى في غريب الحديث (١/ ٤٤٠): الملائكة الكَرُوبيّون، وهم المُقَرّبون وقال بعضهم إنما سُمُّوا (كَرُوبيين) لأنهم يُدْخِلون الكَرْب على الكفار، وليس هذا بشيء ا.هـ

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٦١): في حديث أبي العالية: (الكروبيون سادة الملائكة) هم المقربون، ويقال لكل حيوانٍ وَثِيْقِ المفاصل إنه لمُكْرَب الخَلْق، إذا كان شديد القُوَى والأول أشبه ا.هـ

والأمر من الغيب الذي لا يجوز إثباته إلا بوحي من الله، ولم يثبت في ذلك شيء.

وقد سئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ٥٠): من هم الملائكة الكروبيون؟

فأجاب: لم يثبت فيما علمتُ حديث فيه ذكر هذا الاسم للملائكة، الملائكة الكروبيون والحقيقة أن هذا الاسم منذ نحو ثلاثين سنة لم يكن مر بي في الأحاديث التي كنت قرأتها في مئات إن لم أقل ألوف الكتب أكثرها مخطوطة حتى سمعت هذا الاسم في منى في موسم من مواسم الحج، كنت جالسا في ليلةٍ هادئةٍ وجميلةٍ من أيام منى أتحدث مع بعض إخواننا من أنصار السنة المصريين والسوريين وغيرهم، لما دخل علينا شيخ سمته لا بأس به سلم وجلس واستمع

=

وبعد أن توقفت قليلًا عن الكلام دخل هو في الموضوع يتكلم، تبين من كلامه أنه من الذين درسوا في الأزهر ويحملون في طوايا نفوسهم بغضًا للدعوة السلفية أو دعوة التوحيد وأنه متأثر ببعض الدعاوى الكاذبة التي تنسب إلى جماعة التوحيد في كل بلاد الإسلام سواء كان هنا أو في مصر أو في سوريا أو في غير مكان، وإذا به يتهجم ويقول أن دعوة الوهابيين بهذا الاسم دعوة جيدة، ولكنهم يشبهون الله بالمخلوقات.

فسألته: كيف ذلك؟

قال: إنهم يقولون بأن الله ﷻ - سبحان الله يخطِّئ القرآن وهو لا يشعر - قال: يقولون بأن الله على العرش استوى، فقلت له: هل هذا قولهم؟ أم قول رب العالمين؟ استدرك فقال يعني هو بأنهم يفسرون هذه الآية بمعنى، يفسرون الآية بمعنى أن الله قاعد على عرشه، قلت له: يا أخي... الخلاف بينهم وبين مخالفيهم ليس في تشبيه رب العالمين بالمخلوقين فهذا باطل بالاتفاق، وإنما الخلاف هل يصح تأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء أم الصحيح أن الاستواء هو الاستعلاء ودخلت في هذا الموضوع طويلًا، وأمر طبيعي جدًّا أن خلاصة العقيدة السلفية في هذه الجزئية أن لله صفة الفوقية، فهو تمسك بهذه وقال: هل من المعقول أن الله ﷻ يكون فوق العرش، معنى ذلك أننا وضعناه في مكان، قلت له: لا، هذا وهم منكم ونحن نتبرأ من عقيدة تجعل الله ﷻ محصور في مكان وهو العلي الكبير، ثم بدأت المناقشة معه بطريقة خاصة قلت له: هل أنت معي في أن الله كان ولا شيء معه؟

قال: طبعًا

قلتُ: حين كان الله فهل كان هناك عرش؟

قال: لا

=

إذن كان الله ولا شيء معه ثم خلق العرش

قال: نعم

تسلسلت معه فقلت له: نحن الآن في الأرض فما الذي فوقنا؟

قال: السماء الدنيا ثم؟

الثانية، إلى أن وصلنا إلى السابعة، قلت: ماذا فوق السابعة؟

قال: العرش

قلتُ - وهنا الشاهد - وماذا فوق العرش؟

قال: الملائكة الكروبيون

لأول مرة أسمع هذا الاسم منذ نحو ثلاثين سنة، قلت: ما هذا؟ الملائكة الكروبيون فوق العرش؟ نحن نعرف أن الذي فوق العرش هو خالق العرش بدليل الآية السابقة وتأويل السلف لها بأنه على العرش استوى أي استعلى، وكما قال المعتبرين في هذه المسألة:

ورب العرش فوق العرش لكن بلا وصف التمكن واتصال

فالله غني عن العالمين، لكن أنا أسمع لأول مرة أن الذي فوق العرش هم الملائكة الكروبيون، هل عندك آية في إثبات أولا: أن هناك ملائكة يسمون بالملائكة الكروبيون؟

قال: لا

قلت: طيب، هل عندك حديث في أنه جاء ذكرهم فيه بهذه التسمية؟

قال: لا

قلت: فإذن من أين جئت بهذه العقيدة أن فوق العرش ملائكة كروبيون

قال: هكذا درسونا مشايخنا في الأزهر الشريف

قلت: يا عجبا، أنا أعلم أن علماء الأزهر يقررون على الطلبة في دروسهم ما

=

=

يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه يقولون لهم: أحاديث الآحاد الصحيحة لا تثبت بها عقيدة، فكيف لقنوكم عقيدة ليست مذكورة لا في القرآن ولا في السنة؟ كيف اعتقدتم؟

فبهت الرجل، ثم تابعتُ الكلام، قلت له: هب أن فوق العرش أولئك الملائكة المسمون عندكم بالكروبيون، فماذا فوقهم، وقف الرجل، وقف حيران، وقد كنت قدمت معه كان الله ولا شيء معه، وكان مشتق من كن فيكون فلم يكن شيء هناك فقال الله لخلقه كن فكان، فإذا انتهى أن ما وصلنا إلى العرش وبزعمك أن فوق العرش أولئك الملائكة؛ فماذا فوق هؤلاء الملائكة، أعدم أم وجود؟

قال: لا، عدم، لأنا كنا اتفقنا أن لا شيء قبل أن يخلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض، كان الله ولا شيء معه، إذن فقبل أن يخلق الله شيئا لم يكن هناك شيء، فإذا انتهى بك العلم إلى أن فوق العرش الملائكة الكروبيون ولا شيء وراء ذلك من كون لأنه انتهى الخلق فإذا قال السلفيون بأن الله تبارك وتعالى على العرش استوى أي استعلى، فلماذا تنسبونهم إلى أنهم حصروا الله ﷻ في كونه ولا كون هناك لأن الكون محصور ومحدود وفي رأينا آخر الكون وأعلاه العرش، في رأيك أنت العرش وعليه الكروبيون ولا شيء بعد ذلك، فإذن العقيدة الصحيحة عقلًا ونقلًا إنما هي عقيدة السلف الصالح؛ لأنهم لم يجعلوا الله في مكان كما تزعمون؛ لأنه لا مكان هناك وراء العرش إنما هو العدم المحض إلا الله تبارك وتعالى، ولكن ما بالكم أنتم أنكم حينما فررتم مما نسبتم السلفيين إليه وهم براء منه فإن الله ليس في مكان لأن ما بعد العرش ليس كونًا وليس مكانًا فهو على العرش استوى، لكن ما بالكم أنتم تفرون من إثبات هذه الصفة لله تبارك وتعالى وهي صفة التنزيه تمامًا؛ لأنه ليس في الكون، فكيف وأنتم

=

تقولون إن الله في كل مكان تحصرونه في كونه الذي خلقه بعد أن لم يكن له وجود، فأنتم المشبهة وأنتم المجسمة، ولسنا نحن معشر السلفيين إلا القائلون بما قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِير} [الشورى:١١] وعلى أساس من هذه الآية بطرفيها ننزهه تعالى تنزيهًا كاملًا ونثبت له الصفات كما يليق بعظمته وجلاله.

المسألة الحادية عشر: حكم الاستهزاء بالملائكة.

الواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، فلا يتكلم بما يغضب الله تعالى، ورب كلمة يتكلم بها الإنسان، وهو لا يظن أن لها شأنا، تكون سبب هلاكه وعذابه، والعياذ بالله.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق).

وقد ذكر أهل العلم أن الاستهزاء بالملائكة أو بأحد منهم كفر، وخروج عن الإسلام واستدلوا بقول الله ﷻ: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) التوبة:٦٥ - ٦٦.

قال ابن حزم في "الفصل في الملل والأهواء والنحل" (٣/ ١٤٢): " وصح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى، أو بملك من الملائكة، أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام، أو بآية من القرآن، أو بفريضة من فرائض الدين، فهي كلها آيات الله تعالى، بعد بلوغ الحجة إليه، فهو كافر " انتهى.

وقال في "المحلى" (١١/ ٤١٣): " كل من سب الله تعالى أو استهزأ به، أو سب ملكا من الملائكة أو استهزأ به، أو سب نبيا من الأنبياء أو استهزأ به، أو سب آية من آيات الله تعالى أو استهزأ بها، والشرائع كلها والقرآن من آيات الله تعالى، فهو

=

بذلك كافر، مرتد، له حكم المرتد " انتهى.

وقال ابن نجيم في "البحر الرائق" (٥/ ١٣١): " يكفر بعيبه ملكا من الملائكة أو الاستخفاف به " انتهى.

بل ذكر بعض العلماء أنه يكفر من تكلم بما فيه مجرد إشعار بالاستهزاء والسخرية

قال ابن نجيم الحنفي: "ويكفر بقوله لغيره: " رؤيتي إياك كرؤية ملك الموت " عند البعض، خلافا للأكثر " انتهى.

المسألة الثانية عشر: ما الحكمة من إيجاد الكرام الكاتبين مع أن الله يعلم كل شيء؟

قال العلامة العثيمين في مجموع فتاواه (١/ ١٢١): " نقول في مثل هذه الأمور إننا قد ندرك حكمتها، وقد لا ندرك، فإن كثيرا من الأشياء لا نعلم حكمتها، كما قال الله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الإسراء/ ٨٥. فإن هذه المخلوقات لو سألنا سائل ما الحكمة أن الله جعل الإبل على هذا الوجه، وجعل الخيل على هذا الوجه، وجعل الحمير على هذا الوجه، وجعل الآدمي على هذا الوجه ؟ وما أشبه ذلك، لو سألنا عن الحكمة في هذه الأمور ما علمناها، ولو سئلنا ما الحكمة في أن الله ﷻ جعل صلاة الظهر أربعا، وصلاة العصر أربعا، والمغرب ثلاثا، وصلاة العشاء أربعا ؟ وما أشبه ذلك ما استطعنا أن نعلم الحكمة في ذلك.

وبهذا علمنا أن كثيرا من الأمور الكونية، وكثيرا من الأمور الشرعية تخفى علينا حكمتها، وإذا كان كذلك فإنا نقول إن التماسنا للحكمة في بعض الأشياء المخلوقة أو المشروعة، إن من الله علينا بالوصول إليها فذاك زيادة فضل وخير وعلم، وإن لم نصل إليها، فإن ذلك لا ينقصنا شيئا.

=

ثم نعود إلى جواب السؤال، وهو ما الحكمة في أن الله ﷻ وكل بنا كراما كاتبين يعلمون ما نفعل ؟ فالحكمة من ذلك بيان أن الله سبحانه وتعالى نظم الأشياء وقدرها، وأحكمها إحكاما متقنا، حتى إنه سبحانه وتعالى جعل على أفعال بني آدم وأقوالهم كراما كاتبين، موكلين بهم، يكتبون ما يفعلون، مع أنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعلون قبل أن يفعلوه، ولكن كل هذا من أجل بيان كمال عناية الله ﷻ بالإنسان، وكمال حفظه تبارك وتعالى، وأن هذا الكون منظم أحسن نظام، ومحكم أحسن إحكام، والله عليم حكيم ا.هـ

المسألة الثالثة عشر: التفاضل بين الملائكة والبشر.

هذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم أخذًا وردًا، وطال طولًا أخرجها عن فائدتها وحدها، وخلاصة ما قيل فيها أن الناس فيها على مذاهب ثلاثة:

الأول: تفضيل الملائكة على البشر مطلقًا، وإليه ذهبت المعتزلة، وبعض الأشعرية، وابن حزم، ومال إليه بعض أهل السنة، وبعض الصوفية، واستدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لها وجهها في الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه في بني آدم: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء: ٧٠]. فقال على كثير ولم يقل على كل، ومن عساه أن يكون الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة، وبقوله سبحانه: (لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) [النساء: ١٧٢]. ومثل هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، وبقوله سبحانه: (قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) [الأنعام: ٥٠]. والمعنى عندهم أني لا أدعي فوق منزلتي، وبقوله ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير =

=

منه) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وهو نص في الأفضلية، وهي أدلة على ما ترى من الدلالة، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء على ردودهم.

الثاني: تفضيل الأنبياء وصالحي البشر على الملائكة: وهو مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعري واستدلوا بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم، كقوله سبحانه: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)، والفاضل لا يسجد للمفضول، وقوله سبحانه: (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [الدخان: ٣٢]. وقوله: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) [آل عمران: ٣٣]. هذه في الأنبياء، أما في صالح البشر فكقوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) [البينة: ٧]. وهي أدلة في القوة على ما ترى، إلا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها وعلى الرد رد، ورأى قوم أن الأدلة متكافئة فكان قول ثالث وهو التوقف والسكوت عن التفضيل. وإنا إن ذهبنا نتتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع عن حده وطال طولًا لا نستطيع الوقوف عند حد له. وهي مسألة - كما ذكرت - كثر فيها الاختلاف، وتشعبت فيها الاستدلالات، وتشابكت وعظم فيها الجدال حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول: منا الأنبياء ومنا الأولياء، فرد عليه بأن للملائكة أن تقول: أليس منكم فرعون وهامان؟ أليس منكم من ادعى الربوبية؟ وأساء بعضهم الأدب فقال: كان الملك خادمًا للنبي ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدموا بني آدم. وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٥٤): المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك، وبعضهم على تفضيل البشر، وربما اشتبهت هذه المسألة

=

=

بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره ا. هـ

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٥٤): أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم. قال: أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسًا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر: ما أحد أكرم على الله من كريم بني آدم) وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحدهم بتفضيل الملائكة واستدلال كل ا. هـ

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل

قال البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٢). في التفاضل بين الملائكة والبشر: والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به ا. هـ

وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص٢٧٨): وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

وقال: وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول ا. هـ

ونقل عن تاج الدين الفزاري من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه: اعلم أن هذه المسألة من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع عن الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب ا. هـ

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد، ولم تكن لهم بها عناية

=

=

فائقة بحيث ينصبونها موضوعًا للنظر والاستدلال، ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف، وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة، وبعضها تفضيل المؤمن على بعض الملائكة، وبعضها تفضيل بني آدم على الملائكة، ولكنها أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل حديث: ((المؤمن أكرم على الله ﷻ من بعض الملائكة). وحديث: (أن الملائكة قالت: يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فأجعل لنا الآخرة فقال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان). وحديث: (ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم، قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) وكلها ضعيف وموضوع.

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٤/ ٣٦٩) بعد ذكر بعض هذه الأحاديث: وأقل ما في هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالحي البشر أفضل من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها، وتفرق الآراء، فقد كان ذلك المستقر عندهم ا. هـ.

وقال في الفتاوى أيضا (٤/ ٣٧١): قد كان السلف يحدثون الأحاديث المتضمنة فضل صالح البشر على الملائكة، وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكرًا لأنكروه فدل على اعتقادهم ذلك ا. هـ

وقد جاء عن الإمام أحمد كما في طبقات الحنابلة (٢/ ٢٧٩ و ٣٠٦) أنه كان يفضل صالحي المؤمنين على الملائكة، ويخطئ من يفضل الملائكة على بني آدم.

=

=

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلًا طويلًا، قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالح البشر على الملائكة كما في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٢).

ونقل عنه ابن القيم كما في بدائع الفوائد (٣/ ١٦٣): أنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟

فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة) قال: (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه) ا. هـ. مباحث المفاضلة في العقيدة لمحمد بن عبدالرحمن الشظيفي (ص٣٥٤).

وقال العلامة الألباني في الصحيحة (٧/ ٢/ ١٠٣٥ - ١٠٣٩): تحت حديث رسول صلى الله عليه وآله وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام. يعني: أنّه خير البريّة).

قلت: وظاهر الحديث يدل على أمرين:

أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام خير الخلق مطلقًا بما فيهم الملائكة.

والآخر: أنه أفضل من نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-.

وأجاب العلماء عن هذا بأن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال ذلك تواضعًا وهضمًا لنفسه، أو أنه قال ذلك قبل أن يوحى إليه بأن الله تعالى اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، وأنه سيد الناس يوم القيامة، آدم فمن دونه تحت لوائه -صلى الله عليه وآله وسلم-، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، وبهذا أجاب الطحاوي، فراجعه فإنه هام مفيد.

وأما الأمر الأول؛ فلم يتعرض له الطحاوي، فأرى- والله أعلم- أن قوله -صلى

=

=

الله عليه وآله وسلم-: «خير البرية» من حيث إنه لا يشمل الملائكة، كقوله تعالى في سورة (البينة): {[إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} بعد قوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، وأن المراد بـ (خير البرية) و (شر البرية)؛ إنما هم غير الملائكة- كما يشعر بذلك السياق-؛ فإن الملائكة {لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون}. وقد ذكر القرطبي أنه قد استدل بقوله تعالى: {خير البرية} من فضل بني آدم على الملائكة، ثم أحال في بيان الخلاف في ذلك على سورة البقرة (١/ ٢٨٩)، وهناك ذكر الخلاف في المسألة بشيء من التفصيل، وذكر دليل من قال بذلك، والقائل بأن الملائكة أفضل، ومن ذلك قوله:

"وفي البخاري: "يقول الله تعالى: من ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم "، وهذا نص".

ثم قال: "وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله تعالى، وخبر رسوله، أو إجماع الأمة، وليس ههنا شيء من ذلك ".

ثم رأيت العلامة ابن أبي العز الحنفي قد توسع جدا في ذكر أدلة الفريقين ومناقشتها، وبيان ما لها وما عليها في "شرح العقيدة الطحاوية" (٣٠١ - ٣١١) - وتبعه الحافظ ابن حجر في "فتح الباري " (١٣/ ٣٨٤ - ٣٨٨) -؛ وذكر عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أنه لم يقطع فيها بجواب، وقال: "وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل؛ فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصًا.. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادمًا للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-! أو أن بعض الملائكة خدام بني آدم!! يعنون: الملائكة الموكلين

=

بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب.. ".
ثم شرع في البسط المذكور، وختمه بقوله:
"وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة في الجواب عنها كما تقدم. والله أعلم بالصواب ". قلت: ولقد كان التوقف المذكور هو الذي يقتضيه النظر والتأمل في أدلة الفريقين، وجواب كل منهما عن أدلة الآخر، لولا حديث البخاري الذي قال فيه القرطبي: إنه نص في المسألة كما تقدم؛ وقد حكاه الحافظ العسقلاني عن ابن بطال أيضًا، وإن كان الحافظ تكلف في رد دلالته وتأويله: "بأن الخيرية إنما حصلت بالذاكر والملأ معًا؛ فالجانب الذي فيه رب العزة خير من الجانب الذي ليس هو فيه بلا ارتياب، فالخيرية حصلت بالنسبة للمجموع على المجموع ".
وقد كنت وقفت منذ القديم في "الترغيب والترهيب " على حديث من رواية البزار وابن حبان في "صحيحه " هو نص في الموضوع وأقوى؛ لأنه يبطل التأويل المذكور، ونصه: "أول من يدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله لملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: ربنا! نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟! قال: إن هؤلاء كانوا عبادًا لي يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور..، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك؛ فيدخلون عليهم من كل باب: [سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار]. وقال المنذري (٤/ ٨٦)، والهيثمي (١٠/ ٢٥٩): "ورجاله ثقات ". وهو في "موارد الظمآن " (٢٥٦٥) - والسياق له-، ومخرج في المجلد السادس من "الصحيحة" برقم (٢٥٥٩). وإني لأستغرب جدًّا كيف فات على أولئك العلماء من الفريقين إيراده احتجاجًا ودفعًا؟!
=

=

وبخاصة الحافظ ابن حجر العسقلاني، لنعلم رأيه في شهادة الملائكة أمام ربهم: أنهم خيرة خلقه، وما أظن أنه يجد له تأويلًا إلا التسليم لدلالته! ونحوه حديث الترجمة، فما تعرض أحد منهم لذكره، ولعل ذلك لأنهم يرون أيضًا أنه خاص بالناس دون الملائكة؛ كما تقدم بيانه في طليعة هذا التخريج، وهو الذي استظهره الإمام الآلوسي في تفسيره "روح المعاني " (٣/ ٢٦٤)! والله ولي التوفيق.

وأما حديث: "علي خير البرية"؛ فمن موضوعات الشيعة، وقد روي من حديث أبي سعيد الخدري، وهو مخرج في "الضعيفة " (٥٥٩٣)، ومن حديث جابر بن جابر برقم (٤٩٢٥)، وذكره الآلوسي من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم، وحديث عائشة وعلي وابن عباس عند ابن مردويه، ولم أقف على أسانيدها. ومن الظاهر أنها من عمل الشيعة أو غيرهم من الضعفاء والكذابين، ولذلك عقب الآلوسي عليها بقوله: "وإن دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد. والله تعالى أعلم ".

ولا بد من التنبيه أنه وقع فيه حديث أبي هريرة: "مرفوعًا "، وأنا أظن أنه محرف: "موقوفًا"؛ فإن من المعروف أن مرجع المتأخرين في تخريج أحاديث التفسير إنما هو "الدر المنثور"على الغالب، والحديث فيه (٦/ ٣٧٩) غير مرفوع!. ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٨١): أيهما أفضل الملائكة أم الصالحون من البشر؟

فأجاب: هذه المسألة وهي المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم وكل منهم أدلى بدلوه فيما يحتج به من النصوص، ولكن القول الراجح أن يقال: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية فإن الله - سبحانه وتعالى - يعد لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم أي في مقر الصالحين وهو الجنة

=

يدخلون عليهم من كل باب {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}.
أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل لأنهم خلقوا من نور وجبلوا على طاعة الله ﷻ والقوة عليها كما قال الله - تعالى - في ملائكة النار: {عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}. وقال - ﷻ -: {ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون} هذا هو القول الفصل في هذه المسألة.
وبعد فإن الخوض فيها وطلب المفاضلة بين صالحي البشر والملائكة من فضول العلم الذي لا يضطر الإنسان إلى فهمه والعلم به والله المستعان.
المسألة الرابعة عشر: هل خلق النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من نور كالملائكة؟
قال العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٢/ ٨٢٠) تحت حديث «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار السموم وخلق آدم عليه السلام مما قد وصف لكم».
وفيه إشارة إلى بطلان الحديث المشهور على ألسنة الناس: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». ونحوه من الأحاديث التي تقول بأنه -صلى الله عليه وآله وسلم- خلق من نور، فإن هذا الحديث دليل واضح على أن الملائكة فقط هم الذين خلقوا من نور، دون آدم وبنيه، فتنبه ولا تكن من الغافلين.
وأما ما رواه عبد الله بن أحمد في السنة (ص ١٥١) عن عكرمة قال: " خلقت الملائكة من نور العزة، وخلق إبليس من نار العزة ".
وعن عبد الله بن عمرو قال: " خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر " قلت: فهذا كله من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها، لأنها لم ترد عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ا.هـ
وسئل العلامة الألباني كما في موسوعة العلامة الألباني (٨/ ١٢): السلام عليكم

=

ورحمة الله وبركاته عندنا الله يسلمك! أتانا شيخ من قريب اسمه عبد الرحيم الطحان، وكانت له محاضرة عنوانها: تعظيم أنبياء الله ومن بعض ما قاله في نفس المحاضرة قوله: ليتنا كنا نساء وحظينا بريق الحسن، من يحظ بالحسن.. ليلة لو نظرَ، وقوله: ووالله لو أدركنا الحسين لمسحنا نعليه بلحانا وفي ذلك شرف لنا وفخر.

وقوله: ثبت عن أنس بإسناد صحيح: إن النبي عليه الصلاة والسلام عندما دخل المدينة أضاء فيها كل شيء لما تنورت بالنبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأشرقت.

وقوله: ينقل الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء في الجزء الحادي عشر صفحة (٢١١) عن بعض طلبة العلم أنه قال: نظرة إلى الإمام أحمد تعدل عبادة سنة وأكثر، علق الإمام الذهبي على هذه الجملة بقوله: هذا غلو لا ينبغي، وقال: والله ليس بغلو وإنه مما ينبغي.

وقال...: كان جعفر الصادق يقول: إذا وجدت في قلبي فتور وقسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع فاجتهدت أسبوع، وقال: النظر إلى أئمتنا يستشفى به.. يتداوى به.. يذكر بالله، ويقولون: من لم ينفعك لحظه لم ينفعك لفظه ووعظه.

وقوله: ذكر أحمد من مجالس الذكر عندما نذكره [كأننا] ذكرنا الله...

وقوله: نظرة إلى وجه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- تعدل عبادة آلاف السنين، والنظرة إلى الصحابة الطيبين تعدل عبادة آلاف السنين.

قابل هذا الشيخ بعض الشيوخ يقول: واسمه الشيخ عبد الرحمن زيد العابدين، ويقول: قابلته وقلت له: ووالله ما رأيته إلا قبلت يده، وكان يقول، أي: الشيخ عبد الرحمن زين - يقول للشيخ عبد الرحيم: من مقاصدي إذا ذهبت لأحج رؤية الإمام الشنقيطي، وهذا الشيخ يا شيخنا! معروف على مستوى في دولتنا

=

قطر، وكل طلبة العلم يحضرون له، فما رأيكم وما الرد على هذا؟
فأجاب: بارك الله فيك، ما كان ينبغي أن تطيل علينا بسردك لمثل هذا الهراء، فانتبه لما سأقول: باستثناء حديث أنس الذي حكيته عن الطحان أقول: أولًا: حديث أنس هو فعلًا حديث صحيح ولكن الإضاءة هي إضاءة معنوية يعني: هو كناية عن انتشار نور الإسلام، وإلا فالمدينة كما تعلم إذا أطفئت الأنوار اليوم فسنراها مظلمة كما كان الشأن في عهد الرسول ﷺ، وقد جاء في الحديث الصحيح أن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها استيقظت ليلة قالت: ولم تكن المصابيح يومئذٍ، لم تجد نبيها بجانبها فأخذت تبحث عنه والليل ظلام فوقعت يدها على النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو ساجد في صلاته وقدماه منصوبتان وهو يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بلا شك نور هدى الله به العرب ثم العجم بسبب الهدى والنور الذي أنزله الله تبارك وتعالى على قلب الرسول، فلم تكن إضاءة المدينة المذكورة في حديث أنس هي إضاءة مادية وإلا كانت السيدة عائشة ترى نبيها -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يصلي في الغرفة.. في البيت، لكنها صرحت بأنها لم تره لم؟ لأنه لم تكن عندهم المصابيح يومئذٍ فأقول: باستثناء حديث أنس من ذاك الهراء، فحديث أنس صحيح ومعناه ليس كما يفسره الرجل.
أقول بعد تكريري لهذا الاستثناء: الكلام الذي حكيته عنه كله هراء ويجب أن يطحن من الطحانين طحنًا.
سمعت الجواب؟
مداخلة: ماذا تنصحون طلبة العلم جزاكم الله خيرًا؟

=

الشيخ: أنصحهم ألا يحضروا للرجل درسًا؛ لأنه صوفي مبتدع ويتستر بالسنة وهو جاهل بها.

المسألة الخامسة عشر: سجود الملائكة لآدم عليه السلام.

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عز وجل لما أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجدوا له جميعًا بلا استثناء، ملائكة الأرض، وملائكة السماء، لقوله تعالى: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٢].

(ومن قال إنه لم يسجد له جميع الملائكة بل ملائكة الأرض؛ فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى، وإنما هو من أقوال الملاحدة المتفلسفة الذين يجعلون الملائكة قوى النفس الصالحة، والشياطين قوى النفس الخبيثة، ويجعلون سجود الملائكة طاعة القوى للعقل، وامتناع الشياطين عصيان القوى الخبيثة للعقل).

وكانت سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة وطاعة لله، وقربة يتقربون بها إليه وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم... نقل شيخ الإسلام رحمه الله إجماع أهل الملل على سجود الملائكة لآدم عليه السلام وذلك في معرض رده على الفلاسفة الذين يزعمون أن الملائكة هي التي أبدعت جميع المصنوعات حيث قال:

(ولأن ما اتفق عليه أهل الملل من أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام يبطل قول هؤلاء: إن أضعف العقول - التي هي الملائكة عندهم - هو مبدع جميع البشر، ورب كل ما تحت فلك القمر).

وقد بين رحمه الله أن هذا السجود كان لآدم عليه السلام على الحقيقة فقال: (السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه بإجماع من يسمع قوله).

وذلك للرد على من زعم أن السجود كان لله، وإنما جعل آدم عليه السلام قبله للملائكة يسجدون إليه كما يسجد إلى الكعبة، وليس في هذا تفضيل له عليهم؛ كما أن

=

=

السجود إلى الكعبة ليس فيه تفضيل للكعبة على المؤمن عند الله.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللهُ الأدلة على صحة ما ذهب إليه، وفساد قول هؤلاء وذلك من عدة وجوه:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى قال: اسْجُدُواْ لآدَمَ [البقرة: ٣٤]، ولم يقل: إلى آدم.

وكل حرف له معنى، ومن التمييز في اللسان أن يقال: سجدت له، وسجدت إليه، كما قال تعالى: لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [فصلت: ٣٧]، وقوله: وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ [الرعد: ١٥]، وأيضًا فإن النبي ﷺ كان يصلي إلى عنزة، ولا يقال لعنزة، وإلى عمود وشجرة، ولا يقال لعمود، ولا لشجرة.

والساجد للشيء يخضع له بقلبه، ويخشع له بفؤاده، وأما الساجد إليه فإنما يولي وجهه وبدنه إليه ظاهرًا، كما يولي وجهه إلى بعض النواحي إذا أمه، كما قال تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة: ١٤٤].

الثاني: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لو كان قبلة لم يمتنع إبليس من السجود، أو يزعم أنه خير منه، فإن القبلة قد تكون أحجارًا؛ وليس في ذلك تفضيل لها على المصلين إليها، وقد يصلي الرجل إلى عَنَزَة وبعير، وإلى رجل؛ ولا يتوهم أنه مفضل بذلك، فمن أي شيء فر الشيطان؟ هذا هو العجب العجيب.

الثالث: أنه لو جعل آدم قبلة في سجدة واحدة؛ لكانت القبلة وبيت المقدس أفضل منه بآلاف كثيرة، إذ جعلت قبلة دائمة في جميع أنواع الصلوات، فهذه القصة الطويلة التي هي من أفضل النعم عليه، والتي رفعه الله بها، وامتن بها عليه؛ ليس فيها أكثر من أنه جعله كالكعبة في بعض الأوقات، مع أن بعض ما أوتيه من

=

=

الإيمان والعلم، والقرب من الرحمن أفضل بكثير من الكعبة؛ والكعبة إنما وضعت له ولذريته؛ أفيجعل من جسيم النعيم عليه أو يشبه به في شيء نزر قليل جدًا؟. هذا مالا يقوله عاقل.

وهذا السجود كان من جميع الملائكة؛ ملائكة السماء، وملائكة الأرض، وهذا ما قرره رَحِمَهُ اللَّهُ عندما سئل: هل سجد ملائكة السماء والأرض، أم ملائكة الأرض خاصة؟.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل أسجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٣]، فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق؛ فإن قوله: الْمَلَائِكَةُ يقتضي جميع الملائكة؛ فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم؛ فهو رب جميع الملائكة.

الثاني: (كلهم) وهذا من أبلغ العموم، الثالث: قوله: أَجْمَعُونَ وهذا توكيد للعموم.)

ذكر من نقل الإجماع أو نص على المسألة ممن سبق شيخ الإسلام: اتفقت كلمة العلماء رحمهم الله تعالى على أن الملائكة عليهم السلام سجدوا لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والذي يدل على ذلك ما نقوله من الإجماع على أن سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن سجود عبادة.

قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: (اتفقت الأمة على أن السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن سجود عبادة)

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع المسلمون على أن ذلك السجود ليس سجود عبادة)

وقرر ذلك القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة)

=

=

قلت: وفي إجماعهم على أن السجود لم يكن سجود عبادة، يؤخذ منه أنهم مجمعون على وقوع هذا السجود لآدم عليه السلام، وهو ما نقل عليه الإجماع شيخ الإسلام رحمه الله.

وقد بين الطبري رحمه الله أن السجود وقع من جميع الملائكة لا من بعضهم حيث قال: (... فلما سوى الله خلق ذلك البشر وهو آدم، ونفخ فيه من روحه، سجد له الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧٣]، يعني بذلك الملائكة الذين هم في السموات والأرض).

وهذا السجود كان لآدم عليه السلام على الحقيقة، خلافًا لمن زعم أن السجود كان لله وإنما جعل آدم عليه السلام قبلة، فقد أخرج الطبري عن قتادة رحمهما الله في تفسير قوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ [البقرة: ٣٤] أنه قال: (فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته).

وقال البغوي رحمه الله: اسْجُدُواْ فيه قولان: الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة، وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل بامتثال أمره، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة).

مستند الإجماع في المسألة: الأدلة على سجود الملائكة لآدم عليه السلام كثيرة، وقد ذكر المولى تبارك وتعالى ذلك في سبعة مواضع من الكتاب العزيز.

قال الله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٣٤].

وقال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ [الأعراف: ١١].

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا [الإسراء: ٦١].

=

=

وقال الله سبحانه وتعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف: ٥٠].

وقال الله ﷻ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى [طه: ١١٦].

وقال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [الحجر: ٢٨ - ٣٠].

وقال المولى ﷻ: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [ص: ٧١ - ٧٣].

فهذه الأدلة جميعًا دلت دلالة قاطعة على أن الملائكة سجدوا لآدم عليه السلام على الحقيقة؛ امتثالًا وطاعة لربهم ﷻ.

أما أدلة السنة على ذلك فما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟. فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجيا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاما. قال آدم: فهل وجدت فيها: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى [طه: ١٢١]؟. قال: نعم قال: أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟. قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى)

=

مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢).

{مَا يَفْتَح الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَة} كَرِزْقٍ وَمَطَر {فَلَا مُمْسِك لَهَا وَمَا يُمْسِك} مِنْ ذَلِكَ {فَلَا مُرْسِل لَهُ مِنْ بَعْده} أَيْ بَعْد إمْسَاكه {وَهُوَ الْعَزِيز} الْغَالِب عَلَى أَمْره {الحكيم} في فعله[1].

=

والشاهد في قوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وأسجد لك ملائكته). فهذا إثبات من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإقرار من محمد ﷺ على سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، يأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا...).

وفي هذا إثبات من النبي ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى - على سجود الملائكة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) قوله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٢].

قال الطبري: يقول: " مفاتيح الخير ومغالقه كلها بيده؛ فما يفتح الله للناس من خير فلا مُغلق له، ولا ممسك عنهم، لأن ذلك أمره لا يستطيع أمره أحد، وكذلك ما يغلق من خير عنهم فلا يبسطه عليهم ولا يفتحه لهم، فلا فاتح له سواه؛ لأن الأمور كلها إليه وله".

عن قتادة: " {مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ}، أي: من خير {فَلا مُمْسِكَ لَهَا}: فلا يستطيع أحد حبسها".

=

قال ابن عباس:"يقول: ليس لك من الأمر شيء".

وقال ابن عباس:"ما يفتح الله للناس من باب توبة فلا مرسل له من بعده وهم لا يتوبون".

عن السدي:"{ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها}، قال: المطر".

قال الزمخشري:"استعير «الفتح» للإطلاق والإرسال. ألا ترى إلى قوله: {فلا مرسل له من بعده} مكان «لا فاتح له»، يعنى: أى: شيء يطلق الله من رحمة أى من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها. وتنكيره «الرحمة» للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها، وأى شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع".

عن ورَّاد – مولى المغيرة بن شعبة – قال: "كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعتَ من رسول الله ﷺ. فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ"، وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال، وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات، ومَنْع وهَات» ".

وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: "سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شيء بعد. اللهم، أهلَ الثناء والمجد. أحقّ ما قال العبد، وكلنا لك عبد. اللهمّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع

=

ذا الجَدّ منك الجدّ".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [فاطر: ٢]، أي:"وهو العزيز القاهر لكل شيء، الحكيم الذي يرسل الرحمة ويمسكها وَفْق حكمته".

قال الطبري:"يقول: وهو العزيز في نِقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك صلاحًا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

قال العثيمين: قوله تعالى {ما} شرطية تجزم بدليل الفعل بعدها، ولكن الفعل بعدها أمامنا مكسور {يفتح} فنقول: إن هذه الكسرة عارضة من أجل توقي التقاء الساكنين، وإلا فإنها مجزومة، وهذا كقوله تعالى: {لم يكن الذين كفروا} البينة: ١] وأصلها: (لم يكون).

قوله تعالى: {يفتح الله للناس من رحمة} فتح الشيء: إزالة الحواجز دونه؛ يعني: متى فتحت البيت؛ يعني: أزلت الحاجز المانع من دخوله وهو الباب، والرحمة إذا فتحت فإن الإنسان يدخل إليها ويلج فيها.

وقوله تعالى: {من رحمة}: {من} بيان لـ {ما}، و {ما} شرطية مفيدة للعموم، وعلى هذا فيكون في الآية عموم؛ أي: أي رحمة يفتحها الله ﷻ للناس فلا أحد يستطيع إمساكها.

=

=

وقوله تعالى: {من رحمة} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كرزق ومطر]، وهذا على سبيل التمثيل لا الحصر؛ لأن رحمة الله أكثر من ذلك، قال الله تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله} [النحل: ٥٣]، {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم} [النحل: ١٨] فرحمة الله عَزَّ وَجَلَّ لا تحصى في أنواعها فضلا عن أفرادها.

قوله تعالى: {فلا ممسك لها} أي: فلا أحد يمسكها، بل ستصل إلى من فتحها الله تعالى له، ولا يردها أحد، كما جاء في الحديث الصحيح؛ أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن يرفع من الركوع كان يقول: "اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" ويقوله كذلك بعد الصلاة، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله ابن عباس: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ... ".

فلا أحد يستطيع أن يمسك رحمة الله مهما عمل، حتى لو حاول الحسد والتشويه ومنع الرزق لا يستطيع، إذا فتح الله الرحمة للعبد فلا أحد يستطيع أن يحول بينه وبينها؛ ولهذا جاءت: {فلا ممسك لها}.

و(لا): نافية للجنس، وهي أنص شيء على العموم؛ ولهذا عموم لا النافية للجنس لا تخصيص فيه أبدا.

والضمير في {لها} يعود على الرحمة.

وقوله تعالى: {وما يمسك فلا مرسل له} لعلك تتوقع أن يكون نص الآية الكريمة (وما يمسك فلا مرسل لها)؛ لأن الكلام الآن في الرحمة وهو في الجملة الأولى قال: {فلا ممسك لها} فيقتضي أن تكون الجملة الثانية كالأولى؛ أي: (وما يمسك فلا مرسل لها) هكذا تتوقع، ولكن ليس الأمر كذلك.

لأن قوله تعالى: {وما يمسك} لم يخصص بالرحمة حتى نقول: إن المتوقع أن

=

=

يقول: (فلا مرسل لها) بل قال: {وما يمسك} وحذف المتعلق ليفيد العموم؛ أي: (وما يمسك من رحمة وما يمسك من شر فلا مرسل له) حتى الضرر الذي يمسكه الله ﷻ لا أحد يرسله إليك، حتى الرحمة التي أمسكها الله عنك لا يمكن أن يرسلها أحد إليك.

ولهذا يسعى الإنسان أحيانا إلى ما يراه من رحمة الله من رزق أو غيره، ثم يحول القدر بينه وبينه، يتعرض الإنسان أحيانا لأخطار ولكن يسلم منها، قد يحصل للسيارة انقلاب أو تصادم، فيموت أناس أقوى منك أجساما، وأقوى منك منعة، وتبقى أنت.

إذن: أمسك الله عنك الضرر، ولولا هذا الإمساك لهلكت فيمن هلك.

إذن نقول: (ما يمسك فلا مرسل له) أي: لما أمسكه، فعاد الضمير في {فلا مرسل له} على لفظ {وما} ولفظ {وما} مذكر، بخلافه في الأول، فعاد على {رحمة} لأنها مؤنث.

الآن تبين لنا: أن السياق على أتم ما يكون من البلاغة، وأن ما كنا نتوقعه من أن يقال: (فلا مرسل لها) ليس على ما نتوقع؛ لأن قوله: {وما يمسك} لا يعني الرحمة، إذن هو عام؛ ولهذا نقول: إن قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وما يمسك من ذلك] فيه قصور؛ لأن قوله: (من ذلك) يعود إلى الرحمة، ولكن نقول: (وما يمسك من ذلك وغيره).

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فلا مرسل له من بعده} أي: بعد إمساكه]، وهذا لا شك أنه احتمال، وأنه يحتمل أن يكون الضمير راجعا إلى إمساك المستفاد من قوله تعالى: {يمسك}.

فإذا قيل: هل لهذا نظير؛ أن يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل قبله؛ لأن من المعلوم أن مرجع الضمير لا بد أن يكون اسما مذكورا مطابقا قبل أو

=

=

بعد، أو مقدرا، المهم أن مرجع الضمير اسم، والإسم إما أن يذكر بلفظه الصريح مقدما أو مؤخرا أو مقدرا، وإما أن يؤخذ من مصدر فعل سابق، هنا على كلام المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ {من بعده} أي: من بعد إمساك؟

فالجواب: كلمة (إمساك) سبقت؛ لأن {يمسك} فعل مأخوذ من (الإمساك).

إذن: فقد تضمن الفعل ذلك اللفظ وهو الإمساك، ونظيره قوله سبحانه وتعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة: ٨] {هو}؛ أي: العدل المفهوم من قوله تعالى: {اعدلوا}.

والأصل في مرجع الضمير أن يكون اسما مذكورا متقدما مطابقا، وقد يتأخر، وقد يقدر، وقد يكون مفهوما من مصدر فعل سابق، كما هو في قوله تعالى: {اعدلوا هو أقرب للتقوى} وكما في هذه الآية على تقدير المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهل يمكن أن يحتمل عود الضمير على غير (الإمساك)؟

الجواب: نعم، فيحتمل أن يعود على (الله) عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه قال: {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له} أي: من بعد الله، وتكون كقوله تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله} [الجاثية: ٢٣]، ويكون الضمير في قوله تعالى: {من بعد} عائدا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا أقرب؛ لأنها أدل على كمال التصرف في حق الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: {وهو العزيز الحكيم} قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{العزيز}: الغالب على أمره {الحكيم} في فعله] وهذا التفسير من المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاصر؛ لأن قوله: [{العزيز} الغالب على أمره]، هذا أحد معاني (العزيز)؛ فإن (العزيز) له ثلاثة معان: عزة القدر، والقهر، والإمتناع.

١ - القهر وهو معنى قوله: [الغالب على أمره]، ونقول: إنه يشمل الغالب على

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣).

{يأيها النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {اُذْكُرُوا نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ} بِإِسْكَانِكُمْ الْحَرَم وَمَنْع الْغَارَات عَنْكُمْ {هَلْ مِنْ خَالِق} مِنْ زَائِدَة وَخَالِق مُبْتَدَأ {غَيْر الله} بِالرَّفْعِ وَالْجَرّ نَعْت لِخَالِقٍ لَفْظًا وَمَحَلًّا وخبر المبتدأ {يرزقكم من السماء} المطر {و} من {الأرض} النَّبَات وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ أَيْ لَا خَالِق رَازِق غَيْره {لَا إلَه إلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} مِنْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيده مَعَ إقْرَاركُمْ بِأَنَّهُ الْخَالِق الرَّازِق(١).

=

أمره الذي لا يغلب، وهذا هو القهر.

٢ - ذو القدر الرفيع العالي، وهذا معنى قولنا: (عزة القدر).

٣ - أما عزة الإمتناع؛ يعني: أنه يمتنع أن يناله سوء أو نقص أو عيب.

فالعزة إذن ثلاثة معان، وليست معنى واحدا.

أما {الحكيم} فقال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في فعله]، وهذا أيضا قصور؛ لأن الله حكيم في فعله وقوله، في قدره وشرعه، في الكل، بل إن الحكيم لها معنى آخر؛ لأنها مأخوذة من الحكم والإحكام، فهو ذو حكم وذو إحكام، والحكم كوني وشرعي، والإحكام في الغاية أو في الصورة التي عليها الشيء، فالجميع أربعة أنواع، ويقرن الله تعالى دائما بين العزة والحكمة؛ لما في ذلك من كمال عزته وحكمته.

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ} [فاطر: ٣].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره للمشركين به من قوم رسول الله ﷺ من قريش: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ} التي أنعمها {عَلَيْكُمْ} بفتحه لكم من خيراته ما فتح وبسطه لكم من العيش ما بسط".

=

=

قال القرطبي: "معنى هذا الذكر: الشكر".

قال الزمخشري: "ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن به وبالقلب، وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها. ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: اذكر أيادى عندك. يريد: حفظها وشكرها والعمل على موجبها، والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله".

قوله تعالى: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: ٣]، أي: "فلا خالق لكم غير الله يرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالماء والمعادن وغير ذلك".

قال الطبري: يقول: "وفكروا فانظروا هل من خالق سوى فاطر السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها {يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ} فتعبدوه دونه".

قال ابن كثير: "ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان".

قال السدي: "الرزق من السماء: المطر، ومن الأرض: النبات".

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [فاطر: ٣]، أي: "لا إله إلا هو وحده لا شريك له".

قال الطبري: "يقول: لا معبود تنبغي له العبادة إلا الذي فطر السماوات والأرض القادر على كل شيء، الذي بيده مفاتح الأشياء وخزائنها، ومغالق ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناس شيئًا سواه، فإنه لا يقدر على نفعكم وضركم سواه، فله فأخلصوا العبادة وإياه فأفردوا بالألوهة".

قوله تعالى: {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [فاطر: ٣]، أي: "فكيف تُصْرَفون عن توحيده

=

=

وعبادته؟ ".

قال الطبري:"يقول: فأي وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم تصرفون".

قال الزمخشري: أي:"فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟ ".

قال ابن كثير:"أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟ ".

عن ابن عباس، قوله: {تؤفكون}، قال: تكذبون".

قال الحسن:"أنى تصرفون".

قال القرطبي:"الأفك -بالفتح- وهو الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا، أي ما صرفك عنه. وقيل: من الإفك -بالكسر- وهو الكذب، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم، لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب، أي: من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله".

قال العثيمين: تصدير الخطاب بالنداء يدل على الإهتمام به والعناية به؛ لأن النداء يتضمن التنبيه؛ ولهذا إذا قلت للطالب: (يا ولد) فإنه ينتبه، فتصدير الحكم بالنداء يدل على العناية به؛ لأن النداء يفيد التنبيه.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{ياأيها الناس} أهل مكة].

وهذا بلا شك قصور؛ لأن الناس عام، والواجب علينا في القرآن والسنة أن نبقي العام على عمومه حتى يقوم دليل على إرادة الخصوص، وإلا فإن الواجب إبقاؤه على عمومه؛ لأنه ليس لنا الحق في أن نتصرف في مدلولات الألفاظ المخالفة لظاهرها إلا بدليل من المتكلم أو من يتكلم مبينا كلامه؛ كالرسول عليه الصلاة والسلام، فالنداء إذن عام لجميع الناس.

قوله تعالى: {اذكروا نعمت الله عليكم} المراد بالذكر هنا ذكر النعمة بالقلب،

=

=

وذكرها باللسان، وذكرها بالفعل (بالجوارح).

فذكرها بالقلب بأن يتأمل الإنسان، من أين أتت هذه النعمة؟ ومن الذي خلقه؟ ومن الذي أمده بالرزق وهو في بطن أمه لم يخرج بعد؟ ومن الذي أعده لقبول ما يمر به وتصوره وتعقله وتنفيذه؟

الجواب: الله، فأنت إذا تذكرت في قلبك - ونسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الغفلة - عرفت أن ما بك من نعمة فهو من الله ﷻ، فيتأمل الإنسان: يقول: من الذي أوجدني؟ من الذي أمدني بالنعم وأنا في بطن أمي، ولا يستطيع أحد أن يوصل إليه لقمة العيش أو جرعة الماء، ثم من الذي أعدني وهيأني لأن أكون قابلا لما فيه منفعتي في الدنيا والآخرة؟

الجواب: الله ﷻ.

فالنعم إيجاد وإمداد وإعداد، وكل ذلك من الله ﷻ؛ هذا ذكرها بالقلب.

وأما ذكرها باللسان أن يثني على الله بها {وأما بنعمة ربك فحدث} [الضحى: ١١] فيتحدث بالنعم لا على سبيل الإفتخار، ولكن على سبيل الثناء.

ذكرها بالجوارح أن يرى أثر هذه النعمة عليه، فإن كانت النعمة علما رؤي أثر هذه النعمة عليه بحسن التصرف، والوقار، والسكينة، والأدب، ونشر العلم، والدعوة إلى الله ﷻ، هذا مثال، وإذا كان بمال يرى أثر النعمة عليه بالإنفاق فيما يحبه الله ﷻ من الزكاة، والنفقات الواجبة، والصدقات المستحبة، والثياب الجميلة، وما أشبه ذلك: "إن الله يحب إذا أنعم على عبده نعمة أن يرى أثر نعمته عليه" هذا ذكر بالجوارح.

ومن ذكر النعمة بالجوارح أيضا أن يقوم بالشكر، والله ﷻ أمرنا بذكر نعمته للغاية؛ وهي كما قال تعالى: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون} [البقرة: ١٥٢] ليس المراد أيضا أن تذكر النعمة فقط، بل لا بد من قرن هذا الذكر

=

=

بالشكر.

فصار الذكر يشمل ثلاثة أمور: الذكر بالقلب، واللسان، والجوارح.

وقوله تعالى: {نعمت الله عليكم}: (نعمة) مفرد مضاف، فيشمل جميع النعم، وهي كثيرة، كما قال تعالى: {وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها} [النحل: ١٨].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{اذكروا نعمت الله عليكم} بإسكانكم الحرم ومنع الغارات عنكم] هذا التفسير بناء على أن المخاطب أهل مكة، ولكن نقول: {اذكروا نعمت الله عليكم} بالنعم التي لا تحصى، وهي كثيرة جدا كما أسلفنا الأمثلة عليها، فتكون نعمة بالإيجاد والإمداد والإعداد، كل هذه من الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله تعالى: {هل من خالق غير الله} يعني: إذا تقرر أن شكرتم نعمة الله عليكم فإننا نوجه إليكم هذا السؤال المتضمن للنفي.

قال: [{هل من خالق}: {من} زائدة، {خالق}: مبتدأ، {غير الله} بالرفع والجر نعت لـ {خالق} لفظا ومحلا، وخبر المبتدأ {يرزقكم من السماء}].

{هل}: حرف فهي أداة استفهام.

و{من} زائدة زائدة، وكيف (زائدة زائدة)؟ أي: زائدة لفظا زائدة للمعنى؛ لأنها تفيد توكيد النفي والتنصيص على الأمور، و {خالق} إذن مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

و {غير الله} فيه قراءتان (غير) و (غير)، وكلاهما صحيح، أما على قراءة الجر (غير الله) فهي صفة تابعة للفظ {خالق} لأن {خالق} مجرور، وأما على قراءة الرفع فهي صفة تابعة لمحل {خالق}؛ لأن محله الرفع على الإبتداء.

ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالرفع والجر نعت لخالق لفظا ومحلا] في كلام المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ لف ونشر مشوش، ونقول: (غير مرتب) إذا صار في القرآن أو في الحديث، أما في كلام الناس فنقول: (مشوش).

=

=

فهو (بالرفع والجر نعت لخالق) لو كان مرتبا لقال: (نعت لخالق محلا)؛ لأنه بالرفع يكون نعتا للمحل، وبالجر يكون نعتا للفظ.

وعلى كل حال: {غير الله} فيها قراءتان، ولكل منهما وجه في اللغة العربية.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله [{يرزقكم}: خبر المبتدأ] هل الفعل نفسه خبر المبتدأ أو الجملة؟

الجواب: الجملة، لكنهم عند الإعراب يتساهلون فمثلا يقول: (فلان في المسجد) يقول: (في المسجد): جار ومجرور خبر المبتدأ.

قوله تعالى: {هل من خالق} استفهام بمعنى النفي، وقد ذكرنا سابقا أن الإستفهام إذا كان بمعنى النفي فإنه مشرب معنى التحدي؛ يعني: لو قال: (لا خالق غير الله يرزقكم) استقام الكلام، لكن إذا قال: (هل من خالق) صار أبلغ؛ لأنه يتضمن النفي والتحدي، كأنه يقول: (أروني خالقا غير الله يرزقكم من السماء والأرض) كما قال الله تعالى في آية أخرى: {أروني ماذا خلقوا من الأرض} [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى: {خالق} الخلق في اللغة: التقدير، ومنه قول الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت ... وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

فقوله: (تفري ما خلقت)؛ يعني: ما قدرت، ولكنه يطلق على الإيجاد المسبوق بتقدير، فهنا {خالق} بمعنى موجد إيجادا مسبوقا بتقدير، وقوله تعالى {هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض} ؟

الجواب: لا، لا خالق غير الله يرزقنا من السماء والأرض، وقد سبق لنا مرارا على نفي الخلق عما سوى الله، وقلنا: إنه قد جاءت نصوص تدل على أن غير الله يخلق.

وأجبنا على ذلك بأن خلق غير الله ليس إيجادا، ولكنه تحويل من صورة إلى

=

=

صورة، وأيضا ليس عاما، وكذلك خلق غير الله هو من خلق الله في الواقع {والله خلقكم وما تعملون} [الصافات: ٩٦] حتى لو أنني الذي خلقت هذا الشيء يعني: أوجدته؛ بمعنى: غيرته من حال إلى حال، فإن فعلي هذا مخلوق لله ﷻ، فعليه نقول: إن الخالق الحقيقي هو الله.

وقوله تعالى: {يرزقكم} بمعنى يعطيكم؛ لأن الرزق بمعنى العطاء؛ كما في قوله تعالى: {فارزقوهم منه} [النساء: ٨].

قوله تعالى: {من السماء} فسر المفسر رحمه الله الرزق من السماء بالمطر، وهذا لا شك أنه داخل فيه؛ فإن المطر من الرزق النازل من السماء، وهل هناك رزق غيره ينزل من السماء؟

نعم، الوحي وهو رزق معنوي.

ولماذا لا نقول: الطيور مطلقا؛ كما قال تعالى: {ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء} [النحل: ٧٩] فهي تنزل من السماء وهي رزق للعباد أيضا؟

والجواب: هي رزق من الأرض ومن السماء.

ويمكن أن نقول: إن الطل من الرزق الذي هو المطر (الرطوبة)، وهي من السماء أيضا وهي رزق؛ لأنها تنفع الأشجار.

قوله: [{من السماء} ومن (الأرض)] قدر {من} إشارة إلى أن (الأرض) معطوفة على السماء.

قوله: [{يرزقكم من السماء} المطر، ومن (الأرض) النبات]، وهذا صحيح، لكنه قاصر؛ لأن الرزق من الأرض أكثر من النبات، فالرزق من الأرض يشمل النبات والمعادن، والمياه؛ وغير ذلك كثير من الأرض.

وقوله: [والإستفهام للتقرير؛ أي: لا خالق رازق غيره] قوله: [للتقرير] ثم قال: أي: [لا خالق] هذا شبه تناقض؛ لأن قوله: [لا خالق] يقتضي أن يكون معناه

=

=

النفي، وهو كذلك، فهو للنفي المشرب بالتحدي، وأنه لا خالق إلا الله، وإذا كان لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، فإن الواجب أن نعبد الله وحده، قال الله ﷻ: {لا إله إلا هو} [البقرة: ١٦٣]؛ أي: (لا معبود حق إلا هو)، وكيف تعلمون أنه لا رازق يرزقنا من السماء والأرض إلا الله، ثم تذهبون فتعبدون غيره؟ ! هل هذا إلا نقص في التصور، ونقص في العقل أيضا والتصرف؟ ! فهو نقص في التصور والعقل والتصرف.

فإذا كان لا رازق إلا الله كيف تعبد اللات والعزى ومناة وهبل، والأشجار والأحجار، والشمس والقمر، والبقر أيضا، فيوجد أناس يعبدون البقر، وأنه إذا مرت البقرة على طريق القطار الحديد فإنه يجب أن يقف ولو تكسر كل من فيه، وطبعا القطار يمشي بسرعة إذا وقف تصادمت الأقراص، ومات من فيها، أو تكسر، ومع ذلك يقول هؤلاء يجب أن تقف؛ لأن هذه إله، أو أن تدخل دكانه وتأكل ما شاءت وتدع ما شاءت!

هل هذه عقول؟ ! الجواب: ليست عقولا، وكانوا في الجاهلية يصنعون آلهة من التمر، فإذا جاعوا أكلوها، أكلوا الإله، فإذا كان الله ﷻ هو الرازق وحده بإقراركم واعترافكم فيجب أن يكون هو المعبود وحده؛ لقوله تعالى: {لا إله إلا هو} [البقرة: ١٦٣].

وأما إعراب هذه الجملة العظيمة التي بها يدخل الإنسان في الإسلام أو يخرج؛ يدخل إن نطق بها، ويخرج إن أنكرها.

فإعرابها فيه ستة أوجه للنحويين، وألف بعض العلماء رسالة في ذلك، ولكن أحسن ما يقال في إعرابها أن: (لا): نافية للجنس، و (إله): اسمها، وخبرها محذوف تقديره: (حق)؛ أي: لا إله حق و (إلا): أداة استثناء، و (الله): بدل من الخبر المحذوف.

=

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤).

{وَإِنْ يُكَذِّبُوك} يَا مُحَمَّد فِي مَجِيئك بِالتَّوْحِيدِ وَالْبَعْث وَالْحِسَاب وَالْعِقَاب {فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُل مِنْ قَبْلك} فِي ذَلِكَ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا {وَإِلَى الله تُرْجَع

=

وهل النفي هنا مسلط على (الوجود) أو على الوجود بحق؟

الجواب: (على الوجود بحق)؛ لأن هناك آلهة دون الله تعبد، لكن ليست بحق، قال الله تعالى: {فلا تدع مع الله إلها آخر} [الشعراء: ٢١٣]، وقال: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء} [هود: ١٠١]، فالآلهة موجودة، لكنها لا تستحق أن تكون آلهة؛ إذ ليس لها ربوبية.

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فأنى تؤفكون} من أين تصرفون عن توحيده مع إقراركم بأنه الخالق الرازق؟] لو قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن عبادته) لكان أحسن؛ لأن (لا إله إلا هو) توحيد ألوهية، وليس توحيد ربوبية، وكلمة توحيد تشمل الربوبية أيضا، فلو قال: (فأنى تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم أنه الخالق وحده) لكان أحسن.

وقوله تعالى: {تؤفكون} قال: أي: [تصرفون]، فـ(الأفك) بمعنى الصرف، ماضيه (أفك) ومضارعه: (يأفك أفكا) أما الإفك بالكسر فهو الكذب.

والكذب - في الواقع - يتفق مع (الأفك) من حيث المعنى؛ لأن الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، فهو صرف للشيء عن حقيقته، قال الله تعالى: {يؤفك عنه من أفك} [الذاريات: ٩]؛ أي: يصرف عنه من صرف.

إذن: {تؤفكون} أي: تصرفون عن عبادته وحده مع إقراركم بأنه الخالق وحده.

والإستفهام في قوله تعالى: {فأنى تؤفكون} الإستفهام للتوبيخ والتقريع، يعني: كيف تقرون بأنه الخالق وحده ثم تعبدون معه غيره.

الْأُمُور} فِي الْآخِرَة فَيُجَازِي الْمُكَذِّبِينَ وينصر المسلمين(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} [فاطر: ٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله من قومك فلا يحزننك ذاك، ولا يعظم عليك، فإن ذلك سنة أمثالهم من كفرة الأمم بالله، من قبلهم وتكذيبهم رسل الله التي أرسلها إليهم من قبلك، ولن يعدو مشركو قومك أن يكونوا مثلهم، فيتبعوا في تكذيبك منهاجهم ويسلكوا سبيلهم".

قال ابن كثير:"يقول: وإن يكذبك - يا محمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم".

عن قتادة:"{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ}، يعزي نبيه كما تسمعون".

قال يحيى:"يعزيه بذلك ويأمره بالصبر".

قال الزجاج:"هذا تأس للنبي ﷺ أعلمه الله أنه قد كذبت رسل من قبله، وأعلمه أنه نصرهم فقال جل وعز، {فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام: ٣٤] ".

قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [فاطر: ٤]، أي:"وإلى الله تصير الأمور في الآخرة، فيجازي كلا بما يستحق".

قال الطبري: يقول " وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم، فمُعجِل بهم العقوبة، إن هم لم ينيبوا إلى طاعتنا في اتباعك والإقرار بنبوتك، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة، نظير ما أحللنا بنظرائهم من الأمم المكذبة رسلها قبلك، ومنجيك وأتباعك من ذلك، سنتنا بمن قبلك في رسلنا وأوليائنا".

=

=

قال الزجاج:"المعنى: الأمر راجع إلى الله في مجازاة من كذب، ونصرة من كذب من رسله".

قال النحاس:"أي: الأمور مرجعها إلى الله جل وعز فيجازي من كذب وينصر من كذب من رسله".

قال ابن كثير:"أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإن يكذبوك}: (إن) هنا شرطية، وفعل الشرط {يكذبوك} وجوابه {فقد كذبت} واقترن بالفاء؛ لأنه مصدر بـ (قد).

{وإن يكذبوك} أي: ينسبوك إلى الكذب، فيقولون: إنك كاذب، لست رسولا من الله ﷻ، بل أنت ساحر ومجنون وكاهن وشاعر وما أشبه ذلك، وبعضهم يقول: لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عقاب، إن كذبوك فهذا أمر ليس ببدع من بني آدم وليس غريبا من صنيع بني آدم.

{فقد كذبت رسل من قبلك} من كذبهم؟ كذبهم أقوامهم حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد" حتى إن نوحا عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم سرا وجهرا، وبالتوبيخ وبالوعد، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل.

وقوله تعالى: {رسل} التنكير هنا للتكثير والتعظيم؛ أي: رسل كثيرة ورسل عظيمة أيضا كذبت؛ كذب نوح، وكذب إبراهيم، وكذب موسى، وكذب عيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وآخر الرسل كذبوا، فتكذيبك إذن ليس ببدع.

ويراد بهذا تسلية النبي عليه الصلاة والسلام، فإن الإنسان إذا علم أن غيره أصيب بمثل مصيبته تسلى بذلك؛ لو أن أحدا أصيب بحادث، ثم رأينا الحوادث فيها من انكسرت يده، ومن انكسرت أصبعه، ومن انكسر فخذه، ومن انكسر صلبه، فقام

=

=

الذي انكسرت أصبعه يصيح ويتضجر، قلنا له: فلان انكسر صلبه، فيخف عليه الألم وينساه؛ لأن تسلي النفس بالغير له أثر عظيم، قال الله تعالى: {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون} [الزخرف: ٣٩]، فاشتراككم في العذاب لن يخفف عنكم كما هو الشأن في حال الناس في الدنيا، وقالت الخنساء ترثي أخاها صخرا:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

قالت: (أسلي النفس عنه بالتأسي) أقول: هذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، وهذه مات أخوها، فأنت وغيرك سواء.

قوله تعالى: {وإلى الله ترجع الأمور} هنا الجار والمجرور متعلق بـ {ترجع} وقدم لإفادة الحصر؛ يعني: إلى الله لا غيره ترجع الأمور، وقد يقال: إنه قدم أيضا لفائدة لفظية وهي مراعاة الفواصل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ترجع الأمور في الآخرة فيجازي المكذبين وينصر المرسلين] وهذا أيضا من القصور؛ لأن الأمور ترجع إليه في الآخرة وفي الدنيا أيضا، فإن الله ينصر المرسلين في الدنيا ويعاقب المكذبين؛ كما قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد} [غافر: ٥١].

إذن: قوله تعالى: {ترجع الأمور} هذا عام في أمور الدنيا والآخرة، وأمور الشرع وأمور القدر، فكل الأمور ترجع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، هو الأول والآخر، منه المبتدى وإليه المنتهى، قال الله تعالى: {ألا له الخلق والأمر} [الأعراف: ٥٤]، قال ابن عمر رضي الله عنهما: "من كان له شيء فليأت به؛ لأن الله يقول: {ألا له الخلق والأمر} " وماذا يبقى؟ إذا كان الخلق - وهو الإيجاد - لله، والأمر في التصرف والتصرف لله ماذا بقي لنا؟ ما بقي شيء.

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ (٥).

{يَأَيُّهَا النَّاس إنَّ وَعْد الله} بِالْبَعْثِ وَغَيْره {حَقّ فَلَا تَغُرَّنكُمْ الْحَيَاة الدُّنْيَا} عَنْ الْإِيمَان بِذَلِكَ {وَلَا يَغُرَّنكُمْ بِاَللهِ} فِي حِلْمه وَإِمْهَاله {الغرور} الشيطان[1].

=

ولهذا لم يبق شيء في الدنيا والآخرة لأحد أبدا، فالأمور كلها لله.

والأمور هنا جمع (أمر) بمعنى الشأن؛ أي: شؤون الدنيا والآخرة والشؤون القدرية والشرعية؛ كلها ترجع إلى الله سبحانه وتعالى، إذا كانت ترجع إلى الله وقد كذبت الرسل، فما مصير الرسل والمكذبين؟

الجواب: مصير الرسل النصر في الدنيا والآخرة، ومصير المكذبين الخذلان والخزي والعار في الدنيا وفي الآخرة.

(١) قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ} [فاطر: ٥].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمشركي قريش المكذبي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس إن وعد الله إياكم بأسه على إصراركم على الكفر به، وتكذيب رسوله محمد ﷺ، وتحذيركم نزول سطوته بكم على ذلك، حق، فأيقنوا بذلك وبادروا حلول عقوبتكم بالتوبة والإنابة إلى طاعة الله والإيمان به وبرسوله".

قال الزجاج:"أي: ما وعدكم الله من مجازاة فحق".

قال السمعاني:"يعني: وعد القيامة حق".

قال ابن كثير:"أي: المعاد كائن لا محالة".

قوله تعالى: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [فاطر: ٥]، أي:"فلا تخدعنَّكم الحياة الدنيا بشهواتها ومطالبها".

قال الطبري: يقول: فلا يغرنكم ما أنتم فيه من العيش في هذه الدنيا ورياستكم التي تترأسون بها في ضعفائكم فيها عن اتباع محمد والإيمان".

=

=

قال الزجاج:"أي: وإن كان لكم حظ في الدنيا يغض من دينكم فلا تؤثروا ذلك الحظ".

قال الزمخشري: اي:"فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله".

قال ابن كثير:"أي: العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهَّوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية".

قال سعيد بن جبير: "غرور الحياة الدنيا أن يشغل الإنسان بنعيمها وفتنتها عن عمل الآخرة حتى يقول: {يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي} [الفجر: ٢٤] ".

وفي الأثر: "أن الله تعالى ما أعطي أحدا شيئا من الدنيا إلا اغترارا، وما زوى من أحد شيئا من الدنيا إلا اختبارا".

قوله تعالى: {وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ} [فاطر: ٥]، أي:"ولا يخدعنَّكم بالله الشيطان".

قال الطبري: "يقول: ولا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأماني، ويعدكم من الله العدات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله".

قال السمعاني:"أي: لا يغرنكم الغرور، وهو الشيطان".

قال الزجاج:"الغرور: الشيطان".

قال ابن كثير:" {الْغَرُورُ}: هو الشيطان".

عن ابن عباس، قوله: " {وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ}، يقول: الشيطان".

قال الحسن: "من الغرور أن تعمل المعصية، وتتنمى على الله المغفرة".

قال سعيد بن جبير: الغرور بالله جلّ وعزّ أن يكون الإنسان يعمل المعاصي ثم يتمنّى على الله جلّ وعزّ المغفرة". قال النحاس:"هذا أحسن ما قيل فيه".

ويقرأ: «الغرور» بضم الغين، وهي: الأباطيل.

=

قال العثيمين: النداء هنا موجه لعموم الناس؛ لكل الناس المؤمن والكافر.
قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ياأيها الناس إن وعد الله} بالبعث وغيره] وصدق، فكل ما وعد الله به فإنه حق، سواء البعث، أو العقاب، أو الثواب، أو النصر، أو الخذلان، أو غير ذلك مما وعد الله به، فإنه حق.
و{حق} هنا بمعنى صدق وثابت، فهو باعتبار الإخبار به صدق، وأنه سيكون، وباعتبار وقوعه ثابت، ولا بد؛ فالحق هنا بمعنى الصادق من حيث الخبر به، الواقع من حيث ثبوته، وأنه أمر كائن لا محالة، فليس وعد الله عَزَّ وَجَلَّ كوعد غيره.
قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فلا تغرنكم الحياة الدنيا} عن الإيمان بذلك] {تغرنكم} والنهي هنا مؤكد بالنون: {تغرنكم}، بدون النون: (تغركم)؛ أي: تخدعنكم، وهذا مفرع على ما قبله؛ لأن الإنسان الذي تخدعه الدنيا يكون إيمانه بوعد الله تعالى ضعيفا؛ إذ إن الدنيا تلهيه وتخدعه حتى ينجرف وراءها.
وقوله تعالى: {الحياة الدنيا} لا شك أننا في حياة، وضدها الموت، و (دنيا): اسم تفضيل، مذكره (أدنى) مثل: عليا وأعلى، سميت دنيا من وجهين:
الأول: أنها متقدمة عن الآخرة، فهي أدنى إلى الناس من الآخرة؛ ولهذا تسمى الحال الأولى.
الثاني: وسميت دنيا أيضا من دنو مرتبتها.
فهي دانية بمعنى قريبة؛ لأنها هي الأولى، وهي دانية بمعنى دنو المرتبة؛ لأن ما فيها من النعيم - إن قدر - فإنه منغص تنغيصا مستقبلا أو تنغيصا حاضرا؛ تنغيصا حاضرا؛ لأن نفس النعيم الذي تنعم به في الدنيا لا بد أن يشاب بكدر؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر

وهذا لو تأملته لوجدته كذلك، كل يوم في أسبوع ناظر نفسك؛ يوم تكون فرحا

=

مسرورا، ويوم تغتم، ويوم تأتيك أشياء خارجية تفرحك، ويوم آخر بالعكس، ثم لو قدر أن صفوها خلا من ذلك؛ يعني: لم يشب بأذى، فإن المستقبل ينغص عليك هذا الصفاء؛ كما قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

فلا بد من أحد أمرين: إما موت عاجل، وإما هرم مذهب.

فالإنسان إذا قدر أن الله تعالى مد له في العمر فإنه يرجع إلى حاله الأولى؛ كما قال تعالى: {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} [النحل: ٧٠] يرجع إلى حاله الأولى يسقط تمييزه، ويكون أشد من الصبي؛ يعني: كونه عالة على غيره أشد من كون الصبي عالة على غيره؛ لأن الصبي ليس عنده عقل وتمييز، غاية ما هنالك أنه يصيح، وإن أعطي شيئا لعب به وسكت، لكن هذا الهرم عنده شيء من التمييز.

تجده يصيح على أهله، ويرفع صوته عليهم، ويقول: كيف تنسون حاجتي، حينما كنت شابا كنت أعمل وأنفق عليكم، وأحضر لكم الطعام والشراب، واليوم تنسون، فهو يفزعهم أكثر، ثم هو أيضا ثقيل، أما الصبي فيستطيع الواحد أن يحمله على يده ويمشي به يمينا ويسارا؛ حتى يسكت، لكن هذا الهرم هو الإشكال؛ لذلك إذا تذكر الإنسان أنه إما أن يموت أو أن يصل إلى هذه الحال، فمهما كان عيشه فسوف يتنغص؛ ولهذا نقول: هذه الحياة دنيا، وهي مأخوذة من دنو الزمن ودنو المرتبة والقدر.

قوله: [عن الإيمان بذلك]؛ أي: بوعد الله، وما أكثر الذين غفلوا عن وعد الله! وما أكثر الذين اعتمدوا على الأسباب الظاهرة فنسوا الأسباب التي وراءها!

فكثير من الناس يقول في قوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره} [الحج: ٤٠] كيف ينصر الله المسلمين وهم على هذه القلة على أعدائهم الكفار وهم بهذه

=

الكثرة وبهذه القوة، كيف يكون هذا؟!

فيعتمد على الحياة الدنيا وعلى الأسباب المادية دون ما وراءها، والواجب علينا أن نؤمن بوعد الله، فالله تعالى وعد أن ينصر من ينصره كما قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم} [النور: ٥٥].

يقول قائل: كيف يستخلفنا الله في الأرض وعندنا الأمم القوية الكثيرة ما الجواب على ذلك؟

الجواب: {إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا} لا تغرك الدنيا حتى في النصر، أسباب النصر ليست هي المادة فقط، بل هناك شيء وراءها وهي قوة العزيز ﷻ؛ كما قال تعالى: {إن الله لقوي عزيز} [الحج: ٤٠].

قال المفسر رحمه الله: [{ولا يغرنكم بالله} في حلمه وإمهاله {الغرور} الشيطان]؛ يعني: لا يخدعكم أيضا من وصفه الخداع؛ ولهذا جاء وصف {الغرور} و (غرور): فعول، صفة مشبهة؛ لأن غروره كان وصفا لازما له لزوم الوجوب.

و(الغرور) غير (الغرور) بالضم؛ (الغرور) بالضم مصدر، و (الغرور) صفة مشبهة دالة على المعنى ومن قام به المعنى، (فالغرور) إذن هو الشيطان، سواء كان إنسيا أم جنيا؛ فمن شياطين الجن من يغر، وهو معروف، وهو الشيطان الذي يلقي في قلبك ما يخدعك، ومن شياطين الإنس أيضا من يغر، وهم جلساء السوء الذين يأتون الإنسان فيدخلون فيه كما يدخل الماء في المدر، أو النار في الفحم، يدخلون له دخولا بحيث يكون كالنائم أو كالميت بين يدي الغاسل، فالله ﷻ حذرنا من هؤلاء.

وقول المفسر رحمه الله: [{ولا يغرنكم بالله} في حلمه وإمهاله {الغرور} الشيطان].

[في حلمه وإمهاله]، صحيح أن الإنسان قد يغتر بالله في حلمه وإمهاله فيقول

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦).

{إِنَّ الشَّيْطَان لَكُمْ عَدُوّ فَاِتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} بِطَاعَةِ الله ولا تطيعوه {إنما يدعو حِزْبه} أَتْبَاعه فِي الْكُفْر {لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَاب السَّعِير} النَّار الشَّدِيدَة[1].

=

لنفسه: لو كنت على خطأ لعاقبني الله، وما دام الله ﷻ يرزقني ويعافيني فهذا دليل على أني على حق، لكن هذا من الأماني الباطلة التي حذر عنها رسول الله ﷺ فقال: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"؛ أي: الأماني، وهذا الحديث وإن كان فيه ما فيه من حيث الصحة، لكن معناه صحيح بلا شك، فإن الكيس الحازم هو الذي يعمل لما بعد الموت.

فقوله تعالى: {ولا يغرنكم بالله الغرور} أي: ولا يخدعنكم بالله في حلمه وإمهاله، وغير ذلك مما يتعلق بأفعاله وأحكامه.

وقوله تعالى: {ولا يغرنكم بالله الغرور} أي: الخادع وهو الشيطان؛ قول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [الشيطان] هذا اسم للشيطان (إبليس) وهو مشتق من شاط يشيط إذا غضب، أو من شطن يشطن إذا بعد، والوصفان ثابتان للشيطان؛ لأن عنده طيشا وسوء تصرف، كالذي يشيط غضبا، وهو أيضا شاطن؛ أي: بعيد عن رحمة الله ﷻ، فإن الله ﷻ لعنه فقال: {وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين} [ص: ٧٨].

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [فاطر: ٦]، أي:"إن الشيطان لبني آدم عدو، فاتخذوه عدوًّا ولا تطيعوه".

قال الطبري: يقول: " {إِنَّ الشَّيْطَانَ} الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم بالله {لَكُمْ عَدُوٌّ}، فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم واحذروه بطاعة الله واستغشاشكم إياه حذركم من عدوكم الذي تخافون غائلته على أنفسكم، فلا

=

=

تطيعوه ولا تتبعوا خطواته".

قال ابن كثير:"أي: عادوه بطاعة الله".

قال السمعاني:"أي: لا يغرنكم الغرور، وهو الشيطان".

قال قتادة:"فإنه لحق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله".

قال الزمخشري:"«الغرور»: الشيطان لأن ذلك ديدنه، أخبرنا الله ﷻ أن الشيطان لنا عدو مبين، واقتص علينا قصته وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا، فوعظنا ﷻ بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه، وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله فاتخذوه عدوا في عقائدكم وأفعالكم، ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سركم وجهركم".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر: ٦]، أي:"إنما الشيطان يدعو أتباعه إلى الضلال؛ ليكونوا من أصحاب النار الموقدة".

قال الطبري: فإنه إنما يدعو حزبه، ينعي شيعته ومن أطاعه، إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها".

قال السمعاني:"{إنما يدعو} أتباعه ليكونوا في السعير، و «السعير» هو النار المتوقدة".

قال ابن كثير:"أي: إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه كقوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ

=

=

مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا} [الكهف: ٥٠] ".

عن قتادة:" {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ}، وحزبه: أولياؤه {لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، أي: ليسوقهم إلى النار فهذه عداوته".

عن ابن زيد، قوله:" {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} ـ وقال: هؤلاء حزبه من الإنس، يقول: أولئك حزب الشيطان، والحزب: ولاته الذين يتولاهم ويتولونه وقرأ {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نزلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} ".

قال الزمخشري:"ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته ومتبعي خطواته: هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك، وأن يكونوا من أصحاب السعير. ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء، ليقطع الأطماع الفارغة والأماني الكاذبة، فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما".

وقال بعض العلماء: "وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه".

قال العثيمين: هذه الجملة مؤكدة بـ {إن}، وقال: {لكم عدو} ولم يقل: (إن الشيطان عدوكم) لثبوت هذه العداوة؛ ولهذا أتى بالجملة الإسمية المكونة من مبتدأ وخبر، فـ {عدو}: مبتدأ مؤخر و {لكم}: خبر مقدم، وتقديم الخبر هنا يفيد الحصر؛ يعني: كأنه ليس عدوا إلا لكم، ومعلوم أن من انحصرت عداوته في شخص فإنه يجب عليه أن يحترز منه أكثر وأكثر.

وقوله تعالى: {عدو} على وزن فعول، فهي صفة مشبهة، والعدو ضد الولي، فإذا كان الولي هو الناصر المتولي لأمرك المعتني به، فالعدو هو الخاذل الذي لا

=

=

يهمه أمرك، فالشيطان عدو، يقول الله ﷻ: {فاتخذوه عدوا} لما أكد أنه عدو لنا رتب على ذلك فقال: {فاتخذوه عدوا} والفاء هنا يسمونها فاء التفريع؛ أي: فبسبب ثبوت كونه عدوا اتخذوه عدوا؛ يعني: اجعلوه عدوا لكم بحيث تنفرون منه نفوركم من الأعداء.

فإذا قال قائل: كيف نتخذه عدوا؟

الجواب: نتخذه عدوا بكراهته وبغضه، وبعدم الإنصياع لأمره ووسوسته، لأنه كما قال الله عنه: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء} [البقرة: ٢٦٨] فهو لا يأمر إلا بالفحشاء والسوء ومعصية الله ﷻ، فإذا أحسست من نفسك أنك تهوى المعصية فاعلم أن هذا من إملاء الشيطان، فيجب عليك أن تنفر من هذا؛ لأن هذا صادر من عدو لك، لا يريد إلا إضرارك وخذلانك؛ ولهذا قال الله تعالى: {إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير}.

قال المفسر رحمه الله: [{فاتخذوه عدوا} بطاعة الله، ولا تطيعوه] يعني: أطيعوا الله ولا تطيعوا الشيطان، وأنتم إذا أطعتم الله فإن هذا أعظم سلاح يغيظ هذا الشيطان، فإذا أطعت الله ﷻ فإنك بذلك تغيظ الشيطان وتدحره وتذله كما أنك تذل أولياءه أيضا وتغيظهم، قال الله ﷻ: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا} [الفتح: ٢٩] إلى أن قال: {ليغيظ بهم الكفار} [الفتح: ٢٩]، فهؤلاء القوم بصفتهم المذكورة يغيظون الكفار، والكفار أولياء الشيطان، فإذا كانوا يغيظون الكفار فإنهم يغيظون الشيطان أيضا، فأعظم شيء لإغاظة الشيطان هو أن تقوم بطاعة الله ﷻ.

يروى أن الشيطان يقول عن بني آدم: "أهلكتهم بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والإستغفار"، فالتوحيد وسؤال المغفرة لا شك أنه يغيظ الكفار.

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنما يدعو حزبه} أتباعه في الكفر {ليكونوا من أصحاب السعير} النار الشديدة].

{إنما} أداة حصر تفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه؛ يعني: ما يدعو حزبه إلا لهذا الأمر؛ لأن يكونوا من أصحاب السعير، واللام في قوله تعالى: {ليكونوا من أصحاب السعير} اللام هذه للعاقبة؛ يعني: يدعو حزبه للشر والفحشاء لأجل أن يكونوا من أصحاب السعير.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{حزبه} أتباعه في الكفر] قد يقال: إن فيه قصورا؛ لأن حزب الشيطان الحزب المطلق لا شك أنهم الكفار، لكن من عصى الله عَزَّ وَجَلَّ ولو لم يكن كافرا في معصية من المعاصي فله من حزبية الشيطان بقدر ما عصى الله، لكن الحزب المطلق هم الكفار.

قوله تعالى: {ليكونوا من أصحاب السعير} يعني: من أصحاب النار، والسعير هو النار الشديدة، وإنما يدعوهم لذلك؛ لأنه لما غوى - والعياذ بالله - وتكبر عن عبادة الله قال: {قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم} [الأعراف: ١٦]، وقال: {قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين} [الحجر: ٣٩].

لما خذل - والعياذ بالله - وطرد وصار غاويا حرص على أن يكون له أتباع في غيه، وهذا أمر مشاهد؛ فأهل الحق يودون أن يكون لهم أتباع في الحق، وأهل الباطل يودون أن يكون لهم أتباع في الباطل، فالشيطان - والعياذ بالله - لما كان من أصحاب النار أحب أن يكون الناس - أي: بنو آدم - أن يكون الناس كلهم من أصحاب النار، هؤلاء الذرية ذرية آدم، وشقاء إبليس إنما كان لتركه السجود لآدم، فلا جرم أن يغوي ذريته وأن يحارب بكل ما يستطيع إغواءهم حتى يكونوا من أصحاب النار.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧).

{الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَاب شَدِيد وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَهُمْ مَغْفِرَة وَأَجْر كَبِير} هَذَا بَيَان مَا لِمُوَافِقِي الشَّيْطَان وَمَا لِمُخَالِفِيه[1].

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [فاطر: ٧]، أي:"الذين جحدوا أن الله هو وحده الإله الحق وجحدوا ما جاءت به رسله لهم عذاب شديد في الآخرة".

قال الطبري:"{الَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ورسوله {لَهُمْ عَذَابٌ} من الله {شَدِيدٌ} وذلك عذاب النار".

قال ابن كثير:"لأنهم أطاعوا الشيطان وعَصَوا الرحمن".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [فاطر: ٧]، أي:"والذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات لهم عفو من ربهم وتجاوز عن ذنوبهم بعد سترها عليهم، ولهم أجر كبير، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول: والذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله وانتهوا عما نهاهم عنه {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} من الله لذنوبهم {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، وذلك الجنة".

قال ابن كثير:" {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: لما كان منهم من ذنب، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} على ما عملوه من خير ".

عن قتادة: " {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، وهي الجنة".

عن ابن جريج، في قوله: " {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، {ورِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة".

قال البيضاوي: الآية:"وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأماني الفارغة، وبناء للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى {الذين كفروا} مبتدأ، خبره جملة {لهم عذاب شديد} والعذاب: العقوبة، وأتى بالجملة الإسمية لثبوت هذا العذاب واستمراره؛ لأن الكافرين مخلدون في نار جهنم، و (الشديد) بمعنى القوي، وأما غيرهم فقال: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} الذين آمنوا؛ الإيمان محله القلب؛ أي: صدقوا بما يجب الإيمان به مع القبول والإذعان، فالإيمان ليس مجرد التصديق، بل هو تصديق مقرون بقبول وإذعان؛ قبول لما آمن به، وإذعان يقتضيه هذا الإيمان، أما مجرد التصديق فليس إيمانا، ولو شئتم لضربنا مثلا بأبي طالب؛ فإن أبا طالب كان مصدقا للنبي ﷺ، ولكنه لم يقبل، ولم يذعن، فلم ينفعه هذا التصديق.

{والذين آمنوا} أي: صدقوا بما يجب الإيمان به تصديقا مستلزما للقبول والإذعان، وأما قوله تعالى: {وعملوا الصالحات} فلا بد من العمل الصالح حتى يتم الإيمان ويتحقق ويتبين.

قال العلماء رحمهم الله: العمل الصالح هو الذي كان خالصا صوابا؛ أي: خالصا لله، صوابا في موافقة شريعة الله، وهذا التعريف يعم هذه الأمة وغيرها، فما كان خالصا لله موافقا لشريعته فهو صالح، وما لم يكن كذلك فهو فاسد، فلو فقد الإخلاص من العمل لم يكن صالحا، ولو وجد الإخلاص لكن لم يكن على وفق الشريعة لم يكن صالحا، وعلى هذا فالأعمال البدعية - وإن أخلص فيها صاحبها - ليست بصالحة، والأعمال الشرعية إذا شاركها الرياء وإرادة الخلق لم تكن صالحة.

وقوله تعالى: {وعملوا الصالحات} هذه تتكرر في القرآن كثيرا، وهي على ما قال النحويون: من باب حذف المنعوت ووجود النعت للدلالة عليه؛ لأن أصلها: وعملوا الأعمال الصالحات.

=

=

قوله تعالى: {لهم مغفرة وأجر كبير} الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر لهم عملا وذكر لهم جزاءين، أما الذين كفروا فذكر عملا واحدا وجزاء واحدا، فالذين كفروا لهم عذاب شديد، العمل: الكفر، والجزاء: العذاب الشديد، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهذان عملان والجزاء: لهم مغفرة وأجر كبير، فمغفرة لذنوبهم، وأجر كبير على أعمالهم الصالحات.

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا إذا كان قويا يمنع، وليست المغفرة مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر والعقوبة ليس بمغفرة، بل لا بد من أمرين: الستر، وعدم المؤاخذة.

وقوله تعالى: {وأجر} الأجر: الثواب الذي يجازى به العامل، حتى الأجرة مثلا إذا استأجرت رجلا يعمل لك عملا وأعطيته أجرة، فهذا أجر، وسمى الله ﷻ الثواب أجرا؛ لأنه لا بد أن يناله العامل، فهو كأجرة الأجير، فلا بد أن ينالها العامل، وهذا كقوله تعالى: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا} [البقرة: ٢٤٥] فسمى العمل لله قرضا؛ لأن القرض يجب إيفاؤه؛ فمثل هذه الآيات تدل على أن الله ﷻ أوجب على نفسه أن يثيب العامل.

وقوله تعالى: {وأجر كبير} هل هو كبير في حجمه أو كبير في معناه؟

الجواب: كلاهما؛ لأن "أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه ألفي عام يرى أقصاه كما يرى أدناه"، وهذا لا شك أنه كبير واسع، وكذلك في المعنى؛ لأنه دائم وثابت.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير} هذا بيان ما لموافقي الشيطان وما لمخالفيه] موافقو الشيطان هم الذين كفروا، ومخالفوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

=

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨).

وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْل وَغَيْره {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَله} بِالتَّمْوِيهِ {فَرَآهُ حَسَنًا} مِنْ مُبْتَدَأ خَبَره كَمَنْ هَدَاهُ الله لَا دَلَّ عَلَيْهِ {فَإِنَّ الله يُضِلّ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء فَلَا تَذْهَب نَفْسك عَلَيْهِمْ} عَلَى الْمُزَيَّن لَهُمْ {حَسَرَات} بِاغْتِمَامِك أَنْ لَا يُؤْمِنُوا {إِنَّ الله عَلِيم بِمَا يَصْنَعُونَ} فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ[1].

=

إذن: يجب علينا أن نتخذ الشيطان عدوا بالإيمان والعمل الصالح.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أنزلت هذه الآية: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ} الآية، حيث قال النبي ﷺ: "اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام"؛ فهدى الله عمر وأضل أبا جهل؛ ففيهما أنزلت.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٨١)، وقال: وأخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ جويبر متروك الحديث، والضحاك لم يلق ابن عباس.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧) ونسبه للطبري عن جويبر عن الضحاك دون ذكر لابن عباس. ولم نجده فيه.

* قوله تعالى: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨].

قال الطبري: يقول:"أفمن حسَّن له الشيطان أعماله السيئة من معاصي الله والكفر به، وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان، فرآه حسنًا فحسب سيئ ذلك حسنًا، وظن أن قبحه جميل، لتزيين الشيطان ذلك له".

قال يحيى بن سلام: "كمن آمن وعمل صالحا، أي: لا يستويان، وهذا على

=

=

الاستفهام، وفيه إضمار".

قال الفراء:"يقول: شبه عليه عمله، فرأى سيئه حسنا".

قال قتادة والحسن: "الشيطان زيَّن لهم".

قال الزجاج:"الجواب ههنا على ضربين:

أحدهما: يدل عليه: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات}. ويكون المعنى: أفمن زين له سوء عمله فأضله الله ذهبت نفسك عليه حسرة.

ويجوز أن يكون الجواب محذوفا ويكون المعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، ويكون دليله: {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء} ".

عن أبي قلابة:"أنه سئل، عن هذه الآية: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}، أهم عمالنا هؤلاء الذين يصنعون؟ قال: ليس هم. إن هؤلاء ليس أحدهم يأتي شيئا مما لا يحل له إلا قد عرف أن ذلك حرام عليه. إن أتى الزنا فهو حرام، أو قتل النفس فهو حرام، إنما أولئك أهل الملل. اليهود، والنصارى، والمجوس، وأظن الخوارج منهم، لأن الخارجي يخرج بسيفه على جميع أهل البصرة، وقد عرف أنه ليس ينال حاجته منهم، وأنهم سوف يقتلونه، ولولا أنه من دينه ما فعل ذلك".

عن عبد الله بن الديلمي قال أتيت عبد الله بن عمرو وهو في حائط بالطائف يقال له: الوهط قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن خطأه منه ضل، فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله ﷻ» ثم قال: حدثني يحيى بن عبدك القزويني حدثنا حسان بن حشان البصري، ثنا إبراهيم بن بشير، ثنا يحيى بن معن، ثنا إبراهيم القرشي، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «الحمد لله الذي يهدي من الضلالة، ويلبس

=

=

الضلالة على من أحب» ".

وقرئت: «فلا تذهب نفسك»، بضم التاء وجزم الباء ونصب النفس.

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [فاطر: ٨]، أي:"فإن الله يضل من يشاء من عباده، ويهدي من يشاء".

قال الطبري: يقول:"يقول: فإن الله يخذل من يشاء عن الإيمان به واتباعك وتصديقك، فيضله عن الرشاد إلى الحق في ذلك، ويوفق من يشاء للإيمان به واتباعك والقبول منك، فتهديه إلى سبيل الرشاد".

قوله تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [فاطر: ٨]، أي:"فلا تُهْلك نفسك حزنًا على كفر هؤلاء الضالين".

قال الطبري:"يقول: فلا تهلك نفسك حزنًا على ضلالتهم وكفرهم بالله وتكذيبهم لك".

قال يحيى: " لا تحسر عليهم إذ لم يؤمنوا كقوله: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} [النحل: ١٢٧/ النمل: ٧٠] ".

قال قتادة: " أي: لا يحزنك ذلك عليهم".

قال ابن زيد:"الحسرات الحزن، وقرأ قول الله: {يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} ".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر: ٨]، أي:"إن الله عليم بقبائحهم وسيجازيهم عليها أسوأ الجزاء".

قال الطبري: يقول:"إن الله يا محمد ذو علم بما يصنع هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، وهو محصيه عليهم، ومجازيهم به جزاءهم".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [ونزل في أبي جهل وغيره: {أفمن زين له سوء عمله} بالتمويه] أبو جهل كان يسمى في الجاهلية أبا الحكم؛ يعني: أنه ذو حكمة

=

=

وعقل وروية، لكنه سمي في الإسلام أبا جهل؛ لأن أعظم الجهل أن يبقى على كفره، ولا يؤمن بالله، نزل فيه {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}: {أفمن} الهمزة هنا للإستفهام، والفاء: حرف عطف، والمعطوف عليه مختلف فيه؛ فمنهم من قال: إنه مقدر بين الهمزة وحرف العطف فيكون بحسب السياق، ومنهم من قال: إن المعطوف عليه ما سبق، فعلى الأول نقدر المحذوف بما يناسب المقام، فمثلا قوله تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض} [يوسف: ١٠٩] التقدير: أغفلوا فلم يسيروا في الأرض، وهنا نقول: {أفمن زين له سوء عمله} نقدرها بما يناسب، فنقول: التقدير: أتدركون هذا الشيء فمن زين له سوء عمله، أو نقول: أيستوي المؤمن والكافر فمن زين له سوء عمله.

ولكن القول الثاني في المسألة أنه معطوف على ما سبق أحسن؛ لأن الأصل عدم التقدير، ولأنه في بعض الأحيان يصعب على الإنسان أن يقدر المحذوف، وعلى هذا القول يقولون: إن حرف العطف (الفاء) يقدر سابقا للهمزة، فيكون فيه تقديم وتأخير، والتقدير على هذا: (فأمن زين له سوء عمله).

وقوله تعالى: {زين له سوء عمله} من المزين؟

ذكر الله ﷻ أن المزين الشيطان، وذكر أن المزين هو الله {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون} [النمل: ٤]، وقال تعالى: {وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل} [النمل: ٢٤]، وفي بعض الآيات يكون المزين مبهما كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب} [آل عمران: ١٤].

فالمزين الله، والمزين الشيطان، فإذا قلت: كيف تجمع بين هذا وهذا؟

=

=

فالجواب: أن المزين المباشر هو الشيطان، أما الله ﷻ فهو مزين بالتقدير؛ يعني: هو الذي قدر على الشيطان أن يزين لهم، ومعلوم أن الله تعالى خالق الشيطان، وما نتج من أعماله فهو مضاف إلى الله؛ كما نقول في الإنسان: إنه مخلوق لله، وما نتج من أعماله فهو مخلوق لله ﷻ، فيكون تزيين الله تعالى حسب التقدير؛ يعني: هو الذي قدر أن يزين الشيطان لهم أعمالهم.

قوله تعالى: {زين له سوء عمله} : (عمل) مفرد مضاف، فيشمل كل الأعمال، سواء كانت شركا أو عدوانا على الغير، أو سوء السلوك وفساد الأخلاق، أو غير ذلك.

المهم: أنه شامل لكل الأعمال.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتمويه]؛ أي: أنه يموه على الناس أن هذا العمل الذي يقوم به عمل حسن.

قوله تعالى: {فرآه حسنا} أي: رأى سوء عمله حسنا، وهذا أشد ما يكون؛ أن يكون الإنسان على خطأ ويرى أنه على صواب؛ لأن مثل هذا لا يكاد يظهر عن غيه؛ حيث إنه يعتبره صوابا، ومن ذلك مثلا أصحاب الحيل (المخادعون)، فالمنافق مثلا زين له سوء عمله؛ لأنه يرى أنه ذكي {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم} [البقرة: ١٤] وهذا من سوء العمل. وكذلك المتحيلون على الربا بأنواع الحيل هؤلاء أيضا زين لهم سوء أعمالهم؛ ولهذا لا تكاد تجدهم مقلعين عما هم عليه؛ لأنه قد زين ذلك في نفوسهم فلا يقلعون عنه؛ المهم أن هذا له أمثلة كثيرة.

بقي علينا أن نقول: (من) مبتدأ فأين خبره؟ قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من: مبتدأ، خبره: كمن هداه الله، لا؛ دل عليه {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء}].

قوله تعالى: {أفمن زين له سوء عمله} يعني: (كمن لم يزين له سوء عمله ورأى

=

=

سوء عمله سيئا)؛ لأن الذي زين له سوء عمله سيستمر عليه، والذي رآه سيئا سوف يتجنبه، وهذا ما يقوله المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كمن هداه الله]، ومثل هذا التعبير يأتي في القرآن كثيرا؛ كما في قوله تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: ٩] فالخبر محذوف؛ أي: كمن ليس كذلك.

فقوله: [لا]؛ يعني: ليس هذا كهذا، قال: بينهما فرق؛ فإن من زين له سوء عمله فسوف يبقى على ضلاله، ومن لم يزين له سوء عمله ورآه سيئا فسيتجنبه ولا يقع فيه.

وقوله: [دل عليه: {فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء}]، وعلى هذا، فالفاء هنا ليست واقعة في خبر المبتدأ، بل خبر المبتدأ محذوف، لكنها عطف على ذلك الخبر؛ أي: فإن الله يضل من يشاء عن الحق فلا يهتدي إليه، ويهدي من يشاء إلى الحق فيلتزمه، وهنا يقول: {يضل من يشاء} تقدم كثيرا تعليق الأشياء بالمشيئة، ولكننا قلنا ونقول: إن هذه المشيئة مقرونة بالحكمة؛ من اقتضت حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يضله أضله، ومن اقتضت حكمته أن يهديه هداه، من الذي تقتضي حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يضله؟

هو الذي أراد الضلال؛ كما قال تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥].

فإذن: إضلال الله تعالى للعبد في محله، وذلك بأن يكون هذا الرجل لا يريد الخير، وإنما يريد الشر.

واعلم أن الهداية والضلال إما عدل وإما فضل، فالضلال عدل؛ لأنه جوزي بحسب ما أراد، لما أراد الضلال - والعياذ بالله - وزاغ قلبه أزيغ، وأما الهداية فإنها فضل من الله عَزَّ وَجَلَّ يتفضل بها على من يشاء من عباده.

=

=

ولهذا لو قال قائل: كيف يجعل الله تعالى هذا مهتديا وهذا ضالا، أليس هذا ظلما؟

والجواب: لا؛ لأن منع الهداية من هذا الضال إنما هو لمقتضى عدله، أما هداية المهتدي فبفضله.

فنقول: إن منعك ما هو لك فقد ظلمك، وإن منعك فضله ففضل الله يؤتيه من يشاء، ولولا أنك لست أهلا للهداية ما منعك الله هدايته.

قوله تعالى: {ويهدي من يشاء} المراد بالهداية هداية التوفيق، وربما نقول: هداية التوفيق والدلالة، ولكن الأهم هو هداية التوفيق، ولعل هذا هو المراد هنا؛ لأن الذين أضلهم الله قد هداهم الله هداية الدلالة؛ كما قال تعالى: {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: ٢٥] وهذا عام، ولكن الهداية أن يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقوله تعالى: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} هل هذا النهي نهي عما كان أو نهي عما لم يكن؟ الظاهر أنه نهي عما كان، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام يتحسر على هؤلاء المكذبين الذين كانوا يكذبونه ويضيق صدره، ويقول ﷻ: {لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين} [الشعراء: ٣]، فـ {لعلك باخع} أي: مهلك نفسك، {ألا يكونوا مؤمنين}.

فالرسول عليه الصلاة والسلام تحسر لهؤلاء لعدم إيمانهم، والنهي عن الشيء قد يكون نهيا عما كان وقد يكون نهيا عما لم يكن؛ فقوله للنبي عليه الصلاة والسلام: {فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين (٢١٣) وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: ٢١٣ - ٢١٤] هذا نهي عما لم يكن؛ لأن الرسول لم يدع.

قوله تعالى: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} يعني: لا تذهب نفسك من أجلهم، كما يقال: (بكيت عليك الدهر) أي: من أجلك، فالمعنى: لا تذهب

=

وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩).

{وَالله الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاح} وَفِي قِرَاءَة الرِّيح {فَتُثِير سَحَابًا} الْمُضَارِع لِحِكَايَةِ الْحَال الْمَاضِيَة أَيْ تُزْعِجهُ {فَسُقْنَاهُ} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغِيبَة {إِلَى بَلَد مَيِّت} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف لَا نَبَات بِهَا {فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْض} مِنْ الْبَلَد {بَعْد مَوْتهَا} يُبْسهَا أَيْ أَنْبَتْنَا بِهِ الزَّرْع وَالْكَلَأ {كَذَلِكَ النُّشُور} أَيْ الْبَعْث وَالْإِحْيَاء(١).

=

نفسك من أجلهم حسرات.

قوله تعالى: {حسرات} قيل: إنها حال على أنها مصدر أريد به اسم الفاعل؛ أي: حاسرة، والحسرة هي الهم الشديد والغم على ما فات، وكل من فاته شيء يحبه ويطلبه فاهتم لذلك واغتم يقال: (تحسر)، وقيل: إن {حسرات} مصدر وأنه مفعول من أجله، والمعنى: فلا تذهب نفسك؛ أي: تهلك؛ من أجل الحسرات عليهم.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} على المزين لهم {حسرات} باغتمامك ألا يؤمنوا {إن الله عليم بما يصنعون} فيجازيهم عليه] في هذه الجملة تهديد وتسلية؛ تهديد لهؤلاء المخالفين، وتسلية للرسول عليه الصلاة والسلام؛ يعني: لا يهمنك أمرهم؛ فإنك سائر مع الله وسوف يجازيهم.

(١) قوله تعالى: {وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا} [فاطر: ٩].

قال الطبري: يقول:"والله الذي أرسل الرياح فتثير السحاب للحيا والغيث".

قال أبو عبيدة:"أي: تجمع وتجيء به وتخرجه".

قال قتادة:"يرسل الرياح فتسوق السحاب".

قوله تعالى: {فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ} [فاطر: ٩]، أي:"فسقنا السحاب الذي

=

=

يحمل الغيث إلى بلدٍ مجدب قاحل".

قال الطبري: " يقول: فسقناه إلى بلد مجدب الأهل، محل الأرض، داثر لا نبت فيه ولا زرع".

قوله تعالى: {فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [فاطر: ٩]، أي:"فأحيينا به الأرض بعد يُبْسها فتخضر بالنبات".

قال الطبري: " يقول: فأخصبنا بغيث ذلك السحاب الأرض التي سقناه إليها بعد جدوبها، وأنبتنا فيها الزرع بعد المحل".

قال قتادة:"فأحيا الله به هذه الأرض الميتة بهذا الماء".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ النُّشُورُ} [فاطر: ٩]، أي:"مثل ذلك الإحياء يحيي الله الموتى يوم القيامة".

قال الطبري: يقول: "هكذا يُنْشِر الله الموتى بعد بلائهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرض بالغيث بعد مماتها".

قال الزجاج:"أي: مثل إحياء الأرض، وكذلك بعثكم".

قال قتادة:"فكذلك يبعثه يوم القيامة".

قال ابن مسعود:"يقوم ملك بالصور بين السماء والأرض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله في السموات والأرض إلا ما شاء الله ثم يرسل الله من تحت العرش منيا كمني الرجال، فتنبت أجسامهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الثرى، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: {اللهُ الَّذِي [يرسل] أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} يكون بين النفختين ما شاء الله، ثم يقول ملك فينفخ فيه فتنطلق كل نفس إلى جسدها، «فتدخل فيه» ".

عن أبى رزينة العقيلي رضي الله، عنه قال: "قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله

=

=

الموتى؟ قال: أما مررت بأرض مجدبة، ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء؟ قال: بلى، قال: كذلك يحي الله الموتى وكذلك النشور".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{والله الذي أرسل الرياح} وفي قراءة: (الريح)] الله - وحده - هو الذي يرسل هذه الرياح دون غيره، فلن يستطيع أحد أن يرسل شيئا من هذه الرياح، حتى الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن يرسلوا الريح ما استطاعوا، لو اجتمعوا على أن يهونوا عصفها ما استطاعوا، ولكن ذلك بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله وحده الذي يرسل الرياح.

وتأمل قوله تعالى: {أرسل} حيث جعلها رسولا كأنها تبلغ أو كأنها تفعل ما أمرت به كما أن الرسول يبلغ ما أرسل به فهي مرسلة؛ ولهذا ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي عن سب الريح؛ لأن سب الريح يعود حقيقة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه هو الذي أرسلها، فهي مدبرة مسخرة.

وقوله: [{الرياح} وفي قراءة: (الريح)] والقراءة هنا سبعية، والفرق بينهما أن (الرياح) جمع، و (الريح) مفرد، لكن هذا المفرد في معنى الجمع؛ لأنه محلى بـ (أل) وهي للإستغراق، فيشمل كل الرياح، سواء أتت من الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب، فالله تعالى هو الذي أرسلها.

واعلم أن الغالب أن (الرياح) مجموعة تكون في الخير، و (الريح) مفردة تكون في ضده، ولهذا يروى عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعاء الريح: "اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا".

ولكن مع ذلك تأتي هذه محل هذه، ويكون هناك قرينة، ففي قوله تعالى: {وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} [الذاريات: ٤١]، هذه في الشر، وقوله تعالى: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة} [يونس: ٢٢] هذه في الخير؛ لأنها وصفت، وقوله تعالى: {وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته}

=

=

[الأعراف: ٥٧] هذه في الخير، وهنا تكون في الخير أيضا.

قوله تعالى: {فتثير سحابا} تثير عطف المضارع على الماضي، وكان مقتضى النسق أن يعطف على الماضي ماضيا مثله، فيقول: (والله الذي أرسل الرياح فأثارت)، لكن لماذا عدل عن الماضي إلى المضارع؟

بينه المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: [{فتثير سحابا} المضارع لحكاية الحال الماضية]؛ يعني: عبر بالمضارع عن الماضي حكاية للحال حين إرسالها؛ لأنه أبلغ في التصور، كأنها الآن أمامك وهي تثير هذا السحاب، وهذا أبلغ في تصور الإنسان؛ لأنه يستحضر الحال الماضية كأنها الآن؛ إذ إن المضارع - كما هو معلوم - يصلح للحال والإستقبال، ولكنه قد يقترن به ما يعينه للحال، ويقترن به ما يعينه للإستقبال، ويقترن به ما يعينه للماضي، إنما الأصل فيه أنه للحاضر والمستقبل، ولا يكون للماضي إلا بقرينة، فعليه نقول: عدل عن التعبير بالماضي هنا لحكاية الحال الماضية حتى كأنك تشاهدها الآن وهي تثير هذا السحاب.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى {فتثير} قال: أي [تزعجه]، وهذا معنى قد يناقش فيه؛ لأن الإزعاج أخص من الإثارة؛ لأن الإثارة بمعنى إنهار الشيء كما يقال: (أثرت البعير)؛ أي: أنهضته حتى صار قائما بعد أن كان باركا.

وقوله تعالى: {فتثير سحابا} كأن هذا السحاب في الأصل في الأرض، ثم أثارته هذه الرياح، ومعلوم أن السحاب يكون من بخار البحر، ويكون أحيانا من الجو المتلبد بالرطوبة حسبما تقتضيه حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا أمر يرجع إلى معرفة العلوم الطبيعية.

قوله تعالى: {سحابا} السحاب هو هذا الغيم المعروف في الجو كما تشاهدونه؛ فلذلك سمي سحابا لانسحابه في الجو.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فسقناه} فيه التفات عن الغيبة]؛ أي: إلى التكلم، وفيه أيضا

=

التفات من المضارع إلى الماضي؛ ولذا قال: {أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه} عدل عن المضارع إلى الماضي لاختلاف الفاعل في الفعلين؛ لأن (تثير) الفاعل فيها (الرياح)، و (سقناه) الفاعل فيها (الله).

إذن: يحسن أن تكون بلفظ الماضي عطفا على قوله تعالى: {أرسل} لأن المرسل هو الله، فلما اتحد الفاعل في الفعلين (أرسل، وسقنا) كان الأفصح أن يكونا جميعا بلفظ الماضي، لكن فيه عدول عن الغيبة في قوله تعالى: {والله الذي أرسل} إلى التكلم في قوله تعالى: {فسقناه} لماذا؟

الجواب: سبق أن الإلتفات له فائدة دائمة وهي التنبيه؛ لأن سياق الكلام على نسق واحد يقتضي أن الذهن ينساق معه ولا يتوقف، لكن إذا اختلف السياق يقف الذهن، وينظر ما الذي حدث؟ وحينئذ يكون في تغييره تنبيه للمخاطب؛ فهذا واحد.

لكن هنا أيضا فيه فائدة ثانية: وهي بيان قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله تعالى: {فسقناه} أي: نحن، فأضافه إلى نفسه؛ لأنه أدل على القدرة، فإذا اجتمع {والله الذي أرسل} ثم الله سبحانه وتعالى ساق هذا السحاب الذي أثارته الريح فهو أدل على القدرة مما لو جاء على نسق واحد.

قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إلى بلد ميت} بالتشديد والتخفيف: لا نبات بها].

كلمة {ميت} فيها قراءتان، {ميت} و (ميت) وقد قيل: إن (الميت) لمن مات بالفعل، والميت لمن سيموت، وجعلوا على ذلك شاهدا في قوله تعالى: {إنك ميت وإنهم ميتون} [الزمر: ٣٠]؛ أي: ستموت، وقوله تعالى: {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس} [الأنعام: ١٢٢] فـ {ميتا} هنا لمن قد مات، هكذا فرق بعضهم.

والظاهر أن اللغة العربية تأتي بالوجهين على المعنيين، ومنه هذه الآية، فـ {ميت}

=

هنا هل معناها: سيموت، أو المعنى: قد مات بالفعل؟

الجواب: قد مات، ومع هذا جاءت بالتشديد.

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا نبات بها] وهذا هو موت البلد، والمراد بالبلد هنا ليس المسكون من الأرض، بل ما هو أعم، فيشمل المسكون وغير المسكون، وتخصيص البلد بالمسكون تخصيص عرفي، وإلا فإن كل الأرض بلد لانبلادها وتسطحها؛ ولهذا يقول الله ﷻ: {إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض} أحيينا به، سقناه فأحييناه، هنا الأفعال والضمائر على نسق واحد.

قوله: [{فأحيينا به الأرض} من البلد]: [من البلد]؛ يعني: أرض البلد هذه التي كانت ميتة أحياها الله ﷻ؛ أحياها بالنبات؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{بعد موتها} يبسها؛ أي: أنبتنا به الزرع والكلأ] وهذا أمر مشاهد، تأتي الأرض يابسة هامدة عيدان تتكسر فينزل الله المطر عليها، ثم تهتز خضراء فيها من كل زوج بهيج، فمن الذي أحياها؟

الله ﷻ، لا يستطيع الخلق أن يحيوها أبدا مهما كان، حتى الكلأ الذي ينبت بالمطر لا ينبته الماء الجاري كما هو مشاهد؛ يعني: لو تسقي هذه الأرض مهما سقيتها بالماء الجاري فإن الكلأ الذي ينبت من المطر لا ينبت بهذا الماء.

إذن: فالله ﷻ هو الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها؛ أي: بعد أن كانت يابسة هامدة ليس بها نبات، أحياها الله سبحانه وتعالى بقدرته.

قوله: [{كذلك النشور} أي: البعث والإحياء]

{كذلك} الكاف هنا اسم بمعنى: (مثل)، وهي خبر مقدم و {النشور} مبتدأ مؤخر؛ أي: النشور مثل ذلك، ويجوز أن تقول: {كذلك} الكاف حرف جر، ليست اسما بمعنى: (مثل) وتجعلها جارا ومجرورا خبرا مقدما، و {النشور}: مبتدأ مؤخرا، والتقدير: (النشور كائن كذلك)، و {النشور} هو نشر الأموات

=

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠).

{مَنْ كَانَ يُرِيد الْعِزَّة فَلِلَّهِ الْعِزَّة جَمِيعًا} أَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة فَلَا تَنَال مِنْهُ إلَّا بِطَاعَتِهِ فَلْيُطِعْهُ {إلَيْهِ يَصْعَد الْكَلِم الطَّيِّب} يَعْلَمهُ وَهُوَ لَا إلَه إلَّا الله وَنَحْوهَا {وَالْعَمَل الصَّالِح يَرْفَعهُ} يَقْبَلهُ {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ} الْمَكَرَات {السَّيِّئَات} بِالنَّبِيِّ فِي دَار النَّدْوَة مِنْ تَقْيِيده أَوْ قَتْله أَوْ إخْرَاجه كَمَا ذَكَرَ فِي الْأَنْفَال {لَهُمْ عَذَاب شَدِيد وَمَكْر أُولَئِكَ هُوَ يبور} يهلك[1].

=

على وجه الأرض وإحياؤهم بعد أن كانوا أمواتا.

والتشبيه هنا هل هو تشبيه للسبب والنتيجة أو للنتيجة فقط؛ أي: هل المعنى أن النشور الذي يكون للأموات يكون بواسطة ماء ينزله الله ﷻ فتنبت هذه الأجسام ثم تحيا، أو أن التشبيه للنتيجة فقط؛ أي إن إحياء الموتى كإحياء الأرض بقطع النظر عن السبب؟

الجواب: الأول؛ لأنه ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى يرسل على الأرض من تحت العرش مطرا غليظا حتى يصل إلى الأجسام فتنبت في القبور كما تنبت الحبة في الأرض، وإذا تكاملت الأجسام نفخ في الصور، فخرجت الأرواح إلى أجسامها، وعلى هذا فيكون التشبيه هنا عائدا إلى السبب والنتيجة أيضا، هذا هو المشهور عند أهل العلم رحمهم الله.

(١) قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: ١٠].

قال الطبري: يقول: "من كان يريد العزة فبالله فليتعزز، فلله العزة جميعًا، دون كل ما دونه من الآلهة والأوثان".

قال الزجاج: "أي من كان يريد بعبادته غير الله العزة فلله العزة جميعا، أي: في

=

=

حال اجتماعها، أي يجتمع له في الدنيا والآخرة".

قال مجاهد، قوله: " {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ}، قال: بعبادة الأوثان {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} قال: فلي: فليتعزز بطاعة الله".

عن قتادة، قوله: " {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}، يقول: فليتعزز بطاعة الله".

قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠]، أي:"إليه سبحانه يصعد ذكره".

قال الطبري: يقول:"إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه".

قال مقاتل:"يقول: إلى الله- ﷻ- يصعد في السماء التوحيد".

قال الزجاج:"أي إليه يصل الكلم الذي هو توحيد الله، وهو قول لا إله ألا الله".

عن شهر بن حوشب:"{إليه يصعد الكلم الطيب}، قال: القرآن".

عن مطر:"{إليه يصعد الكلم الطيب}، قال: الدعاء".

قوله تعالى: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠]، أي:"أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب".

قال الطبري:"ويرفع ذكر العبد ربه إليه عمله الصالح، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه والانتهاء إلى ما أمر به".

قال مقاتل:"يقول: شهادة ألا إله إلا الله ترفع العمل الصالح إلى الله- ﷻ- في السماء".

قال الزجاج:"المعنى: إذا وحد الله وعجل بطاعته ارتفع ذلك إلى الله، والله – عز – وجل – يرتفع إليه كل شيء ويعلم كل شيء. ولكن المعنى فيه ههنا العمل الصالح هو الذي يرفع ذكر التوحيد حتى يكون مثبتا للموحد حقيقة التوحيد. والضمير في {يرفعه} يجوز أن يكون أحد ثلاثة أشياء، وذلك قول أهل اللغة

=

=

جميعا، فيكون والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، ويجوز أن يكون والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، أي: لا يقبل العمل الصالح إلا من موحد، والقول الثالث: أن يرفعه الله ﷻ".

قال مجاهد، والضحاك، وشهر بن حوشب:"العمل الصالح يرفع الكلام الطيب".

قال الحسن وقتادة: "لا يقبل الله قولا إلا بعمل، من قال وأحسن العمل قبل الله منه".

عن ابن عباس، قوله: " {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}، قال: الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه حمل عليه ذكر الله فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله، ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به".

عن المخارق بن سليم، قال: "قال لنا عبد الله: إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إن العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله لا إله إلا الله، والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحيه ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بهن وجه الرحمن، ثم قرأ عبد الله {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} ".

قال كعب:"إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، لدويًّا حول العرش كدوي النحل يذكرن بصاحبهن والعمل الصالح في الخزائن".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [فاطر: ١٠]، أي:"والذين يكتسبون السيئات لهم عذاب شديد".

قال الطبري: يقول:"والذين يكسبون السيئات لهم عذاب جهنم".

=

=

قال أبو عبيدة: أي: "يكسبون ويجترحون".

قال الزجاج:"المعنى: مكر الذين يمكرون بالنبي ﷺ".

عن قتادة، قوله:"{والذين يمكرون السيئات}، قال: يعملون السيئات"، قال:"هؤلاء أهل الشرك".

قوله تعالى: {وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر: ١٠]، أي:"ومكر أولئك يَهْلك ويَفْسُد، ولا يفيدهم شيئًا".

قال الطبري:"يقول: وعمل هؤلاء المشركين يبور، فيبطل فيذهب؛ لأنه لم يكن لله، فلم ينفع عامله".

قال الزجاج:"أي يفسد، وقد بين ما مكرهم في سورة الأنفال، في قوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوك} [الأنفال: ٣٠]. ففسد جميع مكرهم فجعل الله كلمة نبيه وأوليائه العليا، وأيديهم العالية بالنصر والحجة".

قال ابن قتيبة:"{يبور}، أي: يبطل".

عن ابن زيد، قوله: {وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُور}، قال:"بار فلم ينفعهم ولم ينتفعوا به، وضرهم".

عن قتادة: " {وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}، أي: يفسد".

قال السدي:"يهلك، فليس له ثواب في الآخرة".

قال شهر بن حوشب:"هم أصحاب الرياء".

قال العثيمين: {من} هنا شرطية والشرط فيها ظاهر؛ يعني: يقول: أي إنسان يريد العزة فلله العزة جميعا {من كان} لكنها عامة؛ لأن أسماء الإستفهام وأسماء الشرط والأسماء الموصولة كلها تفيد العموم؛ يعني: أي أحد يريد العزة؛ أي: يطلبها ويحرص عليها، والعزة هي الغلبة والمنعة وقهر الأعداء.

=

=

{فلله العزة جميعا} أي: فليطلبها منه، فما دامت العزة له ملكا وتصرفا فإنها لا تطلب إلا منه؛ كما لو قلت: (من كان يريد المال فالمال عند زيد) المعنى: فليطلب المال من زيد، والمعنى هنا: من كان يريد العزة فليطلب العزة من الله لا من غيره، هذا يراد به الرد على أولئك الذين يعبدون الأصنام لأجل أن يتخذوا منها العزة، ففي هذه الآية إشارة إلى أنه لا عزة لهذه الأصنام: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا} [مريم: ٨١].

الجواب: {كلا} [مريم: ٨٢] لن يكونوا لهم عزا، بل بالعكس، سيذلونهم في موقع هم أحوج ما يكونوا إلى العزة {سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} [مريم: ٨٢] فأين العزة في هذه الأصنام أو في هذه الآلهة التي اتخذوها من دون الله؟

وردت العزة في آيات كثيرة من القرآن، وردت في آية أخرى {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨] ولا منافاة بينها وبين هذه الآية، فإن العزة لله أصلا، ولرسوله من الله، وللمؤمنين من الله، وحينئذ فالعزة كلها لله كما قال الله تعالى في سورة (آل عمران): {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير} [آل عمران: ٢٦] فكل من عنده عزة فإنها ليست عزة ذاتية له من ذات نفسه، ولكنها من الله ﷻ، وبماذا تكون العزة التي يكتسبها الإنسان وهي من الله؟

تكون بما علق الله العزة عليه وهي الإيمان {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨] فمتى أراد الإنسان العزة فليكن مؤمنا، وكل ما كان أكثر إيمانا بالله وأقوى إيمانا بالله كان أكثر عزة وأقوى عزة.

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: "إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نبتغي العزة بغيره" بسواه، أذلنا الله، وصدق رضي الله عنه؛ فالعرب لما كانوا عربا ليس عندهم

=

=

إسلام كانوا أذلة فقراء يذهبون إلى اليمن في الشتاء ليأتوا بالسلع منه، ويذهبون إلى الشام في الصيف ليأتوا بالسلع منه، فهم فقراء يأكلون من غيرهم، لكن لما آمنوا صاروا هم الأغنياء، وصارت كنوز كسرى وقيصر تأتي إلى المدينة لتنفق عليهم من المدينة.

إذن: نحن مهما أردنا العزة لن نستعز إلا بالإسلام، لن يكون أعداء الله سببا لعزنا أبدا، بل إن تولينا إياهم وموالاتنا لهم سبب للذل {ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون} [آل عمران: ١١٨].

وإذا تتبعت الواقع وجدته شاهدا لقول الله تعالى هذا، وأن أعداء المسلمين لا يمكن أبدا أن يسعوا في إعزاز المسلمين، بل يسعون بكل جهدهم إلى إذلال المؤمنين وخذلانهم، لكنهم يمكرون، ويخادعون، ويسخرون، ويستهزئون؛ لينالوا مآربهم، ويضربوا الناس بعضهم ببعض.

فالحاصل: أنه إذا كانت العزة لله فمن أين نطلبها؟

الجواب: من الله، لا من غيره.

قوله تعالى: {جميعا} حال من العزة التي هي المبتدأ المؤخر، وفي قوله تعالى: {فلله العزة} فيها حصر العزة لله ﷻ، ووجهه: تقديم الخبر؛ لأن تقديم الخبر يفيد الحصر.

إذن: تقديم الخبر يفيد الحصر؛ لأن لدينا قاعدة سبقت: وهي أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

وقوله تعالى: {جميعا} يراد به عموم الأنواع وعموم الأزمان وعموم الأمكنة.

عموم الأنواع هي: عزة القدر، والقهر، والإمتناع.

والأزمان؛ أي: الدنيا والآخرة.

=

=

والمكان: في مشارق الأرض ومغاربها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{من كان يريد العزة فلله العزة جميعا} أي: في الدنيا والآخرة فلا تنال منه – أي: فلا تنال العزة من الله – إلا بطاعته، فليطعه] أي: فليطعه من كان يريد العزة، أو (فلنطعه) بالنون.

أفاد المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جواب الشرط محذوف، وهو قوله: [فليطعه]، ولكن الصواب أن التقدير: (فليطلبها من الله)، (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا فليطلبها منه) ويشمل الطلب بلسان الحال وبلسان المقال.

أما على رأي المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن الطلب يختص بلسان الحال فقط، فالصواب إذن أن جواب الشرط محذوف، تقديره: (فليطلبها منه) ليشمل ذلك طلب الحال وطلب المقال، فطلب المقال أن تقول: (اللهم أعزني)، (اللهم اجعل لي العزة على عدوي) وهكذا، وطلب الحال: أن تقوم بطاعة الله بل بطاعة الله مع تحقيق الإيمان؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨].

وقد ذكرت العزة في مواضع كثيرة من القرآن، ومنها قوله تعالى: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} [المنافقون: ٨]، وقوله تعالى: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} [المائدة: ٥٤].

قوله تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}: {إليه} جار ومجرور مقدم على عامله وهو {يصعد} والضمير في {إليه} يعود إلى الله ﷻ، لما ذكر أن العزة لله جميعا بين سبحانه وتعالى ما يكون من أسباب العزة، فقال: {إليه يصعد الكلم الطيب}.

قوله تعالى: {يصعد} أي: يرتفع ويعرج الكلم الطيب.

=

=

يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يعلمه] ففسر صعود الكلم الطيب بعلم الله إياه، وهذا تحريف للكلم عن مواضعه، بل المراد بالآية ظاهرها، أن الكلم الطيب يصعد إلى الله؛ يعني: يعرج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن المفسر - غفر الله لنا وله - أراد أن يبعد عن إثبات العلو الذاتي، فقال: [يعلمه]، ولو كان المراد العلم، لم يقل: {إليه يصعد} لأن العلم لا يلزم منه الصعود، بل قد يكون العالم بالشيء أنزل من الشيء؛ كما لو كنت في أسفل البئر وأنت تعلم ما فوق.

على كل حال: هذه هفوة من المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ، نسأل الله أن يعفو عنه.

ونقول: إلى الله يصعد؛ أي: يرتفع الكلم الطيب؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ في العلو، وأدلة العلو قد بينت في العقائد، وأنها خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة؛ كلها متفقة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وفي كتاب (الإقناع) أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: من زعم أن الله تعالى معنا بذاته في المكان فهو كافر.

وقوله تعالى: {الكلم} اسم، جمع (كلمة)، فهو دال على الجمع، وما المراد بالكلم الطيب؟

الكلم الطيب هو كل كلم يقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فـ (لا إله إلا الله) من الكلم الطيب، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، كلها من الكلم الطيب، والقرآن من الكلم الطيب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الكلم الطيب، وقراءة العلم من الكلم الطيب، وكل قول يقرب إلى الله فهو من الكلم الطيب.

والكلم الطيب يقابله نوعان من الكلام: كلم رديء خبيث، وكلم لا هذا ولا هذا، لا يوصف بأنه طيب ولا يوصف بأنه خبيث.

أما الكلم الخبيث فككلمة الكفر والسب والشتم واللعن لمن لا يحل سبه ولا شتمه ولا لعنه.

=

=

وأما الكلم الذي لا هذا ولا هذا، فهو أكثر كلام الناس.

والصنفان جميعا لا يرفعان إلى الله؛ أما الأول فلأنه خبيث، و"الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا"، وأما الثاني فلأنه لم يقصد به الله ﷻ حتى يرفع إلى الله، وهذا الثاني - أعني: الذي ليس هذا ولا هذا - قد يكون طيبا لا لذاته ولكن لغيره؛ لما يوصل إليه من المقاصد الحسنة، فإن الإنسان قد يتحدث إلى شخص كلاما ليس هو خيرا في نفسه لكن يقصد به التأليف لهذا الرجل وإدخال الأنس عليه والسرور، فيكون هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه يكون محمودا لما قصد به، كما أن هذا الكلام الذي هو لغو في نفسه إذا قصد به الإساءة إلى من لا تحل الإساءة إليه صار كلاما خبيثا لغيره أي: لما قصد به.

وعلى كل: فالكلم الطيب لذاته أو لغيره يصعد إلى الله ﷻ.

فإن قلت: كيف يصعد الكلم الطيب والكلم ليس جرما؟ بل أصوات تسمع بحركات معينة في الفم واللسان والشفة؟

فالجواب: أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل المعقول شيئا محسوسا؛ كما ثبت في الحديث الصحيح أنه "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا، فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت ... ".

وقوله تعالى: {الكلم الطيب} إنما جمعه لكثرة أنواعه، وكثرة الأنواع تدل على كثرة الأفراد من باب أولى، فالأنواع كثيرة والأفراد في كل نوع كذلك كثيرة؛ فلهذا جمعه.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والعمل الصالح يرفعه} يقبله] أفادنا المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

=

=

[يقبلـه] أن الفاعـل في {يرفعـه} يعـود إلـى الله، وأن الهـاء في {يرفعـه} تعـود إلـى العمل الصالح؛ يعني: والعمل الصالح يقبله الله، فكون ضمير الفاعـل يعـود على (الله) وضمير المفعول يعود على (العمل) هذا لا نـاقش المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ فيـه؛ لأنـه محتمل، لكننا نناقشه في تفسيره الرفع بالقبول، وكـل هـذا فـرارا مـن إثبـات العلـو الذاتي، غفر الله لـه، بـل نقـول: معنـى {يرفعـه} أي: يرفـع هـذا العمـل، مـن الرفـع الذي هو ضد النـزول، يرفعـه إليـه سـبحانه وتعـالى؛ لأنـه فـوق، وهـذا التفسير في مرجع الضمائر الذي ذكره المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ هو أحد التفاسير المذكورة في هذه الآية.

التفسير الثاني: (والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب) فجعل ضـمير الفاعـل يعـود على {الكلم الطيب} وجعل الهاء تعود على {والعمـل الـصالح} فيكـون العمـل الـصالح مرفوعـا بـالكلم الطيـب، واحـتج هـؤلاء بـأن العمـل الـصالح لا يقبـل إلا بالإسلام، وهو الكلم الطيب الذي هو (لا إله إلا الله)، فإن الإنـسان لـو عمـل مـن العمل الصالح الشيء الكثير لكنه غير مسلم لا يرتفع هذا العمل، فلا يرفع العمل الصالح إلا الكلم الطيب.

والقول الثالث: بالعكس، يقـول: (والعمـل الـصالح يرفـع الكلـم الطيـب) فيكـون الفاعـل في {يرفعـه} العمـل الـصالح، والمفعـول {الكلـم الطيـب} عكـس الـذي قبله، ما وجه ذلك؟

يقول: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ لأن الكلـم الطيـب بـدون عمـل لا ينفـع صاحبه فلا بد في الكلم الطيب من عمل صالح يرفع ذلك القول الطيب.

والأقرب - والله أعلم - أن ما ذهب إليـه المفـسر رَحِمَهُ اللَّهُ هـو الـصواب؛ أي: إن الله يرفـع العمـل الـصالح؛ كمـا أن الكلـم الطيـب يـصعد إلـى الله، فـإذا صـعد الكلـم الطيب إلى الله امتن الله على هذا المتكلم بأن رفع العمل الصالح الذي يعمله، إلا أننا لا نوافق المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الرفع بـالقبول، نوافقـه علـى مرجـع الـضمائر،

=

=

لكن لا نوافقه على تفسير الرفع بالقبول.

وحينئذ نقول: والعمل الصالح يرفعه الله ﷻ، فيكون الله ﷻ في هذه الآية - ذكر القول والعمل، فذكر أن القول يصعد وأن العمل يرفع؛ لأن رفع العمل كالجزاء على الكلم الطيب، فإذا تكلم الإنسان بالكلمة الطيبة فصعدت إلى الله ﷻ قبلها، ثم رفع العمل الصالح.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والذين يمكرون} المكرات {السيئات} بالنبي في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه كما ذكر في الأنفال {لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور} يهلك].

الواو للإستئناف، و {والذين} مبتدأ، وجملة {لهم عذاب شديد} خبر المبتدأ.

وقوله تعالى: {والذين يمكرون السيئات} فيه نوع من الإشكال؛ لأن السيئات لا تمكر، وإنما يمكر بها؛ يعني: يمكر بسبب السيئات، فلماذا تعدى الفعل إليها؟

أفادنا المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السيئات صفة لمصدر محذوف، والتقدير: (المكرات السيئات) فيكون الوصف هنا للفعل لا لما حصل به المكر؛ لأن فعلهم نفسه مكر سيئ، كما قال الله تعالى: {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} [فاطر: ٤٣]، وسمى الله ﷻ السيئات مكرا؛ لأن الإنسان في الواقع يخدع نفسه بها، ويخدع غيره بها، فيمني نفسه التوبة وأنه سيتوب، أو يمني نفسه سعة حلم الله ومغفرته وأن الله واسع الحلم والمغفرة والرحمة، فلن يؤاخذه بهذه العقوبة، فتمني الإنسان في هذا الباب من وجهين:

الوجه الأول: أنه يمني نفسه التوبة، وما يدريه فلعله لا يتمكن منها، لعل سيئاته تحيط به ثم لا يتمكن من التوبة، أو لعله يفجؤه الموت، ثم لا يتمكن من التوبة.

الوجه الثاني: أنه يتمنى على الله الأماني، فيقول: (إن الله غفور رحيم)، و (الله واسع الرحمة)، و (سوف يعفو عني) كما يوجد عند كثير من الناس عندما يعمل

=

معصية؛ حيث يقول لك: الله غفور رحيم، بل بعضهم يحتج بالآية: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨] ويقول: أنا لم أشرك، وما دون الشرك فإن الله تعالى يغفره.

وجوابنا على ذلك يسير جدا، وهو أن نقول له: أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له؛ لأن الله ﷻ ما قال: {ويغفر ما دون ذلك} وسكت، بل قيده بقوله تعالى: {لمن يشاء} فأنت أثبت أنك ممن شاء الله أن يغفر له، وحينئذ يكون لك حجة، أما أن تفعل المعصية التي هي سبب العقوبة ثم تتمنى على الله أمرا لم يعدك الله به، بل قال: {لمن يشاء} فهذا لا شك أنه ضلال منك.

وقوله تعالى: {والذين يمكرون السيئات} السيئات هي ما يسوء الإنسان فعله مثل شرب الخمر، السرقة، الزنا، الربا، وما أشبه ذلك.

فإن قلت: هذا لا يسوء الإنسان فعله!

فجوابنا على هذا أن نقول: إن أردت أنه لا يسوء الإنسان فعله أبدا فهذا ليس بصحيح؛ لأنه يوم القيامة سوف يندم، وسوف يسوء الإنسان فعله في ذلك اليوم.

أما في الدنيا فإنه يسوء الإنسان فعله؛ لأن للذنوب آثارا على القلوب، فإن المعاصي تكون نقطة سوداء في القلب فإن تاب الإنسان انصقل قلبه وعاد إلى بياضه، وإلا توسعت هذه النقطة السوداء، وأصبح القلب مظلما - والعياذ بالله - بل يختم عليه حتى لا يصل إليه الخير كما قال الله تعالى: {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين: ١٤].

فللذنوب آثار عظيمة على القلب توجب أن يكون منقبضا، وإذا تلذذ بعض الشيء في هذه المعصية فإنه يعقب ذلك حسرة عظيمة في القلب وضيق، واقرأ إن شئت قول الله تعالى: {أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله} [الزمر: ٢٢]، يتبين لك أن المعصية تسوء فاعلها،

=

وإن كان قد لا يشعر بها؛ لأنه قد ران على قلبه ما كان يعمل.

إذن: السيئات سيئات لكل حال تسوء صاحبها في الدنيا، ولكن قد لا يظهر، وقد لا يتبين له، وفي الآخرة يظهر له ويتبين ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل صالحا.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين يمكرون} المكرات {السيئات} بالنبي في دار الندوة من تقييده، أو قتله، أو إخراجه، كما ذكر في الأنفال] هذا في الحقيقة إذا أراد المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه المراد بالآية دون غيره فقصور، وإن أراد بذلك التمثيل فصحيح؛ فإنه لا شك أن هؤلاء مكروا بالنبي عليه الصلاة والسلام كما قال الله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: ٣٠].

معنى {ليثبتوك} أي: يقيدوك ويحبسوك {أو يقتلوك} هذا واضح، و {أو يخرجوك} أي: من مكة، ولكن الله سبحانه وتعالى قال: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} فهم - الحمد لله - ما أثبتوه، ولا قتلوه، ولا أخرجوه، كل هذه انتفت مع حرصهم الشديد على تنفيذها، لكن ما حصل منها شيء.

وجملة: {لهم عذاب شديد} هذه الجملة جملة خبرية، وهي في محل رفع خبر {والذين يمكرون}.

والعذاب بمعنى العقوبة، والشديد؛ أي: القوي، فهو قوي في إيلامه، وإيجاعه، وفي أنواعه المتنوعة، من حرور، وبرد، وعطش، وجوع، وغير ذلك من شدته؛ لهم - والعياذ بالله - سرابيل من قطران كلما نضجت جلودهم قال الله تعالى: {بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما} [النساء: ٥٦]، وقال: {كلما خبت زدناهم سعيرا} [الإسراء: ٩٧]، وانظر إلى قوله تعالى: {كلما خبت زدناهم} [الإسراء: ٩٧] يتبين لك أن الزيادة تأتي فورا.

والله عَزَّ وَجَلَّ قادر على أن تبقى بزيادتها، لكنها تخبو ليكون في قلوبهم شيء من الطمع

=

=

في خفة العذاب أو الخروج، ثم يعود: فيكون هذا أشد؛ لأن ضرب الإنسان بعقوبة بعد الطمع في زوالها يكون أشد عليه مما لو كان الأمر مستمرا.

وقوله تعالى: {لهم عذاب شديد} هذا مفصل في الكتاب والسنة، فمن تتبعه - أي أنواع العذاب التي للكافرين في النار - من القرآن يكون جيدا.

قوله تعالى: {ومكر أولئك هو يبور}: {ومكر} مبتدأ خبره جملة {هو يبور} و {هو} لا تصح هنا أن تكون ضمير فصل؛ لأن القاعدة أن ضمير الفصل يكون بين اسمين لا بين اسم وفعل، لكنها مبتدأ خبرها جملة {يبور} والجملة من المبتدأ والخبر خبر {ومكر} وأتى بهذا التركيب من باب تعظيم هذا الشيء وتهويله.

وقوله تعالى: {ومكر أولئك} ولم يقل: (مكر هؤلاء) إما استبعادا لهم؛ لأنهم ليسوا أهلا لأن يقربوا؛ أو لأنهم هم جعلوا أنفسهم في محل العالين الذين يشار إليهم من بعد، فبين أن هؤلاء الذين تعالوا بمكرهم - وإن كانوا في القمة على حسب زعمهم - فإن هذا المكر يبور؛ والبوار بمعنى الهلاك كما قال الله تعالى: {وأحلوا قومهم دار البوار (٢٨) جهنم يصلونها} [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩].

فهؤلاء مكرهم يبور؛ أي: يتلاشى ويضمحل، ولا يفيدهم شيئا.

(منبهة) قول المصنف ({إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} يَعْلَمُهُ وَهُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَنَحْوهَا {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} يَقْبَلُهُ) الغرض منه نفي علو الله تعالى على خلقه.

وعلو الله تعالى: من صفاته الذاتية، وينقسم إلى قسمين: علو ذات، وعلو صفات، فأما علو الصفات فمعناه: أنه ما من صفة كمال إلا ولله تعالى: أعلاها وأكملها سواء كانت من صفات المجد والقهر، أم من صفات الجمال والقدر.

وأما علو الذات فمعناه: أن الله بذاته فوق جميع خلقه، وقد دل على ذلك

=

وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١١).

{وَاَللَّه خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب} بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَم مِنْهُ {ثُمَّ مِنْ نُطْفَة} أَيْ مَنِيّ بِخَلْقِ ذُرِّيَّته مِنْهَا {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} ذُكُورًا وَإِنَاثًا {وَمَا تَحْمِل مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَع إِلَّا بِعِلْمِهِ} حَال أَيْ مَعْلُومَة لَهُ {وَمَا يُعَمَّر مِنْ مُعَمَّر} أَيْ مَا يُزَاد فِي عُمُر طَوِيل الْعُمُر {وَلَا يُنْقَص مِنْ عُمُره} أَيْ ذَلِكَ الْمُعَمَّر أَوْ مُعَمَّر آخَر {إِلَّا فِي كِتَاب} هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِير} هَيِّن[1].

=

الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة. وقد تقدم بيان الحق في هذه المسألة بتوسع في أثناء مباحث الكتاب.

(١) قوله تعالى: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ} [فاطر: ١١].

قال الطبري:"يعني بذلك: أنه خلق أباهم آدم من تراب؛ فجعل خلق أبيهم منه لهم خلقًا".

قال قتادة:"يعني آدم".

قوله تعالى: {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} [فاطر: ١١]، أي:"ثم خلق ذريته من ماءٍ مهين وهو المنيُّ الذي يُصبُّ في الرحم".

قال الطبري:"يقول: ثم خلقكم من نطفة الرجل والمرأة".

قال قتادة:"يعني: ذريته".

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} [فاطر: ١١]، أي:"ثم جعلكم رجالا ونساءً".

قال الطبري:"يعني: أنه زوج منهم الأنثى من الذكر".

قال قتادة:"فزوج بعضكم بعضًا".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} [فاطر: ١١]، أي:"وما تحمل أنثى في بطنها من جنين، ولا تلد إلاَّ بعلمه تعالى".

قال الطبري: يقول:"ما تحمل من أنثى منكم أيها الناس من حمل ولا نطفة إلا وهو عالم بحملها إياه ووضعها وما هو؟ ذكر أو أنثى؟ لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قوله تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [فاطر: ١١]، أي:"وما يعمَّر من مُعَمَّر، فيطول عمره، ولا يُنْقَص من عمره إلا في كتاب عنده، وهو اللوح المحفوظ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص".

وفي قوله تعالى: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [فاطر: ١١]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: ما يزاد عمر معمر حتى يدركه الهرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب، يعني: هذا مكتوب في اللوح المحفوظ ومفروغ منه فلا يكون فيه زيادة ونقص. والهاء في قوله: {من عمره} يرجع إلى آخر. وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، واختاره الفراء. وقال: هذا" أشبه بالصواب"، كما اختاره النحاس، وقال: وهو" أحسنها وأشبهها بظاهر التنزيل".

قال الفراء:"ومثله في الكلام: عندي درهم ونصفه يعني: نصف آخر. فجاز أن يكنى عنه بالهاء لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول. فكنى عنه ككناية الأول".

قال ابن كثير:"أي: ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، {وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ} الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس".

=

=

قال ابن عباس:"يقول: ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، وإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير إلعمر والحياة ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه فذلك قوله: {وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ} يقول: كل ذلك في كتاب عنده".

قال أبو معاذ:"من قضيت له أن يعمر حتى يدركه الكبر، أو يعمر أنقص من ذلك، فكل بالغ أجله الذي قد قضى له، كل ذلك في كتاب".

عن ابن زيد، قوله: " {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ}، قال: ألا ترى الناس؛ الإنسان يعيش مائة سنة، وآخر يموت حين يولد؟ فهذا هذا".

وعن ابن زيد، قوله: " {ولا ينقص من عمره}، قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام".

عن مجاهد:"{وما يعمر من معمر} إلا كتب الله له أجله في بطن أمه {ولا ينقص من عمره} يوم تضعه أمه بالغا ما بلغ، يقول: لم يخلق الناس كلهم على عمر واحد. لذا عمر ولذا عمر هو أنقص من عمر هذا وكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغا ما بلغ".

قال قتادة:"أما العمر فمن بلغ ستين سنة، وأما الذي ينقص من عمره فالذي يموت قبل أن يبلغ ستين سنة".

عن حذيفة بن أسيد الغفاري، قال: "قال رسول الله ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمسة وأربعين ليلة فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله... ويكتبان ثم يكتب عمله، ورزقه وأجله وأثره ومصيبته، ثم تنطوي الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها» ".

=

=

الثاني: معناه: ما يطول عمر أحد، ولا يذهب من عمره شيء، فيُنقَص إلا وهو في كتاب عند الله مكتوب، قد أحصاه وعلمه. و «الهاء» على هذا التفسير للمعمر الأول. وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وأبو مالك في آخرين.

عن أَبي مالك في هذه الآية: " {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتَابٍ} ، قال: ما يقضي من أيامه التي عددت له إلا في كتاب".

قال أبو مالك:"ليس يوم يسلبه من عمره إلا في كتاب كل يوم في نقصان".

قال سعيد بن جبير:"مكتوب في أول الصحيفة عمره كذا وكذا، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم كذا وكذا، ومضى يوم كذا حتى يأتي على أجله".

قال حسان بن عطية:"كل ما ذهب من يوم وليلة فهو نقصان من عمره".

قال السدي:"ليس من مخلوق إلا كتب الله له عمره جملة فكل يوم يمر به أو ليلة يكتب: نقص من عمر فلان كذا وكذا. حتى يستكمل بالنقصان عدة ما كان له من أجل مكتوب فعمره جميعا في كتاب ونقصانه في كتاب".

عن عكرمة، قال: " {وما يعمر من معمر ولا ينقص} : من عمر آخر".

وقال عكرمة:"ما من يوم يعمر في الدنيا إلا ينقص من أجله".

قال عطاء الخراساني:"لا يذهب من عمر إنسان يوم ولا شهر ولا ساعة إلا ذلك مكتوب محفوظ معلوم".

قال الزجاج:"وتأويل الآية: أن الله جل وعز قد كتب عمر كل معمر وكتب يعمر كذا وكذا سنة وكذا وكذا شهرا، وكذا وكذا يوما، وكذا وكذا ساعة، فكل ما نقص من عمره من سنة أو شهر أو يوم أو ساعة كتب ذلك حتى يبلغ أجله".

قال الطبري:"وأولى التأويلين في ذلك عندي الصواب التأويل الأول، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه، وأشبههما بظاهر التنزيل".

=

=

قال الشوكاني:"والأولى أن يقال: ظاهر النظم القرآني أن تطويل العمر وتقصيره: هما بقضاء الله وقدره لأسباب تقتضي التطويل، وأسباب تقتضي التقصير.

فمن أسباب التطويل: ما ورد في صلة الرحم عن النبي ﷺ ونحو ذلك. ومن أسباب التقصير الاستكثار من معاصي الله ﷻ، فإذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين سنة، فقد يزيد الله له عليها إذا فعل أسباب الزيادة، وقد ينقصه منها إذا فعل أسباب النقصان، والكل في كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية، وبين قوله سبحانه: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤]، ويؤيد هذا قوله سبحانه: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩] ".

قال كعب الأحبار:"لما طعن عمر بن الخطاب لو دعا الله لزاد في أجله، فأنكر ذلك عليه المسلمون، وقالوا: إن الله ﷻ يقول: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤]، فقال: وإن الله تعالى يقول: {وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}، قال الزهري نرى أنه يؤخر ما لم يحضر الأجل فإذا حضر الإجل لم يزد في العمر ولم يقع تأخير".

وفي رواية:"فقال: هذا إذا حضره الأجل، فأما قبل ذلك فيجوز أن يزاد وينقص، وقرأ هذه الآية".

قال النحاس:"وقيل في معنى الآية: إنه يكون أن يحكم أن عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع وتسعون إن عصى فأيهما بلغ فهو في كتاب".

قال السمعاني:"وهذا جائز".

وروي ن أبي الدرداء رضي الله، عنه قال: "ذكرنا، عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر».

=

=

قولـه تعـالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [فاطر: ١١]، أي:"إن خَلْقكم وعِلْم أحوالكم وكتابتها في اللوح المحفوظ سهل يسير على الله".

قال السدي:"يعني: هين عليه وليس بشديد عليه".

قال السمعاني: "أي: هين".

قال الطبري: يقول:"إن إحصاء أعمار خلقه عليه يسير سهل، طويل ذلك وقصيره، لا يتعذر عليه شيء منه".

قال النحاس:"أي: إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه".

قال العثيمين: لما بين سبحانه وتعالى ما سبق من الآيات الدالة على قدرته من إرسال الرياح، وإثارة السحاب، وسوقه إلى الأرض الميتة، وإحياء الأرض بعد موتها، وأن الأعمال من أقوال وأفعال ترفع إلى الله ﷻ.

قال هنا: {والله خلقكم من تراب} وهذا باعتبار الأصل الذي هو آدم؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بخلق أبيكم آدم منه] أي: إن الله تعالى خلقه من تراب، وهذه الآية فيها أن الله خلقه من تراب، وفي آية أخرى أنه خلقه من طين، وفي آية ثالثة أنه خلقه من صلصال من فخار، وفي آية رابعة: من حمأ مسنون، فما هو الجواب عن هذا التغير؟

الجواب: أن هذا تغير أوصاف، وليس تغير ذوات وحينئذ فلا تناقض؛ إذ يجوز أن تتعدد الأوصاف على موصوف واحد، قال الله تعالى: {سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى} [الأعلى: ١ - ٤] مع أنه واحد.

الحاصل: أن يقال في هذا التغير: إن هذا تغير أوصاف وليس تغير ذوات وأعيان، فالعين واحدة، لكن أولها التراب، فإذا أضيف إليها الماء صارت طينا، فإذا أطري وأخذ مدة صارت حمأ مسنونا متغيرا؛ يعني الطين إذا أكثرت فيه الماء

=

=

تجده يسود وتكون له رائحة، والرابع من صلصال كالفخار هذا بعد أن كان حمأ مسنونا يبس وصار صلصالا كالفخار، ثم نفخ الله فيه الروح، فيكون هنا التغير تغير أوصاف، والأصل فيه التراب.

قوله تعالى: {ثم من نطفة} أتى بـ (ثم) الدالة على التراخي والترتيب؛ لأن (ثم) تدل على التراخي والترتيب، و (الفاء) تدل على الترتيب بدون تراخ، هنا قال: {ثم من نطفة} لأنه لما خلق سبحانه وتعالى آدم وخلق ذريته تناسلت هذه الذرية بواسطة هذا الماء الذي هو النطفة، والنطفة هي الماء القليل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم من نطفة} أي: مني بخلق ذريته منها]؛ أي: من هذه النطفة، والغريب أن هذه النطفة القليلة يذكر علماء الطب أنها تشتمل على ملايين من الحيوانات المنوية، وهذه النطفة التي يزعمون أنها ملايين - وهم أعلم منا بذلك - لا يصلح منها إلا واحد في الغالب، أو اثنان، أو ثلاثة، أو أربعة، هذا أنهى ما سمعت، أنه يولد للمرأة أربعة أولاد في بطن واحدة، والله على كل شيء قدير، قد يزيد في الخلق ما يشاء.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم جعلكم أزواجا} ذكورا وإناثا].

قوله تعالى: {أزواجا} فسر المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا الأزواج بالذكورة والأنوثة بقرينة قوله تعالى: {وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه} الأزواج هنا باعتبار الجنسين: الذكر والأنثى، ويؤيد تخصيص الأزواج هنا بالذكورة والأنوثة قوله تعالى: {وما تحمل من أنثى} أما إذا نظرنا إلى لفظ أزواج فإن الأزواج بمعناها الأصناف، والأصناف أعم من الذكورة والأنوثة، فإنه يشمل الشقي والسعيد، والأسود والأبيض، والطويل والقصير، وغير ذلك، لكن الذي جعل المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يحمل الكلام على الذكورة والأنوثة فقط قوله تعالى: {وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه}.

=

=

فالله ﷻ بقدرته وحكمته جعل هذه الذرية التي خرجت من هذا الرجل الواحد جعلها ذكورا وإناثا لبقاء النسل؛ لأنه لا يمكن بقاء النسل إلا بهذا، وإن كان الله سبحانه وتعالى قادرا على أن يبقي النسل بدون هذا، فإنه يقال: إن البشرية منها ما خلق بلا أم وأب، ومنها ما خلق من أب بلا أم، ومنها ما خلق من أم بلا أب، ومنها ما خلق من أبوين؛ فالذي خلق بلا أم ولا أب آدم، ومن أب بلا أم حواء، ومن أم بلا أب عيسى، وسائر الناس بين أبوين من ذكر وأنثى.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه} حال؛ أي: معلومة له].

(ما) هذه شرطية، هنا {من} حرف جر زائد {أنثى} فاعل {تحمل} مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر، لكنه في الواقع من حيث اللفظ مجرور لفظا.

قوله: [{أنثى ولا تضع} أي: أنثى {إلا بعلمه} حال؛ أي: معلومة له] أي أنثى تحمل من بني آدم، أو منه ومن غيره؟

الجواب: منه ومن غيره، ما تحمل ولا تضع إلا بعلمه، وهذا كقوله تعالى: {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها} [الأنعام: ٥٩]، فالله ﷻ يعلم ما تحمل كل أنثى في ابتداء الحمل وتطور الحمل، ومآل الحمل، وكل ما يتعلق به؛ ولا تضع إلا بعلمه، فأول ما ينشأ الحمل في الرحم معلوم عند الله، وإذا وضعت فهو معلوم عند الله ﷻ.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حال] يعني أن الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، فمعنى {إلا بعلمه} قال: إلا معلومة له، ويمكن أن نقول: لا حاجة إلى هذا التأويل، بل نقول: إن الباء هنا للمصاحبة والمقارنة؛ أي: لا يحصل الحمل ولا الوضع إلا مقرونا بعلم الله ﷻ.

=

=

ونضيف إلى ذلك أيضا أنه بعلمه وإرادته، لكن سنأخذ - إن شاء الله - من الفوائد هنا أن فيها دليلا على أن من أثبت العلم لزم أن يثبت الإرادة؛ ولهذا قال أهل السنة - الشافعي وغيره - بالنسبة للقدرية: "ناظروهم بالعلم، فإن أنكروه كفروا، وإن أقروا به خصموا" إن قالوا: (الله لا يعلم عن عباده) كفروا، وإن قالوا: يعلم خصموا؛ لأنه إذا علم ذلك، فإما أن يقع الشيء على خلاف معلومه أو على وفاقه، فإن كان على وفاقه فبإرادته، وإن كان على خلافه فقد أنكروا العلم؛ أي: إنهم بهذا ينكرون العلم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: [{وما يعمر من معمر} أي: ما يزاد في عمر طويل العمر {ولا ينقص من عمره} أي: ذلك المعمر أو معمر آخر {إلا في كتاب} هو اللوح المحفوظ {إن ذلك على الله يسير} هين].

{وما} هذه نافية أيضا بدليل قوله تعالى: {إلا في كتاب} ودليل آخر؛ قطع الفعل عنها، قوله تعالى: {يعمر من معمر} معنى التعمير: الزيادة في العمر؛ أي: لا يزاد في عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب.

فقوله تعالى: {من معمر}: {من} هذه زائدة داخلة على نائب الفاعل، فنقول في {معمر}: نائب فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

وقوله تعالى: {ولا ينقص من عمره إلا في كتاب} هنا يقول: {من عمره} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [أي: ذلك المعمر أو معمر آخر] أما كون الضمير في قوله تعالى: {عمره} يعود على معمر آخر فهذا لا إشكال فيه؛ لأنه يكون معمرا فيكون الثاني ناقصا، لكن الإشكال إذا قلنا: إن الضمير يعود على المعمر نفسه فكيف يكون معمرا وهو في الوقت نفسه منقوص من عمره؟

الجواب: هذا محل إشكال فيما يظهر؛ قوله: {وما يعمر من معمر} لنفرض أنه

=

=

زيد، {ولا ينقص من عمره} إذا قلنا: الضمير يعود على ذلك المعمر صار يعود على (زيد) فيكون زيد معمرا منقوصا من عمره، إذا قلنا: إنه عائد على معمر آخر {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره} أي: من عمر معمر آخر، لا يلزم الأول؛ صار النقص يعود على شخص آخر، فعندنا زيد معمر، وعمرو منقوص من عمره، فهذا لا إشكال فيه.

لكن الإشكال الأول: اختلف المفسرون رحمهم الله في توجيهه؛ فقال بعضهم: {وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره} إن النقص هنا في مقابل الزيادة؛ لأن الإنسان كلما تقدم يوما في الدنيا نقص عمره باعتبار آخر عمره؛ مثلا الذي له عشر سنوات فإذا صار له إحدى عشرة، وقدر أنه سيموت في عشرين سنة، فهذا نقص، لأنه كلما زاد من وجه نقص من وجه آخر.

فالمعنى: أنه يكتب نقصه كما تكتب زيادته؛ فيكتب مثلا: (فلان بلغ من العمر عشر سنين، ونقص من عمره؛ يعني: من آخر عمره عشر سنين؛ بلغ إحدى عشرة، ونقص من عمره إحدى عشرة، فبقي تسع وهكذا، وإلى هذا ذهب بعض التابعين رحمهم الله.

ولكن آخرين من أهل العلم من المفسرين رحمهم الله قالوا: إن هذا حين أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه" وبين أن الإنسان ينقص عمره ويزاد بحسب صلة الرحم؛ مثلما ينقص من عمره إذا لم يصل رحمه، ويزاد في عمره إذا وصله.

والمعنى على هذا التفسير: أن زيادة العمر أو نقصه مكتوب عند الله ﷻ، فمن قدر له أن عمره يطول بصلة الرحم فسوف يقدر له أن يصل رحمه، ومن قدر له أن ينقص عمره بقطيعة الرحم فسوف يكون قاطعا لرحمه؛ لأن المسببات مربوطة بأسبابها، معلومة عند الله.

=

=

وهذا يزيل عنا الإشكال الذي أشكل، أورده بعض العلماء رحمهم الله في هذا الحديث، وحاولوا أن يفسروا زيادة العمر بالبركة في عمر الإنسان، بأن الله إذا أنزل بركة في العمر وإن كان قصيرا صار خيرا من عمر طويل بلا بركة، ولكن تقدم لنا أن هذا لا يخرجهم من الإشكال؛ لأن البركة أيضا مكتوبة، وكذلك محقها مكتوب، فلا يخرجهم ذلك من الإشكال، لا يخرجون من الإشكال إلا أن نقول: إن عمر الإنسان المطول بسبب صلة الرحم قد كتب، وقد كتب أن يصل رحمه، إذن ما الفائدة من قول الرسول: "من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ... ؟ ".

الجواب: الفائدة من ذلك: الحث على صلة الرحم، كما أننا نقول: (من أحب أن يدخل الجنة فليعمل عملا صالحا) فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة فكيف يدخلها ولم يعمل؟ كيف إذا عمل كتبت له الجنة؟

ونقول: هي مكتوبة من قبل أن يعمل، لكن قد كتبت له الجنة وكتب أن يعمل لها عملها، وعلى هذا كل ما حصل من تقديرات الله ﷻ؛ فإن هذا لا يختص بالعمر، الإشكال وارد على الجميع، ولكن الجواب عنه بسيط: وهو أن يقال: إن هذا مكتوب نتيجة لهذا السبب، وهو معلوم عند الله، أما عندنا فليس بمعلوم.

إذن: يكون أحسن ما يشار إليه في الآية أن المراد {من عمره} أي معمر، وأن الإنسان قد يزاد في عمره لسبب من الأسباب، وقد ينقص من عمره لسبب آخر.

قوله تعالى: {إلا في كتاب}: {كتاب} فعال بمعنى مفعول؛ ففراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، فكتاب بمعنى مكتوب، فما هو هذا الكتاب؟ قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو اللوح المحفوظ] وهذا في السماء، وهو محفوظ من عدة أوجه:

محفوظ أن يناله أحد؛ لأنه خاص بتقدير الله ﷻ.

=

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢).

{وما يستوي البحران هذا عذب فُرَات} شَدِيد الْعُذُوبَة {سَائِغ شَرَابه} شُرْبه {وَهَذَا مِلْح أُجَاج} شَدِيد الْمِلْوَحَة {وَمِنْ كُلّ} مِنْهُمَا {تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} هُوَ السَّمَك {وَتَسْتَخْرِجُونَ} مِنْ الْمِلْح وَقِيلَ مِنْهُمَا {حِلْيَة تَلْبَسُونَهَا} هِيَ اللُّؤْلُؤ وَالْمَرْجَان {وَتَرَى} تُبْصِر {الْفُلْك} السُّفُن {فِيهِ} فِي كُلّ مِنْهُمَا {مَوَاخِر} تَمْخُر الْمَاء أَيْ تَشُقّهُ بِجَرْيِهَا فِيهِ مُقْبِلَة وَمُدْبِرَة بِرِيحٍ وَاحِدَة {لِتَبْتَغُوا} تَطْلُبُوا {مِنْ فَضْله} تَعَالَى بِالتِّجَارَةِ {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} الله عَلَى ذَلِكَ[1].

=

محفوظ من أن يغير؛ أي: يبدل؛ ولهذا ما كتب في اللوح المحفوظ فإنه سيكون؛ كما قال الله تعالى للقلم: "اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة".

وكذلك أيضا محفوظ عن الخلل بحيث لا يحتاج إكمالا ولا ترتيبا ولا يتخلف ما كتب فيه؛ يعني: لا يقع فيه السهو، فهو تام من كل وجه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن ذلك على الله يسير} هين].

{ذلك} المشار إليه: كل ما سبق، الزيادة في العمر، والنقص، والكتابة، كله يسير على الله؛ أي: هين عليه، وإن كان عند المخلوقين صعبا وعسيرا، لكنه عند الله سهل ويسير؛ لأنه عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد شيئا قال له: كن فيكون.

(١) قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: ١٢].

قال الطبري: يقول:"وما يعتدل البحران فيستويان؛ أحدهما عذب فرات، والفرات: هو أعذب العذب، وهذا ملح أجاج يقول: والآخر منهما ملح أجاج

=

=

وذلك هو ماء البحر الأخضر، والأجاج: المر وهو أشد المياه ملوحة".

قال الطبري:"يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة: وخلق البحرين العذب الزلال، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك، {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ}، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زُعَاقًا مُرَّة، ولهذا قال: {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ}، أي: مُرّ".

قال الزجاج:"«الفرات»: المبالغ في العذوبة، و «الأجاج»: الشديد المرارة، و «الأجاج»: أيضا الشديد الحرارة".

عن قتادة، قوله: " {وهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ}، والأجاج: المر".

عن سنان بن سلمة: "أنه سأل ابن عباس، عن ماء البحر فقال: بحران لا يضرك فمن أيهما توضأت ماء البحر وماء الفرات".

قوله تعالى: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا} [فاطر: ١٢]، أي:"ومن كل من البحرين تأكلون سمكًا طريًّا شهيّ الطَّعم".

قال الطبري: " يقول: ومن كل البحار تأكلون لحمًا طريًّا، وذلك السمك من عذبهما الفرات وملحهما الأجاج".

قال ابن كثير:"يعني: السمك".

عن قتادة، قوله: " {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا}، أي: منهما جميعًا".

عن السدي، قوله: " {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا}، قال: السمك".

قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: ١٢]، أي:"وتستخرجون زينة هي اللؤلؤ والمَرْجان تَلْبَسونها".

قال الطبري: "يعني: الدر والمرجان تستخرجونها من الملح الأجاج".

=

=

عن قتادة، قوله: " {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، هذا اللؤلؤ".

عن السدي، قوله: "" {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، قال: اللؤلؤ من البحر الأجاج".

قال الزجاج:"وإنما تستخرج الحلية من الملح دون العذب، إلا أنهما لما كانا مختلط ين العذب والملح، جاز أن يقال تستخرجون الحلية - وهي اللؤلؤ والمرجان وما أشبه ذلك منهما - كما قال: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢] ".

قال الشنقيطي:"واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [٥٥/ ٢٢]، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب، بقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [٣٥/ ١٢]، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعًا بقوله: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحًا، كما ترى".

قوله تعالى: {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ} [فاطر: ١٢]، أي:"وترى السفن فيه شاقات المياه".

قال الطبري: يقول:"وترى السفن في كل تلك البحار مواخر تمخر الماء بصدورها".

قال ابن كثير:"أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدمها المُسَنَّم الذي يشبه جؤجؤ الطير - وهو: صدره ".

قال الزجاج:"المعنى: في مواخر تشق الماء".

=

=

قال ابن قتيبة:"أي: جواري. ومخرها: خرقها للماء".

قال الفراء:"مخرها: خرقها للماء إذا مرت فيه، واحدها: ماخرة".

قال أبو عبيدة:"{مَواخِرَ فِيهِ}: من مخرت الماء، أي: شقّته بجآجئها".

وقال النحاس:"{وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ}، أي: في الملح خاصة، ولولا ذلك لقال: «فيهما»، وقد مخرت السفينة تمخر وتمخر، إذا شقّت الماء، كما قال طرفة:

يشقّ حباب الماء حيزومها بها... كما قسم التّرب المفايل باليد".

عن ابن عباس، قوله: " {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ}، يقول: جواريَ".

عن قتادة، قوله: " {وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ}، فيه السفن مقبلة ومدبرة بريح واحدة".

وقال مجاهد: "تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام".

قوله تعالى: {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [فاطر: ١٢]، أي:"لتبتغوا من فضله من التجارة وغيرها".

قال الطبري:"يقول: لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرفوا فيها في تجاراتكم".

قال ابن كثير:"أي: بأسفاركم بالتجارة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم".

عن مجاهد: {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}، قال:"طلب التجارة في البحر".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [فاطر: ١٢]، أي:"ولكي تشكروا الله على هذه النعم التي أنعم بها عليكم".

قال الطبري: يقول:"وتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم، وما رزقكم منه من طيبات الرزق وفاخر الحلي".

قال سفيان بن عيينة: "على كل مسلم أن يشكر الله، لأن الله قال: {ولعلكم

=

=

تشكرون} ".

قال ابن كثير:"أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر، تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ومن رحمته".

قال الإمام الشافعي:"في الآية دلالتان:

إحداهما: أن البحر العذب والمالح، وأن صيدهما مذكور ذكرا واحدا فكل ما صيد في ماء عذب، أو بحر، قليل أو كثير مما يعيش في الماء للمحرم حلال، وحلال اصطياده، وإن كان في الحرم؛ لأن حكمه حكم صيد البحر الحلال للمحرم لا يختلف، ومن خوطب بإحلال صيد البحر وطعامه عقل أنه إنما أحل له ما يعيش في البحر من ذلك، وأنه أحل كل ما يعيش في مائه؛ لأنه صيده وطعامه عندنا: ما ألقى وطفا عليه - والله أعلم - ولا أعلم الآية تحتمل إلا هذا المعنى.

ثانيهما: أو يكون طعامه في دواب تعيش فيه فتؤخذ بالأيدي بغير

تكلف، كتكلف صيده، فكان هذا داخلا في ظاهر جملة الآية - والله أعلم -".

قال العثيمين: قوله {وما} نافية، و {يستوي} بمعنى يتساوى ويتماثل {البحران} وهذا مجمل، والبحر هو الماء الكثير، فكل ماء كثير يسمى بحرا، البحران هنا مجمل، فسره ﷻ بقوله تعالى: {هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج} العذب هنا بمعنى الحلو المستساغ شربه، وفرات يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره [شديد العذوبة].

{سائغ شرابه} أي: شربه، سائغ؛ بمعنى: سهل وميسر؛ لأنه حلو عذب، وليس فيه ما يكدره من وساخة أو حرارة زائدة أو برودة زائدة، المهم أنه عذب فرات سائغ شرابه.

=

=

والثاني [{وهذا ملح أجاج} شديد الملوحة] ملح شديد الملوحة، هل يستويان؟ لا، وهل هذا يراد به الحقيقة أو هو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر؟

قيل: إنه يراد به الحقيقة بدليل قوله تعالى: {ومن كل تأكلون لحما طريا} وقيل: إن المراد به مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن بمنزلة العذب الفرات، والكافر بمنزلة الملح الأجاج، ولكن لدينا قاعدة في الكلام أنه إذا دار الأمر بين أن يكون حقيقة أو غير حقيقة وجب أن يحمل على الحقيقة، فهو إذن حقيقة، ويؤيده أيضا قوله تعالى: {ومن كل تأكلون لحما طريا} فإن مثل هذا الترشيح يدل على أنه حقيقة وليس بمجاز، على أننا نقول: إنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره كما سبق، ولكن مع هذا لا بأس أن ينتقل من نفي التساوي بين هذين البحرين ونفي التساوي بين كل شيئين متغايرين؛ يعني: لا مانع من أن ينتقل لانتفاء التساوي بين هذين المخصوصين إلى انتفاء التساوي بين الأمور المعقولة المعنوية.

قوله تعالى: {ومن كل تأكلون لحما طريا}.

{ومن كل} متعلق بقوله تعالى: {تأكلون} [{لحما طريا} هو السمك] الطري معناه الذي لم يتغير بنتن، وهذا من خصائص السمك؛ أنه وإن مات فإنه طري كما قال الله تعالى: {أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة} [المائدة: ٩٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: "صيده ما أخذ حيا وطعامه ما أخذ ميتا".

ثانيا: من فوائد هذين البحرين [{وتستخرجون} من الملح، وقيل: منهما {حلية تلبسونها} وهي اللؤلؤ والمرجان] كما قال تعالى: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} [الرحمن: ٢٢]، وقد اختلف الناس: هل هذا لا يخرج إلا من المالح أو يخرج من المالح والعذب؟

=

=

أكثر المفسرين على أنه لا يخرج إلا من المالح، وحملوا قوله تعالى: {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} [الرحمن: ٢٢] على أن المراد من مجموعهما لا من جميعهما.

فهما إذا قلنا: عندنا بحران؛ عذب ومالح، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، [منهما] يعني من المجموع لا من الجميع، ولكن الصحيح أنه يخرج من الجميع؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، والله سبحانه وتعالى أعلم بما خلق، فإنه يخرج منهما، وقد ثبت الآن أن اللؤلؤ والمرجان يخرج من هذا ومن هذا؛ ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقيل منهما].

وقوله تعالى: {حلية تلبسونها} وذكر اللبس؛ لأنه غاية ما ينتفع به من هذه الحلية، وإلا فمن المعلوم أن من يستخرج هذه الحلية يتخذها تجارة، وتجارة اللؤلؤ والمرجان فيما سبق وإلى الآن لا تزال تجارة قوية، لأن الذي يشتريها من التجار يريد بها اللبس، فإن أرادوا بها التكسب يلبسها كسوة للبدن في باطنه وكسوة للبدن في ظاهره، كسوة البدن في باطنه أكل اللحم، فأكل اللحم كسوة للبدن في باطنه؛ ولهذا قال الله تعالى: {إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى} [طه: ١١٨]، ولم يقل: (ولا تبلى) بل قال: {ولا تعرى} لأن الجوع عري الباطن والعري عري الظاهر؛ فمن ثم نقول: ذكر الله لباسين: اللباس الباطن بأكل اللحم، واللباس الظاهر بهذه الحلية، فمن كل تأكلون وتستخرجون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وترى} تبصر {الفلك} السفن {فيه} في كل منهما {مواخر}].

قوله: [{وترى} أي: تبصر] الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب، والرؤية هنا بصرية، فإن من يشاهد البواخر في البحار يراها تمخر الماء؛ أي: تشقه.

وقوله: [{فيه} في كل منهما] أجاب المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ عن إشكال واضح؛ لأنه يقول: {وما يستوي البحران} ثم قال: {وترى الفلك فيه} ومقتضى السياق أن يكون

=

=

التعبير هكذا (وترى الفلك فيهما) ولكن الضمير هنا لا يعود على البحرين، وإنما يعود على (كل) و (كل) لفظ مفرد، فعاد الضمير في هذه الآية على (كل) باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، ومن هنا قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في كل منهما] فزال الإشكال.

وقوله تعالى: {مواخر} قال: [تمخر الماء؛ أي: تشقه بجريها فيه مقبلة ومدبرة بريح واحدة] وهذا من نعمة الله ﷻ؛ أن سخر الفلك لنا تجري على هذا الماء، وتمخر عباب الماء، حاملة أنواع الأرزاق، وحاملة البشر الكثير؛ ولذلك الفلك الآن تعتبر بلدا كاملا، وإذا دخلتها رأيتها كالبلد، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى، فذكر هنا ثلاث فوائد:

الأولى: أكل اللحم، والثانية: الحلية، والثالثة: البواخر التي تعبر أو تشق الماء من ناحية إلى أخرى لتنقل الأرزاق والآدميين.

وتأمل قوله تعالى: {وتستخرجون حلية} و {تأكلون} و {وترى الفلك فيه مواخر} لأن السمك أخذه هين، لا يحتاج إلى كلفة، فذكر الأكل مباشرة، أما اللؤلؤ والمرجان فيحتاج إلى كلفة وإلى تعب؛ لأنه يحتاج إلى غوص وآلات وطول نفس أو حمل أشياء تعين على التنفس؛ ولهذا قال: {وتستخرجون} أي تطلبون الحلية، وأما الفلك فقال: {وترى الفلك فيه مواخر} لأن مشاهدتها بالعين وهي تشق الماء يرى الإنسان فيها من أعظم آيات الله ﷻ.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لتبتغوا} تطلبوا {من فضله} تعالى بالتجارة {ولعلكم تشكرون} الله على ذلك].

يعني: سخر الفلك وجعلها مواخر في هذا البحر لأمرين:

أولا: لتبتغوا من فضله؛ أي: تطلبوا الرزق بما تحمله هذه البواخر؛ ولذلك الآن ما الذي يأتي إلينا مثلا بالأرزاق من أمريكا ومن اليابان ومن المناطق الأخرى

=

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣).

{يُولِج} يُدْخِل الله {اللَّيْل فِي النَّهَار} فَيَزِيد {وَيُولِج النَّهَار} يُدْخِلهُ {فِي اللَّيْل} فَيَزِيد {وَسَخَّرَ الشَّمْس وَالْقَمَر كُلّ} مِنْهُمَا {يَجْرِي} فِي فَلَكه {لِأَجَلٍ مُسَمًّى} يَوْم الْقِيَامَة {ذَلِكُمْ الله رَبّكُمْ لَهُ الْمُلْك وَالَّذِينَ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ

=

البعيدة إلا بواسطة هذه البواخر التي تحمل الشيء الكثير، هذا من فضل الله ﷻ، لأنه قال: {لتبتغوا من فضله}.

وثانيا: قوله تعالى: {ولعلكم تشكرون} فإن (لعل) هنا حتى نستعرض المعاني التي تأتي لها (لعل) فـ (لعل) تأتي للترجي، وتأتي للتوقع، وتأتي للإشفاق، وتأتي للتعليل، فلأي المعاني كانت في هذه الآية؟

الجواب: للتعليل؛ لأنها لأجل أن تذكروا الله ﷻ، إذا رأيتم هذه البواخر تمخر الماء وتأتي بالأرزاق من ناحية إلى ناحية، فإن هذا يستوجب أن تشكروا الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة.

والشكر قال العلماء رحمهم الله في تفسيره: هو القيام بطاعة المنعم؛ اعترافا بالقلب، وتحدثا باللسان، وطاعة بالأركان، فمواضعه ثلاثة: القلب، واللسان، والجوارح؛ ولهذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فهذا الشكر يكون بهذه المواضع الثلاثة، والحمد يكون باللسان، فمتعلق الشكر أعم وسببه أخص، ومتعلق الحمد أخص وسببه أعم؛ لأن الحمد يكون في مقابلة النعمة، ويكون في مقابلة كمال المحمود.

دُونه} أَيْ غَيْره وَهُمْ الْأَصْنَام {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير} لِفَاقَةِ النَّوَاة.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤).

{إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا} فَرْضًا {مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} مَا أَجَابُوكُمْ {وَيَوْم الْقِيَامَة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّاهُمْ مَعَ الله أَيْ يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ وَمِنْ عِبَادَتكُمْ إِيَّاهُمْ {وَلَا يُنَبِّئك} بِأَحْوَالِ الدَّارَيْنِ {مِثْل خَبِير} عَالِم هُوَ الله تعالى(١).

---

(١) قوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [فاطر: ١٣]، أي:"واللهُ يدخل من ساعات الليل في النهار، فيزيد النهار بقَدْر ما نقص من الليل، ويُدخل من ساعات النهار في الليل، فيزيد الليل بقَدْر ما نقص من النهار".

قال الطبري: يقول:"يدخل الليل في النهار وذلك ما نقص من الليل أدخله في النهار فزاده فيه، ويولج النهار في الليل وذلك ما نقص من أجزاء النهار زاد في أجزاء الليل فأدخله فيها".

قال ابن كثير:"وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان. ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفًا وشتاء".

عن قتادة، قوله: " {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، زيادة هذا في نقصان هذا، ونقصان هذا في زيادة هذا".

عن ابن عباس، قوله: " {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} -يقول: هو انتقاص أحدهما من الآخر".

قال مجاهد:"هو أخذ أحدهما من صاحبه".

وقال القرظي:"يدخل من ليل الشتاء في نهار الصيف، ويدخل من نهار الصيف في =

=

ليالي الشتاء".

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [فاطر: ١٣]، أي:"وذلل الشمس والقمر، يجريان لوقت معلوم".

قال الطبري:"يقول: وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم، ورحمة منه بكم؛ لتعلموا عدد السنين والحساب، وتعرفوا الليل من النهار، كل ذلك يجري لوقت معلوم".

قال ابن كثير:"أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين، وعلى منهاج مقنن محرر، تقديرًا من عزيز عليم. {كُلٌّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمًّى}، أي: إلى يوم القيامة".

قال قتادة:"أجل معلوم، وحد لا يقصر دونه ولا يتعداه".

وقال السدي: "وهو مطالع الشمس والقمر إلى غاية لا يجاوزانه في شتاء ولا صيف".

قال النحاس:"قيل: «الأجل المسمّى»، -هاهنا-: القيامة، لأنها عند الله جلّ وعزّ مسمّاة لوقت معلوم".

قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ} [فاطر: ١٣]، أي:"ذلكم الذي فعل هذا هو الله ربكم له الملك كله".

قال الطبري:"يقول: الذي يفعل هذه الأفعال معبودكم أيها الناس الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله ربكم له الملك التام الذي لا شئ إلا وهو في ملكه وسلطانه".

قال ابن كثير:"أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره".

عن قتادة، قوله: " {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ}، أي: هو الذي يفعل هذا".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فاطر: ١٣]،

=

=

أي:"والذين تعبدون من دون الله ما يملكون مِن قطمير، وهي القشرة الرقيقة البيضاء تكون على النَّواة".

قال الطبري: يقول:"والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات الذي له الملك الكامل، الذي لا يشبهه ملك، صفته ما يملكون قشر نواة فما فوقها".

قال ابن كثير:" {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} أي: من الأنداد والأصنام التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين، لا يملكون من السموات والأرض شيئًا، ولا بمقدار هذا القطمير".

عن ابن عباس، قوله: {مِنْ قِطْمِيرٍ}، قال:"القطمير: القشر". وفي لفظ:"الجلد الذي يكون على ظهر النواة".

قال قتادة:"القطمير: القشرة التي على رأس النواة".

قال عطية:"القطمير: قشر النواة".

عن جويبر عن بعض أصحابه في قوله:"{مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}، قال: هو القِمَع الذي يكون على التمرة".

وقال مجاهد:"لفافة النواة كسحاة البيضة". وفي لفظ:"لفافة النواة كشحاة البصلة".

قال الطبري: "يقول: ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم، بأن جعل لهم سمع يسمعون به، ما استجابوا لكم؛ لأنها ليست ناطقة، وليس كل سامع قولا متيسرًا له الجواب عنه، يقول تعالى ذكره للمشركين به الآلهة والأوثان: فكيف تعبدون من دون الله من هذه صفته، وهو لا نفع لكم عنده، ولا قدرة له على ضركم، وتدعون عبادة الذي بيده نفعكم وضركم، وهو الذي خلقكم وأنعم عليكم".

=

=

قال ابن كثير:"أي: لا يقدرون على ما تطلبون منها".

عن قتادة، قوله: " {إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ}، أي: ما قبلوا ذلك عنكم، ولا نفعوكم فيه".

عن السدي، قوله: " {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ}، قال: ولو سمعت الآلهة دعاءكم ما استجابوا لكم بشيء من الخير".

قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} [فاطر: ١٤]، أي:"وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمشركين من عبدة الأوثان: ويوم القيامة تتبرأ آلهتكم التي تعبدونها من دون الله من أن تكون كانت لله شريكًا في الدنيا".

قال النحاس:"أي: يقولون: ما كانوا إيّانا يعبدون".

قال ابن كثير:"أي: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مريم: ٨١، ٨٢]".

عن قتادة:"{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} إياهم ولا يرضون ولا يقرون به".

عن السدي، قوله: "" {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}، قال: بعبادتكم إياهم".

قوله تعالى: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤]، أي:"ولا أحد يخبرك -أيها الرسول- أصدق من الله العليم الخبير".

قال الطبري:"ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عَبَدَتها يوم القيامة؛ من تبرؤها منهم، وكفرها بهم، مثل ذي خبرة بأمرها

=

=

وأمرهم، وذلك الخبير هو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه".
قال ابن كثير:"أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، مثلُ خبير بها".
عن قتادة، قوله: " {وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}، والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة".
قال العثيمين: ثم قال الله سبحانه وتعالى مبينا تمام قدرته ونعمته أيضا، قال: {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} [فاطر: ١٣].
قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{يولج} يدخل الله {الليل في النهار} فيزيد {ويولج النهار} يدخله {في الليل} فيزيد] انتبه لكلام المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هل يوافق الظاهر أو لا؟ قال: [{يولج الليل في النهار} فيزيد] ما الذي يزيد؟
الجواب: لا شك أن الليل إذا دخل على النهار زاد الليل، وإن كان يعود على أقرب مذكور وهو {النهار} فيزيد، فهذا فيه نظر، لكن توجيه {يولج الليل في النهار} أن شيئا من الليل يكون جزءا من النهار هذا توجيهه، فإذا كان شيء من الليل جزءا من النهار معناه زاد النهار؛ يعني: كأنه يقول مثلا: (دخل الليل في النهار فصار نهارا) وحيئذ يزيد النهار، والعكس بالعكس، لكن الظاهر من الآية الكريمة أنه يدخل الليل في النهار فيكون جزء من النهار ليلا، الآن لو قلت: (أدخلت هذه الساقية في هذه الأرض) الجزء الذي دخل من الساقية جعل الأرض ساقية.
إذن: (أدخلت الليل في النهار) جعلت جزءا من النهار ليلا، وحينئذ يكون الليل هو الذي يطول.

=

=

إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل لا شك أنه دال على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن يولجوا جزءا يسيرا من الليل في النهار أو بالعكس ما استطاعوا أبدا، ثم هذا الإيلاج أيضا إيلاج بنظام؛ أي: إنه يأتي شيئا فشيئا حتى تتكيف طباع البشر لهذا الإيلاج.

ما ظنكم لو أن الليل جاء بنهايته دفعة واحدة؛ يعني مثلا: اليوم صار الليل ثماني ساعات وخمسا وثلاثين دقيقة، في الليلة القادمة صار اثنتي عشرة ساعة وخمس دقائق، ماذا تكون حال الناس؟

الجواب: تضطرب، لكنه ﷻ يولجه شيئا فشيئا، هذا من جهة الإضطراب، ومن جهة أخرى لو أولجه هكذا دفعة، ومعلوم أن سبب طول النهار قرب الشمس من مسامكة الرؤوس، وإذا قاربت الشمس من مسامكة الرؤوس فلا بد أن تكون شديدة الحرارة؛ معنى ذلك أن يكون هذا اليوم هذا في عز الشتاء، واليوم الذي يليه في عز الصيف، وهذا ضرر عظيم، لكنه سبحانه وتعالى يولجه شيئا فشيئا، وهذا من تمام القدرة والحكمة والرحمة.

أيضا إيلاج الليل في النهار وبالعكس له تأثير عظيم على الجو؛ لأن الجو ينقلب من بارد شديد على طول الزمن إلى حار شديد على طول الزمن أيضا، معلوم أن هذه الحرارة الشديدة تقتل من الجراثيم الضارة ما لا يعلم به إلا الله ﷻ؛ ولهذا نضرب مثلا بسيطا كلنا نشاهده: البعوض إذا اشتد الحر مات لم يبق له أثر؛ ولهذا أكثر ما يكثر في الزمن الذي بين الحر والبرودة الشتاء، كذلك شدة البرودة تقتل الجراثيم التي تعيش على الحرارة، ولا يعلم بها إلا الله ﷻ؛ ومن ثم قال العلماء رحمهم الله: إن أكثر أهل الأرض أمراضا هم الذين على خط الإستواء وما قاربه؛ إذ ليس عندهم شتاء يقتل أو صيف حار يقتل أيضا، وهذا أمر مشاهد أيضا.

=

إذن: إيلاج الليل في النهار فيه عدة حكم؛ ولهذا بينه ﷻ فقال: {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل}.

قوله ﷻ: {وسخر الشمس والقمر} الشمس معروفة، والقمر معروف، سخرهما؛ أي: ذللهما لمصالح العباد؛ فإن في الشمس والقمر من المصالح العظيمة للعباد ما يعرفه أهل العلم رحمهم الله بهذا الشأن، وهذه الشمس والقمر ما بين الله لنا ثقلهما ولا حجمهما؛ لأن ذلك ليس بالعلم النافع الكثير لنا، فالجهل به لا يضر، والعلم به من فضول العلم، إن لم يشغلك عما هو أهم منه فاشتغل به، إنما بين المصالح التي تترتب على تسخير الشمس والقمر، فقال: {وسخر الشمس والقمر} فبالشمس يكون النهار والليل، ويكون أيضا نضج الثمار، وتكون الأنوار العظيمة، ما رأيكم مثلا ماذا يتوفر للعالم من الطاقة بعد خروج الشمس؟

الجواب: كثير لا يحصى؛ لأنها توفر الكهرباء، وتوفر أيضا تليين الأشياء التي تحتاج إلى تليين وحرارة، ثم إنهم في الأزمنة الأخيرة صاروا ينتجون من حرارة الشمس طاقة كبيرة عظيمة، أما القمر فسخر لنا أيضا بما يحصل من نوره في الليل، وبما يحصل منه من العلم بالحساب وعدد السنين، وما إلى ذلك.

وإن شئتم مزيدا من هذا فراجعوا كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث ذكر من فوائد الشمس والقمر أشياء عظيمة كبيرة، وذكر غيره أيضا ذلك، لكن يجد الإنسان الفرق بين بحث ابن القيم مثلا وبحث علماء الطبيعة؛ لأن علماء الطبيعة ينظرون إلى هذه الأشياء من زاوية مظلمة حالكة مادية محضة لا يتربى فيها الإنسان تربية دينية ولا يعرف بها قدرة الله ونعمته، لكن إذا تكلم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك يعقل أن هذا دائما برحمة الله وقدرته وحكمته، فيجد الإنسان مع علمه بهذا الفن والعلوم، يجد مع ذلك خشية لله ﷻ، وتعظيما له، ومحبة له.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وسخر الشمس والقمر كل} منهما {يجري} في فلكه {لأجل مسمى} يوم القيامة] كل؛ أي: كل من الشمس والقمر يجري؛ يعني: يسير في فلكه لأجل مسمى، الفلك شبهه ابن عباس رضي الله عنهما: بفلكة المغزل، وفلكة المغزل عبارة عن قرص في أعلاه، وفي أسفله عود ينطوي عليه الحبل الذي يغزل، هذه تدور؛ لأن المرأة التي تغزل تبرمه هكذا حتى يدور ويحكم الحبل، فالفلك هذا؛ للشمس فلك تدور به، وللقمر فلك يدور به.

وفي إسناد الجريان إلى كل منهما دليل على أنهما يسيران بذاتهما، ويدوران على الأرض، وهذا شيء مشاهد أن الشمس تدور على الأرض وكذلك القمر، وما ادعاه علماء الهيئة من أن الأرض هي التي تدور، والشمس لا تدور نحو الأرض فإننا نكذبه حتى يقوم لنا دليل حسي يكون لنا حجة أمام الله ﷻ في الخروج عن ظاهر كلامه.

وإلا فالواجب علينا نحو هذه الأمور ألا نخرج عن ظاهر كلام الله؛ لأن الله تعالى هو الخالق، والخالق أعلم بما خلق من غيره، وهذا مسلم، ولأن كلام الله ﷻ أوضح الكلام وأبينه، فلا يمكن أن يكون فيه شيء من التعقيد لا اللفظي ولا المعنوي، فهو واضح في معناه وظاهر؛ ولأن كلام الله ﷻ أصدق الكلام، فلا يمكن أن يخبرنا الله ﷻ بأمر لم يكن، أو بأمر يكون الواقع على خلافه؛ ولأن الله ﷻ أحب أحد يكون البيان إليه؛ يعني أنه يحب البيان لعباده أكثر من أي أحد، واقرأ قوله تعالى: {يبين الله لكم أن تضلوا} [النساء: ١٧٦]، وما أشبهها من الآيات الدالة على أن الله ﷻ يريد أن يبين لعباده ما يهتدون به، فإذا كان سبحانه وتعالى هو أحب من تكلم بالبيان، أو هو أحب من يكون البيان إليه أحب، وهو الله ﷻ، فإن الله تعالى لا يمكن أن يقول في كلامه ما ليس فيه بيان لنا.

إذن: فنحن نكذبهم ونقول: كذبتم أن يكون تعاقب الليل والنهار من أجل دوران

=

الأرض، بل تعاقب الليل والنهار من أجل دوران الشمس على الأرض، ولا غرابة بذلك، هم يقولون: كيف أن الكبير يدور على الصغير، نقول: ليس هناك مانع، نحن معكم أن الشمس أكبر من الأرض، لكن ما المانع من أن يكون الجرم الكبير هو الذي يدور على الصغير؟ !

ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدنا أن الله سبحانه وتعالى يضيف هذه الحركة إلى الشمس نفسها، وكذلك إذا نظرنا إلى السنة، ففي القرآن يقول الله تعالى: {وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال} [الكهف: ١٧]، وفي القرآن يقول الله تعالى: {إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب} [ص: ٣٢] أي: الشمس، وفي القرآن يقول: {وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى}، وقوله تعالى: {والشمس تجري لمستقر لها} مثل قوله تعالى: {كل يجري لأجل مسمى} فهذه خمسة مواضع كلها تدل على أن هذه الأفعال تقع من الشمس.

لو كان هذا يأتي بدوران الأرض لقال: (وترى الشمس إذا طلعوا عليها)؛ لأنه إذا دارت الأرض، فنحن الذين نطلع على الشمس، وليست الشمس هي التي تطلع علينا.

وأما قولهم: إن هذا خطاب إلى الناس بما يشاهدونه بأعينهم والأمر على خلافه، يعني: إذا طلعت حسب رؤية العين، وفي الواقع أننا نحن الذين نطلع عليها فبماذا نجيبهم؟

نقول: هذا خلاف ظاهر اللفظ، ولا يمكن أن نحيد عن هذا الظاهر إلا بدليل محسوس يمكننا أن نحتج به أمام الله ﷻ؛ لأن الله سيحاسبنا يقول: لماذا عدلتم عن كلامي إلى كلام غيري؟ والخطاب من الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: {إذا طلعت تزاور عن كهفهم} [الكهف: ١٧] تزاور؛ أي: تميل، ولو

=

=

كان ذلك بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تميل {وإذا غربت} لو كان هذا بدوران الأرض لكانت الأرض هي التي تغرب عن الشمس.

أما في السنة فقد قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: "أتدري أين تذهب؟ "، فأسند الذهاب إليها عندما غربت، ولو كانت الأرض هي التي دارت حتى اختفت الشمس لكان يقول: أتدري أين تذهب الأرض مثلا.

والحاصل: أنه يجب علينا وجوبا أن نأخذ بظاهر القرآن وأن الشمس هي التي تدور على الأرض وأنه بدورانها يحصل اختلاف الليل والنهار، هذا الواجب، ولا يجوز أن نحيد عن هذا أبدا إلا إذا قام الدليل الحسي على خلاف ذلك؛ فإنه حينئذ يتعين التأويل وصرف الكلام عن ظاهره؛ لأننا نعلم علم اليقين أن القرآن لا يخالف الواقع، أما شيء يقولونه بأوهامهم ويقدرونه، فإننا لا نوافقهم على ذلك، ولا يسع المؤمن أن يحيد عن ظاهر كلام الله لمجرد قولهم أبدا.

أما مسألة الأرض هل تدور أو لا تدور؟

فنحن نقول: لا نصدق ولا نكذب؛ فيمكن أن يكون لها دورة، ومع ذلك للشمس دورة، هم يقولون: إذا أقررتم بدوران الأرض لزمكم أن تقولوا: إن الشمس ثابتة، فنقول ليس ذلك بلازم، يمكن أن يكون للشمس دورة، وللأرض دورة أخرى، ولا مانع من ذلك، ولكن مع هذا نقول: إن الكلام في دوران الأرض من فضول العلم الذي لا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته به إلا رجلا يحتاج إلى معرفة ذلك؛ كما يذكر أنهم يحتاجون إليه في الصواريخ الموجهة وما أشبه ذلك مما هو معروف عند أهله، فحينئذ إذا احتاج إليه فلا حرج أن يبحث فيه.

أما إذا لم يحتج إليه فنقول: هذا من ضياع الوقت، وما الفائدة أن تعلم أنها تدور؟ أو لا تدور، احمد الله أن جعلها قرارا سواء كانت تدور أو لا تدور.

قوله تعالى: {كل يجري لأجل مسمى} يحتمل أن تكون لام العاقبة؛ أي: كل

=

=

يجري حتى ينتهي إلى هذا الأجل، ويحتمل أن تكون اللام بمعنى (إلى) كما جاءت به في موضع آخر: {كل يجري لأجل مسمى}.

وعلى كل حال: فهي تدل على أن لهذا الجريان غايتين، وهو كذلك، هذه الغاية فسرها المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [يوم القيامة]، وقوله تعالى: {لأجل مسمى} أي: معين عند الله سبحانه وتعالى، وهو معلوم عنده وليس معلوما عندنا.

إذن: فهذه الشمس وهذا القمر ليسا أبديين، لكنهما دائبان؛ كما قال تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين} [إبراهيم: ٣٣] أي: مستمرين، لكن لهما أجل.

قوله تعالى: {ذلكم الله ربكم له الملك}.

{ذلكم} هل الإشارة تعود إلى ما ذكر من التسخير والجريان، أو تعود إلى الفاعل في قوله تعالى: {وسخر}؟

الجواب: الثاني، إذن ذلكم المسخر الله، فالمشار إليه الآن مفرد مذكر، والمخاطب جماعة ذكور، لكن: ماذا يراعى في اسم الإشارة وكاف الخطاب؟ هل يراعى المخاطب أو المشار إليه؟

نقول: أما اسم الإشارة فيراعى فيها المشار إليه، وأما الكاف فيراعى فيها المخاطب، فإذا أشرت إلى رجلين مخاطبا جماعة إناث فإنك تقول: (ذانكن)، فـ (ذان) تخاطب ذكرين، و (كن) تخاطب جماعة إناث، وفي القرآن قالت: {فذلكن الذي لمتنني فيه} [يوسف: ٣٢] لكن هنا في الآية المشار إليه مفرد مذكر، وإذا خاطبت جماعة ذكور مشيرا إلى جماعة إناث فإنك تقول: (تلكم) أو (أولئكم).

وهل الأفصح في المخاطب أن يكون الضمير على حسب المخاطب؛ يعني: جماعة ذكور إذا كان المخاطب جماعة ذكور، وجماعة إناث إذا كان المخاطب

=

=

جماعة إناث، مثنى إذا كان المخاطب مثنى، مفرد مفتوح إذا كان المخاطب مذكرا، مفرد مكسور إذا كان المخاطب مؤنثا، أو الأفصح أن يكون بلفظ الإفراد دائما؟

نقول: فيه ثلاث لغات:

أولا: أن يكون باعتبار المخاطب مطلقا.

ثانيا: أن يكون بالفتح دائما.

ثالثا: أن يكون بالفتح لمفرد في المذكر وبالكسر لمفرد في المؤنث مطلقا.

فهذه ثلاث لغات:

اللغة الأولى: وهي المشهورة الفصحى؛ أن تكون الكاف بحسب المخاطب مطلقا، تخاطب مفردا مذكرا تقول: (ذلك)، مفردة مؤنثة: (ذلك) مثنى (ذلكما) جماعة ذكور: (ذلكم جماعة)، إناث: (ذلكن) هذا الأفصح.

ثانيا: أن تجعله مفردا مفتوحا في المذكر مطلقا فتقول: (ذلك) سواء كنت تخاطب مفردا أو مثنى أو جمعا لكن بشرط أن يكون مذكرا، وتقول في المؤنث: (ذلك) سواء كنت تخاطب واحدة أو مثنى أو جماعة.

ثالثا: أن تجعله مفتوحا بصيغة المذكر دائما أيا خاطبت، فتقول: (ذلك) سواء كنت تخاطب رجلا، أو امرأة، جماعة، أو مثنى، أو مفردا.

هنا يقول الله ﷻ: {ذلكم الله ربكم} المشار إليه مفرد مذكر، والمخاطب جماعة؛ لأن الله يخاطب الناس جميعا.

{ذلكم الله ربكم} الرب يطلق على معان كثيرة في اللغة العربية:

منها: الخالق، المالك، المدبر.

فالربوبية معناها أن الله تعالى خالق مالك مدبر؛ ولهذا قال: {له الملك} فهذه جملة خبرية قدم فيها الخبر للدلالة على الحصر؛ يعني: له وحده الملك دون

=

=

غيره، الملك المطلق الشامل لله وحده، ملك الذوات والأعيان، وملك التصرف في
هذه الأعيان، فهو المالك لكل مخلوق، وهو المتصرف في كل مخلوق.

فإذا قلت: كيف يصح الحصر مع أن الله ﷻ أثبت الملك لغيره فقال: {إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم} [المؤمنون: ٦] وقال: {أو ما ملكتم مفاتحه} [النور: ٦١]، وقال: {والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم} [النور: ٣٣]، فأثبت الملك لغيره وأنت تقول: إن هذه الجملة فيها حصر؟

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن ملكنا ليس ملكا مطلقا، بل هو ملك مقيد بحسب الشريعة، فأنا مثلا مالك لهذه الحقيبة، لكن لا أملك أن أتلفها؛ لأنه حرام علي أن أتلفها، مالك لهذا البعير مثلا لكن هل أملك أن أعذبه؟ هل أملك أن أجرحه؟

الجواب: لا، لا أملك هذا إلا بإذن من الشرع؛ ولهذا لما أذن الشرع بوسم البعير مع أنه مؤذ لها ومؤلم جاز، ولما أذن بإشعار الإبل والبقر في الهدي جاز.

والإشعار هو أن يشق السنام بالسكين في الهدي حتى يسيل الدم على الشعر والجلد، والفائدة من هذا ليعرف أن هذه هدي، ولهذا نحن نشعر الإبل والبقر، ونقلد الإبل والبقر والغنم، فالغنم ليس فيها إشعار، بل فيها تقليد فقط، والتقليد أننا نضع عليها قلادة في العنق، نعلق فيها النعال القديمة المتقطعة، وآذان القرب (واحدها قربة) يعني: قطع القرب لتعلق بها، نعلقه على هذا البعير أو البقرة أو الشاة ليعرف أنها هدي؛ لأن النعال المتقطعة وقطع القرب تدل على الرثاثة والفقر، إشارة إلى أن هذه للفقراء، والقصد أن ملكنا للشيء مقيد.

ثانيا: أنه ملك قاصر؛ يعني: ليس شاملا، فأنا مثلا أملك هذه الحقيبة، لكن أنت لا تملكها، وأنت تملك هذا الكتاب، وأنا لا أملكه، إذن فهو ملك قاصر لا

=

=

يتعدى، أما ملك الله ﷻ فإنه ملك مطلق يتصرف في ملكه كما يشاء، وهو ملك عام شامل، والله ﷻ ينزل الأمراض وينزل الجروح في مخلوقاته، وقد يبتلي الله الإنسان فتظهر فيه جروح تؤلمه، وتزعجه وتظهر الألم في أعصابه وفي عظامه، لو أن أحدا من المخلوقين أراد أن يفعل ذلك لكان ممنوعا ولا يجوز، لكن الله ﷻ له أن يفعل ما شاء {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} [الأنبياء: ٢٣].

إذن: الله هو الرب، وهو الذي له الملك، وهذا الملك أيضا شامل للأعيان والذوات، وشامل للتصرف فيها، ومنه التصرف في الحكم، فالأحكام الشرعية لا تتلقى إلا من الله ﷻ، ويجب أن نؤمن ونطبق جميع أحكام الله سواء كان ذلك في العبادات أو في المعاملات أو الأحوال، يجب أن نطبق الجميع.

فإن قال أحد من الناس: العبادة حق الله، فهي بيني وبينه ولا أتجاوز ما شرع، والمعاملة حق الإنسان، له أن يتجاوز الشرع فيها، فأنا لي أن أعدل عن شريعة الله إلى حكم الطواغيت؟ فمثلا العبادة حق الله الخاص، لا يجوز لي أن أتصرف فيها، أما البيع والشراء فلمصلحتي أنا، فأي نوع من البيع والشراء يتفق مع المصلحة والكسب فلي أن أفعله، سواء كان ربا أو غشا أو مكرا ... إلخ، فهل يجوز ذلك أو لا يجوز؟ ! فهو يقول: المسجد لله، والوطن للشعب أو للجميع.

فالجواب: أن نقول: {ذلكم الله ربكم له الملك} ليس لأحد ملك، الملك لله ﷻ يتصرف في هذا الملك كما يشاء حلا وحرمة وإيجابا، ولا أحد يتدخل في ذلك، والذي يقول هذا ويعمل بالشرع في العبادات وينكر الشرع في المعاملات نقول: إنه كافر مرتد عن الإسلام.

ولا يجوز إقراره على هذا الشيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون

=

=

حقا} [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

فالإيمان ببعض الرسل دون بعض كالإيمان ببعض الشريعة دون بعض؛ لأن الأول تجزئة في الرسل، وهذا تجزئة في المرسل به ولا فرق؛ فالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه هو في الحقيقة كافر بالجميع؛ لأننا نقول: لو سلمت أنه من الله وأنه شرعه ما كفرت به، فإذا كفرت به فهو كفر بالجميع، وشرع الله تعالى لا يتبعض.

ومن هنا نأخذ خطورة الأمر في كثير من بلدان المسلمين الذين يحكمون فيما بينهم غير شريعة الله، ويرون أن هذه القوانين الوضعية الطاغوتية أفضل من شرع الله، وأقوم لعباد الله وأقوم لمصالح عباد الله مما شرعه الله، نسأل الله العافية.

وهذا بلا شك نقص في عقولهم، وذهاب لأديانهم، كيف يكون هذا الوضع الطاغوتي المحدث المبني على العقل القاصر أفضل وأنفع للعباد من شرع الله ﷻ الذي شرعه لعباده وهو أعلم بمصالحهم وأحكم بما يرشدهم؟ !

أي إنسان عنده عقل - فضلا أن يكون عنده إيمان - لا يمكن أبدا أن يدور في فكره أن هذه الأحكام الوضعية المخالفة لشرع الله خير لعباد الله من شرع الله إلا مخبلا ومجنونا، والعياذ بالله، وما ذلك بغريب على بني آدم؛ فالذين كانوا يعبدون الأحجار في الجاهلية مثل هؤلاء في السفه، هؤلاء أيضا عبدوا آراء غيرهم وقدموها على شريعة الله.

والقول بأن (الدين لله والوطن للخلق) هذا خطأ فادح، بل يقال: (الدين لله والبلاد لله)؛ كما قال تعالى: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده} [الأعراف: ١٢٨] وليست لك، الأرض لله، والشعب لله، والدين لله، وكل شيء فهو لله، وإذا كان لله فالواجب علينا أن نسير على هدي الله.

قوله ﷻ: {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} الواو إما استئنافية

=

=

وإما عاطفة من باب عطف الجمل بعضها على بعض {والذين} مبتدأ، وجملة {ما يملكون} خبرها.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{والذين تدعون} تعبدون {من دونه} أي غيره وهم الأصنام].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تعبدون] لأن الدعاء عبادة، والعابد لله عَزَّوَجَلَّ قد تتضمن عبادته الدعاء كالصلاة مثلا؛ فيها في دعاء وهو عبادة، وقد تكون دعاء بلسان الحال؛ لأن العابد يريد الفوز بالجنة والنجاة من النار، فهو وإن لم يقل: الفوز بالجنة والنجاة من النار فهو لا يريد إلا ذلك؛ إذن فهذا بلسان الحال.

ولهذا نقول: إن الدعاء عبادة؛ قال الله تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} [غافر: ٦٠] بعد قوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} [غافر: ٦٠] فدل هذا على أن الدعاء عبادة، وهنا يقول: {والذين تدعون من دونه}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يعبدون] إما عبادة بالفعل؛ كالركوع للصنم، والسجود للصنم، والذبح له، والنذر له، وما أشبه ذلك، أو يدعونه دعاء مسألة لا دعاء عبادة، فيأتون إلى الصنم وإلى القبر، ويسألونه حاجاتهم، ويستغيثون به، فشمل قوله تعالى: {تدعون} دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وقلت: إن دعاء العبادة دعاء مسألة لكن بلسان الحال.

كيف يدعون هؤلاء؟ أقول: يدعون هذه الأصنام على وجهين:

إما بدعاء مسألة، وإما بدعاء عبادة، ودعاء العبادة دعاء بلسان الحال.

قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{من دونه} أي: غيره، وهم الأصنام] الأصنام تارة يعبر الله عنها بصيغة المؤنث، وتارة يعبر عنها بصيغة المذكر، هنا عبر عنها بصيغة المذكر العاقل {والذين تدعون} هذا للمذكر العاقل، وإنما وصف هذه مع أنها جماد ميتة للتنزل مع هؤلاء العابدين لها وذكرها على أكمل حال يعتقدونها فيها؛ يعني: =

=

هي مع كمالها على زعمكم لكونها من ذوات العقل لا تملك شيئا.

قوله تعالى: {ما يملكون من قطمير}: {من} زائدة؛ ولهذا نقول: {قطمير} مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد؛ أي: ما يملكون قطميرا.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{قطمير}: لفافة النواة] إن في النواة ثلاثة أشياء يضرب بها المثل في الحقارة: قطمير، ونقير، وفتيل.

ويدل على هذا أنهم لا يملكون شيئا قوله تعالى: {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم}: {إن} هذه شرطية، وفعل الشرط {تدعوهم} وهو مجزوم بحذف النون، وجواب الشرط {لا يسمعوا دعاءكم} وهو مجزوم أيضا بحذف النون؛ يعني: هذه الأصنام إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، لو تدعون هذه الأصنام إلى يوم القيامة ما سمعوا؛ لأنها جماد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: {ولو سمعوا} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فرضا {ما استجابوا لكم} ما أجابوكم] يعني: لو سمعت هذه الأصنام دعاءكم ما استجابت لكم؛ أي: ما أجابتكم سواء إن قلتم: يا لات يا عزى، يا مناة، يا يعوق، يا يغوث، يا نسر، لو سمعت هذا الدعاء هل تجيبكم وتقول: نعم، ماذا تريدون؟

الجواب: لا، ولا تعطيكم المطلوب أيضا، حتى لو سكتت ما أوصلت المطلوب إليكم؛ ولهذا قال: {ما استجابوا لكم} ليشمل الإستجابة بالقول بأن تقول هذه الأصنام: ماذا تريدون؟ والإستجابة بالفعل وهي إيصال المطلوب إلى هؤلاء الطالبين، فهي لا تستجيب لا لهذا ولا لهذا.

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{استجابوا لكم} أي: أجابوكم] مثل قوله تعالى: {فاستجاب لهم ربهم} [آل عمران: ١٩٥]؛ أي: أجابهم وكقوله تعالى: {فليستجيبوا لي} [البقرة: ١٨٦] أي: فليجيبوني، وأمثال هذا كثير؛ فالإستجابة

=

=

هنا بمعنى الإجابة؛ أي: إن هذه الأصنام لا تجيبهم.

وزد على ذلك أنهم - كما قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ويوم القيامة يكفرون بشرككم} بإشراككم إياهم مع الله؛ أي: يتبرؤون منكم ومن عبادتكم إياهم] إذن انتفى عنها إجابة الدعاء، ومع ذلك ليتهم سلموا من شرهم، يوم القيامة في هذا الموقف العظيم المشهور يكفرون بشرككم ويتبرؤون منكم، وهذا غاية ما يكون من الخذلان؛ لأن الناس في يوم القيامة يكونون فيه أحوج ما يكونون إلى النصر والعزة، وهؤلاء الأصنام يوم القيامة تذلهم كما قال الله تعالى - وهذا يقوله إبراهيم -: {وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين} [العنكبوت: ٢٥].

في هذه الآية يبين الله أن هذه الأصنام لا تملك نفعا لعابديها، هذا واحد.

ثانيا: وتزيد عابديها ذلا وخذلانا في الموضع الذي يكونون فيه أحوج ما يكونون إلى العز والنصر {ويوم القيامة يكفرون بشرككم}.

قوله تعالى: {ولا ينبئك مثل خبير}: {ولا ينبئك} أي: يخبرك. قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا ينبئك} بأحوال الدارين {مثل خبير} عالم، وهو الله تعالى]. {ولا ينبئك} هذه جملة خبرية منفية؛ يعني لا ينبئك أحد بأخبار هؤلاء سواء في الدنيا أو في الآخرة.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بأحوال الدارين] هذا واضح، فهو فسرها على ما هي عليه؛ يعني: لا ينبئك بأحوال الدنيا والآخرة وما يكون لهؤلاء العابدين من هذه الأصنام لا ينبئك أحد مثل من هو خبير بالأحوال، وسئلنا من الخبير بالأحوال؟

الجواب: الخبير الله، وهذه الجملة سارت مسرى المثل عند العرب، إذا أرادوا أن يؤكدوا الشيء قالوا: (لا ينبئك مثل خبير)، أو أحيانا يقولون: (على الخبير

=

=

سقطت) يعني: وصلت إلى العلم اليقيني الذي يصدر عن خبرة، إذا كانوا لا ينبئون مثل خبير وهو الله وقد أنبأنا بحال هذه الأصنام مع عابديها فهل يليق بنا عبادتها ونحن عقلاء.

(تنبيه): قد وردت في القرآن أدلة تقرر توحيد الألوهية بأحسن تقرير وبأقوى حجة لا يمكن دفعها أبدًا ويمكن حصر هذه الأدلة في خمسة أنواع:

النوع الأول: إلزام المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه

النوع الثاني: بيان حال الآلهة التي تعبد دون الله في الدنيا والآخرة بصفة تقرر عدم استحقاقها للعبادة

النوع الثالث: تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد وأنه لا برهان لهم ولا حجة في شركهم

النوع الرابع: بيان أن الحكم لله وحده شرعًا وجزاءً

النوع الخامس: دلالة العقل والنقل على توحيد الألوهية.

المطلب الأول: إلزام المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه

فإنه قد تكرر في القرآن بيان أن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد، وأن المتفرد بالنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يستحق أن يعبد دون ما سواه. فظهر من هذا أن هذا النوع من الأدلة يكون في مسألتين:

المسألة الأولى: العلم بأن الله هو المنفرد بالخلق والتدبير.

المسألة الثانية: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ

=

=

بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ٢١ - ٢٢].

قال عكرمة (نهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئًا وأن يعبدوا غيره أو يتخذوا له ندًا وعدلًا في الطاعة فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم ونعمتي التي أنعمتها عليكم فكذلك فأفردوا لي الطاعة وأخلصوا لي العبادة ولا تجعلوا لي شريكًا وندًا من خلقي فإنكم تعلمون أن كل نعمة عليكم مني). اهـ

فقد بين الله تعالى استحقاقه للعبادة لأنه هو الخالق والرازق - وأمرهم أمر إيجاب بقوله: اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ. وقال الله تعالى: قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ [الأنعام: ١٤ - ١٨].

ففي هذه الآيات تقرير التوحيد لله تعالى؛ فالاستفهام في قوله تعالى أَغَيْرَ اللهِ إنكاري، أي كيف أتخذ وليًا غير الله فأطيعه وأعبده والله هو خالق السموات والأرض الذي يرزق الخلق ولا يحتاج إليهم فهو الغني عن كل ما سواه فلذلك أمره الله بعبادته وحده ونهاه عن الشرك. ثم بين الله تعالى أن الثواب والعقاب بيده، وبين تعالى أنه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء وهو المتصرف وحده فله القدرة الكاملة والعزة الظاهرة - فإذا كان ذلك كذلك كيف لا تُخلص له العبادة !.

وقال تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ

=

=

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [الأنعام: ١٠١ - ١٠٢] وفيها أن الخالق والوكيل على كل شيء بحفظه ورزقه وتصريفه هو الذي يستحق أن يعبد - قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه لهم: أيها الجاهلون: إنه لا شيء له الألوهية والعبادة إلا الذي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السموات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها. فإنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة).

هذا وقد كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية - ولذلك قال الله جل وعلا عنهم وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ [يوسف: ١٠٦] قال عكرمة مولى ابن عباس في تفسير الآية السابقة: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره) اهـ.

ومثل هذا التفسير منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

ولذلك فإن الله قررهم بهذا النوع من التوحيد - أي إذا كنتم أيها المشركون تقرون لله بأنه خالق كل شيء ورازقه فعليكم أن تقروا كذلك لله تعالى بالألوهية وحده وتتقوه ولا تعبدوا غيره. قال الله تعالى: قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [يونس: ٣١ - ٣٢].

قال ابن جرير عند قوله أَفَلاَ تَتَّقُونَ: (أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وادعائكم ربًا غير من هذه الصفة صفته، وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئًا ولا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا؟).

=

=

وقال تعالى: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

فهذه الآيات جاءت بعد أن ذكر الله إهلاكه لفرعون وقومه وذهاب ملك سبأ وإهلاك ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وإهلاك قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجه المناسبة كما قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (قل يا محمد لهؤلاء الذين زينا لهم أعمالهم من قومك فهم يعمهون: آلله الذي أنعم على أوليائه هذه النعم التي قصها عليكم في هذه السورة، وأهلك أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوف العذاب التي ذكرها لكم فيها خير أما تشركون من أوثانكم التي لا تنفعكم ولا تضركم ولا تدفع عن أنفسها ولا عن أوليائها سوءًا ولا تجلب إليها ولا إليهم نفعًا؟ يقول: إن هذا الأمر لا يشكل على من له عقل، فكيف تستجيزون أن تشركوا عبادة من لا نفع عنده لكم ولا دفع ضر عنكم في عبادة من بيده النفع والضر وله كل شيء؟ ثم ابتدأ تعالى ذكره تعديد نعمه عليهم). ثم ذكر الآيات وتفسيرها. وقد بين الله تعالى خصائص ربوبيته في هذه الآيات الدالة على أنه المعبود وحده - وأن ما سواه لا يستحق شيئًا من العبادة، فإنه كلما ذكر شيئًا من خصائصه قال: أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ أي يقدر على ذلك أو يفعله؟ والجواب: لا. وإذا كان كذلك كان هو المستحق لأن يعبد وحده،

=

=

ولذلك نص الله على ذلك بقوله تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ بعد أن ابتدأ الآيات بقوله: آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ثم بين تعالى عجز كل من يدعي شيئًا من خصائص ربوبيته لغيره تعالى فقال آمرًا نبيه ﷺ بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

وبعد هذا التقرير يظهر جليًا أن التوكل والاستعانة ونحوها إنما تكون بالله رب الأرض والسموات الذي بيده الأمر كله – وهذا هو الذي تقتضيه الفطرة السليمة – فإن الذي خلق وقدر وهدى والذي بيده ملكوت كل شيء هو الذي يتوكل عليه ويستعان به وحده – وأن الذي أنعم على الحق بأنواع النعم التي لا تعد ولا تحصى كما قال الله تعالى: وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [النحل: ١٨] هو الذي يشكر ويحب لما أنعم به وهو الذي يرجى ويرغب إليه وحده.

المطلب الثاني: بيان حال الآلهة التي تعبد دون الله في الدنيا والآخرة بصفة تقرر عدم استحقاقها للعبادة

وهذا النوع من الأدلة يبين الله جل وعلا فيه أن ما دونه مخلوق مربوب له وأنهم لا يخلقون شيئًا ولا يملكون شيئًا، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يستحق العبادة أبدًا، ويبين الله تعالى عدم نفع ما يعبد من دونه من المخلوقات في الدنيا ولا في الآخرة، ليؤكد أنها لا تستحق العبادة، ويمكن حصر هذا النوع من الأدلة في ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: معرفة ما يعبد من دون الله من المخلوقات وبيان نقصها من جميع الوجوه.

المسألة الثانية: تعجيز المسئولين من دون الله.

المسألة الثالثة: الإخبار عن التعادي الحاصل بعد البعث.

المسألة الأولى: معرفة ما يعبد من دون الله من المخلوقات وبيان نقصها من

=

=

جميع الوجوه:

قال الله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا [الفرقان: ٣].

ففي هذه الآية تقريع للمشركين بعبادتهم ما دون الله وتنبيه لهم على موضع خطأ فعلهم ببيان أن آلهتهم التي يعبدونها لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة ومع ذلك فهي لا تملك دفع ضر عن نفسها ولا جلب منفعة إليها ولا تملك إماتة ولا إحياء ولا بعثًا - فهذه هي صفتها فهي لا تستحق العبادة.

وقد ذكر الله تعالى هذه الآيات بعد قوله: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا الفرقان: ١ - ٢ [.]

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدون من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو ملك جميع ذلك).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عند قوله تعالى: اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ [الروم: ٤٠] قال: ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا، أي: ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) اهـ.

ومن الآيات التي تبين ضعف ما يعبد من دون الله وأنه لا يخلق شيئًا فلا يستحق أن يعبد قوله تعالى: قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ

=

=

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [يونس: ٣١].

ومنها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج: ٧٣ - ٧٤].

واتضح من هذه الآية أن من يعبد شيئًا مع الله لا يكون قد قدر الله تعالى حق قدره. وفي هذا الدلالة الواضحة على أن الله تعالى ذكر من الحجج الدالة على توحيده وصرف العبادة إليه وحده لا شريك له: أن غيره لا يخلق شيئًا وأنه ضعيف مربوب لله فوجب ألا يصرف إليه شيء من العبادة.

المسألة الثانية: تعجيز المسئولين من دون الله:

وهذه المسألة وإن كانت داخلة في عموم المسألة قبلها إلا أنه قد ورد إفرادها بالذكر في القرآن الكريم - وترد كذلك مرتبطة مع تلك المسألة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلًا [الإسراء: ٥٦] وفي هذه الآية تعجيز للمدعوين من دون الله سواء كانوا ملائكة أو جنًا أو إنسًا أو أصنامًا أو غير ذلك إذا أراد الله إنزال ضر أن يدفعوه أو يحولوه إلى نفع أو يحولوا الضر إلى آخرين ولا شك أن المدعوين من دون الله عاجزون عن ذلك إذ المقدر هو الله تعالى، فلا يقدر أحد أن يغير ما قدره الله. وبهذا يعلم أن أولئك لا يجوز صرف شيء من العبادة إليهم إذ المستحق لأن يعبد هو الذي لا يعجزه شيء وهو الله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أن الله تعالى قد ذكر عجائب قدرته في خلق الإنسان والبحار وما يستخرج منها وما يجري فيها من الفلك وخلقه الليل والنهار والشمس والقمر وجريان ذلك بنظام دقيق محكم - فبعد أن ذكر ذلك قال: ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ

=

=

الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: ١٣ - ١٤] ففي هذه الآية بيان لعجز من يدعى من دون الله إما لعدم سماعه أصلًا أو لعدم استجابته إن سمع الدعاء. وهذا يدل على عدم استحقاق غير الله للعبادة.

وقد يذكر الله تعالى أن التعجيز يقع في الآخرة أيضا، فمن ذلك قول الله تعالى: وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا [الكهف: ٥٢]. وقوله تعالى: وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ [القصص: ٦٤].

ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قول الله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [سبأ: ٢٢ - ٢٣] ففي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: ادعوا الذين زعمتموهم شركاء لله ليجلبوا لكم نفعًا أو يدفعوًا عنكم ضرًا فإنهم لا يستطيعون ذلك وهذا يفيد عدم استحقاقهم للعبادة ثم بين الله تعالى عجز المدعوين من دونه بقوله: لَا يَمْلِكُونَ... الآية - وفي هذا يقول ابن القيم: (فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلابد أن يكون المعبود مالكًا للأسباب التي ينفع بها عباده، أو شريكًا لمالكها أو ظهيرًا أو وزيرًا ومعاونًا له أو وجيهًا ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن

=

=

تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق فنفى شركتها له، فيقول إلا الشفاعة، فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه!).

ومن الأحاديث في هذا الباب قول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما (يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

ففي هذه الوصية الأمر بالاستعانة بالله وحده وسؤاله وحده، ثم ذكر أصلًا عظيمًا عليه مدار الوصية وهو تقدير الله ﷻ للأشياء كلها قال ابن رجب: (واعلم أن مدار جميع هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه ﷻ وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده، فإن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله من يعبد من لا ينفع ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئًا، فمن علم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع غير الله، أوجب له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على

=

=

طاعة الخلق جميعًا، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عند الشدائد ونسيانه في الرخاء ودعاء من يرجون نفعه من دونه - قال الله ﷻ: قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ [الزمر: ٣٨]) اهـ.

المسألة الثالثة: الإخبار عن التعادي الحاصل بعد البعث

وهذا من تمام عدم نفع ما يعبد من دون الله، وفيه حسم لمادة الشرك بالله إذ أنه مع عدم نفعه يضر صاحبه في الآخرة، فإن من يعبد غير الله تعالى يتبرأ منه معبوده يوم القيامة وينقلب ضدًا له وتنقطع بينهما أسباب المودة مع استحكام العداوة ولعن بعضهم بعضًا، ومن الآيات في هذا الباب قول الله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ [القصص: ٦٢ - ٦٤].

ومنها قول الله تعالى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: ١٣ - ١٤].

ومنها قول الله تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوم الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: ٥ - ٦] ومنها قول الله تعالى: وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: ٨١ -

=

=

[٨٢].

ومنها قول الله تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: ٩٤].

ومن ذلك ما قاله الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ [العنكبوت: ٢٥].

فالآيات السابقة أفادت عدم نفع ما يعبد من دون الله، بل أفادت وقوع العداوة والبغضاء مما يدل على بطلان عبادتها، وأن المستحق لأن يعبد هو الله وحده لا شريك له.

المطلب الثالث: تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد وأنه لا حجة ولا برهان لهم في شركهم

فهذا النوع فيه مسألتان:

المسألة الأولى: تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد.

المسألة الثانية: بيان أنه لا حجة للمشركين ولا برهان لهم في شركهم.

أما المسألة الأولى: وهي تذكير المشركين بما يكمن في نفوسهم من التوحيد: فهذا يحدث في أوقات الشدة، فإن المشركين كانوا إذا ركبوا في الفلك واشتدت الرياح هيجانًا وتلاطمت الأمواج وأوشكوا على الغرق أيقنوا أنه لا ينجيهم إلا الله، فعند ذلك يتركون أصنامهم ويلتجئون إلى الله وحده، فيحتج الله عليهم بأنه يجب أن يفردوه بالدعاء وحده في السراء والضراء. فمن الآيات في هذا الباب قوله تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

=

=

وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [يونس: ٢٢ - ٢٣].

ومنها قوله تعالى: قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤] ومنها قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ [الزمر: ٨].

ومنها قول الله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا [الإسراء: ٦٧].

قال الشيخ محمد الأمين: (لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده ولا يصرفون شيئًا من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين بالإسلام أسوأ حالًا من عبدة الأوثان فإنهم إذا دهمتهم الشدائد وغشيتهم الأهوال والكروب التجأوا إلى غير الله ممن يعتقدون فيه الصلاح، في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله جل وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره...).

وقال الشوكاني في تفسير آية يونس المتقدمة: (وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد... وبيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون

=

=

إلى أصنامهم في هذه الحالة وما يشابهها، فيا عجبًا لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون!).

فإذا صفا الفكر واستيقظت الفطرة أيقن الإنسان أنه لا يعبد إلا الله وحده في جميع أنواع العبادات، وبمثل هذا كان قد أسلم عكرمة بن أبي جهل فقد روى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ما حاصله: (أن النبي ﷺ لما أهدر يوم الفتح دم جماعة منهم عكرمة بن أبي جهل هرب من مكة وركب البحر، فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا - فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهدًا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوًا كريمًا فجاء فأسلم). اهـ

وأما المسألة الثانية: وهي أنه لا حجة للمشركين ولا برهان لهم في الشرك: فهذا نوع من الأدلة العامة التي تبطل على المشركين عبادتهم لغير الله وتلزمهم بإفراد العبادة لله جل وعلا. فإن المشركين قد طولبوا بإقامة الدليل والبرهان على شركهم فعجزوا عن ذلك. وأخبر الله أنهم إنما يستندون في ذلك على تقليد آبائهم الضالين ويتبعون الظن الذي لا يدل على الحق بأي حال. ثم إن الله تعالى يخاطب المشركين بأسلوب فيه ترهيب عسى أن يعودوا إلى صوابهم. فيخبرهم أنهم سيسألون الحجة والبرهان على شركهم يوم القيامة فيعجزون هناك، ويعلمون علم اليقين أنهم كانوا على باطل ويندمون على شركهم وتعنتهم ولات حين مندم.

فمن الآيات الدالة على أنه لا حجة للمشركين في شركهم سوى الظن: قول الله تعالى: أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

=

=

دُونِ اللهِ شُـرَكَاء إِن يَتَّبِعُـونَ إِلاَّ الظَّـنَّ وَإِنْ هُـمْ إِلاَّ يَخْرُصُـونَ [يـونس: ٦٦] قـال الحافظ ابن كثير: (ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئًا ولا ضرًا ولا نفعًا ولا دليل لهم على عبادتهم بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم).

ومن هذه الآيات ما قصه الله عن أصحاب الكهف فقال: هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا [الكهف: ١٥] قال ابن جرير في قوله: لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ [الكهف: ١٥]: (هلا يأتون على عبادتهم إياها بحجة بينة) وقال الشيخ محمد الأمين: (لَّوْلَا في الآية الكريمة للتحضيض، وهو الطلب بحث وشدة، والمراد بهذا الطلب التعجيز لأنه من المعلوم أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسلطان بين على جواز عبادة غير الله تعالى، والمراد بالسلطان البين: الحجة الواضحة).

ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ [الحج: ٧١] ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ [الزخرف: ٢٠ - ٢٣].

فهذه الآيات فيها بيان أن المشركين احتجوا بباطل من القول على زعمهم صحة عبادتهم غير الله، واستندوا في ذلك إلى أمرين، الأول بمشيئة الرحمن فكان بقاؤهم على الشرك - على زعمهم - مما يرضاه الله، وظنوا أن عدم أخذهم بالعذاب دليل على رضى الله عليهم - والأمر الثاني هو استنادهم على تقليد

=

=

آبائهم وكل ذلك من الخرص والظن، فدل ذلك على بطلان عبادتهم غير الله، فلزم من هذا إفراد الله جل وعلا بالعبادة وحده لا شريك له.

ومن الآيات كذلك قول الله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [الأحقاف: ٤] فإن الله تعالى طالب المشركين في هذه الآية بالدليل السمعي والعقلي على صحة عبادتهم غير الله.

وهما حجتان قاطعتان وبرهانان ساطعان إن وجدا، وإلا، فإن الدليل العقلي يدل على أن الذي خلق هو الذي يعبد لا المخلوق المربوب ولذلك قال: أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ثم طالبهم بالدليل السمعي النقلي: اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ وكل ذلك للتعجيز - ولا يستطيعون إثبات شيء من ذلك - فدل على بطلان عبادتهم غير الله، وأن الواجب هو إفراد الله جل وعلا بالعبادة.

ثم إن الله تعالى بين أنه سيسأل المشركين حجتهم يوم القيامة، ولن يجدوهم في وقت هم أشد حاجة لعذر يعتذرون به، فقال الله تعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ [القصص: ٧٤ - ٧٥].

قال مجاهد في قوله: فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ قال: (حجتكم لما كنتم تعبدون وتقولون).

فعلم مما تقدم أن من الأدلة الدالة على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والكفر بالطواغيت هو ما أقامه الله من الحجة على استحقاقه للعبادة، ثم بيانه فساد عمل المشركين باتباعهم للظن وعدم إقامتهم للحجة الساطعة على عبادة آلهتهم التي يعبدونها، وهذا النوع من الاستدلال هو من نوع الإبطال المستلزم لصحة نقيض

=

=

ما أبطل، أي إذا بطلت عبادة غير الله بما تقدم من الأدلة الدالة على ضعف غير الله وعجزه، وبما ثبت من عدم نفع غيره، بل ثبت ضرره على عابده، كان نقيض هذا هو الحق، وهو ترك عبادة غير الله وإفراد الله وحده بالعبادة، إذ هو وحده المتصف بالصفات التي بها تستحق العبادة.

المطلب الرابع: بيان أن الحكم لله وحده شرعًا وجزاء:

من أنواع الأدلة لتقرير توحيد الألوهية بيان أن الحكم لله تعالى دون سواه. وحكمه تعالى شامل للحكم الشرعي الأمري، والحكم الجزائي القضائي وهذا من ربوبية الله تعالى، فإنه جل وعلا قد حكم شرعًا فأمر أن تكون العبادة له وحده دون سواه، ونهى عن عبادة غيره، وبين بطلان عمل المشركين وصحة عمل الموحدين، وقد بين الله حكمه الجزائي القضائي من نصره لأوليائه الموحدين في الدنيا وإثابتهم في الآخرة، وعذابه الدنيوي والأخروي لأعدائه المشركين به، وكل ذلك للتنفير من عبادة غيره وإفراده وحده بالعبادة. فتبين من هذا العرض أن هذا النوع شامل لمسائل:

المسألة الأولى: من حكم الله الشرعي: الأمر بعبادته وحده لا شريك له، وتوجيه المشركين إلى سؤاله وحده.

المسألة الثانية: ومن حكمه الشرعي: حكمه ببطلان عمل المشركين وصلاح عمل الموحدين.

المسألة الثالثة: ومن حكمه الجزائي: إثابته لأوليائه الموحدين ونصرهم في الدنيا والآخرة، وحكمه بنقيض ذلك على المشركين.

أما المسألة الأولى: وهي الأمر بعبادة الله جل وعلا وتوجيه المشركين إلى سؤاله وحده، فإن الله تعالى قد قال: إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [يوسف: ٤٠].

=

=

وقال الله تعالى: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص: ٦٨ - ٧٠].

فبين الله تعالى أن له الخلق والاختيار، فهو يخلق ما يشاء، ويختار ما يشاء، ولا أحد يشاركه في ذلك، ولذلك نزه نفسه عن شرك المشركين ثم بين الله تعالى انفراده بالحكم، وهو شامل لكل قضاء يقضيه (فالحلال ما أحله تعالى والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والقضاء ما قضاه).

وإن مما قضاه الله تعالى وصية وأمرًا: عبادته وحده لا شريك له كما قال: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ [الإسراء: ٢٣].

وإن الله تعالى وجه المشركين إلى إخلاص الدعاء له وحده فقال تعالى: وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [الأعراف: ٢٨ - ٢٩].

وقد بين لهم الله تعالى بطلان دعائهم غير الله بأوجه كثيرة كعجز من يدعونه وأنه مربوب مخلوق لا يملك شيئًا... وإن الله تعالى أمر كل الناس بدعائه وحده لا شريك له وترك الإفساد في الأرض بالشرك وغيره فقال: ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: ٥٥ - ٥٦].

المسألة الثانية: ومن حكمه الشرعي حكمه ببطلان عمل المشركين وصلاح عمل الموحدين:

فمن حكم الله الشرعي حكمه بصلاح عمل الموحدين وحسنه وذلك يوجب

=

=

تقديمه على كل عمل، فمن الآيات في هذا الباب قول الله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [النساء: ١٢٥] قال ابن جرير: (وهذا قضاء من الله جل ثناؤه للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل غيره وأهلها) اهـ.

وقال الله تعالى: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ... [فصلت: ٣٣ - ٣٤] أي أنه لا أحد أحسن قولًا ممن آمن بالله ودعا إلى الإيمان به واستسلم لشرع الله فقام بأمره واجتنب نهيه، ثم بين الله حكمه الشرعي بعدم تساوي الحسنة والسيئة. والأظهر في الكلمتين - أي الحسنة والسيئة - العموم كما قال ابن جرير: (ولا يستوي الإيمان بالله والعمل بطاعته والشرك به والعمل بمعصيته).

وقد حكم الله بضلال المشركين وعملهم، فبين أنه لا أضل من المشركين ولا ضلال أبعد من ضلال عملهم، فهذا حكم شرعي يوجب ترك الشرك فقال: وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا [النساء: ١١٦].

المسألة الثالثة: ومن حكمه الجزائي: إثابته لأوليائه الموحدين ونصرهم في الدنيا والآخرة، وحكمه بنقيض ذلك على المشركين:

فإن الله تعالى قد حكى عن إهلاكه للمشركين المكذبين للرسل وإنجائه لأوليائه الموحدين من الرسل وأتباعهم، وأبقى لنا وسائل لنتعرف على صدق ذلك بما نراه ونسمعه بطرق قطعية، ثم يذكر أن في ذلك آية، أي علامة على صحة استحقاقه للعبادة وأن عبادة غيره باطلة لا نفع فيها بل فيها ضرر.

فمن ذلك قول الله تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ [العنكبوت: ٣٨] فقال تفصيلا عن ثمود: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا

=

=

تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [النمل: ٤٥ - ٤٦] (إلى أن قال عنهم) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [النمل: ٥١ - ٥٣].

وقد قص الله ﷻ في سورة الشعراء قصص الرسل مع أقوامهم، وأنهم جاءوهم بالتوحيد، فيقع التكذيب من أكثر الناس، فينزل الله عليهم عذابه بسبب ذلك ويذكر إنجاءه للموحدين ثم يقول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء: ٨ - ٩] والآية: العلامة، أي علامة على صحة استحقاقه العبادة وبطلان عبادة غيره.

وهذا الذي ذكره الله من تعذيب المشركين به وإنجاء الموحدين كله في الدنيا.

وأما في الآخرة فالنصوص كثيرة جدًا فمنها قول الله تعالى: إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا [الإسراء: ٣٩] وفي الموحدين يقول رسول الله ﷺ (من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة).

المطلب الخامس: دلالة العقل والنقل على توحيد الألوهية

وجه دلالة العقل على ذلك هو العلم بحسن التوحيد وقبح الشرك، فالعقل يدرك حسن عبادة الله الذي خلق فأحسن خلقه مع اتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص، فهو المحسن إلى خلقه بأنواع النعم والمتفضل عليهم بأنواع الفضائل، فكل ذلك يدل على حسن عبادته رغبة فيما عنده من الخير، والعقل كذلك يدرك قبح عبادة غير الله، إذ كل من هو دون الله مخلوق مربوب فقير إلى ربه، لا يملك شيئًا، فكيف يُعطى شيئًا لا يستحقه ويُساوى بالخالق المنعم!، خاصة وأن النفوس مفطورة على الإقرار بالله والميل إلى ما ينفع ويرجى نفعه.

=

=

وأما السمع فإنه دال على... حسن التوحيد وقبح الشرك ويزيد على دلالة العقل: بإثبات العقاب على ترك التوحيد والثواب على تحقيقه. وأدلة القرآن دالة على أن العقل يعلم حسن التوحيد وقبح الشرك دون إثبات الجزاء، فمن ذلك:

الأول: أنه قد ورد في القرآن ضرب الأمثلة على بطلان الشرك وهي مقاييس عقلية، فلو لم يكن العقل مدركًا لقبحه وحسن التوحيد لما ضرب الله هذه الأمثلة ولاكتفى بالأمر بتوحيده والنهي عن الشرك به.

ومن الآيات الواردة بضرب الأمثلة قول الله تعالى: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [النحل: ٧٥ - ٧٦]، ففيها مثلان؛

فالمثل الأول: مثل الكافر والمؤمن - والثاني: مثل ضربه الله ليبين عدم استحقاق غيره للعبادة بضعفه وعدم قدرته، وعدم فهمه وعقله. وأما الله سبحانه فهو الذي يأمر بالعدل وهو التوحيد.

وقال تعالى: ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الزمر: ٢٩] وهذا مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد آلهة شتى، وللموحد الذي يعبد إلهًا واحدًا وهو الله لينبه على قبح الشرك وحسن التوحيد.

الثاني: ما أقامه الله من الأدلة العقلية لاستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له كتفرده بالخلق والتدبير والرزق... وعدم استحقاق غيره لذلك.

فلو لم يكن فيما أقامه من أدلة عقلية فائدة لاكتفى بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك دون أن يلزمهم باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية.... وما

=

=

أبقاه الله من أدلة عقلية يراها ويسمعها الناس تدل على قبح الشرك من إهلاكه عادًا وثمود وإنجائه للموحدين: كما قال: وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ [العنكبوت: ٣٨]. وما ذكره بعد إهلاكه للمشركين وإنجائه للموحدين بقوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء: ٨ - ٩] والآية هي العلامة الدالة على ما هي علامة له، فهذا الخبر متضمن لدليل عقلي وهو: لو كان ما عليه المشركون صحيحًا لما أهلكهم الله، ولو كانت عبادة الآلهة التي عبدت دون الله صحيحة لنفعت أصحابها بكف العذاب ودفعه. وقال الله تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الصافات: ٨٧ - ٨٦] أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات: ٩٥ - ٩٦] فخطاب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه خطاب عقلي وهو: ما ظنكم بربكم إذا لقيتموه يوم القيامة وقد عبدتم غيره أن يفعل بكم، وما ظنكم به من ظن السوء حتى عبدتم غيره! مع أن الأصنام التي عبدوها لم تدفع عن نفسها ضرًا إذ قام بتحطيمها، وهي كذلك مخلوقة مربوبة مثل من يعبدها بل أقل شأنًا! فكيف يستقيم عقل من يعبدها!.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي. فلولا أن حسن التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر معلوم بالعقل لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئًا يذمون عليه).

ويؤكد هذا ما جاء في استعمال القرآن بعد ضرب الأمثلة وإقامة الأدلة من مخاطبة العقول بقوله: كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وهذه الآية جاءت بعد مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ ليبين أنه أولى بالتنزيه عن الشركاء من الأسياد من البشر في عدم رضاهم بمشاركة مماليكهم لهم في حقهم فقال: ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء

=

=
تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: ٢٨].
الثالث: مطالبة الله المشركين بالدليل العقلي والسمعي على شركهم:
وفي ذلك يقول الله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [الأحقاف: ٤] قال ابن القيم: (فطالبهم بالدليل السمعي والعقلي).
فمطالبته إياهم بالدليل العقلي وهو في قوله: أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ دليل على أن العقل يعلم بطلان صرف شيء من العبادة لغير الله، إذ العابد إنما يرجو ممن يعبده نفعًا أو دفع ضر عنه - والذي لا يخلق ولا يملك شيئًا لا استقلالًا ولا شركة ضعيف فقير عاجز لا يغني شيئًا فلم يستحق أن يعبد.
وأما العقاب على ترك التوحيد فهذا لا يكون إلا بعد ورود الشرع - كما قال ابن القيم: (إن العقاب على ترك هذا الواجب يتأخر إلى حين ورود الشرع كما دل عليه قوله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: ١٥] وقوله: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا.. [الملك: ٨ - ٩] وقوله: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: ٥٩] وقوله: ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [الأنعام: ١٣١] فهذا يدل على أنهم ظالمون قبل إرسال الرسل وأنه لا يهلكهم بهذا الظلم قبل إقامة الحجة عليهم.) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فينبغي أن يعلم أن استحقاق العباد للعذاب بالشرك فما دونه مشروط ببلاغ الرسالة في أصل الدين وفروعه).
=

=

مسألة: أمثلة من شرك العبادة مثل الذبح والنذر الركوع والسجود والطواف.
العبادة حق لله وحده لا شريك له سواء كانت ذبحًا أو نذرًا أو سجودًا أو ركوعًا أو طوافًا ونحوها، فإن من جعل شيئًا منها لمخلوق كائنًا من كان فقد أشرك بالله تعالى في عبادته، واتخذ مع الله أندادًا.
وبيان ذلك أن الذبح أو النذر لغير الله تعالى شرك بالله تعالى، لأنهما عبادتان يجب صرفهما لله تعالى وحده، فمن صرفهما لغيره فقد أشرك، كما أن هؤلاء الذين ينحرون أو ينذرون لغير الله تعالى سواء كان للأموات، أو للجن، أو للملائكة عليهم السلام، أو لطلعة سلطان ونحوها، إنما يفعلون ذلك عن اعتقاد باطل، فيعتقدون أنها تجلب النفع أو تدفع الضر، ومنهم من يقدم تلك النحائر والنذور إلى هذه المعبودات من أجل أن تقربهم عند الله زلفى...
يقول الله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [المائدة: ٣].
يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: - وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ: (يعني ما ذبح لغير الله تعالى، وقصد به صنم أو بشر من الناس كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به، فذلك إهلاله).
ويقول ابن تيمية: - (قوله تعالى: - وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ [المائدة:٣]، ظاهره أنه ما ذبح لغير الله تعالى، مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه:
=

=

باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن، متقربين به إلى الله سبحانه، كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له، أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة أو قصد به ذلك أولى، وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله، ولم يحرم ما ذبح لغير الله، كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم، بل لو قيل بالعكس لكان أوجه، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا به إليه لحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين قد يتقربون إلى الكواكب، بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان).

ويقول ابن كثير: (وقوله تعالى: وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: - وهي ثلاثمائة وستون نصبًا... فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب، فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا).

ويقول الشوكاني: (قوله تعالى: ذَلِكُمْ فِسْقٌ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، أو إلى جميع المحرمات المذكورة هنا، والفسق الخروج عن الحد، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن الفسق هو أشد الكفر، لا ما وقع عليه اصطلاح قوم من أنه منزلة متوسطة بين الإيمان والكفر).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (ما كان النبي ﷺ يسر إلي شيئًا يكتمه الناس، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، فقيل: ما هن يا أمير المؤمنين؟

=

=

قال: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض).

ومما يبين لك أن هؤلاء الذين ينذرون أو يذبحون لغير الله تعالى، إنما هو عن اعتقاد بأنها تجلب النفع أو تدفع الضر، ما يرى من أحوالهم وأوضاعهم، وقد بين العلماء ذلك في كتبهم، فهذا الصنعاني يوضح هذا الأمر فيقول - مناقشًا شبهات من يذبح لغير الله -: (فإن قال إنما نحرت لله، وذكرت اسم الله عليه، فقل: إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم، فقل له: هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيخ باب المشهد وتنجيس الداخلين؟ إليه أنت تعلم يقينًا أنك ما أردت ذلك أصلًا، ولا أردت إلا الأول، ولا خرجت من بيتك إلا قصدًا له).

ويقول أيضًا - مبينًا حكم هذه النذور والنحائر -: (فإن قلت هذه النذور والنحائر ما حكمها؟ قلت: قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها، يسعون في جمعها، ولو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه، أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده، ما أخرج درهمًا).

وكذلك الشوكاني يقرر أن هذه الأعمال الشركية صادرة عن الباطن، وأن أصحابها يعتقدون فيها النفع والضر، فيقول: (وكذلك النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك وإخراج صدقة المال، والخضوع والاستكانة عبادة لله ﷻ بلا خلاف، ومن زعم أن ثم فرقًا بين الأمرين فليهده إلينا، ومن قال إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر

=

=

لهم والنذر لهم عبادتهم، فقل له: فلأي مقتضى صنعت هذا الصنع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمر ربك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عرض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم، فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله، وتنذر لله، فلأي معنى جعلت ذلك للميت وحملته إلى قبره، فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض وفعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قد قصدته، أو أمر قد أردته..).

ويعلل صاحب كتاب (التوضيح عن توحيد الخلاق) كون النذر لغير الله تعالى من الشرك الاعتقادي قائلًا: (لأن الناذر لم ينذر هذا النذر الذي لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع، ويعطي ويمنع، إما بطبعه، وإما بقوة سببية فيه، ويجلب الخير والبركة ويدفع الشر والعسرة، والدليل على اعتقاد هؤلاء الناذرين وشركهم حكيهم وقولهم أنهم قد وقعوا في شدائد عظيمة، فنذروا نذرًا لفلان، وفلان، فانكشفت شدائدهم واستراحت خواطرهم، فقد قام في نفوسهم أن هذه النذور هي سبب في حصول مطلوبهم ودفع مرهوبهم، ومن تأمل القرآن وسنة المبعوث به ﷺ، ونظر أحوال السلف الصالح، علم أن هذا النذر نظير ما جعلته المشركون لآلهتهم في قوله تعالى: هَـٰذَا لِلَّـهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا [الأنعام: ١٣٦]).

ويتحدث مبارك الميلي عن واقع أولئك الناس الذين يذبحون لغير الله تعالى، ويبين أنهم إنما يفعلون ذلك عن اعتقاد وطلب للقربى من تلك المعبودات... فكان مما قاله: (إن كل من خالط العامة، يجزم بأن قصدهم بذبائح الزردة التقرب من صاحب المزار، ويكشف عن ذلك أشياء: أحدها: أنهم يضيفون الزردة إلى صاحب المزار، فيقولون: زردة سيدي فلان، أو طعام سيدي عبد القادر مثلًا.

=

=

ثانيها: إنهم يفعلونها عند قبره، وفي جواره، لا يرضون لها مكانًا آخر.

ثالثها: إنهم إن نزل المطر إثرها، نسبوه إلى سر المذبوح له، وقوي اعتقادهم فيه، وتعويلهم عليه.

رابعها: - أنهم لو تركوها فأصيبوا بمصيبة، نكسوا على رؤوسهم، وقالوا: إن وليهم غضب عليهم، لتقصيرهم في جانبه).

وفي ختام مسألة الذبح أو النذر لغير الله تعالى، ننبه إلى عدم الخلط بين ما يذبح لغير الله تعالى تقربًا أو تعظيمًا فهذا من باب العبادات والقربات، وبين ما يذبح عادة بقصد الأكل أو إكرام ضيف ونحوهما.

ولما ساق النووي كلام بعض علماء الشافعية في هذا الشأن قائلًا:- (وذكر الشيخ إبراهيم المروزي من أصحابنا أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربًا، أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهل به لغير الله تعالى، قال الرافعي هذا إنما يذبحونه استبشارًا بقدومه كذبح العقيقة لولادة المولود، وقيل هذا لا يوجب التحريم، والله أعلم).

فقد عقب الميلي على ما سبق إيراده فقال: (ونقله عن الرافعي غير مخالف لفتوى أهل بخارى إلا بالقصد، فهو خلاف في حال. فمن قصد التقرب إلى الأمير، صدقت عليه الفتوى، ومن قصد مجرد السرور أفتى بقول الرافعي).

وقال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب معلقًا على هذه المسألة:- (إن كانوا يذبحونه استبشارًا كما ذكر الرافعي فلا يدخل في ذلك، وإن كانوا يذبحونه تقربًا إليه، فهو داخل في الحديث يعني حديث (لعن الله من ذبح لغير الله) .

كما يجب التفريق بين النذر الشركي المخرج من الملة، وبين نذر المعصية فيما دون ذلك، ونبين ذلك من خلال نص في كتاب (التوضيح عن توحيد الخلاق)

=

=

حيث جاء فيه ما يلي:- (والنذر غير الجائز قسمان:

أحدهما: نذر فعل معصية، كشرب الخمر، وقتل المعصوم، فيحرم الوفاء به؛ لقول النبي ﷺ: (من نذر أن يعصي الله فلا يعصه)؛ ولأن معصية الله تبارك وتعالى لا تباح في حال من الأحوال...

الثاني: النذر لغير الله تعالى كالنذر لإبراهيم الخليل، أو محمد النبي الأمين ﷺ، أو ابن عباس، أو عبد القادر، أو الخضر، فلا خلاف بين من يعتد به من علماء المسلمين أنه من الشرك الاعتقادي).

ومن جانب آخر، فقد لبس خصوم عقيدة التوحيد في هذه المسألة، فزعموا أن الذبح لغير الله، وكذا النذر لغيره، إنما هي من المحرمات التي دون الشرك..، وذلك بسبب سوء فهمهم للنصوص الشرعية، وكلام أهل العلم، بل ربما نسبوا هذا التلبيس لبعض أئمة السلف).

وقد قام الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب بكشف هذا التلبيس، وبيان الحق في هذه القضية فكتب جوابًا في الرد على ابن سحيم، حين زعم الأخير أن النذر لغير الله حرام ليس بشرك، فقال الشيخ في الرد عليه:

(فدليلك قولهم أن النذر لغير الله حرام بالإجماع، فاستدللت بقولهم حرام على أنه ليس بشرك فإن كان هذا قدر عقلك، فكيف تدعي المعرفة؟ يا ويلك ما تصنع بقول الله تعالى: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [الأنعام: ١٥١] ، فهذا يدل على أن الشرك حرام ليس بكفر يا هذا الجاهل الجهل المركب، ما تصنع بقول الله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ [الأعراف: ٣٣] ، إلى قوله: وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا [الأعراف: ٣٣].هل يدل هذا التحريم على أنه لا يكفر صاحبه؟ يا ويلك في أي كتاب وجدته إذا قيل لك هذا حرام، أنه ليس بكفر،

=

=

فقولك أن ظاهر كلامهم أنه ليس بكفر، كذب وافتراء على أهل العلم، بل يقال ذكر أنه حرام، وأما كونه كفر فيحتاج إلى دليل آخر، والدليل عليه أنه مصرح في (الإقناع) أن النذر عبادة، ومعلوم أن لا إله إلا الله معناها لا يعبد إلا الله، فإذا كان النذر عبادة وجعلتها لغيره، كيف لا يكون شركًا؟).

ويورد الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاعدة مهمة أثناء جوابه على من ادعى أن الذبح للجن منهي عنه فهو معصية وليس ردة.. حيث قال الشيخ:

(قوله: الذبح للجن منهي عنه، فاعرف قاعدة أهملها أهل زمانك، وهي أن لفظ التحريم والكراهة وقوله: لا ينبغي ألفاظ عامة تستعمل في المكفرات، والمحرمات التي هي دون الكفر، وفي كراهة التنزيه التي هي دون الحرام، مثل استعمالها في المكفرات قوله: لا إله إلا الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وقوله: وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا [مريم: ٩٢]، ولفظ التحريم مثل قوله تعالى: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا [الأنعام: ١٥١]، وكلام العلماء لا ينحصر في قولهم: (يحرم كذا) لما صرحوا في مواضع أخر أنه كفر، وقولهم (يكره) كقوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا [الإسراء: ٢٣] إلى قوله: كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا [الإسراء: ٣٨]، وأما كلام الإمام أحمد في قوله: (أكره كذا) فهو عند أصحابه على التحريم.

إذا فهمت هذا فهم صرحوا أن الذبح للجن ردة تخرج، وقالوا الذبيحة حرام ولو سمي عليها، قالوا: لأنها يجتمع فيها مانعان، الأول: - أنها مما أهل به لغير الله، والثاني: أنها ذبيحة مرتد والمرتد لا تحل ذبيحته، وإن ذبحها للأكل وسمى عليها).

=

=

(ب) وإذا انتقلنا إلى حكم السجود أو الركوع لغير الله تعالى، فهذا من الشرك الظاهر، فلا ريب أن السجود والركوع عبادتان لله وحده لا شريك له، فمن سجد أو ركع لغير الله تعالى فقد أشرك.

يقول الله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [فصلت: ٣٧] ، أي: لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به).

(قال بعض أهل العلم في تفسير هذه الآية: إن من أراد أن يكون عبدًا لله خالصًا، فلا يسجد إلا له سبحانه، ولا يسجد للشمس والقمر، نبه بهما على غيرهما من المخلوق العلوي، فالسفلي من الأحجار والأشجار والضرائح ونحوها بالأولى.

وقد دلت هذه الآية على أن ديننا هو أن السجود حق الخالق، فلا يسجد لمخلوق أصلًا كائنًا ما كان، فإن المخلوقية يتساوى فيها الشمس والقمر، والولي والنبي، والحجر والمدر، والشجر ونحوها).

وأيضًا فإن الله تعالى قال بعد الآية السابقة: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ [فصلت: ٣٨] ، فمن سجد لله وحده، فقد خضع وانقاد لله وحده، وحقق كمال الذل والمحبة لله تعالى، وضده من استكبر عن إفراد الله بالعبادة - ومنها السجود - وقد توعد الله تعالى هؤلاء المستكبرين بالعذاب المهين، فقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: ٦٠].

ويقول القرطبي: (وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم، واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه، يسجد للأقدام لجهله سواء كان للقبلة أم غيرها جهالة منه،

=

=

ضل سعيهم وخاب عملهم).

ويقول ابن القيم في بيان هذا الشرك: (ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون: ليس هذا سجود، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احترامًا وتواضعًا، فيقال لهؤلاء ولو سميتموه ما سميتموه، فحقيقة السجود: وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم، وللشمس، وللنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه.

ومن أنواعه: ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة، وهذا سجود في اللغة، وبه فسر قوله تعالى: وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا [البقرة: ٥٨]، أي منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض، ومنه قول العرب: سجدت الأشجار إذا أمالتها الريح).

ويقول أيضًا: (جاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية فزينوا لمريديهم حلق رؤوسهم لهم، كما زينوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه، وقالوا: هو وضع الرأس بين يدي الشيخ. ولعمر الله إن السجود لله تعالى هو وضع الرأس بين يديه سبحانه، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابًا وآلهة من دون الله، قال تعالى: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ [آل عمران: ٧٩ - ٨٠].

وأشرف العبودية عبودية الصلاة، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها، وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضًا ركع له، كما يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية

=

=

لهم، وهم جلوس، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله وقال: (لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد). وتحريم هذا معلوم من دينه بالضرورة، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو من أبلغ أنواع العبودية، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع للبشر، فقد جوز العبودية لغير الله، وأيضًا فالانحناء عند التحية سجود، ومنه قوله تعالى: وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا [البقرة: ٥٨]، أي منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه

والمقصود أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق، فسجدت لغير الله، وركعت له، وقامت بين يديه قيام الصلاة وحلفت لغيره، ونذرت لغيره، وحلقت لغيره، وذبحت لغيره، وطافت لغير بيته وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون. قال تعالى تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨]).

وإذا تقرر كون السجود لغير الله تعالى شركًا بالله تعالى، فينبغي أن نفرق بين سجود العبادة، وسجود التحية، فأما سجود العبادة فقد سبق الحديث عنه، وأما سجود التحية فقد كان سائغًا في الشرائع السابقة، ثم صار محرمًا على هذه الأمة، فهو معصية لله تعالى، فمن المعلوم أن سجود العبادة القائم على الخضوع والذل والتسليم والإجلال لله وحده هو من التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل، وإن صرف لغيره فهو شرك وتنديد، ولكن لو سجد أحدهم لأب أو عالم ونحوهما وقصده التحية والإكرام فهذه من المحرمات التي دون الشرك، أما إن قصد الخضوع والقربة والذل له فهذا من الشرك، ولكن لو سجد لشمس أو قمر أو قبر فمثل هذا السجود لا يتأتى إلا عن عبادة وخضوع وتقرب فهو سجود

=

شركي، وإليك توضيح ذلك من خلال النصوص التالية:-

يقول الله تعالى:- وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا [يوسف: ١٠٠].

يقول ابن عطية - في معنى السجود: (واختلف في هذا السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحياتهم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: - هذه كانت تحية الملوك عندهم).

ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (وقد كان سائغًا في شرائعهم، إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصًّا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره - إلى أن قال: - والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم؛ ولهذا خروا له سجدًا).

ويقول محمد رشيد رضا- عند تفسيره لقوله تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ [البقرة: ٣٤]-: (وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد، وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب، وكان عند القدماء من تحية الناس للملوك والعظماء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهم السلام).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها).

وعن قيس بن سعد رضي الله عنه قال: (أتيت الحيرة، فرأيتهم يسجدون لمرزبان

=

لهم فقلت: رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له، قال: فأتيت النبي ﷺ، فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك. قال: أرأيت لو مررت على قبري أكنت تسجد له، قال: لا، قال: - فلا تفعلوا، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق).

قال الطيبي: (أي: اسجدوا للحي الذي لا يموت، ولمن ملكه لا يزول، فإنك إنما تسجد لي الآن مهابة وإجلالًا، فإذا صرت رهين رمس، امتنعت عنه).

ويبين ابن تيمية هذه المسألة فيقول: (أما تقبيل الأرض، ووضع الرأس، ونحو ذلك مما فيه السجود، مما يفعل قدام بعض الشيوخ، وبعض الملوك، فلا يجوز، بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضًا، كما قالوا للنبي ﷺ: (الرجل منا يلقى أخاه، أينحني له؟ قال لا...).

وأما فعل ذلك تدينًا وتقربًا فهذا أعظم المنكرات، ومن اعتقد مثل هذا قربة وتدينًا فهو ضال مفتر، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة، فإن أصر على ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل).

ويقول أيضًا:

(وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله ﷻ منهي عنه).

ويقول في موضع ثالث: (وحجرة نبينا ﷺ، وحجرة الخليل، وغيرهما من المدافن التي فيها نبي ورجل صالح، لا يستحب تقبيلها ولا التمسح بها باتفاق الأئمة، بل منهي عن ذلك، وأما السجود لذلك فكفر).

(ج) وإذا انتقلنا إلى الطواف، فإن المراد بالطواف الذي يكون شركًا هو الطواف

=

=

بغير الكعبة مع قصد التقرب لغير الله تعالى، كالطواف بالقبور والمشاهد ونحوها، فالطواف عبادة؛ لقوله تعالى: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [الحج: ٢٩]، وصرف العبادة أو شيء منها لغير الله شرك، وأما لو طاف بتلك القبور بقصد التقرب إلى الله تعالى فهذا محرم، وبدعة منكرة، ووسيلة لعبادة تلك القبور).

يقول ابن تيمية في هذه المسألة: (وأما الرجل الذي طلب من والده الحج، فأمره أن يطوف بنفس الأب، فقال: طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين قط، فهذا كفر بإجماع المسلمين، فإن الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به رسوله، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين، ومن اعتقد ذلك دينا فهو كافر، سواء طاف ببدنه أو بقبره).

ويقول أيضًا: (ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكانًا يطاف به كما يطاف بالكعبة؟ والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال...).

وإذا تقرر حكم هذه الأعمال... فيمكن إيجاز أوجه كون هذه الأعمال كفر بما يلي:-

(أ) أن هذه الأعمال شرك يناقض توحيد العبادة، فإذا كان الذبح والنذر، وكذا السجود والركوع والطواف عبادات لا يجوز صرفها إلا لله تعالى وحده، فمن أثبت لغير الله تعالى ما لا يكون إلا لله فهو كافر؛ لأن الشرك الأكبر... هو صرف نوع أو فرد من العبادة لغير الله تعالى، والعبادة الشرعية تتضمن غاية الذل لله تعالى، مع غاية المحبة له).

=

=

وكما يقول ابن تيمية: (فالإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء ونحو ذلك). ومن المعلوم أن الذبح والنذر والسجود والركوع والطواف ونحوها عبادات تجمع بين الخضوع والخوف والإجلال، والرجاء والمحبة والقرب، فإذا صرفت هذه العبادات لله وحده فهذا إيمان وتوحيد، وإذا صرفت لغيره فهذا كفر وتنديد.

وقد غلط مرجئة المتكلمين ومن تبعهم عندما زعموا أن شرك التقرب والنسك ليس شركًا بإطلاق، ما لم يتضمن عندهم الشرك في التوحيد العلمي الخبري؛ لأنهم حصروا التوحيد في الربوبية والأسماء والصفات ومن ثم فالشرك عندهم هو الشرك في هذا التوحيد).

ومثال ذلك ما توهمه بعضهم بأن السجود لغير الله تعالى لا يكون كفرًا إلا إذا اعتقد الربوبية فيمن سجد له، والصحيح أن السجود لغير الله تعالى شرك يناقض توحيد العبادة، وإذا انضم إلى ذلك اعتقاد الربوبية فيمن سجد له، فهذا شرك في توحيد الربوبية.

ومنهم من قال: إن السجود للصنم أو الشمس ونحوهما علامة الكفر وإن لم يكن في نفسه كفر، وهذا ليس بصحيح، بل السجود للصنم أو الشمس في حد ذاته كفر وشرك بالله تعالى في العبادة، فهو خضوع ورجاء وتذلل لغير الله تعالى، ولا تقوم عبودية الله تعالى إلا بتحقيق السجود له سبحانه، كما قال تعالى: لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [فصلت: ٣٧].

(ب) أن من قصد بتلك العبادات غير الله تعالى، وصرفها لغيره سبحانه، فقد شبه المخلوق الضعيف العاجز بالخالق القوي القادر.

ولذا يقول ابن القيم: (ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا

=

=

قوام لها بدونها: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله، فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع - إلى أن قال- فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به، ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به، ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به).

ويقول- في كتاب آخر -: (ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم، والذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله.

فأهل الشرك غلوا فيمن يعظمونه، ويحبونه، حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة إلهًا واحدًا، وقالوا: اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ [ص: ٦] ، وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف، ويعظم ويسجد له، وتقرب له القرابين، إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه).

ويقول ابن القيم أيضًا: (وقوله سبحانه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [فصلت: ١١] إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام.. فإن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة، والتعظيم، والخضوع، والنذر له والسجود له وحلق الرأس له، والاستغاثة به).

=

=

ومما قاله المقريزي – في شأن هذا التشبيه: (إن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى. وسوَّى بين التراب ورب الأرباب، فأي فجور وذنب أعظم من هذا.

واعلم أن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرة، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم، أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا ومن خصائص الإلهية للسجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه به، ومنها الذبح له فمن ذبح لغيره قد شبهه به، ومنها حلق الرأس إلى غير ذلك).

ويتحدث أحمد الدهلوي عن هذا التشبيه قائلًا: (حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة منه إنما صدرت لكونه متصفًا بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد في جنس الإنسان بل يختص بالرب جل مجده، لا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره، فيتذلل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى).

إضافة إلى ذلك فإن هذا التشبيه من أظلم الظلم وأشنعه، ولذا يقول إسماعيل الدهلوي: قال الله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: ١٣] وقد هَدَت لقمان الحكمة العميقة التي أكرمه الله وخصه بها، إلى أن أفحش الظلم أن يجود الإنسان على أحد بحق غيره، فمن أعطى حق الله لأحد خلقه فقد عمد إلى حق أكبر كبير، فأعطاه أذل ذليل، وكان كرجل وضع تاج الملك على مفرق إسكاف، وأي جور أكبر من هذا الجور، وأي ظلم أفحش من هذا الظلم).

=

=

(ج) أجمع العلماء على أن من صرف عبادة لغير الله تعالى فهو كافر وكما يقول ابن تيمية: (فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين).

ولذا علق الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب على هذا الإجماع قائلًا: (وهو إجماع صحيح، معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم في باب حكم المرتد على أن من أشرك بالله فهو كافر، أي عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادة).

كما أن حرمة مثل هذا الشرك من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، كما وضحه ابن تيمية بقوله: (فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعو أحدًا من الأموات، لا الأنبياء، ولا الصالحين، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت، ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نهى عن كل هذه الأمور، وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله).

كما يقول أيضًا: (كان من أتباع هؤلاء (المشركين) من يسجد للشمس والقمر والكواكب، ويدعوها كما يدعو الله تعالى، ويصوم لها وينسك لها، ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك).

٤ - وفي ختام هذا المبحث، نسرد مجموعة من أقوال العلماء في هذه المسألة:-

يقول ابن نجيم الحنفي: (والسجود للجبابرة كفر إن أراد به العبادة، لا إن أراد به التحية على قول الأكثر).

وجاء في (الفتاوى البزازية): (والسجدة لهؤلاء الجبابرة كفر؛ لقوله تعالى مخاطبًا

=

=

للصحابة رضي الله عنهم: أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ [آل عمران: ٨٠] ، نزلت حين استأذنوا في السجود له عليه الصلاة والسلام ولا يخفى أن الاستئذان لسجود التحية بدلالة: بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ومع اعتقاد جواز سجدة العبادة لا يكون مسلمًا، فكيف يطلق عليهم بعد إذ أنتم مسلمون)، وقيل لا يكفر لقصة إخوة يوسف عليه السلام، والقائل الأول يدعي نسخه بتلك الآية، وبقوله تعالى: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا [الجن: ١٨] ، وقيل: إن أراد العبادة كفر، وإن أراد التحية لا، وهذا موافق لما ذكر في فتاوى الأصل).

وقال محمد علاء الدين الحصكفي فيمن نذر لغير الله:

(واعلم أن النذر الذي يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشموع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقربًا إليهم فهو بالإجماع باطل وحرام).

وقال ابن عابدين شارحًا لما سبق:

(قوله باطل وحرام لوجوه: منها أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت، والميت لا يملك، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى، واعتقاده ذلك كفر).

ويقول ابن عبد البر عند شرحه لحديث النبي ﷺ: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد):

(كان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجدًا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم

=

=

امتثال طرقهم).

ويقول القاضي عياض: (وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر... كالسجود للصنم، وللشمس، والقمر، والصليب، والنار).

ويقول النووي: (اعلم أن الذبح للمعبود وباسمه، نازلة منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم والعبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة، فمن ذبح لغيره من حيوان، أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة، لم تحل ذبيحته، وكان فعله كفرًا، كمن سجد لغيره سجدة عبادة).

ويقول أيضًا: (والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح كالسجود للصنم، أو الشمس...).

ولما أورد الرملي أنواع الردة... كان مما قاله: (السجود لصنم أو شمس، أو مخلوق آخر؛ لأنه أثبت لله شريكًا، نعم إن دلت قرينة قوية على عدم دلالة الفعل على الاستخفاف كسجود أسير في دار الحرب بحضرة كافر خشية منه فلا كفر - إلى أن قال - وإن قصد تعظيم مخلوق بالركوع كما يعظم الله به فلا فرق بينهما في الكفر حينئذ).

ويقول البربهاري: (ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يردَّ آية من كتاب الله ﷻ، أو يردَّ شيئًا من آثار رسول الله ﷺ أو يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، وإذا فعل شيئًا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام).

ويقول ابن تيمية في مسألة السجود لغير الله ووسائلها: (نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وقال: (فإنها تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار) ، ونهى عن تحري الصلاة في هذا الوقت، لما فيه من مشابهة الكفار في الصورة، وإن كان المصلي يقصد السجود لله لا للشمس، لكن نهي عن

=

=

المشابهة في الصورة لئلا يفضي إلى المشاركة في القصد، فإذا قصد الإنسان السجود للشمس وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، كان أحق بالنهي والذم والعقاب، ولهذا يكون كافرًا، كذلك من دعا غير الله، وحج إلى غير الله هو أيضًا شرك، والذي فعله كفر).

ويبين ابن تيمية أن السجود الشركي من الأمور المتفق على تحريمها عند الرسل عليهم السلام، فيقول:

(أما السجود لغير الله وعبادته فهو محرم في الدين الذي اتفقت عليه رسل الله، كما قال سبحانه وتعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [الزخرف: ٤٥]).

ومما سطره هذا الإمام في مسألة النذر الشركي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يجوز أن ينذر أحد إلا طاعة، ولا يجوز أن ينذرها إلا لله، فمن نذر لغير الله فهو مشرك. كمن صام لغير الله، وسجد لغير الله، ومن حج إلى قبر من القبور فهو مشرك).

ويقول أيضًا: (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة أو ذهبًا أو غير ذلك، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام).

ويؤكد ابن تيمية على إزالة مثل تلك النذور فيقول: وكل ما ينذر له، أو يعظمه من الأحجار أو الأشجار، ونحوها، يجب أن يزال؛ لأنه يحصل للناس به ضرر عظيم في دينهم، كما كسر الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأصنام، وكما حرق موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العجل، وكما كسر رسول الله ﷺ الأصنام وحرقها لما فتح مكة). إلى أن قال: (ومن قال أنه يشفى بمثل نذره لهذه الأشياء فهو كاذب، بل يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإنه مكذب لله ورسوله...).

وأورد الشاطبي مثال من ذبح لغير الله تعالى مع أمثلة أخرى على مسألة قررها

=

=

بقوله: (كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله باطل...؛ لأن الأخذ في خلاف مقاصد الشريعة مشاقة ظاهرة، والله تعالى يقول: وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا [النساء: ١١٥]، كما أن القاصد لخلاف الشرع مستهزئ بآيات الله وأحكامه، والله تعالى يقول: وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا [البقرة: ٢٣١]).

وذكر مرعي بن يوسف الكرمي أن السجود للحكام بقصد العبادة كفر، وبقصد التحية كبيرة.

ومما قاله أحمد الفاروقي السرهندي في مكتوباته: (والتبري من الكفر شرط الإسلام، والاجتناب عن شائبة الشرك توحيد، والاستمداد من الأصنام والطاغوت في دفع الأمراض والأسقام، كما هو شائع فيما بين جهلة أهل الإسلام عين الشرك والضلالة، وطلب الحوائج من الأحجار المنحوته نفس الكفر - إلى أن قال - وما يفعلونه من ذبح الحيوانات المنذورة للمشائخ عند قبور المشائخ المنذورة لهم جعله الفقهاء داخلًا في الشرك، وألحقوه بجنس ذبائح الجن الممنوع عنها شرعًا).

ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في هذا الشأن: (والعبادة أنواع كثيرة، لكني أمثلها بأنواع ظاهرة لا تنكر، من ذلك السجود فلا يجوز لعبد أن يضع وجهه على الأرض ساجدًا إلا لله وحده لا شريك له، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي، ومن ذلك الذبح فلا يجوز لأحد أن يذبح إلا لله وحده، كما قرن الله بينهما في القرآن في قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: ١٦٢]، والنسك هو الذبح، وقال: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ
=

=

[الكوثر: ٢] فتفطن لهذا، واعلم أن من ذبح لغير الله من جني أو قبر، فكما لو سجد له، وقد لعنه النبي ﷺ في الحديث الصحيح بقوله: (لعن الله من ذبح لغير الله).

ومما كتبه الشوكاني عن مفاسد البناء على القبور قوله: (ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام: أن كثيرًا منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام، وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقربًا به إليه، راجيًا ما يضمر حصوله منه، فيهل به لغير الله، ويتعبد به لوثن من الأوثان، إذ إنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنًا، وبين قبر لميت يسمونه قبرًا...)

إلى أن قال: (ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته، واستجلاب الخير منه، واستدفاع الشر به، وهذا عبادة لا شك فيها، وكفاك من شر سماعه).

ومما قاله الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين في هذا الموضوع: (فالدين كله داخل في العبادة، فإذا علم الإنسان وتحقق معنى الإله، وأنه المعبود، وعرف حقيقة العبادة، تبين له أن من جعل شيئًا من العبادة لغير الله، فقد عبده واتخذه إلهًا، وإن فر من تسمية معبودًا أو إلهًا، فتغير الاسم لا يغير حقيقة المسمى، ولا يزيل حكمه ولما سمع عدي بن حاتم - وهو نصراني - قول الله تعالى: اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ [التوبة: ٣١]، قال للنبي ﷺ: إنا لسنا نعبدهم. قال: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ قال: بلى، قال: فذلك عبادتهم).

فعديٌّ ما كان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم لهم، فأخبره ﷺ أن ذلك

=

=

عبادة منهم لهم، مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم. وكذلك ما يفعله عباد القبور من دعاء أصحابها، والتقرب إليهم بالذبائح والنذور، عبادة منهم للمقبورين، وإن كانوا لا يسمونه ولا يعتقدونه عبادة).

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب - في توجيهه القول بأن النذر لغير الله شرك -: (وذلك لأن الناذر لله وحده قد علق رغبته به وحده، لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركًا بالله لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب، فقد جعله شريكًا لله في العبادة).

* الاستغاثة بغير الله تعالى

لا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ولا الميتين، مثل أن يقول: يا سيدي فلانًا أغثني وانصرني وادفع عني، أو أنا في حسبك. ونحو ذلك. بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم - لما كانوا من جنس عباد الأوثان - صار الشيطان يضلهم ويغويهم، كما يضل عباد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به، وتخاطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة، كما تخاطب الشياطين الكهان، وبعض ذلك صدق، لكن لابد أن يكون في ذلك ماهو كذب، بل الكذب أغلب عليه من الصدق.

- وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم، وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء من الغيب حتى فعل ذلك، أو يظن أن الله تعالى

=

=

صور ملكًا على صورته فعل ذلك، ويقول أحدهم: هذا سر الشيخ وحاله! وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به.

- كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضي بعض حوائجهم، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب، وهو اليوم موجود في المشركين من الترك والهند وغيرهم.

- وأعرفُ من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينتُ لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين.

- وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدةُ الأوثان، وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلاّس يرون أيضًا من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم.

- وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل.

- ومن هؤلاء من يأتي إلى قبر الشيخ الذي يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام أو نفقة أو سلاح أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه، وإنما ذلك كله من الشياطين.

- وإذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أوهموه أنه إنما يدعو الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به. وأما إن كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن.

=

=

- وقد يطلب الشيطان الممثل له في صورة الإنسان أن يسجد له، أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر، أو أن يقرِّب لهم الميتة، وأكثرهم لا يعرفون ذلك، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة وإما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس.

- وأولئك جن تمثلت بصور الإنس أو رئيت في غير صور الإنس، قال تعالى: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن: ٦].

- كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، وكانت الإنس تستعيذ بالجن فصار ذلك سببًا لطغيان الجن، وقالت: الإنس تستعيذ بنا!.

- وكذلك الرقى والعزائم الأعجمية هي تتضمن أسماء رجال من الجن يُدعون ويُستغاث بهم ويُقسم عليهم بمن يعظمونه، فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور.

- وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى: وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ [البقرة: ١٠٢].

- وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها، ويكون مع ذلك زنديقًا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله،

=

=

ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله.

– وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله، فارقته تلك الشياطين، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الإخبارات والتأثيرات.

– وأنا أعرف من هؤلاء عددًا كثيرًا بالشام ومصر والحجاز واليمن، وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم.

– وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها، فحيث قوي الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية.

– وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية، والشخص الواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا الذي تكون في مادة تمدُّه للإيمان ومادة تمدُّه للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال.

– والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل البخشية والطونية والبُدَّى ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخُطا وغيرهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة، ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء، ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم، ولا يرون أحدًا يضرب له، ويطوف الإناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضَيَّفَه طعامًا يكفيهم، ويأتيهم بألوان مختلفة.

– وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القريبة منه أو من غيرها تسرقه وتأتي به.

=

=

- وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركًا أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم، وعند التتار من هذا أنواع كثيرة.
وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضي الشيطان.
- ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل. يُحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت، ولا يبيت بمزدلفة، ولا يطوف طواف الإفاضة، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به، فإن مثل هذا الحج ليس مشروعًا ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين. ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل.
- ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا، فإنهم أجل قدرًا من ذلك.
- وقد جرت هذه القضية لبعض من حُمل وطائفة معه من الإسكندرية إلى عرفة، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال: هل كتبتموني؟ قالوا: أنت لم تحج كما حج الناس، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذي يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج.
- وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم في الهواء فقال لهم: هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم؛ لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - ص ٣٠٠
ويقول الشيخ ابن عثيمين في شرح قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في (كتاب
=

=

التوحيد): من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.

يقول: قوله: "من الشرك"، من: للتبعيض، فيدل على أن الشرك ليس مختصًا بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتًا، أو غائبًا، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر فهذا كله من الشرك، ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزًا، قال الله تعالى: فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَـذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ [القصص: ١٥].

وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه، فإنه يجب عليك تصحيحًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب، وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة، لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد.

* دعاء الموتى

إن الدعاء عبادة من أعظم العبادات، وأجل الطاعات، وإنه يجب صرفه لله تعالى وحده لا شريك له، فإن من دعا أو استغاث أو استعان أو استعاذ بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فقد كفر وخرج من الملة، سواء كان هذا الغير نبيًا، أو وليًا، أو ملكًا، أو جنيًا، أو غير ذلك من المخلوقات.

كما قال الله تعالى: وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧].

=

=

وقوله تعالى: فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالى: فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ [الشعراء: ٢١٣]، وقال ﷻ: وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص: ٨٨].

وقال سبحانه: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف:٥ – ٦].

وقال سبحانه وتعالى: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا [الجن: ١٨].

وقال ﷺ: (من مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار). ولذا يقول ابن تيمية: (ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان، أن يدعى غير الله، فإن ذلك من الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، وإن الشرك لظلم عظيم، فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف: ١١٠]).

ويبين ابن القيم شناعة هذا الشرك فيقول:

(ومن أنواعه (الشرك الأكبر) طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده).

ويجب أن يعلم أن من قصد غير الله بدعاء أو استعاذة أو استعانة فهو كافر، وإن لم يعتقد فيمن قصده تدبيرًا، أو تأثيرًا، أو خلقًا، فمشركو العرب الذين قاتلهم رسول الله ﷺ لم يكونوا يقولون عن معبوداتهم أنها تخلق، وترزق، وتدبر أمر من قصدها، بل كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده كما حكاه عنهم في غير موضع من كتابه بل كانوا يدعونها، ويستغيثون بها مع إقرارهم بأن الله هو المدبر الخالق

=

الرزاق...

ولذا يقول ابن تيمية: (كان من أتباع هؤلاء (المشركين) من يسجد للشمس والقمر، والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى يصوم لها، وينسك لها، ويتقرب إليها، ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا. ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك).

وقد تمادى دعاة الوثنية في تجويز الاستغاثه بغير الله تعالى بحجة أن هؤلاء المستغيثين لا يعتقدون التأثير لغير الله تعالى، حتى نفوا التأثير وأسقطوا الأسباب، فليس دعاء الأموات سببًا في حصول المطلوب، ولكنه مقترن (فقط) بحصول المطلوب!!

ويقول حسين بن مهدي النعمي: (لا يشترط في التنديد: أن ينتحل للسوى من الصفات والأسماء والفعال ما يختص به الحميد المجيد، بل هو أن تتكيف لذلك السوى بكيفية العابدية، وتتحقق أنت له بصفة المربوبية، وتقضي له بحالتك التي صنعتها، وصورة نعتك في عبادتك إياه فقط بأنه يربك ويربيك).

ولذا فقد غلط مرجئة المتكلمين ومن تبعهم عندما زعموا أن الشرك في الدعاء لا يكون شركًا إلا مع اعتقاد شريك مع الله سواء في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله

وأما وجه كون دعاء غير الله من نواقض الإيمان، وكذا الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة بغيره تعالى من نواقض الإيمان، فمن وجوه عديدة، منها ما يلي:

(أ) من المعلوم أن الله تعالى هو الإله الحق، وأن معنى لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله تعالى وحده، فهو سبحانه وحده المستحق لجميع أنواع العبادة، والدعاء من أجل العبادات وأعظمها شأنًا، وقد سماه الله تعالى عبادة، كما قال تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

=

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: ٦٠].

وقال سبحانه وتعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ [مريم: ٤٨ - ٤٩].

وقال تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: ٥ - ٦].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: ٦٠]).

فدعاء الله وحده إيمان وتوحيد، ودعاء غيره كفر وتنديد، فمن استغاث بغير الله تعالى فقد اتخذ مع الله ندًّا، وقد قال تعالى في حال من أشرك وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار [الزمر: ٨] فكفره تعالى باتخاذ الأنداد، وهم الشركاء في العبادة

وقد قال ﷺ: (من مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار).

وإذا كان الدعاء عبادة لا يجوز صرفها إلا لله وحده، فمن أثبت لغير الله تعالى ما لا يكون إلا لله فهو كافر، وقد تقدم أن حد الشرك الأكبر هو صرف نوع أو فرد من العبادة لغير الله تعالى.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

(ومن أنواع العبادة الدعاء، كما كان المؤمنون يدعون الله وحده ليلًا ونهارًا في الشدة والرخاء، ولا يشك أحد أن هذا من أنواع العبادة، فتفكر رحمك الله فيما حدث في الناس اليوم من دعاء غير الله. في الشدة والرخاء، فهذا تلحقه الشدة في

=

=

البر أو البحر، فيستغيث بعبد القادر أو شمسان أو نبي من الأنبياء، أو ولي من الأولياء أن ينجيه من هذه الشدة، فيقال لهذا الجاهل: إن كنت تعرف أن الإله هو المعبود، وتعرف أن الدعاء من العبادة، فكيف تدعو مخلوقًا ميتًا، وتترك الحي القيوم الحاضر الرؤوف الرحيم القدير؟).

وجاء في كتاب (التوضيح عن توحيد الخلاق):

(والداعي غير الله فيما لا يقدر عليه غيره سبحانه وتعالى جاعل لله ندًّا من خلقه فيما يستحقه تعالى من الألوهية المقتضية للرهبة والرغبة، والاستعاذة، وذلك كفر بإجماع الأمة، لأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته، فإنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب بالرغبة لديه، والفزع عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر بالعبودية مقهور بها، فكيف يصلح أن يكون إلهًا مرغوبًا مرهوبًا مدعوًّا؟).

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن موضحًا أن الطلب من الأموات شرك...

(إن الاستمداد بالأموات والغائبين هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الاستمداد عبادة، والعبادة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله، وذلك أن الاستمداد نتيجته الاعتماد، والاعتماد هو معنى التوكل الذي هو من خصائص الإلهية وأجمعها لأعمال القلوب.

كما أن مورد العبادة القلب واللسان والأركان، والمستمد لا يكون إلا داعيًا وراغبًا، وراهبًا، وخاشعًا، ومتذللًا، ومستعينًا، فإن الاستمداد طلب المدد بالقلب، واللسان، والأركان ولابد، وهذه الأعمال هي أنواع العبادة، فإذا كانت لله وحده، فقد آلهه العبد، فإذا صرف لغير الله تعالى، صار مألوها له).

ويقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين في هذا الشأن:

(فمن صرف لغير الله شيئًا من أنواع العبادة، فقد عبد ذلك الغير واتخذه إلهًا، وأشركه مع الله في خالص حقه، وإن فر من تسمية فعله ذلك تألهًا وعبادة وشركًا،

=

=

ومعلوم عند كل عاقل أن حقائق الأشياء لا تتغير بتغير أسمائها...

فالشرك إنما حرم لقبحه في نفسه، وكونه متضمنًا مسبة للرب، وتنقصه وتشبيهه بالمخلوقين، فلا تزول هذه المفاسد بتغيير اسمه، كتسميته توسلًا، وتشفعًا، وتعظيمًا للصالحين، وتوقيرًا لهم ونحو ذلك، فالمشرك مشرك شاء أم أبى...).

(ب) قد سمى الله تعالى دعاء غيره شركًا وكفرًا، وقد جاء هذا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]

وقوله سبحانه وتعالى: قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ [الأنعام: ٦٣،- ٦٤].

وقوله ﷻ: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ [الأعراف: ٣٧].

وقوله تبارك وتعالى: وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [النمل: ٥٣ - ٥٤].

وقوله تعالى: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [العنكبوت: ٦٥ - ٦٦].

وقوله سبحانه: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [الروم: آية ٣٥].

=

=

وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

(جـ) إن دعاء المخلوق وقصده هو تشبيه للمخلوق الضعيف العاجز بالخالق القوي القادر، إذ الدعاء حق خالص لله وحده لا شريك له، فمن دعا غير الله فقد تنقص الرب جل وعلا، ووقع في أعظم الظلم وأشنعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وأيضًا فمن سأل مخلوقًا ما لا يقدر عليه إلا الله فهو من جنس مشركي العرب الذين يدعون الملائكة والأنبياء والتماثيل، ومن جنس سؤال النصارى للمسيح وأمه.

وقد وضح ابن القيم حقيقة هذا التشبيه فقال: (حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ، فعكس من نكس الله قلبه، وأعمى عين بصيرته وأركسه بلبسه الأمر، وجعل التوحيد تشبيهًا، والتشبيه تعظيمًا وطاعة، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق).

إلى أن قال: (ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا

=

=

نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والتوكل والاستعانة... كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده ويمنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه، وتضمنه غاية الظلم، أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة).

ويذكر ابن القيم المشبهة بقوله: (المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة، والتعظيم والخضوع، والسجود له، والاستغاثة به... فهؤلاء هم المشبهة حقًا).

ويقول ابن القيم أيضًا: (فأما القادر على كل شيء، الغني عن كل شيء، الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن سوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر، وقبحه مستقر في الفطر السليمة فوق كل قبيح، يوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده، متأله خاضع، ذليل له والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والخضوع، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه).

وعندما تحدث ابن تيمية عن معنى الواسطة بين الله تعالى وخلقه... كان مما قاله: (وإن أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه، كالحجاب الذين بين الملك ورعيته، بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألونهم، وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك، يسألون الملوك الحوائج للناس، لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدبًا منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من

=

=

الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مشبهون لله، شبهوا المخلوق بالخالق، وجعلوا لله أندادًا...)

ويقول في موضع آخر: (من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية، فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان، كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء والصالحين وأنها وسائل يتقربون بها إلى الله، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى).

ويقول أيضًا:

(والعجب من ذي عقل سليم يستوحي من هو ميت، ويستغيث به، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت، فيقول أحدهم: إذا كانت لك حاجة إلى ملك توسلت إليه بأعوانه، فهكذا يتوسل إليه بالشيوخ. وهذا كلام أهل الشرك والضلال فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته، ولا يقدر على قضائها وحده، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك، والله أعلم بكل شيء، يعلم السر وأخفى، وهو على كل شيء قدير، فالأسباب منه وإليه).

ويذكر ابن تيمية أن دعاء غير الله هو من جنس أفعال الكفار فيقول:

(وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح، أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي أو رجل صالح وليس كذلك، ويسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه، أو مرض دوابه، أو يقضي دينه، أو ينتقم له من عدوه، أو يعافي نفسه وأهله ودوابه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فهذا شرك صريح، يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل.

وإن قال: أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور، لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه. فهذا من أفعال المشركين

=

=

والنصارى، فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء، يستشفعون بهم في مطالبهم، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [الزمر: ٣]).

(د) أجمع أهل العلم على أن من دعا غير الله أو استغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فهو كافر خارج من الملة الإسلامية.

يقول ابن تيمية:

(فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين).

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب معلقًا على هذا الإجماع: (وهو إجماع صحيح، معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم في باب حكم المرتد على أن من أشرك بالله فهو كافر، أي عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادة).

ويقول ابن تيمية أيضًا:

(سؤال الميت والغائب نبيًّا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحدًا منهم كان يقول إذا نزلت به ترة (تبعة)، أو عرضت له حاجة لميت يا سيدي فلان، أنا في حسبك، أو اقض حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم، ولا إذا بعدوا عنها).

ويقول في موضع ثالث: (وأما دعاء صفات الله وكلماته فكفر باتفاق المسلمين

=

=

فهل يقول مسلم يا كلام الله اغفر لي وارحمني، وأغثني، أو أعني، أو يا علم الله، أو يا قدرة الله، أو يا عزة الله، أو يا عظمة الله ونحو ذلك).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن دعاء غير الله كفر، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين لا الأنبياء ولا غيرهم عن أحد من السلف وأئمة العلم، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين).

ويقول ابن عبد الهادي: (ولو جاء إنسان إلى سرير الميت يدعوه من دون الله ويستغيث به، كان هذا شركًا محرمًا بإجماع المسلمين).

والآن نسوق جملة من كلام أهل العلم في هذا المبحث على النحو التالي:

(قال ابن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم، إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى الشرع عنه، ومن إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ التراب تبركًا).

ويقول ابن تيمية: (فكل من غلا في حي، أو في رجل صالح... وجعل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أن يقول يا سيدي فلان اغفر لي، أو ارحمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أغثني، أو أجرني، أو توكلت عليك، أو أنت حسبي، أو أنا في حسبك، أو نحو هذه الأقوال والأفعال، التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلهًا آخر).

ويقول أيضًا: (فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته

=

=

أن تدعوا أحدًا من الأموات، لا الأنبياء، ولا الصالحين، ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت، ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله، ولكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، ولم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه، ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن وقال: هذا أصل دين الإسلام).

ويقول الأمير الصنعاني: (من نادى الله ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا خوفًا وطمعًا، ثم نادى معه غيره، فقد أشرك في العبادة، فإن الدعاء من العبادة، وقد سماه الله تعالى عبادة في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر، آية ٦٠]، بعد قوله: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر: ٦٠]).

ويقول حسين بن مهدي النعمي: (هذه العبادة بكيفيتها موضوعة للرب الأحد الصمد، السميع القريب المجيب، مالك الملك، والدعاء هذا مجراه، وهذه منزلته، فدعاء غير الله تعالى إخراج للدعاء عن محله وموضوعه، كقيامه بتلك الصلاة على تلك الكيفية للمقبور والحجر، سواء بسواء، والفصل بين الصلاة والدعاء فصل بين متآخيين، وإلا فليجعلوا للمقبور صلاة وصيامًا ونحوهما، يفارق الذم والتشريك، ويكون صالحًا خاليًا عن الفساد والمنكر، سبحانك ربنا، هذا بهتان عظيم.

فما بال الدعاء الذي هو العلم المشهور في العبادة، وآيات التنزيل، بل هو في الحقيقة بداية الأمر ومشرعه، وقطب رحاه، سل من مركزه، واستنزل من شوامخ صياصيه، وهو أظهر وأشهر معنى من العبادة، وأكثر تنصيصًا وتعيينًا!).

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (فمن دعا غير الله طالبًا منه ما لا يقدر عليه

=

=

إلا الله من جلب نفع، أو دفع ضر فقد أشرك في عبادة الله، كما قال تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: ٦ - ٧].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [فاطر: ١٤ - ١٥]. فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك، فمن قال يا رسول الله، أو يا عبد الله بن عباس، أو يا عبد القادر، أو يا محجوب زاعمًا أنه يقضي حاجته إلى الله تعالى، أو أنه شفيعه عنده أو وسيلته إليه فهو الشرك الذي يهدر الدم، ويبيح المال إلا أن يتوب من ذلك).

ويقول الشيخ حمد بن ناصر بن معمر: (لا نعلم نوعًا من أنواع الكفر والردة، ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله بالنهي عنه والتحذير من فعله والوعيد عليه).

وقال الشوكاني: (وإخلاص التوحيد لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله، والنداء والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشر له ومنه، لا لغيره ولا من غيره فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا [الجن: ١٨]، لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ [الرعد: ١٤]).

ويقول أيضًا: (فإن الشرك هو دعاء غير الله الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه، ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكًا بالصنم والوثن والإله لغير الله زيادة على التسمية بالولي والقبر والمشهد كما يفعله كثير من المسلمين، بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد

=

=

في الصنم والوثن، إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات، بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئًا يختص به سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية، أو أطلق عليه اسمًا آخر، فلا اعتبار بالاسم قط).

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن في هذا المقام:

(من المستحيل شرعًا وفطرة وعقلًا أن تأتي هذه الشريعة المطهرة الكاملة بإباحة دعاء الموتى، والغائبين والاستغاثة بهم في المهمات والملمات).

ويقول أيضًا: (الأدلة والنصوص متواترة متظاهرة على أن طلب الحوائج من الموتى والتوجه إليهم شرك محرم، وأن فاعله من أسفه السفهاء، وأضل الخلق، وأنه ممن عدل بربه، وجعل له أندادًا وشركاء في العبادة التي لا تصلح لسواه، ولا تنبغي لغيره).

ويقول محمد رشيد رضا: (فمن دعا إلى عبادة نفسه، فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله، وإن لم ينههم عن عبادة الله... ومن جعل بينه وبين الله واسطة في العبادة كالدعاء فقد عبد هذه الواسطة من دون الله؛ لأن هذه الواسطة تنافي الإخلاص له وحده، ومتى انتفى الإخلاص انتفت العبادة، ولذلك قال تعالى: فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [الزمر: ٢ - ٣] فلم يمنع توسطهم بالأولياء إليه تعالى أن يقول إنهم اتخذوهم من دونه).

ويقول أيضًا: (ومن الناس من يسمون أنفسهم موحدين، وهم يفعلون مثل ما يفعل جميع المشركين، ولكنهم يفسدون في اللغة كما يفسدون في الدين، فلا يسمون أعمالهم هذه عبادة، وقد يسمونها توسلًا وشفاعة، ولا يسمون من يدعونهم من دون الله أو مع الله شركاء، ولكن لا يأبون أن يسموهم أولياء

=

يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥).

{يأيها النَّاس أَنْتُمْ الْفُقَرَاء إِلَى الله} بِكُلِّ حَال {وَاَللهُ هُوَ الْغَنِيّ} عَنْ خَلْقه {الْحَمِيد} الْمَحْمُود فِي صُنْعه بِهِمْ[1].

=

وشفعاء وإنما الحساب والجزاء على الحقائق لا على الأسماء.

إلى أن قال ومن تأمل تعبير الكتاب العزيز عن العبادة بالدعاء في أكثر الآيات الواردة في ذلك وهي كثيرة جدًا، يعلم كما يعلم من اختبر أحوال البشر في عباداتهم أن الدعاء هو العبادة الحقيقية الفطرية التي يثيرها الاعتقاد الراسخ من أعماق النفس ولاسيما عند الشدة).

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ} [فاطر: ١٥].

قال الطبري: يقول:"يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقر إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتُنْجِح لديه حوائجكم".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فهم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات".

قال الزجاج:"فقير الله، أي: الذي لم يجعل فقره وفاقته إلا إلى الله مخلصا في ذلك".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: أنتم إليه في أنفسكم، فإن الله تعالى لما خلق الخلق حكم لعباده بالفقر إليه، وهو الغني، فمن ادعى الغنى حجب عن الله ﷻ، ومن أظهر فقره إليه أوصل الله فقره بغناه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقرا إليه في السر، منقطعا عن غيره، حتى تكون عبوديته محضة، إذ العبودية المحضة هي الذل والخضوع.

فقيل له: وكيف يفتقر إليه؟ قال: إظهار الفقر في ثلاث: فقرهم القديم، وفقرهم في حالهم، وفقرهم في موت أنفسهم من تدبيرهم ومن لم يكن كذلك فهو مدع في

=

=

فقره. وقال: الفقير الصادق الذي لا يسأل ولا يرد ولا يحبس. وقال عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه-: «صفة أولياء الله ﷻ ثلاثة أشياء: الثقة بالله تعالى في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء» ".

قال السعدي:"يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [بها]، لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها".

=

=

قوله تعالى: {وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥]، أي:"وهو سبحانه الغنيُّ عن الناس وعن كل شيء من مخلوقاته، الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته، المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بالناس منه، فله الحمد والشكر على كلِّ حال".

قال الطبري: يقول:"{وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ} عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم، {الْحَمِيدُ}، يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال".

قال ابن كثير:"أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه".

قال السعدي:"أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها، صفات كمال، ونعوت وجلال. ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه، لأنها حسنى، وأوصافه، لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه الغني في حمده".

قال العثيمين: قوله تعالى {ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله} هذا النداء عام للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والصغر والكبير، والذكر والأنثى، فهو للناس عموما، وصدر الله هذا الحكم بهذا الخطاب الذي هو نداء؛ لأجل التنبيه وبيان الإهتمام به، وفي الحقيقة أنه قد يقال: كل أحد يعلم أنه فقير إلى الله، لكن هل نحن عملنا بمقتضى هذا العلم؟

الجواب: لا، قال تعالى: {كلا إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى} [العلق: ٥ - ٦] فقرر الله تعالى هذه الحال الثابتة التي لا تنفك عن الإنسان وهي الفقر إلى الله من أجل أن يعمل بمقتضى هذه الحال، فيلجأ إلى الله ﷻ، ولا يسأل إلا الله.

=

=

وقوله تعالى: {أنتم الفقراء} هذه الجملة جملة اسمية مفيدة للحصر؛ لأن طرفيها معرفتان {أنتم} هذا الضمير معرفة {الفقراء} محلى بـ (أل) فهو معرفة، وهل غير الناس أغنياء عن الله؟

الجواب: لا، لكن لما كان الإنسان هو الذي قد يرى نفسه مستغنيا عن الله حصر الفقر فيه؛ كأنه يقول: إن لم يكن أحد فقيرا إلى الله فأنتم فقراء ولا بد، وإذا كان الإنسان العاقل المدبر نفسه فقيرا إلى الله فما بالك بالبهيمة، أليست أشد فقرا؟

الجواب: بلى، هي أشد فقرا إلى الله ﷻ من الإنسان، لكنه خاطب الإنسان بذلك؛ لأنه هو الذي يرى أنه قد استغنى عن الله وأنه غني عن الله، بل بعض بني آدم عكس القضية فقال: {إن الله فقير ونحن أغنياء} [آل عمران: ١٨١] والعياذ بالله، فعكس القضية، والواقع الذي تشهد به الفطرة.

قوله تعالى: {إلى الله}: {إلى} هذه للغاية؛ أي إن فقركم منته إلى الله ﷻ؛ لا يسد عوزكم إلا الله.

قوله تعالى: {والله هو الغني الحميد}: {الغني} ضد الفقير، والغني؛ أي: المستغني عن غيره كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة (التغابن): {فكفروا وتولوا واستغنى الله} [التغابن: ٦]، فالله ﷻ ذو الغنى الواسع، ومع ذلك فإن غناه مقرون بحمده؛ ولهذا قال: {الغني الحميد} فهو غني يحمد على غناه؛ لأنه يجود به على غيره، لكن بنو آدم قد يكون الإنسان منهم غنيا ولكن ليس حميدا، فإذا كان غنيا وتسلط بغناه على غيره وفخر به على الناس ولم يقم بما يجب عليه صار غنيا غير حميد، لكن الله ﷻ غني حميد.

وكلمة (حميد) يصح أن تكون بمعنى اسم الفاعل، ويصح أن تكون بمعنى اسم المفعول؛ اسم الفاعل؛ لأنه سبحانه وتعالى حامد يحمد من عباده كل من يستحق الحمد منه؛ ولهذا يثني على رسله وأنبيائه وعباده الصالحين، والثناء

=

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦).
{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد} بَدَلكُمْ[1].

=

عليهم هو الحمد.

وهو أيضا محمود على أمرين: على ما له من كمال الصفات، وعلى ما له من كمال الإنعام؛ فهو محمود لكمال صفاته ومحمود لكمال إنعامه وهنا نقول: الحميد محمود لكمال غناه وكمال جوده بهذا الغنى؛ لأنه ليس كل غني يكون محمودا ببذل ما عنده من الغنى، لكن الله ﷻ غني حميد.

قوله تعالى: {والله هو الغني الحميد}: {هو} ضمير فصل، وضمير الفصل له ثلاث فوائد:

١ - الحصر، فالله هو الغني لا غيره، فكما تقول: (زيد هو الفاضل)؛ يعني: لا غيره.

٢ - الفصل بين الخبر والصفة؛ يعني: التمييز بينهما.

٣ - التوكيد؛ فإذا قلت: (زيد هو القائم) فهذا أوكد من قولك: (زيد قائم).

(١) قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} [فاطر: ١٦].

قال الطبري: يقول:"إن يشأ يهلككم أيها الناس ربكم، لأنه أنشأكم من غير ما حاجة به إليكم".

قال ابن كثير:"أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس".

قوله تعالى: {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [فاطر: ١٦]، أي:"ويأت بقوم آخرين يطيعونه ويعبدونه وحده".

قال الطبري: "يقول: ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون لأمره وينتهون عمَّا نهاهم عنه".

قال ابن كثير: أي: " وأتى بقوم غيركم".

=

=

قال قتادة:"أي: ويأت بغيركم".

قال السعدي في الآية": يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك، إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقا جديدا، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ويدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: {وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} ".

قال العثيمين: جملة: {إن يشأ يذهبكم} هذه جملة شرطية، هنا الشرط {يشأ} وجواب الشرط {يذهبكم} و {يذهبكم} يعني: بالإهلاك.

قوله تعالى: {ويأت بخلق جديد}: {ويأت} جاءت مكسورة وهي فعل مضارع لأنها مجزومة بحذف حرف العلة، وأصلها (يأتي) لكن حذفت الياء؛ لأنها معطوفة على مجزوم، وهو {يذهبكم}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{ويأت بخلق جديد} بدلكم] {بخلق} أي: بمخلوق، بدليل قوله تعالى: {ويأت} أي: بمخلوق جديد، فهذا مصدر أريد به اسم المفعول؛ أي بمخلوق كقوله عليه الصلاة والسلام: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"، وفي قوله تعالى: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه} [لقمان: ١١]، فـ {خلق الله} أي: مخلوقه، وقد يراد بالخلق المصدر كما في قوله تعالى: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} [الأعراف: ٥٤] لكن هنا المراد به اسم المفعول، قال تعالى: {ويأت بخلق جديد} أي: بمخلوق جديد غيركم، لكن كيف يذهبنا ويأتي بخلق جديد؟

الجواب: الله قادر على أن يأتي بخلق جديد مستقل، وهذا واضح، ثم هو أيضا

=

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧).

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ} شَدِيد[١].

=

يمكن أن يذهب الموجودين بعد أن يأتي خلفهم منهم، فالنشء الصغار يعتبرون خلقا جديدا بالنسبة للكبار الذين هلكوا، وهذا كما قيل في بني إسرائيل لما امتنعوا عن دخول الأرض المقدسة وقالوا: {إن فيها قوما جبارين} [المائدة: ٢٢] ابتلاهم الله ﷻ، وقال: {فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض} [المائدة: ٢٦]، فضاعوا؛ ما بين مصر والشام مسيرة شهر، جلسوا فيه تائهين أربعين سنة ما اهتدوا إلى الطريق.

قال بعض العلماء رحمهم الله ولاسيما المعاصرون منهم: "لأجل أن يفنى ذلك الجيل المتغطرس الذليل ويأتي جيل ناشئ في الصحراء قوي يريد أن يدخل البلاد المقدسة"؛ لأنه ناشئ في الصحراء يريد المدن، فعنده قوة وإرادة تؤهله إلى دخول تلك الأرض؛ لأن الجيل الأول المتغطرس المعاند فني في هذه المدة، هكذا قال بعض العلماء رحمهم الله ولاسيما المعاصرون منهم.

قالوا: الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى ضربهم في هذا التيه لأجل أن يفنى الكبار ويستجد الصغار، والله أعلم.

إنما الله ﷻ قادر على أن يمحو الناس ويذهبهم ويأتي بخلق جديد، إما خلق مستقل، أو من ذرية هؤلاء، أو يفني من في هذه الأرض ويأتي آخرون يحتلون الأرض.

فلها ثلاثة وجوه: إما خلق جديد مستقل، وإما ذرية القوم الذين ذهبوا، وإما قوم آخرون يأتون من بلاد أخرى ويحلون محل هؤلاء الذين ذهبوا كما قال تعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} [محمد: ٣٨].

(١) قوله تعالى: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٧]

=

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨).

=

قال الطبري:"يقول: وما إذهابكم والإتيان بخلق سواكم على الله بشديد، بل ذلك عليه يسير سهل، يقول: فاتقوا الله أيها الناس، وأطيعوه قبل أن يفعل بكم ذلك".

قال ابن كثير: أي: " وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع".

قال السعدي:"أي: بممتنع، ولا معجز له".

قال السدي:"يعني: وما ذلك على الله بشديد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وما} هنا حجازية لتمام شروط عملها؛ لأن اسمها (ذا)، وخبرها (عزيز)، لكن دخل على خبرها الباء الزائدة في الإعراب وقوله تعالى: {وما ذلك} أي: إذهابكم والإتيان بخلق جديد.

قوله تعالى: {على الله بعزيز}: {على الله} متعلق بـ (عزيز) مقدم عليه.

وقوله تعالى: {بعزيز} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [شديد] والصواب عزيز؛ بمعنى: ممتنع؛ لأن (عز) تأتي بمعنى (امتنع) كما سبق، وتأتي بمعنى (غلب) وتأتي بمعنى (قهر)، وغلب وقهر معناهما واحد، تأتي بمعنى العزة؛ أي: القدر، وهنا {بعزيز} أي: بممتنع، والمفسر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: [شديد]؛ لأن الشديد في حد ذاته ممتنع؛ لقوته وصلابته، إذا لم يكن عزيزا على الله فهو سهل.

فنقول: إن هذه الصفة من الصفات السلبية التي نصف الله تعالى بها مع إثبات كمال ضدها، فنقول: {وما ذلك على الله بعزيز} لكمال سهولته عليه، فهو أمر هين عليه سبحانه وتعالى؛ أن يذهب هؤلاء ويأتي بغيرهم، قال الله تبارك وتعالى: {وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} [محمد: ٣٨].

{وَلَا تَـزِر} نَفْـس {وَازِرَة} آثِمَـة أَيْ لَا تَحْمِـل {وِزْر} نَفْـس {أُخْـرَى وَإِنْ تَدْعُ} نَفْس {مُثْقَلَة} بِالْوِزْرِ {إِلَى حِمْلهَا} مِنْهُ أَحَدًا لِيَحْمِل بَعْضه {لَا يُحْمَل مِنْهُ شَيْء وَلَـوْ كَـانَ} الْمَـدْعُوّ {ذَا قُرْبَى} قَرَابَـة كَـالْأَبِ وَالِابْـن وَعَـدَم الْحَمْـل فِـي الشِّقَّيْنِ حُكْم مِنْ الله {إِنَّمَا تُنْذِر الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهـمْ بِالْغَيْـبِ} أَيْ يَخَافُونَـهُ وَمَـا رَأَوْهُ لِأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِالْإِنْذَارِ {وَأَقَامُوا الـصَّلَاة} أَدَامُوهَـا {وَمَـنْ تَزَكَّـى} تَطَهَّـرَ مِنْ الشِّرْك وَغَيْره {فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} فَصَلَاحه مُخْتَصّ بِهِ {وَإِلَى الله الْمَـصِير} الْمَرْجِع فَيَجْزِي بِالْعَمَلِ فِي الْآخِرَة(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [فاطر: ١٨].

قال يحيى:"لا يحمل أحد ذنب آخر".

قال الطبري: يقول:"ولا تحمل آثمة إثم أخرى غيرها".

قال ابن كثير: " أي: يوم القيامة ".

قال السعدي:"أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد".

قال ابن عباس:"يقول: يكون عليه وزر لا يجد أحدًا يحمل عنه من وزره شيئًا".

وقال السدي: يعني: لا تحمل حاملة ذنب نفس أخرى".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [فاطر: ١٨]، أي:"وإن تَسْأل نفسٌ مثقَلَة بالخطايا مَن يحمل عنها من ذنوبها لم تجد من يَحمل عنها شيئًا، ولو كان الذي سألتْه ذا قرابة منها من أب أو أخ ونحوهما".

قال الفراء:"يقول: إن دعت داعية ذات ذنوب قد أثقلتها إلى ذنوبها ليحمل عنها شيء من الذنوب لم تجد ذلك. ولو كان الذي تدعوه أبا أو ابنا".

قال ابن قتيبة:"يقول: إن دعت نفس ذات ذنوب قد أثقلتها ذنوبها ليحمل عنها =

=

شيء منها لم تجد ذلك؛ {ولو كان} من تدعوه {ذا قربى} ".

قال الطبري: يقول:"وإن تسأل ذاتُ ثِقَل من الذنوب من يحمل عنها ذنوبها وتطلب ذلك لم تجد من يحمل عنها شيئًا منها ولو كان الذي سألته ذا قرابة من أب أو أخ".

قال ابن كثير: " أي: وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُسَاعَد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه، {لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} ولو كان قريبًا إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٧] ".

عن ابن عباس، قوله:"{وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ} يكون عليه وزر لا يجد أحدا يحمل، عنه من وزره شيئا".

عن قتادة: " {وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا} إلى ذنوبها، {لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} ، أي: قريب القرابة منها، لايحمل من ذنوبها شيئًا، ولا تحمل على غيرها من ذنوبها شيئا".

قال عطاء الخراساني:"إن تدع نفس مثقلة من الخطايا ذا قرابة أو غير ذي قرابة لا يحمل، عنها من خطاياها شيء".

قال عبد الكريم بن الحارث: "يمر الوالد بولده يوم القيامة وهو يحمل ما عليه فيقول لابنه: يا بني، ادن مني خفف عني مما أحمل، فيقول ابنه: إليك عني يا أبتاه، فإن علي ما شغلني وأثقلني؛ فهذا تفسير قول الله تبارك وتعالى: {وإن تدع مثقلة إلى حملها ولا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى} ".

قال عكرمة:"إن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول: يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له: يا مؤمن إن لي،

=

=

عندك يدا قد عرفت كيف كنت في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزلة دون منزلة وهو في النار، وأن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول: يا بني أي والد كنت لك؟ فيثني خيرا فيقول: يا بني إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت؟ ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذي تخوفت، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا، ثم يتعلق بزوجته فيقول: يا فلانة، أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرا فيقول لها: فإني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي، لعلي أنجو مما ترين قالت: ما أيسر ما طلبت! لكني لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذي تخوفت يقول الله: وإن تدع مثقلة إلى حملها... ويقول الله: {يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِه} [لقمان: ٣٣]، و {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} [عبس: ٣٤ - ٣٥] ".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [فاطر: ١٨]، أي:"إنما تحذِّر -أيها الرسول- الذين يخافون عذاب ربهم بالغيب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إنما تنذر يا محمد الذين يخافون عقاب الله يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، ولكن لإيمانهم بما أتيتهم به، وتصديقهم لك فيما أنباتهم عن الله، فهؤلاء الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون".

قال مقاتل: " {إنما تنذر}، المؤمنين {الذين يخشون ربهم بالغيب}: آمنوا به ولم يروه".

عن قتادة، قوله:"{إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ}، أي: يخشون النار «والحساب» ".

قال السعدي:"أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله

=

=

بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب.. ".

قوله تعالى: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [فاطر: ١٨]، أي:"وأدَّوا الصلاة حق أدائها".

قال مقاتل: " أتموا الصلاة المكتوبة".

قال الطبري:"يقول: وأدوا الصلاة المفروضة بحدودها على ما فرضها الله عليهم".

قال السعدي: اي: "وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر".

قوله تعالى: {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} [فاطر: ١٨]، أي:"ومن تطهر من الشرك وغيره من المعاصي فإنما يتطهر لنفسه".

قال مقاتل: " ومن صلح فصلاحه لنفسه".

قال الطبري: يقول: "ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته. فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به".

قال السعدي:"أي: ومن زكى نفسه بالتنقِّي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء".

قال قتادة:"أي: من يعمل صالحًا فإنما يعمله لنفسه".

=

=

قال السمعاني:"معنى «التزكي» -ها هنا-: هو العمل الصالح".

قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} [فاطر: ١٨]، أي:"وإلى الله سبحانه مآل الخلائق ومصيرهم، فيجازي كلا بما يستحق".

قال السمعاني:"أي: المرجع".

قال الطبري: " يقول: وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس، مؤمنكم وكافركم، وبركم وفاجركم، وهو مجازٍ جميعكم بما قدم من خير وشر على ما أهل منه".

قال السعدي:"فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها".

قال العثيمين: لما بين سبحانه وتعالى ما يؤول إليه أمر هؤلاء الكفار، وهدد من خرج عن طاعته بأنه قادر على أن يذهبهم ويأتي بخلق جديد ذكر براءة غير الوازرين من الوازرين؛ يعني أن شرك هؤلاء المشركين لا يؤثر على أولئك المؤمنين الموحدين، قال: {ولا تزر}.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نفس {وازرة} آثمة]، أفاد المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتقدير (نفس) أن (وازرة) صفة لموصوف محذوف تقديره: (نفس)، وقوله: (وازرة؛ أي: آثمة) وهل المراد أنها آثمة بالفعل أو أنها من ذوات الوزر والإثم وهو المكلف؛ أي: البالغ العاقل؛ يعني أن من يكون أهلا لأن يأثم إذا فعل لا يتحمل إثم غيره، وتكون الفائدة من ذكر وازرة أن الصغير مثلا لا يتحمل إثما لا له ولا لغيره، بخلاف الكبير الذي يتحمل الإثم، فهل يتحمل إثم غيره؟

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: {ولا تزر وازرة} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آثمة؛ أي: لا تحمل] على كلمة {تزر} فسرها المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أي: لا تحمل] وهذا تفسير بالمراد لا بالمعنى المطابق للفظ؛ لأن المعنى المطابق للفظ في {تزر} أي: تأثم؛ إذ إن

=

=

الوزر هو الإثم، ولكن تقدم كثيرا أن تفسير القرآن قد يراد به التفسير المطابق للفظ، وقد يراد به التفسير بالمعنى المراد لا المطابق للفظ؛ أي: [لا تحمل وزر نفس أخرى].

أفادنا أيضا بقوله: [{وازرة} نفس] أن {وزر} صفة لموصوف محذوف تقديره: (نفس)؛ أي إن زيدا لا يحمل إثم عمرو، وهندا لا تحمل وزر فاطمة مثلا، فكل يحمل وزره، قال الله تعالى مبينا ذلك في جملة تعتبر قاعدة: {كل نفس بما كسبت رهينة} [المدثر: ٣٨] {كل امرئ بما كسب رهين} [الطور: ٢١].

وأما من لم يكسب شيئا فليس عليه من إثم الآخر شيء، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: "من سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة"؛ لأن سنه إياها يعتبر وزرا؛ لأنه هو الذي شق الطريق لها، ومهد السبل؛ فلهذا كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فالآية هنا لا تنافي الحديث.

قال: {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء}.

[{وإن تدع} نفس {مثقلة} بالوزر {إلى حملها} منه أحدا ليحمل بعضه {لا يحمل منه شيء}].

{وإن تدع} أي: تطلب {مثقلة} بالأوزار {إلى حملها} ليحمل عنها بعضه {لا يحمل منه شيء} وجملة {لا يحمل} جواب الشرط، والشرط قوله تعالى: {وإن تدع} وهو مجزوم بحذف الواو، والضمة قبله دليل عليه و {لا يحمل} هذا هو جواب الشرط، و {شيء}: نائب الفاعل؛ يعني اعلموا كما أن الغير لا يحمل عن الغير وزره فإنه حتى وإن دعي واستنجد ليحمل أو يخفف عن الوازر شيئا لم يكن ذلك، في الدنيا ربما يؤخذ الإنسان بجريرة غيره، في الدنيا أيضا إذا استغاث بك إنسان قد حمل شيئا ثقيلا خاصة من كبار السن، إذا قابلت إنسانا

=

=

حمل شيئا ثقيلا فإنك تنجده، لكن في الآخرة لو دعت نفس مثقلة إلى حملها أن يحمل أحد منه شيئا فإنها لا تجاب إلى ذلك، {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء} وقوله تعالى: {شيء} نكرة في سياق النفي فتعم القليل والكثير.

وقوله تعالى: {مثقلة} هي أيضا نكرة في سياق النفي فتعم، أي مثقلة، مهما كانت هذه المثقلة، فإنها إذا دعت أحدا من الناس أن يحمل عنها من أثقالها لا يحمل منه شيء.

قوله تعالى: {ولو كان ذا قربى} وقال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ولو كان} المدعو {ذا قربى} قرابة كالأب والابن].

قوله: [{ولو كان} المدعو] ألا يمكن أن نقول: (ولو كان الداعي)؟

الجواب: يمكن؛ لأنهما متلازمان؛ لأن المدعو إذا كان قريبا للداعي كان الداعي قريبا له، لكن أيهما أنسب من حيث السياق: {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى} نقول: (المدعو) أقرب؛ لأنه لو كان المراد الداعي لكان - والله أعلم - الأنسب أن يقول: (ولو كانت ذا قربى)؛ لأنه قال: {وإن تدع مثقلة} ومعلوم أن ضمير المؤنث ولو كان مجازا يكون مؤنثا؛ قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما تلزم فعل مضمر ... متصل أو مفهم ذات حر، إذن: {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء} ولو كانت ذا قربى، هذا صحيح؛ أي: ولو كانت الداعية، لكن قال: {ولو كان ذا قربى} بالمذكر، علم أن الفاعل غير الداعية كما قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: [{قربى} أي: قرابة] ومنه قوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى} [الأنفال: ٤١]؛ أي: القرابة، وقوله تعالى:

=

=

{قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} [الشورى: ٢٣]، فالقربى هنا بمعنى القرابة، لو أن الأب استنجد بابنه يوم القيامة أن يحمل عنه من أوزاره لم يجبه، بل {يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه} [عبس: ٣٤ - ٣٦] لماذا؟

{لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه} [عبس: ٣٧].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله] أين الشقان؟ قوله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} أي: لا تحمل {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء} وإذا كان من الله، فإنه لا يمكن لأحد أن يحمل عن أحد شيئا، فلو أن أحدا قال لشخص: (آثامك علي) فلا يصح هذا، لأن الذي لا يحمل هو الله، فالحكم من الله عَزَّوَجَلَّ، لو أن أحدا استنجد بأحد أن يحمل عنه، ووافق على نجدته، فليس له ذلك؛ لأن هذا حكم من الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا الفائدة من قوله: [وعدم الحمل في الشقين حكم من الله] أي: فليس لأحد أن يتجاوز الحكم؛ ولهذا قال الله تعالى: {وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون} [العنكبوت: ١٢]؛ يعني: يقولون ذلك، لكنهم ليسوا بصادقين على هذا الحمل وإنهم لكاذبون؛ ثم قال: {وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم} [العنكبوت: ١٣] لا بالتزامهم ولكن لأنهم هم الأسوة والقدوة فكانوا يحملون أثقالهم وأثقال من أضلوه.

قال الله تعالى: {إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب}.

{إنما تنذر} هذه جملة فيها حصر طريقه {إنما} والحصر هو إثبات الحكم في المذكور فيه ونفيه عما سواه.

كأنك تقول: (ما تنذر إلا الذين يخشون ربهم) و {تنذر} من الإنذار، وهو

=

=

الإعلام المقرون بالتخويف، وإن شئت فقل: (الإعلام المراد به التخويف)؛ لأنه قد لا يقرن، لكن يعرف من هيئة الكلام والصياح مثلا أنه للتخويف، فمنذر الجيش يقول: (واصباحاه)، فيعرف الناس أن هذا إنذار للجيش.

إذن: الإنذار معناه: الإعلام المراد به التخويف، فالنبي ﷺ يقول الله له: {إنما تنذر الذين يخشون ربهم}.

وقوله تعالى: {يخشون ربهم} الخشية هي الخوف النابع عن تعظيم المخوف والعلم به، قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨] وقولنا: إنه الخوف النابع عن تعظيم المخوف؛ ليشمل من كان خائفا ولو كان هو قويا؛ معناه القوي قد يخاف من الأقوى منه فتكون هذه خشية، فإن خاف الضعيف من القوي فهو خوف؛ ولهذا نقول: إن الخشية أعظم من الخوف، قال الله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالى: {الذين يخشون ربهم} أي: يخافونه خوفا نابعا من تعظيمهم له مع علمهم بأنه مستحق للتعظيم.

وقوله تعالى: {يخشون ربهم بالغيب} الغيب ضد الشاهد والمعلوم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [{إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب} أي: يخافونه وما رأوه] أفادنا المفسر رَحِمَهُ اللهُ أن قوله تعالى: {بالغيب} حال من المفعول به؛ أي: يخشون ربهم حال كونه غائبا عنهم لم يروه، وهذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: {يخشون ربهم} حال كونهم غائبين عن غيره فيكون الجار والمجرور حالا من الفاعل؛ لأن من الناس من يظهر خشية الله أمام الناس، لكنه إذا غاب عن الناس لم يخش الله، هل يمدح هذا على خشيته؟

الجواب: لا؛ لأنه مراء، لكن من يخشى ربه بالغيب هذا هو الذي يمدح.

فإن قلت: هل يمكن أن تحمل الآية على المعنيين، ويكون هؤلاء الذين مدحهم

=

=

الله يخشون الله؛ مع أنهم لم يروه يخشون الله في حال الغيبة عن الناس؟

فالجواب: نعم، وهذا من بلاغة القرآن أن يعبر بتعبير صالح لمعنيين لا يتنافيان، فهؤلاء القوم يخشون الله تعالى وهم لم يروه، ولكنهم يخشونه كأنهم يرونه؛ لأنهم يخشونه بالغيب والشهادة، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وقوله تعالى: {إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب} لا ينافي أنه منذر لجميع الناس، قال الله تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا} [البقرة: ١١٩] وقال تعالى: {إن أنت إلا نذير} [فاطر: ٢٣]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على عموم ذلك؛ لأن المراد بالإنذار هنا الإنذار النافع؛ أي: إنما يؤثر إنذارك في الذين يخشون ربهم بالغيب، أما من لا يخشى الله بالغيب فإنه وإن أنذر فإنه لا ينتفع بالإنذار.

ولهذا قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشيرا إلى ذلك بقوله: [لأنهم المنتفعون بالإنذار] [لأنهم]؛ أي: الذين يخشون ربهم بالغيب المنتفعون بالإنذار، فلهذا خص الإنذار بهم.

إذن: حصر الإنذار في الذين يخشون ربهم بالغيب المراد به حصر الإنتفاع به، أو حصر نفعه إنما يكون للذين يخشون ربهم بالغيب، أما من لا يخشى الله فإن هذا لا ينفعه؛ كما قال تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون (٩٦) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم} [يونس: ٩٦ - ٩٧].

قوله تعالى: {وأقاموا الصلاة} فـ {وأقاموا} معطوفة على {يخشون} أي: على صلة الموصول، وهنا قال: (يخشون وأقاموا الصلاة) فعطف الماضي على المضارع؛ لأن الخشية مستمرة في الأعمال كلها؛ في إقامة الصلاة وغيرها.

وقوله تعالى: {وأقاموا الصلاة} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أداموها] والحقيقة أن إقامة

=

=

الصلاة أعم مما قال، ففي تفسيره قصور؛ لأن إقامة الصلاة تشمل إتمامها، وإكمالها، والمحافظة عليها، والمداومة عليها، قال الله تعالى: {قد أفلح المؤمنون (١) الذين هم في صلاتهم خاشعون} [المؤمنون: ١ - ٢] فالخشوع فيها من إقامتها، ثم قال: {والذين هم على صلاتهم يحافظون} [المعارج: ٣٤] هذا أيضا من إقامتها أن يحافظ عليها ويحرص عليها؛ على واجباتها، ومكملاتها، وأوقاتها.

وقال في سورة (سأل): {الذين هم على صلاتهم دائمون} [المعارج: ٢٣] وفي آخرها قال: {والذين هم على صلاتهم يحافظون} [المعارج: ٣٤]، فإقامة الصلاة تشمل كل ما فيه إكمالها وإتمامها وإدامتها؛ فهو أعم مما قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ.

وقوله تعالى: {الصلاة} يشمل الفرض والنفل؛ لأن (أل) تفيد العموم؛ أي: أقاموا كل صلاة، والصلاة معروفة، وهي في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: التعبد لله سبحانه وتعالى بأقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قال: {ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه} هذه الجملة شرطية، وفعل الشرط فيها {تزكى} وجوابه: {فإنما يتزكى لنفسه}.

قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: {ومن تزكى} تطهر من الشرك وغيره] لأن الزكاة تفيد معنى الطهر، والمراد بالتزكي هنا هو ما دل عليه قوله تعالى: {قد أفلح من تزكى} [الأعلى: ١٤] وقوله تعالى: {قد أفلح من زكاها} [الشمس: ٩]؛ أي: من زكى نفسه؛ أي: طهرها من الشرك.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [وغيره] كإرادة السوء مثلا، والمعاصي، وإرادة الإساءة إلى الخلق، وغير هذا مما يجب على الإنسان أن يطهر نفسه منه، فهي إذن عامة، وهل يدخل في ذلك أداء الزكاة؟

=

الجواب: نعم، يدخل في ذلك؛ لأن أداء الزكاة يطهر من البخل؛ ومن الواجب، فهي داخلة في قوله تعالى: {ومن تزكى}.

قوله ﷻ: {فإنما يتزكى لنفسه} المراد بهذا الحث على التزكي؛ لأنك إذا تزكيت فإنما تنفع نفسك، ومن لم يتزك فضرره على نفسه، فأنت إذا تزكيت فالذي ينتفع بتزكيك أنت نفسك؛ والله ﷻ لا ينتفع بطاعتك، أما غير الله فقد ينتفع بطاعتك لا لأن حسناتك له ولكن قد ينتفع بطاعتك: بالقدوة بك، وبما يحصل من علم، أو غير ذلك مما هو داخل في التزكية.

وقوله تعالى: {فإنما يتزكى لنفسه} أي: فعليه أن يحرص على التزكي.

قوله تعالى: {وإلى الله المصير} المصير؛ بمعنى المرجع كما قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجملة {وإلى الله} متعلق بالمحذوف خبر مقدم، و {المصير} مبتدأ مؤخر، وهذه الجملة تفيد الحصر؛ لأنه قدم فيها الخبر وحقه التأخير؛ يعني: إلى الله وحده المصير؛ أي: المرجع، وهل هذا في الدنيا أو في الدنيا والآخرة؟

الجواب: في الدنيا والآخرة، فإلى الله المصير في الدنيا والآخرة، فمرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة.

فالأحكام الشرعية مرجعها إلى الله كما قال تعالى: {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله} [الشورى: ١٠]، والأحكام الكونية مرجعها إلى الله، قال تعالى: {إن الله يفعل ما يريد} [الحج: ١٤]، والأحكام الجزائية التي تكون يوم القيامة مرجعها إلى الله، فمصير كل شيء إلى من أبدع وأحدث كل شيء، والذي أبدع الأمور وأحدثها هو الله سبحانه وتعالى.

إذن: مرجعها إلى الله، فمنه المبتدأ وإليه المنتهى.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفريعا على قوله تعالى: {وإلى الله المصير} [فيجزي بالعمل في الآخرة] وهذا إشارة من المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه قصر المصير هنا بالمرجع يوم

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩).

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِير} الْكَافِر وَالْمُؤْمِن(١).

=

القيامة، والصواب العموم، وعلى هذا فهو سبحانه وتعالى يجازي، ويحكم قدرا، ويحكم شرعا بين عباده.

(١) قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [فاطر: ١٩]، أي:"وما يستوي الأعمى عن دين الله، والبصير الذي أبصر طريق الحق واتبعه".

قال الفراء:"فالأعمى هاهنا الكافر، والبصير المؤمن".

عن السدي:"{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}: قال: الكافر والمؤمن".

قال ابن قتيبة:"مثل للكافر والمؤمن".

قال السدي: "يعني: بصر القلب بالإيمان وهو المؤمن".

قال الزجاج:"هذا مثل ضربه الله للمؤمنين والكافرين، المعنى: لا يستوي الأعمى عن الحق وهو الكافر، والبصير بالحق وهو المؤمن الذي يبصر رشده".

قال الطبري: يقول:"{وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى} عن دين الله الذي ابتعث به نبيه محمدا ﷺ {وَالْبَصِيرُ} الذي قد أبصر فيه رشده؛ فاتبع محمدًا وصدقه، وقبل عن الله ما ابتعثه به".

قال العثيمين: قوله تعالى {وما يستوي الأعمى والبصير} يعني: لا يستويان في إدراك المبصرات، ليس المعنى نفي التساوي مطلقا؛ لأن الأعمى قد يفضل البصير في أمور أخرى، لكن لا يستويان في إدراك المبصرات وهذا ظاهر؛ فالأعمى إذا قام يمشي وأمامه حفرة أو حجر وقع في الحفرة وعثر في الحجر، والبصير بالعكس، فلا يستوي هذا وهذا، والأكمل هو: البصير؛ وهذا مثل حسي يجب أن ننتقل منه إلى المثل المعنوي.

وأما قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الكافر والمؤمن] ففيه نظر، يعني: كأنه يريد أن يقول:

=

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠).

{وَلَا الظُّلُمَات} الْكُفْر {وَلَا النُّور} الْإِيمَان(١).

=

إن الأعمى هو الكافر والبصير هو المؤمن، ولكننا نقول: لا، الآية يراد بها نفي المساواة في الأمور الحسية الظاهرة التي لا ينكرها أحد، إذ إن الكافر والزنديق والمعاند والمستكبر لا يمكن أن يدعوا تساوي الأعمى والبصير، لكن قد يدعون تساوي المؤمن والكافر.

(١) قوله تعالى: {وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} [فاطر: ٢٠]، أي:"وما تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان".

قال الطبري: "يقول: وما تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان".

قال الفراء:"الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان".

قال ابن قتيبة:"مثل للكفر والإيمان".

قال الزجاج:"الظلمات: الضلالات، والنور: الهدي".

عن السدي:"{وَلَا الظُّلُمَاتُ} قال: الكفر {وَلَا النُّورُ}، قال: الإيمان".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا الظلمات} الكفر {ولا النور} الإيمان] وهذا أيضا فيه نظر، والظاهر أن الله سبحانه وتعالى أراد الظلمات الحسية والنور الحسي؛ لأن نفي الإستواء بين هذين أمر لا يمكن إنكاره؛ لأنه مدرك بالحس، فالظلمات لا تستوي والنور، ولكن لا شك أن المراد بذلك ظلمات الكفر ونور الإيمان؛ يعني أنها إشارة إلى هذا؛ ولذلك جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأن سبل الكفر كثيرة، وأما الإيمان فسبيله واحد، قال الله تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله} [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} [البقرة: ٢٥٧].

وإنما كان الكفر ظلمات؛ لأن فيه الجهل بالله ﷻ، وبما يجب له، وفيه أيضا أن

=

وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١).

{وَلَا الظِّلّ وَلَا الْحَرُور} الْجَنَّة وَالنَّار[١].

=

الإنسان يسير على غير هدى، ويسير في اتجاهات متعددة منحرفة، فقلبه متشعب في كل واد؛ ولهذا تجد الكافرين أشد الناس قلقا وأبعدهم عن الثبات على خط مستقيم.

بخلاف المؤمن؛ فالمؤمن مؤمن، خطه مستقيم، وعارف أنه يريد الوصول إلى الله، فتجده يحول جميع الأفعال إلى طريق واحد وهو الوصول إلى الله؛ حتى إنه إذا لبس ثوبه يشعر بأنه ينال بذلك مرضاة الله، إذا أكل، أو شرب، أو نام، أو سافر، أو تكلم، أو أحجم، كل ذلك يرى أنه في الطريق إلى الله.

لكن الكافر متشعب، ولذلك كان منهجه ظلمات؛ لأنه متشعب، ليس هناك هدف واحد يسعى إليه، أهدافه كثيرة، مغرور في الدنيا، مغرور في رؤسائه، مغرور في الناس، لا يهتم إلا برضاهم، نسأل الله السلامة والعافية، ولا يهمه أن يرضى الله ﷻ، فلهذا كان مستحقا أن تجعل طريق الكافر على سبيل الجمع لتشتتها وتفرقها.

(١) قوله تعالى: {وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ} [فاطر: ٢١]، أي:"وما يستوي الظل، والريح الحارة".

عن السدي:"{وَلَا الظِّلُّ} قال: الجنة، {وَلَا الْحَرُورُ}، قال: النار".

قال الفراء:"الظل: الجنة، والحرور: النار".

قال ابن قتيبة:"مثل للجنة والنار".

قال الطبري: " {وَلا الظِّلُّ} قيل: ولا الجنة، {وَلا الْحَرُورُ} قيل: النار، كأن معناه عندهم: وما تستوي الجنة والنار، والحرور بمنزلة السموم، وهي الرياح الحارة".

=

=

قال الزجاج:"المعنى: لا يستوي أصحاب الحق الذين هم في ظل من الحق، ولا أصحاب الباطل الذين هم في حرور أي في حر دائم ليلا ونهارا. و «الحرور»: استيقاد الحر ولفحه بالنهار وبالليل. و «السموم»: لا يكون إلا بالنهار".

قال النحاس:"قيل: الحرور لا يكون إلّا بالليل، والسموم يكون بالنهار. وقيل: الحرور يكون فيهما. وهذا أصحّ القولين، لأن الحرور فعول من الحرّ، وفيه معنى التكثير أي الحرّ المؤذي".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الجنة والنار] يعني: المراد بالظل - عند المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ الجنة، والمراد بالحرور النار، ولكن كما قلت: الظاهر أن هذا مثل لأمر حسي لا يمكن إنكاره، لكن ينتقل منه إلى أمر معنوي.

والظل والحرور لا يستويان، وأيهما أحسن؟

الجواب: الظل؛ فالظل معروف، وهو الفيء الذي تقلصت عنه الشمس وإن شئت فقل: الظل هو المكان الذي ليس فيه أشعة للشمس، وإنما نقول ذلك؛ لأن الجنة ليس فيها شمس، قال الله تعالى: {وظل ممدود} [الواقعة: ٣٠] مع أنه ليس فيها شمس.

وأما (الحرور) فهو على وزن (فعول) وهو الهواء الحار، وبعضهم يقول: إنه الهواء الحار في النهار، والسموم: الهواء الحار في الليل، وبعضهم يقول: كلاهما بمعنى واحد، فالحرور والسموم هما الهواء الحار، وهذا معروف، يكون في أيام الصيف، وإذا كان معه شمس ازداد شدة الحرارة.

الآن عندنا: الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، على كلام المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ نقول: هذا النفي في المواضع الثلاثة: الأول يعود إلى ذات المؤمن والكافر، والثاني يعود إلى عمل المؤمن والكافر، والثالث يعود إلى مستقر المؤمن والكافر، فالأول نفي للذوات، والثاني نفي للأفعال والمنهج، والثالث

=

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢).

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَات} الْمُؤْمِنُونَ وَلَا الْكُفَّار وَزِيَادَة لَا فِي الثَّلَاثَة تَأْكِيد {إِنَّ الله يَسْمَع مَنْ يَشَاء} هِدَايَته فَيُجِيبهُ بِالْإِيمَانِ {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور} أَيْ الْكُفَّار شَبَّهَهُمْ بِالْمَوْتَى فَيُجِيبُونَ[1].

=

نفي للمستقر والمأوى.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [الروم: ٥٢]، {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)}، قال: كان النبي ﷺ يقف على القتلى يوم بدر؛ ويقول: "هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟! يا فلان بن فلان! ألم تكفر بربك؟ ألم تكذب نبيك؟ ألم تقطع رحمك؟ "، فقالوا: يا رسول الله! أيسمعون ما تقول؟ قال: "ما أنتم بأسمع منهم لما أقول"؛ فأنزل الله: {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}، {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}. مثل ضربه الله للكفار أنهم لا يسمعون لقوله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ١٨)، وقال: وأخرج أبو سهل السري بن سهل السري بن سهل الجنديسابوري في "الخامس من حديثه" من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس به. وأبو صالح؛ متروك متهم بالكذب.

* قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ} [فاطر: ٢٢].

عن السدي:"{وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ}، قال: المؤمن والكافر".

قال الفراء:"الأحياء: المؤمنون، والأموات: الكفار".

قال ابن قتيبة:"مثل للعقلاء والجهال".

=

=

قال الزجاج:"الأحياء هم المؤمنون، والأموات الكافرون، ودليل ذلك قوله: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} [النحل: ٢١] ".

قال الطبري: " يقول: وما يستوي الأحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله، ومعرفة تنزيل الله، والأموات القلوب لغلبة الكفر عليها، حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال، وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا} [هود: ٢٤] فالمؤمن سميع بصير في نور يمشي، على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم، في ظلمات يمشي، لا خروج له منها، بل هو يتيه في غَيِّه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ} [الواقعة: ٤٣، ٤٤] ".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ...}، الآية، قال: هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية؛ يقول: وما يستوي الأعمى والظلمات والحرور ولا الأموات، فهو مثل أهل المعصية، ولا يستوي البصير ولا النور ولا الظل والأحياء، فهو مثل أهل الطاعة".

=

عن قتادة، قوله: " {وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى...}، الآية، خلقًا فضل بعضه على بعض؛ فأما المؤمن فعبد حي الأثر، حي البصر، حي النية، حي العمل، وأما الكافر فعبد ميت؛ ميت البصر، ميت القلب، ميت العمل".

قال ابن زيد:"هذا مثل ضربه الله؛ فالمؤمن بصير في دين الله، والكافر أعمى، كما لا يستوي الظل ولا الحرور ولا الأحياء ولا الأموات، فكذلك لا يستوي هذا المؤمن الذي يبصر دينه ولا هذا الأعمى، وقرأ: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}، قال: الهدى الذي هداه الله به ونور له، هذا مثل ضربه الله لهذا المؤمن الذي يبصر دينه، وهذا الكافر الأعمى فجعل المؤمن حيًّا وجعل الكافر ميتًا ميت القلب {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}، قال: هديناه إلى الإسلام كمن مثله في الظلمات أعمى القلب وهو في الظلمات، أهذا وهذا سواء؟ ".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} [فاطر: ٢٢]، أي:"إن اله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق، فيحبِّبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون".

قال الطبري: يقول:"كما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه".

قال ابن كثير:" {إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ}، أي: يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ} أي: كما لا يسمع وينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم، ولا

=

تستطيع هدايتهم".

عن السدي:" {إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ}، قال: يهدي من يشاء ".

عن قتادة: {إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}، قال:"كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع".

قال العثيمين: قوله: {وما يستوي الأحياء ولا الأموات} هذا هو الرابع، قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المؤمنون ولا الكفار] فعلى كلام المفسر يكون في الآية تكرار؛ لأنه فسر الأول {الأعمى والبصير} بالكافر والمؤمن، وهنا قال: {الأحياء ولا الأموات} [المؤمنون والكفار] ولو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: {الأحياء} ذوو العلم و {الأموات} ذوو الجهل؛ لقوله تعالى: {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} [الأنعام: ١٢٢]؛ ولأن الله تعالى جعل الوحي روحا تحيا به القلوب والنفوس، ولكنني لا أسلك مسلكه، إنما لو أردت أن أسلك مسلكه لقلت: (الأحياء والأموات: العلماء والجهال)، لأنني إذا سلكت هذا المسلك فعندي على ذلك البرهان، وهو قوله تعالى: {أومن كان ميتا} إلخ [الأنعام: ١٢٢] فإذا سلكت هذا المسلك سلمت الآية من التكرار.

ونحن نعلم جميعا أن من القواعد المعروفة في الكلام أنه إذا دار الأمر بين حمل الكلام على التأسيس أو على التوكيد وجب حمله على التأسيس؛ لأنه هو الأصل، فالأصل في الكلام أن يكون مستقلا مؤسسا لا مؤكدا.

والتأسيس معناه الأصل والأساس؛ يعني: هذا معنى جديد غير المعنى الأول، فإذا قال قائل مثلا: هذه الجملة مؤكدة للأولى، وقال الثاني: هذه الجملة مستقلة بنفسها، فإنه يحمل على أنها مستقلة بنفسها.

وأقول: الأحياء والأموات يراد به الحياة الحسية والموت الحسي، فكل يعرف

=

=

الفرق بين الحي والميت، حتى الكفار يعرفون الفرق بين الحي والميت، والذي يماثل هذه الأشياء النفسية من الأمور المعقولة هو مثلها.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وزيادة (لا) في الثلاثة تأكيد]، هذه الجملة أفادت أن لدينا زيادة، وأن الفائدة من الزيادة التوكيد، فالزيادة في هذه الثلاث: {ولا الظلمات ولا النور} وفي قوله تعالى: {ولا الظل ولا الحرور} وفي قوله تعالى: {وما يستوي الأحياء ولا الأموات} فـ (لا) خمس مرات، لكن جعلها المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاثة؛ لأن المتقابل فيها ثلاثة، (الظلمات والنور) هذه يريد أن تكون واحدة، و (الظل والحرور) واحدة، و (الأحياء والأموات) واحدة، المهم أن الزيادة التي جاءت في المواضع كلها سواء قلنا: ثلاثة أو خمسة فهي للتوكيد؛ إذ لو قيل: (وما يستوي الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات) استقام الكلام، لكن يؤتى بـ (لا) الزائدة للتوكيد.

وفيها أيضا فائدة ثانية: وهي عدم السآمة والملل؛ لأنها لو حذفت لطالت المعطوفات بعضها مع بعض، فكرر فيها عامل النفي ليكون أبعد عن السآمة.

فإن قلت: هل لذلك نظير في كتاب الله؟

فالجواب: نعم، لهذا نظير في مواضع كثيرة، منها ما نقرؤه في كل صلاة: وهي {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} [الفاتحة: ٧] إذ لو قال: (غير المغضوب عليهم والضالين) استقام، لكن زيدت (لا) للتوكيد.

قال الله تعالى: {إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن الله يسمع من يشاء} هدايته فيجيبه] أي: المسمع [بالإيمان]؛ يعني أن الله تعالى يدعو إلى دار السلام؛ كما قال في آية أخرى: {والله يدعو إلى دار السلام} [يونس: ٢٥] دعاء الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام هل يسمعه كل أحد؟

=

=

الجواب: أما من حيث الإدراك الحسي فإن كل أحد يسمعه، أما من حيث الإجابة فلا، فمن الناس من يجيب، ومنهم من لا يجيب؛ ولهذا قال: {والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} [يونس: ٢٥] فالله تعالى يسمع من يشاء؛ بمعنى: من يكون أهلا لاتباع هؤلاء الرسل.

وقوله تعالى: {وما أنت بمسمع من في القبور}: (ما) هنا حجازية، واسمها الضمير {أنت} والباء في {بمسمع} زائدة للتوكيد، و (مسمع): خبرها منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد.

{من}: مفعول لـ (مسمع)؛ لأن (مسمع) اسم فاعل.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وما أنت بمسمع من في القبور} أي: الكفار، شبههم بالموتى؛ فيجيبوا] قوله: [فيجيبوا]، في بعض النسخ: (فيجيبون) وهذا خطأ؛ لأن النون يجب أن تحذف؛ لأنه جواب النفي في قوله تعالى: {وما أنت بمسمع من في القبور} وفي بعض النسخ: (فلا يجيبون)، فهي منفصلة عما قبلها؛ أي: فهم في عدم إسماعهم لا يجيبون.

على كل حال: المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في قوله تعالى: {وما أنت بمسمع من في القبور} بقوله: [أي: الكفار] والذي يظهر لي أن المراد به الموتى حقيقة، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يسمع الموتى حقيقة كما قال الله تعالى: {إنك لا تسمع الموتى} [النمل: ٨٠]، فلو أن الرسول ﷺ ذهب إلى المقبرة مقبرة الكفار، وقال: "يا أيها الناس اتقوا الله، واعبدوه"، وما أشبه ذلك هل يسمعون هذه الموعظة فينتفعون بها؟

الجواب: لا، ما يسمعونها فينتفعون بها، ولكننا نقول: ننتقل من هذا إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يسمع الكفار؛ لأن قلوبهم ميتة، ومن قلبه ميت - والعياذ بالله - فإنه لا ينتفع بما يسمع من المواعظ، فكأنه لا يسمع.

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣).

{إِنْ} مَا {أَنْتَ إِلَّا نَذِير} مُنْذِر لَهُمْ(١).

(١) قوله تعالى: {إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٣].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم، ولم يرسلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته، ولم يكلفك من الأمر ما لا سبيل لك إليه، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به فإن ذلك بيد الله لا بيدك ولا بيد غيرك من الناس؛ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك".

قال ابن كثير:**"**أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إن أنت إلا نذير} فسر المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ {إن} بـ(ما) فقال: [{إن} ما {أنت إلا نذير} منذر لهم] وهذا يدل على {إن} نافية، وقد تقدم أن من علامات {إن} النافية الإستثناء بأن تتبع بـ {إلا}، والمعنى: ما أنت إلا نذيرهم، والنذير كما تقدم هو المعلم إعلاما يتضمن التخويف، فالإعلام المتضمن التخويف يسمى إنذارا.

قوله تعالى: {إن أنت إلا نذير} هل هذا الحصر حقيقي أو إضافي؟

الجواب: إضافي؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام نذير وبشير؛ لكن المقام هنا يقتضى أن يذكر الإنذار فقط؛ لأنه في مقارعة الكفار، ومقارعة الكفار تحتاج إلى الإنذار أكثر مما تحتاج إلى التبشير.

وقوله تعالى: {إن أنت إلا نذير} تكون مقابلة بين هذه الجملة والجملة التي قبلها؛ كأنه يقول: أنت لا تستطيع أن توصل الهداية إلى قلوب الكافرين، ولكن تستطيع أن تنذرهم؛ لأن هذا هو مقامك، مقامك إنذار، أما أن توصل الهداية إلى =

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤).

{إنا أرسلناك بِالْحَقِّ} بِالْهُدَى {بَشِيرًا} مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ {وَنَذِيرًا} مَنْ لَمْ يَجِب إِلَيْهِ {وَإِنْ} مَا {مِنْ أُمَّة إِلَّا خَلَا} سَلَفَ {فِيهَا نَذِير} نَبِيّ ينذرها[1].

=

قلوب هؤلاء الكفار الذين يشبهون الموتى فهذا ليس إليك.

وصدق الله ﷻ؛ فإن النبي عليه الصلاة والسلام ما استطاع أن يهدي أقرب الناس إليه وأشفق الناس إليه وهو عمه أبو طالب، وشاء الله ﷻ أن يهدي أقواما من فارس والروم من أبعد الناس عن الرسول عليه الصلاة والسلام، نسبا ومكانا؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ، كما قال تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمصيطر} [الغاشية: ٢٢].

(١) قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [فاطر: ٢٤].

قال الطبري::"يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) يا محمد {بِالْحَقِّ} وهو الإيمان بالله وشرائع الدين التي افترضها على عباده، مبشرًا بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عند الله من النصيحة، {وَنَذِيرًا} تنذر الناس مَن كذبك ورد عليك ما جئت به من عند الله من النصيحة".

قال ابن كثير:"أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين".

قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤]، أي:"وما من أمة من الأمم إلا جاءها نذير يحذرها عاقبة كفرها وضلاله".

قال ابن قتيبة:"أي: سلف فيها نبي".

قال الطبري: يقول:"يقول: وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله".

قال ابن كثير:"أي: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النُّذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد:

=

=

٧]، وكما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} الآية [النحل: ١٣٦] ".

قال قتادة:"كل أمة كان لها رسول".

قال الزمخشري:"الأمة: الجماعة الكثيرة، قال الله تعالى: {وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاس} [القصص: ٢٣]، ويقال لأهل كل عصر: أمة، وفي حدود المتكلمين: الأمة هم المصدقون بالرسول ﷺ دون المبعوث إليهم، وهم الذين يعتبر إجماعهم، والمراد هاهنا: أهل العصر".

قال العثيمين: قوله: {أرسلناك} الإرسال بمعنى الأمر بالتبليغ أو بقضاء الحاجة؛ فمثلا تقول: (أرسلت غلامي يخبر فلانا بكذا وكذا؛ يعني أمرته بالتبليغ) أرسلت غلامي يشتري كذا وكذا؛ أي: أمرته أن يشتري الحاجة.

قوله تعالى: {بالحق} يحتمل أن تكون الباء للتعدية؛ أي أننا أعطيناك حقا وأرسلناك به، ويحتمل أن تكون وصفا للرسالة؛ يعني: أرسلناك رسالة حق، والمعنى يختلف.

فعلى المعنى الثاني يكون معنى الآية أن رسالة النبي ﷺ حق، وعلى المعنى الأول يكون معناها: أن الرسول ﷺ جاء بالحق، وإن كان المعنيان متلازمين، لكنهما مختلفان من حيث المورد؛ فعلى الأول يكون مورد الوصف الرسالة نفسها، وعلى الثاني يكون مورد الوصف المرسل به.

قوله تعالى: {أرسلناك بالحق} أي: أعطيناك حقا تبلغه للناس {أرسلناك بالحق} أي إن رسالتنا إليك حق، فيكون وصفا للرسالة نفسها؛ يعني: لست بكاذب بل أنت صادق، هذا على جعلنا الوصف عائدا للرسالة أما إذا جعلناه عائدا على الموصوف به، فالمعنى أن ما جئت به ليس بباطل، بل هو صدق في

=

=

الأخبار وعدل في الأحكام.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بشيرا}: من أجاب إليه {ونذيرا} من لم يجب إليه] فـ {بشيرا ونذيرا} يعني أنك تبشر وتنذر، لكن تبشر بالخير من أجاب، وتنذر بالعقوبة من لم يجب وعصى؛ وذلك لأن الشرع يتضمن أوامر ونواهي، فمن ارتكب النواهي أو ترك الأوامر واجهناه بالإنذار، ومن فعل الأوامر واجتنب النواهي قابلناه بالبشارة.

قوله ﷻ: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير}: {وإن} نافية، و {من} حرف جر زائد زائد - ويجوز أن نقول: (زائد زائدا) على أن (زائدا) حال من الضمير المستتر في (زائد) الأولى - المهم أنه زائد لفظا زائد معنى، و {أمة} مبتدأ، وجملة {خلا فيها نذير} خبرها.

والأمة هي الطائفة من الناس التي على منهج واحد؛ كدين واحد، أو قومية واحدة، أو ما أشبه ذلك، فهذه الأمة، وليس كل طائفة نسميها أمة؛ فمثلا: أنتم الآن لا نسميكم أمة إلا لأنكم على طريق واحد، لكن لو اجتمعت جماعة في مكان متشتتين، كل واحد له منهج لا نقول: هؤلاء أمة، إلا إذا كانوا من قبيلة واحدة، أو ما أشبه ذلك.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وإن من أمة إلا خلا} سلف {فيها نذير} نبي ينذرها].

يعني: كل الأمم أرسل الله إليهم نذيرا؛ لتقوم عليهم الحجة؛ لأنه إذا لم يكن للناس نذير فإن لهم حجة على ربهم، يقولون: يا ربنا ما أرسلت إلينا رسلا.

كما قال الله تعالى: {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى} [طه: ١٣٤].

وقال تعالى: {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} [النساء: ١٦٥]، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - الكلام على ما في قوله

=

=

تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} من الإشكال، والجواب عنه.

وقوله تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا} الخطاب في قوله تعالى: {إنا أرسلناك} للنبي ﷺ، والإرسال هو تحميل المرسل شيئا يبلغه إلى المرسل إليه؛ والجملة مؤكدة بـ (إن)، وتوكيد الجملة يدل على الإهتمام بها؛ من أجل أن يؤمن الإنسان بها إيمانا كاملا.

يقول الله تعالى: {إنا أرسلناك بالحق} الباء هنا إما أن تكون للتعدية، تقول: (أرسلته بكذا) لبيان المرسل به، وإما أن تكون للمصاحبة.

يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بالحق} بالهدى] وكأنه أخذ هذا التفسير من قوله سبحانه وتعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} [التوبة: ٣٣]، ولكن الصحيح في الآية أن المراد بالحق ضد الباطل، فيشمل الصدق في الخبر والعدل في الأحكام؛ أي: بالصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، وليس الهدى فقط، بل الهدى والصلاح، والإصلاح، وغير ذلك.

وأما في قوله تعالى: {بالهدى ودين الحق} [التوبة: ٣٣]، فنعم، ممكن أن نقول: المراد بالهدى هناك العلم النافع؛ لأنه ذكر الهدى وذكر الدين، فذكر العلم والعمل، أما هنا فلا ينبغي أن نقتصر على قولنا: (الحق)؛ أي: الهدى، بل نجعله أعم من ذلك؛ ليشمل الهدى الذي هو العلم، ويشمل دين الحق الذي هو الرشد والصلاح والإصلاح، فالرسول عليه الصلاة والسلام قد تضمنت رسالته العلوم النافعة كلها والصلاح للخلق في معاشهم ومعادهم، وما جاء به فقد تضمن الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام.

قال تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا}.

{بشيرا} حال من الكاف في {أرسلناك} بمغنى: (مبشر).

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بشيرا} من أجاب إليه {ونذيرا} من لم يجب إليه]

=

=

والبشارة هي الإخبار بما يسر، وقد تستعمل في الإخبار بما يسوء كما في قوله تعالى: {فبشرهم بعذاب أليم} [آل عمران: ٢١]، وأما الإنذار فهو التخويف؛ أي: الإعلام بما يخوف، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت رسالته بشارة وإنذارا؛ لأنها إما أمر يبشر فاعله بما يقتضيه ذلك الأمر، وإما نهي يخوف صاحبه من ارتكابه، فالشريعة كلها بشارة ونذارة.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بشيرا} من أجاب إليه {ونذيرا} من لم يجب] قد يقال: إن الأولى إبقاء الآية على عمومها؛ أي: بشيرا لمن أجاب إليه ونذيرا له في الوقت نفسه؛ لأن من أجاب أيضا يحتاج إلى إنذار، فتكون البشارة والإنذار شاملة لمن أجاب ومن لم يجب، حتى من لم يجب يبشر إن أجاب.

قوله تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير}: {وإن} بمعنى (ما) فهي نافية، وقد ذكرنا لـ (إن) النافية ضابطا، لكنه لا يحيط بجميع مواردها، وهو أنه: إذا أتت بعدها (إلا) فهي نافية؛ مثل قوله تعالى: {إن أنت إلا نذير}، وقوله تعالى: {إن هذا إلا سحر مبين} [المائدة: ١١٠]، وقوله تعالى: {إن هذا إلا اختلاق} [ص: ٧]، وقوله تعالى: {إن هذا إلا خلق الأولين} [الشعراء: ١٣٧] ومنها أيضا هذه الآية: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير}.

{من} زائدة زائدة؛ زائدة إعرابا، زائدة معنى.

فإن قلت: كيف تكون زائدة زائدة؟

قلنا: لأن زاد يستعمل لازما ومتعديا، فيقال: (زاد الطين بلة) هذا متعد، {فزادتهم إيمانا} [التوبة: ١٢٤] هذا متعد أيضا، وتقول: (زاد المال) فهذا لازم، فـ (زائدة) الأولى من الناقص الذي لا يتعدى، و (زائدة) الثانية من المتعدي.

قوله تعالى: {أمة}: وأمة مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخرها منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

=

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥).

{وَإِنْ يُكَذِّبُوك} أَيْ أَهْل مَكَّة {فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ

=

قوله تعالى: {إلا خلا فيها نذير} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{خلا} بمعنى سلف {فيها نذير} نبي ينذرها] والأمة هنا بمعنى الطائفة، وتأتي في القرآن على أربعة أوجه:

فتكون بمعنى (الطائفة) كما هنا.

وتكون بمعنى (الزمن) مثالها: {وادكر بعد أمة} [يوسف: ٤٥].

وتكون بمعنى (الدين والملة) كما في قوله تعالى: {إن هذه أمتكم أمة واحدة} [الأنبياء: ٩٢].

وتكون بمعنى (الإمام) مثل قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا} [النحل: ١٢٠].

وقوله تعالى: {وإن من أمة إلا خلا} أي: سلف ومضى {نذير} ينذرها؛ وذلك لتقوم الحجة على العباد؛ لأن العقول مهما بلغت لا يمكن أن تعرف ما يجب لله عَزَّ وَجَلَّ من الحقوق، كما لا يمكن أن تعرف ما يجب له من الأسماء والصفات على سبيل التفصيل، وإن كان العقل يدرك أن الإنسان لا بد أن يعبد خالقه، ويدرك أن الخالق لا بد أن يكون متصفا بصفات الكمال، لكن على سبيل الإجمال لا على سبيل التفصيل، فمن أجل ذلك أرسل الله الرسل؛ لتقوم الحجة على العباد.

فما من أمة إلا خلا فيها نذير، قد يكون الأنبياء في وقت واحد في أمكنة متعددة، وقد يكون الأنبياء في وقت واحد في مكان واحد، أما أن يوجد مكان واحد لم يكن فيه نبي فهذا لا يمكن، لا بد أن تكون جميع الأمم قد بعث إليها الرسل، ونظير هذا قوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: ٣٦].

بِالْبَيِّنَاتِ} الْمُعْجِزَات {وَبِالزُّبُرِ} كَصُحُفِ إِبْرَاهِيم {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِير} هُوَ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [فاطر: ٢٥]، أي:"وإن يكذبك هؤلاء المشركون فقد كذَّب الذين مِن قبلهم رسلهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره مسليًا نبيه ﷺ فيما يلقى من مشركي قومه من التكذيب: وإن يكذبك يا محمد مشركو قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم".

قال ابن الجوزي:"معناه: لست بأول رسول كذب".

قال قتادة:"يعزي نبيه".

قوله تعالى: {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [فاطر: ٢٥]، أي:"جائتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات الدالة على نبوتهم".

قال الطبري: " جاءتهم رسلهم بحجج من الله واضحة، وبالزبر يقول: وجاءتهم بالكتب من عند الله".

عن السُّدِّيّ: {بِالبَيِّناتِ}، يعني: "الآيات التي كانت تجيء بها الأنبياءُ إلى قومهم".

قال ابن كثير:" {بِالْبَيِّنَاتِ}، هي: المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات".

قال مقاتل:" {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالآيات التي كانوا يصنعون ويخبرون بها".

قال الزمخشري:" {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات".

قوله تعالى: {وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [فاطر: ٢٥]، أي:"وجاؤوهم بالكتب المجموع فيها كثير من الأحكام، وبالكتاب المنير الموضح لطريق الخير والشر".

قال أبو سليمان في قوله: {والكتاب المنير}: "يعني به الكتاب النيرة بالبراهين =

=

والحجج".

قال الطبري: " يقول: وجاءتهم بالكتب من عند الله، وجاءهم من الله الكتاب المنير لمن تأمله وتدبره أنه الحق".

قال ابن كثير:" {وَبِالزُّبُرِ} وهي الكتب، {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}، أي: الواضح البين".

قال مقاتل:" {وَبِالزُّبُرِ}، وبالأحاديث التي كانت قبلهم من المواعظ، {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}، المضيء الذي فيه أمره ونهيه".

عن قتادة، قوله: " {بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ}، أي: الكتب، {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}، يضعف الشيء وهو واحد".

قال الزمخشري:" {وَبِالزُّبُرِ}، وبالصحف {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا، وإن كان بعضها في جميعهم: وهي البينات، وبعضها في بعضهم: وهي الزبر والكتاب. وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ".

قال السمعاني:"وذكر «الكتاب» بعد «الزبر» على طريق التأكيد".

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{وإن يكذبوك} أي: أهل مكة] هذا تفسير لـ (الواو) في قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم} يعني: فليس ببدع أن يكذبك قومك؛ لأن الذين من قبلهم كذبوا الرسل، وهذا كقوله تعالى: {ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا} [الأنعام: ٣٤]؛ يعني: ليس الأمر مقتصرا على التكذيب فقط، بل تكذيب وأذية بالقول وأذية بالفعل، بل أعظم من ذلك القتل؛ فإن كثيرا ممن أرسل الله إليهم الرسل قتلوهم.

وخصه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأهل مكة، والصحيح أنه ليس خاصا بأهل مكة، بل أهل مكة وغيرهم، فالرسول كذبه أهل مكة وكذبه أهل الطائف وغيرهم من المشركين،

=

=

فالصواب العموم.

قوله تعالى: {وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم}.

{الذين}: فاعل، والمفعول محذوف؛ أي: فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم.

قوله تعالى: {جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير} ومع ذلك كفروا {جاءتهم رسلهم بالبينات} هذه الباء للمصاحبة؛ يعني: جاؤوا مصطحبين هذه الأشياء، ويحتمل أنها للتعدية، كما تقول: (أتيت بدرهم، أتيت بطعام، أتيت بشراب)، وما أشبه ذلك؛ يعني: أتوا بالبينة التي تبين صدقهم، وتفسير المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ للبينات بالمعجزات، هذا هو تعبير كثير من المتأخرين، ولكن الصواب أن يقال: (بالآيات)، وأن البينات هذه هي صفة لموصوف محذوف، تقديره: (بالآيات البينات)؛ أي: الظاهرة.

والآيات التي جاءت بها الرسل حسية ومعنوية، فمن الآيات الحسية: ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام من العصا، واليد، وغير ذلك، ومن الآيات المعنوية: ما جاء به من التوراة، وكذلك عيسى وغيرهما من الرسل، كل رسول لم يأت إلا ببينة.

وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه "ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر"، وإنما كان كذلك؛ لأنه ليس من الحكمة ولا من الحجة ولا من الرحمة أن يرسل رسول إلى الخلق يستبيح دماء المخالفين له وأموالهم ونساءهم بدون بينة حتى لو فرض أن أحدا كذبه وهو لم يأت ببينة لكان المكذب معذورا؛ لأن البينة على المدعي، فكان من حكمة الله ورحمته وإقامة حجته أن يجعل مع الرسل آيات تشهد بصدق ما جاؤوا به.

وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أن الآيات التي جاء بها الرسل - ولا سيما الآيات الحسية - تكون مناسبة لأبرز الأمور في عصرهم، وضربوا لذلك مثلا بأن موسى

=

ﷺ جاء بالعصا واليد؛ لأنه اشتهر في عصره وبرز في عصره صناعة السحر؛ فجاء بأمر فوق ما تجيء به السحرة؛ السحرة إنما يموهون ويخيلون، وهو جاء بالحقيقة.

قال تعالى: {قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى} [طه: ٦٦] يخيل إليه، ولكنه ليس بحقيقة، هو ألقى عصاه فصار حقيقة فعلية تلقف ما يأفكون.

قالوا: وعيسى ﷺ أتى في وقت ترقت فيه صناعة الطب، فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء ولا يستطيعونه؛ جاء بإبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وخلق صورة من الطين ينفخ فيها فتطير؛ أي: تكون طيرا حقيقيا.

وهذا يعجز عنه الطب، فلا يمكن لأي طبيب يكون أمامه رجل ميت، فيقول: (قم) فيقوم، أبدا، لا يمكن لأي طبيب يأتي إلى المقابر ويقف على القبر ويقول: (اخرج) فيخرج، وعيسى يفعل ذلك؛ كما قال الله تعالى: {وإذ تخرج الموتى بإذني} [المائدة: ١١٠] فهو يخرجهم من مدافنهم، ولا يمكن لأي إنسان من الأطباء أو غيرهم أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير، أبدا.

فالأكمه والأبرص لا يمكن لأحد أن يبرئه من المرض الذي أصابه بمثل ما يبرئه عيسى عليه الصلاة والسلام؛ يؤتى إليه بذوي العاهات ويمسح بيده عليه ويبرأ، يزول؛ يعني: هذا البرص الذي ملأ الجلد أو أكثره يمر يده عليه فلا تتعدى يده مكانا إلا عاد على طبيعته، هذا لا يستطيع أحد من الأطباء مهما بلغ في الطب أن يصل إلى هذه الحال.

قالوا: ومحمد عليه الصلاة والسلام أتى إلى قوم قد بلغوا في البلاغة ذروتها، فجاء بكلام لا يستطيعون مباراته أبدا، وهو كلام الله، وتحداهم الله تعالى في عدة آيات أن يأتوا بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله، أو بحديث منه، فلم يستطيعوا.

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦).

{ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا} بِتَكْذِيبِهِمْ {فَكَيْفَ كَانَ نَكِير} إنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاك أَيْ هُوَ واقع موقعه[1].

=

المهم: أن جميع ما جاءت به الرسل آيات بينات.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وبالزبر}: كصحف إبراهيم] الزبر جمع زبور، وهو ما يزبر ويؤثر؛ يعني: الكتاب، ولو أن المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (كزبور داود) لكان أنسب للآية، لأن صحف إبراهيم ما ذكر الله عنها أنها زبر، ولكن ذكر: {وآتينا داوود زبورا} [النساء: ١٦٣].

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وبالكتاب المنير} هو التوراة والإنجيل] الصواب أن الكتاب المنير ليس التوراة والإنجيل، بل كل كتاب بعث الله به الرسول ينير الطريق لأمته، فيشمل التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وغير ذلك، ما من رسول أرسله الله إلا معه كتاب، قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب} [البقرة: ٢١٣]. فلا يمكن أن نقول: إن نوحا عليه الصلاة والسلام أرسل بدون كتاب أبدا، لا بد أنه أرسل بكتاب، لكن لا يلزم من كونه أرسل به أن يذكر لنا هذا الكتاب.

قوله: [فاصبر كما صبروا] وهل صبر الرسول عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: نعم، صبر صبرا لا يصبره إلا أولو العزم.

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [فاطر: ٢٦].

قال الطبري: يقول: " ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالة رسلنا، وحقيقة ما دعوهم إليه من آياتنا وأصروا على جحودهم".

قال ابن كثير:"أي: ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، =

=

فأخذتهم، أي: بالعقاب والنكال".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [فاطر: ٢٦]، أي:"فانظر كيف كان إنكاري لعملهم وحلول عقوبتي بهم؟ ".

قال الطبري: " يقول: فانظر يا محمد كيف كان تغييري بهم وحلول عقوبتي بهم".

قال القرطبي:"أي: كيف كانت عقوبتي لهم".

قال ابن كثير:"أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيما شديدًا بليغا؟ ".

عن قتادة:"{فكيف كان نكير}، قال: شديد. والله لقد عجل لهم عقوبة الدنيا ثم صيرهم إلى النار".

وأثبت ورش عن نافع وشيبة الياء في: «نكيري»، حيث وقعت في الوصل دون الوقف. وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين.

قال العثيمين: قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ثم أخذت الذين كفروا} بتكذيبهم] الباء للسببية في كلام المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن بماذا أخذهم؟

بالعقاب، فقوم نوح أغرقهم، وقوم هود أتلفهم بالريح، وقوم صالح بالرجفة والصيحة، وقوم لوط جعل عالي قراهم سافلها، فكل المكذبين أخذهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: {فكيف كان نكير}.

قول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فكيف كان نكير} إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك؛ أي: هو واقع موقعه] يعني: أن الإستفهام هنا للتقرير؛ يعني: فكان نكيري؛ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة كان واقعا موقعه؛ ولهذا لو سئلت: كيف كان إنكار الله لهم؟

الجواب: أن نقول: كان شديدا، وكان واقعا موقعه، فهو مطابق للحكمة تماما، وهو عقاب شديد لم يبق منهم أحدا.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا} فِيهِ الْتِفَات عَنْ الْغِيبَة {بِهِ ثَمَرَات مُخْتَلِفًا أَلْوَانهَا} كَأَخْضَر وَأَحْمَر وَأَصْفَر وَغَيْرهَا {وَمِنْ الْجِبَال جُدُد} جَمْع جُدَّة طَرِيق فِي الْجَبَل وغيره {بيض وحمر} وَصُفْر {مُخْتَلِف أَلْوَانهَا} بِالشِّدَّةِ وَالضَّعْف {وَغَرَابِيب سُود} عَطْف عَلَى جُدُد أَيْ صُخُور شَدِيدَة السَّوَاد يُقَال كَثِيرًا أَسْوَد غِرْبِيب وَقَلِيلًا غِرْبِيب أَسْوَد[1].

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} [فاطر: ٢٧]، أي:"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فسقينا به أشجارًا في الأرض، فأخرجنا من تلك الأشجار ثمرات مختلفًا ألوانها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ألم تر يا محمد أن الله أنزل من السماء غيثًا فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها: يقول: فسقيناه أشجارًا في الأرض فأخرجنا به من تلك الأشجار ثمرات مختلفا ألوانها؛ منها الأحمر ومنها الأسود والأصفر، وغير ذلك من ألوانها".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤] ".

عن قتادة، قوله:"{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
=

=

أَلْوَانُهَا}، أحمر وأخضر وأصفر".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} [فاطر: ٢٧]، أي:"وخَلَقْنا من الجبال طرائق بيضًا وحمرًا مختلفًا ألوانها".

قال الطبري:"يقول:"ومن الجبال طرائق، وهي الجدد، وهي الخطط تكون في الجبال بيض وحمر وسود، كالطرق واحدتها جدة".

قال ابن كثير:"أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق - وهي: الجُدَد، جمع جُدّة - مختلفة الألوان أيضا".

قال ابن قتيبة:"«الجدد»: الخطوط والطرائق تكون في الجبال فبعضها بيض وبعضها حمر وبعضها".

قال الفراء:"{جُدَدٌ بِيضٌ}، الْخُطط والطرق تكون فِي الجبال كالعُروق، بيض وسُود وحمر، واحدها: جُدّة. وقال امرؤ القيس، يصف الحمار:

كأنّ سَرَاتَيه وجُدَّةُ مَتْنِهِ... كنائِن يجري فوقَهنّ دَلِيص

والجُدّة: الْخُطّة السوداء فِي متن الحمار".

قال مقاتل:"يعني بـ «الجدد»: الطرائق التي تكون في الجبال منها أبيض وأحمر ومنها".

عن قتادة، قوله:"{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ}، أي: طرائق بيض {وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا} أي: جبال حمر وبيض".

عن الضحاك، قوله:"{وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ}، طرائق بيض وحمر وسود".

قوله تعالى: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر: ٢٧]، أي:"وخلقنا من الجبال جبالا شديدة السواد".

قال الطبري:"العرب تقول: هو أسود غربيب، إذا وصفوه بشدة السواد".

=

=

قال مقاتل:"يعني: الطوال السود".

قال ابن قتيبة:"«غرابيب»: جمع: غربيب، وهو: الشديد السواد. يقال: أسود غربيب".

قال الواحدي:"وهو الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب، يقال: أسود غربيب وغرابي".

قال عكرمة: الغرابيب: الجبال الطوال السود".

عن ابي مالك، قوله:"{وَغَرَابِيبُ سُودٌ}، قال: جبال سود".

عن ابن عباس، قوله: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ}، قال:"الشديد السواد".

عن قتادة، قوله:"{وَغَرَابِيبُ سُودٌ}، هو الأسود، يعني: لونه".

قال العثيمين: الإستفهام هنا للتقرير، وهذا هو الغالب فيما إذا أتى حرف النفي، أو إذا أتت أداة النفي بعد همزة الإستفهام؛ أن يكون للتقرير كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك (١)} [الشرح: ١]، وقوله تعالى: {أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى} [القيامة: ٤٠]، وقوله تعالى: {أليس الله بكاف عبده} [الزمر: ٣٦]، وأمثال ذلك، فإذا أتت أداة النفي بعد همزة الإستفهام فالغالب أن يكون الإستفهام للتقرير.

قوله تعالى: {ألم تر} حذفت الألف للجازم؛ لأن (لم) تجزم، والفعل المعتل يجزم بحذف حرف العلة.

وقوله تعالى: {ومن الجبال جدد} مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم وهو قوله تعالى: {ومن الجبال}.

وقوله تعالى: {مختلف ألوانها}: صفة لـ {جدد}، وقوله تعالى: {سود} قيل: إنه على التقديم والتأخير؛ أي: وسود غرابيب، وقيل: إنه على الأصل، وأن {سود} تقع موقع التوكيد لما قبلها؛ لأن الغربيب هو: الشديد السواد.

=

=

قوله تعالى: {ألم تر} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تعلم]، فالرؤية هنا علمية، وعلقت عن العمل بـ (أن) وما دخلت عليه، فإن (أن) وما دخلت عليه تعلق أفعال القلوب عن العمل، ويحتمل أن تكون الرؤية هنا بصرية؛ يعني: (ألم تنظر وتبصر)؛ لأن ما ذكر يرى بالعين، وما كان يرى بالعين فإنه يجوز أن يراد به الرؤية بالعين، لكن إذا جعلناها علمية كان ذلك أعم؛ لأن هذا الأمر قد لا تراه بعينك ولكن تسمعه في بلاد أخرى غير بلادك.

وقوله تعالى: {أن الله أنزل من السماء ماء} المراد بالسماء هنا العلو، والمراد بالماء المطر، وليس المراد بالسماء الأجرام السماوية المعروفة؛ لأن الماء إنما ينزل من السحاب، والسحاب عال، ولكنه بين السماء والأرض.

وقوله تعالى: {فأخرجنا به} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيه التفات عن الغيبة] لو كان الكلام على نسق واحد لقال: (فأخرج به) بضمير الغيبة، لكنه صار فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم.

والإلتفات فيه فوائد:

الأولى: فائدة مشتركة في جميع موارده ومواضعه، وهي: تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد استمر الإنسان معه ولم يكن هناك شيء يوجب أن ينتبه ويتفطن، فإذا اختلف السياق من غيبة إلى تكلم، أو إلى خطاب، أو ما أشبه ذلك، فإن الإنسان ينتبه؛ يعني: كأنه يكون علما على تغير الأسلوب لينتبه المخاطب.

الفائدة الثانية هنا: قوله تعالى: {فأخرجنا به} فإن (نا) هذه تفيد التعظيم؛ لأن الإخراج أعظم من الإنزال بالنسبة للنعمة علينا، فإنه لو نزل المطر ولم يخرج النبات لم نستفد من المطر كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: "ليست السنة بألا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا ولا تنبت الأرض

=

=

شيئا"، فلما كان إنعام الله تعالى بإخراج النبات أعظم صار الإلتفات إلى التكلم أولى لعظم المنة فيه.

قوله تعالى: {فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها} فهنا قال: {فأخرجنا به ثمرات} ولم يقل: (أخرجنا به نباتا)، وقد قاله في آية أخرى: {فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا} [الأنعام: ٩٩] لكن هنا قال: {ثمرات} لأن المقصود من هذا الخارج هو الثمرة، فبين الله سبحانه وتعالى الغاية المقصودة وهي الثمرات.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{مختلفا ألوانها} كأخضر وأحمر وأصفر وغيرها] وهذا يدل على قدرة الله، فهذه الثمرات مختلف ألوانها، وكلمة (ألوان) يحتمل أن يكون المراد ما ذكره المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو اللون المختلف بالحمرة، والصفرة، والخضرة، وما أشبه ذلك، ويحتمل أن المراد بالألوان الأصناف، فإن الألوان تطلق على الأصناف كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صلاة الليل في قيام رمضان قال: "روي في ذلك ألوان" أي: أنواع وأصناف، وإذا نظرت إلى الخارج من الأرض وجدت أنه ذو ألوان في شكله، وذو ألوان في أنواعه وأصنافه، ما بين حلو ومر ومتوسط وحامض وغير ذلك مما هو معلوم.

وهذا الأخير إذا قلنا: إن المراد بالألوان ما يعم الأنواع؛ أشمل مما لو قلنا: إن المراد بالألوان اختلاف الشكل، وقد تقدمت قاعدة: بأنه كلما كان المعنى أشمل في باب التفسير كان أولى؛ لأن الأشمل يعم الأخص وغيره، بخلاف الأخص.

قوله تعالى: {ومن الجبال جدد} هذه جملة استئنافية يبين الله ﷻ فيها كمال قدرته أيضا بالنسبة للأرض وطبقاتها.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{ومن الجبال جدد} جمع جدة: طريق في الجبل وغيره] من الجبال جدد؛ يعني: شيء يشبه الطرق لاختلافه عن بقية الجبل، وهو مختلف في

=

=

اللون، ومختلف في الماهية أيضا.

نحن نرى بعض الجبال الآن ولا سيما إذا فتح الجبل نرى في أثنائه خطوطا قد تكون سوداء، وقد تكون حمراء، وقد تكون بنية، وقد تكون بيضاء، المهم أننا نجد فيه خطوطا تخالف بقية الجبل، هذه الجدد التي ذكرها الله ﷻ هنا، فالجبال تختلف ألوانها أيضا، وهذا الإختلاف في اللون؛ يعني: الإختلاف في الماهية والحقيقة، ليست الحصاة السوداء كالحصاة البيضاء أو الحمراء أو ما أشبهها مما يخالفها في اللون، بل لا بد أن يكون هناك اختلاف في طبيعة هذه الحصاة كما كان اختلاف الثمرات في ألوانها يدل على اختلافها في طعومها وفي ماهيتها.

قوله تعالى: {ومن الجبال جدد بيض وحمر} ذكر الله ﷻ {بيض وحمر} وكان المتوقع أن يقول: (بيض وسود)؛ لأن هذا هو المعروف في مقابلة البياض؛ أن يقابل بالسواد، لكنه قال: {وحمر} لأن الحمر أقرب إلى البياض من السود، وستذكر في قوله تعالى: {وغرابيب سود}.

هذه الجدد بيض وحمر، قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وصفر] ونحن ربما نقول أيضا: (وزرق) وغير ذلك من الألوان، والله ﷻ لم يذكر هذين اللونين للحصر، وإنما هو على سبيل التمثيل.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{مختلفا ألوانها} بالشدة والضعف] هنا فسر المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الألوان بالماهية وليس بالأشكال؛ لأنه قال: [بالشدة والضعف] ولم يقل: [باللون الأحمر أو الأبيض].

على كل حال: (الألوان) كما سبق تطلق على الأنواع أحيانا.

وهذا الإختلاف في ألوان أحجار الجبال كالإختلاف في ألوان الثمار.

قوله تعالى: {وغرابيب سود} [عطف على جدد؛ أي: صخور شديدة السواد، يقال كثيرا: أسود غربيب، ويقال قليلا: غربيب أسود]، فالغرابيب جمع غربيب،

=

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨).

{وَمِنْ النَّاس وَالدَّوَابّ وَالْأَنْعَام مُخْتَلِف أَلْوَانه كَذَلِكَ} كَاخْتِلَافِ الثِّمَار وَالْجِبَال {إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَاده الْعُلَمَاء} بِخِلَافِ الْجُهَّال كَكُفَّارِ مَكَّة {إِنَّ الله عَزِيز} فِي مُلْكه {غَفُور} لِذُنُوبِ عِبَاده المؤمنين[1].

=

والغربيب: شديد السواد.

وكان مقتضى التركيب أن يقال: (وسود غرابيب)، ولكن الله تعالى قدم فقال (وغرابيب سود) فعلى هذا زعم بعضهم أن في الكلام تقديما وتأخيرا، وقال بعضهم: بل هو على ترتيبه، ليس فيه تقديم وتأخير، ولكن الله سبحانه وتعالى بين الأسود الشديد السواد قبل بيان مطلق السواد، هذا أيضا مشاهد؛ نجد في الجبال طرقا يعني كالطريق أو كالخط أسود خالصا، وإلى جانبه طريق أبيض، أو أحمر، أو ما أشبه ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله ﷻ.

فنجد نحن أن هذا الإختلاف في الجبال هو كالإختلاف في الثمرات.

(١) قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ} [فاطر: ٢٨].

قال ابن كثير: "كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب - وهو: كل ما دب على قوائم - والأنعام، من باب عطف الخاص على العام. كذلك هي مختلفة أيضا، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: {وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} [الروم: ٢٢]. وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل

=

=

النوع الواحد منهن مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين".

قال الفراء:"قوله: {كَذلِكَ} من صلة: «الثمرات». واختلاف ألوانها، أي: من الناس وغيرهم كالأول".

قال الطبري: {كَذلِكَ}، أي:"كما من الثمرات والجبال مختلف ألوانه بالحمرة والبياض والسواد والصفرة، وغير ذلك".

قال يحيى:"أي: كما اختلفت ألوان ما ذكر من الثمار والجبال".

قال أبو مالك:"كذلك اختلاف الناس والدواب والأنعام كاختلاف الجبال".

قال قتادة:"كما اختلف ألوان هذه اختلف ألوان الناس والدواب والأنعام كذلك".

قال الضحاك:"وكذلك الناس مختلف ألوانهم".

عن ابن عباس قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أيصبغ ربك؟ قال: "نعم صبغا لا يُنفَض، أحمر وأصفر وأبيض» ".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، أي:"إنما يخشى اللهَ ويتقي عقابه بطاعته واجتناب معصيته العلماءُ به سبحانه، وبصفاته، وبشرعه، وقدرته على كل شيء".

قال يحيى بن سلام:"ثم استأنف فقال: {إنما يخشى الله من عباده العلماء}، وهم المؤمنون".

قال الطبري: يقول:"إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء، بقدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته؛ فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه".

قال مقاتل:"فيها تقديم، يقول: أشد الناس لله- ﷻ- خيفة أعلمهم بالله-

=

=

تعالى".

عن ابن عباس، قوله: " {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير".

قال ابن كثير: "أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر".

قال الشوكاني: أي: " إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته، وهم العلماء به وتعظيم قدرته".

قال أبو مالك:"ثم قال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، فلا فضل لما قبلها".

عن صالح أبي الخليل، قوله: " {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عَبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} قال: أعلمهم بالله أشدهم له خشية".

قال قتادة:"كان يقال: كفى بالرهبة علمًا".

عن عبد الله بن مسعود قال: "ليس العلم رواية الحديث ولكن العلم الخشية".

قال يحيى: نراه أنه، يعني: أنه من خشي الله فهو عالم".

قال مالك بن أنس: "إن العلم ليس بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذفه الله في القلب".

قال الحسن: "الإيمان: من خشي الله بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما أسخط، ثم تلا: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ".

قال ابن عباس: "العالم بالرحمن مَنْ لم يشرك به شيئا، وأحل حلاله، وحرم

=

=

حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله".

عن أبي حيان التيمي، عن رجل قال: "كان يقال: العلماء ثلاثة عالم بالله، وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود: لا الفرائض والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر: ٢٨]، أي:"إن الله عزيز قويٌّ لا يغالَب، غفور يثيب أهل الطاعة، ويعفو عنهم".

قال الطبري: يقول:"إن الله عزيز في انتقامه ممن كفر به غفور لذنوب من آمن به وأطاعه".

عن أبي العالية: {والله عزيز}، يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم".

عن ابن إسحاق: {والله غفور}، " أي: يغفر الذنوب".

قال العثيمين: جملة {ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه} جملة خبرية قدم فيها الخبر على المبتدأ، و {ألوانه}: فاعل {مختلف} لأن {مختلف} هو اسم فاعل، واسم الفاعل يعمل عمل فعله.

وقوله تعالى: {كذلك} صفة لقوله تعالى: {مختلف} يعني: مختلف كاختلاف ما ذكر.

قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} هي جملة أيضا مكونة من فعل وفاعل ومفعول به، وفيها حصر، وطريقه: {إنما} وجملة: {إن الله عزيز غفور} كالتعليل لما قبلها، كما سيأتي إن شاء الله.

قوله تعالى: {ومن الناس والدواب والأنعام} الناس هم البشر، وأصلها (أناس) ولكن حذفت الهمزة تخفيفا لكثرة الإستعمال كما حذفت من (شر) و (خير)، =

=

وأصلهما: (أشر) و (أخير)، وحذفت أيضا من (الله) على قول كثير من علماء اللغة، وأصلها: (الإله) والمراد بالناس: بنو آدم، وسموا بذلك؛ لأنهم يأنس بعضهم إلى بعض.

قوله تعالى: {والدواب} جمع دابة، وتطلق على عدة معان، تطلق على كل ما دب على الأرض كما في قوله تعالى: {والله خلق كل دابة من ماء} [النور: ٤٥]، وكما في قوله تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم} [هود: ٦] يشمل كل ما دب على الأرض من إنسان وحيوان وحشرات، وغير ذلك.

وتطلق الدابة على ما يدب على بطنه؛ مثل: الحيات، وتطلق الدابة على ذوات الأربع كالحمار، فما المراد بها في هذه الآية؟

نقول: المراد بها ما عدا الناس والأنعام، فتشمل كل ما دب على الأرض إلا الناس والأنعام.

فإن قلت: لماذا لا تجعلها شاملة وتجعل هذا من باب عطف العام على الخاص بالنسبة للناس، ومن باب عطف الخاص على العام بالنسبة للأنعام؟

يعني: لو قال قائل: المراد بالدواب: كل ما دب على الأرض، لكنها عطفت على الناس من باب عطف العام على الخاص، وعطفت الأنعام عليها من باب عطف الخاص على العام؟

قلنا: هذا ممكن، لكن التقسيم يبعده، فيكون المراد بالدواب ما عدا الناس والأنعام، والمراد بالأنعام ما ينتفع الناس به؛ كما قال الله تعالى: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون} [الزخرف: ١٢]، وقال تعالى: {أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون} [يس: ٧١ - ٧٣].

=

=

فيكون المراد بالأنعام هنا ما ينتفع الناس به كالإبل، والغنم، والبقر، والطيور الحلال، وغير ذلك.

قوله تعالى: {مختلف ألوانها} هل المراد باللون الشكل أو الصنف أيضا؟

الجواب: يشمل؛ فالناس مثلا تختلف ألوانهم؛ هذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أحمر، وهذا بين ذلك، واختلاف اللون ظاهر، وقد تختلف أجناسهم أيضا؛ هذا ذكر وهذه أنثى، هذا عالم وهذا جاهل، هذا أحمق وهذا حليم، وعلى هذا فقس.

الدواب كذلك تختلف ألوانها بالشكل، وتختلف أصنافها وأنواعها، منها المؤذي، ومنها الضار، ومنها النافع، ومنها ما ليس بضار ولا نافع ولا مؤذ، فهي أربعة أصناف.

مثال النافع: الأنعام، ومثال الضار: الحيات والعقارب والسباع وما أشبهها، ومثال المؤذي: الصراصير، والخنفساء، والجعلان، وما أشبه ذلك، ومثال ما ليس بمؤذ ولا ضار: النمل، وغيره أيضا من الدواب الكثيرة التي نراها؛ نرى مثلا طيورا تطير في الجو ليست حلالا مثلا ولكنها لا تضر.

وقوله تعالى: {كذلك} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كاختلاف الثمار والجبال] فصار الإختلاف في مخلوقات الله تعالى شاملا للحيوان ولما ينتفع به الحيوان من الثمار وغيرها ولطبقات الأرض كالجبال.

قوله تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} لما ذكر هذه الأصناف وفيها ما يدل على كمال الله عَزَّوَجَلَّ في صفاته التي تتضمنها هذه الأصناف المذكورة بين أن العالم بذلك هو الذي يخشى الله، فقال: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} يعني: لا يخشى الله إلا العلماء.

والخشية هي أعلى الخوف، أو إن شئت فقل: هي الخوف المبني على العلم، وبعضهم قال: هي الخوف المبني على عظم المخوف، ولا يمتنع أن تكون

=

=

الخشية هي الخوف بكل الأنواع الثلاثة؛ يعني: هي أعلى أنواع الخوف، أو الخوف المبني على العلم، أو الخوف المبني على عظم المخوف.

أما الخوف المجرد عن الخشية فقد يكون عن جهل، يخاف الإنسان من شيء؛ لأنه جاهل به وإلا فليس أهلا لأن يخاف منه.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنما يخشى الله من عباده العلماء} بخلاف الجهال ككفار مكة]، وصدق المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: [بخلاف الجهال] وأما التمثيل بكفار مكة فليس على سبيل الحصر، بل هو على سبيل المثال، فكل كافر فهو في الحقيقة جاهل.

وهل هذه الجهالة جهالة علم أو جهالة تصرف؟

الجواب: هي جهالة تصرف في الغالب، وإلا فإن الكافر يكون عنده علم؛ لكنه - والعياذ بالله - يستمر على طغيانه ولا يؤمن.

قوله تعالى: {إن الله عزيز غفور}.

{عزيز} أي: ذو عزة، قال العلماء رحمهم الله: والعزة ثلاثة أنواع؛ عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الإمتناع.

فأما عزة القدر فمعناها أن الله تعالى ذو قدر عزيز، والقدر معناه المكانة والشرف والسؤدد ونحو ذلك.

عزة القهر؛ أي أن الله تعالى غالب غير مغلوب، ومنه قوله تعالى: {فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب} [ص: ٢٣] أي: غلبني.

وعزة الإمتناع؛ أي إن الله تعالى يمتنع عليه النقص في ذاته، أو في صفاته، ومنه قولهم: (أرض عزاز)؛ أي: شديدة صلبة، لا يتجاوزها شيء لصلابتها، ولا يؤثر فيها شيء، لقوتها وشدتها.

فالعزة إذن لها ثلاثة معان عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الإمتناع.

=

=

قوله تعالى: {غفور} أي: ذو مغفرة كما قال تعالى: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} [الرعد: ٦]، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، يدل لذلك اشتقاقها؛ فإنها مشتقة من المغفر وهو ما يغطى به الرأس وتتقى به السهام، وفي المغفر ستر ووقاية، وعلى هذا فنقول: (الغفور) ذو المغفرة، وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه.

ويدل لهذا المعنى - زيادة على دلالة الإشتقاق - ما ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم"؛ يعني: أتجاوز عنها، وفي الدنيا سترها الله على العبد.

ومناسبة ذكر العزة والمغفرة هنا بعد ذكر الخشية: الإشارة إلى أن الله ﷻ أهل لأن يخشى؛ لأنه عزيز؛ وأنه إذا نقص شيء من الخشية فإنه يقابل بالمغفرة، فهو عزيز فلذلك كان أهلا للخشية، وهو غفور إذا نقص شيء مما يجب له من خشيته ﷻ.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إن الله عزيز} في ملكه {غفور} لذنوب عباده المؤمنين].

هذا مبني على أن العزة بمعنى الغلبة كما يفسرها كثير من المفسرين بذلك، فيقول: العزيز؛ أي: الغالب، ولكن هذا التفسير الذي ذكرناه ما نطلقه في ملكه، تقول: (هو عزيز) ولا نقيده في الملك؛ لأن الله تعالى عزيز في ملكه، وعزيز في صفاته كلها، وعزيز في شرعه، فالعزة عامة، ما دمنا نقول: إنها عزة الإمتناع والقدر والقهر.

وأما [{غفور} لذنوب عباده المؤمنين] فتقييدها بذلك أيضا فيه نظر، ولو قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (غفور لمن تاب إليه) أو (لمن استغفره) لكان أشمل؛ لأن الله

=

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩).

{إن الذين يتلون} يقرؤون {كِتَاب الله وَأَقَامُوا الصَّلَاة} أَدَامُوهَا {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَة} زَكَاة وَغَيْرهَا {يَرْجُونَ تِجَارَة لَنْ تَبُور} تُهْلِك(١).

=

تعالى يغفر حتى لغير المؤمنين لو تابوا إلى الله، قال تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف} [الأنفال: ٣٨]، وقال تعالى: {قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} [الزمر: ٥٣] فالتعميم أولى من التخصيص.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٢)، و"لباب النقول" (ص ١٨١) وقال: "أخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في "تفسيره" عن ابن عباس". وسنده ضعيف جدًا؛ لوهاء تفسير الثقفي هذا، وقد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة، وانظر غير مأمور: "العجاب" (١/ ٢٢٠).

* قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ} [فاطر: ٢٩]، أي:"إن الذين يقرؤون القرآن، ويعملون به".

قال الطبري: يقول:"إن الذين يقرءون كتاب الله الذي أنزله على محمد ﷺ".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه".

قوله تعالى: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [فاطر: ٢٩]، أي:"وداوموا على الصلاة في

=

=

أوقاتها".

قال الطبري:"يقول: وأدوا الصلاة المفروضة لمواقيتها بحدودها، وقال: وأقاموا الصلاة بمعنى: ويقيموا الصلاة".

قال يحيى: أي: " المفروضة".

عن الزهري: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}، قال: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

قوله تعالى: {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [فاطر: ٢٩]، أي:"وأنفقوا مما رزقناهم من أنواع النفقات الواجبة والمستحبة سرًّا وجهرًا".

قال الطبري:"يقول: وتصدقوا بما أعطيناهم من الأموال سرًّا في خفاء وعلانية جهارًا، وإنما معنى ذلك أنهم يؤدون الزكاة المفروضة، ويتطوعون أيضًا بالصدقة منه بعد أداء الفرض الواجب عليهم فيه".

قال ابن كثير: أي:"الإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلا ونهارا، سرا وعلانية".

قال يحيى:"السر التطوع، والعلانية الزكاة المفروضة، يستحب أن تعطى الزكاة المفروضة علانية والتطوع سرا، ويقال: صدقة السر تطوعا أفضل من صدقة العلانية".

عن سعيد بن جبير، في قوله: " {وأنفقوا ممّا رزقناهم} يعني: مِن الأموال {سرًا وعلانيةً} يعني: في حقِّ الله وطاعته".

قال ابن مسعود: "إن فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على العلانية".

قوله تعالى: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]، أي:"هؤلاء يرجون بذلك تجارة لن تكسد ولن تهلك، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه".

=

قال الطبري: يقول: " يرجون بفعلهم ذلك تجارة لن تكسد ولن تهلك، من قولهم: بارت السوق إذا كسدت وبار الطعام".
قال ابن كثير:"أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله".
قال يحيى:"{لَنْ تَبُورَ} : لن تفسد، وهي تجارة الجنة، يعملون للجنة".
عن السدي:"{لَنْ تَبُورَ} ، قال: لن تهلك".
قال قتادة:"الجنة، لن تبور لا تبيد".
عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «تعلموا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: " تعلموا سورة البقرة، وآل عمران؛ فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان، أو ترتيلا» ".
قال العثيمين: الإعراب في هذه الآية واضح ليس فيه إشكال، إلا أن قوله تعالى: {إن الذين يتلون} تحتاج إلى خبر، فما هو الخبر؟ الخبر هو جملة {يرجون تجارة لن تبور} هذا هو الصحيح من أقوال المعربين؛ يعني: أن هؤلاء فعلوا ذلك يرجون تجارة لن تبور، فجملة {يرجون} هي خبر {إن}.
قال تعالى: {إن الذين يتلون كتاب الله} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يقرؤون] والصواب

=

أن التلاوة أعم من القراءة، فالتلاوة نوعان: تلاوة لفظية وهي القراءة، وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن تصديقا للخبر وامتثالا للأمر؛ ولهذا يقال: (تلاه بمعنى تبعه)؛ أي: جاء بعده، فالتلاوة أعم من القراءة، والتلاوة العملية تستلزم فهم المعنى؛ لأنه لا يمكن أن يعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة رضي الله عنهم تطبيقا لهذه الآية تماما؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: "فتعلمنا القرآن والعلم والعمل".

قوله تعالى: {يتلون} فعل مضارع يدل على الإستمرار، بخلاف ما لو قال: (إن الذين تلوا) بالماضي، فإنه لا يفيد المعنى الذي يفيده المضارع {يتلون}.

وقوله تعالى: {كتاب الله} هل هو القرآن أو هو أعم من ذلك؟

الجواب: هو أعم من ذلك، كتاب الله: الكتب التي أنزلها الله تعالى على الرسل، فيشمل جميع الكتب؛ لأن هذا الحكم يشمل المؤمنين من هذه الأمة والمؤمنين مما سبقهم، فيكون المراد هنا: {كتاب الله} كل كتاب أنزله الله تعالى على رسله.

قوله تعالى: {وأقاموا الصلاة} معطوفة على {يتلون} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أداموها] والصواب خلاف ما قاله المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعني: معناه أننا نختار كلمة أشد مطابقة للفظ؛ فـ {وأقاموا الصلاة} أي: أتوا بها مستقيمة؛ فيشمل فعل الصلاة تامة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومستحباتها، ويشمل الإدامة، أيضا؛ لأن الإدامة من الإقامة، وعلى هذا نقول: {وأقاموا الصلاة} أي: فعلوها قائمة؛ أي: مستقيمة على الوجه المطلوب منهم.

لو أن الإنسان أدام الصلاة لكن يخل بأركانها أو واجباتها، فهل يقال: إنه أقام الصلاة؟ الجواب: لا، فالرجل الذي جاء يصلي ولا يطمئن كان يصلي هذه الصلاة منذ أسلم، والرسول عليه الصلاة والسلام قال له: "صل؛ فإنك لم تصل" مع أنه يديم الصلاة ويصلي لكنه لم يصل؛ حيث إنه لم يأت بها قائمة على الوجه

=

=

المطلوب، فالصواب أن الإقامة هنا بمعنى أن يفعلها على الوجه المطلوب منه.

والصلاة معروفة للجميع لا تحتاج إلى تعريف؛ لأنها عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

قوله تعالى: {وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية}.

{وأنفقوا} بمعنى بذلوا وأخرجوا، {مما رزقناهم} مما أعطيناهم؛ لأن الرزق بمعنى العطاء.

وقوله تعالى: {مما رزقناهم} هل (من) لبيان الجنس أو هي للتبعيض؟ الأولى أن نجعلها لبيان الجنس؛ لتشمل ما لو أنفقوا جميع أموالهم على الوجه الذي يرضاه الله ورسوله، فإنهم يدخلون في هذا الوصف.

قوله تعالى: {سرا وعلانية}: {سرا} مصدر، ولكنها في موضع الحال؛ أي: مسرين ومعلنين، فالإسرار أن يخفوا الإنفاق، فلا يعلم به إلا المنفق عليه، والإعلان أن يظهروه للناس إما إظهارا كاملا شاملا، وإما أن يكون إظهارا نسبيا يعلم به من حوله، وكل ذلك يمدحون عليه، وسيأتي - إن شاء الله - في ذكر الفوائد أن هذا يكون بحسب الحال.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية} زكاة وغيرها] غير الزكاة: كالإنفاق الواجب على الأقارب وكصدقات التطوع، فالإنفاق هنا شامل.

قوله تعالى: {يرجون تجارة لن تبور}.

{يرجون} يعني: يؤملون ويطلبون من هذه التجارة {تجارة لن تبور} أي: لن تهلك، كما قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وما هذه التجارة؟

التجارة ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله

=

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠).

{لِيُوفِيَهُمْ أُجُورهمْ} ثَوَاب أَعْمَالهمْ الْمَذْكُورَة {وَيَزِيدهُمْ مِنْ فَضْله إِنَّهُ غَفُور} لِذُنُوبِهِمْ {شَكُور} لِطَاعَتِهِمْ[1].

=

بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم} [الصف: ١٠ - ١٢] فهنا عوض ومعوض، العوض: الإيمان بالله والجهاد في سبيله، المعوض: {يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة} [الصف: ١٢] هذه التجارة لا شك أنها أربح التجارات، وأنها أبقى التجارات.

أربح التجارات؛ لأن الربح فيها العشر مئة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وأبقى كذلك؛ فهي أبقى التجارات بلا شك؛ لأنها في جنات عدن؛ أي: في جنات إقامة لا ظعن فيها.

(١) قوله تعالى: {لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ} [فاطر: ٣٠]، أي:"ليوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص".

قال الطبري:"يقول: ويوفيهم الله على فعلهم ذلك ثواب أعمالهم التى عملوها في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه".

قال يحيى:"ثوابهم في الجنة".

قوله تعالى: {وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [فاطر: ٣٠]، أي:"ويضاعف لهم الحسنات من فضله".

قال الطبري:"يقول: وكي يزيدهم على الوفاء من فضله ما هو له أهل".

قال يحيى:"يضاعف لهم الثواب".

=

=

قال ابن كثير: أي: "ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم".

قال الحسن: "تضاعف لهم الحسنات، يثابون عليها في الجنة".

قوله تعالى: {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٣٠]، أي:"إن الله غفور لسيئاتهم، شكور لحسناتهم، يثيبهم عليها الجزيل من الثواب".

قال الطبري:"يقول: إن الله غفور لذنوب هؤلاء القوم الذين هذه صفتهم شكور لحسناتهم".

قال ابن كثير:" {إِنَّهُ غَفُورٌ} أي: لذنوبهم، {شَكُورٌ} للقليل من أعمالهم".

قال قتادة:"إنه غفور لذنوبهم، شكور لحسناتهم".

قال قتادة: "كان مطرف إذا مر بهذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ}، يقول: هذه آية القراء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ليوفيهم أجورهم} أي: يعطيهم أجورهم وافية كاملة، وضمير الفاعل يعود على (الله)؛ لقوله تعالى: {إن الذين يتلون كتاب الله} [فاطر: ٢٩]، وقوله تعالى: {ليوفيهم} هذه اللام للعاقبة، وقيل: للتعليل.

فعلى القول بأنها للعاقبة تكون متعلقة بـ {يرجون} فـ {يرجون تجارة لن تبور} عاقبتهم أن يوفيهم الله أجورهم.

وعلى أنها للتعليل متعلقة بـ {يتلون} و {وأقاموا} و {وأنفقوا} يعني: يتلونها ليوفيهم أجورهم، أقاموا الصلاة ليوفيهم أجورهم، أنفقوا مما رزقناهم ليوفيهم أجورهم؛ يعني: قصدوا ما رتب الله على هذه الأعمال من الأجور.

وهذا الفعل ينصب مفعولين: أحدهما هنا: الهاء، والثاني: (أجور)، وهو من أخوات (كسا)، و (أعطى)؛ لأنه نصب ما لا يصح أن يكون مبتدأ وخبرا، وكل فعل ينصب مفعولين لا يصح أن يكون أحدهما خبرا عن الآخر فهو من باب (كسا).

=

=

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ليوفيهم أجورهم} أي: ثواب أعمالهم المذكورة] وهذه التوفية هذه معروفة لنا جميعا، وهي أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فمثلا الصلاة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومع الجماعة تكون سبعا وعشرين حسنة، كل حسنة بعشر أمثالها.

قوله تعالى: {ويزيدهم من فضله} معطوفة على {يوفيهم}؛ يعني: يزيدهم عطاء وأجرا من فضله، وهذا مثل قوله تعالى: {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء} [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى: {ويزيدهم من فضله} يشمل الفضل في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فإن الإنسان إذا عمل العمل الصالح مخلصا لله به حبب الله إليه العمل حتى يزيد في العمل، وهذا شيء مشاهد، كذلك إذا أعطى وأنفق زاده الله من فضله، قال الله تعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه} [سبأ: ٣٩]؛ أي: يأتي بخلفه.

فالزيادة إذن: تشمل زيادة الأجور، وزيادة الأعمال، وزيادة المال المنفق منه؛ فزيادة الأعمال؛ لأنه الإنسان كلما عمل صالحا حبب الله إليه العمل وزاده فيه، وزيادة المال، كما قال تعالى: {وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} [سبأ: ٣٩]، وقوله تعالى: {وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون} [الروم: ٣٩].

وقوله تعالى: {ويزيدهم من فضله} أي: عطائه الذي يتفضل به عليهم.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إنه غفور} لذنوبهم {شكور} لطاعتهم].

هذا تعليل لما سبق من توفية الأجور والزيادة من الفضل؛ يعني أن الله عَزَّ وَجَلَّ لكونه غفورا رحيما صار يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، وفي هذا: إشارة إلى

=

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١).

{والذي أوحينا إليك من الكتاب} الْقُرْآن {هُوَ الْحَقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيْهِ} تَقَدَّمَهُ مِنْ الْكُتُب {إنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِير بَصِير} عَالِم بِالْبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِر(١).

=

مغفرة الله سبحانه وتعالى للعامل وإلى شكره إياه.

الـ {غفور} صيغة مبالغة أو صفة مشبهة، مأخوذة من الغفر، وهو الستر مع الوقاية؛ لأن أصل هذه المادة المغفر، والمغفر يحصل به الستر والوقاية، إذن ما معنى أن الله غفور؟

معناه: أن الله يستر الذنوب ويتجاوز عن العقوبة، وما أكثر ما نذنب فيما بيننا وبين ربنا ومع ذلك يسترها الله ﷻ، وإذا كان يوم القيامة عفا عن عقوبتها، وبذلك تتحقق المغفرة.

أما الـ {شكور} فنقول في تصريفه كما قلنا في غفور: إنه إما صيغة مبالغة، وإما صفة مشبهة، فهو سبحانه وتعالى شكور؛ أي: يشكر من عمل العمل الصالح، ومن شكره إياه أنه يضاعف له الأجر؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وانظر إلى كمال الله ﷻ عليك في صفته أنه هو الذي يمن عليك بالعمل، ثم يشكرك عليه {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن: ٦٠] سبحان الله العظيم! ربنا يحسن إلينا ثم يقول: (ما جزاء إحسانكم إلا أن أحسن إليكم) وهو الذي تفضل به أولا، وهذا يدل على سعة كرم الله، والحمد لله، وأنه ﷻ واسع الكرم.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [فاطر: ٣١].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} يا محمد

=

=

وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه هو الحق عليك وعلى أمتك أن تعمل به، وتتبع ما فيه دون غيره من الكتب التي أوحيت إلى غيرك، يصدق ما مضى بين يديه فصار أمامه من الكتب التي أنزلتها إلى من قبلك من الرسل".

عن قتادة، قوله: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، قال:"للكتب التي خلت قبله".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} [فاطر: ٣١]، أي:"إن الله لخبير بشؤون عباده، بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها".

قال الطبري:"إن الله بعباده لذو علم وخبرة بما يعملون بصير بما يصلحهم من التدبير".

عن قتادة: " {خبيرا}، قال: خبير بخلقه".

قال العثيمين: جملة: {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق} جاءت بالصيغة الإسمية المحصورة، وطريق حصرها أمران:

الأمر الأول: تعريف ركنيها وهما المبتدأ والخبر، فـ {والذي} مبتدأ، و {الحق} خبر، وقد قال أهل البلاغة: إن تعريف الركنين من الجملة الإسمية يفيد الحصر.

الأمر الثاني: من طرق الحصر هو ضمير الفصل وهو قوله تعالى: {هو الحق} وضمير الفصل من فوائده: الحصر، وله فائدة ثانية: التوكيد، وله فائدة ثالثة: الفصل بين الخبر والصفة.

قوله تعالى: {والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق} الوحي: إعلام الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بشريعة من شرائعه، هذا هو الوحي شرعا، أما في اللغة فقالوا: إن الوحي هو الإعلام بسرعة وخفاء؛ يعني: مثل الإشارة، والهمس، وما أشبههما، تسمى وحيا.

أما السنة فإنها نوعان: منها وحي، ومنها ما ليس بوحي، أحيانا يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن شيء ولا يجيب، فينزل عليه الوحي فيجيب بحديث نبوي؛

=

=

مثل قصة يعلى بن أمية الذي كان أحرم بالعمرة وهو متضمخ بالخلوق، فسأل النبي ﷺ عن ذلك، ولكنه لم يجبه حتى جاءه الوحي، وأحيانا يسأل عن الشيء ثم ينزل به الوحي على أنه كلام الله (قرآن) فيبلغه النبي ﷺ.

قوله تعالى: {والذي أوحينا إليك من الكتاب} المراد به هنا القرآن قطعا؛ بدليل قوله تعالى: {من الكتاب} لأن {من} بيانية، تبين الإبهام في اسم الموصول {والذي} لأن اسم الموصول فيه إبهام، فإذا جاءت من بعد اسم الموصول فهي تبيينية.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{والذي أوحينا إليك من الكتاب} القرآن] وهو كتاب بمعنى مكتوب؛ لأن صيغة (فعال) تأتي كثيرا بمعنى مفعول، وأمثلتها: (غراس، بناء، فراش) بمعنى: مغروس، ومبني، ومفروش، فالكتاب بمعنى مكتوب، مكتوب في أي شيء؟ مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما قال تعالى: {كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة} [عبس: ١١ - ١٦]، مكتوب في المصاحف التي بأيدينا.

إذن: هو مكتوب على ثلاثة أوجه: اللوح المحفوظ، الصحف التي بأيدي الملائكة، الصحف التي بأيدينا.

قوله تعالى: {هو الحق}: {هو} ضمير فصل، و {الحق} خبر {والذي} فالذي أوحى الله إلى رسوله ﷺ هو الحق، أكد الله ذلك بمؤكدين: ضمير الفصل، وتعريف ركني الجملة.

قوله تعالى: {الحق}: يعني: الشيء الثابت صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام، فأحكام القرآن كلها عدل، وأخباره كلها صدق، ليس فيها كذب بوجه من الوجوه، وليس في أحكامه جور بوجه من الوجوه؛ لأنك إذا تأملت أحكامه

=

=

وجدته قد أعطى كل ذي حق حقه؛ فلهذا كان عدلا في الأحكام، وإذا تأملت أخباره وجدتها كلها صدقا، وهذا هو الصدق في الأخبار، وقد قال الله تعالى: {وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم} [الأنعام: ١١٥].

قوله تعالى: {مصدقا لما بين يديه} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تقدمه من الكتب]؛ يعني: مصدقا لما تقدمه من الكتب؛ لأن الكتب التي سبقته تكون بين يديه، ألا ترى إلى الرجل يكون أمامك فهو قد سبقك، وتقول: (إن الرجل بين يديك)، وربما يقال لما بين اليدين للشيء المستقبل؛ لأنه أمامك أيضا كما في قوله تعالى: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم} [البقرة: ٢٥٥]؛ أي: مستقبلهم وماضيهم.

وقوله تعالى: {مصدقا لما بين يديه} كيفية التصديق للكتب السابقة من وجهين:

الوجه الأول: أنه صدقها؛ أي: أثبت أنها صادقة، فالقرآن يثبت صحة التوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب، ويبين أنها صدق.

الوجه الثاني: {مصدقا لما بين يديه} لأن الكتب السابقة أخبرت به، فنزوله يكون تصديقا لها، فهو مصدق لما بين يديه من وجهين:

الوجه الأول: أنه صدق ما سبقه؛ أي: قال: إنها كتب صادقة ثابتة وأوجب الإيمان بها.

والوجه الثاني: أنه صدق ما أخبرت به؛ أي: نزل مطابقا لما أخبرت به كما قال الله تعالى: {وإنه لفي زبر الأولين} [الشعراء: ١٩٦]، القرآن؛ زبر الأولين كتبهم؛ يعني أنه موجود في كتبهم، وأنه سوف ينزل، كما أن محمدا ﷺ كذلك قد أخذ العهد والميثاق على كل نبي أن يصدق به، قال الله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا} [آل عمران:

=

=

.[٨١

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن الله بعباده لخبير بصير} عالم بالبواطن والظواهر] هذه الجملة تعلقها بما قبلها أنها تفيد تحذيرا وإنذارا وترغيبا، فهي ترغيب وترهيب؛ لأنه لما أخبر بأن هذا القرآن هو الحق، فقد انقسم الناس في هذا الحق إلى قسمين: قسم صدق به، وقسم كفر به.

وكل هؤلاء نقول لهم: إن الله تعالى بكم خبير بصير، فالذين صدقوا به لن يضيع تصديقهم وعملهم بما جاء به؛ لأن الله خبير به وبصير به، وسوف يجازيهم عليه، والذين كذبوا به أيضا لن تخفى حالهم على الله عَزَّوَجَلَّ، فسوف يعاقبهم بما يقتضي تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم، فالجملة إذن: هي باعتبار المصدقين لهذا القرآن للبشارة وباعتبار المكذبين للإنذار والتحذير.

وقوله تعالى: {لخبير بصير}: {لخبير} اسم فاعل على صيغة مبالغة، وإن شئت فقل: إنه صفة مشبهة، وهو أحسن بالنسبة لما يتعلق بالعلم، الأحسن في هذا أن نقول: (إنه من باب الصفة المشبهة)؛ لأن الصفة المشبهة تدل على الثبوت، لكن صيغة المبالغة قد تدل على الحدوث، وحدوث الخبرة في جانب الله عَزَّوَجَلَّ مستحيل؛ لأنه لم يزل ولا يزال خبيرا.

إذن نقول: إنه يتعين أن نجعل {لخبير} صفة مشبهة؛ لأننا لو جعلناها صيغة مبالغة من (خابر) لكانت موهمة لتجدد الخبرة والعلم، وهذا شيء مستحيل في جانب الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: {بصير} كلمة {بصير} قد يراد بها العلم، وقد يراد بها الإدراك بالرؤية، وكلا الأمرين لا يناقض بعضهما بعضا وقد تقدم في قواعد التفسير أن الآية إذا احتملت معنيين لا يتناقضان فإنها تحمل عليهما؛ لأن ذلك أوسع في معناها وأبلغ، فالله عَزَّوَجَلَّ بصير بعباده من حيث النظر والرؤية، ومن حيث العلم؛ في

=

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢).

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا} أَعْطَيْنَا {الْكِتَاب} الْقُرْآن {الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادنَا} وَهُمْ أُمَّتك {فَمِنْهُمْ ظَالِم لِنَفْسِهِ} بِالتَّقْصِيرِ فِي الْعَمَل بِهِ {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِد} يَعْمَل بِهِ أَغْلَب الْأَوْقَات {وَمِنْهُمْ سَابِق بِالْخَيْرَاتِ} يَضُمّ إلَى الْعِلْم التَّعْلِيم وَالْإِرْشَاد إلَى الْعَمَل {بِإِذْنِ الله} بإرادته {ذلك} أي إيراثهم الكتاب {هو الفضل الكبير}[1].

=

جانب المعمولات المفعولات الظاهرة تكون الرؤية والعلم أيضا، وفي جانب المسموعات يكون العلم.

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [فاطر: ٣٢].

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع".

وفي قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} [فاطر: ٣٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الأنبياء، حكاه ابن عيسى.

الثاني: أنهم بنو إسرائيل لقوله ﷻ: {إِنَّ اللهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا} [آل عمران: ٣٣] الآية. قاله ابن بحر.

الثالث: أنهم أمة محمد. قاله ابن عباس، والكلبي.

قال ابن عباس:"هم أمة محمد ﷺ ورثهم الله كل كتاب أنزله؛ فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب".

قال محمد بن الحنفية:"إنها أمة مرحومة، الظالم مغفور له والمقتصد في الجنات

=

=

عند الله والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب تأويل من قال: عنى بقوله {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} الكتب التي أنزلت من قبل الفرقان، والمعنى: ثم أورثنا الإيمان بالكتاب الذين اصطفينا؛ فمنهم مؤمنون بكل كتاب أنزله الله من السماء قبل كتابهم وعاملون به؛ لأن كل كتاب أنزل من السماء قبل الفرقان، فإنه يأمر بالعمل بالفرقان عند نزوله، وباتباع من جاء به، وذلك عمل من أقر بمحمد ﷺ وبما جاء به وعمل بما دعاه إليه بما فى القرآن، وبما في غيره من الكتب التي أنزلت قبله".

قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} [فاطر: ٣٢]، أي:"فمنهم ظالم لنفسه بفعل بعض المعاصي، ومنهم المؤدي للواجبات المجتنب للمحرمات".

قال ابن كثير:": {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}: هو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات، {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}، وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات".

وفي قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ} [فاطر: ٣٢]، وجهان:

أحدهما: أن قوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}، كلام مبتدأ لا يرجع إلى المصطفين، وهذا قول من تأول المصطفين الأنبياء، فيكون من عداهم ثلاثة أصناف على ما بينهم.

الثاني: أنه راجع إلى تفصيل أحوال الذين اصطفينا، ومعنى الاصطفاء الاختيار وهذا قول من تأول المصطفين غير الأنبياء، فجعلهم ثلاثة أصناف.

وأما «الظالم لنفسه» -ها هنا-، ففيه أقوال:

أحدها: أنهم أهل الصغائر من هذه الأمة، روى عن شهر بن حوشب،:"أن عمر بن الخطاب قال: سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له".

=

=

وعن عثمان بن عفان: "أنه نزع بهذه الآية قال: إن سابقنا أهل جهاد ألا وإن مقتصدنا ناج أهل حضرنا، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا".

عن أزهر بن عبد الله الحرازي:"حدثني من سمع عثمان بن عفان تلا هذِه الآية: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} الآية، فقال: سابقنا أهل جهادنا، ومقتصدنا أهل حضرنا، وظالمنا أهل بدونا".

الثاني: أنهم أصحاب المشأمة، قاله مجاهد.

الثالث: أنهم أصحاب الكبائر من أهل التوحيد. قاله السدي، ومقاتل.

الرابع: أنه المنافق. قاله الحسن، وقتادة.

قال الحسن:"أما الظالم لنفسه فإنه هو المنافق، سقط هذا".

وفي رواية" والظالم لنفسه منافق قطع به دونهم". قال يحيى:"نراه، يعني: أن المنافق أقر به المؤمن فلم يدخل في الآية".

وروي عن الضحاك، ان قرآ:"{فمنهم ظالم لنفسه} [فاطر: ٣٢] فقال: سقط هذا". قال يحيى:"فلا أدري أيعني ما قال الحسن أنه المنافق أم، يعني به: الجاحد".

الخامس: أنه الجاحد والمنافق، قاله مجاهد أيضا.

السادس: أنهم أهل الكتاب، حكاه الماوردي عن الحسن.

السابع: أنه الكافر. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن كثير:"رُوي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير،.. وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ، من طرق يشد بعضها بعضا "".

- الحديث الأول: عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال

=

=

في هذه الآية: " {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ}، قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة» ".

قال ابن كثير:"ومعنى قوله: "بمنزلة واحدة" أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة".

- الحديث الثاني: عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ}، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته، فهم الذين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} ".

- الحديث الثالث: عن أسامة بن زيد: " {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} الآية، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلهم من هذه الأمة» ".

- الحديث الرابع: عن عَوْف بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أمتي ثلاثة أثلات: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: "لا إله إلا الله وحده". يقول الله ﷻ: صدقوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: "لا إله إلا الله وحده" واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}

=

=

[العنكبوت: ١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} فجعلهم ثلاثة أنواع، وهم أصناف كلهم، فمنهم ظالم لنفسه، فهذا الذي يكشف ويمحص".

وأما «المقتصد»، ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه المتوسط في الطاعات وهذا معنى حديث أبي الدرداء، روى عن أبي الدرداء قال: "قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: «أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم فيحبس في طول المحبس ثم يتجاوز الله عنه».

الثاني: أنهم أصحاب الميمنة، قاله مجاهد، وقتادة.

وقال الحسن:"وأما المقتصد والسابق بالخيرات فهما صاحبا الجنة".

الثالث: أنهم أصحاب الصغائر. وهو قول متأخر.

الرابع: أنهم الذين اتبعوا سنن النبي -ﷺ- من بعده، قاله الحسن.

قال الحسن:"المقتصد: رجل سأل عن أثار أصحاب محمد ﷺ فاتبعهم".

الخامس: أنه الذي عدل فى قوله. قاله مقاتل.

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ} [فاطر: ٣٢]، أي:"ومنهم مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة، فَرْضِها ونفلها، بتوفيق الله وتيسيره".

قال ابن كثير:"وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ} [فاطر: ٣٢]، أقوال:

أحدها: أنهم المقربون، قاله قتادة.

قال مجاهد:"هم السابقون من الناس كلهم".

قال قتادة:"كان الناس ثلاث منازل في الدنيا، وثلاث منازل عند الموت، وثلاث

=

منازل في الآخرة؛ أما الدنيا فكانوا: مؤمن ومنافق ومشرك، وأما عند الموت فإن الله قال {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} وأما في الآخرة فكانوا أزواجًا ثلاثة {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} ".

الثاني: أنهم المستكثرون من طاعة الله تعالى، وهو مأثور.

الثالث: أنهم أهل المنزلة العليا في الطاعات، قاله علي بن عيسى.

الرابع: أنهم الذين سبقوا إلى الأعمال الصالحة وتصديق الأنبياء. قاله مقاتل.

الخامس: أنه من مضى على عهد رسول الله -ﷺ- فشهد له بالجنة.

وقال الحسن:"السابقون: أصحاب محمد ﷺ".

روى عقبة بن صهبان قال: "سألت عائشة عن هذه الآية، فقالت: نعم يا بني، كلهم من أهل الجنة، السابق من مضى على عهد رسول الله ﷺ، فشهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق، والمقتصد من اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، والظالم لنفسه مثلي ومثلك ومن اتبعنا، فألحقت نفسها بنا من أجل الحدث الذي أصابها".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: ٣٢]، أي:"ذلك الإعطاء للكتاب واصطفاء هذه الأمة هو الفضل الكبير".

قال قتادة:"ذاك من نعمة الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: سبق هذا السابق من سبقه بالخيرات بإذن الله، هو الفضل الكبير الذي فضل به من كان مقتصرًا عن منزلته في طاعة الله من المقتصد والظالم لنفسه".

=

قال العثيمين: كلمة (أورث) هنا نصبت مفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، وعلى هذا فهي من باب (كسا وأعطى)، والمفعول الأول هو {الذين} والثاني هو {الكتاب} فليس الكتاب وارثا لـ {الذين} بل {الذين} هم الذين ورثوا الكتاب، يعني: أورثنا الذين اصطفينا من عبادنا الكتاب، ومعنى أورثناهم إياه؛ أي: جعلناهم يرثونه؛ فالذين اصطفاهم الله أورثهم الله الكتاب؛ أي: جعلهم يرثونه.
وكلمة {الكتاب} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [القرآن] وينبغي أن نجعله أعم؛ لأننا لو قلنا: (إن الكتاب هو القرآن)، وقلنا: إنه موروث عمن سبقنا لكان القرآن قد نزل على من سبقنا، وليس الأمر كذلك؛ فالمراد بالكتاب هنا الجنس، لا خصوص القرآن؛ يعني أن الكتب السابقة كل ما فيها من الخير موجود في القرآن، فنحن ورثنا عمن سبقنا كل ما أوتوه من خير، فالأصول التي تجب على كل مسلم في أي مكان وزمان موجودة في القرآن، والشرائع التي تختلف باختلاف الأمم وباختلاف الزمان والمكان هذه تختلف عمن سبق؛ قد يجب علينا ما لا يجب عليهم، وقد يحرم علينا ما لا يحرم عليه؛ قال الله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} [المائدة: ٤٨]، أما الأصول فقد ورثناها عنهم، فالأصول التي هي أم الدين قد ورثناها عمن سبقنا.
قوله تعالى: {الذين اصطفينا من عبادنا}.
{الذين اصطفينا} أي: اخترنا، وهو مأخوذ من الصفوة، وأصله (اصتفينا) لكن لعلة تصريفية قلبت التاء طاء، فقيل: (اصطفينا من عبادنا)؛ أي: اخترناهم.
وقوله تعالى: {من عبادنا} هل المراد بذلك العبودية العامة أو الخاصة؟ يعني الذين اصطفيناهم من المؤمنين، أو اصطفيناهم من جميع العباد؟
الذي يظهر أنها من العبودية العامة؛ يعني: الذين اختارهم الله تعالى من عباده الذين يخضعون له كونا، والمراد بهم هذه الأمة، بدليل قوله تعالى: {كنتم خير

=

=

أمة أخرجت للناس} [آل عمران: ١١٠] فالذين اصطفاهم الله من عباده هم هذه الأمة للآية التي سقناها وهي في آل عمران، ولدليل آخر من هذه الآية نفسها؛ لأن هذه الأمة هي آخر الأمم، إذن فلا يمكن أن يورث ما عندها من الكتاب، فهي وارثة غير موروثة، وإذا كانت وارثة غير موروثة فهي التي اصطفيت.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فمنهم ظالم لنفسه} بالتقصير في العمل به]؛ أي: بالكتاب {ومنهم مقتصد} يعمل به أغلب الأوقات {ومنهم سابق بالخيرات} يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل {بإذن الله} بإرادته].

قسم الله تعالى هذه الأمة التي أورثها الكتاب إلى ثلاثة أقسام، وبدأ بالأقل في المرتبة فالأقل، فقال تعالى: {فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات}.

فالظالم لنفسه هو الذي ترك شيئا من الواجبات أو فعل شيئا من المحرمات؛ ترك صلاة الجماعة مع وجوبها عليه، ترك بعض الزكاة لم يخرجه، ترك الحج على الفور مع وجوبه عليه على الفور، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه؛ فعل المحرمات، شرب الخمر، زنا، سرق، نظر نظرا محرما، هذا نقول: إنه ظالم لنفسه.

ومعنى الظالم في الأصل هو الناقص؛ لأن الظلم هو النقص، قال الله تعالى: {كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا} [الكهف: ٣٣]؛ يعني: لم تنقص، وكل من أساء فقد نقص فيما يجب عليه؛ ولهذا كل عمل سيئ يعتبر نقصا فيما يجب عليك؛ لأن الواجب عليك لنفسك أن ترعاها حق رعايتها، فأنت مسؤول أول ما تسأل عن نفسك، قال النبي ﷺ: "إن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا"، فبدأ بالنفس، فكما يجب عليك أن ترعى مصالح ولدك، ومالك، وأهلك، يجب عليك أن ترعى مصلحة نفسك، بل هو الواجب الأول من حقوق المخلوقين بعد حق الله ورسوله.

=

=

إذن: من فعل محرما فقد ظلم نفسه؛ لأنه نقصها حقها في الأمانة، أنت مؤتمن عليها يجب أن ترعاها حق رعايتها، ومن ترك واجبا فقد ظلم نفسه؛ لأن الواجب عليه أن يفعل الواجب ليقوم بحق الأمانة فيما يتعلق في نفسه، هذا الظالم لنفسه.

{ومنهم مقتصد} المقتصد هو الذي لم يقع منه ظلم لنفسه ولا تقدم في الخير؛ أي: قائم بالواجبات تارك للمحرمات، لكنه لا يكثر من النوافل، ولا يحرص على إكمال الواجبات على الوجه الأكمل، ولا يتجنب المكروهات، فهو مقتصد، لا نقص ولا زاد.

يصلي مع الجماعة، ويزكي بدون نقص، لكن لا يأتي بالنوافل ولا بصدقة التطوع، يؤدي فريضة الحج لكن لا يعود، يصوم رمضان لكن لا يصوم نفلا، وهكذا، يؤدي ما عليه من المعاملات بين الناس على الوجه الواجب فقط، لا يتسامح عن فقير، ولا ينزل من قيمة أو ثمن، لكنه ماش على ما يجب عليه، نقول: هذا مقتصد، هذا لا له ولا عليه؛ يعني: ليس له ثواب إلا ثواب فعل الواجب فقط.

{سابق بالخيرات} هذا يأتي بالواجبات ويزيد ما شاء الله تعالى من الخيرات، ويأتي بالواجبات أيضا على الوجه الأكمل الأتم؛ فالصلاة مثلا لا يقتصر فيها على تسبيحة واحدة بل يزيد، لا يقتصر على الفاتحة بل يزيد، لا يقتصر على أن يضع يديه مثلا مطلقة هكذا، بل يضعها في موضعها في حال القيام، وفي حال الركوع، وفي حال السجود، وهكذا.

نقول: هذا سابق بالخيرات، يؤدي الزكاة ويتصدق، يحج الواجب ويتطوع، يصوم رمضان ويتنفل بغيره من الصيام، هذا نقول: إنه سابق بالخيرات.

أما قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن معنى [{سابق بالخيرات} يضم إلى العمل التعليم والإرشاد إلى العمل] ففي هذا نظر ظاهر؛ لأن التعليم قد يكون واجبا، وإذا قام

=

=

بالتعليم الواجب صار من المقتصد، وإن تركه صار من الظالم لنفسه، وكذلك نقول في الإرشاد: الإرشاد الواجب إذا قام به صار مقتصدا، وإن تركه صار ظالما لنفسه، ولكن ما قلنا هو الصواب.

واختلف المفسرون في هذه الآية؛ فمنهم من يقول: {فمنهم ظالم لنفسه} كالمانع للزكاة {ومنهم مقتصد} كالمقتصر عليها {ومنهم سابق بالخيرات} كالزائد عليها.

وآخر يقول: {فمنهم ظالم لنفسه} مؤخر للصلاة عن وقتها {ومنهم مقتصد} فاعل لها في وقتها، {ومنهم سابق بالخيرات} فاعلها في أول وقتها؛ أي: في الوقت الذي يستحب أن تقام فيه، فهل بين القولين خلاف؟

الجواب: لا، ليس بينهما خلاف، هذا يسمى اختلاف تنوع؛ يعني أن كل واحد من القائلين ذكر نوعا، فيكون هذا على سبيل التمثيل، ولا يعد هذا خلافا في الواقع، ولكنه تمثيل، هذا مثل بالزكاة، وهذا مثل بالصلاة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بإذن الله} بإرادته] لكن هل المراد الكونية أو الشرعية؟

الظاهر أننا نغلب هنا الكونية؛ يعني أن هذه الأقسام الثلاثة: الظالم، والمقتصد، والسابق، كلهم يفعلون هذا بإذن الله، فالله تعالى هو الذي أذن للظالم نفسه أن يظلم نفسه، وللمقتصد أن يقتصر على ما يجب، وللسابق أن يزيد.

وتقييد هذا بإذن الله؛ لئلا يفتخر مفتخر بكونه سابقا بالخيرات، فيضيف الشيء إلى نفسه، ويمن به على ربه، كما قال الله تعالى عن بعض بني آدم: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين} [الحجرات: ١٧].

فأنت إذا من الله عليك بسبق في الخيرات لا تظن أن هذا من نفسك، لو وكلت إلى نفسك لكنت ظالما لنفسك؛ لقوله تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على

=

=

السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}[الأحزاب: ٧٢] هذه حقيقة الإنسان: الظلم والجهالة، لكن من من الله عليه وهداه فهو من فضله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: {ذلك هو الفضل الكبير} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ذلك} أي: إرثهم الكتاب {هو الفضل الكبير}].

صدق الله، الفضل الكبير الذي لا يدانيه فضل هو منة الله على عبده بالعلم بهذا الكتاب، هذا هو الفضل الكبير، ليس الفضل الكبير بأن يعطى الإنسان قصورا أو مراكب فخمة أو زوجات حسان أو أبناء كثيرين، لا، الفضل الكبير أن يورث هذا الكتاب، كل من ورث هذا الكتاب علما وعملا ودعوة فهو الذي حاز الفضل الكبير، قال الله تعالى: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون} [يونس: ٥٨].

وفي قوله تعالى: {ذلك هو الفضل} فيها أداة حصر، وهو ضمير الفصل، وضمير الفصل هو ضمير يأتي مطابقا للسياق، يأتي بصورة الغائب كـ (هو)، وبصورة المخاطب كـ (أنت)، وبصورة المتكلم كـ (أنا)، قال الله تعالى: {وقل إني أنا النذير المبين} [الحجر: ٨٩] هذا أتى بصيغة المتكلم، وتقول لمن تخاطبه: (إنك أنت القائل) ومنه قوله تعالى: {ذق إنك أنت العزيز الكريم} [الدخان: ٤٩] هذا في صيغة المخاطب، وفي صيغة الغائب كثير، منه هذه الآية: {ذلك هو الفضل الكبير}.

إذن: فضمير الفصل ضمير يؤتى به مطابقا للسياق من حيث التكلم والخطاب والغيبة، وهو من حيث الإعراب لا محل له.

أما من حيث المعنى فيفيد ثلاثة أمور: يفيد التوكيد، والحصر، والتمييز بين الخبر والصفة.

=

=

فتقول مثلا: (زيد الفاضل) ليس فيها ضمير فصل، فهنا يحتمل أن تكون (الفاضل) خبرا، ويحتمل أن تكون صفة والخبر لم يأت، ويمكن أن نقول: تقدير الكلام: زيد الفاضل قائم، فتكون الفاضل صفة، فإذا قلت: (زيد هو الفاضل) تعين أن تكون الفاضل هنا خبرا، ولا يمكن أن تكون صفة، إذن فهو يميز بين الصفة والخبر، فيكون ما بعده خبرا لا صفة، ولولاه لكان محتملا أن يكون خبرا أو صفة؛ هذا شرح قولنا: (التمييز بين الخبر والصفة).

فيفيد الحصر؛ فإذا قلت: زيد فاضل، هل يمنع أن يكون غيره فاضلا؟ لا يمنع.

فإذا قلت: زيد هو فاضل، أو زيد هو الفاضل؛ نعم، تعني أن يكون (زيد) وحده هو الفاضل.

أما التوكيد فلا شك أن قولك: (زيد الفاضل) تريد المبتدأ والخبر، لا شك أنها جملة تامة ومعناها واضح، لكن إذا قلت: زيد هو الفاضل كأنك اتكأت عليه وزدتها توكيدا.

فـ {الفضل} بمعنى العطاء من الله، {الكبير} حيث الحجم فهو كبير في كيفيته، ونحن نعلم من جهة أخرى أنه كثير في كميته فيجتمع في هذا العطاء الكمية والكيفية، فهو فضل كبير في ذاته وكيفيته، وفضل كثير أيضا في عدده وكميته: {ذلك هو الفضل الكبير}.

(فائدة): قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)} فاطر: ٣٢، هذه الآية تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

- أولًا: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

الآية قسمت أهل الإيمان من جهة أقدارهم في التدين إلى ثلاثة مراتب: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق للخيرات، وكل مرتبة من هذه المراتب يتفاوت

=

=

أهلها فيها تفاوتًا عظيمًا. بل إن المؤمن تختلف أحواله من حيث ديمومة تذكره، وخشيته، واستمراره على قدم الطاعة والاستقامة.

فدل هذا على أن الإيمان ليس لزيادته حد، وليس لنقصه حد كذلك، وبذا يعلم بطلان من ناط الزيادة والنقص بالأعمال فقط، فأوقع الزيادة والنقص فيها ومنع من وقوعها في أصل الإيمان وهو التصديق كما هو مذهب المرجئة، فأخرجوا العمل من مسمى الإيمان، فأتت هذه الآية لتبرهن على بطلان ما اعتقدوه.

كما أن في قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ}، رد على غالية المرجئة ممن ينكرون العقاب بالكلية، أو ينكرون الوعيد في الآخرة رأسًا؛ لأن تقسيم العباد على هذه الدرجات دليل على أن الله - ﷿ - سيحاسبهم على أفعالهم، وسيجازيهم بما يستحقونه، فدل هذا على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

- ثانيًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

كما أن هذه الآية -أيضًا- توضح بطلان من جعل حدًا أدنى للإيمان، من لم يحققه انتفت عنه حقيقه الإيمان، ويجعلون ضابط هذا الحد الإتيان بجميع الفرائض، والكف عن جميع المحرمات، فإذا وقع الإخلال بهذين الأمرين، انتقص أصل الإيمان، وهذا ما التزمه الوعيدية.

فالوعيدية جعلوا الطاعات بجملتها ركنًا في الإيمان، ولم يفرقوا بين ما ينتفي به أصل الإيمان من آحاد العمل، وبين ما لا ينتفي، وجعلوا الإخلال بها جميعًا موجبًا لسلب الإيمان منه.

وقد أبان شيخ الإسلام عن غلط هؤلاء من حيث جعلهم الإيمان حقيقة واحدة متماثلة في حق جميع المكلفين فقال - رَحِمَهُ اللهُ -: " ليس الإيمان حقيقة واحدة مثل حقيقة مسمى (مسلم) في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا

=

=

الاعتبار مثل حقيقة البياض والسواد بل الإيمان والكفر يختلفان باختلاف المكلف وبلوغ التكليف له، وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك".

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو اعتبارهم بأن: الإيمان حقيقة واحدة إذا ذهب بعضه ذهب كله، وأنه لا يجتمع في العبد إيمان وكفر.

ومنشأ الغلط هذا انبنى عليه عند أهل الأهواء والبدع الخوض في باب الأسماء والأحكام، بمحض عقولهم، فمنهم من رأى أنه لا تأثير للأعمال السيئة في نقصان الإيمان، ومنهم من غلا حتى جعل السيئات مُزيلةً للإيمان بالكلية؛ بناء على الأصل المشترك الذي أصلوه.

والخلاصة: أن الوعيدية في هذا الباب أحسن حالًا من المرجئة؛ لأنهم في اسم الإيمان أقرب إلى قول أهل السنة، وعندهم من تعظيم شأن الطاعات والمعاصي ما ليس عند أولئك، إلا أنهم غلوا حتى سلبوا الإيمان بذهاب بعض الواجبات، وفي المقابل فإن المرجئة أقرب إلى أهل السنة في الحكم الأخروي، وكلا الفريقين انحرف عن الحق- منهج أهل السنة-.

- رابعا: أثر اجتماع الرد على البدع المتقابلة في موطن واحد.

كلا الفرقتين انحرفتا عن الحق، والصواب المحض مع أهل السنة؛ "فعقيدة أهل السنة أصح مباني وأوضح معاني، وحسبك أنها جامعة لمحاسن العقائد".

لذلك منعوا من أن يكون للإيمان حد أدنى لا يكون فيه تفاوت: فشعب الكفر الأصغر لا تنافي أصل الإيمان، وإنما تنافي كماله، وإنما الذي ينافي أصل الإيمان شعب الكفر الأكبر.

لذا فإن جنس العمل -وهو جملة الالتزام بالشريعة- عند أهل السنة ركن في الإيمان، وأما آحاده فمنها ما لا يتحقق أصل الإيمان إلا به، ومنها ما هو من

=

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣).

{جَنَّات عَدْن} أَيْ إقَامَة {يَدْخُلُونَهَا} الثَّلَاثَة بالبناء للفاعل والمفعول خَبَر جَنَّات الْمُبْتَدَأ {يُحَلَّوْنَ} خَبَر ثَانٍ {فِيهَا مِنْ} بَعْض {أَسَاوِر مِنْ ذَهَب وَلُؤْلُؤًا}

=

كماله، ففوات بعض الآحاد المحققة لأصله يقتضي انتفاء الإيمان، بخلاف الآحاد المقتضية لتحقيق كماله الواجب أو المستحب، فإنه لا يقتضي انتفاءه أي: انتفاء الإيمان جملة كما دلت عليه النصوص؛ لأن أهل السنة لا يسلبون المسلم مطلق الإيمان بل يسلبونه الإيمان المطلق الذي رتب الله تعالى عليه المديح والثناء، ودخول الجنة ابتداء.

لذا فهم مجمعون على جواز اجتماع شعب إيمان وشعب كفر في الشخص الواحد، باعتبار أن شعب الكفر متفاوتة، كما أن شعب الإيمان متفاوتة، فالذي يمكن أن يجتمع مع أصل الإيمان، ولا ينافيه هي شعبُ الكفر الأصغر والتي تنافي كمال الإيمان الواجب لا أصله، وهذا الذي دلت عليه النصوص وقام عليه الإجماع.

فعند الخوارج لا تنفع حسنة إلا مع التقوى المطلقة الخالية من الكبائر، وعند المرجئة لا يضر التقوى إلا الشرك، فجعلوا أصحاب الكبائر داخلين في اسم المتقين، وعند أهل السنة مَنْ يتقِ الله في عمل قُبِلَ منه وإن كان عاصيًا في غيره، ومن يعصه في عمل لم يقبل منه وإن كان مطيعا له في غيره.

فكان لاجتماع الرد على البدع المتقابلة في هذه الآية دليل على أن المنهج الحق هو ما سَعِد به أهل السنة والجماعة.

مُرَصَّع بالذهب {ولباسهم فيها حرير}(١).

---

(١) قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} [فاطر: ٣٥].
قال مقاتل:"يدخلونها هؤلاء الأصناف الثلاثة".
عن عبد الله بن الحارث:"عن كعب، قال له: اقرأ هذه الآية {فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد} [فاطر: ٣٢] حتى بلغ {جنات عدن يدخلونها} [فاطر: ٣٣] فقال كعب: «دخلوها ورب الكعبة» ".
قوله تعالى: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا} [فاطر: ٣٥]، أي:"كتابه يُحلَّون فيها بأساور الذهب وباللؤلؤ".
قال مقاتل:"بثلاث أسورة".
عن مجاهد، في قوله: " {أساور من ذهب}، قال: الأساور: المسك".
عن سعيد بن المسيب، قال: "ليس من أهل الجنة أحد إلا وفي يده ثلاثة أسورة: إسوار من ذهب، وإسوار من فضة، وإسوار من لؤلؤ. قال: وهو قوله: {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} [فاطر: ٣٣]، وقوله: {وحلوا أساور من فضة} [الإنسان: ٢١] ".
قال سعيد بن جبير: "يُحَلّى كلُّ واحد منهم ثلاثةً من الأساور: واحدًا من فضّة، وواحدًا من ذهب، ووحدًا من لؤلؤ ويواقيت".
قوله تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [فاطر: ٣٣]، أي:"ولباسهم المعتاد في الجنة حرير".
قال ابن كثير:"في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير إستبرقه وسندسه".
قال مقاتل:"مِمّا يلي الجسدَ الحريرُ، وأعلاه السندس والإستبرق".
عن ابن الزبير قال: "قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في =

=

الآخرة» قال ابن الزبير من قبل نفسه: ومن لم يلبسه في الآخرة لم يدخل الجنة، لأن الله تعالي قال: ولباسهم فيها حرير".

قال العثيمين: هذا بيان لثواب هؤلاء الأصناف الثلاثة.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{جنات عدن} إقامة {يدخلونها} أي الثلاثة، بالبناء للفاعل والمفعول؛ خبر {جنات} المبتدأ].

بالبناء للفاعل يدخلونها، وبالبناء للمفعول: (يدخلونها)، وهم إذا أدخلوا فقد دخلوا، فكأن القراءتين واحد، ولكن يستفاد منها من كلمة يدخلونها بيان أنهم يعطونها كرامة، فتقدم إليهم حتى يدخلوها، لكن يدخلونها بدون أن يقال يدخلونها، فإن الداخل قد يدخل كرامة وقد يدخل من ذات نفسه، لكن إذا أدخلها كأنها قدمت له على سبيل الكرامة حتى يدخلوها.

وقوله تعالى: {جنات عدن} جنات أصلها جمع جنة، قال العلماء رحمهم الله: والجنة البستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه يستر من كان داخله، والله أعلم.

{جنات عدن يدخلونها} عدن بمعنى إقامة، يعني أن هذه الجنات جنات إقامة لا ظعن فيها، بل هم خالدون فيها أبدا، ومع ذلك ليس أحد منهم يتمنى أن يتحول عما هو فيه؛ كما قال الله تعالى: {لا يبغون عنها حولا} [الكهف: ١٠٨] بخلاف الجنة فإن الإنسان لو كان في أحسن ما يكون من البساتين لتمنى أن يتحول إلى ما هو أحسن منه وأفضل منه، لكن في الآخرة كل إنسان من كل واحد منهم يرى أنه في مكان إقامة لا يريد أن يتحول عنه.

وهذا لا شك أنه من كمال النعيم؛ أن يستقر الإنسان وأن يرى أنه في أكمل ما يكون حتى لا تتشوف نفسه إلى نعيم أعلى فيتنغص نعيمه؛ لأنه من المعلوم أن الإنسان إذا رأى أنه دون غيره وإن كان في مقام أمين وإن كان في مقام منعم فيه،

=

=

لكن يتنغص عليه ذلك لكونه يرى أن غيره أفضل منه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: {يدخلونها} بالبناء للفاعل وللمفعول، خبر، جنات: المبتدأ]، وجملة يدخلونها أو يدخلونها خبر.

[{يحلون} خبر ثان] ولا تصح أن تكون حالا من الفاعل؛ وذلك لأن تحليتهم بذلك بعد الدخول، ولو قلنا: إنهم يدخلون حال كونهم يحلون للزم من ذلك أن يكون التحلية حين الدخول أو قبلها.

[{يحلون} خبر ثان] وهل يجوز أن يتعدد الخبر؟

الجواب: نعم، وهذا في القرآن كثير، قال الله تعالى: {وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد} [البروج: ١٤ - ١٥] الخبر الآن أربعة: الغفور والودود وذو العرش والمجيد؛ فتعدد الأخبار جائز في اللغة العربية.

{يحلون فيها} أي في هذه الجنات {من} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بعض] فأفادنا أن من هنا ليست بيانية بل هي تبعيضية، ولو قيل إنها بيانية لكان له وجه جيد، لأن التحلية لا تتعين في الأساور؛ إذ قد يحلى الإنسان بالخرصان مثلا أو بالقلائد أو ما أشبه ذلك، فجعلها بيانية أولى من جعلها تبعيضية؛ لأنك إذا قلت: يحلون بعض أساور لم تكن التحلية بالأساور، وإنما يحلون ببعضها، إلا إذا قلت: نعم، أقول إنها على التبعيضية؛ لأن الأساور المذكورة هنا نوعان فقط: ذهب ولؤلؤ، مع أن لهم حلية أخرى وهي الفضة؛ كما قال الله تعالى: {وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا} [الإنسان: ٢١]؛ فإذا جعلتها تبعيضية باعتبار أن الأساور المذكورة من نوعين وبقي نوع ثالث لم يذكر: فصار القول بأنها للتبعيض له وجه.

وقد ذكرنا مرارا كثيرة أنه إذا احتمل اللفظ معنيين لا يتنافيان فإنه يحمل عليهما فيمكن أن نجعل {من} هنا مشتركة بين كونها بيانية وبين كونها تبعيضية؛ بين

=

=

كونها بيانية لأن التحلية تكون من الأساور وغيرها، فتكون {من} هنا مبينة ما يحلون به؛ وتبعيضية؛ لأنه ذكر من الأساور هنا نوعان، وبقي نوع ثالث لم يذكر.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(أساور من ذهب ولؤلؤ) مرصع بالذهب]: (من ذهب ولؤلؤ) أما {من ذهب} ف هي مجرورة لا شك فيها؛ لأنها دخلت عليها من، وأما {ولؤلؤا} فهي عندي منصوبة، ولكن قوله: [مرصع] يدل على أنها مجرورة، كما هي القراءة الثانية؛ ولهذا ينبغي أن نصحح في المصحف المفسر {ولؤلؤا} ونجعلها بالجر بناء على تفسير الجلال.

وما الدليل على أنها (ولؤلؤ)؟

الجواب: لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [مرصع] لو أنه أراد قراءة النصب لقال مرصعا.

إذن: نقول: (ولؤلؤ) فيها قراءتان سبعيتان؛ إحداهما بالنصب {ولؤلؤا} وعلى هذا تكون معطوفة على محل {أساور} يعني يحلون فيها أساور ولؤلؤا؛ أساور من ذهب، ويحلون لؤلؤا أيضا؛ وأما بالجر (ولؤلؤ) فهي معطوفة على {من ذهب} يعني يحلون فيها أساور من نوعين: من ذهب ولؤلؤ.

أضف إليها {وحلوا أساور من فضة} [الإنسان: ٢١] تكون أساورهم من ثلاثة أنواع: من الذهب، واللؤلؤ، ومن الفضة.

ولا نشك أن السوار من الذهب مجمل وفيه جمال بذاته، وكذلك السوار من الفضة، وكذلك السوار من اللؤلؤ، فكل واحد منها على حدة فيه جمال وتجميل، فإذا اجتمعت الثلاثة وصف بعضها إلى بعض تولد من ذلك تجميل أكبر.

ولا أحد يتصور كيف تجمع هذه الثلاثة؛ هل يكون اللؤلؤ بين الذهب والفضة، أو الذهب بين اللؤلؤ، أو الذهب بين اللؤلؤ والفضة، أو اللؤلؤ بينهما؟ !.

المهم: أن ترتيبها هذا لا أحد يتصوره الآن، لكن الذي نؤمن به أن هذه الثلاثة

=

=

تجمع، أما كيف تجمع، فالله أعلم به، لكننا أيضا نعلم بأن جمعها - أي الثلاثة - له زيادة في التجميل.

واعلم أن الذهب الذي يذكر في نعيم الجنة والفضة واللؤلؤ ليست كالذهب الذي نشاهده الآن أو الفضة أو اللؤلؤ، بل هو ذهب أعظم، ذهب يليق بنعيم الجنة؛ كما أن النخل والرمان والفاكهة والعسل واللبن والخمر، وما أشبه ذلك، ليس كالذي يوجد في الدنيا؛ لأن النعيم يناسب الدار، فإذا كانت الدار الدنيا لا تشابه الدار الآخرة؛ فالنعيم الذي في الآخرة لا يساويه النعيم الذي في الدنيا، هذا من حيث المعقول.

أما من حيث المنقول {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]، وفي الحديث القدسي: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".

وأنتم تشاهدون الآن أنه لو دعاكم رجل فقير وصنع لكم أعلى ما يمكنه من الطعام الذي هو أحسن شيء عنده، ودعاكم رجل غني وصنع لكم أعظم ما يجد من الطعام عنده لعرفتم بالفرق؛ فالفرق العظيم بين هذا وهذا، مع أن كل واحد منهما أتى بكل ما يستطيع؛ كذلك الفرق بين نعيم الآخرة ونعيم الدنيا.

فالذهب إذن: يوافق الذهب في الدنيا في الإسم ولا يوافقه في الحقيقة؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط"، أما الحقائق فتختلف.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(من ذهب ولؤلؤ) مرصع بالذهب] وقوله: [مرصع بالذهب] قد يعارض المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، إذ قد يقال: إن اللؤلؤ حلية مستقلة، ويدل لذلك قراءة النصب: {ولؤلؤا} يعني يحلون لؤلؤا، أما على قراءة الجر فما ذهب إليه المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ محتمل غير متعين؛ فهو يرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اللؤلؤ ليس مستقلا بل هو

=

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤).

{وَقَالُوا الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَن} جَمِيعه {إِنَّ رَبّنَا لَغَفُور} لِلذُّنُوبِ {شَكُور} لِلطَّاعَةِ(١).

=

مرصع بالذهب كما يوجد في حلي الدنيا، ولكننا لا نسلم لما قال، فالظاهر من الآية الكريمة أن اللؤلؤ سوار مستقل، ويبين هذا قراءة النصب {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا} يعني يحلون لؤلؤا، فجعل حلية اللؤلؤ حلية مستقلة.

وقوله تعالى: {ولباسهم فيها حرير} لما ذكر ما يلبس في اليد ذكر اللباس العام على جميع البدن؛ فقال: لباسهم في الجنة حرير، وحرير الجنة ليس كحرير الدنيا الذي تفرزه أو تصنعه دودة القز؛ فهو قابل لكل آفة، بل حرير الآخرة حرير لا يماثله شيء من حرير الدنيا أبدا.

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [فاطر: ٣٥].

في هذه الآية وجوه من التفسير:

أحدها: أنه خوف النار، قاله ابن عباس، والحسن.

عن ابن عباس، قوله: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن}، قال:"حزن النار".

وقال الحسن:"إن المؤمنين قوم ذُلُل ذلَّت والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهل مَرَضَى، وما بالقوم مرض، وإنهم لأصحة القلوب ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} والحَزَنُ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة أبكاهم الخوف من النار، وأنه من لا يتعزَّ بعزاء الله يقطِّع نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه".

الثاني: أنه حزن الموت، قاله عطية.

=

=

الثالث: تعب الدنيا وهمومها، قاله قتادة.

قال قتادة:"كانوا في الدنيا يعملون وينصبون وهم في خوف، أو يحزنون".

الرابع: حزن المنّة، قاله سمُرة.

الخامس: حزن الظالم لما يشاهد من سوء حاله، قاله ابن زيد.

روي عن ابي الدرداء، قال:"سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن فذلك قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} ".

السادس: حزن الجوع. قاله شمر بن عطية.

السابع: خوف السلطان، حكاه الكلبي.

الثامن: الحزن للمعاش وهموم الدُّنْيَا، قاله الشعبي، والفراء.

قال الشعبي:"طلب الخبز في الدنيا، فلا نهتم له كاهتمامنا له في الدنيا طلب الغذاء والعشاء".

التاسع: حزن الخبز، قاله شمر.

وقال شمر:"لما أدخل الله أهل الجنة الجنة قالوا: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} قال: حزن الخبز".

وهذا القول ضمن القول السابق، لأن المعنى: همّ العيش في الدنيا، لأن العيش فيها قوامه الطعام والخبز. والله أعلم.

العاشر: حزن القطيعة. قاله سهل بن عبد الله.

الحادي عشر: الحزن بالجنة والنار لأنهم لايدرون إلى أيّهما يصيرون. قاله مقاتل، وحكاه الفراء عن بعضهم.

قال مقاتل:"وقد حبس- الظالم- بعد هؤلاء الصنفين: السابق والمقتصد، ما شاء الله من أجل ذنوبهم الكبيرة، ثم غفرها لهم وتجاوز عنهم فأدخلوا الجنة فلما

=

دخلوها، واستقرت بهم الدار حمدوا ربهم من المغفرة ودخول الجنة وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، لأنهم لا يدرون ما يصنع الله- ﷻ- بهم".

الثاني عشر: حزن من الذنوب. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"هم قوم كانوا في الدنيا يخافون الله ويجتهدون له في العبادة سرا وعلانية وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم فهم خائفون أن لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت فعندها قالوا: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور} ".

الثالث عشر: أنه حزن التباغض والتحاسد لأن أهل الجنة متواصلون لا يتباغضون ولا يتحاسدون. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"الصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به أنهم قالوا حين دخلوا الجنة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} وخوف دخول النار من الحزن، والجَزَع من الموت من الحزن، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن. ولم يخصص الله إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزن عنهم نوعًا دون نوع، بل أخبر عنهم أنهم عموا جميع أنوع الحزن بقولهم ذلك، وكذلك ذلك؛ لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك، فحمدهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن".

قال الزجاج:"معنى: {أذهب عنا الحزن}: أذهب عنا كل ما يحزن، من حزن في مقاس، وحزن لعذاب، أو حزن للموت، وقد أذهب الله عن أهل الجنة كل حزن".

وفي وقت قولهم لذلك قولان:

أحدهما: عند إعطاء كتبهم بأيمانهم لأنه أول بشارات السلامة، فيقولون عندها: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}.

=

الثاني: بعد دخول الجنة، قاله الكلبي، وهو أشبه لاستقرار الجزاء والخلاص من أهوال القيامة فيقولون ذلك عند أمنهم شكرًا.

قال إبراهيم التيمي:"ينبغي لمن يحزن أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} وينبغي لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: {إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين} ".

قال الجصاص:"روى بعض السلف قال: من شأن المؤمن الحزن في الدنيا ألا تراهم حين يدخلون الجنة يقولون: {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} ؟ ".

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا سجن المؤمن».

قيل لبعض النساك: "ما بال أكثر النساك محتاجين إلى ما في يد غيرهم؟ قال: لأن الدنيا سجن المؤمن، وهل يأكل المسجون إلا من يد المطلق".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: ٣٥]، أي:"إن ربنا لغفور؛ حيث غفر لنا الزلات، شكور؛ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها".

قال الطبري:"قول تعالى ذكره مخبراً عن قيل هذه الأصناف الذين أخبر أنه اصطفاهم من عباده عند دخولهم الجنة: إن ربنا لغفور لذنوب عباده الذين تابوا من ذنوبهم، فساترها عليهم بعفوه لهم عنها، شكور لهم على طاعتهم إياه، وصالح ما قدموا في الدنيا من الأعمال".

قال مقاتل:"{إن ربنا لغفور} للذنوب العظام، {شكور} للحسنات وإن قلت، وهذا قول آخر شكور للعمل الضعيف القليل، فهذا قول أهل الكبائر من أهل التوحيد".

قال قتادة:"يقول: غفور لذنوبهم شكور لحسناتهم".

قال ابن عباس:"غفر لنا العظيم، وشكر لنا القليل من أعمالنا".

قال شمر:"غفر لهم ما كان من ذنب، وشكر لهم ما كان منهم".

=

=

قال أبو رافع: "يأتي يوم القيامة العبد بدواوين ثلاثة بديوان فيه النعم، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه حسناته، فيقال لأصغر نعمة عليه: قومي فاستوفي ثمنك من حسناته، فتقوم فتستوهب تلك النعمة حسناته كلها وتبقى بقية النعم عليه وذنوبه كاملة فمن ثم يقول العبد إذا أدخله الله الجنة: {إن ربنا لغفور شكور} ".

قال العثيمين: قوله تعالى (قالوا) يعني: أهل الجنة، ويقولون ذلك بعد دخول الجنة.

{الحمد لله} الحمد له سببان: الأول كمال المحمود، والسبب الثاني إنعام المحمود بخلاف الشكر بل إنه ليس له إلا سبب واحد، وهو إنعام المشكور، ولعلنا نتطرق إلى الفرق بين الحمد والشكر:

فالحمد قلنا له سببان، فهو أعم من الشكر من حيث السبب فإن سببه كمال المحمود وإنعام المحمود، الشكر ليس له إلا سبب واحد وهو إنعام المشكور، فالحمد أعم؛ لأنه يكون على هذا وهذا، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح؛ بالقلب أن يعترف الإنسان بقلبه بنعمة المنعم؛ وباللسان أن يشكره بلسانه ويثني عليه بلسانه؛ وبالجوارح أن يقوم بطاعته فلا يخالفه، وعليه قول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

أما الحمد فلا يكون إلا باللسان؛ لأن الحمد وصف المحمود بالكمال فلا يكون إلا باللسان.

إذن: فالشكر أعم متعلقا؛ لأنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، والحمد لا يتعلق بالقلب، وربما يتعلق بالقلب لكنه لا يسمى حمدا، يعني من أضمر في نفسه الثناء على الله ﷻ لا يقال حمد الله؛ إذ إنه لم يظهر وربما يتعدى، وربما يقول قائل: إنه يكون بالقلب، لكنه ليس بظاهر.

=

=

{الذي أذهب عنا الحزن} الكائن في النفوس وهو الغم بما مضى والخوف الهم لما يستقبل، فهنا هل نقول إن الحزن يشمل الغم مما مضى والهم مما يستقبل؟

نعم، فكذلك في الجنة جميع ما مضى عليهم من الأحزان والهموم وغيرها ينسونها كما جاء في الحديث الصحيح أن الإنسان يغمس في الجنة؛ يصبغ صبغة واحدة يغمس فيها، فيقال له: هل رأيت شرا قط فيقول: لا، فكل ما مضى: من الشرور والأحزان والهموم كلها.

وقوله تعالى: {وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جميعه] يشير إلى أن (أل) هنا لاستغراق العموم، و (أل) تكون لاستغراق العموم إذا صح أن يحل محلها كل؛ فهي للإستغراق، كقوله تعالى: {إن الإنسان لفي خسر} [العصر: ٢]، وقوله تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، أما قوله تعالى: {الرجال قوامون على النساء} [النساء: ٣٤] فليست للإستغراق، فما كل رجل قوام، فأحيانا تكون المرأة قوامة على الرجل! ! فهذه لبيان الحقيقة فقط، الحقيقة فقط.

أفادنا المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [جميعه] أن (أل) هنا للإستغراق.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إن ربنا لغفور شكور} للذنوب {شكور} للطاعة]؛ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين؛ بـ (إن) واللام، فهم أكدوا بالثناء هذا على الله أنه سبحانه وتعالى غفور للذنوب شكور للطاعة.

فالغفور هنا هل هي صيغة مبالغة أم صفة مشبهة؟

هي تشمل الأمرين جميعا، هي صيغة مبالغة لكثرة غفران الله تعالى للذنوب وكثرة من يغفر لهم؛ فهو كثير المغفرة للذنوب؛ إذ إن الذنوب تتكرر من الإنسان عدة مرات فيغفرها الله، والذين يغفر الله لهم كثيرون أو قليلون؟ كثيرون، ومن جهة أخرى باعتبار أن الله تعالى لم يزل غفورا نقول هي صفة مشبهة.

=

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥).

{الَّذِي أَحَلَّنَا دَار الْمُقَامَة} الْإِقَامَة {مِنْ فَضْله لَا يَمَسّنَا فِيهَا نَصَب} تَعَب {وَلَا يَمَسّنَا فِيهَا لُغُوب} إعْيَاء مِنْ التَّعَب لِعَدَمِ التَّكْلِيف فِيهَا وَذَكَر الثَّانِي التَّابِع لِلْأَوَّلِ لِلتَّصْرِيحِ بِنَفْيِهِ[1].

=

وقوله تعالى: {شكور} نقول فيها كما قلنا في {لغفور} بأنه ﷻ لم يزل شكورا على طاعة عباده وامتثالهم أمره، ومن شكره أنه يعطي العامل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو أيضا شكور باعتبارها صيغة مبالغة؛ لأنه كلما كثر العمل كثر الشكر.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه؛ قال: سأل رجل النبي ﷺ؛ فقال: النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: "إن الموت شريك النوم، وليس في الجنة موت"، قالوا: يا رسول الله! فما راحتهم؟ فقال النبي ﷺ: "إنه ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة"؛ فأنزل الله -تعالى- فيه: {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}.

أخرجه البيهقي في "البعث" (رقم ٢٥٨، ٤٤٤) بسند صحيح إلى يونس بن محمد المؤدب ثنا سعيد بن زربي عن نفيع بن الحارث عن عبد الله به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: نفيع هذا هو أبو داود الأعمى؛ متروك، وقد كذبه ابن معين.

الثانية: سعيد بن زربي؛ منكر الحديث.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٠) وزاد نسبته لابن أبي حاتم

=

=

وابن مردويه.

* قوله تعالى: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ} [فاطر: ٣٥].

قال الطبري:"أي: ربنا الذي أنزلنا هذه الدار يعنون الجنة، فدار المقامة: دار الإقامة التي لا نقلة معها عنها ولا تحول".

قال الزجاج:"أي: أحلنا دار الخلود بتفضله لا بأعمالنا".

قال الفراء:"{دارَ الْمُقامَةِ}: هي الإقامة. والمقامة: المجلس الَّذِي يُقام فِيهِ. فالمجلس مفتوح لا غير كما قَالَ الشاعر:

يومانِ يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ... ويومُ سير إلى الأعداء تأويب".

قال مقاتل:"يعني: دار الخلود أقاموا فيها أبدا لا يموتون ولا يتحولون عنها أبدا".

قال قتادة:"أقاموا فلا يتحولون ولا يحولون".

قوله تعالى: {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٥]، أي:"لا يمسنا في الجنة تعب ولا إعياء".

قال مقاتل:"لا يصيبنا في الجنة مشقة في أجسادنا، ولا يصيبنا في الجنة عيا لما كان يصيبهم في الدنيا من النصب في العبادة".

قال الطبري:"يقول: لا يصيبنا فيها تعب ولا وجع {وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا} العناء والإعياء".

قال الزجاج:"اللغوب الإعياء من التعب".

عن ابن عباس، قوله: {لغوب}، قال: إعياء". وفي رواية:"اللغوب: العناء".

قال قتادة:"قد كان القوم ينصبون في الدنيا في طاعة الله وهم قوم جهدهم الله قليلا، ثم أراحهم كثيرا فهنيئا لهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الذي} هنا يجوز أن تكون صفة لما سبق وهو الله:

=

=

{الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن}: {الذي أحلنا} ويحتمل أن تكون استئنافا؛ يعني أنها في محل رفع على القطع؛ لأن المنعوت إذا علم وتعدد النعت له جاز في النعت الثاني القطع والإثبات، كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وإن نعوت كثرت وقد تلت ... مفتقرا لذكرهن أتبعت

وإن لم يكن مفتقرا جاز القطع.

{الذي أحلنا} أي أنزلنا {دار المقامة من فضله}.

{المقامة} هنا بمعنى الإقامة فهي إذن ظرف مكان، أو أنها مصدر ميمي دخلته التاء، ودار المقامة هي دار الجنة ووصفت بذلك لأن ساكنيها مقيمون فيها أبدا ولأنهم لا يريدون الإقامة بغيرها، كل واحد منهم لا يبغي حولا عما هو فيه؛ لأنه يرى أنه أكمل أهل الجنة؛ بل إن الله أقنعهم بما هم عليه من النعيم حتى لا يتطلعوا إلى نعيم أكثر فيحتقروا ما هم فيه، بخلاف أهل النار فإن أهل النار كل واحد منهم يرى أنه أشد أهل النار عذابا؛ لأنه لو يرى أن غيره أشد منه لهان عليه العذاب.

وقوله تعالى: {الذي أحلنا دار المقامة من فضله}.

{من} سببية هنا؛ أي: بسبب فضله؛ أي تفضله علينا؛ لأنه لولا فضل الله عليهم ما وصلوا إلى هذا المقام العظيم، فكل ما في الإنسان من خير ونعمة فمن الله سبحانه وتعالى؛ كما قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون} [النحل: ٥٣].

فإحلالهم دار المقامة هو من فضل الله تعالى، وهذا من تمام شكرهم لله حيث اعترفوا له بالفضل، بخلاف الذي إذا أصابته النعماء قال: هذا لي، أو: هذا من عندي، أو ما أشبه ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لا يمسنا فيها نصب} تعب {ولا يمسنا فيها لغوب} إعياء من

=

=

التعب].

لا يمسنا فيها نصب؛ أي: تعب، ومعنى يمسنا؛ أي: يصيبنا؛ كما قال الله تعالى: {إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل} [التوبة: ٥٠] فالمس بمعنى الإصابة.

وقوله: [{نصب} تعب {لغوب} إعياء] لأن هناك تعبا مباشرا ينال الإنسان حين الفعل، وإعياء يكون أثرا للتعب، فأنت إذا مارست عملا شاقا فإنك حين ممارسته تتعب، ثم بعد انتهائه تعيا؛ يعني: تضعف وتخلد إلى الراحة وإلى النوم، فالجنة ليس فيها {نصب} يعني: تعبا بدنيا حين مزاولة الأعمال ولا {لغوب} أي إعياء وهو الناتج عن التعب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [إعياء من التعب لعدم التكليف فيها] هذا تعليل عليل لأن التكليف حتى في الدنيا غالبه ليس فيه تعب، بل إن بعضه يكون راحة للبدن وراحة للقلب وتنشيطا للبدن وصحة له، وليس هذا هو المقصود الأول في العبادات، لكنه يحصل من ممارسة العبادة، يحصل من ذلك النشاط والصحة كما هو موجود مثلا في الصلاة، وموجود في الصيام، وموجود في الحج، فليس هناك تعب في الأعمال الصالحة.

بل نقول {لا يمسنا فيها نصب} هذا من باب الصفات السلبية المتضمنة لكمال ضدها، فلا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب؛ لكمال نعيمهم وراحتهم وأنسهم وفرحهم، وما أشبه ذلك.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [لعدم التكليف فيها، وذكر الثاني التابع للأول للتصريح بنفيه].

ذكر الثاني - وهو اللغوب - التابع للأول - وهو التعب - لأن اللغوب - كما قلنا قبل قليل - نتيجة التعب، فكأن المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أجاب عن سؤال؛ كأنه قيل: إذا انتفى التعب انتفى اللغوب الذي هو نتيجته، فلماذا لم يقتصر على نفي التعب،

=

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦).

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَار جَهَنَّم لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ} بِالْمَوْتِ {فَيَمُوتُوا} يَسْتَرِيحُوا {وَلَا يُخَفَّف عَنْهُمْ مِنْ عَذَابهَا} طَرْفَة عَيْن {كَذَلِكَ} كَمَا جَزَيْنَاهُمْ {يجزئ كُلّ كَفُور} كَافِر بِالْيَاءِ وَالنُّون الْمَفْتُوحَة مَعَ كَسْر الزَّاي وَنَصْب كُلّ[1].

=

وقيل لا يمسنا فيها نصب وإذا انتفى النصب انتفى اللغوب؟

أجاب على ذلك: بأنه ذكر من أجل التصريح بنفيه.

هذا ما ذهب إليه المفسر رَحِمَهُ اللهُ، ولا شك أنه وجه حسن، ولكن ربما نقول: إن الإنسان أحيانا يجد إعياء وكسلا وموت قوى بدون عمل وبدون تعب، وهذا مشاهد؛ وعليه فيكون نفي اللغوب أمرا ليس تأكيدا، وإنما هو أمر أساسي؛ أي: إن الإنسان قد يجد إعياء أحيانا وهو ما اشتغل.

إذن نقول: إن ذكره أساسي، وليس من باب التصريح بنفيه الذي لا يقصد منه إلا مجرد التوكيد.

المهم: أن أهل الجنة لكمال نعيمهم لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ} [فاطر: ٣٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {وَالَّذِينَ كَفَرُوا} بالله ورسوله، لهم نار جهنم مخلدين فيها لا حظ لهم في الجنة ولا نعيمها".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ..} ".

قوله تعالى: {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا} [فاطر: ٣٦]، أي:"لا يُقْضى عليهم

=

=

بالموت، فيموتوا ويستريحوا".

قال الطبري:"يقول: ولا يخفف عنهم من عذاب نار جهنم بإماتتهم، فيخفف ذلك عنهم".

قال السدي:"يعني: لا ينزل بهم الموت فيموتوا".

قال ابن كثير:"فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك".

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون».

عن قتادة: " {لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ}، بالموت {فَيَمُوتُوا}، لأنهم لو ماتوا لاستراحوا".

قال ابو السوداء:"مساكين أهل النار لا يموتون، لو ماتوا لاستراحوا".

عن أَبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: "أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكنَّ ناسًا، أو كما قال، تُصيبهمُ النارُ بذنوبهم، أو قال: بخطاياهم، فَيُمِيتُهم إماتةً حتى إذا صاروا فَحْمًا أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضَبَائرَ ضَبَائرَ، فَبُثُّوا على أهل الجنة، فقال: يا أهلَ الجنة أَفِيضُوا عليهم فَيَنْبُتُون كما تَنْبُتُ الحبة في حَمِيلِ السيل" فقال رجل من القوم حينئذٍ: كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية".

قوله تعالى: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا} [فاطر: ٣٦]، أي:"ولا يُخَفَّف عنهم مِن عذاب النار".

قال الطبري: المعنى:"ولا يخفف عنهم من هذا النوع من العذاب".

عن قتادة، أن عبد الله بن عمرو، كان يقول: "ما نزل في أهل النار آية هي أشد من هذه".

=

=

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [فاطر: ٣٦]، أي:"ومثل ذلك الجزاء يجزي الله كلَّ من هو مبالغ في الكفر متمادٍ في الكفر مُصِرٍّ عليه".

قال الطبري: يقول:"هكذا يكافِئ كل جحود لنعم ربه يوم القيامة؛ بأن يدخلهم نار جهنم بسيئاتهم التي قدموها في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق".

قال قتادة:"كل كفور بربه".

قال العثيمين: ثم قال تعالى: {والذين كفروا لهم نار جهنم} فثنى بذكر عقاب أهل النار؛ لأن القرآن مثان، كل ما ذكر فيه معنى ذكر فيه ما يقابله، ولا تكاد تجد آيات في القرآن يذكر فيها معنى إلا وذكر ما يقابله لئلا تتمادى النفس في الرجاء، فإذا ذكر النعيم وحده فإن النفس تتمادى في الرجاء، وحينئذ تأمن مكر الله، ولو ذكر الوعيد وحده لتمادت النفس في الخوف وقنطت من رحمة الله، ولكنه سبحانه وتعالى يذكر هذا تارة، وهذا تارة حتى يكون الإنسان سائرا من غير ميل إلى الرجاء ومن غير ميل إلى القنوط.

وهذه المسألة اختلف العباد فيها: هل الأولى أن يسير الإنسان إلى ربه بين الخوف والرجاء فيكون خائفا راجيا، أو الأولى أن يغلب الرجاء إحسانا في الظن بالله ﷻ، أو الأولى أن يغلب الخوف؟

في هذا خلاف بين العلماء رحمهم الله؛ فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ روي عنه أنه قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غلب الرجاء أمن الإنسان من مكر الله وإن غلب الخوف قنط من رحمة الله، فيكون خوفه ورجاؤه واحدا.

قالوا: فالخوف والرجاء كالجناحين للطائر إن هبط أحدهما مال الطائر إليه واختل توازنه، وإن تساويا استقام الطائر واستقام واعتدل توازنه.

=

=

وقال بعض أهل العلم رحمهم الله: بل هذا يختلف باختلاف الأحوال؛ فإذا فعل الإنسان الطاعة فليغلب الرجاء، وأن الذي وفقه لها سوف يقبلها منه ويثيبه عليها؛ كما قال الله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} [غافر: ٦٠] فإذا وفقت للدعاء وفقت للإجابة، وإذا وفقت للعمل وفقت للقبول.

وإذا عمل المعصية فليغلب جانب الخوف وليرجع إلى ربه؛ لأنه إن غلب جانب الرجاء بعد فعل المعصية فلا يتوب منها، ويقول: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ٤٨] ويقول الله غفور رحيم وما أشبه ذلك، فيكون تغليب الرجاء في حال، وتغليب الخوف في حال أخرى.

وقال بعض العلماء رحمهم الله: يغلب الخوف في حال، والرجاء في حال، لكن لا باعتبار العمل بل باعتبار الحال، فإذا كان مريضا فليغلب جانب الرجاء؛ لقول النبي ﷺ: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله"، وإن كان صحيحا فليغلب جانب الخوف.

والمناسبة قالوا: لأن المريض تضعف نفسه وتنكسر وليس يميل إلى الدنيا ولكنه يهتم بما أمامه فليغلب جانب الرجاء، ليس هناك نفس تتطلع إلى الدنيا وتنغمس في الترف بل نفسه قد رقت وآوت إلى الآخرة، وأما إذا كان صحيحا فإن النفس الآن فيها شرة وتطلع للدنيا وإترافها؛ فيغلب جانب الخوف.

على كل حال: يمكن أن نقول: إذا وجدت أسباب يخاف الإنسان على نفسه من تغليب جانب الرجاء فليقدم الخوف، وإن وجدت أسباب تقتضي أن يخاف الإنسان وييأس من رحمة الله فليغلب جانب الرجاء؛ يعني إذا فعل أسباب الرجاء فليغلب الرجاء، وإذا وجدت أسباب الخوف فليغلب جانب الخوف.

وقول الله تعالى: {والذين كفروا لهم نار جهنم} فهنا قال: {لهم نار جهنم} فأتى أولا بالمبتدأ ثم أتى بمبتدأ وخبر آخر، وهذا يفيد التوكيد؛ فهو أشد توكيدا من

=

=

مثل قوله تعالى: {وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير} [الملك: ٦] لما قال: {والذين كفروا} بقي الذهن متشوفا متطلعا إلى الخبر: ما الذي يكون لهؤلاء؟ قال: {لهم نار جهنم} أعوذ بالله! يعني ليس لهم إلا ذلك: نار جهنم.

وهذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ لأن النار يعبر عنها بالنار وحدها أحيانا: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} [آل عمران: ١٣١]، وأحيانا يعبر بجهنم عن النار مثل: {حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} [المجادلة: ٨]، وقوله تعالى: {إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم} [البينة: ٦] مثل هذا مضافة، وأحيانا تضاف النار إلى جهنم؛ وحينئذ يقع الإنسان في إشكال؛ يقول: كيف يضاف الشيء إلى ذاته أو إلى نفسه؛ فالنار هي جهنم وجهنم هي النار؟

ونقول: إضافتها هنا من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ ولهذا لا يقال جهنم نار، ولكن يقال: نار جهنم؛ فجهنم علم من باب اللقب، ومعلوم أن العلم اسم وكنية ولقب، فجهنم اسم علم، لكنه من باب اللقب، والعلم اللقب بمنزلة الصفة، يعني: بمنزلة النعت؛ لأن اللقب عندما أشعر بمدح أو ذم، وبناء على ذلك يتبين أن مثل هذا التركيب (نار جهنم) من باب إضافة الموصوف إلى صفته، فالنار هي هذا الجوهر الحار المعروف، وجهنم أصلها من الجهمة وهي الظلمة لبعد قعرها وخلوها من النور.

ومن هنا نعرف أن هذا الإسم فيه شيء من الإشتقاق فيكون دالا على وصف.

قوله تعالى: {لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها} قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لا يقضى عليهم} بالموت {فيموتوا} يستريحوا]؛ قال الله تعالى في ذلك {فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} [الجن: ٢٣] فلا هو ميت فيستريح ولا حي حياة

=

=

يتنعم فيها، بل هو في شقاء دائم، يتمنون الموت ولكن لا يحصل لهم؛ قال تعالى: {ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون} [الزخرف: ٧٧].

فهنا يقول: {لا يقضى عليهم فيموتوا} أي: لا يقضى عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا، والفاء في قوله تعالى: {فيموتوا} فاء السببية، والفعل بعدها منصوب بحذف النون والواو فاعل؛ لوقوعه بعد النفي الكائن في قوله تعالى: {لا يقضى عليهم}.

قال تعالى: {ولا يخفف عنهم من عذابها} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا يخفف عنهم من عذابها} طرفة عين] فهم في عذاب مستمر لا يستريحون منه لا بموت ولا بنوم ولا بتخفيف، والعياذ بالله!

قال تعالى: {وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب} [غافر: ٤٩] فانظر الذل، والعياذ بالله {ادعوا ربكم} كأنهم آيسون أن يدعوا الله؛ لأن الله تعالى قد قال لهم: {قال اخسئوا فيها ولا تكلمون} [المؤمنون: ١٠٨]، فيطلبون الوسائط: ادعوا ربكم، ثم هذا دعاء استجداء ضعيف؛ فقالوا: يخفف، ولم يقولوا: يمنع فطلبوا التخفيف يوما ولم يقولوا دائما، فهنا يظهر أثر الضعف عليهم والذل والهوان من ثلاثة وجوه:

أولا: أنهم طلبوا الشفعاء فلا يستطيعون أن يتكلموا.

ثانيا: طلبوا التخفيف دون المنع النهائي.

ثالثا: أنهم طلبوا ذلك يوما من الأيام لا دائما.

وتجيبهم الملائكة بالتوبيخ، والعياذ بالله؛ قال تعالى: {قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} [غافر: ٥٠].

فهم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا تجاب دعوتهم بذلك ولا يخفف عنهم من

=

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧).

=

عذابها ولا يوما واحدا؛ لأنهم قد أنذروا وقامت عليهم الحجة من كل وجه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك} كما جزيناهم {نجزي كل كفور} كافر؛ بالياء والنون المفتوحة مع كسر الزاي ونصب {كل}].

المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ أجمل في بيان هاتين القراءتين إجمالا مخلا؛ فالقراءتان {كذلك نجزي كل كفور} بالنون المفتوحة والزاي المكسورة ونصب {كل} ووجه هذه القراءة ظاهر بأن {نجزي} فعل مضارع، وفاعله مستتر و {كل} مفعول به.

القراءة الثانية: (يجزى كل كفور) وصنيع المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ لا يؤدي هذا المعنى، بل ظاهره أن (كل) منصوبة على القراءتين، وأيضا ظاهره أن الزاي مكسورة على القراءتين وأن الياء مفتوحة على القراءتين.

ونرجع إلى كلمة: {كذلك} ترد كثيرا في القرآن الكريم، ويقول المعربون: إن الكاف مفعول مطلق، وإن تقدير الكلام: مثل ذلك الجزاء نجزي، وعامل هذا المفعول المطلق ما بعده من الفعل؛ كذلك نجزي الظالمين؛ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين، كذلك نجزي كل كفور؛ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي كل كفور.

وقوله تعالى: {كل كفور} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كافر] يعني أن صيغة المبالغة هنا لا تراد، بل مطلق الكفر موجب لهذا الجزاء؛ لأنك لو اعتبرت صيغة المبالغة بظاهر معناها لكان لا يجزى هذا الجزاء إلا من تكرر كفره ولكن لا يمنع أن نقول: إن (كفور) هنا صفة مشبهة، ويكون المعنى كل من اتصف بالكفر، والله أعلم.

{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا} يَسْتَغِيثُونَ بِشِدَّةٍ وَعَوِيل يَقُولُونَ {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا} مِنْهَا {نَعْمَل صَالِحًا غَيْر الَّذِي كنا نعمل} فيقال لهم {أو لم نُعَمِّركُمْ مَا} وَقْتًا {يَتَذَكَّر فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِير} الرَّسُول فَمَا أُجِبْتُمْ {فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {مِنْ نَصِير} يَدْفَع الْعَذَاب عَنْهُمْ.(١)

(١) قوله تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [فاطر: ٣٧]،.

قال الطبري: يقول:"هؤلاء الكفار يستغيثون ويضجون في النار، يقولون: يا ربنا أخرجنا نعمل صالحًا أي: نعمل بطاعتك، {غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} قبلُ من معاصيك".

قال ابن كثير:"أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب، جل جلاله، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبرا عنهم في قولهم: {فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا} [غافر: ١١، ١٢]، أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدّتم إلى ما نهيتم عنه".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} [فاطر: ٣٧]، أي:"فيقول لهم: أو لم نُمْهلكم في الحياة قَدْرًا وافيًا من العُمُر، يتعظ فيه من اتعظ".

قال ابو عبيدة:"أو لم نعمّركم عمرا يتذكر فيه {مَنْ تَذَكَّرَ}، أي: يتوب ويراجع".

قال الزجاج:"معناه: أو لم نعمركم العمر الذي يتذكر فيه من تذكر".

قال ابن كثير:"أي: أوما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟ ".

قال ابن عباس:"يعني به الشيب".

=

=

وفي قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} [فاطر: ٣٧]، وجوه:
أحدها: أنه البلوغ، قاله الحسن. لأنه أول زمان التذكر.
الثاني: سبع عشرة سنة. قاله علي بن الحسين زين العابدين.
الثالث: ثماني عشرة سنة. قاله قتادة، وأبو غالب الشيباني.
وقال قتادة:"اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر، قال: نزلت وإن فيهم لابن ثمان عشرة سنة".
الرابع: عشرون سنة. قاله وهب بن مُنَبِّه.
الخامس: أربعون سنة، قاله ابن عباس، والحسن، ومسروق.
قال ابن عباس:"العمر الذي أعذر الله إلى ابن آدم {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ} أربعون سنة".
قال مسروق:"إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله".
السادس: ستون سنة، قاله علي بن أبي طالب، وابن عباس ورواه مرفوعا.
عن علي -رضي الله عنه-، قوله: " {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ}، قال: العمر الذي عمركم الله به ستون سنة".
عن ابن عباس:"{أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ}، قال: ستون سنة".
قال ابن عباس:"العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم ستون سنة".
عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يومُ القيامةِ نُودِي: أين أبناء الستين، وهو العمر الذي قال الله: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} ".
عن أَبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "منْ عَمَّرهُ اللهُ ستين سنةً فَقَد أعذرَ إليهِ في العُمْرِ".
السابع: سبعون سنة، لأنه آخر زمان التذكر، وما بعده هرم.

=

=

قال الطبري: الأشبه بالصواب" إذ كان الخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ خبراً في إسناده بعض من يجب التثبت في نقله، قول من قال ذلك أربعون سنة، لأن في الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين".

قال ابن كثير:"وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إِذَا بَلَغَ الفتَى ستينَ عَاما... فقد ذَهَبَ المَسَرَّةُ والفَتَاءُ

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث.. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم مَن يجوز ذلك» ".

قوله تعالى: {وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧]، أي:"وجاءكم النبي ﷺ، ومع ذلك لم تتذكروا ولم تتعظوا؟ ".

قال ابن زيد:"النذير: النبي، وقرأ: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} ". وروي عن السدي نحوه.

وعن عكرمة، قوله: " {وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ}، قال: الشيب".

قال الزجاج:"القول الأول أن النبي ﷺ النذير أكثر التفسير عليه".

قال قتادة:"احتج عليهم بالعمر والرسل".

قوله تعالى: {فَذُوقُوا} [فاطر: ٣٧]، أي:"فذوقوا عذاب جهنم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {فَذُوقُوا} نار عذاب جهنم الذي قد صَلِيتموه أيها الكافرون بالله".

=

=

قوله تعالى: {فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} [فاطر: ٣٧]، أي:"فليس للكافرين من ناصر ينصرهم من عذاب الله".

قال الطبري:"يقول: فما للكافرين الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها غضب الله بكفرهم بالله في الدنيا من نصير ينصرهم من الله ليستنقذهم من عقابه".

قال ابن كثير:"أي: فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يصطرخون فيها} هذه من الصراخ، والصراخ معروف وهو رفع الإنسان صوته أشد ما يرفع، وأصلها: (يصترخون) أتي بالتاء للمبالغة في الصراخ، كما يقال خطب واختطب، واختطب أبلغ من خطب، صرخ واصطرخ، فاصطرخ أبلغ من صرخ.

وقد ذكروا قاعدة أغلبية في هذا المقام، فقالوا إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لكن هذه القاعدة أغلبية؛ لأنها تنتقض بشجرة وشجر وبقرة وبقر؛ فإن شجرة زائدة المبنى على شجر ناقصة المعنى؛ يعني شجرة تدل على واحد، وشجر على جمع، لكن الغالب أن ما زاد في المبنى زاد في المعنى، فاصطرخ لا شك أنها أبلغ من صرخ؛ فهم - والعياذ بالله - يصطرخون هذا الصراخ العظيم في النار، يصطرخون فيها يقولون: {ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل}.

فقوله تعالى: {ربنا} فالآن يقرون بالربوبية وأنه لا يغيثهم من الشدة إلا الله، إن نظرنا إلى ظاهر الفعل قلنا: إن القائل هو الله؛ لأن الذي عمرهم هو الله ﷻ، ويحتمل أن يكون القائل هو الملائكة، ولكن لما كانت الملائكة تقول بأمر الله صار كأن القائل هو الله، فالملائكة تقول لأنهم جنود الله: {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر} وأيا كان فالمقصود بهذا إقامة الحجة عليهم وتوبيخهم وتنديمهم.

=

=

وقوله تعالى: {أولم نعمركم} هذا السياق يوجد كثيرا في القرآن، فتأتي همزة الإستفهام وبعدها حرف العطف، وقد اختلف المعربون في مثل هذا التركيب.

فقيل: إن الهمزة داخلة على مقدر يستفاد من الكلام، وهذا المقدر عطفت عليه الجملة التي بعد حرف العطف.

وقال بعضهم: بل إن الهمزة داخلة على الجملة الموجودة لا على شيء محذوف، لكنها قدمت على حرف العطف؛ لأن لها الصدارة فيكون التقدير في قوله تعالى: {أولم نعمركم}: (وألم نعمركم) وتكون الواو هنا عاطفة على قولهم: {ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل} هذا من حيث الإعراب.

أما من حيث المعنى فكما أشرنا أولا إلى أن المراد بذلك التوبيخ والتنديم وإقامة الحجة؛ يعني: قد عمرناكم تعميرا واسعا ووقتا طويلا يتذكر فيه من تذكر؛ لأن الرسل جاءتهم وأمهلتهم ودعتهم، ولكن أبوا وأصروا على كفرهم.

وكان أول من أرسل من الرسل نوح عليه الصلاة والسلام، فماذا يقول له قومه؟ قال تعالى: {وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا} [نوح: ٧] يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا واستغشوا ثيابهم لئلا يروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يقول، لا يحبون أن يسمعوه ولا أن يروا نوحا وهو يلقيه عليهم؛ ثم أصروا؛ يعني: بقوا على ما هم عليه واستمروا فيه واستكبروا استكبارا - يعني استكبارا عظيما - عن قول الحق، هذا أول الرسل.

وآخر الرسل قالوا إنه ساحر كذاب، وقالوا: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} [ص: ٥] وآذوا الرسول عليه الصلاة والسلام بالقول والفعل، بل استباحوا أن يقاتلوه ورضوا أن يبذلوا رقابهم للسيوف معارضة لدعوته عليه

=

=

الصلاة والسلام.

فهؤلاء الذين تبلغ بهم هذه الحال بعد أن عمروا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءتهم الرسل: هل يرجى منهم لو خرجوا من النار أن يعودوا إلى الحق؟ أبدا؛ لأن الأمر واحد.

لكن قد يقول قائل: إنه ليس الخبر كالمعاينة؛ فالنار التي توعد بها أدركوها عن طريق الخبر قبل أن يكونوا فيها، أما لما كانوا فيها فقد عرفوها عن طريق الحس والمشاهدة؟

فالجواب: أن خبر الرسل المؤيدة بالآيات الدالة على رسالتهم يفيد العلم اليقيني؛ لأن الرسل ما جاءت تدعو الناس وتنذرهم وتبشرهم إلا بآيات يؤمن على مثلها البشر، وهؤلاء - والعياذ بالله - طبيعتهم التكذيب والإنكار، فلن يؤمنوا ولو خرجوا.

قال الله تعالى: {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير} النذير، يقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الرسول] والمراد به الجنس؛ لأن كل رسول قد أنذر قومه وحذرهم من معصية الله، وبشرهم ورغبهم في طاعة الله، ولكنهم، والعياذ بالله، أصروا واستكبروا فقد قامت عليهم الحجة.

وقوله تعالى: {فذوقوا فما للظالمين من نصير} ذوقوا: الأمر هنا للإهانة، ومفعول ذوقوا محذوف، التقدير: ذوقوا عذابكم أو ذوقوا عاقبة تكذيبكم.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فذوقوا فما للظالمين} الكافرين {من نصير} يدفع العذاب عنهم].

(ما للظالمين من نصير) الجملة مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر {للظالمين} والمبتدأ {نصير} ودخلت عليهم {من} الزائدة لتوكيد النفي، و (ما) هنا لا تعمل عمل ليس؛ لتقدم الخبر، وهي لا تعمل عمل ليس إلا مع الترتيب، فنقول

=

إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨).

{إن الله عالم غيب السماوات وَالْأَرْض إنَّهُ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِي الْقُلُوب فَعِلْمه بِغَيْرِهِ أَوْلَى بِالنَّظَرِ إلَى حَال الناس[1].

=

مثلا: ما زيد قائما، ولو قلت: ما في الدار زيد، فهذا صحيح، لكن لا نجعل (في الدار) في محل نصب؛ لتقدم الخبر.

قال تعالى: {فما للظالمين من نصير} قال المفسر رحمه الله: [يدفع العذاب عنهم] والنصير بمعنى الناصر، والناصر هو المانع من الشر، المعين على الخير، فكل من منع الشر عنك فهو ناصر لك، وكل من أعانك على الخير فهو ناصر لك.

ويدل لهذا قول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا: يا رسول الله، هذا المظلوم - يعني: نصر المظلوم بدفع الشر عنه - فكيف نصر الظالم؟ قال: "تمنعه من الظلم".

ومنع الظالم من الظلم ليس خيرا إليه، لكن هو منعه من الشر، فالنصر إذن: إما أن يكون بجلب خير، وإما أن يكون بدفع شر.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [فاطر: ٣٨].

قال الطبري:"إن الله عالم ما تخفون أيها الناس في أنفسكم وتضمرونه، وما لم تضمروه ولم تنووه مما ستنوونه، وما هو غائب عن أبصاركم في السماوات والأرض".

قال مقاتل:"يعلم ما يكون فيهما وغيب ما في قلوبهم: أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه".

قال الزجاج:"معنى يعلم، وعالم غيب على معنى: قد علم ذلك".

قال الحسن: " الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

عن الضحاك، في قوله: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، قال: "جميع ما غاب

=

=

عن العباد".

قوله تعالى: {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [فاطر: ٣٨]، أي:"وإنه عليم بخفايا الصدور، فاتقوه أن يطَّلع عليكم وأنتم تُضْمِرون الشك أو الشرك في وحدانيته، أو في نبوة محمد ﷺ، أو أن تَعْصوه بما دون ذلك".

قال مقاتل:"بما في القلوب".

قال الطبري: أي:"فاتقوه أن يطلع عليكم، وأنتم تضمرون في أنفسكم من الشك في وحدانية الله أو في نبوة محمد، غير الذي تبدونه بألسنتكم، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور} ".

قال ابن كثير:"يعلم ما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله".

قال القشيري:"أي: عالم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد الكافرين".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم} ، أي: عليم بما تخفون".

عن محمد بن إسحاق -من طريق سلمة- قال: {والله عليم بذات الصدور} ، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم مِمّا اسْتَخْفَوْا به منكم".

عن الحسن: " {إنه عليم بذات الصدور} ،: يعلم تلك الساعة".

قال العثيمين: صلة هذه الآية بما قبلها: أنه لما ذكر أحوال الطائعين ومثوبتهم وأحوال العاصين وعقوبتهم بين أن هذا صادر عن علم تام؛ فإن الله تعالى عالم غيب السموات والأرض، وعالم ما في الصدور.

وقوله تعالى: {إن الله عالم غيب السماوات} أي ما غاب في السموات والأرض غيبا مطلقا عن كل أحد.

وقولنا: (غيبا مطلقا) احتراز من الغيب النسبي؛ فإن الغيب النسبي لا يختص

=

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩).

{هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِف فِي الْأَرْض} جَمْع خَلِيفَة أَيْ يَخْلُف بَعْضكُمْ بَعْضًا {فَمَنْ كَفَرَ} مِنْكُمْ {فَعَلَيْهِ كُفْره} أَيْ وَبَال كُفْره {وَلَا يَزِيد الْكَافِرِينَ كُفْرهمْ عِنْد رَبّهمْ إِلَّا مَقْتًا} غَضَبًا {وَلَا يَزِيد الْكَافِرِينَ كُفْرهمْ إِلَّا خَسَارًا} للآخرة(١).

=

علمه بالله ﷻ، بل يعلمه الله، ومن علمه من عباد الله.

مثال الغيب النسبي: أن يكون الشيء الظاهر بالنسبة لقوم خفيا بالنسبة لآخرين، فنحن هنا نعلم ما بين أيدينا، لكن لا نعلم ما كان في السوق أو في البيوت، وهذا نسميه غيبا نسبيا؛ لأن الذين في البيوت أو في السوق يعلمونه.

فالغيب المطلق هذا لله ﷻ وحده، يعلم ما غاب عن الخلق مطلقا، حتى الأمور المستقبلة يعلمها ﷻ، يعلمها متى تكون وأين تكون وكيف تكون.

وقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} إنه عليم بذات الصدور؛ أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، والقلوب هي محل العقل والتفكير والإرادة، فهو عليم بها ﷻ، وإخبار الله تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض يقصد منه التحذير من المخالفة، والترغيب في الموافقة.

فأنت إذا وافقت الله ﷻ فلن يضيع عملك؛ لأنه معلوم لله، وإن خالفت فلن يضيع؛ لأنه معلوم لله؛ لكنه بشارة بالنسبة للطائعين، وإنذار بالنسبة للمخالفين العاصين.

(١) قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ} [فاطر: ٣٩]، أي:"الله هو الذي جعلكم -أيها الناس- يَخْلُف بعضكم بعضًا في الأرض".

=

=

قال الطبري: يقول:"الله الذي جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض من بعد عاد وثمود، ومن مضى من قبلكم من الأمم فجعلكم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم".

قال الزجاج:"{خلائف} جمع: خليفة، المعنى جعلكم أمة خلفت من قبلها - ورأت وشاهدت فيمن - سلف ما ينبغي أن يعتبر به".

قال ابن كثير:"أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} [النمل: ٦٢] ".

قال قتادة:"أمة بعد أمة، وقرنًا بعد قرن".

قوله تعالى: {فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ} [فاطر: ٣٩]، أي:"فمن جحد وحدانية الله منكم فعلى نفسه ضرره وكفره".

قال الطبري: يقول:"فمن كفر بالله منكم أيها الناس فعلى نفسه ضر كفره، لا يضر بذلك غير نفسه، لأنه المعاقب عليه دون غيره".

قال ابن كثير:"أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره".

قوله تعالى: {وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا} [فاطر: ٣٩]، أي:"ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا بغضًا وغضبًا".

قال الطبري: يقول:"ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا بعدًا من رحمة الله".

قال ابن كثير:"أي: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله".

قوله تعالى: {وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا} [فاطر: ٣٩]، أي:"ولا يزيدهم كفرهم بالله إلا ضلالا وهلاكًا".

قال الطبري: " يقول: ولا يزيد الكافرين كفرهم بالله إلا هلاكا".

قال ابن كثير:"أي: وكلما استمروا في كفرهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله، ارتفعت

=

=

درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين، فسبحان المقدر المدبر رب العالمين ".

قال العثيمين: قوله تعالى {هو الذي جعلكم} الضمير يعود على الله في قوله تعالى: {إن الله عالم غيب السماوات والأرض}.

وقوله تعالى: {جعلكم خلائف} صيركم خلائف، وخلائف جمع خليفة، والخليفة بمعنى الخالف الذي يخلف من سبقه، وهذه الخلافة تشمل خلافة القرون بعضها بعضا كالشباب مثلا يخلف الشيوخ والكبار، والأحياء يخلفون الأموات.

وتشمل الخلافة خلافة السلطة بأن يذهب سلطان شخص إلى سلطان شخص آخر، فينتقل الملك من شخص إلى شخص بالقوة مع بقاء الأول، لقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير} [آل عمران: ٢٦].

فالخلافة إذن: خلافة القرون بعضها بعضا، وخلافة الملوك بعضهم بعضا الذين يخلف بعضهم بعضا في السلطة والإمرة على الخلق.

وقوله تعالى: {فمن كفر فعليه كفره} من كفر فعليه كفره ولا يضر غيره شيئا ولا يضر الله شيئا أيضا، وهذا كقوله تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها} [فصلت: ٤٦] فكفر الإنسان على نفسه وليس يضر غيره شيئا.

أما قوله تعالى: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} [الأنفال: ٢٥] فإن هذا من باب تعميم العقوبة التي لا يخلو منها تقصير بعض أهل الإحسان، أما لو قاموا بما يجب عليهم فإن العقوبة لا تعمهم؛ لأن الله تعالى يقول: {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون} [الزمر: ٦١].

=

=

ولأن الواقع شاهد بذلك؛ فنوح وهود وغيرهما من الرسل أنجاهم الله مع أنه أخذ أقوامهم بالعقوبة.

يقول ﷻ: {فمن كفر فعليه كفره} أي: وبال كفره {ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا}؛ كفر الكافرين عند الله لا يزيدهم إلا مقتا، لا يزيدهم عند الله محاباة لهم أو رحمة بهم؛ لأن الحجة قامت عليهم، فكلما ازدادوا كفرا ازدادوا مقتا.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في {مقتا}: [غضبا] والمعروف أن المقت أشد البغض؛ قال الله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} [الصف: ٢ - ٣]، وقال تعالى: {إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون} [غافر: ١٠].

وهذا يدل على أن المقت هو البغض، لكنهم قالوا: إنه أشد البغض فتفسير المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له بالغضب فيه نظر.

قال: {ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا} فبين هنا أن الكفر سبب لشيئين:

الشيء الأول: نزول مرتبة الكافر؛ فإن كفره لا يزيده عند الله إلا بغضا.

والثاني: العقوبة التي تحصل له، وذلك بالخسارة؛ إذ يخسر نفسه وأهله ودنياه وآخرته؛ قال تعالى: {قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين} [الزمر: ١٥] هو خسر نفسه؛ لأنه لو آمن لربح ونال ثواب الآخرة بالجنة، وهذا ربح؛ أما الآن فقد أهلك نفسه ففاتت عليه، فخسر أهله؛ لأنه لو آمن واتبعه أهله بالإيمان صاروا في الجنة في منزلة واحدة، وخسر دنياه لأنه لم يستفد من وجوده في الدنيا شيئا، بل استفاد الخسارة والعمل السيئ، وخسر الآخرة أيضا؛ لأنه فاته النعيم المقيم في الآخرة وصار من

=

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠).

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره وَهُمْ الْأَصْنَام الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاء الله تَعَالَى {أَرُونِي} أَخْبِرُونِي {مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْض أَمْ لَهُمْ شِرْك} شركة مع الله {فِي} خلق {السماوات أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَة} حُجَّة {مِنْهُ} بِأَنَّ لَهُمْ مَعِي شَرِكَة لَا شَيْء مِنْ ذَلِكَ {بَلْ إنْ} مَا {يَعِد الظَّالِمُونَ} الْكَافِرُونَ {بَعْضهمْ بَعْضًا إلَّا غُرُورًا} بَاطِلًا بِقَوْلِهِمْ الأصنام تشفع لهم[1].

=

أصحاب الجحيم.

فلا أحد أعظم خسارة من الكافر، والعياذ بالله، حتى وإن كان في الدنيا منعما نعمة جسد فهو في الحقيقة معذب عذاب قلب؛ لأنه ليس عند الكافر انشراح صدر كما عند المسلم، يقول الله تعالى: {أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه} [الزمر: ٢٢] يعني: فمن لم يكن كذلك فهو على ظلمة.

(١) قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [فاطر: ٤٠].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {قُلْ} يا محمد لمشركي قومك {أَرَأَيْتُمْ} أيها القوم {شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ..} ".

قال ابن كثير: "يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين: {أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} أي: من الأصنام والأنداد".

قال الزمخشري: "«أروني» بدل من «أرأيتم»: لأن المعنى: أرأيتم أخبرونى، كأنه قال: أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة".

=

=

قوله تعالى: {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ} [فاطر: ٤٠]، أي:"أروني أيَّ شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله؟ ".

قال الطبري:"يقول: أروني أي شيء خلقوا من الأرض".

قال الزمخشري:"أرونى أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله".

قال قتادة:"لا شيء والله خلقوا منها".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ} [فاطر: ٤٠]، أي:"أم أن لشركائكم الذين تعبدونهم من دون الله شركًا مع الله في خلق السموات".

قال الطبري:"يقول: أم لشركائكم شرك مع الله في السماوات إن لم يكونوا خلقوا من الأرض شيئًا".

قال الزمخشري:"أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات".

قال ابن كثير:"أي: ليس لهم شيء من ذلك، ما يملكون من قطمير".

قال قتادة:"لا والله ما لهم فيها شرك".

قوله تعالى: {أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ} [فاطر: ٤٠]، أي:"أم أعطيناهم كتابًا فهم على حجة منه؟ ".

قال الطبري:"يقول: أم آتينا هؤلاء المشركين كتابًا أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا بالله الأوثان والأصنام، فهم على بينة منه، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الإشراك بي".

قال الزمخشري:"أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب".

قال ابن كثير:"أي: أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر".

قال قتادة:"يقول: أم آتيناهم كتابًا فهو يأمرهم أن يشركوا".

قوله تعالى: {بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا} [فاطر: ٤٠]،

=

=

أي:"بل ما يَعِدُ الكافرون بعضهم بعضًا إلا غرورًا وخداعًا".
قال ابن كثير: أي: " ليس الأمر كذلك، بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور".
قال الزمخشري:" {بل إن يعد بعضهم}: وهم الرؤساء، {بعضا}: وهم الأتباع {إلا غرورا}: وهو قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله".
قال الطبري:"وذلك قول بعضهم لبعض {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، خداعًا من بعضهم لبعض وغرورًا، وإنما تزلفهم آلهتهم من النار، وتقصيهم من الله ورحمته".
قال العثيمين: قوله تعالى: {قل أرأيتم} يعني أخبروني و {شركاءكم} مفعول أول، يعني (أرأيت) تنصب ثلاثة مفاعيل، مفعول أول صريح منطوق به والمفعول الثاني والثالث معلق بهمزة الإستفهام، فهنا {أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض} لكن هنا قال: {أروني} من باب التحدي؛ أخبروني عن شركائكم، وقوله تعالى: {شركاءكم} يعني الذين جعلتموهم شركاء، فالإضافة هنا باعتبار جعلهم؛ أي: جعل العابدين لها شريكة مع الله.
وقوله تعالى: {الذين تدعون} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [تعبدون] فحول الدعاء إلى معنى العبادة، ولا شك أن الدعاء يأتي بمعنى العبادة؛ كقوله تعالى: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي} [غافر: ٦٠] ولم يقل عن دعائي، فهذا دليل على أن الدعاء بمعنى العبادة.
ولكن لو قال قائل: إن قوله تعالى: {تدعون} شامل لدعاء المسألة، وهو طلب الحاجة ودعاء العبادة؛ لكان أولى لأن هذه الأصنام التي يدعونها، فأحيانا يجمعون بين الأمرين فيركعون لها ويسجدون ويذبحون وينذرون وأحيانا
=

يدعونها دعاء، وأحيانا يجمعون بين الأمرين؛ فالأولى أن نجعل الآية شاملة لدعاء المسألة ودعاء العبادة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {قل} يا محمد {أرأيتم} والخطاب بقل هنا خطاب لمفرد، وإذا جاء مثل هذا في القرآن فإما أن يكون مما يختص به الرسول ﷺ، فالأمر فيه واضح؛ كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١]، {ياأيها الرسول بلغ} [المائدة: ٦٧]، وما أشبهها فهذا خاص بالرسول.

وإذا جاء مفردا وليس خاصا بالرسول عليه الصلاة والسلام يعني لم يقم دليل على اختصاصه به – فهل نقول إن الخطاب موجه لكل من يتأتى خطابه، أو إنه موجه إلى الرسول وأمته تبع له، وإنما وجه إليه وحده باعتباره الإمام المتبوع؟

الجواب: في هذا خلاف بين أهل العلم رحمهم الله، والخلاف هنا قريب من اللفظي لأن الكل متفقون على أن الحكم يشمل الأمة؛ إذ لا دليل على اختصاص الرسول ﷺ به، بخلاف قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} فهذا خاص بالرسول؛ لأنه ليس كل أحد قد شرح الله له صدره.

فهنا قوله تعالى: {قل أرأيتم شركاءكم} الخطاب هنا لمفرد، فهل هو للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه؟

قيل: إنه لكل من يتأتى خطابه، وقيل: للرسول باعتباره الإمام، وغيره مثله، حتى في زمننا هذا نقول للمشركين: أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض.

وسبق أن المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر الدعاء هنا بالعبادة، وقلنا إنه تفسير ناقص؛ لأن الدعاء يكون للعبادة ويكون للمسألة، والمشركون أشركوا بشركائهم بالنوعين جميعا؛ فقد يدعون هؤلاء الشركاء وقد يعبدونهم.

وسبق أنهم يقولون إن الأصنام شركاء لله ﷻ؛ حتى إن المشركين يقولون في

=

تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{أروني} أخبروني {ماذا خلقوا من الأرض} قوله تعالى: {ماذا خلقوا من الأرض} من حيث الإعراب يجوز فيها وجهان:

الوجه الأول: أن نعرب (ماذا) جميعا على أنها اسم استفهام مفعول مقدم لـ (خلقوا).

والثاني: أن نعرب (ما) وحدها على أنها اسم استفهام، و (ذا) بمعنى الذي، وعلى هذا فيكون في {خلقوا} ضمير محذوف هو العائد لاسم الموصول، والتقدير: ماذا خلقوه من الأرض.

والمعنى لا يختلف، فهؤلاء يتحدون ويقال أرونا ماذا خلقوا من الأرض؟ هل خلقوا الجبال؟ هل خلقوا الأشجار؟ هل خلقوا الرمال والأنهار والبحار؟

الجواب: ما خلقوا شيئا من هذا.

وننتقل إلى أعلى، قال تعالى: {أم لهم شرك في السماوات} وهنا ما قال: أم خلقوا شيئا من السموات، بل قال: أم لهم شرك؛ لأن السموات ليست في متناول أيديهم، لكن يحتمل أن يكون لهم فيها مشاركة، فالذي لهم متناول فيه قيل: ماذا خلقوا؛ لجواز أن يقول قائل: لهم شرك في الأرض، فهذا مثلا له فسحة يأتي الناس إليه وهي حريم قبره مثلا؛ فنقول هل خلقوا هذا؟ فإذا ادعيتم أن هذه الأرض مثلا له وأنها أوقفت على هذا القبر لزائريه أو ما أشبه ذلك، فهل خلقوها؟ !

لكن في السموات ما قال: ماذا خلقوا في السموات، بل قال: {أم لهم شرك} لا على سبيل الخلق ولا على سبيل التملك، أم لهم شرك؛ شركة مع الله في خلق السموات.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في خلق السموات] فيه نظر، بل الصواب أن نقول: في

=

=

السموات سواء كان ذلك عن طريق التملك أو عن طريق الخلق.

والجواب: لا، لا هذا ولا هذا.

وقوله تعالى: {أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه}؟

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن لهم معي شركة]، يعني: أو عندهم، إذا قلتم لم يخلقوا شيئا من الأرض وليس لهم شركة في السموات، فنقول: وهل عندهم كتاب وهم على بينة؛ حجة بأنهم شركاء مع الله؟

والجواب: لا؛ فكل هذه التقسيمات كلها منتفية بالنسبة للأصنام، فلم يخلقوا شيئا من الأرض، وليس لهم شركة في السموات، وليس معهم بينة من الله؛ كتاب بأنهم شركاء مع الله، وإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة، لا خلق ولا مشاركة ولا وثيقة؛ تبين بطلانها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{بل إن} (ما)] يعني أن (إن) نافية هنا بمعنى (ما).

[{يعد الظالمون} الكافرون {بعضهم بعضا إلا غرورا} باطلا لقولهم: الأصنام تشفع لهم] يعني: أن ما يعد الظالمون بعضهم بعضا فهو غرور، أي تغرير وخداع، وليس له حقيقة، والوعد الذي يعد به الظالمون بعضهم بعضا أنهم يقولون هذه الأصنام تشفع لكم عند الله؛ فاعبدوا محمدا ﷺ! اعبدوا جبريل! اعبدوا الشجر! اعبدوا اللات! اعبدوا العزى! فإنها تشفع لكم؛ قال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} [يونس: ١٨] فكيف يعبدونهم ثم يقولون شفعاء؟

الجواب: الشافع درجته دون درجة المشفوع إليه، إذ لو كان مساويا - أو أعلى - ما احتاج أن يشفع؛ فإن كان أعلى أمر أمرا، وإن كان مساويا غالبه فأيهما غلب تكون السلطة له.

وعلى كل حال نقول: إن الظالمين يغر بعضهم بعضا بالباطل حتى يخدعوا

=

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١).

{إن الله يمسك السماوات وَالْأَرْض أَنْ تَزُولَا} أَيْ يَمْنَعهُمَا مِنْ الزَّوَال {ولئن} لام قسم {زَالَتَا إنْ} مَا {أَمْسَكَهُمَا} يُمْسِكهُمَا {مِنْ أَحَد مِنْ بَعْده} أَيْ سِوَاهُ {إنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} فِي تَأْخِير عِقَاب الْكُفَّار[1].

=

ويظنوا أن الباطل حق وأن الحق باطل.

والتغرير: تارة يكون بالأقوال الكاذبة الملفقة التي ليس لها أصل، وتارة يكون بالألقاب السيئة التي تشوه السمعة، فأما الأقوال الكاذبة فمثل قولهم - فيما حكى الله عنهم -: {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها} [الأعراف: ٢٨] قولهم: {والله أمرنا} بها هذا كذب وزور؛ ولهذا قال الله تعالى مبطلا لهذه الدعوى: {قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون} هذا من جملة التغرير: أن يدعوا قولا كذبا وزورا.

أو بالألقاب السيئة، قال تعالى: {وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤) أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} [ص: ٤ - ٥] فأتوا بالألقاب السيئة: ساحر وكذاب.

فالعامة إذا قيل لهم - ولا سيما إذا كان القائل زعماء -: هذا ساحر أو كذاب؛ لا يتبعونه، وإذا قيل لهم - أي للعامة - إنكم إذا عبدتم الولي الفلاني أو القبر الفلاني فإن ذلك ينفعكم فإن العامة تنخدع؛ لأنه ليس عندها علم، وليس عندها عقل ولب، فتنخدع.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: ٤١].

قال الطبري:"لئلا تزولا من أماكنهما".

=

قال ابن كثير: " أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥] ".

عن السدي: {أَنْ تَزُولَا}، يعني:"لئلا تزولا".

عن قتادة، قوله: " {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} من مكانهما".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ} [فاطر: ٤١]، أي:"ولئن زالت السماوات والأرض عن مكانهما ما يمسكهما من أحد من بعده".

قال الطبري:"يقول: ولو زالتا، ما أمسكهما أحد سواه".

قال ابن كثير: " أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو".

عن هارون بن موسى الأعور-من طريق النضر-:"{ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده}، تفسيرها في قول أبيّ: لو زالتا. وهي لغة أهل اليمن، يجعلون «لو»: «لئن» في كلام أهل اليمن".

قال أَبو وائل: "جاء رجل إلى عبد الله فقال: من أين جئت؟ قال: من الشأم. قال: من لَقيتَ؟ قال: لقيتُ كعبًا. فقال: ما حدثك كعب؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب ملك. قال: فصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته. قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها، وكذب كعب، إن الله يقول: {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه} ".

قال إبراهيم: "ذهب جُندَب البَجَلي إلى كعب الأحبار فقدم عليه ثم رجع فقال له عبد الله: حدثنا ما حدثك. فقال: حدثني أن السماء في قطب كقطب الرحا، والقطب عمود على منكب ملك. قال عبد الله: لوددت أنك افتديت رحلتك بمثل راحلتك، ثم قال: ما تنتكت اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه، ثم

=

قال: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} كفى بها زوالا أن تدور".
قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: ٤١]، أي:"إن الله كان حليمًا في تأخير العقوبة عن الكافرين والعصاة، غفورًا لمن تاب من ذنبه ورجع إليه".
قال الطبري: يقول:"إن الله كان حليمًا عمن أشرك وكفر به من خلقه فى تركه تعجيل عذابه له، غفورًا لذنوب من تاب منهم، وأناب إلى الإيمان به، والعمل بما يرضيه".
قال ابن كثير: "وهو مع ذلك حليم غفور، أي: يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعْجَل، ويستر آخرين ويغفر".
عن قتادة:"{إنه كان حليما} عن خلقه، فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض، {غفورا} لهم إذا تابوا".
قال الحسن:"الحليم: الرحيم".
قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".
عن أبي هريرة، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى ﷺ على المنبر، قال: وقع في نفس موسى: هل ينام الله تعالى ذكره؟ فأرسل الله إليه ملكا فأرّقه ثلاثا، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، أمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى، ثم نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله مثلا له أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض".
قال ابن كثير:"والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة فإن موسى عليه السلام أجَلّ من أن يُجَوّز على الله سبحانه وتعالى النوم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بأنه: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي

=

=

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [البقرة: ٢٥٥]. وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القِسْطَ ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»."

قال ابن كثير:"وروي عن مالك أنه قال: «السماء لا تدور». واحتج بهذه الآية، وبحديث: «إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه» ".

قال العثيمين: ثم قال تبارك وتعالى مبينا تمام قدرته ومنته على عباده: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: يمنعهما من الزوال].

قوله تعالى: {إن الله يمسك السماوات والأرض} الإمساك بمعنى القبض على الشيء والتمكن منه، وفسره المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ بالمنع وهو لازم للإمساك.

وقوله تعالى: {أن تزولا} أن هذه مصدرية حذف منها حرف الجر؛ لأنه يطرد حذف حرف الجر مع (أن) و (أن) إذا أمن اللبس، وهنا اللبس مأمون، وإذا كان الكلام على تقدير (من) فحول (أن) وما دخلت عليها إلى مصدر يكن سبك الكلام: إن الله يمسك السموات والأرض من الزوال.

وقوله تعالى: {السماوات والأرض} ترد هذه العبارة كثيرا في القرآن، وهي جمع السموات وإفراد الأرض، ولم تأت الأرض مجموعة في القرآن بلفظها، ولكن جاءت بلفظ يدل على التعدد، وهو قوله تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢] فإن المثلية هنا تتعين أن تكون في العدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السموات في الحجم ولا مثلها في الصفة، وإذا امتنع أن تكون مماثلة للسماء في الحجم وفي الصفة تعين أن تكون مماثلة

=

=

للسماء في العدد.

والسنة جاءت باللفظ الصريح من أن الأرضين سبع؛ كما في قوله ﷺ: "من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه يوم القيامة من سبع أرضين".

وقوله تعالى: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسم] اللام لام القسم و (إن) شرطية و {زالتا} الفعل هنا فعل الشرط، و {إن أمسكهما} الجملة جواب الشرط و {إن} هنا يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] أي تكون نافية {أمسكهما} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يمسكهما] إشارة إلى أن {أمسكهما} فعل ماض لكنه بمعنى المضارع، لأنه وقع جوابا للشرط، ومعلوم أن جواب الشرط يكون للمستقبل ولا يكون للماضي؛ لأنه لا يكون إلا بعد تحقق الشرط، وتحقق الشرط أمر مستقبل.

وقوله تعالى: {من أحد من بعده}: (من) هذه زائدة زائدة؛ زائدة في الإعراب ولكنها تزيد في المعنى.

و(زائدة) اسم فاعل من زاد يزيد، ونحن نعرف أن زاد يأتي متعديا ويأتي لازما، فإذا قلت: زاد الشيء؛ يعني: ارتفع وكثر، وما أشبه ذلك، فهي لازمة، وإذا قلت زدته خيرا صارت متعدية؛ لهذا نقول: هي زائدة زائدة؛ ولهذا يقول بعض الناس - إذا رأى هذا الكلام -: هذا تناقض كيف يكون الشيء (زائدا زائدا)؟

ونقول: (من) زائدة إعرابا زائدة معنى؛ فتزيد في المعنى وهو تأكيد النفي.

وقوله تعالى: {أحد} فاعل أمسك مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

والمعنى: لئن قدر أن تزول السموات والأرض فإنه لا أحد يستطيع أن يمسكهما سوى الله ﷻ وهو كذلك؛ وهذا هو الواقع، بل لو زال ما دون السموات والأرض من النجوم والكواكب والشمس والقمر ما استطاع أحد أن يمسكه

=

=

سوى الله ﷻ، بل لا يستطيع أحد أن يصرف شيئا من هذه الكواكب أو النجوم أو الشمس أو القمر؛ أن يصرفه عن جهة سيره إلا الله ﷻ، ولا أن يمنعه من سيره إلا الله ﷻ.

قال في الإعراب هنا: قلنا إن اللام في (لئن) لام القسم و (إن) شرطية و (إن أمسكهما) جواب القسم؛ لأن لدينا قاعدة: إذا اجتمع الشرط والقسم حذف جواب المتأخر منهما، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقررا هذه القاعدة:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزم

إذن: فالمؤخر هنا الشرط، فيكون جوابه هو المحذوف؛ دل عليه جواب القسم.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إنه كان حليما غفورا} أي في تأخير عقاب الكفار].

قوله تعالى: {إنه كان حليما} هذه الجملة مناسبتها لما قبلها أنها تعليل لما قبلها، فارتباطها به ارتباط العلة بالمعلول؛ يعني أنه في إمساكه للسموات والأرض كان حليما غفورا، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض وهلك من فيهما.

و(الحليم) اسم من أسماء الله، ومعناه ذو الحلم، والحلم هو تأخير العقوبة عن مستحقها، تأخير عقوبة وليس ترك عقوبة؛ لأن ترك العقوبة عفو، ولكن تأخير العقوبة عن المسيء يسمى هذا حلما؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

فبحلمه ﷻ تتأخر العقوبات؛ لعل الناس يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: {غفورا} هذا، يغفر الذنب ويمحو أثره بالكلية، وسبق لنا: أن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ وذلك لأنها مأخوذة من المغفر الذي يغطي الرأس ويقيه السهام، وليست - كما قيل - مجرد الستر؛ لأن مجرد الستر لا تحصل به الوقاية، بل لا بد مع الستر من الوقاية.

ويدل لهذا المعنى قوله سبحانه وتعالى لعبده إذا خلا به وقرره بذنوبه يقول:

=

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢).

{وَأَقْسَمُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة {بِاَللهِ جَهْد أَيْمَانهمْ} غَايَة اجْتِهَادهمْ فِيهَا {لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِير} رَسُول {لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَم} الْيَهُود وَالنَّصَارَى وَغَيْرهمْ أَيْ أَيّ وَاحِدَة مِنْهَا لِمَا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيب بَعْضهمْ بَعْضًا إِذْ قَالَتْ الْيَهُود لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْء وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُود عَلَى شَيْء {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِير} مُحَمَّد ﷺ {مَا زَادَهُمْ} مَجِيئُهُ {إِلَّا نُفُورًا} تَبَاعُدًا عَنْ الْهُدَى[1].

=

"كنت سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم"؛ فإن هذا يدل على أن الستر غير المغفرة، وأن المغفرة لا بد فيها من عدم المؤاخذة وعدم العقوبة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن أبي هلال: أنه بلغه: أن قريشًا كانت تقول: لو أن الله بعث نبيًا ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع ولا أشد تمسكًا بكتابها منا؛ فأنزل الله: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)} [الصافات: ١٦٧، ١٦٨]، {لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} [الأنعام: ١٥٧]، {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} وكانت اليهود تستفتح به على النصارى، فيقولون: إنا نجد نبيًا يخرج.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٣٥ - ٣٩)، و"لباب النقول" (ص ١٨١) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله، أو إعضاله.

* قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} [فاطر: ٤٢].

قال الطبري: يقول:"وأقسم هؤلاء المشركون بالله جهد أيمانهم، يقول: أشد

=

=

الإيمان فبالغوا فيها، لئن جاءهم من الله منذر ينذرهم بأس الله ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولا لما يأتيهم به النذير من عند الله، من إحدى الأمم التي خلت من قبلهم".

قال الزجاج:"يعني: المشركين، وكانوا حلفوا واجتهدوا {لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم}، أي: من اليهود والنصارى وغيرهم".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، قبل إرسال الرسول إليهم: {لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ} أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل.. كقوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]، وكقوله تعالى: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠]".

عن ابن جريج، في قوله: {وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ} قال: قريش {لَيَكُونُنَّ أهْدى مِن إحْدى الأُمَمِ} قال: أهل الكتاب".

عن مجاهد: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم}، قال: هي يمين".

عن مجاهد، قال: القسَمُ يمين. ثم قرأ: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم} ".

عن زائدة، قال: "قرأ سليمان الأعمش وزعم أن يحي بن وثاب قرأ: "وأقسموا بالله جهد أيمانهم" هو الحلف".

قال محمد بن السائب الكلبي: "إذا حلف الرجلُ بالله سبحانه فهو جَهْدٌ بيمينه".

عن أبي هلال:"أنه بلغه أن قريشا كانت تقول: أن الله بعث منا نبيا ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ولا أسمع لنبيها ولا أشد تمسكا بكتابها منا، فأنزل الله: {لَوْ

=

أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ} [الصافات: ١٦٨] {لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُم} [الأنعام: ١٥٧]، {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} [فاطر: ٤٢]، وكانت اليهود تستفتح به على الأنصار فيقولون: إنا نجد نبيا يخرج".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا} [فاطر: ٤٢]، أي:"فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم ذلك إلا بُعْدًا عن الحق ونفورًا منه".

قال الطبري:"يقول: فلما جاءهم محمد ينذرهم عقاب الله على كفرهم، ما زادهم مجيئه من الإيمان بالله واتباع الحق وسلوك هدى الطريق، إلا نفورًا وهربًا".

قال الزجاج:"{فلما جاءهم نذير}، وهو محمد ﷺ، {ما زادهم إلا نفورا}، إلا أن نفروا عن الحق".

قال ابن كثير:"{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ} - وهو: محمد ﷺ - بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين، ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم".

عن قتادة، قوله: " {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}، وهو محمد ﷺ".

قال العثيمين: ثم قال الله سبحانه وتعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم} أقسموا؛ قال المفسر رحمه الله: [أي كفار مكة] وهذا يحتمل ما قاله رحمه الله من أن الضمير يعود على كفار مكة، ويحتمل أنه أعم وأن من الناس من أقسموا وهم من غير كفار مكة.

وقوله تعالى: {وأقسموا بالله} أي حلفوا به، وقوله تعالى: {جهد أيمانهم} أي غاية الأيمان؛ يعني: الأيمان التي بذلوا فيها الجهد وهي أيمان مغلظة بصيغتها كمية وكيفية، فالأيمان المغلظة بصيغتها كمية وكيفية هي الأيمان التي بلغت الجهد؛ أيك غاية الطاقة بالنسبة للمقسم.

=

والأيمان - كما قال العلماء رحمهم الله تغلظ بالكمية والكيفية والزمان والمكان والهيئة؛ خمسة أشياء:

١ - بالكمية؛ مثل: أن يقول: والله والله الذي لا إله إلا هو العظيم العزيز الغالب، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تدل على الإنتقام فيما لو كان الإنسان كاذبا.

٢ - بالكيفية؛ بأن يأتي بها يعني بانفعال شديد يدل على تأثره بالقسم.

٣ - وأما في الزمان؛ فأن تكون بعد صلاة العصر؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: {تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله} [المائدة: ١٠٦] أي: من بعد صلاة العصر.

٤ - وفي المكان؛ بحيث يكون الإقسام في مكان فاضل، وأفضل الأماكن في البلدان المساجد، قالوا: وتكون عند المحراب أو المنبر في الجوامع وعند الكعبة؛ بعضهم قال تحت الميزاب وفي الروضة في المدينة.

٥ - وفي الهيئة؛ بأن يكون قائما لأنه يحلف وهو قائم، قال العلماء رحمهم الله: لأن العقوبة أقرب إلى القائم منها إلى القاعد.

فهذه خمسة أشياء في تغليظ اليمين.

لكن هل هؤلاء الكفار أقسموا جهد أيمانهم على هذه بهذه التغليظات الخمسة؟ الله أعلم.

وعلى كل حال: هم بذلوا أقصى ما يستطيعون من اليمين: {لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم}.

وقوله تعالى: {لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم} هذه الجملة نقول في إعرابها كما قلنا في الجملة الأولى {ولئن زالتا إن أمسكهما} اجتمع فيها شرط وقسم وحذف جواب الشرط، ولهذا جاءت اللام في الجواب: {ليكونن} ولو كان المحذوف جواب القسم لم تأت اللام في الجواب؛ لأن جواب الشرط

=

=

لا يحتاج إلى اللام وإنما يربط بالفاء في محله وبحذفها ولا يحتاج إلى رابط إذا لم يكن من المواضع السبعة المعروفة.

يقول الله ﷻ: {لئن جاءهم نذير} بمعنى منذر، وهو الرسول {ليكونن أهدى من إحدى الأمم} قوله تعالى: {ليكونن} بضم النون وهو مشكل: كيف ضمت النون، والمعروف أن الفعل المضارع مع نون التوكيد يبنى على الفتح؛ كما في قوله تعالى: {لينبذن في الحطمة} [الهمزة: ٤] وهنا قال: {ليكونن}؟

والجواب على ذلك: أن نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظا وتقديرا، والنون هنا مباشرة للفعل لفظا لكنها غير مباشرة له تقديرا؛ لأن الفعل هنا للجماعة وليس للمفرد، وأصله (يكونونن) فحذفت النون لتوالي الأمثال؛ لأنهم يقولون إن العرب يكرهون أن تجتمع ثلاث كلمات من نوع واحد بعضها إلى بعض فيحذفون أولاها بالحذف، وأولاها بالحذف على حسب قياسهم نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد، ولأن نون التوكيد جاءت لمعنى لو حذفت لاختل ذلك المعنى؛ لأنها جاءت للتوكيد فلا نحذفها، لكن نحذف نون الرفع؛ لأن حذفها معتاد؛ فحذفنا نون الرفع، وهي النون الأولى من الثلاثة؛ بقيت الواو تلي النون، والنون حرف مشدد في هذا التركيب والحرف المشدد أوله ساكن فحذفنا الواو لالتقاء الساكنين فصارت {ليكونن} حذفنا الواو التي بين نون الفعل؛ لأن النون في (يكونن) نون الفعل؛ ولهذا ما حذفناها لأنها أصيلة، وحذفنا الواو لالتقاء الساكنين.

فإن قال قائل: عندنا الآن ثلاث نونات، فلماذا لا تحذفوا واحدة منها؟

فالجواب: أولا: أن هذه النونات ليست متصلة تقديرا، يعني ليس بعضها متصلا ببعضها الآخر من حيث التقدير؛ لأن كان قد فصل بينهما الواو التي حذفناها لالتقاء الساكنين.

=

=

ثانيا: أن النون التي بعد الواو في {ليكونن} النون الموجودة الآن نون الفعل فهي من بنية الكلمة ولا يمكن أن تحذف.

على كل حال: يجب أن نعرف الفرق بين (ليكونن) وبين (ليكونن)؛ ففي القرآن (ليكونن) كقوله تعالى: {ليسجنن وليكونا من الصاغرين} [يوسف: ٣٢].

ففرق بين ليكونن وبين ليكونن:

فقوله: (ليكونن) هذه للواحد؛ ولهذا بني الفعل معها على الفتح لاتصاله بنون التوكيد لفظا وتقديرا، و (ليكونن) للجماعة؛ ولهذا لم يبن الفعل معها؛ لأن نون التوكيد لم تباشره تقديرا.

إذن: نون التوكيد لا يبنى معها الفعل إلا إذا كانت مباشرة له لفظا وتقديرا، وفي هذه الجملة: {ليكونن} لم تباشره تقديرا، أما لفظا فقد باشرته، وإنما قلنا لم تباشره تقديرا؛ لأنه حذف منها واو الجماعة، فلم تباشره تقديرا.

وقوله تعالى: {أهدى من إحدى الأمم}: {أهدى} هذه خبر (يكون) فهي منصوبة به بالفتحة المقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر، وهو اسم تفضيل.

وقوله تعالى: {من إحدى الأمم} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [اليهود والنصارى وغيرهم؛ أي: أي واحدة منها؛ لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضا؛ إذ قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء].

وقوله تعالى: {أهدى من إحدى الأمم} فأتوا بـ {إحدى} الدالة على الإبهام، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا أهدى من اليهود، بل قالوا: أهدى من إحدى الأمم؛ لأن الأمر التبس عليهم؛ حيث إن اليهود يقولون ليست النصارى على شيء والنصارى يقولون ليست اليهود على شيء، وهؤلاء المشركون - كفار مكة - أمة جاهلية لا يدرون من الحق معه، فلم يقولوا: أهدى من النصارى ولا

=

=

أهدى من اليهود، بل قالوا: أهدى من إحداهما؛ أهدى من أي واحدة؛ لأن الأمر عندهم التبس.

ولكن يبقى النظر: ما هو الدليل على تخصيص كلمة {الأمم} بالأمتين اليهودية والنصرانية، ولماذا لا يقال إنها أعم من اليهود والنصارى، فهناك مجوس يدينون بعبادة النيران، ويمكن أن يوجد أناس آخرون يدينون بديانة أخرى؟

الجواب: إما أن نلتزم بالعموم ونقول: إنهم يقولون أهدى من إحدى الأمم؛ من أي أمة كانت من اليهود أو النصارى أو المجوس أو الوثنيين الذين يعتقدون أنهم على دين أو ما أشبه ذلك، فكأنهم يقولون أهدى من كل الأمم، لكن لم يعينوا لأنهم لم يدروا من هو الذي على حق.

وإما أن يقال خص هذا الجانب بأمتين فقط لأن المعروف أنهم على دين هم اليهود والنصارى.

وقوله تعالى: {فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا} هنا قال الله ﷻ: {فلما جاءهم نذير} ولم يقل: فلما جاءهم الرسول؛ ليطابق ما قالوه حتى يكون أبلغ في إلزامهم بما قالوا؛ لأنهم قالوا: إن جاءهم نذير ليكونن، فلما جاءهم نذير على حسب ما فرضوه وما قدروه: جاء الأمر كذلك؛ فلما جاءهم نذير كما يقولون هم، والمراد به محمد ﷺ بلا شك، ولكن - كما أشرت - نكر ولم يعرف متابعة لكلامهم؛ حيث قالوا لئن جاءنا نذير؛ يعني: فلما جاءهم نذير، وكما طلبوا تماما وباللفظ: {ما زادهم إلا نفورا}.

وقوله تعالى: {فلما} هنا شرطية، وفعل الشرط {جاءهم} وجوابه {ما زادهم إلا نفورا}.

و (لما) تأتي في اللغة العربية على أوجه:

أحدها - كما هنا -: شرطية.

=

اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا (٤٣).

{اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْض} عَنْ الْإِيمَان مَفْعُول لَهُ {ومكر} العمل {السيء}

=

والثاني: أن تأتي جازمة كـ (لم) إلا أنه بينهما فروقا ليس هذا موضع ذكرها؛ لأننا لا نتكلم عن النحو؛ كقوله تعالى: {بل لما يذوقوا عذاب} [ص: ٨] أي: بل لم يذوقوا عذابي، ولكنهم حريون بأن يذوقوه.

والثالث: أن تكون بمعنى (إلا) كقوله تعالى: {إن كل نفس لما عليها حافظ} [الطارق: ٤] أي: إلا عليها حافظ.

والرابع: أن تكون بمعنى (حين) مجردة عن الشرط؛ مثل أن تقول: زرتك لما طلع الصبح؛ أي: حين طلع الصبح.

فهذه أربعة معان لـ (لما).

وقوله تعالى: {ما زادهم إلا نفورا}: {ما زادهم} قال المفسر رَحِمَهُ اللهُ: [مجيئه] يعني أنهم جاءهم نذير كما فرضوا ولكنهم ما كانوا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يزدهم إلا نفورا عن الحق وبعدا عن اتباعه؛ قال: [تباعدا عن الهدى] والعياذ بالله.

وهذا أمر مشاهد؛ فإن قريشا لما بعث فيهم النبي ﷺ نفروا منه وآذوه بالقول وبالفعل، ووصموه بكل عيب، وكانوا قبل أن يبعث يجلونه ويحترمونه ويسمونه (الأمين) فلما بعث لم يكن أمينا وكأنه رجل غير الرجل الذي كانوا يعرفونه!! كل هذا يكذب قولهم: {لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم} [فاطر: ٤٢].

مِنْ الشِّرْك وَغَيْره {وَلَا يَحِيق} يُحِيط {الْمَكْر السيء إلَّا بِأَهْلِهِ} وَهُوَ الْمَاكِر وَوَصْف الْمَكْر بِالسَّيْءِ أَصْل وَإِضَافَته إلَيْهِ قِيلَ اسْتِعْمَال آخَر قُدِّرَ فِيهِ مُضَاف حَذَرًا مِنْ الْإِضَافَة إلَى الصِّفَة {فَهَلْ يَنْظُرُونَ} يَنْتَظِرُونَ {إلَّا سُنَّة الْأَوَّلِينَ} سُنَّة الله فِيهِمْ مِنْ تَعْذِيبهمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ {فَلَنْ تَجِد لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِد لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلًا} أَيْ لَا يُبَدَّل بِالْعَذَابِ غَيْره ولا يحول إلى غير مستحقه(١).

---

(١) قوله تعالى: {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ} [فاطر: ٤٣].

قال الطبري:"يقول: نفروا استكبارًا في الأرض وخدعة سيئة، وذلك أنهم صدوا الضعفاء عن اتباعه مع كفرهم به. والمكر هاهنا: هو الشرك".

قال ابن كثير:"أي: استكبروا عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس في صدِّهم إياهم عن سبيل الله".

قال الزجاج:"{استكبارا} نصب، مفعول له، المعنى: ما زادهم إلا أن نفروا للاستكبار، {ومكر السيئ}، أي: ومكر الشرك".

عن قتادة: " {وَمَكْرَ السَّيِّئِ}، وهو الشرك".

قوله تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: ٤٣]، أي:"ولا يحيط وبال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبَّره".

قال أبو عبيدة:"لا ينزل ولا يجاوز ولا يحيط إلّا بأهله".

قال الطبري:"يقول: ولا ينزل المكر السيئ إلا بالذين يمكرونه، والمعنى: أنه لا يحل مكروه ذلك المكر الذي مكره هؤلاء المشركون إلا بهم".

قال السمعاني:"أي: لا تنزل عقوبة المكر السيئ إلا بأهله، وحقيقة المعنى: أن وبال المكر راجع إليهم".

قال ابن كثير:"أي: وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم".

قال مقاتل:"مكر السيئ قول الشرك، ولا يدور قول الشرك إلا بأهله".

=

=

عن قتادة: " {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ}، وهو الشرك".

عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه:"أن رسول الله ﷺ قال: "إياك ومكر السيئ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولهم من الله طالب".

عن محمد بن كعب القُرَظِي: "ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغي أو نكث، وتصديقها في كتاب الله: {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ}. {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس: ٢٣]، {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠]".

قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ} [فاطر: ٤٣]، أي:"فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل؟ ".

قال الطبري:"فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا سنة الله بهم في عاجل الدنيا على كفرهم به أليم العقاب، يقول: فهل ينتظر هؤلاء إلا أن أحل بهم من نقمتي على شركهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللت بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم".

قال الزجاج:"المعنى: فهل ينتظرون إلا أن ينزل بهم من العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم".

قال أبو عبيدة: {إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ}، معناه:"إلّا دأب الأولين وفعلهم وصنيعهم".

قال السمعاني:"أي: طريقة الأولين في الإهلاك ونزول العذاب لهم".

قال ابن كثير:"يعني: عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره".

قال الضحاك:"هل ينظرون إلا أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الأولين من العذاب".

=

=

عن قتادة، قوله: " {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ}، أي: عقوبة الأولين".
قوله تعالى: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا} [فاطر: ٤٣]، أي:"فلن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه".
قال أبو عبيدة: " أي: فى خلقه الأولين والآخرين «تبديلا» ".
قال الطبري:"يقول: فلن تجد يا محمد لسنة الله تغييرًا".
قال ابن كثير:"أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب".
قال ابن أبي زمنين: أي:"لا يبدل الله بها غيرها".
قوله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا} [فاطر: ٤٣]، أي:"فلن تجد لطريقة الله تحويلا، فلا يستطيع أحد أن يحوّل العذاب من المكذبين إلى غيرهم".
قال الطبري:"يقول: ولن تجد لسنة الله في خلقه تبديلا، يقول: لن يغير ذلك ولا يبدله؛ لأنه لا مرد لقضائه".
قال ابن كثير:"أي: {وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ} [الرعد: ١١]، ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد".
قال المراغي: أي:"لن يحول العذاب من نفس إلى أخرى".
قال السمعاني:"المراد من التكرار في قوله: {فَلَنْ تَجِد لسنة الله تبديلا وَلنْ تَجِد لسنة الله تحويلا}: هو التأكيد".
قال ابن أبي زمنين:"وأخّر عذاب كفار آخر هذه الأمة إلى النفخة الأولى بالاستئصال؛ بها يكون هلاكهم، وقد عذب أوائل مشركي هذه الأمة بالسيف يوم بدر".
قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{استكبارا في الأرض} عن الإيمان مفعول له] يعني أن كلمة {استكبارا} مفعول له؛ أي منصوبة على أنها مفعول له؛ أي ما زادهم إلا نفورا لأجل الإستكبار في الأرض، وهذا أحد الإحتمالين في الآية

=

=

الكريمة.

والإحتمال الثاني: أن {استكبارا} بدل من كلمة {نفورا} أي: ما زادهم إلا نفورا، وهذا النفور هو الإستكبار في الأرض، وهو احتمال قوي جدا: أن تكون استكبارا بدلا أو عطف بيان من كلمة {نفورا}؛ إذن ما زادهم هذا الكلام، هذا المجيء، إلا البعد عن الحق والإستكبار في الأرض.

قوله تعالى: {ومكر السيئ} معطوف على {استكبارا}.

{ومكر} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العمل {السيئ} من الشرك وغيره] فقدر العمل قبل السيئ ليكون السوء موصوفا به العمل، والعمل السيئ يكون مكرا، هذا ما ذهب إليه المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعل المكر مضافا إلى شيء محذوف وهو العمل، وجعل السيئ صفة لذلك الشيء المحذوف؛ أي: مكر العمل السيئ، بمعنى: أنهم ما زادهم إلا نفورا واستكبارا في الأرض وأن يمكروا مكر العمل السيئ.

والمكر هو الخديعة وهو التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم والعدو، وأما التوصل بالأسباب الظاهرة فليس بمكر.

فإن قلت: هذا المعنى لا ينطبق على عمل هؤلاء؛ لأن هؤلاء يظهرون عملهم السيئ؟

فالجواب: أن هؤلاء تارة يظهرونه، وتارة يخفونه كما في اجتماعهم بدار الندوة ماذا يصنعون بالرسول ﷺ؛ قال تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} [الأنفال: ٣٠] وإنما ذكر المكر دون الشيء المعلن الظاهر؛ لأنه أعظم قبحا من الشيء المعلن الظاهر فصار هؤلاء جمعوا إلى الكذب المكر والخداع، والعياذ بالله.

قال تعالى: {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو الماكر ...] إلخ؛ يعني أن هؤلاء مكروا السوء وعملوا السوء بصفة علنية وصفة خفية،

=

=

وهل الماكر بغيره ينجو؟

الجواب: إذا كان مكرا سيئا فإنه لا ينجو، بل سيحيق به مكره ويهلكه ويدمره؛ كما قال تعالى: {وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون} [الأحقاف: ٢٦] أما إذا كان المكر بحق فإنه لا يحيق بأهله، بل يحيق بعدوه؛ ذلك لأن المكر بحق ممدوح وليس بمذموم.

وقال: {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله} وهنا لم يقل إلا بالماكر بل قال إلا بأهله؛ إشارة إلى بيان الإستحقاق لهذه الجريمة التي وقعت منه وأنه أهل لأن يحيق به مكره، فكل ماكر بغير حق أهل لأن يحيق به مكره.

قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل، وإضافته إليه قبل استعمال آخر قدر فيه مضاف حذرا من الإضافة إلى الصفة] هذا كلام قليل الفائدة معقد المعنى في الواقع.

فقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أصل] يعني جار على الأصل؛ لأن الأصل أن الوصف ينفصل عن الموصوف ولا يضاف إليه الموصوف؛ فأنت تقول: مررت بزيد الفاضل، فتجعل الصفة منفصلة عن الموصوف تابعة له، وليس مضافا إليها.

قال تعالى: {ومكر السيئ} مكر السيئ، فهنا لم يوصف المكر بالسيئ ولكن أضيف المكر إلى السيئ، وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إضافته إليه قبل] معنى (قبل) يعني: قبل هذه الجملة، ويعني بذلك قوله تعالى: {ومكر السيئ}.

وقوله: [استعمال آخر] على خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن الصفة تقع تبعا للموصوف لا أن الموصوف يضاف إلى الصفة.

لكن يجوز أن يضاف الموصوف إلى الصفة؛ ولهذا يمر بكم دائما قول العلماء رحمهم الله: "هذا من باب إضافة الموصوف إلى صفته" مثل قولهم: هذا مسجد الجامع؛ أصله: (هذا المسجد الجامع) لكن أضيف إلى صفته وهو كثير، كما أن

=

=

- أيضا - الصفة تضاف إلى الموصوف أحيانا؛ مثل: طاهر القلب؛ هذه صفة مضافة إلى موصوفها؛ كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفية:

.... كطاهر القلب جميل الظاهر

فهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

إذن: نأخذ من هنا أنه يجوز إضافة الصفة إلى الموصوف، وإضافة الموصوف إلى صفته؛ والأصل من ذلك أن تقع الصفة تبعا للموصوف على أنها نعت له وتعرب بإعرابه.

وفي الآية الكريمة: إضافة الموصوف إلى الصفة ووصف الموصوف بالصفة في أولها وآخرها؛ فإضافة الموصوف إلى الصفة قوله تعالى: {ومكر السيئ} ولو كان في غير القرآن وأردنا أن نحوله إلى أن تكون الصفة تبعا للموصوف لقلنا: استكبارا في الأرض والمكر السيئ؛ لكن هنا صار من باب الإضافة.

وفيها أيضا وصف الموصوف بالصفة قوله تعالى: {ولا يحيق المكر السيئ} أيهما الأصل هنا بين المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [ووصف المكر بالسيئ أصل] لو قال بدل [أصل]: جار على الأصل؛ لكان أوضح وهذا هو مراده، قال: [وإضافته إليه قبل] يعني به إضافة الموصوف إلى الصفة في قوله: مكر السيئ؛ يقول: [استعمال آخر] يعني جار على استعمال آخر في اللغة العربية؛ لأن اللغة العربية أحيانا تضيف الموصوف إلى صفته؛ واضح؟

قال: [قدر فيه مضاف] حسب شرحه هو وتفسيره؛ حيث قال: [{ومكر} العمل {السيئ} حذرا من الإضافة إلى الصفة].

وهذا الذي قاله الأخير ينازع فيه، وذلك لأنه لا داعي إلى ذلك، فلا حاجة إلى أن نقدر محذوفا لأجل أن نمنع إضافة الموصوف إلى الصفة؛ لأن إضافة الموصوف إلى الصفة في اللغة العربية كثير شائع ليس هذا أمرا محذورا في اللغة

=

=

العربية حتى نقول نحتاج إلى تقدير ما يصحححه؛ ولهذا نقول: {مكر السيئ} جار على أصله؛ بمعنى أنه لا حاجة إلى أن يقدر فيه شيء محذوف.

ثم قال تعالى: {فهل ينظرون} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ينتظرون] هذا تفسير لينظرون بمعنى ينتظرون، وهناك ضابط - وليس قاعدة -: أن (ينظر) إن تعدت بـ (إلى) فهي بمعنى النظر بالعين؛ كقوله تعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت} [الغاشية: ١٧] وإن تعدت بـ (في) فهي بمعنى النظر الفكري؛ كما في قوله تعالى: {أولم ينظروا في ملكوت السماوات} [الأعراف: ١٨٥] وإن تعدت بنفسها فهي بمعنى الإنتظار، مثلما هنا في قوله تعالى: {فهل ينظرون إلا سنت الأولين} معناها: (هل ينتظرون) من الإنتظار وهو الترقب، فهل ينظرون؛ ينتظرون يعني يترقبون.

وقوله تعالى: {إلا سنت الأولين} سنة بمعنى الطريقة، والإضافة هنا إلى {الأولين} من باب الإختصاص؛ يعني إلا السنة التي جرت للأولين وليس المراد السنة التي فعلها الأولون؛ لأن الأولين مفعول بهم وليسوا هم الفاعلين، وإنما الفاعل من الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: {إلا سنت الأولين} قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم رسلهم] يعني ما ينتظر هؤلاء الذين كذبوا الرسول ﷺ إلا سنة الأولين، وهي - أي سنة الأولين- تعذيبهم بتكذيب الرسل.

قال تعالى: {فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا} لن تجد لسنة الله تبديلا برفعها أو تبديلا بتحويلها إلى قوم آخرين؛ يعني أن سنة الله ستقع في أعيان الذين يستحقونها، فلن تبدل فترفع ولن تحول إلى قوم آخرين فيسلم منها من استحقوها، بل هي واقعة على من استحقوها عينا.

مثال ذلك: المشركون - من قريش - كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام؛

=

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤).

{أو لم يَسِيرُوا فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ وَكَانُوا أَشَدّ مِنْهُمْ قُوَّة} فَأَهْلَكَهُمْ الله بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ {وَمَا كَانَ الله ليعجزه من شيء} يسبقه ويفوته {في السماوات وَلَا فِي الْأَرْض إنَّهُ كَانَ عَلِيمًا} أَيْ بِالْأَشْيَاءِ كُلّهَا

=

التحويل معناه أن تحول عقوبتهم إلى بني تميم مثلا، هذا لا يمكن؛ لأن هذا ظلم؛ أن يؤاخذ قوم بجريمة آخرين، هذا معنى قوله تعالى: {ولن تجد لسنت الله تحويلا}.

ومثال آخر: كذبت قريش الرسول عليه الصلاة والسلام فبدلا من أن يعاقبهم الله نعمهم، وهذا معنى قوله تعالى: {فلن تجد لسنت الله تبديلا} فالعذاب لن يبدل بنعيم، ولن يحول عن مستحقه إلى قوم آخرين.

فسنة الله ﷻ لا بد أن تقع فيمن يستحقها بدون تبديل لها بنعمة وبدون تحويل لها إلى غيرهم؛ لأن الله ﷻ كامل الحكمة، كامل العدل، فهو كامل الحكمة فلن يبدل النقمة بنعمة على من استحقها، وكامل العدل لا يمكن أن يحول الإنتقام إلى قوم آخرين لا يستحقونه.

فهذه الصفة {فلن تجد لسنت الله تبديلا ...} إلخ، هي من باب الصفات السلبية لكنها تتضمن كمال عدل الله وكمال حكمته، ويمكن أن نقول: وتمام سلطانه أيضا بحيث لا يكرهه أحد إلى أن يحول النقمة إلى آخرين أو أن يبدلها بنعمة.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي لا يبدل بالعذاب غيره ولا يحول العذاب إلى غير مستحقه].

{قَدِيرًا} عَلَيْهَا(١).

---

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [فاطر: ٤٤].

قال الطبري: يقول:"أولم يَسِرْ يا محمد هؤلاء المشركون بالله في الأرض التي أهلكنا أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا فإنهم تجار يسلكون طريق الشأم {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم التي كانوا يمرون بها ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم، فيتعظوا بهم وينزجروا عمَّا هم عليه من عبادة الآلهة بالشرك بالله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل؟ ".

قال يحيى:"أي: بلى قد ساروا، فلو تفكروا فيما أهلك الله به الأمم فيحذروا أن ينزل بهم ما نزل بهم وكان عاقبة الذين من قبلهم أن {دمر الله عليهم} [محمد: ١٠] ثم صيرهم إلى النار".

عن عباد بن منصور، قال: "سألت الحسن، عن قوله: {قل سيروا في الأرض}، قال: لم يسيروا في الأرض".

قال الحسن:"فينظروا كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط، وقوم صالح، والأمم التي عذب الله".

قال قتادة:"عاقبة الأولين والأمم قبلكم. قال: كان سوء عاقبة، متعهم الله قليلا ثم صاروا إلى النار".

قال قتادة:"بئس والله، كان عاقبة المجرمين، دمر الله عليهم، وأهلكهم، ثم صيرهم إلى النار".

قوله تعالى: {وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً} [فاطر: ٤٤]، أي:"وكان أولئك الكفرة أشد =

=

قوة وبطشًا من كفار «مكة» ".

قال الطبري: يقول:"ويعلموا أن الذي فعل بأولئك ما فعل {وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، لن يتعذر عليه أن يفعل بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيل النقمة والعذاب لهم".

قال ابن كثير:"سلبوا ما كانوا فيه من النَّعَم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك".

عن السدي: {وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، " يعني: بطشا".

قال قتادة:"يخبركم أنه أعطى القوم ما لم يعطكم".

عن عبد الله بن عمرو، في قوله: {كانُوا هم أشد مِنهُم قُوَّة}، قال: "كان الرجل مِمَّن كان قبلكم بين مَنكِبَيْه ميل".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ]، أي:"وما كان الله تعالى ليعجزه ويفوته من شيء في السماوات ولا في الأرض".

قال الطبري: يقول:"ولن يعجزنا هؤلاء المشركون بالله من عبدة الآلهة المكذبون محمدًا، فيسبقونا هربًا في الأرض إذا نحن أردنا هلاكهم؛ لأن الله لم يكن ليعجزه شيء يريده في السماوات ولا في الأرض، ولن يقدر هؤلاء المشركون أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض".

قال ابن كثير: أي:"لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض؟ ".

عن السدي، قوله: " {وما كان الله ليعجزه}، قال: لن يفوته".

قال الزجاج:"المعنى: ليفوته من شيء من أمر السماوات ولا من أمر الأرض".

قال أبو عبيدة:"أي: ليسبقه، ولا يفوته ولا يخفى عليه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤]، أي:"إنه كان عليمًا بأفعالهم،

=

=

قديرًا على إهلاكهم".

قال الطبري: يقول:"إن الله كان عليمًا بخلقه، وما هو كائن، ومن هو المستحق منهم تعجيل العقوبة، ومن هو عن ضلالته منهم راجع إلى الهدى آيب، قديرا على الانتقام ممن شاء منهم، وتوفيق من أراد منهم للإيمان".

قال ابن كثير: أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون"، {قَدِيرٌ}، "أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

قال العثيمين: ثم قال الله سبحانه وتعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة} الهمزة هنا للإستفهام، والمراد به التوبيخ والتقريع، وهذه الهمزة الإستفهامية هل هي داخلة على الجملة الموجودة المذكورة، أو على جملة محذوفة يعينها السياق؟

في هذا قولان لأهل العلم في النحو؛ فمنهم من يقول: إنها داخلة على هذه الجملة المذكورة، وعلى هذا القول يقولون: إن التقدير (وألم يسيروا) فيجعلون الواو مقدمة على الهمزة؛ لأنه لا يمكن أن تجعل الهمزة مقدمة على الواو، والواو حرف عطف تقتضي معطوفا عليه، فيقولون: إن الهمزة متأخرة والواو حرف عطف، وهذه الجملة معطوفة على ما سبق.

وهذا الوجه لا شك أنه أسهل وأيسر؛ إذ لا يتكلف الإنسان فيه العناء في ذلك الشيء المحذوف المقدر.

وهو القول الثاني: أن الهمزة داخلة على محذوف يعينه السياق، ففي مثل هذه الآية، نقول: تقدير الكلام: أغفلوا ولم يسيروا في الأرض أو كلمة نحوها، وهذا التقدير قد يكون سهلا في بعض المواضع، بمعنى أن بعض المواضع قد يكون المعنى فيها ظاهرا ويمكنك بكل سهولة أن تقدر ذلك المحذوف، لكن أحيانا

=

=

يصعب عليك أن تقدر ذلك المحذوف لاحتمال السياق لأوجه متعددة؛ لهذا نقول: إن القول الآخر أقرب وأسهل أن نجعل الواو حرف عطف والجملة هذه معطوفة على ما سبق، والأصل تقديم ذلك الحرف العاطف على الجملة، والتقدير: وألم يسيروا.

وقوله تعالى: {أولم يسيروا في الأرض} السير هنا هل هو سير القلوب أو سير الأقدام أو كلاهما؟

نقول: الأولى أن نقول إنه شامل فيكون سير القلوب هو سير الأقدام، أما سير القلوب فإنه بالنظر في تاريخ الأمم السابقة وما جرى عليهم وما جرى لأهل الخير العاملين بالقسط، فيسير الإنسان بقلبه في أرجاء العالم وهو جالس على كرسيه لا يتحرك.

وأما السير بالأقدام فهو أن يتقدم الإنسان إلى هذه المواضع ليعتبر، ومن ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "زوروا القبور فإنها تذكر الآخرة" فإن زيارة القبور سير بالأقدام، يذهب الرجل إلى المقبرة ويقف ويشاهد هذه القبور ويعتبر بهؤلاء القوم الذين كانوا أشد منه قوة وكانوا أكثر منه مالا، ومع ذلك آلوا إلى ما آلوا إليه حتى يعرف أنه سوف يؤول إلى ما آل إليه هؤلاء، طالت المدة أم قصرت.

إذن: السير في الأرض يكون بالقلب وبالقدم، وأيهما أنفع للمرء: السير بالقلب أم السير بالقدم؟

الجواب: السير بالقلب أشمل وأهون؛ لأنه بإمكان الإنسان أن يطوف الدنيا كلها في ساعة واحدة، وأسهل؛ والسير بالقدم أشد تأثيرا لأنه يشاهد؛ فـ (ما راء كمن سمع) ولهذا أمر النبي ﷺ إذا دخلنا على ديار المعذبين، أمرنا ألا ندخل إلا ونحن باكون أن يصيبنا ما أصابهم حتى نعتبر ونصحح المسير.

=

=

وقوله تعالى: {أولم يسيروا في الأرض}: {في} هنا قال العلماء رحمهم الله: إنها بمعنى (على) ولا تصح أن تكون للظرفية؛ لأن الظرفية تقتضي أن يكون السائر في جوف الظرف، ومعلوم أن السائر في الأرض لا يسير في جوف الأرض، هل هو يفتح نفقا ليسير فيه؟ لا، بل يسير على ظهرها؛ قالوا فـ (في) بمعنى (على) ونظيرها قوله تعالى: {ولأصلبنكم في جذوع النخل} [طه: ٧١] أي على جذوع النخل.

وقوله تعالى: {في الأرض}: (أل) يحتمل أن يراد به الجنس، ويحتمل أن يراد بها العهد، فعلى الأول يكون المراد بالسير في جنس الأرض التي أصيبت بغضب والتي لم تصب، وعلى الثاني يكون المراد بالأرض التي أصيبت بالغضب، فتكون (أل) هنا للعهد الذكري؛ لأن العهد الذكري لا بد أن يكون هناك مذكور تعود عليه (أل) أما إذا لم يكن هناك مذكور فهو عهد ذهني.

وقوله تعالى: {فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} فينظروا الفاء هنا قيل إنها عاطفة، وقيل إنها سببية؛ فعلى أنها عاطفة يكون الفعل بعدها مجزوما، وعلى أنها سببية يكون الفعل بعدها منصوبا؛ فعلى كونها سببية يكون التقدير: أولم يسيروا في الأرض فبسبب سيرهم ينظروا، وعلى أنها عاطفة يكون المعنى: أولم يسيروا في الأرض ولم ينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟

والنظر هنا هل هو نظر القلب أو نظر العين؟

الجواب: إذا قلنا إن السير سير القدم فالنظر نظر العين، وإذا قلنا إن السير سير القلب فالنظر نظر القلب؛ إذن: تكون شاملة للأمرين حسبما نفسر السير فيما سبق.

وقوله تعالى: {فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} هذه الجملة الإستفهامية علقت (ينظروا) عن العمل، يعني: فينظروا كيف كان عاقبتهم؛ يعني

=

=

أي عاقبة كانت لهم: هل نعموا وأكرموا أو عذبوا وأهلكوا فينظروا، فإذا نظر الإنسان العاقل فسوف يعتبر ويقيس الحاضر على الغائب.

وقوله تعالى: {كيف كان عاقبة}: (عاقبة) الشيء مآله {الذين من قبلهم} عاقبة الذين من قبلهم الهلاك؛ ولهذا قال الله تعالى: {وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل أفلا تعقلون} [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨] فانظروا إلى آثارهم كانت الدمار فإذا كانت الدمار وسببه التكذيب والإستكبار فإن السبب الذي كان فيما سبق مؤديا إلى هذا الهلاك فإنه سيكون مؤديا إليه فيما لحق ولا فرق.

قال الله تعالى: {وكانوا أشد منهم قوة}: (كانوا) الضمير يعود على السابقين {أشد منهم قوة} يعني: أقوى منهم قوة، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم ولم تمنعهم، وأهلكوا، وانظر إلى قول عاد: من أشد منا قوة؛ قال الله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} [فصلت: ١٥]، وكانت عاد من أقوى الأمم أجساما وصلابة وعزما، حتى إنهم تحدوا وقالوا: من أشد منا قوة؛ فقال الله سبحانه وتعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة} وأهلكهم بألطف الأشياء؛ أهلكهم بالريح؛ قال فرعون: {وهذه الأنهار تجري من تحتي} [الزخرف: ٥١] فافتخر بجريان الأنهار وهي المياه من تحته، فأهلك بالغرق بالماء الذي كان يفتخر به.

فالإنسان العاقل إذا رأى حال هذه الأمم وقوتها وأن هذا لم ينفعهم ولم يمنعهم من عقاب الله فلا بد أن يعتبر.

قال: {وكانوا أشد منهم قوة} الواو هنا في قوله تعالى: {وكانوا} يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال والتقدير: وقد كانوا أشد منهم قوة.

قال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأهلكهم الله بتكذيبهم رسلهم] {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض} هنا إذا تأمل الإنسان الآية، يقول: إن الله

=

=

تعالى لم يذكر عاقبة هؤلاء المكذبين في الآية، قال تعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة} فلماذا لم يذكرها؟

الجواب: اعتمادا على هذا السائر الذي يسير فينظر، فمعناه: احكم أنت بنفسك على هؤلاء؛ فلا حاجة لأن أخبرك بأن الله أهلكهم؛ لأنه سوف تحكم على هذا بما تراه من آثارهم.

قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [{وما كان الله ليعجزه من شيء} يسبقه ويفوته {في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا}].

قال تعالى: {وما كان الله ليعجزه} اللام هنا يسميها النحويون لام الجحود وهو النفي؛ لأنها وقعت بعده - أي بعد النفي - وضابط لام الجحود أن تقع بعد كون منفي، وإذا أردنا أن نقربها إلى المبتدئ نقول: أن تقع بعد (ما كان) أو (لم يكن) قال تعالى: {لم يكن الله ليغفر لهم} [النساء: ١٣٧] اللام نسميها لام الجحود، وقال تعالى: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم} [الأنفال: ٣٣] اللام لام الجحود.

فإذا وقعت اللام بعد (ما كان) أو (لم يكن) داخلة على الفعل المضارع فإنها تنصب الفعل المضارع أو ننصبه بـ (أن) مقدرة بعد اللام على الخلاف، إنما نسمي هذه اللام لام الجحود، لكن الضابط الذي قلت أولا: وهي الواقعة بعد كون منفي أعم من قولنا هي المسبوقة بـ (ما كان) أو (لم يكن)؛ لأنه يمكن أن تأتي بعد (كائن) تقول: لست بكائن لأعذبك؛ مثلا، أو غير كائن ليكون وما أشبه ذلك، فإذا قلنا بعد كون منفي كانت أعم، لكن إذا كنا نخاطب شخصا مبتدئا في النحو فقد يصعب عليه تصور كلمة (كون منفي) فنقول له: إذا وقعت بعد ما كان أو لم يكن، فهي لام الجحود.

=

=

وتنصب الفعل المضارع إما بنفسها كما هو مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة بعد اللام.

قوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء}: {من} حرف جر زائد زائد؛ زائد في الإعراب، زائد في المعنى أي أنه يزيد في المعنى، وما هي زيادة المعنى؟

توكيد النفي، يعني أن هذا النفي مؤكد.

وقوله تعالى: {ليعجزه من شيء} إذا قلنا {من} حرف جر زائد فنعرب {شيء} على أنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يسبقه ويفوته] وهذا تفسير لا بأس ببعض اللوازم، كما قال تعالى: {أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون} [العنكبوت: ٤] ولكن العجز في الواقع هو عدم القدرة على الشيء، وهذا أولى من تفسير المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يقول: ما كان الله تعالى ليحول بينه وبين ما يريد عجز في قدرته بل هو قادر على كل شيء من إيجاد معدوم أو إيجاد معدوم أو تغيير حال أو غير ذلك، فالله تعالى لا يعجزه شيء؛ لا في السموات ولا في الأرض؛ لأن أمره ﷻ إذا أراد شيئا أن يقول كن فيكون، بدون أي عمل، كلمة واحدة تجعل الشيء على حسب مراده تبارك وتعالى فلا يعجزه شيء لا في السموات ولا في الأرض، وإذا كان لا يعجزه شيء، لا في السموات ولا في الأرض فإنه لن يعجز عن إهلاك المكذبين الذين كذبوا رسول الله ﷺ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [{إنه كان عليما} أي بالأشياء كلها {قديرا} عليها] الجملة موقعها مما قبلها أنها تعليل؛ فلما قال ما كان الله ليعجزه علل هذا الحكم المنفي بقوله تعالى: {إنه كان عليما قديرا}.

=

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥).

{وَلَوْ يُؤَاخِذ الله النَّاس بِمَا كَسَبُوا} مِنْ الْمَعَاصِي {مَا تَرَك عَلَى ظَهْرهَا} أَيْ

=

والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه، والقدرة التمكن من الفعل بلا عجز، والقوة التمكن من الفعل بلا ضعف، فهي أخص من القدرة من وجه، وأعم منها من وجه آخر كما سنذكره.

فما هو وجه كونه ﷻ لعلمه وقدرته لا يعجزه شيء؟

الجواب: لأن العاجز عن الشيء إما أن يكون لعدم علمه للأسباب التي يغيرها به، وإما أن يكون لعدم قدرته، فلو تأملت عجز أي عاجز لوجدت السبب في عجزه إما أنه لا يعلم وإما أنه لا يقدر.

فلو قيل لرجل: نريد أن تصلح هذه الساعة الخربة قال: أعطني إياها، وهو لا يعرف أبدا وما درس، وعنده آلات لإصلاحها وعنده قوة بدنية، فهل يقدر أن يصلحها؟

والجواب: لا؛ لأنه ليس عنده علم، فلا يقدر أن يصلحها بل يمكن أن يفسدها أكثر.

ورجل آخر: عنده علم وقد درس علم تصليح الساعات مثلا، لكن ليس عنده قدرة بدنية وهو مشلول، فهل يمكن أن يصلحها؟

الجواب: لا يمكن؛ لعدم القدرة.

إذن: انتفاء عجز الله ﷻ لكمال علمه وكمال قدرته، وبهذا نعرف أنه لا يوجد نفي محض في صفات الله، بل كل نفي في صفات الله فهو متضمن لثبوت كماله، ولا يمكن أن يوجد نفي محض؛ ولهذا لما نفى العجز بين السبب؛ قال تعالى: {إنه كان عليما قديرا}.

الْأَرْض {مِنْ دَابَّة} نَسَمَة تَدِبّ عَلَيْهَا {وَلَكِنْ يُؤَخِّرهُمْ إلَى أَجَل مُسَمَّى} أَيْ يَوْم الْقِيَامَة {فَإِذَا جَاءَ أَجَلهمْ فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} فَيُجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالهمْ بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَاب الْكَافِرِينَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥].

قال الطبري:"يقول: ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهرها من دابة تدب عليها".

قال ابن كثير: "أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل الأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق".

قال أبو عبيدة:"معنى: «يؤاخذ»: يعاقب ويكافئ".

قال يحيى:"{ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا} بما عملوا، لحبس عنهم القطر فهلك ما في الأرض من دابة".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ}، قال: ما سقاهم المطر".

قال السدي:"إذا قحط المطر لم يبق في الأرض دابة إلا ماتت".

قال مقاتل:"لهلكت الدواب من قحط المطر".

وفي قوله تعالى: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: يعني: جميع الحيوان مما دب ودرج، قاله ابن مسعود.

قال ابن مسعود:"كاد الجعل إن يعذب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} ".

وفي رواية، قال معمر: "بلغني أن ابن مسعود كان يقرأ هذه الآية فيقول: «كاد الجعل أن يهلك بذنب غيره» ".

=

=

قال أبو حمزة الثمالي، في هذه الآية: "يحبس المطر، فيهلك كل شيء".

وفي رواية:"خطيئة ابن آدم قتلت الجُعْل".

وقال أنس: "إن الضب ليموت هزلا في جحره بذنب ابن آدم".

قال قتادة:"قد فعل ذلك زمان نوح".

وعن أبي سلمة، قال: "سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه فقال: بلى، والله إن الحبارى لتموت في وكرها هزالا بظلم الظالم".

عن قتادة: " {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} : إلا ما حمل نوح في السفينة".

الثاني: من الإنس والجن دون غيرهما، لأنهما مكلفان بالعقل، قاله الكلبي.

قال الزجاج:"والذي جاء أنه يعنى به الإنس والجن كأنه أشبه، والله أعلم".

الثالث: من الناس وحدهم، قاله ابن جريج، وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:"معنى «دابة»: -هاهنا- إنسان".

قال الزمخشري: أي: " من نسمة تدب عليها، يريد بنى آدم".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [فاطر: ٤٥]، أي:"ولكن يُمْهلهم ويؤخر عقابهم إلى وقت معلوم عنده".

قال الطبري:"يقول: ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده، محدود لا يقصرون دونه، ولا يجاوزونه إذا بلغوه".

قال ابن كثير: " أي: ولكن يُنْظرهُم إلى يوم القيامة".

قال السمعاني:"أي: إلى مدة معلومة".

قال مقاتل:"إلى الوقت الذي في اللوح المحفوظ".

قال يحيى:"يعني: المشركين".

=

=

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: ٤٥]، أي:"فإذا جاء وقت عقابهم فإن الله كان بعباده بصيرًا، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمورهم، وسيجازيهم بما عملوا من خير أو شر".

قال الطبري: يقول:"فإذا جاء أجل عقابهم فإن الله كان بعباده بصيرًا من الذي يستحق أن يعاقب منهم، ومن الذي يستوجب الكرامة ومن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعًا، ومن كان فيها به مشركًا، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم".

قال ابن كثير: " فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهلَ الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية".

قال السمعاني:"أي: بصيرا بأعمالهم يجازيهم عليها، الحسنة بالحسنة، والسيئة بالسيئة".

قال مقاتل:"لم يزل الله- ﷻ- بعباده بصيرا".

قال العثيمين: قوله تعالى (لو) هذه شرطية، و (لو) تأتي شرطية كما هنا، وتأتي للتمني مثل قوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون} [القلم: ٩]، وتقول مثلا: لو كان لي مثل مال فلان، يعني أتمنى أن يكون لي مثل مال فلان، فتأتي شرطية وتأتي للتمني، وتأتي أيضا مصدرية بمعنى (أن).

فهنا هي شرطية، وإذا كانت شرطية، فإما أن يكون جوابها مثبتا وإما أن يكون منفيا، فإن كان مثبتا فالأكثر فيه إثبات اللام، وإن كان منفيا فالأكثر فيه حذف اللام.

مثال ذلك في الإثبات: قوله ﷻ: {لو نشاء لجعلناه حطاما} [الواقعة: ٦٥] الجواب: {لجعلناه} وفيه اللام، وقال تعالى في نفس السورة: {لو نشاء جعلناه أجاجا} [الواقعة: ٧٠] الجواب: {جعلناه} وحذفت منها اللام.

=

أما إذا كان جوابها منفيا بـ (ما) فإن الأكثر عدم اقتران (ما) باللام فتقول مثلا: لو جاءني ما أهنته، وهنا قال الله تعالى: {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة}.

وقد تقترن اللام بـ (ما) لكنها قليلة كقول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ....

والأكثر (ما افترقنا).

يقول الله تعالى: {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة}.

قوله تعالى: {يؤاخذ} أي يعاقب، والمؤاخذة بالذنب العقوبة عليه.

وقوله تعالى: {الناس} عام يشمل الكفار ويشمل العصاة من المؤمنين.

وقوله تعالى: {بما كسبوا}: (ما) يجوز أن تكون مصدرية؛ أي بكسبهم، ويجوز أن تكون موصولة، فإذا كانت موصولة فلا بد من تقدير العائد، وتقديره: بما كسبوه.

وقوله تعالى: {بما كسبوا} أي: بما اكتسبوا من المعاصي، وسمى الله تعالى المعاصي كسبا؛ لأن العامل ينال جزاءها، فكأنه كسب هذا الجزاء، مع أنه كسب خاسر؛ ولهذا إذا اقترن مع العمل الصالح أتى بغير هذا اللفظ؛ قال الله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة: ٢٨٦] ففرق بينهما.

أما إذا أفرد أحدهما عن الآخر فيصح الكسب في الخيرات وفي السيئات.

وقوله تعالى: {ما ترك على ظهرها} أي الأرض؛ قال المفسر رحمه الله: [أي الأرض] وأعاد الضمير على غير مذكور، قال بعضهم: إنه أعاده على مذكور، وهو قوله تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا}، والكلام كله في سياق واحد، في سياق العاصين ومآلهم

=

وعقوبتهم، فالكلام نسق واحد فالأرض إذن: مذكورة.

وقال بعضهم: هي غير مذكورة، لكنها معلومة من السياق لأن الدواب إنما هم على ظهر الأرض، فمعلومة من السياق، وما علم من السياق فإنه لا يحتاج إلى مرجع مذكور؛ ألم تر إلى قوله تعالى: {حتى توارت بالحجاب} [ص: ٣٢] فقوله تعالى: {توارت} أي: الشمس، مع أنه لم يسبق لها ذكر، لكنها معلومة فإنها هي التي تتوارى بالحجاب.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ما ترك على ظهرها من دابة} نسمة تدب عليها] {من} حرف جر (زائد زائد)؛ لأنها جاءت بعد النفي: {ما ترك على ظهرها من دابة} أي: ما ترك عليها دابة لكنها دخلت عليها {من} لتؤكد العموم؛ وقال المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نسمة تدب عليها] النسمة هي كل ذات تتنفس، لأنها مأخوذة من النسم وهو التنفس وكل شيء فيه روح فإنه يتنفس.

والمعنى: لهلك كل شيء على الأرض؛ أما البشر العاصون فهلاكهم واضح، وأما غيرهم فبشؤم الأوساط تموت هذه الدواب، إما بأن يمنع الله عَزَّوَجَلَّ المطر والنبات فتموت هذه الدواب؛ لأنها لا تجد عيشا أو أنها تموت بأوبئة تجتاحها بسبب أعمال الناس.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: [{ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى} أي: يوم القيامة].

{ولكن يؤخرهم} أي: الناس، والفاعل هو الله، {إلى أجل} أي: مدة {مسمى} معين، وهو يوم القيامة، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة هود: {إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١٠٣) وما نؤخره إلا لأجل معدود} [هود: ١٠٣ - ١٠٤] أي: أجل مسمى معين عند الله تبارك وتعالى، ولا يعلم هذا الأجل إلا الله؛ فإن علم الساعة لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى؛ وقد حجز عنه أعلم البشر وأعلم الملائكة حين

=

سُورَة يس(١)

=

سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل".

والأجل المسمى لا بد أن يجيء، فكل شيء مسمى فهو قريب، لكن الأجل المبهم هو الذي ينتظره الإنسان إلى أن يحصل، أما المسمى فلا بد أن يوصل إليه.

وقوله تعالى: {فإذا جاء أجلهم} يعني: انتهت المدة وصار يوم القيامة، سواء كانت القيامة الكبرى أو القيامة الصغرى، فالقيامة الكبرى العامة لجميع الناس، والصغرى موت كل إنسان.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [{فإن الله كان بعباده بصيرا} فيجازيهم على أعمالهم بإثابة المؤمنين وعقاب الكافرين].

جملة {فإن الله} جواب شرط قوله تعالى: {فإذا جاء أجلهم}.

فإذا قال قائل: ما وجه ارتباط الجواب بالشرط في قوله تعالى: {فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا} يعني قد تتوقع: فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله؟

فيقال: إن قوله تعالى: {فإن الله كان بعباده بصيرا} أبلغ من: (فإذا جاء أجلهم عاقبهم الله)؛ لأن من هؤلاء من قد يعفو الله عنهم فلا يعاقبهم، ولكنه ذكر أنه بصير بأعمالهم يجازيهم عليها، وإن شاء ألا يعاقبهم فعل فيمن يستحق العفو.

(١) في وقت نزول السورة، قولان:

أحدهما: أنها نزلت بمكة. قاله ابن عباس، وعائشة،والحسن، وعكرمة، وقتادة، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال الفيروزآبادي:"السورة مكية بالإجماع".

قال ابن عطية:"هذه السورة مكية بإجماع".

=

=

الثاني: أنها مكية إلا آية منها، وهي قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ال} [يس: ٤٧]، حكاه ابن الجوزي عن ابن عباس، وقتادة.

قال ابن الجوزي: وحكي أبو سليمان الدمشقي أنها مدنية، وقال: ليس بالمشهور".

وقال ابن عطية:"إلا أن فرقة قالت إن قوله، ونكتب ما قدموا وآثارهم [يس: ١٢] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ فقال لهم: «دياركم تكتب آثاركم»، وكره رسول الله ﷺ أن يعروا المدينة، وعلى هذا فالآية مدنية وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة ولكنه احتج بها عليهم في المدينة ووافقها قول النبي ﷺ في المعنى، فمن هنا قال من قال إنها نزلت في بني سلمة".

وقال القاسمي: هي مكية. واستثنى منها بعضهم قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ [يس: ١٢] الآية، لما أخرجه الترمذيّ والحاكم عن أبي سعيد قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة. فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية. ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها. لأن ذلك مبنيّ على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سببا لنزولها، مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك، وكل ما تصدق عليه الآية، كما بيناه مرارا. لا سيما في المقدمة. يؤيده أنه جاء في هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية. كما في رواية الصحيحين، وهكذا يقال فيما روي أن آية وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ [يس: ٣٧]. من هذه السورة نزلت في المنافقين. فإن المراد ما ذكرناه. ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشي هنا، فاحفظه.

* عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيّين واثنتان عند الباقين. وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون. وحروفها ثلاثة آلاف. المختلف فيها آية واحدة. يس.

=

=

مجموع فواصل آياتها (من).

* أسماء السورة.

تسمى «سورة يس» سميت هذه السورة «يس» بمسمى الحرفين الواقعين في أولها في رسم المصحف؛ لأنها انفردت بهما؛ فكانا مميزين لها عن بقية السور، فصار منطوقهما عَلَمًا عليها.

وتسمى سورة «قلب القرآن» سميت بذلك لوصفها حديث (إن لكل شيء قلبا، وإن قلب القرآن يس..) ولكنه حديث باطل.

وقيل و وجه إطلاق ذلك عليها، لأن الإيمان صحته بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فجعله قلب القرآن لذلك، قاله أبو حامد الغزالي، واستحسنه فخر الدين الرازي.

وقيل: لاحتواء السورة مع قصر نظمها وصغر حجمها على الآيات الساطعة، والبراهين القاطعة والعلوم المكنونة، والمعاني الدقيقة، والمواعيد الرغيبة، والزواجر البالغة، والإشارات الباهرة، والشواهد البليغة، وغير ذلك مما لو تدبره المؤمن السليم لصدر عنه الرأي".

قال ابن عاشور:"وهي تسمية غير مشهورة".

وتسمى «سورة المعمة» و «سورة الدافعة القاضية» و«سورة العظيمة عند الله» و«سورة الحبيب النجار» سماها بذلك الأسم الأخير الفيروزآبادي، وذكر ابن عاشور ان هذه اتسمية وردت في مصحف مشرقي نسخ سنة: «١٠٧٨ هـ»، والذي يظهر انه في بلاد العجم عنوانها «سورة حبيب النجار»، قال ابن عاشور:"وهذه التسمية غريبة لانعرف لها سندا".

وذكر الفيروزآبادي سبب تسميتها بذلك، لاشتمالها على قصة «حبيب النجار» في قوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}

=

=

[يس: ٢٠].

* معظم مقصود السّورة: تأكيد أَمْر القرآن، والرسالة، وإِلزام الحجّة على أَهل الضَّلالة، وضرب المَثَل فى أَهل أَنطاكِية، وذكر حَبِيب النَّجار، وبيان البراهين المختلفة فى إِحياءِ الأَرض الميتة، وإِبداءِ اللَّيل، والنهار، وسير الكواكب، ودَوْر الأَفلاكِ، وَجَرى الجوارى المنشآت فى البحار، وذلَّة الكفار عند الموت، وحَيْرتهم ساعة البَعْث، وسعد المؤمنين المطيعين، وشُغُلهم فى الجنَّة، ومَيْز المؤمن من الكافر فى القيامة، وشهادة الجوارح على أَهل المعاصى بمعاصيهم، والمِنَّة على الرّسول ﷺ بصيانته من الشِّعْر ونظمِه، وإِقامة البرهان على البعث، ونفاذ أَمر الحق فى كن فيكون، وكمال مُلْك ذى الجلال على كلّ حال فى قوله: {فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

* المتشابهات: قوله: {وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ يسعى} سبق.

قوله: {إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً} مرتين ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأُولى هى النفخة الَّتى يموت بها الخَلْق، والثانية التى يحيا بها الخَلْق.

قوله: {واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً}، وكذلك فى مريم. ولم يقل: {مِنْ دُوْنِهِ}؛ كما فى الفرقان، بل صرّح كيلا يؤدّى إِلى مخالفة الضمير قبله؛ فإِنه فى السورتين بلفظ الجمع تعْظيما. وقد سبق فى الفرقان.

قوله: {فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ} وفى ويونس {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العزة للهِ جَمِيعًا} تشابهَا فى الوقف على (قولُهم) فى السّورتين، لأَنَّ الوقف عليه لازم، (وإِنَّ) فيهما مكسور بالابتداءِ بالحكاية، ومحكىُّ القول محذوف ولا يجوز الوصل؛ لأَنَّ النبىّ ﷺ منزَّه من أَن يخاطَب بذلك.

قوله: {وَصَدَقَ المرسلون}، وفى الصّافَّات: {وَصَدَّقَ المرسلين} ذكر فى المتشابه، وما يتعلّق بالإِعراب لا يُعَدُّ من المتشابه. بصائر ذوي التمييز (١/

=

مَكِّيَّة إِلَّا آيَة ٤٥ فَمَدَنِيَّة وَآيَاتهَا ٨٣ نزلت بعد سورة الجن.

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

يس (١).

{يس} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ[٢].

=

١/ ٣٩٠ - ٣٩١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(تنبيه): قال الدكتور بكر بن عبد الله بن زيد في معجم المناهي اللفظية ((طه)): آية شريفة من آيات القرآن العظيم، وبها افتتح الله سبحانه هذه السورة، وسميت بذلك.

وأما تسمية النبي ﷺ به فلا أصل له.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: ومما يمنع منه التسمية بأسماء القرآن وسورة مثل: طه، ويس، وحم، وقد نص مالك على كراهة التسمية بـ(يس) ذكره السهيلي، وأما ما يذكره العوام: أن: يس، وطه، من أسماء النبي ﷺ فغير صحيح، ليس ذلك في حديث صحيح، ولا حسن، ولا مرسل، ولا أثر عن صاحب، وإنما هذه الحروف مثل: الم، وحم، والر، ونحوها. انتهى.

وعن أبي الطفيل- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: (إن لي عند ربي عشرة أسماء..) قال أبو يحي: وزعم سيف أن أبا جعفر قال له: إن الاسمين الباقيين: طه، ويس.

فظاهر أن ذكرهما ليس في المرفوع، وإنما من كلام أبي جعفر. ثم هذا الحديث ضعيف؛ لأن في سنده: إسماعيل بن إبراهيم وسيف بن وهب التميميين.

=

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢).

{وَالْقُرْآن الْحَكِيم} الْمُحْكَم بِعَجِيبِ النَّظْم وَبَدِيع الْمَعَانِي[١].

=

(تنبيه ثاني): لا يصح في فضل سورة يس حديث.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد، فيجهر بالقراءة، حتى تأذى به ناس من قريش؛ حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا هم لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد! ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم؛ فنزلت: {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)}، قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٢، ٤٣)، و"لباب النقول" (ص ١٨٢) ونسبه لابن مردويه وأبي نعيم في "الدلائل".

وعن عكرمة؛ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدًا؛ لأفعلن ولأفعلن؛ فأنزلت: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا} إلى قوله: {فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}، قال: فكانوا يقولون هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو؟ لا يبصره.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ٩٩): ثني عمران بن موسى ثنا عبد الوارث بن أبي حفصة عن عكرمة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

=

=

* قوله تعالى: {وَالقرآن الْحَكِيمِ} [يس: ٢]، أي: "يقسم الله تعالى بالقرآن المحكم بما فيه من الأحكام والحكم والحجج".

قال الطبري: "يقول: والقرآن المحكم بما فيه من أحكامه، وبيِّنات حججه".

قال مقاتل: "الحكيم: يعني المحكم من الباطل".

قال ابن كثير: "أي: المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه".

قال العثيمين: قوله تعالى {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} الواو للقسم فلها معنى، ولها عمل، عملها الجر، ومعناها التأكيد، والقسم: تأكيد الشيء بذكر معظم على صورة مخصوصة، ولابد أن يكون المحلوف به معظمًا ولو تقديرًا في ذهن المقسم، كأن المقسم المعظم يقول: بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكدي منه وإثباتي له أؤكد المحلوف عليه.

ولهذا لابد أن يكون المحلوف به معظمًا، وإلا لكان الحلف لا فائدة منه. ثم قد يكون عظيمًا في ذاته حقيقة، وقد يكون معظمًا باعتبار المقسم به، فالذين يحلفون باللات والعزى يحلفون بمعظم لا بعظيم؛ لأنه معظم عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يقسمون بالله وآياته، يحلفون بعظيم وبمعظم في قلوبهم، وهو معظم في نفسه. {وَالْقُرْآنِ}، القرآن المراد هذا القرآن الذي نقرأه كلام الله ﷻ، وهو مشتق من قرأ بمعنى تلا لأنه متلو، أو من قرى بمعنى جمع؛ لأنه مجموع وجامع، فهو مشتق من المعنيين، من القراءة بمعنى التلاوة، ومن قرى بمعنى جمع، ومنه القرية لأنها مجتمع الناس، فالقرآن جامع بين المعنيين فهو متلو، وجامع ومجموع، كلمات مجموع بعضها إلى بعض، كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قوله: {الْحَكِيمِ} صفة للقرآن وهي بمعنى محكِم، أو بمعنى مُحْكَم، أو بمعنى حاكم كلها تحتمل، فالقرآن حاكم لأنه يجب الرجوع إليه {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

=

=

فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ} {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)} على القول بأن القرآن مُحْكِم، لأنه متقن للأشياء {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} وكذلك أيضًا مُحْكَم؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} وهو أيضًا مشتمل على الحكمة، ففيه معنى الحكمة والحكم، وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه:

أولًا: حكيم في ترتيبه، فكل آية إلى جنب الأخري حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما، فإنما ذلك إما لقصورنا أو لتقصيرنا، فمثلًا لو قال قائل: قوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)} جاء في سياق آيات العدد فما هو الارتباط؟

نقول: إنه لابد أن هناك حكمة، لكن قصرت أفهامنا عنها، أو قصرنا في التدبر لطلبها ومراجعة كتب أهل العلم.

ثانيًا: حكيم في أحكامه، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة وللعقل الصريح، ولهذا لا تجد شيئًا من أحكام القرآن مناقضًا للفطرة أبدًا، بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئًا في القرآن يكذبه العقل، أو يحيله أبدًا، بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

ثالثًا: حكيم في أسلوبه يشتد في مواضع الشدة، ويلين في مواضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العرب، فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي من استفهام، أو نهي، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر، فينتقل من أسلوب إلى آخر، وهو ما يسمي بالالتفات، وأنواع هذا كثيرة في القرآن.

=

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣).

{إنك} يا محمد {لمن المرسلين[(١)]}.

=

فالقرآن حكيم بكل معنى الحكمة، وبكل معنى الإحكام، وبكل معنى الحكم.

قال المصنف -مقتصرًا على واحد منها-: [المُحْكَم بعجيب النظم، وبديع المعاني]، فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم ونحن ذكرنا أشياء: ذو حكمة، ومُحْكِم، ومُحْكَم، وحاكم، فذكرنا أنه حاكم، وذو حكمة وحكم وإحكام، فيشمل أعم مما قاله المصنف.

(١) قوله تعالى: {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مقسمًا بوحيه وتنزيله لنبيه محمد ﷺ: إنك يا محمد لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده".

قال ابن كثير:" {إِنَّكَ} يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} ".

عن قتادة: " {وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، قسم كما تسمعون".

قال العثيمين: إقسام الله تعالى بكتابه العظيم أو بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الأحكام والحكمة والحُكم، ثم ذكر المقسم عليه فقال: {إِنَّكَ} أي يا محمد {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)} فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمدًا ﷺ من المرسلين، وقوله: {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)} لأنه سبقه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وأكملهم شريعة، جاء ليتم مكارم الأخلاق، وقد شبه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصرًا وأشاده وبقي موضع لبنة، فصار الناس يطوفون به، ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة قال: "فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"، والجملة {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)} مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، وإن، واللام.

قال المصنف: {لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى} متعلق بما قبله]، الذي قبله

=

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤).

=

{الْمُرْسَلِينَ}، مرسل اسم مفعول صالح للعمل؛ لأن يتعلق به المعمول، فالمعنى: "إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم" لأن جميع الرسل على صراط مستقيم بلا شك، ولكن يحتمل وجهًا آخر أحسن مما قال المصنف، وهو أن تكون {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)} خبراً ثانيًا لـ (إن)، أي: إنك على صراط مستقيم، وهذا أنسب، ويشهد له قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.

فالوجه الثاني في إعراب {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)} أنها خبر ثان لـ (إن)، وقوله: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)} قال المصنف: [أي طريق الأنبياء قبلك التوحيد والهدي، والتأكيد بالقسم وغيره رد لقول الكفار له: لست مرسلًا]، كما قال الله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا} إذن فالكلام مطابق لمقتضي الحال؛ لأنه يخاطب المنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أن للمخاطب ثلاث مراحل: أن يكون منكرًا، أو أن يكون مترددًا، أو أن لا يكون في ذهنه شيء لا إنكار ولا تردد، قالوا: فإن كان منكرًا وجب تأكيد الخبر له، وإن كان مترددًا حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في قلبه وذهنه شيء، فإنك تلقي إليه الخبر غير مؤكد هذا هو الأصل. فتخاطب إنسانًا ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد، تقول: زيد قائم، وإذا كنت تخاطب مترددًا في صحة الخبر فأكده له استحسانًا، وإذا كنت تخاطب منكرًا فإنه يجب أن تؤكد له الخبر. هذا هو الأصل، وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي التوكيد في غير موضع التوكيد لأسباب تعوف من السياق. فهنا الكفار يقولون: لست مرسلًا. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجبًا يعني مما توجبه البلاغة، والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه، بل وجوب من حيث البلاغة.

{عَلَى} مُتَعَلِّق بِمَا قَبْله {صِرَاط مُسْتَقِيم} أَيْ طَرِيق الْأَنْبِيَاء قَبْلك التَّوْحِيد وَالْهُدَى وَالتَّأْكِيد بِالْقَسَمِ وَغَيْره رَدّ لِقَوْلِ الْكُفَّار لَهُ لَسْت مُرْسَلًا[1].

---

(١) قوله تعالى: {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [يس: ٤]، أي:"على طريق مستقيم معتدل، وهو الإسلام".

قال الطبري:"يقول: على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام".

قال ابن كثير:"أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم".

قال مقاتل:"لأن غير دين الإسلام ليس بمستقيم".

عن قتادة: " {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، أي: على الإسلام".

عن قتادة:"{إنك على صراط مستقيم): أي الإسلام".

عن مجاهد: {إن ربي على صراط مستقيم} [هود: ٥٦]، يعني: «على الحق».

وعن مجاهد:"{أمن يمشي سويا على صراط مستقيم} [الملك: ٢٢]، يعني: «على الحق المستقيم».

عن مجاهد في قوله: " {صراط مستقيم}، قال: الحق".

عن عاصم الأحول، عن أبي العالية:"الصراط المستقيم، قال: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية ونصح".

قال السعدي:"أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم، مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة، المزكية للنفس، المطهرة للقلب، المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف =

=

الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نبهنا عليه".

قال العثيمين: قوله تعالى {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الصراط فعال بمعنى مفعول؛ لأن فعالًا تأتي بمعنى مفعول كثيرًا، كقولهم: بناء، وغراس، وفراش، بمعنى: مبني، مغروس، مفروش، فصراط فعال بمعنى مفعول أي: مصروط، والصراط: المرور بسرعة، ومنه قولهم: "صرط اللقمة" أي ابتلعها بسرعة، وفي اللهجة العامية عندنا نقول: "زرط" وهي لغة عربية في صراط، و"سراط" بالسين و"زراط" بالزاي فكلها لغة عربية، والصراط لا يكون صراطًا إلا إذا كان طريقًا واسعًا يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: أيضًا من صفاته أن يكون مستويًا ليس فيه طلوع ولا نزول {مُسْتَقِيمٍ} صفة له مؤكدة، أي: أنه لا اعوجاج فيه، ولا شك أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام صراط مستقيم، لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بعث إلى أن تقوم الساعة لا يمكن أن يضيق، وهو أيضًا صراط واسع لا يمكن أبدًا أن يضيق عن الأحكام الشرعية، فكل حادثة تنزل منذ بعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لابد أن يوجد حل لمشكلتها -إن كانت مشكلة- فيما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك نقول: إن هذا الشرع في القرآن والسنة كامل لا يحتاج إلى تكميل، وهو أيضًا واسع لا يمكن أن يضيق بأي جزئية تقع إلى يوم القيامة، إذن ليس هناك مشكل في الشريعة، لكن الإشكال إنما يأتي من قبل الناس: إما لقصور في الفهم، أو لتقصير في طلب العلم والهدي، أو الأشياء رانت على قلوبهم فأظلمتها حتى لا تبصر الحق، فقد يكون الإنسان غير مقصر ولا قاصر، عنده فهم قوي، وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذنوب تحول بينه وبين رؤية الصواب، ولهذا ينبغي للإنسان إذا أشكل عليه مسألة

=

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥).

{تَنْزِيل الْعَزِيز فِي} مُلْكه {الرَّحِيم} بِخَلْقِهِ خَبَر مُبْتَدَأ مُقَدَّر أَيْ الْقُرْآن[1].

=

من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مستنيرًا، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦)} ويستدل له أيضًا بقوله تعالى: {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)}. فالذنوب منعت القلوب أن تري أحقية هذا الكتاب حتى قال القائل: إنها {أساطير الأولين} فهذا الدين صراط مستقيم واسع، يسع جميع الناس إذا دخلوه، وواسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولكن الإشكال الذي يكون إما من قصورنا، أو تقصيرنا، أو من أمور رانت على القلوب فلا تري الحق.

(١) قوله تعالى: {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} [يس: ٥].

عن قتادة:"{تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ} قال: هو القرآن".

قال الطبري: أي:"إنك لمن المرسلين يا محمد إرسال الرب العزيز في انتقامه من أهل الكفر به، الرحيم بمن تاب إليه، وأناب من كفره وفسوقه أن يعاقبه على سالف جرمه بعد توبته له".

قال يحيى:"يعني: القرآن، هو تنزيل العزيز الرحيم، نزل مع جبريل على محمد ﷺ".

قال ابن كثير:"أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به مُنزل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

=

=

مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ} [الشورى: ٥٢، ٥٣] ".

قال السعدي:"فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقا لعباده، موصلا لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: «العزيز» «الرحيم» ".

قال العثيمين: قوله تعالى {تَنْزِيلَ} خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو. أي: القرآن تنزيل العزيز الرحيم، وتنزيل مصدر نزل ينزل، والقرآن منزَّل يعني ينزل شيئًا فشيئًا كما قال تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)} فإنه ينزل شيئًا فشيئًا، ويعبر أحيانًا عن القرآن بأنه أنزل باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدريج في تنزيله يكون منزلًا، وهكذا في القران نزول المطر، أحيانا يقول: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا} وأحيانًا يقول: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ} فباعتبار أن المطر ينزل شيئًا فشيئًا يقال: "نزلنا" وباعتبار النهاية واجتماعه كله يقال: "أنزلنا" وقوله: {الْعَزِيزُ} قال المصنف: [في ملكه] يعني الغالب في ملكه الذي لا يغلب فيه، وقد مر علينا في باب العقيدة أن العزيز من أسماء الله، وأن العزة لها ثلاثة معانٍ: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

فعزة القدر بمعنى أنه ذو قدر عظيم رفيع، وعزة القهر بمعنى أنه قاهر غالب، وعزة الامتناع أي أنه قوي لا يناله شيء، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أني يرام جناب ذي السلطان

فالله عَزَّ وَجَلَّ عزيز ممتنع أن يناله السوء، ومنه (الأرض العزاز) لقوتها وشدتها فقول المصنف: [العزيز: في ملكه] فيه قصور، قال المصنف: [الرحيم: بخلقه] وهنا

=

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦).

{لِتُنْذِر} بِهِ {قَوْمًا} مُتَعَلِّق بِتَنْزِيلِ {مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} أَيْ لَمْ يُنْذَرُوا فِي زَمَن الْفَتْرَة {فَهُمْ} أَيْ الْقَوْم {غَافِلُونَ} عَنْ الْإِيمَان وَالرُّشْد[1].

=

نقول: إن الرحيم عامة، لأنها لم تقيد، فالمراد به الرحمة العامة، فالله سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل، والصحة، والأولاد، والمال، والأزواج، لكن هذه رحمة عامة، أما الرحمة الخاصة بالمؤمنين ففي قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)} وهنا أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين، {الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن، وأن من لم يعمل به فإن أمامه العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، والرحيم إشارة إلى أن هذا القرآن إنزاله من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رحم خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأن به الحياة القلبية والبدنية، والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يخالفون هذا القرآن بأنه نزل من عند عزيز ينتقم ممن خالفه. ورحيم: إشارة إلى أن هذا القرآن من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى، قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [خبر مبتدأ مقدر، أي: القرآن] يعني بخبر مبتدأ مقدر {تَنْزِيلَ} بالرفع أي: القرآن، والتقدير: القرآن تنزيلُ العزيز الرحيم، وفي قراءة سبعية {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} وعلى هذه القراءة يكون منصوبًا على أنه مصدر عامله محذوف، يعني نزل تنزيل العزيز الرحيم.

(١) قوله تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} [يس:٦].

قال ابن كثير:"يعني بهم: العرب؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله. وذكرهم وحدهم لا ينفي مَنْ عداهم كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم".

=

=

قال السعدي:"هم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة الله به على العرب خصوصا، وعلى غيرهم عموما".

وفي قوله تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} [يس:٦]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنه عام، ومعناه: لتنذر قومًا كما أنذر آباؤهم، يعني: من كانوا قبل قريش. قاله عكرمة، والسدي.

عن عكرمة في هذه الآية:" {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} ، قال: قد أنذروا".

قال الأخفش:"قال بعضهم: «ما أنذره آبآؤهم فهم غافلون»، فدخول الفاء في هذا المعنى كأنه لا يجوز – والله أعلم –".

الثاني: أنهم قريش أنذروا بنبوة محمد –ﷺ– ولم ينذر آباؤهم من قبلهم، حكاه قتادة، واختاره الأخفش، والزجاج.

قال قتادة:"يقول بعضهم: لم يأتهم نذير قبلك ، ويقول بعضهم: {ما أنذر آباؤهم} ، يقول: مثل الذي أنذر آباؤهم".

قال الأخفش:"أي: قوم لم ينذر آباؤهم، لأنهم كانوا في الفترة".

قال الزجاج:"وجاء في التفسير: لتنذر قوما لم ينذر آباؤهم، فيكون «ما» جحدا – وهذا – والله أعلم – الاختيار؛ لأن قوله {فهم غافلون} دليل على معنى لم ينذر آباؤهم وإذا كان قد أنذر آباؤهم فهم غافلون ففيه بعد، ولكنه قد جاء في التفسير. ودليل النفي قوله: {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ} [سبأ: ٤٤]، ولوكان آباؤهم منذرين لكانوا منذرين دارسين لكتب – والله

=

=

أعلم".

قوله تعالى: {فَهُمْ غَافِلُونَ} [يس:٦]، أي:"فهؤلاء القوم ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح".

قال الطبري:"يقول: فهم غافلون عما الله فاعل: بأعدائه المشركين به، من إحلال نقمته، وسطوته بهم".

قال العثيمين: قال المصنف: [{لِتُنْذِرَ} به {قَوْمًا} متعلق بتنزيل]. {لِتُنْذِرَ} اللام هذه تسمى لام التعليل، والفعل بعدها منصوب باللام، وعلى مذهب البصريين منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلى كل حال فهي تحتاج إلى متعلق، ومتعلقها قوله: {تَنْزِيلَ} يعني إنما نزل لتنذر قومًا ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. "تنذر": قال العلماء: الإنذار هو الإخبار المقرون بالتخويف، أو المتضمن للتخويف، فالإنسان مثلًا يأتي إلى قوم يصيح بهم: العدو، العدو. يقال: هذا منذر ونذير، فالنذير عن شيء يخوف، فهو إعلام متضمن للتخويف، هذا القرآن أنزله الله ﷻ لينذر النبي ﷺ به {قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ} أي: لم ينذروا في زمن الفترة وعلى هذا فـ (ما) نافية، يعني: لتنذر قومًا لم ينذروا ولم يخوفوا، لكن هذا في زمن الفترة، وأما قبل فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فإنه مرسل إلى العرب إلى قومه، وبعد ذلك لم ينذر هؤلاء، قال بعض المعربين الذين يجمعون الأقوال -صحت أو لم تصح أي أنهم يقولون أي احتمال- قالوا: ويجوز أن تكون "ما" موصولة، أي: (لتنذر قومًا الذي أنذره آباؤهم) فيجعلون ما موصولة، ويجعلون العائد محذوفًا تقديره (الذي أُنذره آباؤهم) أي: لتنذرهم الذي أُنذره آباؤهم، ولكن هذا وإن كان محتملًا من قبل اللفظ، لكن بعيد من جهة المعني، لأن الآيات الكثيرة المتعددة تدل على أن قريشًا الذين بعث فيهم النبي محمد ﷺ لم يُنذر آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة "الم" السجدة:

=

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧).

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْل} وَجَبَ {عَلَى أَكْثَرهمْ} بِالْعَذَابِ {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} أَيْ الْأَكْثَر[١].

=

{لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} وهذا صريح في أن "ما" هنا للنفي لا غير. قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ {فَهُمْ} أي: القوم {غَافِلُونَ (٦)} عن الإيمان والرشد] غافلون لأنهم ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه، ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لما تطاول عليهم الأمد ولم يأتهم نذير، غفلوا وكأنهم ما خلقوا لعبادة الله، وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها من دون الله، ويركعون لها، ويسجدون، وينذرون ويوفون، فهم غافلون لعدم من يوقظهم، ولكن من هؤلاء الذين في زمن الفترة من عنده علم من الرسالة لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار، فأهل الفترة نوعان:

نوع علمنا من شهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة لحكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

ونوع لا ندري عنهم شيئًا، فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين.

وأصح الأقوال فيهم أنهم ممتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [يس: ٧]، أي:"لقد وجب العذاب على أكثر هؤلاء الكافرين، بعد أن عُرِض عليهم الحق فرفضوه،

=

=

فهم لا يصدقون بالله ولا برسوله، ولا يعملون بشرعه".

قال الطبري:"لقد وجب العقاب على أكثرهم، لأن الله قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون رسوله".

عن الضحاك: " {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ}، قال: سَبَق في علمه".

قال العثيمين: قوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} اللام موطئة للقسم، أي: أنها تدل على أن هناك قسمًا محذوفًا تقديره: والله لقد حق. و"قد" للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد، وهذا التركيب يأتي في القرآن كثيرًا وطريقه ما أشرنا إليه. {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ} أي وجب {الْقَوْلُ} هو القول بالعذاب كقوله تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)}. في الآية الأخرى: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦)} فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أوتي من آية، ولكن لا تحق كلمة العذاب إلا على من استحقها حتى لا يقال: إن الله تعالى قد أجبره على العمل، لقوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} والله ﷻ ينظر في قلوب العباد فمن كان أهلًا للهداية هداه، ومن لم يكن أهلًا لها لم يهده، فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ -والعياذ بالله- فإنه لا يؤمن، وقوله: {عَلَى أَكْثَرِهِمْ} يعني على أكثر الذين بعث إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام من العرب، وليس على كلهم، ولذا فقد كذب النبي ﷺ من قريش أمم كثيرة وماتوا على الكفر، ولاسيما الصناديد منهم والأشراف، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (هم) الضمير يعود على أكثر، لا على "الهاء" في {فَهُمْ} {فهم} أي: الأكثر لا يؤمنون؛ حتى وإن جئت بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون، لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨).

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقهمْ أَغْلَالًا} بِأَنْ تُضَمّ إلَيْهَا الْأَيْدِي لِأَنَّ الْغُلّ يَجْمَع الْيَد إلَى الْعُنُق {فَهِيَ} أَيْ الْأَيْدِي مَجْمُوعَة {إلَى الْأَذْقَان} جَمْع ذَقَن وَهِيَ مُجْتَمَع اللَّحْيَيْنِ {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} رافعون رؤوسهم لَا يَسْتَطِيعُونَ خَفْضهَا وَهَذَا تَمْثِيل وَالْمُرَاد أَنَّهُمْ لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون رؤوسهم له[١].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ} [يس: ٨].

قال الطبري: يقول:"إنا جعلنا أيمان هؤلاء الكفار مغلولة إلى أعناقهم بالأغلال، فلا تُبسط بشيء من الخيرات.. {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} و «المقمَح»: هو المقنع، وهو أن يحدر الذقن حتى يصير في الصدر، ثم يرفع رأسه في قول بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة، وفي قول بعض الكوفيين: هو الغاض بصره بعد رفع رأسه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعل في عنقه غل، فجَمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسُه، فصار مقمَحا".

عن ابن عباس، قوله: " {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا فَهِيَ إِلَى الأذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ}، قال: هو كقول الله: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}، يعني: بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير".

عن مجاهد، قوله: " {فَهُمْ مُقْمَحُونَ}، قال: رافعو رءوسهم، وأيديهم موضوعة على أفواههم".

قال قتادة:"أي: فهم مغلولون عن كل خير".

قال العثيمين: قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَا} أي: صيرنا، ولهذا نصبت مفعولين، =

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩).

{وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} بِفَتْحِ السِّين وَضَمّهَا فِي

=

المفعول الأول: أغلالًا، والمفعول الثاني: مقدم، {فِي أَعْنَاقِهِمْ} وقوله: {أَغْلَالًا} الغل يكون باليد، كما قال تعالى: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} وهنا قال: {فِي أَعْنَاقِهِمْ} فمعناه أن اليد سوف تشد إلى العنق، ولهذا قال المصنف: [بأن تضم إليها الأيدي؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق، {فَهِيَ} أي: الأيدي مجموعة {إِلَى الْأَذْقَانِ}]، قوله: "مجموعة" أخذها من قوله: {إِلَى الْأَذْقَانِ} ويجوز أن نقدر بدل "مجموعة" منتهية أو بالغة {إِلَى الْأَذْقَانِ} جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين، واللحيان هما العظمان اللذان عليهما الأسنان، ومجمعها يسمي الذقن، {فَهُمْ مُقْمَحُونَ} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [رافعون رؤوسهم]، والأحسن أن يقال: مرفوعو الرؤوس، لأن اليد مغلولة إلى العنق تضيق على الذقن، ثم يرتفع الرأس قال: [رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها] لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة، وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحر، رجل مشدودة يداه بعضها إلى بعض ثم مجموعة إلى العنق من عند الذقن، إذن لابد أن يرتفع رأسه اضطرارًا، وزاد بعض العلماء في القبح أنها مغمضة أجفانهم؛ لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإن من تمام الذل أن يغمض عينيه، ولكن صنيع المصنف يدل على أنه ليس بشرط، فالمهم أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم، وبالنسبة لرؤوسهم لا يستطيعون تنزيلها، فهي دائمًا مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المكذبين كما قال المصنف: [وهذا تمثيل، والمراد أنهم لا يذعنون للإيمان، ولا يخفضون رؤوسهم له].

الْمَوْضِعَيْنِ {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} تَمْثِيل أَيْضًا لِسَدِّ طُرُق الإيمان عليهم(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا} [يس:٩].

قال الطبري: يقول:"وجعلنا من بين أيدي هؤلاء المشركين سدًّا، وهو الحاجز بين الشيئين، والمعنى: أنه زين لهم سوء أعمالهم فهم يَعْمَهُونَ، ولا يبصرون رشدًا، ولا يتنبهون حقًّا".

قال السعدي:"أي: حاجزا يحجزهم عن الإيمان، {فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة".

عن مجاهد، قوله: " {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا}، قال: عن الحق فهم يترددون".

عن قتادة: " {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا}، قال: ضلالات".

قال ابن زيد:"جعل هذا سدًّا بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} وقرأ {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ}... الآية كلها، وقال: من منعه الله لا يستطيع".

قوله تعالى: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس:٩]، أي:"فأعمينا أبصارهم؛ بسبب كفرهم واستكبارهم، فهم لا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون".

قال الطبري:"يقول: فأغشينا أبصار هؤلاء، أي: جعلنا عليها غشاوة؛ فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به".

قال السمعاني:"{فأغشيناهم} من التغشية والتغطية، أي: أعميناهم، {فهم لا يبصرون} طريق الحق".

قال ابن كثير:"أي: أغشينا أبصارهم عن الحق، {فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ}، أي: لا =

=

ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه".
عن قتادة: " {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ}، هدى، ولا ينتفعون به".
ورُوي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك: " «فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» بالعين، بمعنى: أعشيناهم عنه، وذلك أن العَشَا هو أن يمشي بالليل ولا يبصر".
قال السدي:"ائتمر ناس من قريش بالنبي ﷺ ليسطوا عليه فجاؤا يريدون ذلك فجعل الله: {من بين أيديهم سدا}، قال: ظلمة، {ومن خلفهم سدا}، قال: ظلمة {فأغشيناهم فهم لا يبصرون}، قال: فلم يبصروا النبي ﷺ".
قال محمد بن كعب القرظي: "اجتمع قريش. وفيهم أبو جهل على باب النبي ﷺ، فقالوا على بابه: إن محمدا يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، وبعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تحرقون فيها، فخرج رسول الله ﷺ، وأخذ حفنة من تراب في يده قال: «نعم. أقول ذلك، وأنت أحدهم، وأخذ الله على أبصارهم فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو هذه الآيات: {يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}، إلى قوله: {فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ}، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، فلم يبق رجل إلا وضع على رأسه ترابا، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، وإذا عليه تراب فقالوا: لقد كان صدقنا الذي حدثنا».
قال ابن إسحاق:"وقد بلغ النبيّ ﷺ قول أبي جهل فقال: "وأنا أقول ذلك: إن لهم مني لذبحا، وإنه أحدهم".
قال العثيمين: قوله {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)} قال المصنف: {سَدًّا} [بفتح السين وضمها في الموضعين]، قراءتان سبعيتان، أي: سُدًا وسَدًّا {فَأَغْشَيْنَاهُمْ} أي أغشينا أبصارهم، جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر، ولهذا قال المصنف: {فَهُمْ لَا

=

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠).

{وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتهمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْن الْمُسَهَّلَة وَالْأُخْرَى وَتَرْكه {أم لم تنذرهم لا يؤمنون}[١].

=

يُبْصِرُونَ (٩)} [تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم] ليس هناك سد حقيقي كالجدار مثلًا، أو ثوب ساتر بل هذا من باب التمثيل، كأنهم لبعدهم عن الإيمان -والعياذ بالله- وانحجاب رؤيتهم إياه كأنهم جعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون، ومن خلفهم فلا يتأخرون، فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تبصر الحق ولا تنظر إليه ولهذا قال: {فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} فتأمل أيضًا حالهم الآن، أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعون رؤوسهم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الإمام ومن الخلف، فهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان، ولا أن يصل إليهم الإيمان.

(١) قوله تعالى: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ} [يس:١٠].

قال الطبري: يقول:"وسواء يا محمد على هؤلاء الذين حق عليهم القول، أي: الأمرين كان منك إليهم؛ الإنذار، أو ترك الإنذار".

قال السدي:"يعني: إن أنذرت الكفار أم لم تنذرهم فهو عليهم سواء، يعني: الذين لا يؤمنون".

عن ابن زيد في الآية قال: "جعل هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فلم يخلصوا إليه. وقرأ: {وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}، من منعه الله لا يستطيع".

قال الصابوني:"لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال، وعشعشت في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع والزواجر".

=

=

قوله تعالى: {لَا يُؤْمِنُونَ} [يس:١٠]، أي:"فهم لا يصدِّقون ولا يعملون".
قال الطبري: يقول:"فإنهم لا يؤمنون؛ لأن الله قد حكم عليهم بذلك".
قال ابن كثير:"أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به".
قال السمعاني:"هذا في أقوام بأعيانهم، وقد مضوا ولم يؤمنوا على ما قال الله تعالى".
قال السعدي:"وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلا والباطل حقا؟! ".
قال العثيمين: قوله تعالى {وَسَوَاءٌ} خبر مقدم بمعنى مستوٍ، و {أَأَنْذَرْتَهُمْ} مبتدأ مؤخر مسبوك بمصدر، وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنها تسبك وما بعدها بمصدر، وتقدير الكلام: "وإنذارك وعدمه سواء عليهم" {وَسَوَاءٌ} هنا لم يقل فيها: "سواءان" لأنها مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع. قال المصنف في بيان القراءة في قوله تعالى: {أَأَنْذَرْتَهُمْ} [بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا وتسهيلها، وأدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه]، إدخال ألف بين المسهلة والأخرى، يعني على قراءة التسهيل تجعل فيها ألفًا أو تحذف الألف إدخال الألف بين الهمزة المحققة والمسهلة {أَأَنْذَرْتَهُمْ} تمد الأولى وتسهل الثانية فيكون عندنا ثلاثة حروف: الهمزة الأولى محققة، والألف، والهمزة الثانية مسهلة، وتركه كما قلناه في الأول بدون ألف ستحقق الأولى وتسهل الثانية بدون ألف. هذه القراءة سبعية؛ لأن المصنف من عادته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: (وقُرِئت)، وعلى كل حال هذا لا يختلف فيه المعنى، إنما هو في كيفية الأداء أما المعنى فلا يختلف.
والمعنى أن إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء، ثم بين وجه التسوية فقال: {يُؤْمِنُونَ}

=

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١).

{إِنَّمَا تُنْذِر} يَنْفَع إنْذَارك {مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْر} الْقُرْآن {وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ} خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْر كَرِيم} هُوَ الْجَنَّة(١).

=

هذا معنى التسوية، يعني معناه: أنذرت أم لم تنذر فإنهم لا يؤمنون، ولهذا فالجملة هنا استئنافية بيان للجملة الأولى، يعني أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر، وهذا أمر مشاهد أن الإنسان الذي قد قضي عليه بالضلالة -والعياذ بالله- تأتي وتنصحه مرة بعد أخرى وتبين له وتحذره ولكن لا يزداد إلا نفورًا -والعياذ بالله- حتى إن بعض الناس يسخر ويستهزيء، فعلى كل حال هذا الذي ينذر ولا يتأثر بالإنذار يخشى عليه، كما أسلفنا من أن يكون قد طبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبدًا.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} [يس:١١].

قال الطبري: يقول:"إنما ينفع إنذارك يا محمد من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله".

قال السمعاني:"أي: استمع الذكر، وهو القرآن، واتبع ما فيه".

قال ابن كثير:"أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم".

قال قتادة:"واتباع الذكر: اتباع القرآن".

قوله تعالى: {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} [يس:١١]، أي:"وخاف الرحمن، حيث لا يراه أحد إلا الله".

قال قتادة:"خشي عذاب الله وناره".

قال السمعاني:"أي: خاف الرحمن بالغيب".

=

=

قال الطبري: " يقول: وخاف الله حين يغيب عن أبصار الناظرين، لا المنافق الذي يستخف بدين الله إذا خلا ويظهر الإيمان في الملأ ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه".

قال ابن كثير:"أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله".

قال أبو حيان:"{وخشي الرحمن}، أي: المتصف بالرحمة، مع أن الرحمة قد تعود إلى الرجاء، لكنه مع برحمته هو يخشاه خوفا من أن يسلبه ما أنعم به عليه بالغيب، أي بالخلوة عند معيب الإنسان عن غيوب البشر".

قال السعدي:"أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك".

قوله تعالى: {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} [يس:١١]، أي:"فبشِّره بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب منه في الآخرة على أعماله الصالحة، وهو دخوله الجنة".

قال الطبري: " يقول: فبشر يا محمد هذا الذي اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب منه له في الآخرة كريم، وذلك أن يعطيه على عمله ذلك الجنة".

قال ابن كثير:"{فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ} أي: لذنوبه، {وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: ١٢] ".

عن قتادة:"{فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، قال: الجنة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنْذِرُ} هذه الجملة فيها حصر طريقه: "إنما" والتقدير: "لا تنذر إلا من اتبع الذكر" وقوله: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} المراد بذلك. إنما تنذر الإنذار النافع، كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر،

=

=

ولهذا قال المصنف: [ينفع إنذارك من اتبع الذكر: القرآن].

والمراد بالاتباع في قوله: {مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ} المراد باتباع الذكر شيئان:

الشيء الأول: تصديق الخبر، واعتقاده مقتضاه.

والثاني: امتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا اتباع الذكر فمن استكبر عما فيه من الأمر، أو النهي فإنه لم يتبعه، ومن لم يصدق بأخباره فإنه لم يتبعه، فلا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار، اتباع الأحكام: فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور، وقوله: {الذِّكْرَ} المراد به القرآن، لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)} وسمي القرآن ذكرًا:

أولًا: لما فيه من التذكير والموعظة: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)}.

ثانيًا: لما فيه من ذكر الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

ثالثًا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعًا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)} فإن القرآن لا شك رفع من شأن العرب، وجعلهم هم الأمة الذين ترجع إليهم الأمم، فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب، ففي هذا رفع لشأنهم وعز لمكانتهم، فالقرآن جاء بلغتهم، ووصل إلى الناس عن طريقهم.

خامسًا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي، لأن هذا هو عديل أخبار الأمم السابقة، وأخبار الناس في المستقبل. فلهذا سمي القرآن ذكرًا.

=

=

قال الله ﷻ: {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} "خشي": يقول المصنف: [خافه ولم يره]، وعليه فهذا من باب الحد اللفظي؛ لأنه فسر بمرادفه، فتفسير الشيء بمرادفه يسمى حدًّا لفظيًّا، فإذا قلت: القمح هو البر. فهذا حد لفظي، وتفسير الخشية بالخوف فيه نظر؛ لأن هذا الحد غير مانع؛ لأن الخشية ليست مجرد الخوف، بل الخشية هي: الخوف عن علم بالمحوف وعظمته، بدليل قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فالخوف قد لا يكون لعظمة المخوف، ولكن لضعف الخائف. لكن الخشية لا تكون إلا لعظمة المخوف إذا عرفها الخاشي عظم هذا المخشي فخشيه، إذن بينهما فرق، فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر، والصواب أن يقال: الخشية هي الخوف عن علم بعظمة المخوف، فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أما الخوف فقد يكون ناشئًا عن ذلك، وقد يكون ناشئًا عن ضعف الخائف.

وقوله: {الرَّحْمَنَ} اختيار هذا الاسم هنا دون ذكر لفظ الجلالة (الله) ﷻ؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله تعالى يخافه عن علم، فطمأن الله الخائف والخاشي بأنه إنما يخشى رحمانًا يرحمه، فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله ﷻ إذا خافه الإنسان وخشيه، فإنه يرحمه؛ لأنه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره، ويجتنب نواهيه، وحينئذ يكون متعرضًا للرحمة، هذه المناسة لذكر الرحمن دون ذكر لفظ الجلالة: (الله) والله أعلم.

وقوله: {بِالْغَيْبِ} قال المصنف: (ولم يره) كأنه يفسر أن المراد بالغيب: أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه، فيكون بالغيب حالًا من المخشي، يعني يخشى الله والله غائب عنه، هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني: يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيبة عن الناس، يخشى الله في قلبه في عمل غائب لا يغفل، فيكون بالغيب حالًا من الخاشي، يعني أن هذا

=

=

الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب حال كونه غائبًا عن الناس، خشي الله بالغيب أي بالعمل الغائب، وهذه هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله تعالى في العلانية قد يكون سببها مراءاة الناس، ويكون في هذه الخشية شيء من الشرك؛ لأنه يرائي بها، ولكن إذا كان يخشى الله في مكان لا يطلع عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة، وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها. فهذا خشي الناس في الحقيقة ولم يخش الله ﷿، لأن الذي يخشى الله لابد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواء بحضرة الناس، أو بغيبة الناس، أيضًا يخشى الله بالغيب أي بما غاب عن الأبصار نظرًا، وعن الأذان سمعًا، وهو خشية القلب، وخشية القلب إعظم ملاحظة من خشية الجوارح. لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مراقبًا لله ﷿ ولحقه أكثر، فيجب أن تراقب خشية القلب أكثر مما تراقب خشية الجوارح، إذ خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته، فكل إنسان يستطيع أن يقوم يصلي ولا يتحرك، ينظر إلى موضع سجوده، يرفع يديه في موضع الرفع، يعني يستقيم استقامة تامة في ظاهر الصلاة، لكن القلب غافل. أما خشية القلب فهي الأصل، وهي التي يجب أن يراقبها الإنسان ويحرص عليها حرصًا تامًّا، وهذا معنى قوله تعالى: {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ} إذًا الراجح من القولين أن قوله: {بِالْغَيْبِ} يعود على الخاشي أي يخشى الله تعالى غائبًا عن الخلق، ويخشي الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون، ولا تسمعها الآذان، وهي خشية القلب.

أما قول المصنف: [ولم يره] واعتبر أن الغيب هنا حال من المخشي، فهذا فيه نظر؛ لأن الله ﷿ لا يُري في الدنيا، ولكن آياته البينة الظاهرة كأن الإنسان يري ربه، ولهذا قال النبي ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه

=

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ

=

يراك". فآيات الله سواءً الآيات الكونية، أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها الإنسان ظهر له بها وجود الخالق، وظهر له كل ما تضمنته هذه الآيات من صفاته، ظهورًا بينًا كأنما يشاهد الله ﷻ، فالصواب إذًا المعنى الأول لأننا نقول: وإن لم نر الله لكَن نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته، قوله: {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ} بعد قوله: {تُنْذِرُ} من باب المتقابلات تنذر فينتفع بالإنذار، وإذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة ولهذا قال: {فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)} هو الجنة بمغفرة للذنوب، وأجر كريم على فعل الحسنات، والكريم يتضمن:

١ - كرم الذات العيني.

٢ - وكرم الصفات، كقول النبي عليه الصلاة والسلام: "إياك وكرائم أموالهم". يعني الكريم بذاتها وصفاتها، الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنة بذاته، وجدنا أنه كريم أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة، ونخل، ورمان، وعسل، وخمر إذا نسبت هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنه أكرم من نعيم الدنيا بذاته، وبصفاته أيضًا، طعمه ورائحته وغير ذلك هو أيضًا أكرم.

٣ - كريم أيضًا من حيث المقابلة، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. والأجر في الدنيا يكون بقدر العوض، تبيع على سيارة بعشرة آلاف ما أعطيك إلا عشرة ما أزيد، لكن في الآخرة أجر الآخرة أكرم وأعظم، لأنك تبذل واحدًا وتُعطي عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه في: عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته، فإنه أعظم بكثير من عوض الدنيا وأجر الدنيا [وأجر كريم هو الجنة] هذا تفسير للمراد، لا للمعني، ولا شك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

مُبِينٍ (١٢) .

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} لِلْبَعْثِ {وَنَكْتُب} فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ {مَا قَدَّمُوا} فِي حَيَاتهمْ مِنْ خَيْر وَشَرّ لِيُجَازُوا عَلَيْهِ {وَآثَارهمْ} مَا اسْتَنَّ بِهِ بَعْدهمْ {وَكُلّ شَيْء} نَصَبَهُ بِفِعْلٍ يُفَسِّرهُ {أَحْصَيْنَاهُ} ضَبَطْنَاهُ {فِي إِمَام مُبِين} كِتَاب بَيِّن هُوَ اللَّوْح الْمَحْفُوظ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد؛ فنزلت هذه الآية: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}، فقال رسول الله ﷺ: "إن آثاركم تكتب"، فلم ينتقلوا.

أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٣، ٣٦٤ رقم ٣٢٦٦)، وعبد الرزاق في "المصنف" (١/ ٥١٧ رقم ١٩٨٢)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٠٠)، وابن عدي في "الكامل" (٤/ ١٤٣٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٧/ ٥٧٣) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٥، ٢٤٦)، و"الوسيط" (٣/ ٥١٠، ٥١١)، والحاكم (٢/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦/ ١٧٥، ١٧٦ رقم ٢٦٣٠)، و"السنن الكبرى" (١٠/ ٧٨) جميعهم من طريق الثوري عن طريف بن شهاب عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه طريف بن شهاب، وهو ضعيف؛ كما في "التقريب".

قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح عجيب"، ووافقه الذهبي.

وللحديث طرق أخرى.

=

=

فأخرجه البزار في "مسنده"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥٧٣) من طريق شعبة وعبد الأعلى بن عبد الأعلى كلاهما عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد به.

قلنا: وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات، وشعبة وعبد الأعلى سمعا من الجريري قبل اختلاطه.

وبهذه المتابعة القوية؛ صح الأثر.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٤٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

وللحديث شاهد من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد؛ فأرادوا أن يقتربوا؛ فنزلت: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}.

أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٥٨ رقم ٧٨٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٢/ ١٠٠) من طرق عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس به.

وهذا إسناد ضعيف؛ رواية سماك عن عكرمة خاصة مضطربة، وكان ربما يلقن.

قال البوصيري في "مصباح الزجاجة" (١/ ١٠١): "هذا إسناد ضعيف موقوف؛ فيه سماك وهو ابن حرب وإن وثقه ابن معين وأبو حاتم؛ فقد قال أحمد: "مضطرب الحديث"، وقال يعقوب بن شيبة: "روايته عن عكرمة مضطربة وعن غيره صالحة". اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥٧٣): "هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع".

هكذا رواه أبو أحمد الزبيري -وهو ثقة ثبت-، ووكيع -وهو ثقة حافظ- عن إسرائيل.

=

=

وخالفهما الفريابي؛ فرواه عن إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٧ رقم ١٢٣١٠): ثنا عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم عن الفريابي به. لكن في الطريق إلى الفريابي شيخ الطبراني وهو ضعيف.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٩٧): "رواه الطبراني عن شيخه... وهو ضعيف".

* قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس:١٢].

عن أبي سعيد الخدري، قال: "شكت بنو سَلِمة بُعد منازلهم إلى النبي ﷺ فنزلت: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}، فقال: «عَلَيكُمْ مَنَازِلَكُم تُكْتَبُ آثارُكم» ".

قال ابن عباس:"كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد فنزلت: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}، فقالوا: نثبت في مكاننا".

قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى} [يس:١٢]، أي:"إنا نحن نحيي الأموات جميعًا ببعثهم يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى} من خلقنا".

قال السعدي:"أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال".

قال السمعاني:"أي: في الآخرة، ويقال: يحيي القلوب الميتة بنور الإيمان".

قال ابن كثير:"أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب مَنْ يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا

=

لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد: ١٧] ".

قوله تعالى: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس:١٢]، أي:"ونكتب ما عملوا من الخير والشر، وآثارهم التي كانوا سببًا فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير، كالولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية، ومن شر، كالشرك والعصيان".

قال الطبري: يقول:"{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} في الدنيا من خير وشر، وصالح الأعمال وسيئها، وآثار خطاهم بأرجلهم".

وفي قوله تعالى: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس:١٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: {ما قدموا} : هو ما عملوا من خير أو شر، {وآثارهم} : ما أثروا من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعدهم، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد:"سنوا من سنة فعملوا بها من بعد موتهم".

وقال مجاهد:"ما قدموا من خير وآثارهم قال: ما أورثوا من الضلالة".

وفي الحديث: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا».

الثاني: {ما قدموا} : أعمالهم، {وآثارهم} : خطاهم إلى المساجد، قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: " {مَا قَدَّمُوا} ، قال: أعمالهم"، " {وَآثَارَهُمْ} ، قال: خطاهم بأرجلهم".

عن الحسن: " {وآثارهم} ، قال: خطاهم".

قال أنس:"هذا في الخطو يوم الجمعة".

عن قتادة، قوله: " {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} ، من عمل".

قال ابن زيد، في قوله:"{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} ، قال: ما عملوا".

=

قال قتادة:"لو كان مغفلا شيئا من أثر ابن آدم لاغفل هذا الأثر التي تعفها الرياح، ولكن أحصر على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو في طاعة الله أو معصيته فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليفعل".

قال ابن عباس:"كانت الأنصار بعيده منازلهم من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا، قال: فنزلت: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}، فثبتوا".

قال جابر:"أراد بنو سَلِمة قرب المسجد، قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ إِنَّها تُكْتَبْ آثَارُكُمْ» ".

وفي رواية قال جابر:"أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، قال: والبقاع خالية، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ إِنَّها تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»، قال: فأقاموا وقالوا: ما يسرنا أنا كنا تحولنا".

قال ابن كثير:"وهذا القول (أي القول الثاني) لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب، فلأن تُكْتَبَ تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى، والله أعلم".

قوله تعالى: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} [يس:١٢]، أي:"وكلَّ شيء أحصيناه في كتاب واضح هو أمُّ الكتب، وإليه مرجعها، وهو اللوح المحفوظ".

قال الطبري: يقول:"وكل شيء كان أو هو كائن أحصيناه، فأثبتناه في أم الكتاب، وهو الإمام المبين. وقيل {مُبِينٌ}، لأنه يبين عن حقيقة جميع ما أثبت فيه".

قال السعدي:"{وَكُلَّ شَيْءٍ} من الأعمال والنيات وغيرها {أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ".

عن مجاهد: " {فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}، قال: في أم الكتاب".

قال قتادة:"كل شيء محصًى عند الله في كتاب".

=

=

قال ابن زيد:"أم الكتاب التي عند الله فيها الأشياء كلها هي: الإمام المبين".
قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} . مناسبة هذه الآية لما قبلها لها مناسبتان:
المناسبة الأولى: أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول - ﷺ ومن لا ينتفع، بين أن كلًّا منهم سوف يحيا بعد موته، وسوف يجازى على عمله، فالمناسبة ظاهرة ففيها بشارة للمؤمن المنتذر، وفيها إنذار وتخويف لمن خالف.
المناسبة الثانية: أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادر على إحياء الموتى إحياءً حسيًّا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياءً معنويًّا. قال: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى} {إِنَّا} ضمير جمع، والله ﷻ واحد، فتحمل هذه على التعظيم قطعًا. {نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى} {نَحْنُ} ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: "إنا نحيي الموتى" استقام الكلام، فهي ضمير فصل للتخصيص يعني: نحن لا غيرنا، {الْمَوْتَى} جمع ميت، ويشمل الموتى من بني آدم وغيرهم، لكن قوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} يدل على التخصيص، وهذا له نظائر في القرآن والسنة، إذا جاء لفظ عام، ثم ذكر بعده حكم يختص ببعض أفراده، فهل هذا يخصص العموم أو لا يخصصه؟
إذا نظرنا إلى تصرف العلماء رحمهم الله وجدنا أنهم أحيانًا يجعلونه مخصصًا للعموم، وأحيانًا لا يجعلونه مخصصًا للعموم، فمثلًا قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} هذه الآية فيها عموم، وفيها حكم يختص ببعض أفراد هذا العموم. فقوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} يشمل من لها رجعة، ومن ليس لها رجعة، فهذا العموم، ثم قال بعد ذلك: {وَبُعُولَتُهُنَّ} أي بعولة المطلقات {أَحَقُّ

=

=

بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} هذا الحكم يختص بالرجعيات فهل نقول: إن المراد بالمطلقات في قوله: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ} المراد بها الرجعيات أو هو عام؟ أكثر العلماء على أنه عام. ومن السنة قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "قضي النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة" في هذا عموم، وفي هذا حكم تعقبه يختص ببعض أفراد هذا العموم، فهل نأخذ بالعموم، أو نأخذ بما يقتضيه الحكم المعقب؟ فقوله: "قضى النبي ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم" يشمل كل مالم يقسم حتى لو كان بينك وبينه سيارة تبيع نصيبك منها ففيها الشفعة، أخذًا بالعموم "بكل ما لم يقسم" قوله: "فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة" هذا يختص بالأراضي، فهل نقول: إن قوله: "في كل ما لم يقسم" يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرع، ونقول: إذا كان شريكان في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شفعة للثاني، أو نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به؟ فيه أيضًا خلاف في هذه المسألة، والذي نحن فيها الآن {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى} يشمل كل ميت حتى البهائم {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} هذا خاص بالمكلفين فهل نقول: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى} أي: من المكلفين بدليل قوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} أو نقول: هو عام، وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص؟ ينبني على الخلاف السابق، والعلماء يختلفون في مثل هذا، فنحن نقول: يمكن أن يقال: الموتى الذين يكتب لهم ما قدموا وآثارهم؛ بدليل قوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ}.

وقد يقول قائل: اعتبر بالعموم {الْمَوْتَى} كل ميت {وَنَكْتُبُ} ما قدم بعضهم وهم المكلفون.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)} قال المصنف: [وكل شيء نصبه

=

=

بفعل يفسره: أحصيناه {وَكُلَّ شَيْءٍ} (كل) هذه مفعول لفعل محذوف يفسره قوله: {أَحْصَيْنَاهُ} وعلى هذا فيكون التقدير: "أحصينا كل شيء" ولا تجمع بين المُفسِّر والمفسَّر، ولا تقل التقدير: "أحصينا كل شيء أحصيناه" لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تقدر فقل التقدير: وأحصينا كل شيء في إمام مبين، لكن جعلت الصيغة على هذا الوجه ليكون لذكر المسند إليه مرتين لأن {وَكُلَّ شَيْءٍ} والضمير في {أَحْصَيْنَاهُ} يعودان على شيء واحد، فيكون هنا ذكر المعمول مرتين، مرة على أنه مفعول بفعل مقدر، ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله: {أَحْصَيْنَاهُ} وهذا التركيب يسمي عند النحويين الاشتغال، والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والاستحباب، والإباحة، والكراهة، والمنع، لكن هذا وجوب نحوي وليس وجوبًا شرعيًّا، يعني تارة يجب نصبه، وتارة يمتنع، وتارة يترجح نصبه، وتارة يترجح رفعه، وتارة يستوي الأمران، وفي مثل هذا التركيب يترجح النصب؛ لأن قوله: {أَحْصَيْنَاهُ} معطوف على قوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة فعلية {أَحْصَيْنَاهُ} صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية، ولو رفعنا -والرفع هنا جائز- وقلنا: "وكل شيء أحصيناه" صار العطف هنا عطف جملة إسمية على جملة فعلية، والأنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية؛ لأن تناسب الجملتين أولى من تضادهما. ولهذا نقول: إن النصب هنا أرجح، مع جواز الرفع لولا أنه في كلام الله ولا يغير لكان يجوز أن أقول: وكلُّ شيء أحصيناه، ولهذا لو قلنا: زيدٌ ضربتُه، يجوز أن أقول: "زيدًا ضربته" لكن الرفع أرجح؛ لأنه الأصل، ليس فيه جملة نعطف عليها، لكن لو قلت: "ضربت زيدًا وعمروٌ أكرمته" يجوز في "عمرو أكرمته" النصب ويجوز الرفع، لكن النصب أرجح؛ لتناسب الجملتين، نحن ذكر هذا على سبيل الاستطراد، ولكن القاعدة:

=

=

إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية، أو معطوفة على جملة إسمية فالراجح الرفع، وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النصب.

{وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} هل الذي يكتب الله ﷻ، أو الملائكة بأمر الله؟

الجواب: الملائكة بأمر الله لقوله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)}.

وإسناد الكتابة إلى الآمر موجود في اللغة العربية كثيرًا، يقول السيد: (كتبت كذا وكذا) والمراد كتبه عبيده، فهنا يقول الله ﷻ: {وَنَكْتُبُ} والمراد ملائكتنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)} وقوله: {مَا قَدَّمُوْا} أي: ما قدموه في في الدنيا من أعمال صالحة؛ لأن كل إنسان يعمل عملًا صالحًا في الدنيا فإنه قد قدمه، بمنزلة السلم، والسلم في البيع أن المشتري يقدم الثمن، فأنت الآن مقدم للثمن، والمثمن يكون يوم القيامة، وقد يكون في الدنيا ويوم القيامة جميعًا، فأنت الآن إذا عملت عملًا صالحًا فقد قدمت لنفسك ثمنًا تأخذ عوضه يوم القيامة، ثق بهذا وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وقوله: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم] هذا ما مشي عليه المصنف أن المراد بالكتابة هنا الكتابة باللوح المحفوظ، وهذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله: {وَنَكْتُبُ} فعل مضارع، والمضارع لا يحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ (لم) مثلًا: إذا دخلت على الفعل المضارع جعلته ماضيًا، أو دليل حالي يدل عليه السياق، وهنا لا دليل على أن المراد {وَنَكْتُبُ} في اللوح المحفوظ؛ لأن الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت. كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)} فاللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ

=

{وَنَكْتُبُ} بشيء انتهى، ولكن المراد (نكتب) في صحائف الأعمال، والذين يكتبون الملائكة بأمر الله ﷻ ما قدموا في حياتهم من خير وشر ليجازوا عليه، لكن ما قدموه من خير فهو مضمون، وما قدموه من شر فليس بمضمون. لأن الخير لا يمكن أن يهدر منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركًا لقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون، {وَنَكْتُبُ}. الآثار جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي فإنه يعقبه، فما المراد بآثارهم؟ قال المصنف: [ما استن به بعدهم] وهذا التفسير كمثال وليس حصرًا؛ لأن الذي يكتب بالآثار أكثر مما استن به بعدهم؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". فمثلًا الصدقة الجارية هذه من آثارهم، وإذا أوقف الإنسان مزرعة أو بستانًا على الفقراء وانتفعوا به بعد موته، صار هذا من الآثار بلا شك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكن النفع صار بعد مماته، والعلم النافع من آثارهم فكل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره. والولد الصالح أيضًا من آثاره؛ لأن الولد من كسب الإنسان، فإذا كان ولدًا صالحًا يك عو لأبيه أو أمه فهو من الآثار، وما اقتدي به الناس من الأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة فهو أيضًا من الآثار، فما ذكره المصنف على سبيل المثال، وهذا الذي قاله المصنف رَحِمَهُ اللهُ أن المراد بالآثار ما كان بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآثار: الآثار التي يتقدموا بها إلى الطاعة، كالمشي إلى الصلوات، فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة فيرفع له بها درجة، ويحط عنه بها خطيئة. واستدل هؤلاء بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لبني سلمة: "دياركم تكتب آثاركم"، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الآثار

تكتب، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن قول الرسول "تكتب آثاركم" هذا مما قدموه في حياتهم، ولكن سماه أثرًا لأنه أثر، وهو المشي والمسير، فالصواب أن الآية كما قال المصنف أن المراد بما قدموا: ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتى آثار مسيرهم إلى المساجد، وآثارهم ما كان بعد موتهم. قال: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)} قال المصنف: [{أَحْصَيْنَاهُ} ضبطناه]، والإحصاء بمعنى الضبط مأخوذ من الحصى، لأن العرب أمة أمية لا يكتبون، يضبطون الأشياء بالحصى وشبهها، ويقدرون بالرمح وما أشبهه، لا يقرءون ولا يكتبون، فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذوا حصى، فإذا سألوا كم عدد القوم؟ أعطوه كيس الحصى، ولهذا قال الشاعر:

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

ولست بالأكثر منهم حصى، يعني أن قومك ليسوا بكثيرين، ويضرب المثل فيقال: جاء قوم كُثرُ الحصى، فأحصيناه ضبطناه، وسمي الضبط إحصاء، لأن العرب كانت تضبط الشيء بالحصى، قوله: {فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [كتاب مبين]، هذا صحيح {فِي إِمَامٍ} الإمام يطلق على عدة معانٍ يجمعها أنه مرجع، فإمام الصلاة مثلًا إمام، لأنه مرجع للمأمومين يقتدون به، وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس له، والكتاب إمام لأنه مرجع كما قال الله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)}. إذًا {فِي إِمَامٍ} في كتاب، وقوله: {مُبِينٍ (١٢)} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[بين]، لأن مبين هنا من الرباعي، من أبان يبين فهو مبين. أما بيّن فهي من الثلاثي، من بأن يبين، فهو بين، وكلمة (بأن) و (أبان) تأتيان بمعنى واحد فيقال: بأن الصبح، وأبان الصبح. وتنفرد أبان بأنها تأتي بمعنى أظهر وأوضح، أبان الشيء يعني أظهره وأوضحه.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣).

{وَاضْرِبْ} اجْعَلْ {لَهُمْ مَثَلًا} مَفْعُول أَوَّل {أَصْحَاب} مَفْعُول ثَانٍ {الْقَرْيَة} أَنْطَاكِيَّة {إِذْ جَاءَهَا} إِلَى آخِره بَدَل اشْتِمَال مِنْ أَصْحَاب الْقَرْيَة {الْمُرْسَلُونَ} أَيْ رُسُل عِيسَى.

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤).

{إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا} إِلَى آخِره بَدَل مِنْ إِذْ الْأُولَى {فَعَزَّزْنَا}

=

فإذا جاءت كلمة (مبين) في القرآن الكريم فإنها تصلح بأن تكون بمعنى (بين) وتصلح بأن تكون بمعنى (مظهر وموضح) لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعًا، قد تكون في موضع لا تصلح إلا بين، فمثلًا: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} معناها بين ظاهر، وقوله: {حَم} بمعنى الموضح المظهر، وهو إذا كان موضح فهو واضح، لكنها هنا مبين بمعنى مظهر، أبين في المعنى، فكلمة (مبين) إذا صلحت أن تكون من الرباعي الذي بمعنى أظهر، فهو أولى من تفسيرها بالثلاثي الذي بمعنى ظهر، لأن المظهر جامع بين الظهور بنفسه والإظهار لغيره، فيكون معناه أشمل. وقول المصنف عن الإمام المبين: [هو اللوح المحفوظ] وهذا صحيح يعني محتمل، فإن اللوح المحفوظ كتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا (مبين) هل الأنسب أن تكون كما فسرها المصنف بين، أو مبين بمعنى مظهر؟ هل المعنى أنه كتاب بين، أو كتاب مبين يظهر الحقائق؟ الظاهر أن المعنى الأخير أولى؛ لأن هذا الكتاب مبين للأمور موضح لها، وكما قلنا: ما كان مبين فهو بين فهي صالحة لما يقول المصنف: [هو اللوح المحفوظ] لأنه يقول: {أَحْصَيْنَاهُ} أي أنه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعمال لقوله تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)}.

بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد قوينا الإثنين {بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون}.

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥).

{قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَر مِثْلنَا وَمَا أنزل الرحمن من شيء إن} ما {أنتم إلا تذكبون}.

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦).

{قَالُوا رَبّنَا يَعْلَم} جَارٍ مَجْرَى الْقَسَم وَزِيدَ التَّأْكِيد بِهِ وَبِاللَّامِ عَلَى مَا قَبْله لِزِيَادَةِ الْإِنْكَار فِي {إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}.

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧).

{وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغ الْمُبِين} التَّبْلِيغ الْمُبِين الظَّاهِر بِالْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَة وَهِيَ إِبْرَاء الْأَكْمَه وَالْأَبْرَص وَالْمَرِيض وَإِحْيَاء الْمَيِّت[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} [يس:١٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومثل يا محمد لمشركي قومك مثلا أصحاب القرية-ذُكر أنها أنطاكية- {إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: واضرب – يا محمد – لقومك الذين كذبوك {مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ} ".

قال الزمخشري:"أى: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية".

قال مقاتل:"{واضرب لهم مثلا}: وصف لهم- يا محمد- شبها لأهل مكة في الهلاك {أصحاب القرية}: أنطاكية، {إذ جاءها المرسلون} ".

واختلف أهل العلم في هؤلاء الرسل، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحاب القرية =

=

على قولين:

أحدهما: نهم كانوا رسلا أرسلهم الله إليهم. قاله ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه.

عن ابن إسحاق، فيما بلغه، عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، وعن وهب بن منبه، قال: "كان بمدينة أنطاكية، فرعون من الفراعنة يقال له أبطيحس بن أبطيحس يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، ومصدوق، وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته منهم اثنان فكذبوهما، ثم عزز الله بثالث، فلما دعته الرسل ونادته بأمر الله، وصدعت بالذي أمرت به، وعابت دينه، وما هم عليه، قال لهم (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيم} ".

الثاني: أنهم كانوا رسل عيسى ابن مريم، وعيسى الذي أرسلهم إليهم. قاله قتادة، واختاره الزمخشري.

قال قتادة:"ذُكر لنا أن عيسى ابن مريم بعث رجلين من الحواريين إلى أنطاكية -مدينة بالروم- فكذبوهما فأعزهما بثالث {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} ".

قال الثعلبي:"وإنما أضاف الإرسال إليه لأن عيسى -عليه السلام- إنما بعثهم بأمره عز وجل، وكانوا في جملة الرسل، فقالوا جميعا لأهل أنطاكية: {إنا إليكم مرسلون} ".

عن عكرمة: " {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}، قال: أنطاكية".

عن بريدة: {أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}، قال: أنطاكية".

قال الماوردي:"هذه القرية هي أنطاكية من قول جميع المفسرين".

عن عبد الملك يعني ابن عمير قال: "قال عروة بن مسعود الثقفي للنبي صلى الله عليه وسلم: ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «انطلق» فانطلق

=

فمر على اللات والعزى لا عزى، أسلموا تسلموا. يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين".

قال الزمخشري:"القرية: أنطاكية. والمرسلون رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها، بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان. أرسل إليهم اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه، فقام، فآمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير، ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك، فقال: حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس وضربوهما. وقيل: حبسا، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون، فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به، فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال: صفاه وأوجزا. قالا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما، فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سر، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام

=

وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن هم؟ قال شمعون، وهذان، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا".

قوله تعالى: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا} [يس:١٤]، أي:"إذ أرسلنا إليهم رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة غيره، فكذَّب أهل القرية الرسولين".

قال الطبري: يقول:"حين أرسلنا إليهم اثنين يدعوانهم إلى الله فكذبوهما".

قال ابن كثير:"أي: بادروهما بالتكذيب".

واختلف أهل التفسير في اسمي الرسولين على أقوال:

أحدها: أنهما: شمعون ويوحنا، قاله شعيب الجبائي.

الثاني: صادق وصدوق، قاله ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه.

الثالث: يحيى وبولس. قاله وهب أيضا.

الرابع: تومان ويونس. قاله مقاتل.

الخامس: سمعان ويحيى، حكاه الماوردي عن النقاش.

قوله تعالى: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} [يس:١٤]، أي:"فقويناهما برسول ثالث".

قال الطبري: يقول:"فكذبوهما فشددناهما بثالث، وقويناهما به".

قال ابن كثير:"أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ".

وفي قوله تعالى: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} [يس:١٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: فشددنا، قاله مجاهد، والسدي.

قال أبو العالية:"لكي تكون عليهم الحجة أشد، فأتوا أهل القرية فدعوهم إلى

=

=

الله وحده وعبادته لا شريك له، فكذبوهم".

قال الفراء:"يقول: شدّدنا أمرهما بما علمهما الأول شمعون. وكانوا أرسلوا إلى أنطاكية".

الثاني: قوينا، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"جعلناهم ثلاثة، قال: ذلك التعزز، قال: والتعزز: القوة".

الثالث: قوينا وشددنا. قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال النّمر بن تولب:

كأنّ جمرة أو عزّت لها شبها... بالجذع يوم تلاقينا بإرمام

قال أبو عبيدة:"وفى المثل: من عزّ بزّ: من قهر سلب وتفسير، «بزّ» انتزع".

قال ابن قتيبة:"يقال: عزز منه؛ أي: قو من قلبه. وتعزز لحم الناقة: إذ صلب".

الرابع: فزدنا، قاله مجاهد في رواية أخرى. وحكاه الماوردي عن ابن جريج.

واختلف في اسم الرسول الثالث، على أقوال:

أحدها: بولص. قاله شعيب.

الثاني: يونس. حكاه الماوردي عن شعيب.

الثالث: سلوم، قاله ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه.

الرابع: شمعون. قاله مقاتل.

قال مقاتل:"فقال شمعون للملك: أشهد أنهما رسولان أرسلهما ربك الذي في السماء، فقال الملك لشمعون: أخبرني بعلامة ذلك فقال شمعون: إن ربي أمرني أن أبعث لك ابنتك، فذهبوا إلى قبرها، فضرب القبر برجله. فقال: قومي بإذن إلهنا الذي في السماء، الذي أرسلنا إلى هذه القرية واشهدي لنا على والدك فخرجت

الجارية من قبرها، فعرفوها فقالت يا أهل القرية آمنوا بهؤلاء الرسل، وإني أشهد أنهم أرسلوا إليكم، فإن سلمتم يغفر لكم ربكم، وإن أبيتم ينتقم الله منكم. ثم

=

=

قالت لشمعون: ردني إلى مكاني فإن القوم لن يؤمنوا لكم، فأخذ شمعون قبضة من تراب قبرها فوضعها على رأسها، ثم قال عودي مكانك، فعادت، فلم يؤمن منهم غير حبيب النجار، كان من بني إسرائيل، وذلك أنه حين سمع بالرسل جاء مسرعا فآمن وترك عمله، وكان قبل إيمانه مشركا".

قال الماوردي:"وكان ملك أنطاكية أحد الفراعنة يعبد الأصنام مع أهلها، وكانت لهم ثلاثة أصنام يعبدونها، ذكر النقاش أن أسماءها رومس، وقيل: وارطميس".

واختلف في اسم الملك على قولين:

أحدهما: أن اسمه: أنطيخس، قاله ابن عباس، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه.

الثاني: انطرا، حكاه الماوردي عن شعيب.

قوله تعالى: {فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} [يس:١٤]، أي:"فقال الثلاثة لأهل القرية: إنا إليكم -أيها القوم- مرسلون".

قال الطبري:"يقول: فقال المرسلون الثلاثة لأصحاب القرية: إنَّا إليكم أيها القوم مرسلون، بأن تُخْلِصوا العبادة لله وحده، لا شريك له، وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام".

القرآن

{قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} [يس:١٥]

التفسير:

قال أهل القرية للمرسلين: ما أنتم إلا أناس مثلنا، وما أنزل الرحمن شيئًا من الوحي، وما أنتم -أيها الرسل- إلا تكذبون.

قوله تعالى: {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [يس:١٥]، أي:"قال أهل القرية للمرسلين: ما أنتم إلا أناس مثلنا".

=

=

قال الطبري:"قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم حين أخبروهم أنهم أرسلوا إليهم بما أرسلوا به: ما أنتم أيها القوم إلا أُناس مثلنا، ولو كنتم رسلا كما تقولون، لكنتم ملائكة".

قال ابن كثير:"أي: فكيف أوحيَ إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحيَ إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة. وهذه شبه كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التغابن: ٦]، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله: {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠]. وقوله حكاية عنهم في قوله: {وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [المؤمنون: ٣٤]، {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولا} ؟ [الإسراء: ٩٤] ".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} [يس:١٥]، أي:"وما أنزل الرحمن شيئًا من الوحي".

قال الطبري:"يقول: قالوا: وما أنزل الرحمن إليكم من رسالة ولا كتاب ولا أمركم فينا بشيء".

قال الواحدي:"يعني: لم يرسل رسولًا".

قال ابن الجوزي:"أي: لم ينزل كتابا ولم يرسل رسولا".

قوله تعالى: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ} [يس:١٥]، أي:"وما أنتم -أيها الرسل- إلا تكذبون".

قال الطبري:" {إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ} في قيلكم إنكم إلينا مرسلون".

قال البغوي: أي:"ما أنتم إلا كاذبون فيما تزعمون".

قوله تعالى: {قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} [يس: ١٦]، أي:"قال

=

=

المرسلون مؤكدين: ربُّنا الذي أرسلنا يعلم إنا إليكم لمرسلون".

قال الواحدي:"وإن كذبتمونا".

قال الطبري:"يقول: قال الرسل: ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون فيما دعوناكم إليه، وإنَّا لصادقون".

قال ابن كثير:"أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [العنكبوت: ٥٢] ".

قال السمعاني:"فإن قيل: كيف يكون علم الله تعالى أنهم رسل الله حجة عليهم؟ الجواب عنه: أن معناه: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون بما أظهر على أيدينا من الآيات والمعجزات؛ فصارت الحجة قائمة بالآيات والمعجزات، لا بنفس العلم".

قال الشوكاني:"فأكدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: {ربنا يعل} م، وب، «إن»، وبـ «اللام» ".

قال الزمخشري:"قوله: {ربنا يعلم}، جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله. وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم: {وما علينا إلا البلاغ}، {المبين}، أي: الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته، وإلا فلو قال المدعى: والله إنى لصادق فيما أدعى ولم يحضر البينة كان قبيحا".

قوله تعالى: {وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [يس: ١٧]، أي:"وما علينا إلا تبليغ الرسالة بوضوح، ولا نملك هدايتكم، فالهداية بيد الله وحده".

=

=

عن سعيد بن جبير: " {المبين}، يعني: البين".

قال السمعاني:"أي: الإبلاغ البين".

قال الواحدي:"وما علينا إلا أن نبلغ ونبين لكم بان الله الواحد لا شريك له".

قال الطبري:"يقول: وما علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله التي أرسلنا بها إليكم بلاغًا يبين لكم أنَّا أبلغناكموها، فإن قبلتموها فحظ أنفسكم تصيبون، وإن لم تقبلوها فقد أدينا ما علينا، والله ولي الحكم فيه".

قال ابن كثير:"يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبَّ ذلك، والله أعلم".

قال الشوكاني:"أي: ما يجب علينا من جهة ربنا إلا تبليغ رسالته على وجه الظهور والوضوح، وليس علينا غير ذلك".

قال العثيمين: قوله تعالى: (اضرب) قال المصنف: [اجعل] وهذا لا شك أنَّه معنى مقرب للمعنى أي اجعل مثلًا، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتخذ؛ لأن الضرب يدل على صناعة وتكييف، ومنه: ضرب الذهب خاتمًا، وضرب الذهب حليًّا، وضرب الذهب سكة، يعني نقودًا، بمعنى اتخذه حليًّا، اتخذه سكة وما أشبه ذلك، فشُبه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالبًا على هيئة متكاملة مركبة من أجزاء متعددة، ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مشتملة على أجزاء متعددة بصورة.

فلهذا سمي ضرب مثل، أي: صنع مثل، كما تصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها، وقال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{لَهُمْ مَثَلًا} مفعول أول، {أصحاب} مفعول ثان]، وهذا الظاهر أنَّه سهو من المصنف، والصواب العكس، لأن المضروب هو أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأول، و {مثلًا} هو المفعول الثاني،

=

=

ففي إعراب المصنف انقلاب، فالصواب: أن أصحاب القرية مفعول أول، و {مَّثَلًا} مفعول ثان، أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المكذبين لك اجعلهم مثلًا يعتبرون به، والمَثَل والمِثل كالشبه والشِّبه، أي: جعله أمرًا مشابهًا حتَّى يتعظوا.

وكلمة {وَاضْرِبْ} الخطاب فيها للرسول عليه الصلاة والسلام، أو لكل من يتأتى خطابه، وسبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحًا؛ أنَّه عام، وتارة يكون صريحًا أنَّه خاص بالرسول - ﷺ، وتارة يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي تكون صريحة بخصوصية الرسول عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)} فهنا الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام قطعًا.

ومن الأشياء الصريحة أنَّه عام مثل قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} ولم يقل: "إذا طلقت" فدل على أن الخطاب الأول يراد به العموم.

وأما احتمال أن يكون خاصًّا بالرسول عليه الصلاة والسلام أو عامًّا فهو كثير في القرآن، والأرجح أن نجعله عامًّا؛ لأنه أشمل، فإذا جعلناه عامًّا شمل الرسول ﷺ وغيره، إذًا نقول لأي داعية الآن: اضرب مثلًا للمكذبين بهذه القرية {أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}. قال المصنف: [أنطاكية] فجعل (ال) للعهد الذهني يعني كأنها قرية معروفة مفهومة، ولكن هذا القول ضعفه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره وقال: (فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضًا، أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظًا في هذه القصة - مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنَّها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم).

=

=

وعلى هذا فيكون المراد بالقرية هنا: قرية غير معينة، وتكون (ال) للجنس لا للعهد الذهني، يعني: اضرب مثلًا لهم في قرية غير معينة وهذا هو الصحيح، وذلك لأن الله ﷻ لو كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبينها، وليس المقصود كما مر علينا كثيرًا تعين الأشخاص، أو الأماكن، أو الأزمان ليس فيه كثير فائدة في الغالب، المقصود العبرة في القصة وما وقع، ولهذا نرى بعض العلماء يتكلفون مثلًا فيما إذا جاء اسم رجل في حديث مبهم يتكلفون في طلب تعينه، وليس هذا بلازم، إلَّا أن يترتب على تعيينه اختلاف للحكم، أوإظهار للمعنى فهذا شيء آخر، وهنا لا يعنينا أن نعرف ما هي القرية، ومن هم أهلها، الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصة، فالصواب عدم تعينها بأنطاكية {إِذْ جَاءَهَا} [بدل اشتمال من أصحاب القرية] فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب، والبدل يتبع في الإعراب المبدل منه، فيكون {إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣)} في محل نصب على أنَّه بدل من أصحاب القرية {إِذْ جَاءَهَا} أي أصحاب القرية {الْمُرْسَلُونَ (١٣)} لَهُم هو قال المصنف رَحَمَهُ ٱللَّهُ: [أي رسل عيسى] وهذا القول ليس بصحيح، ولا دليل عليه، بل جاءها المرسلون الذين من جنس قوله في أول السورة {إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣)} جاءها المرسلون الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله ﷻ، وليسوا من قبل عيسى ﷺ، قال في تفصيل هذا المجيء وهذه القصة: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ} وهذا من عجائب القول أن يقول بعض العلماء: أي: رسل عيسى، مع أن الله يقول: {إِذْ أَرْسَلْنَا} ولم يقل: إذ أرسل إليهم عيسى، بل قال: {إِذْ أَرْسَلْنَا} وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بالرسل المرسلون هنا رسلًا من عند الله، {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ} أي: إلى أصحاب القرية {اثْنَيْنِ} مهو من هؤلاء الثلاثة {فَكَذَّبُوهُمَا} التكذيب رد الخبر ونسبته إلى خلاف الواقع هذا هو التكذيب، فهؤلاء كذبوهما وقالوا: هذا أمر

=

ليس بصحيح، ولستم برسل، فماذا كان؟ قال الله تعالى: {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ} وقال المصنف: [بالتخفيف والتشديد]. {فَعَزَّزْنَا} هذا التشديد (عزَزنا) التخفيف، والقراءتان سبعيتان؛ لأن المصنف ذكرهما على حد سواء، معنى (عززنا) قال: [قوينا الاثنين بثالث، يعني لما كُذِّب الاثنان أرسل الله ثالثًا معهم لأجل التقوية، وهذا كقول موسى عليه الصلاة والسلام لما أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)} فزيادة الواحد يقوي بلا شك، ونحن نشاهد حتَّى في أمرنا الواقع إذا قا شخص قولًا، ثم أيده آخر ازداد قوة ونشاطًا في تقرير هذا القول وتثبيته، {فَقَالُوا} الضمير يعود على الثلاثة {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤)} أتوا بالجملة المؤكدة بـ (إنا)؛ لأن الحال تقتضي ذلك، فإنهم قد كذبوا وأنكروا، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب.

ولكن لو قال قائل: لماذا لم تؤكد بأكثر من مؤكد؟

قلنا: هي أكدت بأكثر من مؤكد، أكدت بمؤكد واحد لفظي وهو (إنا)، وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول.

ولو قال قائل: هل المقام مقام تأكيد على سبيل الاستحسان، أو على سبيل الوجوب؟

قلنا: على سبيل الوجوب، فإذا قال: القاعدة أنَّه إذا كان على سبيل الوجوب فإن التأكيد يتكرر، يعني يؤتى بإن، واللام، والقسم، قلنا: هذا المؤكد مكرر، لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ (إنا) وتأكيد بالمعنى تقويتهم بثالث: {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤)} مرسلون من قبل الله ﷻ، وهم يعلمون ذلك أنهم ما دعوا الرسالة من شخص وإنَّما هي من الله، فكان جواب هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين، والمكذبون يردودت أقوال الرسول، أحيانًا بنفي، وأحيانًا بإثبات، ففي النفي

=
يقولون: {مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ} وكما قال تعالى: {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} يعني نسلم إنا بشر مثلكم {وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} هذا جواب بالنفي. يعني أنتم بشر لستم ملائكة حتَّى نقبل، وأحيانًا بالإثبات {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)} فصاروا أحيانًا يتهمون الرسل بالسحر والجنودت، وأحيانًا بالنفي يقولون: ما أنتم ملائكة حتَّى تكونوا رسلًا إلينا، ما أنتم إلَّا بشر مثلنا، فليس ببدع أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرسل: {مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} أنكروا الرسالة من حيث جنس الرسول، وأنه بشر، وأنكروا الرسالة إنكار جحود بلا مبرر {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} من الذي يمنع فلم يذكروا حجة قوله: {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} هذه الجملة نفي و {مِنْ شَيْءٍ} نكرة في سياق النفي فتعم، ثم هذه النكرة مؤكدة بـ(من) الزائدة، لأن قوله: {مِنْ شَيْءٍ} بمعنى (شيئًا)، وقوله: {إِنْ أَنْتُمْ} قوله {إِنْ} بمعنى (ما) ففي الجملة حصر طريقة: النفي والإثبات {إِنْ أَنْتُمْ} يعني ما أنتم إلَّا تكذبون، وهذا الحصر - والعياذ بالله - حصر هم يرونه إضافيًّا، بمعنى ما أنتم إلَّا تكذبون فيما تدعون من الرسالة، ولا يلزم أنهم يدعون أنهم يكذبون في كل شيء؛ لكن فيما ذكروا من الرسالة، فصار إنكارهم مبنيًّا على أمرين:

الأول: أنهم بشر، يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة.

الثاني: النفي الذي لم يبن على شيء، وإنَّما هو مجرد إنكار ومكابرة {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)}.

وهذا لا شك من سفههم، لأن إنزال الوحي على الرسل لهداية الخلق أمر يوجبه العقل فضلًا عن الشرع، لأن العباد لا يمكن أن يتعبدوا لله سبحانه وتعالى إلَّا
=

=

بشيء شرعه ونصبه لهم دليل عليه وإلَّا فكيف يتعبدون؟ ! فإنزال الله ﷻ الوحي للبشر أمر يقتضي العقل وجوبه، مع أن الله قد أوجبه على نفسه، كما قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢)} فالله أوجب على نفسه أن يبلغ عباده سبحانه وتعالى ما يوصلهم إليه، وإلَّا لضلوا، إذًا هذه المكابرة وهي: دعوى أن الرحمن ما أنزل من شيء يكذبها العقل والشرع، لأن العقل يوجب أن ينزل الله على العباد شريعة يتعبدون بها له لتوصلهم إليه، إذ إن العقل لا يهتدي كيف يعبد الله، والشرع أوجب الله تعالى على نفسه أن يبلغ عباده شريعته، قال الله ﷻ: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣)} وقال تعالى في القرآن الكريم: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)} حيث أوجب الله على نفسه أن يهدي عباده، وهذه هداية البلاغ لا هداية التوفيق، ولو كانت هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قوله: {إِلَّا تَكَذِّبُونَ (١٥)}. الكذب هو: الإخبار بخلاف الواقع، إذًا أنتم أخبرتمونا إنكم رسل، والواقع إنكم لستم برسل، ماذا قالوا لهم، قال الله ﷻ: {قَالُوا لَمُرْسَلُونَ (١٦)} الآن أكدوا الرسالة بثلاثة مؤكدات:

الأول: {رَبُّنَا يَعْلَمُ} لأن هذا جاري مجرى القسم.

والثاني: {إِنَّا}.

والثالث: اللام. لشدة إنكارهم.

فإذا قلنا: إن هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، صار أكدت الرسالة بأربع مؤكدات. {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ}. قال المصنف: [جاري مجرى القسم، وزيد التأكيد به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار، أربع مؤكدات، لكن المصنف لم يعتبر تأكيد الإرسال، مع أنَّه بلا شك مؤكد.

قوله تعالى: {وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[التبليغ المبين الظاهر، بالأدلة الواضحة، هذا حصر حقيقي أي: ما عليهم في جانب

=

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨).

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا} تَشَاءَمْنَا {بِكُمْ} لِانْقِطَاعِ الْمَطَرِ عَنَّا بِسَبَبِكُمْ {لَئِنْ} لَام قَسَم {لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} بِالْحِجَارَةِ {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم[1].

=

الرسالة إلَّا البلاع المبين في جانب الرسالة، فقولنا: (في جانب الرسالة) يقتضي أن يكون حصرًا إضافيًّا، لأن عليهم سوى البلاع أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبليغ، لكن هي بجانب الرسالة ما عليهم إلَّا البلاغ المبين، قال المصنف: [التبليغ] كلمة بلاغ بمعنى تبليغ، فهي اسم مصدر من بلغ يبلغ، كما يقال: كلم يكلم، المصدر كلام، واسم المصدر كلام، بلغ يبلغ تبليغًا هذا مصدر، واسم المصدر بلاغ، أما تفسير المبين بالبين فهذا قد يقال: إن فيه نظرًا؛ لأن الظاهر أن المبين بمعنى المظهر، يعني البلاع المظهر لحقيقة الأمر الواقع، وهو أننا رسل من عند الله، وسبق لنا أننا فسرنا المبين بالمظهر على وجه صحيح صار متضمنًا لكونه بينًا، إذ لا يكون الشيء مبينًا إلَّا وهو بين في نفسه، أما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التبليغ البين الظاهر بالأدلة الواضحة، وهي: إبراء الأكمه، والأبرص، والمريض، وإحياء الموتى، هذا ليس بصحيح؛ لأن هذا مبني على أنهم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام، والأمر ليس كذلك، لكن عليهم التبليغ البين بالرسالة فيبلغون تبليغًا بينًا.

(١) قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} [يس:١٨]، أي:"قال أهل القرية: إنا تَشَاءَمْنا بكم".

قال الطبري:"قال أصحاب القرية للرسل: إنَّا تشاءمنا بكم، فإن أصابنا بلاء فمن أجلكم".

قال ابن كثير:"قال لهم أهل القرية: لم نرَ على وجوهكم خيرًا في عيشنا ".

=

قال الزمخشري: أي:"تشاء منابكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [الأعراف: ١٣١]. وعن مشركي مكة: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} [النساء: ٧٨]. وقيل: حبس عنهم القطر فقالوا ذلك".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} [يس:١٨]، أربعة وجوه:

أحدها: معناه: تشاءمنا بكم، وذلك أن المطر حبس عنهم، فقالوا أصابنا هذا الشر، يعنون: قحط المطر. من قبلكم. قاله مقاتل.

قال الماوردي:"قيل إنه حبس المطر عن أنطاكية في أيامهم".

الثاني: معناه: إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم، قاله قتادة.

قال الماوردي: وذلك:"تحذيرًا من الرجوع عن دينهم".

الثالث: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها. قاله مجاهد.

الرابع: استوحشنا منكم فيما دعوتمونا إليه من دينكم. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} [يس:١٨]، أي:"لئن لم تكفُّوا عن دعوتكم لنا لنقتلنكم رميًا بالحجارة".

قال الطبري:"يقول: لئن لم تنتهوا عمَّا ذكرتم من أنكم أرسلتم إلينا بالبراءة من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا لنرجمنكم، قيل: عني بذلك لنرجمنكم بالحجارة".

قال مقاتل:"لئن لم تسكتوا عنا لنقتلنكم".

عن قتادة:"{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ} بالحجارة".

قال السدي:"يعني: لنقتلنكم".

قال الحسن:"لنرجمنكم بالحجارة حتى نقتلكم بها".

=

قال الفراء:"يريد: لنقتلنكم. وعامة ما كَانَ فِي القرآن من الرجم فهو قتل «٢»، كقوله: {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ} [هود: ٩١]".

قوله تعالى: {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [يس:١٨]، أي:"وليصيبنكم منَّا عذاب أليم موجع".

قال الطبري:"يقول: ولينالنكم منَّا عذاب موجع".

قال ابن كثير:"أي: عقوبة شديدة".

قال يحيى: أي:"موجع قبل أن نقتلكم".

قال الشوكاني:"هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص وهذا هو الظاهر".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قال العثيمين: قوله تعالى: {تَطَيَّرْنَا} أي تشاءمنا، وأصل التطير مأخوذ من الطير، لأن الناس يتشاءمون بالطيور، أو يتفاءلون بها. فيرسلون الطيور فإن اتجهت إلى اليمين، أو اليسار، أو الأمام، أو الخلف، أو عادت، أو ذهبت ولم تعد تشاءموا، أو تفاءلوا على اختلاف بينهم فيما يكون التشاؤم أو فيما يكون التفاؤل، ثم تعدى الأمر إلى أن تكون الطيرة في كل شيء وهي: "التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان"، وهذا التطير قد يكون له أصل، وقد لا يكون له أصل، قد يكون له أصل وذلك فيما إذا عوقبوا بمخالفة الرسل فيجعلون تلك العقوبة من شؤم هؤلاء الرسل، كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة، وقد يكون هذا التطير لا أصل له، وإنَّما هو دعوى مجردة من هؤلاء المكذبين، وهم قد يتطيرون بمعنى: أنَّه يحد من حرياتهم فيما تهواه أنفسهم، فيكون هذا شؤمًا وتضيقًا، مثل أن الرسل عليهم الصلاة والسلام ينهونهم عن عبادة الأصنام، وهم يهوون عبادة الأصنام، ومثل أن الرسل تأمرهم بعبادة الله وحده، فيقولون:

=

=

ضيقت علينا العبادة، فيجعلون هذا التضييق بزعمهم شؤمًا، فيتطيرون بالرسل عليهم الصلاة والسلام، والحاصل أن التطير للرسل له ثلاث حالات:

الأولى: تطير بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم، فيقولون: هذا تضييق علينا، وهو شؤم في زعمهم.

الثانية: تطير بما يصيبهم من العقوبات بسبب المخالفة فيقولون: هذا شؤمكم.

والثالثة: دعوى مجردة لا أصل لها فيقولون: إنا تطيرنا بكم لمجرد التشويه لما جاءت به الرسل.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [انقطاع المطر عنًّا بسببكم] هذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفًا، بأنهم يتطيرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمخالفتهم، ووجه آخر يتطيرون بهم بسبب الحد من بلوغ مآربهم في عبادتهم وشهواتهم ومعاملاتهم ومأكولاتهم ومشروباتهم، فيقولون: ضيقت علينا. الوجه الثالث: تطير المدعى الذي ليس له أصل، وقولهم: لانقطاع المطر عنا بسببكم. لتنفير الناس عن متابعتهم. يحتمل أن هذا هو السبب، ويحتمل أن ما حل بهم من العقوبات الأخرى التي من جملتها ما عاقب الله بها آل فرعون أرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم والسنين، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، تسع عقوبات، ويمكن أن يكون هناك عقوبات غير هذا أيضًا.

قوله تعالى {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا} عن دعوتنا إلى اتباعكم وترك ما كنا عليه {لَنَرْجُمَنَّكُمْ} الجملة هذه جواب القسم، وليست جواب الشرط، لأنها قُرنت باللام، وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنَّها جواب القسم، لا جواب الشرط، ولهذا أشار ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الألفية حيث قال:

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم {لَنَرْجُمَنَّكُمْ}

=

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩).

{قالوا طائركم} شؤمكم {معكم} بكفركم {أئن} هَمْزَة اسْتِفْهَام دَخَلَتْ عَلَى إنْ الشَّرْطِيَّة وَفِي هَمْزَتهَا التَّحْقِيق وَالتَّسْهِيل وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهَا بِوَجْهَيْهَا وَبَيْن الْأُخْرَى {ذُكِّرْتُمْ} وُعِظْتُمْ وَخُوِّفْتُمْ وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف أَيْ تَطَيَّرْتُمْ

=

الرجم هو الرمي بالحجارة، ومنه رجم الزاني المحصن أي يرمى بالحجارة حتَّى يموت {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا} ليصيبنكم، ومس كل شيء بحسبه: فمس الإنسان للإنسان له معنى، ومس العقوبات والمصائب له معنى، والمراد بالمس هنا الإصابة، وقوله: {عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)} العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام من هؤلاء المكذبين المعتدين من الضرب وشبهه، ومنه الحبس أيضًا فإنه عذاب أَلِيمٌ (١٨)} بمعنى مؤلم فهو فعيل، بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أم الريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هجوع

(السميع) بمعنى المسمع، لا بمعنى السامع، فأليم بمعنى مؤلم، لا بمعنى آلم، قوله: {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ} هل هذا على سبيل التنويع، أو على سبيل الجمع؛ يعني أنهم يرجمونهم ويعذبونهم قبل الرجم، أو أنَّه على سبيل التنويع، وأن الواو بمعنى "أو" أي: نرجمنكم حتَّى تموتوا، أو ليمسنكم منا عذاب أليم دون الرجم؟ الآية تحتمل معنيين، فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب، لأن الرجم هنا سابق في الذكر، لاحق في الواقع، لأن العذاب الأليم قبل الرجم، إذ إن الرجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير، وأما إذا جعلنا الواو بمعنى "أو" للتقسيم، فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين: إما الرجم، وإما العذاب المؤلم الشديد.

وَكَفَرْتُمْ وَهُوَ مَحَلّ الِاسْتِفْهَام وَالْمُرَاد بِهِ التَّوْبِيخ {بَلْ أَنْتُمْ قَوْم مُسْرِفُونَ} متجاوزون الحد بشرككم(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} [يس:١٩]، أي:"قال المرسلون: شؤمكم وأعمالكم من الشرك والشر معكم ومردودة عليكم".

قال الطبري:"قالت الرسل لأصحاب القرية: أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إن أصابكم سوء فيما كتب عليكم، وسبق لكم من الله".

قال السمعاني:"أي: شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم الرسل".

قال ابن كثير:"فقالت لهم رسلهم: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ} [الأعراف: ١٣١]، وقال قوم صالح: {اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ} [النمل: ٤٧] ".

قال الشوكاني:"أي: شأمكم معكم من جهة أنفسكم، لازم في أعناقكم، وليس هو من شؤمنا".

قال مقاتل:"الذي أصابكم كان مكتوبا فى أعناقكم".

عن قتادة:"أي: أعمالكم معكم".

عن ابن عباس، وعن كعب وعن وهب بن منبه،:"قالت لهم الرسل: {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}، أي: أعمالكم معكم".

قال الفراء:"الطائر هاهنا: الأعمال والرزق. يقول: هُوَ فِي أعناقكم".

قوله تعالى: {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} [يس:١٩]، أي:"أإن وُعظتم بما فيه خيركم تشاءمتم وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب؟ ".

قال ابن كثير:"أي: من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة =

=

له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا؟ ".
عن قتادة:"يقول: أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟ ".
قال السدي:"يعني: وعظتم".
قال مقاتل:"أئن وعظتم بالله- ﷻ- تطيرتم بنا؟ ".
قال الفراء:"وقد ذُكِرَ عَن بعض القرّاء: «طائركم معكم أين ذُكِّرْتُم» و «ذُكِرتم» يريد: طائركم معكم حيثما كنتم".
قوله تعالى: {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} [يس:١٩]، أي:"بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والتكذيب".
قال الطبري:"يقول: قالوا لهم: ما بكم التطير بنا، ولكنكم قوم أهل معاصٍ لله وآثامٍ، قد غلبت عليكم الذنوب والآثام".
قال السمعاني:"أي أي: مجاوزون الحد".
قال يحيى: أي:"مشركون".
قال مقاتل:"قوم مشركون، و «الشرك»: أسرف الذنوب".
قال الزمخشري:" {بل أنتم قوم مسرفون}، في العصيان: ومن ثم أتاكم الشؤم، لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو {بل أنتم قوم مسرفون}، في ضلالكم متمادون في غيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله".
وقال ابن بحر: " «السرف» -ها هنا-: الفساد، ومعناه: بل أنتم قوم مفسدون، ومنه قول الشاعر:
إن امرأ سرف الفؤاد يرى... عسلًا بماءِ غمامة شتمي".
قال الفيروزآبادي: يقال:"رجل سرف الفؤاد، وسرف العقل: فاسده".
قال القرطبي:"ورجل سرف الفؤاد، أي: مخطئ الفؤاد غافلة".
قال العثيمين: قوله تعالى: {قَالُوْا} الضمير يعود على الرسل، يخاطبون

=

=

أصحاب القرية الذين كذبوهم {طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ} أي شؤمكم ملازم لكم، وذلك بسبب كفرهم فهم الشؤم على أنفسهم، وليس الشؤم من الرسل، بل من هؤلاء ولو شاءوا لآمنوا فزال عنهم ما حل بهم من العذاب والنقص، {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[همزة استفهام دخلت على "إن" الشرطية، وفي همزتها التحقيق والتسهيل وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأخرى] سبق مثل هذا وأن فيها خمس قراءات، أو أربع قراءات: التحقيق، والتسهيل، فيقال "إن" هذا التحقيق، والتسهيل، "أإن" بدون بيان الهمزة، إدخال ألف بينهما بوجهيها يعني وعدم الإدخال، فإدخال ألف التحقيق تقول آإن ذكرتم، وبالتسهيل أإن هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي همزة إن، والقراءات كلها سبعية وقوله: {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} قال المصنف: [وعظتم وخوفتم، وجواب الشرط محذوف، أي: تطيرتم وكفرتم] قوله: {أَين} حرف شرط، والشرط يحتاج إلى فعل شرط، وإلى جواب الشرط، أما فعل الشرط فمذكور وهو قوله: {ذُكِّرْتُمْ} أما جواب الشرط محذوف، تقديره يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [تطيرتم وكفرتم].

ولننظر ماذا حصل من التذكير لنعرف جواب الشرط {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)} فالذي حصل منهم أنهم تطيروا، وأنهم توعدوا بالرجم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مطابقًا للمذكور أي: {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والعذاب الأليم، وكفرتم، قال المصنف: [وهو محل الاستفهام. والمراد به التوبيخ] وهو أي: جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام، يعني هو الذي ينصب عليه الاستفهام لا التذكير؛ لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم، واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ، يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبخوهم وقالوا: أتتشاءمون وتتوعدون؛ لأننا ذكرناكم، فهذا هو

=

=

محل الاستفهام، وإنَّما نص المصنف على ذلك لأنه قد يظن الظان أن محل الاستفيم هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام وهي قوله: {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ} الواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط، لا الشرط المذكور وهو أي الاستفهام للتوبيخ.

قوله {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ} هذا إضراب انتقال، يعني انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطيرون بهم إلى وصفهم الحقيقي وهو أنهم قوم مسرفون، والإضراب يكون للإبطال، ويكون للانتقال، فإذا قلت: جاء زياد بل عمرو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلت: زيد في شك بل هو منكر، فهذا إبطال انتقال، ومنه قوله تعالى: {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦)} ومنه هذه الآية الكريمة {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)} وقوله: {مُسْرِفُونَ (١٩)} أي متجاوزون للحد، ووجه التجاوز:

أولًا: أنهم كذبوا الرسل بلا بينة وبلا دليل؛ لأنهم اعتمدوا على ما ليس حجة لهم، {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} وقالوا: {وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ} ووقالوا: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)} هذا إسراف جاوز الحد.

ثانيًا: أنهم تطيروا بالرسل، وحقيقة الأمر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام محل تفاؤل؛ لأن في اتباعهم الخير {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)} وهؤلاء تطيروا بالرسل وليسوا محل ليتطير بهم.

ثالثًا: أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى، وإبلاغهم رسالته، لقوله: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)} فكل هذا من الإسراف.

=

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠).

{وجاء من أقصا الْمَدِينَة رَجُل} هُوَ حَبِيب النَّجَّار كَانَ قَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَمَنْزِله بِأَقْصَى الْبَلَد {يَسْعَى} يَشْتَدّ عدوا لما سمع بتكذيب القوم الرسل {قال يا قوم اتبعوا المرسلين}.

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١).

{اتَّبِعُوا} تَأْكِيد لِلْأَوَّلِ {مَنْ لَا يَسْأَلكُمْ أَجْرًا} عَلَى رِسَالَته {وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فَقِيلَ لَهُ أَنْتَ على دينهم.

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢).

فقال {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُد الَّذِي فَطَرَنِي} خَلَقَنِي أَيْ لَا مَانِع لِي مِنْ عِبَادَته الْمَوْجُود مُقْتَضِيهَا وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بَعْد الْمَوْت فيجازيكم بكفركم[1].

=

وهو كذلك من العدوان أيضًا، ووجه ذلك:

أولًا: أنَّه لا يجوز للإنسان عقلًا أن يرد شيئًا بلا بينة، مع أن هؤلاء الرسل لا شك أنهم أتوا بآية تدل على صدقهم، ما بعث الله رسولًا إلَّا أعطاه ما على مثله يؤمن البشر.

ثانيًا: تطيرهم بالرسل، والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: "طائركم معكم" فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة، لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنهم توعدوا الرسل {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)}.

(١) قوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} [يس:٢١].

=

=

قال الطبري:"يقول: وجاء من أقصى مدينة هؤلاء القوم الذين أرسلت إليهم هذه الرسل رجل يسعى إليهم؛ وذلك أن أهل المدينة هذه عزموا، واجتمعت آراؤهم على قتل هؤلاء الرسل الثلاثة فيما ذكر، فبلغ ذلك هذا الرجل، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنًا، وكان اسمه فيما ذكر «حبيب بن مري» ".
قال يحيى:"{وجاء من أقصى المدينة} : أنطاكية، {رجل يسعى} ، يعني: يسرع، وهو حبيب النجار".
قال أبو مُجِلِّز:"كان صاحب يس «حبيب بن مري» ".
قال ابن عباس:"كان اسم صاحب يس «حبيبًا»، وكان الجذام قد أسرع فيه".
قال قتادة:"ذُكر لنا أن اسمه «حبيب»، وكان في غار يعبد ربه، فلما سمع بهم أقبل إليهم".
وفي رواية: قال قتادة:"بلغني أنه كان يعبد الله في غار واسمه حبيب سمع بهؤلاء النفر الذين أرسلهم عيسى إلى أنطاكية".
قال عمر بن الحكم: "بلغنا أنه كان قصارا".
عن محمد بن إسحاق فيما بلغه، عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار وعن وهب بن منبه اليماني:"أنه كان رجلا من أهل أنطاكية، وكان اسمه "حبيبًا" وكان يعمل الجَرير، وكان رجلا سقيمًا، قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبوب المدينة قاصيًا، وكان مؤمنًا ذا صدقة، يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون، فيقسمه نصفين، فيطعم نصفًا عياله، ويتصدق بنصف، فلم يهمَّه سقمه ولا عمله ولا ضعفه، عن عمل ربه، قال: فلما أجمع قومه على قتل الرسل، بلغ ذلك:"حبيبًا" وهو على باب المدينة الأقصى، فجاء يسعى إليهم يذكرهم بالله، ويدعوهم إلى اتباع المرسلين، فقال: {يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} ".
عن كعب الأحبار: "ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار
=

=

الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة حين جعل يسأله عن رسول الله ﷺ، فجعل يقول: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول له: لا أسمع، فيقول مسيلمة: أتسمع هذا، ولا تسمع هذا؟ فيقول: نعم، فجعل يقطعه عضوًا عضوًا، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، قال كعب حين قيل له اسمه "حبيب": وكان والله صاحب يس اسمه: «حبيب» ".

قوله تعالى: {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس:٢١]، أي:"قال: يا قوم اتبعوا المرسلين إليكم من الله".

قال الطبري:"قال الرجل الذي جاء من أقصى المدينة لقومه: يا قوم اتبعوا المرسلين الذين أرسلهم الله إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به".

قال ابن كثير:"يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم".

قوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [يس:٢١]، أي:"اتبعوا الذين لا يطلبون منكم أموالا على إبلاغ الرسالة، وهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده".

قال الطبري:"ذُكر أنه لما أتى الرسل سألهم: هل يطلبون على ما جاءوا به أجرًا؟ فقالت الرسل: لا فقال لقومه حينئذٍ: اتبعوا من لا يسألكم على نصيحتهم لكم أجرًا، وهم على استقامة من طريق الحق، فاهتدوا أيها القوم بهداهم".

قال ابن كثير:" {اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} أي: على إبلاغ الرسالة، {وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فيما يدعونكم إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له".

عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، وعن وهب بن منبه: " {اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، أي: لا يسألونكم أموالكم على ما جاءوكم به من الهدى، وهم لكم ناصحون، فاتبعوهم تهتدوا بهداهم".

=

=

قال قتادة:"لما انتهى إليهم -يعني إلى الرسل- قال: هل تسألون على هذا من أجر؟ قالوا: لا فقال عند ذلك: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} ".

قال مجاهد:"كان رجلا من قوم يونس، وكان به جذام، وكان يطيف بآلهتهم يدعوها، إذ مر على قوم مجتمعين، فأتاهم فإذا هم قد قتلوا نبيين، فبعث الله إليهم الثالث، فلما سمع قوله: قال: يا عبد الله إن معي ذهبا فهل أنت آخذه مني وأتبعك وتدعو الله لي؟ قال: لا أريد ذهبك، ولكن اتبعني، فلما رأى الذي به دعا الله له فبرأ، فلما رأى ما صنع به {قال يا قوم اتبعوا المرسلين {٢٠} اتبعوا من لا يسألكم أجرا} [يس: ٢٠ - ٢١]، لما كان عرض عليه من الذهب فلم يقبله منه {وهم مهتدون} " قوله تعالى: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)} [يس:٢٢].

قال قتادة:"هذا رجل دعا قومه إلى الله، وأبدى لهم النصيحة فقتلوه على ذلك".

عن قتادة قوله: " {إلا على الذي فطرني}، أي: خلقني".

قال الطبري:"أي: وأي شيء لي لا أعبد الرب الذي خلقني، وإليه تصيرون أنتم أيها القوم وتردون جميعًا، وهذا حين أبدى لقومه إيمانه بالله وتوحيده".

قال ابن كثير:"أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر".

عن ابن عباس، وعن كعب الأحبار، وعن وهب بن منبه قال: ناداهم -يعني نادى قومه- بخلاف ما هم عليه من عبادة الأصنام، وأظهر لهم دينه وعبادة ربه، وأخبرهم أنه لا يملك نفعه ولا ضره غيره، فقال: {وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} ثم عابها، فقال: {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ}

=

=

وشدة {لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنْقِذُون} ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} قال المصنف: [هو حبيب النجار كان قد آمن بالرسل ومنزله بأقصى البلد]. قوله ﷻ: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} أي من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرسل والمكذبون لهم، وهو وسط المدينة، لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السكان تكون في الوسط. وهذا الرجل كان في أبعد المدينة فسمع أن هؤلاء كذبوا الرسل - وكان رَحِمَهُ اللهُ قد آمن فجاء ينصح قومه، والله ﷻ يقول {رَجُلٌ} وهو نكرة غير معرف، والمصنف يقول [حبيب النجار] وهذا الاسم والتعيين لم يصح عن النبي ﷺ ولعله متلقى عن بني إسرائيل، وموقفنا في مثل هذا ألا ننكر وألا نثبت، {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى} وهنا بدء بيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة موسى حين قتل القبطي ذكر الرجل قبل مكانه فقال: {وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ} وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرجل {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ} وذلك لأن هذا الرجل كان مؤمنًا فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد، فذكر مكانه لبعده ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر. أما ذلك فالمقصود به العلم أن يأتي أحد بالعلم، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

وهنا قال الله ﷻ: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ} وفي أول الآية قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ} وهذا يدل على أن القرية تسمى مدينة، والمدينة أيضًا تسمى قرية، فمكة سماها الله تعالى قرية وهي أم القرى، {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ} فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، ولذلك لأن أصل

=

=

القرية معناه مأخوذ من القِرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها، فإن كانت بلدة كبيرة سميت في عرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلَّا اصطلاح عرفي فقط.

قوله: {يَسْعَى} أي يشتد يركض لئلا تفوته الفرصة حين سمع بتكذيبهم {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} {قَالَ} هذا جملة مفصولة عما قبلها، أي أنَّها أتت بدون حرف العطف كأنها جواب عن سؤال مقدر، تقديره فماذا قال حين جاء؟ ! {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} {يَاقَوْمِ} منادى منصوب بالنداء؛ لأنه مضاف، وقد حذفت منه ياء المتكلم، وأصلها (يا قومي) ولكن حذفت الياء للتخفيف، أو لالتقاء الساكنين؛ لأن اتبعوا مبدوءة بهمزة وصل، وهمزة الوصل ساكنة. قال الرجل: {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} ولم يقل يا أيها السفهاء، يا أيها الجهال، بل قال: {يَاقَوْمِ} توددًا وتعطفًا لهم، ولم يقل: يا إخواني، لأنه لا أخوة بين المؤمن والكافر، فهو مؤمن وهم كفار، لكن {يَاقَوْمِ}، يصح أن يقال: يا قوم ولو كانوا كفارًا. قال الله تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: قال: {قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح، لأن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى ما دعت إليه الرسل كلهم، وهو قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)} فهم دعوا إلى هذا، إلى الإيمان والعمل الصالح {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا} كرر الأمر بالاتباع من باب التأكيد {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠)} {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ} ولو حذفت اتبعوا الثانية وقيل: اتبعوا المرسلين من لا يسألكم أجرًا، لصح الكلام لكن كررت للتأكيد، لأنها هي المقصود الأول بالخطاب أن يتبعوا المرسلين {مَنْ} أي: الذي، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنهم يدعون الناس ولا يأخذون ولا يطلبون على دعوتهم من الناس

=

=

أجرًا، لكنهم يرجون من الله الأجر، أما من الناس فلا يأخذون أجرًا، فهم لا يتخذون أجرًا على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير فإنما يرجون الأجر والثواب من الله {أَجْرًا} هنا محلها من الإعراب مفعول ثان، والكاف مفعول أول، وهذان المفعولان من باب مفعولي، كسا وأخواتها {وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١)} فبين هنا أن هؤلاء الرسل على هدى وليسوا على ضلال، وهم لا يسألون أجرًا على ما دعوا إليه، وقوله: {وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١)} يحتمل أن تكون الواو للاستئناف، وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدعاة أنهم على هدى، ويحتمل أن تكون للحال أي: لا يسألونكم أجرًا مع كونهم مهتدين. ثم قال المصنف: [فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: وما لي لا أعبد الذي فطرني] ما قدره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّه قيل للرجل: أنت على دينهم؟ لا يتعين، بل يجوز أن يكون الرجل قال: "وهم مهتدون وما لي لا أعبد الذي فطرني" على أن المراد به هؤلاء القوم كأنه قال: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) لكن أضافه إلى نفسه من باب التلطف بالخطاب، هذا هو الأقرب لأمور:

أولًا: أن ما ذكره المصنف لا دليل عليه، والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السياق؛ لأنه لا يستلزمه فالأصل عدمه.

ثانيًا: أن ما قلناه أبلغ في التلطف بالدعوة بدلًا أن يقول: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) قال: {وَمَا لِيَ} فأضاف الأمر هنا إلى نفسه تلطفًا.

وقوله {وَمَا لِيَ} الاستفهام هنا بمعنى الإنكار، يعني أي شيء يمنعني أن أعبد الله وحده، ولهذا قال: {لَا أَعْبُدُ} أي لا أتذلل للذي {فَطَرَنِي} قال المصنف: [أي خلقني أي لا مانع لي من عبادته الموجود مقتضيها، وأنتم كذلك] قوله: {لَا أَعْبُدُ} تقدم لنا أن العبادة هي التذلل لله ﷻ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، محبة

=

=

وتعظيمًا، وأن العبادة تطلق على التعبد الذي ذكرناه، وعلى المتعبد به وهي الأفعال التي يتعبد بها الإنسان، أو الأقوال، وعلى هذا حدها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بأنها هي: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة، والباطنة). وقوله: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} ولم يقل: لأعبد الله ليقرن بين الحكم والدليل؛ لأن قوله: "أعبد الذي فطرني" مقتضى لكونه هو المعبود. إذ إنه هو الخالق، فلزم أن يكون هو المعبود وهذا كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} فقوله: {الَّذِي خَلَقَكُمْ} كتعليل للأمر بعبادته وحده، كما أنَّه الخالق وحده، فيجب أن يكون المعبود وحده، ولهذا قال المصنف [الموجود مقتضيها] وما مقتضيها أنَّه هو الذي فطر الخلق، وابتدأ خلقهم، فلزم أن يكون هو المستحق للعبادة وأن يعبد، وقوله: {الَّذِي فَطَرَنِي} أي خلقني لأول مرة، والفطر والإبداع بمعنى الإيجاد لأول مرة، قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقال: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فالذي فطر الخلق لأول مرة وعلى غير مثال سابق هو الله تعالى، فإذن يجب أن يكون هو المعبود، أما أن تعبد غير الله، وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق كما قال الله ﷻ: {لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)} فكيف يصح أن يعبد هؤلاء، فهذا الرجل من فقهه وحكمته وحسن دعوته أنَّه قرن الحكم بالدليل، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} هذا مما يؤيد ما قلنا من أنَّه يريد قومه، لكن من باب التلطف في خطابهم قال: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} كما تخاطب صاحبك الآن تحاوره أو تخاصمه تقول: ما لي لا أفعل كذا. وكذا يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانع لي، فهو لا مانع لك أيضًا، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)} هو أبعد الموت فيجازيكم بكفركم، لو قال المصنف: بعملكم، لكان أشمل، لأنه يجازيهم بالكفر إن استمروا عليه، ويجازيهم

=

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣).

{أَأَتَّخِذُ} فِي الْهَمْزَتَيْنِ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي أَأَنْذَرْتهمْ وَهُوَ اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي {مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {آلِهَة} أَصْنَامًا {إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتهمْ} الَّتِي زَعَمْتُمُوهَا {شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ} صِفَة آلِهَة[1].

=

بالإسلام إن أسلموا، فلو عبر المصنف بقوله: (سيجازيكم بعملكم) لكان أولى.

(١) قوله تعالى: {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} [يس: ٢٥].

قال الطبري:"يقول: أأعبد من دون الله آلهة، يعني معبودًا سواه".

قال ابن كثير:"استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع".

قوله تعالى: {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} [يس: ٢٣]، أي:"إن يردني الرحمن بسوء فهذه الآلهة لا تملك دفع ذلك ولا منعه".

قال الطبري:"يقول: إذ مسني الرحمن بضر وشدة لا تغني عني شيئًا بكونها إليَّ شفعاء، ولا تقدر على رفع ذلك الضر عني".

قال ابن كثير:"أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا. فإن الله لو أرادني بسوء، {فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ} [يونس: ١٠٧] وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه".

قوله تعالى: {وَلَا يُنْقِذُونِ} [يس: ٢٣]، أي:"ولا يقدرون على إنقاذي من عذاب الله".

قال الطبري:"يقول: ولا يخلصوني من ذلك الضر إذا مسني".

قال ابن كثير:"ولا ينقذونني مما أنا فيه".

قوله تعالى: {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يس: ٢٤]، أي:"إني إن عبدت غير الله

=

=

واتخذت الأصنام آلهة لفي خسران ظاهر جلي".

قال الطبري:"يقول إني إن اتخذت من دون الله آلهة هذه صفتها {إِذًا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} لمن تأمله، جوره عن سبيل الحق".

عن السدي: {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}،" يعني: في خسران بين".

قوله تعالى: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} [يس: ٢٥]، أي:"إني آمنت بربكم فاستمعوا إلى ما قُلْته لكم، وأطيعوني بالإيمان".

قال قتادة:"هذا رجل دعا قومه إلى الله، وأبدى لهم النصيحة فقتلوه على ذلك. وذُكر لنا أنهم كانوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، اللهم اهد قومي، حتى أَقْعَصوه وهو كذلك".

عن ابن عباس، وعن كعب، وعن وهب بن منبه قال لهم: {وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي}.. إلى قوله {فَاسْمَعُونِ} وثبوا وثبة رجل واحد فقتلوه واسضعفوه لضعفه وسقمه، ولم يكن أحد يدفع عنه".

عن ابن إسحاق، عن بعض أصحابه أن عبد الله بن مسعود كان يقول: "وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبه من دُبُره".

وفي قوله تعالى: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} [يس: ٢٥]، وجهان من التفسير: أحدهما: أنه خاطب الرسل بذلك أنه يؤمن بالله ربهم {فَاسْمَعُونِ}، أي: فاشهدوا لي، قاله ابن مسعود، وكعب.

قال كعب: إنه قال لقومه: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} إلى قوله: {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}. ثم أقبل على الرسل فقال: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} ليشهدهم على إيمانه".

قال الزجاج:"فأشهد الرسل على إيمانه".

قال الفراء:"أي: فاشهدوا لي بذلك. يقوله حبيب للرسل الثلاثة".

=

=

الثاني: أنه خاطب قومه بذلك، ومعناه: إني آمنت بربكم الذي كفرتم به فاسمعوا قولي، قاله ابن عباس، وكعب، وهب بن منبه،ومحمد بن إسحاق.

قال محمد بن إسحاق: "إني آمنت بربكم الذي كفرتم به، فاسمعوا قولي".

قال مقاتل:"فلما أمر بقتله، قال: يا قوم، {إني آمنت بربكم فاسمعون}، فقتل، ثم ألقي في البئر وهي الرس، وهم أصحاب «الرس»، وقتل الرسل الثلاثة".

قال ابن كثير:"يحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ}،أي: الذي أرسلكم، {فَاسْمَعُونِ}، أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني قد آمنت بربكم واتبعتكم. وهذا القول الذي حكاه هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم ".

قال العثيمين: قال المصنف: [أأتخذ في الهمزتين منه ما تقدم في {أَأَنْذَرْتَهُمْ} استفهام بمعنى النفي، فيكون {أَأَتَّخِذُ} أي: لا أتخذ، وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النفي فإنه يفيد معنى التحدي، ولكنه هنا يفيد معنى الامتناع، غاية الامتناع، يعني أنَّه لا يمكن أن أتخذ من دونه - أي غيره - {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} معروف أن أتخذ تنصب مفعولين {مِنْ دُونِهِ} هو المفعول الثاني {آلِهَةً} المفعول الأول، ويجوز أن نجعل {مِنْ دُونِهِ} في موضع النصب على الحال من {آلِهَةً} ويكون الثاني محذوفًا أي: (أأتخذ أصنامًا آلهة) وهذا هو الذي مشى عليه المصنف لقوله: [أأصنامًا] قال: [{إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ} التي زعمتموها {شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣)} صفة آلهة، يريد المصنف في الإعراب أن قوله: {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} هذه الجملة الشرطية صفة لآلهة، يعني لا أتخذ آلهة هذا شأنها، وهو أن الله لو أراده بضر لم تنفع شفاعتهم {لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا}، هذا معنى كلام المصنف.

=

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤).

{إِنِّي إِذًا} أَيْ إِنْ عَبَدْت غَيْر الله {لَفِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن.

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥).

{إِنِّي آمَنْت بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} أَيْ اسْمَعُوا قَوْلِي فرجموه فمات.

=

وقيل: إن الجملة استئنافية لبيان حال هذه الآلهة، أي: أأتخذ من دونه آلهة ثم قال: هذه الآلهة لا تغني شفاعتها شيئًا من دون الله، ولا تنقذ.

ولكن ما ذهب إليه المصنف أظهر، فتكون الجملة الشرطية في موضع نصب صفة لآلهة قال: {إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ} يعني إن يردن الله ﷻ، وذكر الرحمن، لأن الرحمن اسم يدل على الرحمة، ولما كان الضر قد يفهم منه من يفهم من الناس انتفاء الرحمة عن المريد، ذكر ذلك باسم الرحمن لئلا يظن ظان، أو يتوهم الواهم هذا الوهم، أن إرادة الله الضر للإنسان تنافي الرحمة، لأن إرادة الضر بالإنسان قد يكون من رحمة الإنسان. قال الله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١)} فما يصيب الإنسان من الضر له نتائج حميدة وهي الرجوع إلى الله ﷻ، والاعتبار بما جرى، {لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا} أي لا تنفعني بشيء، والشفاعة في الأصل هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة. فهذه الأصنام التي تعبد من دون الله يدعي عابدوها أنهم إنما عبدوها لتقربهم إلى الله كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} إذًا فهم يدعون أنهم يعبدونها لتشفع لهم، وهل هذا الوهم أو هذا الظن صحيح؟ الجواب: لا، لأنهم عبدوها ولم يتخذوها وسيلة، بل جعلوها غاية، ولهذا لا يخطر في قلوبهم حين التعبد لها إلَّا التعظيم لهذه الأصنام وينسون الخالق ﷻ، {وَلَا يُنْقِذُونِ} أي من الهلكة، أو الضر الذي أراده الله تعالى بهم.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦).

{قِيلَ} لَهُ عِنْد مَوْته {أُدْخُلْ الْجَنَّة} وَقِيلَ دخلها حيا {قال يا} حرف تنبيه {ليت قومي يعلمون}.

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧).

{بما غفر لي ربي} بغفرانه {وجعلني من المكرمين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ} [يس:٢٦]، أي:"قيل له بعد قتله: ادخل الجنة، إكرامًا له".

عن مجاهد، قوله: " {قيل ادخل الجنة}، قال: وجبت له الجنة".

قال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن ابن مسعود: "إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال الله له: {ادْخُلِ الْجَنَّةَ}، فدخلها فهو يرزق منها، قد أذهب الله عنه سُقْم الدنيا وحزنها ونَصَبها".

قال الزمخشري:"فقيل: {قيل ادخل الجنة}، ولم يقل: «قيل له»، لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه، لا إلى المقول له مع كونه معلوما".

قوله تعالى: {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)} [يس: ٢٦ - ٢٧]، أي:"قال وهو في النعيم والكرامة: يا ليت قومي يعلمون بغفران ربي لي وإكرامه إياي؛ بسبب إيماني بالله وصبري على طاعته، واتباع رسله حتى قُتِلت، فيؤمنوا بالله فيدخلوا الجنة مثلي".

عن مجاهد، قوله: " {قال يا ليت قومي يعلمون}، قال: هذا حين رأى الثواب".

قال ابن كثير:"مقصوده: أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه".

قال الزجاج: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}، "أي: بمغفرة ربي لي، {من المكرمين}، أي: =

=

من المدخلين الجنة. وقيل أيضا: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}، أي: ليتهم يعلمون بالعمل والإيمان الذي غفر لي به ربي".

عن أبي مِجْلَز:"{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}: بإيماني بربي وتصديقي المرسلين".

قال الزمخشري: قوله: {بما غفر لي ربي} ": «ما» المصدرية أو الموصولة، أى: بالذي غفره لي من الذنوب. ويحتمل أن تكون استفهامية، يعنى: بأى شيء غفر لي ربى، يريد به ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل، إلى أن قولك: «بما غفر لي» بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزا، يقال: قد علمت بما صنعت هذا، أي: بأى شيء صنعت وبم صنعت".

قال الزمخشري:"وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم، بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة. وفي حديث مرفوع: «نصح قومه حيا وميتا». وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في عمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام. ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزا ولم تعقبه إلا سعادة، لأن في ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور".

قال مقاتل:"فلما ذهبت روح حبيب إلى الجنة ودخلها وعاين ما فيها من النعيم تمنى فى {قال يا ليت قومي يعلمون}، بني إسرائيل {بما} بأي شيء {غفر لي ربي وجعلني من المكرمين}، باتباعى المرسلين، فلو علموا لآمنوا بالرسل

=

فنصح لهم في حياته، وبعد موته".

قال قتادة:"فرجموه بالحجارة ، فجعل يقول رب اهد قومي، أحسبه قال: فإنهم لا يعلمون، قال: فلم يزالوا يرجموه حتى قتلوه فدخل الجنة، فقال {يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي} [يس: ٢٦] حتى بلغ {إن كانت إلا صيحة واحدة} [يس: ٢٩] قال: فما نوظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم صيحة واحدة ، {فإذا هم خامدون} [يس: ٢٩] ".

وقال قتادة:"فلا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، ولا تلقاه غاشًّا، فلما عاين من كرامة الله {قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}، تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله، وما هجم عليه".

وقال ابن عباس: "نصح قومه في حياته بقوله: {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: {يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنِّي إِذًا} هذه الجملة مؤكدة بإن؛ لأن المقام يقتضي التوكيد وقوله: {إِذًا} قال المصنف: [أي: أن عبدت غير الله، لقوله {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} ويجوز أن نقدر {إِذًا} أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، لقوله: {أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً} (إذا) هذا ظرف يدل على الحال، و (إذا) تدل على المستقبل و (إذ) ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن (إذًا) للحال و (إذا) للمستقبل و (إذ) للماضي وتأتي (إذ) لغير ذلك، كما تأتي للتعليل مثلًا.

{إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)} اللام هنا للتوكيد، الجملة مؤكدة بمؤكدين يعني إن اتخذت معه آلهة، أو عبدت غيره {إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤)} قال المصنف: أبين، والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب، ثم إن كان عن

=

علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة فقال تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)} والمغضوب عليهم هم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم هم الذين عملوا بالصواب وعن علم، ووجه كون اتخاذ آلهة من دون الله ضلالًا مبينًا أنَّه حيدة عن الواجب شرعًا وعقلًا، فالواجب شرعًا أن لا تتخذ آلهة مع الله تعالى، كما جاءت به جميع الرسل، والواجب عقلًا أن لا تتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان وفطره، وهو الذي بيده النفع والضر، فكيف تتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر {إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)} أعلن رَحِمَهُ اللهُ أنَّه آمن بالله ﷻ فقال: {إِنِّي آمَنْتُ} وهناك قال: {وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي} إشارة إلى أنَّه ليس الله ربًّا له وحده بل هو رب الجميع. والإيمان بالله ﷻ يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته، وهنا صرح به في قوله: {آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ} فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي أنَّه متفرد بالربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وقوله: {آمَنْتُ} الإيمان في اللغة: التصديق عند كثير من المفسرين الذين يفسرون الإيمان، وقيل: إن معناه الإقرار والاعتراف، فهو أخص من التصديق. قال: {فَاسْمَعُونِ (٢٥)} الفاء هذه عاطفة على قوله: " {آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ} على الجملة كلها، وقول:

=

=

{فَاسْمَعُونِ (٢٥)} أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه رَحِمَهُ اللَّهُ بإيمانه مراغمة لقولهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا لما أعلن هذا الإعلان قتلوه، وقال المصنف: [فرجموه فمات {قِيلَ} له عند موته {ادْخُلِ الْجَنَّةَ} وقيل: دخلها حيًّا].

لما أعلن رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الإعلان، وراغمهم ولم يأبه بهم، ولم يهمه والظاهر - والله أعلم - أنهم توعدوه، حينئذ رجموه فقتلوه، فقيل له بعد موته {ادْخُلِ الْجَنَّةَ}، الأمر هنا للتكريم، والجنة هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وقوله: {ادْخُلِ الْجَنَّةَ} بعد موته لأن الإنسان يعذب في قبره، فإن كان من أهل الخير فإنه ينعَّم، وإن كان من أهل الشر فإنه يعذب قال: {قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)} لما قيل له: ادخل الجنَّةَ، {قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)}، قال المصنف: [حرف تنبيه] يعني (يا) حرف تنبيه وليست حرف نداء، لأنها دخلت على حرف و (يا) التي للنداء لا تدخل إلَّا على اسم، فإذا دخلت على ما لا يصح دخولها عليه فإنها لا تكون للنداء، وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته دخول النداء عليه، فإذا دخلت (يا) على غير اسم فهي للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: {قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)} أو دخلت على فعل، وأكثر ما تدخله من الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق، فمثل هذه الآية: {يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)}. نقدره فنقول: يا رب ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابها وجهان:

أحدهما: أنَّها للتنبيه.

والثاني: أنَّها للنداء، والمنادى محذوف، ويقدر بحسب السياق. {يَالَيْتَ قَوْمِي

=

=

يَعْلَمُونَ (٢٦)} وقوله: ليت هنا للتمني، ولعل للترجي، والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله، وما كان بين ذلك فتارة تستعمل فيه ليت، وتارة تستعمل فيه لعل، وما كان من ذلك فأحيانًا لعل وأحيانًا ليت، بحسب قربه من التعذر أو من القرب.

قال {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}.

قال المصنف: [بغفرانه] أي: بما حصل لي {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي} الباء هنا متعلقة بـ (يعلمون) والعلم هنا بمعنى المعرفة، فلا تتعدى إلَّا إلى مفعول واحد، و (ما) مصدرية كما حلها المفسر وأولها إلى مصدر فقال [بغفرانه].

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، لأنها مأخوذة من المغفر، والمغفر فيه شيئان:

أحدهما: الستر لأنه يستر الرأس.

والثاني: الوقاية؛ لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال ليتقي به السهام، وليس المغفرة بمعنى الستر فقط.

ثم قال: {بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي} فأضاف الربوبية، وهي من الربوبية الخاصة، لأن الربوبية نوعان: ربوبية عامة، وربوبية خاصة، فالربوبية العامة هي الشاملة لجميع الخلق، التي مقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضيه حكمته، والخاصة هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب، كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)} الأولى: {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} عامة، والثانية {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} خاصة، ويقابل ذلك العبودية فإنها عامة، وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: {إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣)} والخاصة كقوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}

=

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨).

{وَمَا} نَافِيَة {أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمه} أَيْ حَبِيب {مِنْ بَعْده} بَعْد مَوْته {مِنْ جُنْد مِنْ السَّمَاء} أَيْ مَلَائِكَة لِإِهْلَاكِهِمْ {وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ} مَلَائِكَة لِإِهْلَاكِ أَحَد.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩).

{إِنْ} مَا {كَانَتْ} عُقُوبَتهمْ {إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة} صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيل {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} سَاكِنُونَ ميتون[1].

=

والخاصة فيها أخص وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}.

{وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)} جعلني من المكرمين لدخوله الجنَّةَ؛ لأن دخول الجنَّةَ إكرام للإنسان من قبل الله تعالى، وإكرام من قبل الملائكة؛ لأن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وإكرام من جهة الولدان المخلدون الذين هم خدم لأهل الجنَّةَ، وإكرام من جهة الزوجات اللاتي هن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وإكرام من جهة بعضهم لبعض، فإنهم إخوان على سرر متقابلين، قد نزع الله ما في قلوبهم من غل، ومثل هذا لابد أن يكون فيه إكرام من بعضهم لبعض، فأهل الجنَّةَ مكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المخلص فإنه مكرم بدخول الجنَّةَ، قال الله ﷻ لما ذكر المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ختم هذه الصفات بقوله: {أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥)} ولهذا قال هنا: {وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)}.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} [يس:٢٨].

قال الطبري: يقول:"وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن الذي قتله قومه لدعائه إياهم

=

=

إلى الله ونصيحته لهم من بعد مهلكه {مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاء} ".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه، غضبًا منه تعالى عليهم؛ لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه. ويذكر تعالى: أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} [يس:٢٨]، ثلاثة أقوال:

أحدها: معنى «جند من السماء»، أي: رسالة، قاله مجاهد، لأن الله تعالى قطع عنهم الرسل حين قتلوا رسله.

قال قتادة:"فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، {إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} ".

الثاني: أن «الجند»: الملائكة الذين يجيئون بالوحي إلى الأنبياء، فانقطع عنهم الوحي واستوجبوا العذاب، فجاءهم العذاب. وهذا تفسير الحسن.

وهذا التفسير قريب المعنى من الأول.

الثالث: أن «الجند» الملائكة، والمعنى: أن الله تعالى ذكره لم يبعث لهم جنودًا يقاتلهم بها، ولكنه أهلكهم بصيحة واحدة. وهذا معنى قول ابن مسعود، والضحاك.

عن ابن مسعود في قوله: " {وما أنزلنا على قومه}، قال: ما استعنت عليهم جندا من السماء ولا من الأرض". وروي عن الضحاك، مثله.

قال الطبري:"القول الثاني أولى بتأويل الآية، وذلك أن الرسالة لا يقال لها جند إلا أن يكون أراد مجاهد بذلك الرُّسُل، فيكون وجهًا، وإن كان أيضًا من المفهوم بظاهر الآية بعيدًا، وذلك أن الرسل من بني آدم لا ينزلون

=

=

من السماء والخبر في ظاهر هذه الآية عن أنه لم ينزل من السماء بعد مَهْلِك هذا المؤمن على قومه جندًا وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم".

قال مقاتل:"يعني: من بعد قتل حبيب النجار".

قال يحيى بن سلام:"الجند -في تفسير الحسن-: الملائكة الذين يجيئون بالوحي إلى الأنبياء، فانقطع عنهم الوحي واستوجبوا العذاب، فجاءهم العذاب".

قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ} [يس:٢٨]، أي:"وما كنا منزلين الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم".

قال مقاتل: يعني: " الملائكة".قال قتادة:"فلا، واللهِ، ما عاتب اللهُ قومَه بعد قتله، {إنْ كانَتْ إلّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإذا هُمْ خامِدُونَ} ".

قوله تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} [يس:٢٩].

قال الطبري:"يقول: ما كانت هَلَكتهم إلا صيحة واحدة أنزلها الله من السماء عليهم".

قال قتادة: "ما نوظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم الصيحة".

قال مقاتل: " {إن كانت إلا صيحة واحدة} من جبريل- عليه السلام- ليس لها مثنوية".

قال ابن سيرين: "في قراءة ابن مسعود «إن كانت إلا رتقة واحدة»، وفي قراءتنا: «إن كانت إلا صيحة واحدة» ".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يس:٢٩]، أي:"فإذا هم ميتون لم تَبْقَ منهم باقية".

قال الطبري:"فإذا هم هالكون".

قال يحيى بن سلام:" {فإذا هم خامدون} : قد هلكوا".

=

=

قال مقاتل: " {فإذا هم خامدون} موتى مثل النار إذا طفئت لا يسمع لها صوت".

عن سعيد بن جبير -من طريق الخفاف-: "{فإذا هم خامدون}، قال: أُخمِدوا، واللهِ".

عن السُّدِّي، في قوله: " {فَإذا هُمْ خامِدُونَ}، قال: ميِّتون". وفي رواية، قال:"مستون".

عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سباق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب آل يس، ومؤمن آل فرعون، فهم الصديقون وعلي أفضلهم».

قال ابن عباس ومقاتل والكلبي: كانت صيحة من جبريل، أخذ بعضادتي باب المدينة ثم صاح بهم صيحة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم صوت، مثل النار إذا أطفأت".

قال ابن كثير:"قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل، عليه السلام، فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق فيهم روح تتردد في جسد. وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح، عليه السلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله، عز وجل، لا من جهة المسيح، كما قال تعالى: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ} إلى أن قالوا: {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [يس: ١٤ - ١٧]. ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة

=

=

تناسب أنهم من عند المسيح، عليه السلام، والله أعلم. ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: {مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [يس: ١٥].

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتَاركة، وهن القدس لأنها بلد المسيح، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين. ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، فالله أعلم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف: أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى} [القصص: ٤٣]. فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا. أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله، سبحانه وتعالى، أعلم".

قال العثيمين: قوله تعالى: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ) قال المصنف رحمه الله: [(ما)

=

=

نافية: {أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ} أي حبيب]. بناءً على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة، {مِنْ بَعْدِهِ} أي من بعد أن هلك ومات على أيديهم، وقوله: {مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} أي ملائكة، فإن الملائكة جنود الله ﷻ، قال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقال تعالى: {وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} فجنده الملائكة {وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨)} هو قال المصنف [ملائكة لإهلاك أحد] وقيل: ما كنا منزلين ملائكة لإهلاك هؤلاء، لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تهلكهم، وهذا هو الأقرب، فيكون النفي هنا خاصًّا بهؤلاء القوم، لأن الله أنزل ملائكة في بدر، وأنزل ملائكة في غزوة حنين، وكذلك في غزوة الأحزاب فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها ولكن {وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨)} أي جنودًا لهؤلاء احتقارًا لهم، وهذا الذي مشى عليه المصنف من أن المراد بالجند الملائكة هو الصحيح، خلافًا لقول بعض العلماء: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ} أي من وحي ورسل، لأن الوحي تنزل به الملائكة، لكن ما مشى عليه المصنف أصح بدليل ما يأتي فيما بعد، قال: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)} {إِنْ} قال المصنف: [أي: (إن) بمعنى (ما)، وعلى هذا فهي نافية، وينبغي أن نستحضر معاني (إن):

١ - تأتي نافية.

٢ - وشرطية كما لو قلت (إن قام زيد قام عمر).

٣ - وتأتي مخففة من الثقيلة مثل: وإن مالك كانت كرام المعادن.

٤ - تأتي زائدة. كقوله:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة، وإذا أتت

=

يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠).

{يَا حَسْرَة عَلَى الْعِبَاد} هَؤُلَاءِ وَنَحْوهمْ مِمَّنْ كَذَّبُوا الرُّسُل فَأُهْلِكُوا وَهِيَ شِدَّة التَّأَلُّم وَنِدَاؤُهَا مَجَاز أَيْ هَذَا أَوَانك فَاحْضُرِي {مَا يَأْتِيهِمْ من رسول إلا كانوا به يستهزءون} مُسَوَّق لِبَيَانِ سَبَبهَا لِاشْتِمَالِهِ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ الْمُؤَدِّي إلَى إهْلَاكهمْ الْمُسَبِّب عَنْهُ الْحَسْرَة[1].

=

بعدها (إلَّا) فهي نافية، وقد تكون نافية بدون (إلَّا)، كقوله تعالى: {إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا} أي: ما عندكم. لكن القاعدة: أنَّه إذا أتت بعدها إلَّا فهي نافية، قال الله تعالى: {إِنْ كَانَتْ} قال المصنف: [عقوبتهم] يعني ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} قال المصنف: [صاح بهم جبريل] {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)} يعني ما احتاجوا إلى عناء ولا جند، ما هي إلَّا صيحة، ولم يبين الله سبحانه وتعالى الصائح، والمصنف قال: إنه جبريل. ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلَّا بدليل، لأن الواجب علينا أن نبهم ما أبهمه الله، إلَّا أن يرد تعيينه بدليل صحيح، ولم يرد تعيين الصائح بدليل صحيح، وعلى هذا فنقول: صيح بهم، ولا نجزم من هذا الصائح، المهم أنَّها صيحة واحدة، صيح بهم فهلكوا عن آخرهم، ولهذا قال: {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)} (إذا) هنا فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها، أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرة، ولهذا سميت فجائية، لأنها تفاجئ وتأتي فورًا فحين صيح بهم {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)} وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم لأن {هُمْ} ضمير يفيد الجمع والشمول.

(١) قوله تعالى: {يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} [يس:٣٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا حسرةً من العباد على أنفسها وتندّما وتلهفا في استهزائهم برسل الله".

=

=

قال مقاتل:"يا ندامة للعباد في الآخرة باستهزائهم بالرسل في الدنيا".
قال ابن عباس: "يقول: يا ويلا للعباد".
قال مجاهد:"يا حسرة لهم".
عن عكرمة: " {يا حَسْرَةً عَلَى العِبادِ}، يعني: على أنفسهم".
قال مجاهد:"كان حسرة عليهم استهزاؤهم بالرسل".
عن قتادة:"{يا حَسْرَةً عَلَى العِبادِ} في أنفسهم".
قال قتادة:"أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضَيَّعت من أمر الله، وفرّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: «يَاحَسْرَةَ العِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا» ".
قال أبو العالية الرياحي: "لَمّا عاينوا العذاب قالوا: {يا حَسْرَةً} أي: ندامةً على العباد، يعني: على الرسل الثلاثة حيث لم يؤمنوا بهم، فتَمَنَّوا الإيمان حين لم ينفعهم".
قال قتادة:"أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضَيَّعت من أمر الله، وفرّطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: «يَاحَسْرَةَ العِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهَا» ".
قال الواحدي:"يعني: هؤلاء حين استهزؤوا بالرُّسل فتحسَّروا عند العقوبة".
قال ابن كثير:"معنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم".
قال الزجاج:"المعنى في التفسير: أن استهزاءهم بالرسل حسرة عليهم. و «الحسرة»: أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية له بعده حتى يبقى قلبه حسيرا".
قال الزمخشري:"{يا حسرة على العباد}: نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضرى فيها، وهي حال

=

=

استهزائهم بالرسل. والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون. أوهم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين. ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة في معنى تعظيم ما جنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه".

قوله تعالى: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [يس:٣٠]، أي:"ما يأتيهم من رسول من الله تعالى إلا كانوا به يستهزئون ويسخرون".

قال ابن كثير:"أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق".

قال العثيمين: قوله تعالى: (يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ) قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانُكِ فاحضري].

قال الطبري: (القول في تأويل قوله ﷻ: {ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون (٣٠)} [يس:٣٠] يقول تعالى ذكره: يا حسرة من العباد على أنفسها، وتندما وتلهفا في استهزائهم برسل الله، {ما يأتيهم من رسول} من الله، {إلا كانوا به يستهزئون}، وذكر أن ذلك في بعض القراءة: (يا حسرة العباد على أنفسها). وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

وقال السمرقندي: (قوله ﷻ: {ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [يس:٣٠]، يعني: يا ندامة على العباد في الآخرة، يعني: يقولون يا حسرتنا على ما فعلنا بالأنبياء عليهم السلام.

وقال البغوي: ({ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [يس:٣٠] قال عكرمة: يعني يا حسرتهم على أنفسهم والحسرة: شدة الندامة، وفيه قولان: أحدهما / يقول الله تعالى: يا حسرة وندامة وكآبة على العباد يوم القيامة حين لم يؤمنوا بالرسل، والآخر / أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية:

=

=

لما عاينوا العذاب قالوا يا حسرة). ا.هـ

فقوله: {يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} الحسرة هي: شِدة الندم والتألم والحزن على ما مضى، قال الله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ} - أي ندمات وعناء -

وقوله: {يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} قيل: إن القائل هم المكذبون، وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: يا حسرة على العباد، ثم بينوا السبب كما سيأتي.

وقيل: إن الحسرة من اتباع الرسل، يعني من هذا الرجل ونحوه يتحسر على هؤلاء العباد.

وقيل: إن التحسر من الله ﷻ، لكن ليس معناه أنَّه يتصف به، بل المعنى أنَّه يبين حسرة العباد على أنفسهم، يقول: يا حسرة واقعة على العباد، فتكون {عَلَى} قريبة من معنى {مِنْ} يعني أن الله تعالى يبين أن هؤلاء العباد المكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم وهذا أقرب إلى السياق، لقوله: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} فالكلام كلام الله ﷻ، لكن لما كان التحسر ندمًا وألمًا صار الله تعالى منزهًا عنه، فوجب أن يكون المراد: يا حسرة واقعة عليهم، أي: ما أشد تحسر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرسل كما نبينه آخر الآية، وقوله تعالى: {عَلَى الْعِبَادِ} المراد بالعباد هنا العبودية العامة، وليست الخاصة، لأن العبودية الخاصة لا تحسر على أهلها، وقد تقدم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة وخاصة، فإن قيل: العبودية العامة يدخل فيها غير مكذبين؟

فالجواب أن نقول: العبودية هنا عامة، لكنه عام أريد به الخصوص وهم المكذبون للرسل،

=

=

- فإن قيل: ما الفائدة من نداء الحسرة وهي لا تعقل؟
أجاب على ذلك الزجاج بقوله: ({ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون} [يس:٣٠] وقرئت: (يا حسرة العباد) بغير على، ولكني لا أحب القراءة بشيء خالف المصحف البتة، وهذه من أصعب مسألة في القرآن، إذا قال القائل ما الفائدة في مناداة الحسرة، والحسرة مما لا يجيب؟ فالفائدة في مناداتها كالفائدة في مناداة ما يعقل؛ لأن النداء باب تنبيه، إذا قلت: يا زيد، فإن لم تكن دعوته لتخاطبه لغير النداء فلا معنى للكلام، إنما تقول: يا زيد؛ فتنبهه بالنداء، ثم تقول: فعلت كذا وافعل كذا، وما أحببت مما له فيه فائدة، ألا ترى أنك تقول لمن هو مقبل عليك: يا زيد ما أحسن ما صنعت، ولو قلت له: ما أحسن ما صنعت، كنت قد بلغت في الفائدة ما أفهمت به، غير أن قولك: يا زيد، أوكد في الكلام، وأبلغ في الإفهام).
وقال السمعاني: (والجواب عنه: أن معنى قول القائل: يا حسرة، مثل قوله: يا عجبا، وكذلك قوله: يا حسرتاه، مثل قوله: يا عجباه، والعرب تقول هذا على طريق المبالغة، والنداء عندهم بمعنى التنبيه، فيستقيم فيمن يعقل وفيمن لا يعقل).
وقال المصنف: (ونداؤها مجاز) يعني ليس حقيقة؛ لأن النداء حقيقة إنما يوجه إلى من يعقل، وما لا يعقل فليس نداؤه على سبيل الحقيقة، ولهذا قالوا في قول الشاعر:
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
أن هذا يراد به التمني، وليس نداء بمعنى طلب الحضور، لأن الليل لا يعقل، فالنداء حقيقة إنما يوجه لمن يعقل، وإذا وجه لمن لا يعقل صار له معنى آخر على سبيل التجوز، والمعنى أنَّه جعل غير العاقل كالعاقل، كأن الحسرة شيء
=

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١).

{أَلَمْ يَرَوْا} أَيْ أَهْل مَكَّة الْقَائِلُونَ لِلنَّبِيِّ لَسْت مُرْسَلًا وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِير أَيْ عَلِمُوا {كَمْ} خبرية بمعنى كثيرا معمولة لما بَعْدهَا مُعَلِّقَة لِمَا قَبْلهَا عَنْ الْعَمَل وَالْمَعْنَى إنَّا {أَهَلَكْنَا قَبْلهمْ} كَثِيرًا {مِنْ الْقُرُون} الْأُمَم {أَنَّهُمْ} أَيْ الْمُهْلَكِينَ

=

يأتي ويذهب يقول: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)} (ما) نافية و (من) زائدة لوقوعها في سياق النفي، وهي زائدة، زائدة، زائدة لفظًا، وتزيد في المعنى، وهذا معنى قولنا: (زائدة، زائدة) وليس في القرآن حرف واحد لا يفيد معنى أبدًا، فكل ما في القرآن فإنه يشتمل على المعاني، ولكن قد يكون زائدًا من حيث الإعراب فقط، ولهذا فإعراب (رسول) في هذه الآية فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائدة، وفائدتها التنصيص على العموم، لأن (رسول) نكرة في سياق النفي فيعم، فإذا جاءت (من) صارت أنص وأدل على العموم مما لو حذفت، ولهذا قالوا: إن فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم، وقوله: {مِنْ رَسُولٍ} الرسول عند عامة أهل العلم هو بشر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، ويطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمى جبريل عليه الصلاة والسلام رسولًا كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)} وقوله: {إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)} أي: إلَّا كانوا يستهزءون به ولكن قدم المعمول وهو (به) لإفادة الحصر، ولمناسبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين: فائدة لفظية، وهي مراعاة الفواصل، وفائدة معنوية، وهي: الحصر، كأنه قال: (إذا أتاهم الرسول فكأنهم لا يستهزءون بأحد سوى هذا الرسول)، وهم يستهزءون بغيره، ولكن لما كان هؤلاء قد أمعنوا في الاستهزاء بالرسل صاروا كأنهم لا يستهزؤن إلَّا بالرسل والاستهزاء هو السخرية والهزء.

{إِلَيْهِمْ} أَيْ الْمُكَذِّبِينَ {لَا يَرْجِعُونَ} أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ وَأَنَّهُ إلَخْ بَدَل مِمَّا قَبْله بِرِعَايَةِ الْمَعْنَى الْمَذْكُور[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١)} [يس:٣١].

قال الطبري: يقول:"ألم ير هؤلاء المشركون بالله من قومك يا محمد كم أهلكنا قبلهم بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بآياتنا من القرون الخالية، أنهم إليهم لا يرجعون".

قال الواحدي:"يعني: ألم يروا أنَّ الذين أهلكناهم قبلهم لا يرجعون إليهم".

قال الزجاج:"أي: فيخافون أن يعجل لهم في الدنيا مثل الذي عجل لغيرهم ممن أهلك، وأنهم مع ذلك لا يعودون إلى الدنيا أبدا".

قال ابن كثير:"أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من قولهم: {إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} [المؤمنون: ٣٧]، وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تعالى عليهم باطلهم، فقال: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ} ".

قال مقاتل: {قَبْلَهُمْ} :"قبل كفار مكة، {مِنَ الْقُرُونِ} الأمم: عاد وثمود وقوم لوط، فيرى أهل مكة من هلاكهم أنهم إليهم لا يرجعون إلى الحياة الدنيا".

عن قتادة: " {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ}، قال: عاد وثمود، وقرون بين ذلك كثير".

روي عن الأعرج وأبى عمرو في قوله: " {أنهم إليهم لا يرجعون}، قالا: ليس في مدة اختلاف هذا من رجوع الدنيا".

=

=

قال ابن الجوزي:"«القرن»: "اسم أهل كل عصر. وسموا بذلك، لاقترانهم في الوجود".

وللمفسرين في المراد بـ «القرن»، أقوال:

أحدها: أنه أربعون سنة، حكاه ابن سيرين والزهراوي عن النبي -ﷺ-.

الثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس، واختاره الفراء.

الثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بسر المازني، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وهو قول الجمهور.

الرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى، وإياس بن معاوية.

الخامس: عشرون سنة، قاله الحسن.

عن مالك بن دينار، قال: "سألت الحسن، عن القرن، فقال: عشرون سنة".

السادس: سبعون سنة، ذكره الفراء عن بعضهم.

السابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلّت السنون، أو كثرت بدليل قوله -ﷺ-: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: الذين أخذوا عن التابعين. وهذا قول الزجاج.

فالقرن: "مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان فهو في كل قوم على مقدار أعمالهم".

والثامن: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك.

والراجح أن القرن مئة سنة، إذ ورد فيه الحديث مرفوعا وهو حديث قوي. والله أعلم.

واشتقاق القرن: من الاقتران. وفي معنى ذلك «الاقتران» قولان:

أحدهما: أنه سمي قرنا، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان

=

=

في بقائهم. هذا اختيار الزجاج.

والثاني: أنه سمي قرنا، لأنه يقرن زمانا بزمان، وأمة بأمة، قاله ابن الأنباري.

وقال أبو عبيدة:"يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة".

قال الزمخشري:"وفي قراءة ابن مسعود: «ألم يروا من أهلكنا»، والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال، وهذا مما يرد قول أهل الرجعة، ويحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له: «إن قوما يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: بئس القوم نحن إذن نكحنا: نساءه وقسمنا ميراثه» ".

وروي عن أبي إسحق قال: قيل لابن عباس أن ناسا يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة فسكت ساعة ثم قال: بئس القوم نحن إن كنا أنكحنا نساءه واقتسمنا ميراثه، أما تقرأون {ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون} ".

وروي عن قتادة، قوله: " {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ}، تكذيبا بأمر الله أو بأمرنا، فإن الناس صاروا في البعث فريقين: مكذّب ومصدّق، ذُكر لنا أن رجلا قال لابن عباس: إن ناسا بهذا العراق يزعمون أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة، ويتأوّلون هذه الآية، فقال ابن عباس: كذب أولئك، إنما هذه الآية للناس عامَّة، ولعمري لو كان عليّ مبعوثا قبل يوم القيامة ما أنكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه".

قال العثيمين: قوله تعالى: (أَلَمْ يَرَوْا) قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [أي: أهل مكة القائلون للنبي ﷺ لست مرسلًا، والاستفهام للتقرير أي: علموا]، الرؤية هنا فسرها المصنف برؤية العلم؛ وذلك لأنهم لم يشاهدوا هذا بأعينهم، وإنَّما علموه بما بلغهم من الخبر، وقوله: [أي أهل مكة] الصحيح أن هذا ليس خاصًّا بأهل مكة، بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المصنف رَحِمَهُ اللهُ جعله خاصًّا

=

=

بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكنه يقال: حتَّى وإن كانت الآية مكية، فإن المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدنجلوا في دين الله أفواجًا إلَّا بعد فتح مكة {أَلَمْ يَرَوْا} يقول المصنف: [(كم) خبرية بمعنى: كثيرًا، معمولة لما بعدها، مُعَلِّقَةٌ لما قبلها عن عمل] {يَرَوْا} بمعنى العلم، وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، وقوله علقتها عن العمل، يعني أنَّها أبطلت عملها لفظًا، لأن التعليق يبطل العمل لفظًا فقط لا محلًّا، والإلغاء يبطله لفظًا ومحلًّا، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وأما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل، الثالث: يسمى إلغاءً، والثاني: يسمى تعليقًا، والأول: يسمى إعمالًا، فكم هنا علقت {يَرَوْا} عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مفعولي {يَرَوْا} ثم هي لها إعراب باعتبار ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لما بعدها، وعليه فتقدر كما قال المصنف [بمعنى: كثيرًا]، ثم قال: [والمعنى إن {أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ} كثيرًا {مِنَ الْقُرُونِ} الأمم]. وقوله سبحانه وتعالى: {مِنَ الْقُرُونِ} {مِنَ} هذه لبيان الإبهام الواقع في كم و {الْقُرُونِ} جمع قرن، وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور، والعصر مئة سنة، وعلى هذا يكون القرن مئة سنة، ولكن قد يكوق دون ذلك، فقد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يهلكها الله ﷻ قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين، لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر {أَنَّهُمْ} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي المهلكين {إِلَيْهِمْ} أي إلى المكذبين، وفي نسخة [{إِلَيْهِمْ} أي إلى المكيين] لأن الخطاب لأهل مكة، فالمكذبون هم المكيون، والقول بأن {إِلَيْهِمْ} أي المكذبين أعم، فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا،

=

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢).

{وَإِنْ} نَافِيَة أَوْ مُخَفَّفَة {كُلّ} أَيْ كُلّ الْخَلَائِق مُبْتَدَأ {لَمَّا} بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى إلَّا أَوْ بِالتَّخْفِيفِ فَاللَّام فَارِقَة وَمَا مَزِيدَة {جَمِيع} خَبَر الْمُبْتَدَأ أَيْ مَجْمُوعُونَ {لَدَيْنَا} عِنْدنَا فِي الْمَوْقِف بَعْد بَعْثهمْ {مُحْضَرُونَ} لِلْحِسَابِ خَبَر ثَانٍ[1].

=

بل ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلَّا عملها.

{لَا يَرْجِعُونَ (٣١)} قال المصنف: [أفلا يعتبرون بهم، وأنهم ... – إلى آخره – بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور] الذي قبله قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ} كأنه قال: "ألم يروا أنهم لا يرجعون"، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى، أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنها جملة مستقلة، وليست تابعة لها في الإعراب، ولكنها تابعة لها في المعنى.

والخلاصة: أن الله بين في هذه الآية بيانًا يقرر به هؤلاء المكذبين بأنه أهلك كثيرًا من الأمم السابقة، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إلى هؤلاء المكذبين، لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم الوجوع إليها حتَّى يستعتبوا، فالواجب على هؤلاء المكذبين أن يعتبروا بهم.

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)} [يس:٣٢].

قال الطبري: يقول:"وإن كل هذه القرون التي أهلكناها والذين لم نهلكهم وغيرهم عندنا يوم القيامة جميعهم محضرون".

قال ابن كثير:"أي: وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيام بين يدي الله، ﷻ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها، ومعنى هذه كقوله تعالى: {وَإِنَّ كُلا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ} [هود: ١١١] ".

قال الزجاج:"تفسير الآية: أنهم يحضرون يوم القيامة فيقفون على ما عملوا".

قال الزمخشري:"المعنى: أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب

=

=

يوم القيامة. وقيل محضرون معذبون، فإن قلت: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد؟

قلت: ليس بواحد: لأن كلا يفيد معنى الإحاطة، وأن لا ينفلت منهم أحد، والجميع: معناه الاجتماع، وأن المحشر يجمعهم. والجميع: فعيل بمعنى مفعول، يقال حي جميع، وجاءوا جميعا".

عن قتادة: " {وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، أي: هم يوم القيامة".

وقرئ: «وَإن كل لَمَا» بالتخفيف، فيكون أن «إن» للإثبات، ومنهم مَنْ شدد «لَمَّا»، وجعل «إن» نافية، و «لمَّا» بمعنى «إلا"»، تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله أعلم.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} قال المصنف: [إن نافية، أو مخففة] قوله نافية أي: بمعنى (ما)، ومخففة بمعنى (إن) لكنها خففت و (أو) في كلام المصنف ليست للتخيير بل هي للتنويع، لأنها على حسب القراءة الآتية في {لَمَّا}. {كُلٌّ} أي: كل الخلائق، وهي مبتدأ على التقديرين، أي على أنَّها نافية وعلى أنَّها مخففة؛ لأن المخففة تعمل في الجملة، واسمها ضمير الشأن محذوف فـ {كُلٌّ} مبتدأ على كلا الوجهين أي على أن (إن) نافية، أو مخففة {لَمَّا} قال المصنف: [بالتشديد بمعنى إلَّا، أو بالتخفيف فاللام فارقة و (ما) مزيدة] {لَمَّا} بالتشديد بمعنى إلَّا، وعلى هذا تكون إن نافية، والتقدير: "وما كل إلَّا جميع لدينا محضرون"، وبالتخفيف فاللام فارقة بين "إن" النافية و"إن" المخففة و (ما) مزيدة، والتقدير على هذا "وإن كلٌّ لجميعٌ لدينا محضرون" لأن (ما) زائدة، فإذا أردنا أن نعرب هذه الآية نقول: (إن): نافية على قراءة التشديد، و (لما) بمعنى إلَّا.

الإعراب الثاني: (إن) مخففة على قراءة التخفيف، واللام فارقة وهي للتوكيد، و

=

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣).

{وَآيَة لَهُمْ} عَلَى الْبَعْث خَبَر مُقَدَّم {الْأَرْض الْمَيْتَة} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {أَحْيَيْنَاهَا} بِالْمَاءِ مُبْتَدَأ {وَأَخْرَجْنَا منها حبا} كالحنطة {فمنه يأكلون}.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤).

{وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّات} بَسَاتِين {مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُون} أَيْ بَعْضهَا.

=

(ما) زائدة، والتقدير على هذا "وإن كلٌّ لجميع لدينا" {جَمِيعٌ} قال المصنف: [خبر المبتد [أي: مجموعون] المبتدأ {كُلٌّ}.

فإن قال قائل: كيف يكون خبر لـ (كل) و (كل) تدل على الشمول؟

فالجواب: أن (كلًّا) تدل على الشمول، لكن لا يلزم من دلالتها على الشمول الاجتماع، فتقول: أكرم كل القوم، وقد يكون القوم متشتتين كل واحد بجانب، لكن {جَمِيعٌ} تدل على الاجتماع ففيها زيادة على الشمول وهي جمع الناس، فكل الناس يحضرون إلى الله ﷻ، ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع؛ ودليله الآية {جَمِيعٌ} إذًا فلا يقول قائل: إن المبتدأ هو نفس الخبر؛ لأن كلمة {كُلٌّ} تدل على الشمول {جَمِيعٌ} تدل على الشمول، نقول: لا، لأن الفرق بينهما أن (كل) تدل على الشمول، وإن كانوا متفرقين و (جميع) تدل على الشمول مع الاجتماع.

قال المصنف: [مجموعون {لدينا} عندنا في الموقف بعد بعثهم [محضرون} للحساب خبر ثان، أي: خبر ثان لـ (كل) فصار {كُلٌّ} لها الآن خبران الأول: {جَمِيعٌ} والثاني: {مُحْضَرُونَ}، ومعنى هذه الآية: ما كل واحد من هؤلاء إلَّا محضر لدى الله ﷻ يوم القيامة، والناس جميع.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥).

{لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَره} بِفَتْحَتَيْنِ وَضَمَّتَيْنِ أَيْ ثَمَر الْمَذْكُور مِنْ النَّخِيل وَغَيْره {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهمْ} أَيْ لَمْ تَعْمَل الثَّمَر {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} أَنْعُمه تعالى عليهم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا} [يس:٣٣].

قال الطبري: يقول:"ودلالة لهؤلاء المشركين على قُدرة الله على ما يشاء، وعلى إحيائه من مات من خلقه وإعادته بعد فنائه، كهيئته قبل مماته إحياؤه الأرض الميتة، التي لا نبت فيها ولا زرع بالغيث الذي ينزله من السماء حتى يخرج زرعها".

قال الزجاج:"أي: وعلامة تدلهم على التوحيد وأن الله يبعث الموتى: إحياء الأرض الميتة".

قال ابن كثير:"أي: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى {الأرْضُ الْمَيْتَةُ} أي: إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج".

قال السمعاني:"قوله: {أحييناها} أي: بالمطر".

قال ابن عطية:"{وآية}، معناه: علامة على الحشر وبعث الأجساد، والضمير في {لهم}، يراد به كفار قريش".

عن السدي: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا}،" المجدبة، أي: الذي أحياها بعد موتها قادر على أن يحيي الموتى ".

ويقرأ: «الميِّتَة»، بالتشديد.

قال الزجاج:"وأصل الميْتة: الميِّتَة، والأصل التشديد، والتخفيف أكثر، وكلاهما جائز".

قال الزمخشري:"القراءة بـ «الميتة» على الخفة أشيع، لسلسها على اللسان".

=

=

قوله تعالى: {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [يس:٣٣]، أي:"وأخرجنا منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام".

قال الطبري:"ثم إخراجه منها الحب الذي هو قوت لهم وغذاء، فمنه يأكلون".

قال السمعاني:"{وأخرجنا منها حبا}، أي: الحنطة والشعير وما أشبه هذا، {فمنه يأكلون} أي: من الحب يأكلون".

قال ابن كثير:"أي: جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم".

قال الزمخشري:"قوله: {فمنه يأكلون}، بتقديم الظرف للدلالة على أن «الحب» هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [يس:٣٤]، أي:"وجعلنا في هذه الأرض بساتين من نخيل وأعناب".

قال الطبري: يقول:"وجعلنا في هذه الأرض التي أحييناها بعد موتها بساتين من نخيل وأعناب".

قوله تعالى: {وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ} [يس:٣٤]، أي:"وفجَّرنا فيها من عيون المياه ما يسقيها".

قال الطبري:"يقول: وأنبعنا فيها من عيون الماء".

قال السمعاني:"أي: وفجرنا فيها المياه من العيون؛ ليأكلوا من الثمر الحاصل بالماء".

قال ابن كثير:"أي: جعلنا فيها أنهارًا سارحة في أمكنة، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره".

قوله تعالى: {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} [يس:٣٥].

قال الطبري:"أنشأنا هذه الجنات في هذه الأرض ليأكل عبادي من ثمره، وما

=

=

عملت أيديهم مما غرسوا هم وزرعوا".

قال السمعاني:"أي: وليأكلوا مما عملته أيديهم مما يحرثون ويزرعون ويغرسون".

قال ابن كثير:"لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها، وقوله: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم".

قال مقاتل:"يقول: لم يكن ذلك من صنع أيديهم ولكنه من فعلنا".

عن عبد الله بن عباس، {وما عَمِلَتْهُ أيْدِيهِمْ}، قال: وجدوه معمولًا، لم تَعْمَلْه أيديهم. يعني: الفرات، ودجلة، ونهر بلخ، وأشباهها".

قال الزجاج:"ويقرأ: «وما عملت» بغير «هاء»، وموضع «ما» خفض، المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، ويجوز أن تكون «ما» نفيا، على معنى: ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم. هذا على إثبات «الهاء» ".

قال الزمخشري: «ثمره» بفتحتين وضمتين وضمة وسكون، والضمير «لله» تعالى، والمعنى: " ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ومن ما عملته أيديهم من الغرس والسقي والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم، وأصله من ثمرنا كما قال: «وجعلنا»، و «فجرنا»، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى «النخيل»، وتترك «الأعناب» غير مرجوع إليها، لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره، ويجوز أن يراد: من ثمر المذكور وهو الجنات، كما قال رؤبة:

فيها خطوط من بياض وبلق... كأنه في الجلد توليع البهق

فقيل له، فقال: أردت كأن ذاك: ولك أن تجعل «ما» نافية على أن الثمر خلق الله

=

=

ولم تعمله أيدى الناس ولا يقدرون عليه".

قوله تعالى: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يس:٣٥]، أي:"أفلا يشكرون الله على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعدُّ ولا تحصى؟ ".

قال السمعاني:"يعني: هذه النعم".

قال مقاتل: يعني:"رب هذه النعم فيوحدوه".

قال الطبري:"يقول: أفلا يشكر هؤلاء القوم الذين رزقناهم هذا الرزق من هذه الأرض الميتة التي أحييناها لهم مَنْ رزقهم ذلك وأنعم عليهم به؟ ".

قال ابن كثير:"أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى؟ ".

عن عبد الله بن عباس:"{أفَلا يَشْكُرُون} لهذا؟! ".

قال العثيمين: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَآيَةٌ لَهُمُ} على البعث خبر مقدم {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ} بالتخفيف والتشديد {أَحْيَيْنَاهَا} بالماء، مبتدأ، الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء، وقول المصنف: أخبر مقدم، المبتدأ الأرض، وقوله: {الْمَيْتَةُ} بالتخفيف والتشديد يعني أن فيها قراءتين (الميّتة) و (الميتة)، وهذا دليل على أن الميتة كما يطلق على الميت الذي قد فارقت روحه جسده، يطلق أيضًا على الذي سيموت خلاف لمن قال: (إن الميّت لمن سيموت) و (المَيْتَ لمن مات بالفعل)، فإن الأرض الميتة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: الميّتة، والميتَة {الْأَرْضُ} مبتدأ و {الْمَيْتَةُ} صفة و {أَحْيَيْنَاهَا} صفة للأرض، ولهذا قال المصنف: (مبتدأ) جعله بعد قوله (أحييناها) ليبين أن الميتة وأحييناها كلاهما صفة للأرض، ولكن الصحيح أن {أَحْيَيْنَاهَا} جملة استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض، لأن محط الفائدة ليس هو موت الأرض، ولكن الله تعالى أحياها بعد موتها، أما على رأي المصنف فإذا جعل {أَحْيَيْنَاهَا} صفة،

=

=

فإنه يشكل علينا أن هذا مخالف للقاعدة المعروفة: "أن الجمل بعد المعارف أحوال". والجواب على ذلك أن يقال: إن الأرض هنا المراد بها الجنس فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

قال: (اللئيم يسبني): وتقدير: (على لئيم يسبني)، ومنه أيضًا على قول بعض المعربين {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} على أن جملة {يحمل} صفة الحمار، لأن المراد به الجنس، فهو بمعنى كمثل حمار يحمل أسفارًا، أما على القول الذي اخترناه فنقول: إن جملة {أَحْيَيْنَاهَا} استئنافية لبيان وجه الآية في هذه الأرض الميتة، ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميتة أشجارها يابسة، وليس فيها ثمر، فينزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت، فالذي أحيائها وقدر على إحيائها قادر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)} وعليه فنقول: وجه الآية أن نقيس الشاهد بالغائب، فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميتة، أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر، فالذي أحياها قادر على إحياء الموتى.

{وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا} معطوف على {أَحْيَيْنَاهَا} يعني الأرض ميتة أحييناها بالزرع، فقام الزرع أخضر يهتز، ولكن مجرد كونه زرعًا لا يفيد الآدمي، وإنَّما يفيد البهائم، ويفيد الآدمي عند الضرورة لكن الفائدة العظمى منه {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا} {مِنْهَا} أي: من الأرض {حَبًّا} كالحنطة {فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)} {فَمِنْهُ} أي: من هذا الحب يأكلون، وفائدة قوله: {فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)} دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته، وأنه حب نافع سهل التناول، لأنه لو كان صعبًا لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلَّا بمشقة عظيمة، ولهذا قال: {فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)} قدم

=

=

المعمول لإفادة الحصر، لكنه حصر إضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلَّا من هذا السهل المتيسر {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ} أي بساتين {مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} هذا غير الحب؛ لأن الخارج من الأرض يكون حبًّا، ويكون ثمرًا، الحب من الزروع، والثمر من الأشجار {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ} {جَعَلْنَا} بمعنى صيرنا، فهو ناصب لمفعولين، المفعول الأول {جَنَّاتٍ} والثاني: {فِيهَا} و {جَنَّاتٍ} جمع جنة وهي البستان الكثير الأشجار، سميت بذلك لأنه يجن من دخله وكان فيه لاستتارته به، وأصل هذه المادة - الجيم والنون - تدور على لعذا المعنى، أي: على الاستتار والخفاء، ومنه سمي القلب: جنانًا؛ لاستتاره، ومنه سمي: الجن؛ لاستتارهم وخفائهم، ومنه سمي الجُنة: الوقاية؛ لأن الإنسان يستتر بها، فكل هذه المادة تدل على الخفاء والاستتار، فالبستان الكثير الأشجار المتشابكة إذا كان فيه أحد لا يرى؛ لأن هذه الأشجار تستره {مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} النخيل والأعناب معروفة، ونص الله عليها لأنها طعام وقوتَ لا يحتاج إلى مؤنة، ولهذا يقتات رطبًا ويابسًا، فيقتات رطبًا كالرطب في التمر، وكالعنب في العنب، ويابسًا كالتمر الذي يؤول إليه الرطب، وكالزبيب الذي يؤول إليه العنب، فجمع الله بينهما؛ لأنهما قوت حلو لا يحتاج إلى مؤنة طبخ، وينتفع به رطبًا ويابسًا، {وَفَجَّرْنَا فِيهَا} أي في الأرض {مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)} قال المصنف [بعضها]. ويجوز أن تكون {مِنَ} لبيان الجنس ويكون هذا عامًّا، وهو الأقرب أي: فجرنا فيها من العيون عيونًا كثيرة، وأصنافًا متنوعة، فمنها العيون الجارية الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على جهة الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالذي يتفجر من رؤوس الجبال وغير ذلك، كل هذا دليل على قدرة الله ﷻ وعلى رحمته بعباده، يقول: {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}

=

=

{لِيَأْكُلُوا} الضمير يعود على الناس، واللام للتعليل، والفعل بعدها منصوب إما بها على مذهب الكوفيين، وإما بأن مضمرة على مذهب البصريين، وقوله: {مِنْ ثَمَرِهِ} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[بفتحتين وبضمتين] أي: ثَمَره، وثُمُرِه. وثمره هنا مفرد، ولم يقل (من ثمرهما) لأن الله ﷻ ذكر نخيلًا وأعنابًا فهما صنفان، ولم يقل (من ثمرهما) بل قال: {مِنْ ثَمَرِهِ} أي ثمر المذكور، فالضمير هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب. قال المصنف: [{وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} أي لم تعمل الثمر {أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)} نعمة الله تعالى عليهم] قوله: {وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ} في {مَا} قولان للمفسرين:

القول الأول: أنَّها نافية، وهو الذي مشى عليه المصنف، يعني أن هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم تعمله أيدي الناس.

القول الثاني: أنَّها بمعنى الذي أي: (من الذي عملته أيديهم)، لأن الناس قد يعملون شيئًا يصلحونه، مثل عصير العنب، وكذلك دبس التمر، وكذلك الخبز الذي يخبزونه من الزروع، وغير ذلك مما يصنعه الناس بأيديهم ويتمتعون ويتفكهون به، فهناك أنواع الحلوى تصنع باليد، فيكون الله تعالى امتن على العباد بأمرين: امتن بما يخرجه هو ﷻ من هذه الثمار والزروع، وامتن عليهم بما علمهم إياهم مما يعملونه بأيديهم، والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نحدث فيه شيئًا نأكله كما يقولون طازجًا، ونوع آخر نعمل فيه، ونركبه مثلًا من عدة ثمرات وما أشبهها، فيكون الله ﷻ امتن على العباد بالأمرين جميعًا، والمعنى الثاني أعم فيكون أولى، على أن القاعدة: "أن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تحمل عليهما" فنقول: إن الله أراد هذا وهذا، أراد أن أيدينا لم تعمل هذه الثمرات التي تخرج من النخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرج من الزروع، وأراد أيضًا ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نريد،

=

=

فكل هذا نعمة، وقوله: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)} الاستفهام هنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مقدر يعلم من السياق، يعني: أغفلوا عن ذلك فلا يشكرون، أو أكفروا به فلا يشكرون، لأن انتفاء الشكر يكون إما بالغفلة، أو بالكفر المتعمد، فكثير من الناس بالنسبة للنعم إما غافل ويرى هذا أمرًا معتادًا وكأنها شيء جار على العادة بدون أن يكون لله فيه منة، وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يصب بضد تلك النعم، لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلَّا حيث يصاب بضدها، فلا يعرف قدر الشبع إلَّا من جاع، ولا قدر الري إلَّا من قد ظمأ، ولا قدر العافية إلَّا من مرض، ولا قدر الأنس إلَّا من فقد الأنيس، وهكذا وهذه غفلة.

وإما أن تكون كما قال تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)} كفرًا بالنعمة وبطرًا يقول: "إنما أوتيته على علم عندي" وما أشبه ذلك وقوله: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)} الشكر هو: (القيام بطاعة المنعم، وصرف نعمه فيما جعلها الله له)، فمن صرف نعم الله على غير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النعم عونًا له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكرًا؛ لأنه صرفها في غير ما جعلت له، وإنَّما أنعم الله علينا هذه النعم لنقوم بعبادته والتقوي عليها، والشكر متعلقه ثلاثة أشياء: القلب واللسان والجوارح، وعلى هذا قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجب فشكر القلب: أن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى هو الذي منّ بها، إن كانت نعمة إيجادية، أو كانت دفع نقمة فإنها من الله وهو المانّ بها، فلا يجعل ذلك من أسباب عمله وذكائه، بل يجعل ذلك من فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه.

وشكر اللسان: أن يثني الإنسان بها على الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى:

=

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦).

{سُبْحَان الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاج} الْأَصْنَاف {كُلّهَا مِمَّا تَنْبُت الْأَرْض} مِنْ الْحُبُوب وَغَيْرهَا {وَمِنْ أَنْفُسهمْ} مِنْ الذُّكُور وَالْإِنَاث {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} مِنْ

=

{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)} لكن لا على سبيل الفخر والعلو على الآخرين، فإنه إذا تحدث بها على سبيل الفخر والعلو على الآخرين صار هذا كفرًا لا شكرًا.

وشكر الجوارح: أن يقوم بطاعة المنعم ﷻ، ومن شكر الجوارح: أن يظهر أثر النعمة عليه، فإن كان غنيًّا ظهر ذلك عليه في مركوبه وملبوسه وكل مظهره، لأن الله تعالى إذا أنعم على أحد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه.

فإذا قال قائل: هل بين الحمد والشكر فرق أو هما متفقان؟

فالجواب: أن بينهما فرقًا:

أولًا: أن الحمد متعلقه اللسان فقط، لأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فلا يتعدى إلى الجوارح.

ثانيًا: أن الحمد يكون لإحسان المحمود ولكمال المحمود، والشكر للإحسان فقط، فالشكر يكون على النعم فقط، والحمد يكون على النعم وعلى أوصاف الكمال، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فالحمد أعم من حيث السبب، وأخص من حيث المتعلق، والشكر أخص من حيث السبب، وأعم من حيث المتعلق، والله يحمد على نعمه، وعلى كماله فهذا سبب الحمد، والحمد إنما يكون باللسان فقط، والشكر إنما يكون على النعم فقط، فلا تقول: اشكر الله على كمال صفاته، بل على نعمه، فسبب الشكر أخص، لكنه يتعلق بالقلب واللسان والجوارح فهو أعم من حيثما المتعلق.

الْمَخْلُوقَات الْعَجِيبَة الْغَرِيبَة(١).

(١) قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} [يس:٣٦].

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله}: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره تنزيها وتبرئة للذي خلق الألوان المختلفة كلها".

قال السمعاني:"أي: سبحوا الله الذي خلق الأصناف كلها".

قال الزجاج:"{سبحان}: تبرئة الله من السوء وتنزيهه، ومعنى «الأزواج»: الأجناس كلها من النبات والحيوان وغيرها".

قال يحيى:"{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}،أي: الألوان كلها".

وقال السدي: الأصناف كلها".

قال ابن قتيبة:"أي: الأجناس كلها".

قال الزمخشري:"«الأزواج»: الأجناس والأصناف".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: {سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها}، قال: "الأصناف كلها؛ الملائكة زوج، والإنس زوج، والجن زوج، وما تنبت الأرض زوج، وكل صنف من الطير زوج. ثم فسَّره فقال: {مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ومِن أنْفُسِهِمْ ومِمّا لا يَعْلَمُونَ}.. ".

قوله تعالى: {مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [يس:٣٦]، أي:"ممَّا تُخرج الأرضُ من النخيل والأشجار، والزروع والثمار، ومن أنفسهم من الذكور والإناث، ومما لا يعلمون من مخلوقات الله الأخرى".

قال الطبري: أي:"من نبات الأرض، ومن أنفسهم، يقول: وخلق من أولادهم ذكورًا وإناثًا، ومما لا يعلمون أيضًا من الأشياء التي لم يطلعهم عليها، خلق كذلك أزواجًا مما يضيف إليه هؤلاء المشركون، ويصفونه به من الشركاء وغير =

=

ذلك".

قال مقاتل:"{مما تنبت الأرض} مما تخرج الأرض من ألوان النبات والشجر {ومن أنفسهم}: الذكر والأنثى، {ومما لا يعلمون}: من الخلق".

قال ابن كثير:"{مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ}، أي: من زروع وثمار ونبات. {وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ} فجعلهم ذكرًا وأنثى، {وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ} أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: ٤٩]".

قال الزجاج:"{ومن أنفسهم ومما لا يعلمون}: مما خلق الله من جميع الأنواع والأشباه".

قال ابن ابي زمنين:"{ومما لا يعلمون} مما خلق في البر والبحر".

قال السمعاني:"أي: من النبات، والحيوان الذي لا يعلمونه، وذكر بعض أهل التفسير: أن ما لا يعلمون ها هنا هو الروح، والله تعالى خلق الروح في النفس ولا يعلمه أحد، وذكر بعضهم".

قال ابن الجوزي:"{ومما لا يعلمون}: من دواب البر والبحر وغير ذلك مما لم يقفوا على علمه".

قال الزمخشري:"{ومما لا يعلمون}: ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقا إلى العلم به، لأنه لا حاجة بهم في دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم، ولو كانت بهم اليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون".

قال النسفي:"{ومما لا يعلمون} ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها ففي الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس".

=

=

قال يحيى بن سلام:" {وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ} وهو كقوله: {وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُون} [النمل: ٨] ".

عن ابن جُرَيْج، قال:"ثم فسَّره فقال: {مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ومِن أَنْفُسِهِمْ ومِمّا لا يَعْلَمُونَ} الروح؛ لا يعلمه إلا الله، لا الملائكة، ولا خلق الله، ولم يطَّلع على الروح أحد. وقوله: {ومِمّا لا يَعْلَمُونَ} لا يعلم الملائكة، ولا غيرها الروح".

قال القشيري:"تنبه هذه الاية على التفكر في بديع صنعه فقال: تنزيها لمن خلق الأشياء المتشاكلة فى الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح، فى الشكل والهيئة، فى اختلاف الأشجار فى أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها فى تفرقها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قوم: الطبائع فى الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها الله عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان متماثلة، والجواهر متشاكلة".

قال العثيمين: ثم قال ﷻ: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ} {كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [الأصناف {كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ} من الحبوب وغيرها {وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ} من الذكور والإناث {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)} من المخلوقات العجيبة الغريبة، {سُبْحَانَ} تأتي دائمًا منصوبة على أنَّها مفعول مطلق حذف منها العامل وجوبًا، وأصلها تسبيحًا لله، وتسبيحًا مصدر سبح، فالعامل محذوف وهو (سبح)، والمصدر محول إلى اسم مصدر، وهو التسبيح حول إلى سبحان وهو مأخوذ من سبح، أي: أبعد في الماء، فمعنى التسبيح في

=

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧).

{وَآيَة لَهُمْ} عَلَى الْقُدْرَة الْعَظِيمَة {اللَّيْل نَسْلَخ} نَفْصِل {مِنْهُ النَّهَار فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} دَاخِلُونَ فِي الظلام(١).

=

سبحان الله تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، والذي لا يليق بالله ﷻ أمران:

أحدهما: النقص في صفاته.

الثاني: مماثلة المخلوقين فيها، على أنَّه يمكن أن نرد الثاني إلى الأول، ونقول: إن مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل بالناقص يجعله ناقصًا، قوله: {خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)} هذه الآية كقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)} فكل المخلوقات لا تقوم إلَّا بتركيب مادتين فأكثر، وليس فيها شيء يقوم من شيء واحد أبدًا، فكل شيء سواء مما تنبت الأرض، أو من بني آدم، أو من البهائم، أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون فإنه مكون من شيئين {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} تنزيه الله ﷻ عما لا يليق به، ولهذا جاءت الآية هنا {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} فالمخلوق لابد فيه من تعدد، والخالق منزه عن التعدد، وهذه هي الحكمة - والله أعلم - في أنَّه قال: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا} ولم يقل (الحمد لله الذي خلق الأزواج) بل قال: {سُبْحَانَ} لأن كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجية يدل على كمال الواحد المتفرد، الذي لا يماثله شيء من مخلوقاته، فبنو آدم لابد من ازدواجية ذكر وأنثى، وحتى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تجد أنَّها مزدوجة، فيه غضب ورضى، وكراهة ومحبة، وقوة وضعف، إلى غير ذلك، لكن الخالق ﷻ واحد منفرد، لا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته ولا في صفاته.

(١) قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} [يس:٣٧].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ودليل لهم أيضًا على قدرة الله على فعل كل ما شاء: {اللَّيْلُ}، ننزع عنه النهار".

قال مجاهد:"نُخرِجُ أحدَهما من الآخر، ويجري كلٌّ منهما في فَلَك".

وروي عن قتادة:"{وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}، قال: يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل".

قال الطبري:"وهذا الذي قاله قتادة بعيد، وذلك أن إيلاج الليل في النهار، إنما هو زيادة ما نقص من ساعات هذا في ساعات الآخر، وليس السلْخ من ذلك في شيء، لأن النهار يسلخ من الليل كله، وكذلك الليل من النهار كله، وليس يولج كلّ الليل في كلّ النهار، ولا كلّ النهار في كلّ الليل".

قال ابو عبيدة:"{نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}: نميّزه منه فنجيء بالظلمة، يقال للرجل: سلخه الله من دينه".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} [يس:٣٧]، أي:"فإذا الناس مظلمون".

قال مقاتل:"بالليل".

قال ابن قتيبة:"أي: داخلون في الظلام".

قال الطبري:"يقول: فإذا هم قد صاروا في ظلمة بمجيء الليل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)} نقول: في إعرابها ما قلنا في آية {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ} فيكون الليل مبتدأ، وآية خبر مقدم، ونقول في {نَسْلَخُ} كما قلنا في قوله: {أَحْيَيْنَاهَا} أي أنَّه يجوز أن تكون صفة الليل على حد قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... إلخ.

ويجوز أن تكون الجملة استئنافية لبيان هذه الآية، كيف كان الليل آية قال: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)} "نسلخ" يقول المصنف

=

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨).

{وَالشَّمْس تَجْرِي} إلَى آخِره مِنْ جُمْلَة الْآيَة لَهُمْ أَوْ آيَة أُخْرَى وَالْقَمَر كَذَلِكَ {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} أَيْ إلَيْهِ لَا تَتَجَاوَزهُ {ذَلِكَ} أَيْ جَرْيهَا {تَقْدِير الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْعَلِيم} بِخَلْقِهِ[1].

=

[نفصل] وسمى الله هذا الفصل سلخًا؛ لأنه يشبه سلخ الجلد من البهيمة {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)}، لأن النهار أمر وجودي يوجد بوجود الشمس، فهو وارد على الليل، فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يسلخ من البهيمة، وأنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئًا فشيئًا، هكذا ضوء النهار بالنسبة لليل يسلخ الله سبحانه وتعالى النهار من الليل، كما يسلخ الجلد من البهيمة قال: {فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)} أي داخلون في الظلام {فَإِذَا} فجائية تدل على أنَّه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو، وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئًا فشيئًا، لكن إذا تكامل الانسلاخ وجدت الظلمة كاملة، وهذه من حكمة الله ﷻ؛ لأنه لو ورد الظلام الدامس على الضوء الساطع لأخذ هذا بالأبصار، وبالأشجار، وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئًا فشيئًا، يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظلمة شيئًا فشيئًا.

(١) قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} [يس:٣٨]، أي:"وآية لهم الشمس تجري لمستقر لها، قدَّره الله لها لا تتعداه ولا تقصر عنه".

قال الطبري: يقول:"والشمس تجري لموضع قرارها، بمعنى: إلى موضع قرارها؛ وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ".

عن أبي ذرَ الغفاريّ، قال: "كنت جالسا عند النبي ﷺ في المسجد، فلما غربت الشمس، قال: يا أبا ذر هل تدري أين تذهب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فإنها تذهب فتسجد بين يدي ربها، ثم تستأذن بالرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد

=

قيل لها ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مكانها وذلك مستقرها".

وفي رواية عن أبي ذر قال: "سألت رسول الله ﷺ، عن قوله: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}، قال: «مستقرها تحت العرش» ".

وفي قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} [يس:٣٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا، حكاه ابن عيسى.

قال مقاتل:"لوقت لها إلى يوم القيامة".

الثاني: لوقت واحد لا تعدوه، قاله قتادة.

وقال السدي:"يعني: لمنتهاها".

الثالث: عن الحسن البصري: " {والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها}، ثم ترجع إلى أدنى منازلها إلى يوم القيامة، حيث تُكوَّر فيذهب ضوؤها".

الرابع: أي: أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع إلى أدنى منازلها، قاله الكلبي.

قال ابن قتيبة:"أي: موضع تنتهي إليه فلا تجاوزه؛ ثم ترجع".

قال يحيى:"{والشمس تجري لمستقر لها}:لا تجاوزه. وهذا أبعد مسيرها، ثم ترجع إلى أدنى منازلها في تفسير الحسن إلى يوم القيامة حيث تكور فيذهب ضوءها".

وروي عن ابن عمر، في الآية قال: " {لمستقر لها}: أن تطلع فتردها ذنوب بني آدم، فإذا غربت سلمت: وسجدت واستأذنت فيؤذن لها حتى إذا غربت سلمت فلا يؤذن لها فتقول: إن السير بعيد وإني لم يؤذن لي لا أبلغ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس، ثم يقال اطلعي من حيث غربت قال: فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفسا إيمانها".

قال ابن عمرو:"لو أن الشمس تجري مجرى واحدا من أهل الأرض فيخشى منها، ولكنها تلحق في الصيف وتعترض في الشتاء فلو أنها طلعت مطلعها في

=

الشتاء في الصيف لانضجهم الحر، ولو أنها طلعت مطلعها في الصيف لقطعهم البرد".

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأها: «والشمس تجري لا مستقر لها».

قال الماوردي:"وتأويل هذه القراءة أنها تجري في الليل والنهار ولا وقوف لها ولا قرار".

وفي قراء عبد الله: «وذلك مستقر لها».

قوله تعالى: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس:٣٨]، أي:"ذلك تقدير العزيز الذي لا يغالَب، العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء".

قال الضحاك:"بقدر يجريان، يعني: الشمس والقمر، يجريان بإذن الله".

قال الطبري:"يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقر لها، تقدير العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بمصالح خلقه، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يخفي عليه خافية".

قال ابن كثير:" {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ} أي: الذي لا يخالَف ولا يُمانَع، {الْعَلِيم} بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقَنَّنَه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦]. وهكذا ختم آية حم السجدة" بقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: ١٢] ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)} الواو حرف عطف و (الشمس) أيضًا معطوفة على الليل، يعني: وآية لهم الشمس أيضًا {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} ويجوز أن تكون الواو استئنافية، الشمس مبتدأ، لكن المعنى الأول أقوى قال المصنف: [والشمس تجري إلى آخره من جملة الآية لهم، أو آية أخرى، والقمر كذلك] أي سواء قلنا الجملة

=

استئنافية وأن هذه الآية الأخرى جديدة، أو قلنا إن الواو حرف عطف فإنه لا شك أن الشمس على الوصف الذي ذكر الله تعالى آية من آيات الله. فالشمس آية من آيات الله في ذاتها، فهذا الجرم الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بعد المسافة بينها وبين الأرض، لا شك أن هذه من آيات الله، من يستطيع أن يوجد مثل هذه الكتلة النارية الملتهبة المضيئة التي يصل ضوؤها وشعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟ ! الجواب: لا أحد يستطيع، إذًا فهي آية من آيات الله، ثم ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمر، وتدفئة الأرض، والنور العظيم، كم طاقة يستفيدها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء، طاقة عظيمة سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة في أيام الشتاء التي يستغني بالشمس عند تدفئة المنازل، أو فيما يحصل بالإضاءة فإذا هذا أمر لا يقدر له ثمن، أما إنضاج الثمر، وإيباس الرطب وما أشبه ذلك مما فيه مصلحة الخلق فحدث ولا حرج، فهي آية عظيمة من آيات الله ﷻ.

وهي آية في مسيرها قال: {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} يعني تسير جريًا، والجري هو المشي بشدة، وهكذا الشمس تسير بسرعة عظيمة جدًّا لا يعلم قدرها إلَّا الله ﷻ، أو قد يعلم بالوسائل الحديثة مدى سرعتها، لكن تأمل الطائرة تسير في سرعة عظيمة وهي قريبة منا، ومع ذلك نراها تمشي ببطء؛ لبعدها عنا فما بالك بالشمس؟ ! نحن نراها تسير لا شك في هذا، حتَّى إنك نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشعاع تجده يتحرك كأنه يرتعد، وهذا يدل على أنَّها تمشي مشيًا عظيمًا، ومع هذا وهي بعيدة جدًّا ونشاهدها تسير هذا السير إذن فسريانها سريع جدًّا، وقد علم تقديره عند الفلكيين الآن وقوله: {لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} قال المصنف: [إليه لا تتجاوزه]، والمستقر موضع القرار، كما قال الله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)} وقال {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا}.

=

فالمستقر موضع القرار، وقال تعالى {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه؟ هل هو قرار زمني؟ أو قرار مكاني؟ أو هما جميعًا؟

ثبت في الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه أنَّه كان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربت الشمس فقال النبي ﷺ: "أتدري أين تذهب؟ " فقال أَبو ذرٍّ: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها تذهب وتسجد تحت العرش، وتستأذن فذلك مستقرها"، ثم قرأ: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)} وهذا الحديث يدل على أن مستقرها مكاني؛ لأنها تسجد تحت العرش، وهذا السجود لا نعلم كيفيته؛ لأن الشمس ليست كالبشر حتَّى يقاس سجودها بسجود البشر، بل هي مخلوق أعظم، ولا ندري كيف تسجد؟ فإذًا لا يرد علينا السؤال: هل هي تسجد وهي سائرة أو تقف؟ وكيف يصح أن نقول: إنها تسجد وتستأذن وهي لا تزال مستمرة في الأفق.

وقيل: إن المستقر مستقر زمني، وذلك عند تكويرها يوم القيامة، أي: عند منتهى سيرها في يوم القيامة، أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إن المراد بالمستقر منتهى تنقلها في البروج الشمالية واليمانية، فلها حد تنتهي إليها من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه، وبناء على هذا يكون المستقر زمانيًّا ومكانيًّا، لأن غاية سيرها في الشمال يكون به ابتداء فصل الصيف، وغاية سيرها في الجنوب ابتداء فصل الشتاء، فهذا مستقر زمني مكاني، فهذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قدرها إلَّا الذي خلقها سبحانه وتعالى لما فيها من المصالح العظيمة {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا} كل شيء له غاية، وكل شيء له منتهى إلى الله ﷻ. قال المصنف: [{ذَلِكَ} أي: جريها {تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ} في ملكه {الْعَلِيمِ (٣٨)} بخلقه] [{ذَلِكَ} أي: جريانها لمستقرها {ذَلِكَ

=

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩).

{وَالْقَمَر} بِالرَّفْعِ وَالنَّصْب وَهُوَ مَنْصُوب بِفِعْلٍ يُفَسِّرهُ مَا بَعْده {قَدَّرْنَاهُ} مِنْ

= تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)} وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم {الْعَزِيزِ} لأن هذه الشمس العظيمة تحتاج إلى قوة وسلطان قاهر، فلهذا أتى باسم {الْعَزِيزِ}؛ لأن العزيز يشمل ثلاثة معانٍ:

أولًا: العزيز في قدره.

ثانيًا: العزيز في قهره.

ثالثًا: العزيز في امتناعه.

أما في قدره فمعناها: أن الله ذو شأن عظيم لا يماثله أحد، وأما في قهره فمعناه أن الله له الغلبة والسلطان المطلق، يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأما في امتناعه فالمعنى: أنَّه ممتنع عن كل نقص وعيب.

أما {الْعَلِيمِ (٣٨)} فمعناه ذو العلم الكامل الشامل، فإن علم الله تعالى علم كامل لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، وشامل لكل صغير وكبير، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} وما كتب في كتاب مبين إلَّا بعد أن كان معلومًا عند الله ﷻ، إذ المجهول لا يكتب، فهذا يدل على سعة علم الله ﷻ، وأنه محيط بكل شيء جملة وتفصيلًا.

فذكر الله هذين الاسمين {الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)} لمناسبة المقام، لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده، بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وعلم.

حَيْثُ سَيَّرَهُ {مَنَازِل} ثَمَانِيَة وَعِشْرِينَ مَنْزِلًا فِي ثَمَان وَعِشْرِينَ لَيْلَة مِنْ كُلّ شَهْر وَيَسْتَتِر لَيْلَتَيْنِ إنْ كَانَ الشَّهْر ثَلَاثِينَ يَوْمًا وَلَيْلَة إنْ كَانَ تِسْعَة وَعِشْرِينَ يَوْمًا {حَتَّى عَادَ} فِي آخِر مَنَازِله فِي رَأْي الْعَيْن {كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيم} أَيْ كَعُودِ الشَّمَارِيخ إذَا عَتَقَ فَإِنَّهُ يَرِقّ وَيَتَقَوَّس وَيَصْفَرّ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} [يس:٣٩].

قال الطبري: يقول:"وآية لهم، تقديرنا القمر منازل للنقصان بعد تناهيه وتمامه واستوائه".

قال ابن كثير:"أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩]، وقال {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} الآية [يونس: ٥]، وقال: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلا} [الإسراء: ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري. وأما القمر، فقدره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء، وإن كان مقتبسًا من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر".

قال مقاتل:"{منازل} فى السماء يزيد، ثم يستوي، ثم ينقص في آخر الشهر".

=

=

قال الصابوني:"وهي ثمانية وعشرون منزلًا في ثمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلةٍ في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعادها، فإذا كان في آخر ليلة دقَّ واستقوس".

وفي قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ} [يس:٣٩]، قولان:

أحدهما: جعله في كل ليلة على مقر له، يزيد في كل ليلة من أول الشهر حتى يستكمل ثم ينقص بعد استكماله حتى يعود كما بدأ، وهو محتمل.

الثاني: أنه يطلع كل ليلة في منزل حتى يستكمل جميع المنازل في كل شهر، ولذلك جعل بعض الحساب السنة الشمسية ثلاثة عشر شهرًا قمريًا.

قوله تعالى: {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس:٣٩]، أي:"حتى صار كغصن النخل اليابس".

قال الطبري: يقول:"العرجون: من العذق من الموضع النابت في النخلة إلى موضع الشماريخ؛ وإنما شبهه جل ثناوه بالعرجون القديم، والقديم هو اليابس، لأن ذلك من العذق، لا يكاد يوجد إلا متقوسا منحنيا إذا قدم ويبس، ولا يكاد أن يصاب مستويا معتدلا كأغصان سائر الأشجار وفروعها، فكذلك القمر إذا كان في آخر الشهر قبل استسراره، صار في انحنائه وتقوسه نظير ذلك العرجون".

قال الصابوني:"وهو عنقود التمر حين يجف ويصفر ويتقوس".

عن سليمان التيمي، قوله: " {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}، قال: العذق".

قال قتادة:"قدره الله منازل، فجعل ينقص حتى كان مثل عذق النخلة، شبهه بعذق النخلة".

وفي قوله تعالى: {حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} [يس:٣٩]، وجهان:

أحدهما: أنه العذق اليابس إذا استقوس، وهو معنى قول ابن عباس، ومجاهد، ومنه قول مرَّار بن منقذ التميمي:

عَبِقَ العنبرُ والمسكُ بها... فهي صفراء كعرجون القمر

=

=

قال القرطبي:"فالعرجون إذا عتق ويبس وتوس شبه القمر في دقته وصفرته به. ويقال له أيضا الإهان والكباسة والقنو، وأهل مصر يسمونه الإسباطة".
الثاني: أنه عذق النخلة إذا قدم فانحنى مائلا، قاله الحسن، ويزيد بن الأصم.
وقال عكرمة:"النخلة القديمة".
وقال مقاتل:"حتى عاد مثل الخيط كما يكون أول ما استهل فيه {كالعرجون}، يعني: العذق اليابس المنحني {القديم} الذي أتى عليه الحول".
قال ابن قتيبة:"«العرجون»: عود الكباسة. وهو: الإهان أيضا. و «القديم» الذي قد أتى عليه حول فاستقوس ودق. وشبه القمر -آخر ليلة يطلع- به".
قال ابن كثير:"ثم بعد هذا يبديه الله جديدًا في أول الشهر الآخر، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول "غُرَر" واللواتي بعدها "نفل"، واللواتي بعدها "تُسع"؛ لأن أخراهن التاسعة، واللواتي بعدها "عُشَر"؛ لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها "البيض"؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن "دُرَع" جمع دَرْعاء؛ لأن أولهن سُود؛ لتأخر القمر في أولهن، ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود. وبعدهن ثلاث "ظُلم" ثم ثلاث "حَنَادس"، وثلاث "دآدئ" وثلاث "مَحاق"؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن. وكان أبو عُبيد ينكر التُّسع والعشَر. كذا قال في كتاب "غريب المصنف".
عن الحسين بن الوليد، قال: "أعتق رجلٌ كُلَّ غلام له قديم، فسُئِل يعقوب، فقال: مَن كان لِسَنَةٍ فهو حرٌّ؛ قال الله: {حَتّى عادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ} فهو لِسنة".
قال العثيمين: قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)} يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [القمر بالرفع، والنصب]، ففيه وجهان في الإعراب: القمرُ بالرفع على أنَّه مبتدأ، وخبره {قَدَّرْنَاهُ}. والقمرَ بالنصب على أنَّه

=

=

مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور، فيكون من باب الاشتغال، وهنا يتساوى الرفع والنصب في الرجحان؛ لأن الجملة التي قبله {وَالشَّمْسُ تَجْرِي} جملة اسمية، خبرها فعل، فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنَّه يترجح الرفع إذا عطف المشغول عنه على جملة اسمية، ويترجح النصب إذا عطف على جملة فعلية. قال المصنف [وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده] يعني يفسره المذكور والتقدير على هذا: (وقدرنا القمر منازل) ولا حاجة أن نقول كما يقول بعض الناس: التقدير وقدرنا القمر قدرناه؛ لأنه لا يجمع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أردت أن تقدر فقل: التقدير (وقدرنا القمر منازل).

فإذا قلت: لماذا لم يقل ﷻ (وقدرنا القمر منازل).

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل صار كأنه أسند هذا إليه مرتين، أي: أسند الفعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين مرة بذكره اسمًا ظاهرًا، ومرة بذكره اسمًا مضمرًا {قَدَّرْنَاهُ} قال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ} وتقدير الله ﷻ للقمر منازل، لأنه بهذا التقدير يمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نشاهده، يتغير كل ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التقدير ما تغير، لكنه مقدر منازل ثمانية وعشرين منزلًا، على حسب النجوم المعروفة عند العرب، فكل ليلة ينزل منزلة، ويبقى ليلة واحدة إن كان تسعًا وعشرين ليلة، أو ليلتان إن كان ثلاثين، وتسمى هاتان الليلتان ليالي الاستسرار - يعني الاختفاء - يختفي فيها القمر، إما في أول الشهر التالي أو في آخر الشهر السابق، ومن أراد التفصيل العلمي فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك، ولا سيما في عصرنا هذا، فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير، والقمر قدره الله منازل كل يوم منزلة فهو يختلف كل ليلة عن الأخرى، ولهذا يبدو صغيرًا، ثم يكبر، ثم يعود ويصغر، بحسب قربه من الشمس، كلما قرب من الشمس ضعف نوره، لأن نور القمر مستمد من نور

=

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠).

{لَا الشَّمْس يَنْبَغِي} يَسْهُل وَيَصِحّ {لَهَا أَنْ تُدْرِك الْقَمَر} فَتَجْتَمِع مَعَهُ فِي اللَّيْل {وَلَا اللَّيْل سَابِق النَّهَار} فَلَا يَأْتِي قَبْل انْقِضَائِهِ {وَكُلّ} تَنْوِينه عِوَض عَنْ الْمُضَاف إلَيْهِ مِنْ الشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم {فِي فَلَك} مُسْتَدِير {يَسْبَحُونَ}

=

الشمس، هو نفسه ليس به إضاءة، جرم مظلم كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} فهو جرم مظلم لا يستفيد نورًا إلَّا بغيره، فإذا قابل الشمس حصل فيه النور، وكلما أبعد عنها كثرت المقابلة؛ لأن السير كروي، فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المقابلة، ولهذا يمتلئ نورًا فيما إذا كان في المشرق، والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذ، فيمتلئ نورًا، والجزء المنيِّر من القمر هو الذي يلي الشمس، ولهذا تجده في أيام الشتاء إذا كانت الشمس خلفه تكون فتحة قوسه نحو المشرق، وفي أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب، لأن الشمس تكون عنه شمالًا، ويكون عنها جنوبًا فنجد فتحته نحو الجنوب، ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أن اتجاه فتحة القمر - أي فتحة قوسه - دائمًا إلى المشرق، أو الجنوب، هذا ليس بصواب، وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)} أي: عاد القمر بعد تقدير هذه المنازل كالعرجون القديم، والعرجون هو: أصل الشماريخ الذي في طلع النخل، وهو إذا يبس يتقوس ويصفر، فشبه الله ﷻ القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم، أي: أنَّه يبدو دقيقًا أصفرًا متقوسًا.

يَسِيرُونَ نَزَلُوا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ(١).

---

(١) قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [يس:٤٠].

قال الطبري: يقول:"لا الشمس يصلح لها إدراك القمر، فيذهب ضوؤها بضوئه، فتكون الأوقات كلها نهارا لا ليل فيها، ولا الليل بفائت النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه، فتكون الأوقات كلها ليلا".

قال الصابوني:"أي: لا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره، لأن ذلك يُخلُّ بتلوين النبات، ومصلحة العباد، ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلا".

عن مجاهد:"أن أناسا من اليهود قالوا لعمر بن الخطاب: تقولون: جنة عرضها السموات والأرض فأين تكون النار؟ قال: أرأيت إذا جاء النهار أين يكون الليل وإذا جاء الليل أين يكون النهار؟ يفعل الله ما يشاء".

وفي قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} [يس:٤٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا يشبه ضوءها ضوء الآخر، لا ينبغي لها ذلك".

الثاني: لا يجتمع ضوء أحدهما مع ضوء الآخر، لأن ضوء القمر ليلًا وضوء الشمس نهارًا، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر، قاله قتادة، والحسن-في رواية-، وأبو صالح، والضحاك.

قال قتادة:"ولكل حد وعلم لا يعدوه، ولا يقصر دونه؛ إذا جاء سلطان هذا، ذهب سلطان هذا، وإذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا".

قال الحسن:"لكل واحد منهما سلطان، للقمر سلطان بالليل وللشمس سلطان =

=

بالنهار، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل".
قال أبو صالح:"لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا".
قال الضحاك:"وهذا في ضوء القمر وضوء الشمس، إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر بضوئه لم يكن للشمس ضوء".
الثالث: معناه: أنهما إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر في منازل لا يشتركان فيها، قاله ابن عباس.
الرابع: أنهما لا يجتمعان في السماء ليلة الهلال خاصة، وهذا معنى قول الحسن.
قال الحسن:"ذاك ليلة الهلال".
الخامس: أنه لا تدرك الشمس القمر ليلة البدر خاصة لأنه يبادر بالمغيب قبل طلوعها، حكاه يحيى بن سلام.
وقال النحاس:"أحسن ما قيل في معناه وأبينه مما لا يدفع: أن سير القمر سير سريع فالشمس لا تدركه في السير".
وفي قوله تعالى: {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [يس:٤٠]، وجهان من التفسير:
أحدهما: المعنى: لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهار فاصل بينهما، أي: لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلبا حثِيثًا". وهذا معنى قول مجاهد، والضحاك، وعكرمة.
قال الضحاك:"في قضاء الله وعلمه أن لا يفوت الليل النهار حتى يدركه، فيذهب ظلمته، وفي قضاء الله أن لا يفوت النهار الليل حتى يدركه، فيذهب بضوئه".
وقال الضحاك:"لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا، وأومأ بيده إلى المشرق".
قال ابن قتيبة:"هما يتعاقبان، ولا يسبق أحدهما الآخر: فيفوته ويذهب قبل مجيء صاحبه".

=

=

الثاني: يعني: أنه لا يتقدم الليل قبل استكمال النهار. وهو معنى قول قتادة، ويحيى بن سلام.

قال قتادة:"ولكل حد وعلم لا يعدوه، ولا يقصر دونه؛ إذا جاء سلطان هذا، ذهب سلطان هذا، وإذا جاء سلطان هذا ذهب سلطان هذا".

قال ابن كثير: المعنى: "لا ينبغي إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل".

قال الماوردي:"ومن الناس من يجعل هذا دليلًا على أن أول الشهر النهار دون الليل، لأنه إذا لم يسبق الليل النهار واستحال اجتماعهما وجب أن يكون النهار سابقًا. وهذا قول يدفعه الشرع ويمنع منه الإجماع".

قوله تعالى: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٤٠]، أي:"وكل من الشمس والقمر والكواكب في فلك يَجْرون".

قال الطبري:"يقول: وكل ما ذكرنا من الشمس والقمر والليل والنهار في فلك يجرون".

قال ابن كثير: " يعني: الليل والنهار، والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء ".

قال ابن قتيبة:"أي: يجرون، يعني الشمس والقمر والنجوم".

قال ابن زيد:"في فلك بين السماء والأرض".

عن نوف البكالي قال: "إن السماء خلقت مثل القبة، وإن الشمس والقمر والنجوم ليس منها شيء لاصق بالسماء، وإنها تجري في فلك دون السماء".

قال حسان بن عطية:"والقمر والنجوم مسخرة في فلك بين السماء والأرض".

واختلف أهل العلم في قوله تعالى: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٤٠]، على ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: يجرون، قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، والكلبي.

وقال ابن عباس:"في فلك كفلك المغزل".

وقال ابن عباس:"يعني: كل في فلك في السموات".

وفي رواية:"دورانا يسبحون؛ يقول: يجرون".

الثاني: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قاله ابن عباس -في رواية-، والحسن، وعكرمة، ومجاهد.

قال ابن عباس:"يدورون في أبواب السماء ما تدور الفلكة في المغزل".

قال مجاهد: " {وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} والشمس والقمر بالليل والنهار {يسبحون} يدورون كما يدور فلك المغزل".

قال الحسن:"مثل فلكة المغزل يدور".

وقال الحسن: "الفلك طاحونة مستديرة كفلكة المغزل بين السماء والأرض، وتجري فيها الشمس والقمر والنجوم، وليست بملتصقة بالسماء، ولو كانت ملتصقة ما جرت".

قال الكلبي:"كل شيء يدور فهو فلك".

الثالث: يعملون، قاله الضحاك.

قال الزجاج:"لكل وَاحِدٍ منهما فَلَك، ومعنى يسبحون يَسيرُونَ فيه بانبساط. وكل من انبسط في شيء فَقَدْ سَبحَ فيه، ومن ذلك السباحة في الماء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)} لما ذكر الله ﷻ أن الشمس تجري لمستقر لها، وأن هذا أمر مقدر من قبل العزيز العليم، وأن الله تعالى قدر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتَّى يعود بعد امتلائه نورًا فيصير كالعرجون القديم، بين أن هذا النظام لا يمكن أن يتصادم أبدًا؛ لأنه مقدر من عند الله ﷻ العزيز العليم.

=

=

منازل لا يتجاوزها ولا يتعداها، قال: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} يقول المصنف: [يسهل ويصح]، لكن الأولى أن نقول: بمعنى يمكن، أي: لا يمكن للشمس أن تدرك القمر. وقد مر علينا أنَّه إذا جاءت كلمة (لا ينبغي) في القرآن فالمعنى الممتنع غاية الامتناع. كقوله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)} يعني أن ذلك مستحيل، وقال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: "إن الله ﷻ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام"، أي أن ذلك مستحيل. {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي} أصلها: (الشمس لا ينبغي لها)، ولكن قدم النفي ليكون المنفي الجملة الاسمية كلها، فقال: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} يعني: لا يمكن أن تدرك القمر فتجتمع معه في الليل، فإذا غابت لا يمكن أن تخرج في زمن الليل فإذا قدرنا أنَّها تغيب في الساعة الثانية عشرة، وتخرج الساعة الثانية عشرة، فبين غروبها وطلوعها اثنتا عشرة ساعة، لا يمكن أن تطلع في الساعة الثامنة، فيكون بين غروبها وطلوعها ثمان ساعات، لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله ﷻ لها، والذي جعلها تسير عليه لتمام قدرة الله تعالى، ونظام هذا الكون، وأنه لا يمكن أن يختلف أو يضطرب، لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)}.

{وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي: الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلَّا بعده، وهنا قال: {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} كان اليل هو الذي يمكن أن يسبق النهار، فنفى الله ﷻ أن يسبق الليل النهار، قيل: المراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار، فيكون الله ﷻ ذكر الشروق في قوله: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} يعني لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي لا يمكن لليل أن يأتي في زمن النهار، فإذا قدرنا أن الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة، فلا يمكن أن

=

=

تغرب الساعة التاسعة مثلًا؛ لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى {وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيح على كلا القولين، فلا يمكن لليل أن يأتي وقد بقي شيء من النهار، ولا يمكن أن يأتي الليل كله في مكان النهار؛ لأن هذا ينافي تقدير الله ﷻ الذي سمى نفسه بأنه العزيز العليم. قال: {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)} (كل) قال المصنف: [تنويه عوض عن المضاف إليه من الشمس والقمر والنجوم، {فِي فَلَكٍ} مستدير {يَسْبَحُونَ (٤٠)} يسيرون، نزلوا منزلة العقلاء، ذكر المصنف النجوم، والنجوم في الآية غير مذكورة، فالصواب من الشمس والقمر، والمعنى: كل من الشمس والقمر، والليل والنهار يسبح في فلكه، والفلك هو الشيء المستدير، ومنه (فلكة المغزل) للشيء المستدير في أعلاه، والذي تغزل به النساء الصوف، له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل. فالفلك المستدير تدور فيه الشمس والقمر، والليل والنهار، وقوله: {يَسْبَحُونَ (٤٠)} قال المصنف: [يسيرون] ولكن المعنى أدق مما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع، تدور وليست تسير على أرض مسطحة، أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. وقول المصنف: [يسيرون نزلوا منزلة العقلاء] أي: الشمس والقمر والليل والنهار نزلوا (منزلة العقلاء) وذلك بأن أتي بالواو التي هي للعقلاء، فالواو ضمير جمع لا تأتي إلَّا للعقلاء، وغير العقلاء إذا أردنا أن نضيف إليهم شيئًا على سبيل الجمع نأتي بنون النسوة، والعقلاء نأتي بالواو، أو الميم، فنقول مثلًا: الإبل ركبهن أربابهن، ولا تقول: الإبل ركبهم أربابهم. لأن الميم للعاقل، وتقول: الإبل شربن ولا تقول

=

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١).

{وَآيَة لَهُمْ} عَلَى قُدْرَتنَا {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتهمْ} وَفِي قِرَاءَة ذُرِّيَّاتهمْ أَيْ آبَاءَهُمْ الْأُصُول {فِي الْفُلْك} أَيْ سَفِينَة نُوح {الْمَشْحُون} الْمَمْلُوء[1].

=

شربوا، لأن الواو للعاقل، وهنا {يَسْبَحُونَ (٤٠)} أتى بالواو التي للعاقل يقول المصنف: (إنها نزلت منزلة العقلاء) بإضافة السبح والجريان إليها، والجريان والسبح إنما يكون من ذي الإرادة والعقل.

(١) قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} [يس:٤١].

قال الطبري: يقول:"ودليل لهم أيضا، وعلامة على قدرتنا على كل ما نشاء، حملنا ذريتهم، يعني من نجا من ولد آدم في سفينة نوح، وإياها عنى جل ثناؤه بالفلك المشحون؛ والفلك: هي السفينة، والمشحون: المملوء الموقر".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ودلالة لهم أيضًا على قدرته تعالى: تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح، عليه السلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم؛ ولهذا قال: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} أي: آباءهم، {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} أي: في السفينة الموقرة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين".

قال أبو عبيدة:" {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} : المملوء، يقال: شحنها عليه خيلا ورجالا، أي: ملأها، و «الفلك»: القطب الذي تدور عليه السماء و «الفلك»: السفينة، الواحد والجميع من «السّفن» ".

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: أراد: في سفينة نوح، فنسب الذرية إلى المخاطبين، لأنهم من جنسهم، كأنه قال: ذرية الناس".

=

=

وقال الفراء:"«ذُرِّيَّتَهُمْ»، أيْ: ذرية من هُوَ منهم، فجعلها ذريتهم وقد سبقتهم".
عن ابن عباس، قوله: " {أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون}، يقول: الممتلئ".
عن ابن عباس، قوله: " {في الفلك المشحون}، يعني: المثقل".
عن الحسن، قوله: " {المشحون}، قال: المحمول".
عن سعيد والضحاك: " {الفلك المشحون}، قالا: "الموقر".
عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتدرون ما الفلك المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو الموقر".
قال مقاتل:"يعنى: الموقر من الناس والدواب".
قال قتادة:"الموقر، يعني سفينة نوح".
قال الضحاك:"يعني: سفينة نوح عليه السلام".
قال يحيى:"يعني: نوحا وبنيه الثلاثة سام، وحام ويافث منهم ذري الخلق بعد ما غرق قوم نوح".
قال ابن زيد:"الفلك المشحون: المركب الذي كان فيه نوح، والذرية التي كانت في ذلك المركب؛ قال: والمشحون: الذي قد شحن، الذي قد جعل فيه ليركبه أهله، جعلوا فيه ما يريدون، فربما امتلأ وربما لم يمتلئ".
وذكروا في قوله تعالى: {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} [يس:٤١] ثلاثة وجوه من التفسير:
أحدها: أن الذرية الآباء حملهم الله تعالى في سفينة نوح عليه السلام، قاله أبان بن عثمان، وسمى الآباء ذرية لأن منهم ذرء الأبناء.
وقال ابن الجوزي:"قيل: هو حمل الأنبياء في أصلاب الآباء حين ركبوا السفينة، ومنه قول العباس:

=

=

بل نُطْفَة تركب السفين وَقد... ألْجم نسرا وَأَهله الْغَرق".

الثاني: أن الذرية الأبناء والنساء لأنهم ذرء الآباء حملوا في السفن، والفلك هي السفن الكبار، قاله السدي.

الثالث: أن الذرية النطف حملها الله تعالى في بطون النساء تشبيهًا بالفلك المشحون، قاله عليّ رضي الله عنه.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [{وَآيَةٌ لَهُمْ} على قدرتنا {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} وفي قراءة {ذرياتهم} أي آباءهم الأصول في {الْفُلْكِ} أي سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ {الْمَشْحُونِ (٤١)} المملوء].

قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ} أي: للناس جميعًا، يقول المصنف: آية على قدرتنا، ونحن نسلم بذلك، لكن فيه أيضًا آية على شيء آخر، وهو رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ بالخلق ونعمته علينا، فالآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا بهذا الفلك، الذي سخره الله عَزَّ وَجَلَّ يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه مصلحتنا، فهو من الآيات الدالة على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى رحمته، وقوله: {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ} [يس: ٤١] هذه الجملة في تأويل مصدر هي المبتدأ يعني (وآية لهم حملنا ذريتهم) قال المصنف: {ذُرِّيَّتَهُمْ} [أي: آباءهم الأصول]، فجعل المراد بالذرية هنا الأصول، يعني الآباء، مع أن المعروف في اللغة العربية، أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} والمصنف رَحِمَهُ اللهُ ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إن الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من ذرا، والذر كائن للأصول والفروع، ثم يقولون أيضًا: إن سياق الآية يدل على ذلك {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا

=

=

ذُرِّيَّتَهُمْ} لأن ذريتهم الصغار الموجودون معهم إذا حملوا هم، فسيحملون معهم في الفلك، وإن كان المراد بالذرية من يأتي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟ إذن يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول، لأن الصغار المشهودون حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم، والصغار غير المشهودين، الذين يأتون فيما بعد، لا يكونون آية لمن لم يشاهدها، فتعين أن يكون المراد بالذرية الآباء.

وهذا الذي ذهب إليه المصنف -رحمه الله تعالى- يوافق ظاهر الآية، لكنه يخالف ما كان معهودًا في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالضمير هنا الجنس لا العين، والمعنى {ذُرِّيَّتَهُمْ} أي: ذرية جنسهم، كنوح عليه الصلاة والسلام، من جنسنا آدمي بشر، فحمل الله ذريته في الفلك المشحون، قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)} {جَعَلْنَاهُ} أي: جنس الإنسان وليس عينه؛ لأن الذي جعل نطفة ليس آدم الذي خلق من سلالة من طين، ولا يمكن أن يكون نطفة في قرار مكين، بل غيره بلا شك، فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: {ذُرِّيَّتَهُمْ} إلى الموجودين باعتبار الجنس، فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح؛ لأنه بشر وآدمي، وذريته هي المحمولة، فيكون المعنى: أن خلقنا ذريتهم، أي: ذرية جنسهم، وهو نوح عليه الصلاة والسلام حملت ذريته في الفلك المشحون، وخلق لهم من مثله ما يركبون، وهذا قريب جدًّا ولا يخالف ظاهر الآية، ويشير إلى أن هذه السفينة جعلت آية لمن بعد نوح عليه الصلاة والسلام يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥)}. فالمراد بالذرية هنا ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، وأضيفت إلى هؤلاء

=

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢).

{وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْله} أَيْ مِثْل فُلْك نُوح وَهُوَ مَا عَمِلُوهُ عَلَى شَكْله مِنْ السُّفُن الصِّغَار وَالْكِبَار بِتَعْلِيمِ الله تَعَالَى {مَا يركبون} فيه[1].

=

باعتبار الجنس يعني (حملنا الذرية من جنسهم في الفلك المشحون).

وهذا القول هو الذي تطمئن إليه النفس ولا يأباه السياق.

قوله تعالى {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)} أي: سفينة نوح فـ (ال) هنا للعهد الذهني؛ لأنه لم يسبق لها ذكر، وليست للاستغراق؛ لأن المراد بها الفلك واحد، فتكون (ال) هنا للعهد الذهني، يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} والفلك يطلق على الجمع، ويطلق على المفرد، فمن إطلاقه على المفرد هذه الآية، وعلى الجمع مثل قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} أي: الفلك، وهذا الضمير ضمير جمع، ولا يعود للمفرد، ولهذا قال بعض الفقهاء رحمهم الله (إن الأحدب الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع، وهذا كفلك في العربية) لا يدري هل هو جمع، أو مفرد إلا بالنية، فالأحدب المقوس الظهر يركع بالنية ينوي الركوع، لأنه ما زال راكعًا أحدب، {الْمَشْحُونِ} أي: المملوء بأناس من البشر الذي آمنوا مع نوح وما آمن معه إلا قليل، مملوء ببقية الحيوانات؛ لأن الله قال فيه: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}.

(١) قوله تعالى: {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)} [يس:٤٢].

قال الطبري: يقول:"وخلقنا لهؤلاء المشركين المكذبيك يا محمد، تفضلا منا عليهم، من مثل ذلك الفلك الذي كنا حملنا من ذرية آدم من حملنا فيه الذي يركبونه من المراكب".

وذكر أهل التفسير في قوله تعالى: {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [يس:٤٢]،

=

=

وجوها:

أحدها: أنه خلق مثل سفينة نوح مما يركبونها من السفن، قاله ابن عباس -في رواية-.

وقال الضحاك: "يعني: السفن التي اتخذت بعدها، يعني بعد سفينة نوح".

وقال قتادة: "هي السفن التي ينتفع بها".

قال ابن زيد: "وهي هذه الفلك".

قال الزجاج: "الأكثر في التفسير أن {مِنْ مِثْلِه}: من مثل سفينة نوح".

الثاني: أنها السفن الصغار خلقها لهم مثل السفن الكبار، قاله الحسن -في رواية-، وأبو مالك، وأبو صالح.

قال أبو مالك: "ألا ترى أنه قال: {وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم}؟ ".

قال الفراء: "هي الزواريق وأشباهها مما يَركب فِيهِ الناس".

الثالث: أنها سفن الأنهار خلقها لهم مثل سفن البحار، قاله السدي.

الرابع: أنها الإبل، خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر، قاله ابن عباس في رواية أخرى-، والحسن -في رواية أخرى-، وعبد الله بن شداد، وعكرمة، ويحيى بن سلام.

وقال مجاهد: "يعني: من الأنعام ما يركبون".

والعرب تشبه الإبل بالسفن، قال طرفة:

كأنَّ حُدُوجَ المالِكِيَّةِ غُدوةً... خَلايا سَفينٍ بالنَّواصِفِ مِن دَدِ

قال ابن عباس: "يعني: الإبل، خلقها الله كما رأيت، فهي سفن البر، يحملون عليها ويركبونها".

الخامس: يريد: الإبل وسائر ما يركب، فتكون المماثلة في أنه مركوب مبلغ إلى الأقطار فقط. وهذا قول ابن عطية.

=

=

وقال ابن عطية: "ويعود قوله: {إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُم} على السفن الموجودة في الناس، وأما من خلط القولين فجعل الذرية في الفلك في قوم نوح في سفينة وجعل مِنْ مِثْلِهِ في الإبل فإن هذا نظر فاسد يقطع به قوله تعالى: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ}، فتأمله! ".

قال الطبري: الصواب " عني بذلك السفن، وذلك لدلالة قوله: {وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم} على أن ذلك كذلك، وذلك أن الغرق معلوم أن لا يكون إلا في الماء، ولا غرق في البر".

وحكي الماوردي: "أن يكون تأويله: النساء خلقن لركوب الأزواج، وقال: لكن لم أره محكيًا".

قال تاج القراء برهان الدين الكرماني: "يريد السفن، مثل سفينة نوح. وقيل: الصغار منها مثل سفن الأنهار.

الغريب: هو الإبل، وإنها سفن البر. ويدفع هذا قوله ﷻ: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ}.

العجيب: قال أقضى القضاة: يجوز أن يكون ما يركبون النساء؛ لأنهن خلقهن لركوب الأزواج. قال: وقلت: هذا على وزن قول علي - كرم الله وجهه - ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [أي: مثل فلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله تعالى {يَرْكَبُونَ (٤٢)} فيه] يذكرهم الله ﷻ:

أولًا: بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذرية نوح عليه الصلاة والسلام.

وثانيًا: بأن الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفلك ما يركبون، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥)} فالناس تعلموا كيف يصنعون السفن، وصاروا يصنعون مثل هذه السفن، ولعل قوله تعالى في سورة القمر: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)} فيها الإشارة إلى مواد هذه السفينة، أو الفلك

=

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣).

{وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقهُمْ} مَعَ إِيجَاد السُّفُن {فَلَا صَرِيخ} مُغِيث {لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ} يَنْجُونَ.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤).

{إِلَّا رَحْمَة مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِين} أَيْ لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا رَحْمَتنَا لَهُمْ وَتَمْتِيعنَا إِيَّاهُمْ بِلَذَّاتِهِمْ إِلَى انْقِضَاء آجَالهمْ(١).

=

لأجل أن يتعلم الناس، لأنه لم يقل (حملناه على فلك) بل قال: {عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} كأنه يقول: إن هذه الفلك مصنوعة من الألواح والمسامير، حتى يتعلم الناس مواد هذه الفلك. {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)} {مِنْ مِثْلِهِ} المراد بمثله هنا الجنس، وليس المراد المماثلة من كل وجه، وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون متعذرة، لكن يكفي الجنس، أما النوع فيختلف باختلاف الأعصار، فلكل عصر نوع سفنه، وما زالت ترتقي السفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر، قال المصنف -رحمه الله تعالى-: [بتعليم الله تعالى] إشارة إلى سؤال مقدر كأنه قال: كيف قال الله {وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ}؟ وهذه السفن مصنوعة بأيدي البشر وليست بخلق الله كخلق البعير التي نركب والفرس وما شابهها؟ فأجاب المصنف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه لأنها كانت بتعليمه سبحانه وتعالى.

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ} [يس:٤٣].

قال الطبري: يقول:"وإن نشأ نغرق هؤلاء المشركين إذا ركبوا الفلك في البحر".

قوله تعالى: {فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ} [يس:٤٣]، أي:"فلا يجدون مغيثًا لهم من غرقهم".

=

=

قال الطبري:"يقول: فلا مغيث لهم إذا نحن غرقناهم يغيثهم، فينجيهم من الغرق".

قال الزجاج:"أي: فلا مُغِيثَ لهم".

قال ابن كثير:"يعني: الذين في السفن، فلا مغيث لهم مما هم فيه ".

قال مجاهد:"لا مغيث لهم يستغيثون".

قال قتادة:"لا مُغيث لهم".

قوله تعالى: {وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ} [يس:٤٣]، أي:"ولا هم يخلصون من الغرق".

قال الطبري:"يقول: ولا هو ينقذهم من الغرق شيء إن نحن أغرقناهم في البحر".

قوله تعالى: {إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [يس:٤٤].

قوله تعالى: {إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا} [يس:٤٤]، أي:"لا ينقذهم أحد إلا نحن لأجل رحمتنا إياهم".

قال الطبري: يقول: "إلا أن ننقذهم نحن رحمة منا لهم، فننجيهم منه".

قال مقاتل:"إلا نعمة منا حين لا نغرقهم".

قال ابن كثير:"هذا استثناء منقطع، تقديره: ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر".

قوله تعالى: {وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [يس:٤٤]، أي:"وتمتيعنا لهم إلى انقضاء آجالهم، لعلهم يرجعون ويستدركون ما فرَّطوا فيه".

قال الطبري:"يقول: ولنمتعهم إلى أجل هم بالغوه، فكأنه قال: ولا هم ينقذون، إلا أن نرحمهم فنمتعهم إلى أجل".

قال ابن كثير:"أي: إلى وقت معلوم عند الله ".

قال مقاتل:"وبلاغا إلى آجالهم".

=

=

عن قتادة: " {ومتاعا إلى حين}، أي: إلى الموت".

قال يحيى:"فبرحمته يمتعهم إلى يوم القيامة ولم يهلكهم بعذاب الاستئصال، وسيهلك كفار آخر هذه الأمة بالنفخة الأولى".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)} في الآية جملة شرطية فعل الشرط فيها {نَشَأْ} وجوابه {نُغْرِقْهُمْ} وفيها أيضًا استثناء مفرغ من أعم الأحوال وهو قوله: {إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا} وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرحمة التي من الله ﷻ، يقول الله ﷻ: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ} يعني إذا ركبوا السفن، والأمر كذلك قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤)}.

فحذر الله ﷻ من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الريح فتبقى راكدة على ظهرها، وإما أن يغرقها وهنا يقول: {وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ} وهم في سفنهم {فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ} الصريخ بمعنى المغيث، وسمي المغيث صريخًا؛ لأن عادة الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث، ومنه حديث غزوة بدر أن أبا سفيان بعث صارخًا إلى أهل مكة يستغيثهم {وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣)} أي: لا أحد يغيثهم، ولا أحد ينقذهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يغرقهم {إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)} أي لا ينجيهم أحد إلا رحمة الله ﷻ، والاستثناء هنا قيل: إنه منقطع؛ لأن قوله: {وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا} بمعنى: لكن رحمة منا ينجون وينقذون، وقوله: {وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)} أي أنهم يمتعون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدرًا، أي لا ينجيهم إلا رحمتنا لهم، وتمتيعنا إياهم بلذاتهم إلى انقضاءآجالهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥).

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْن أَيْدِيكُمْ} مِنْ عَذَاب الدُّنْيَا كَغَيْرِهِمْ {وَمَا خَلْفكُمْ} مِنْ عذاب الآخرة {لعلكم ترحمون} أعرضوا[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ} [يس:٤٥]، أي:"وإذا قيل للمشركين: احذروا أمر الآخرة وأهوالها وأحوال الدنيا وعقابها".

قال الطبري: يقول:"وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله، المكذبين رسوله محمدا ﷺ: احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله ومثلاته بمن حل ذلك به من الأمم قبلكم أن يحل مثله بكم بشرككم وتكذيبكم رسوله، واحذروا ما بعد هلاككم مما أنتم لاقوه إن هلكتم على كفركم الذي أنتم عليه ".

قال السدي: " {اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم}: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة".

عن قتادة، قوله: " {وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم}: وقائع الله فيمن خلا قبلهم من الأمم وما خلفهم من أمر الساعة".

عن مجاهد، قوله: " {ما بين أيديكم}، قال: ما مضى من ذنوبهم".

وقال الكلبي: {ما بين أيديكم}: من أمر الآخرة، اتقوها واعملوا لها، {وما خلفكم}: الدنيا إذا كنتم في الآخرة، فلا تغتروا بالدنيا، فإنكم تأتون الآخرة".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [يس:٤٥]، أي:"رجاء رحمة الله لكم".

قال الطبري:"يقول: ليرحمكم ربكم إن أنتم حذرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم من فرائضه".

قال ابن كثير:"أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه: أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ} ".

=

=

فإن قال قائل: وأين جواب قوله: {وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم}؟

قيل: جوابه وجواب قوله {وما تأتيهم من آية من آيات ربهم}... قوله: {إلا كانوا عنها معرضين}، لأن الإعراض منهم كان عن كل آية لله، فاكتفي بالجواب عن قوله {اتقوا ما بين أيديكم} وعن قوله {وما تأتيهم من آية} بالخبر عن إعراضهم عنها لذلك، لأن معنى الكلام: وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا، وإذا أتتهم آية أعرضوا.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)} قال المصنف: [من عذاب هم الدنيا كغيرهم {وَمَا خَلْفَكُمْ} من عذاب الآخرة {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)} أعرضوا]، قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} هذه الجملة شرطية، فعل الشرط فيها {قِيلَ} وجوابه محذوف، قدره المصنف بقوله: (أعرضوا) وهذا التقدير لا شك أنه التماس من المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وإلا فقد يكون الأمر أوسع مما قال المصنف، وحذف مثل هذا فيه من البلاغة أن الذهن يقدر كل ما يمكن أن يقدره مما يترتب على هذا القول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الناس إذا قيل لهم: {اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ} تختلف إجاباتهم منهم من يعرض ويسكت، ومنهم من يستكبر ويسب، ومنهم من يقاتل: إلى غير ذلك من الأمور التي لا تخفى، فكان في حذف هذا من البلاغة ما هو ظاهر ليذهب الذهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف، وقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} القائل هنا مبهم، لأن الفعل مبني للمجهول، ليشمل أي واحد يقول، سواء كان من قول الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، أو كان من قول الرسول ﷺ في سنته، أو كان من قول الدعاة بعد ذلك {لَهُمُ اتَّقُوا} أي: الكفار. {مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ} قال المصنف: [من عذاب همّ الدنيا] ولكن الهم ليس هو العذاب فقط، فإن الله

=

=

سبحانه وتعالى قد يعذب الكافر في الدنيا كما عذب الأمم السابقة، وكما عذب هذه الأمة أيضًا لكن عذاب هذه الأمة يكون بابتلاء بعضهم ببعض {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)} كانت هذه في غزوة بدر حين قتل صناديد قريش، فسماها الله سبحانه وتعالى البطشة الكبرى، أما الأمم السابقة فعقوباتهم معروفة، فهنا {اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ} من عذاب الدنيا العذاب المتنوع، سواء كان بأيدي المؤمنين، أو كان من فعل الله ﷻ، كالقحط والزلازل والغرق وغير ذلك {وَمَا خَلْفَكُمْ} من أمر الآخرة، وعذاب الآخرة أشق، وأشد، وأبقى.

قد يقول قائل: لو كان الأمر في التفسير بالعكس لكان أقرب إلى الصواب، {مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ} أي: من عذاب الآخرة؛ لأنه مستقبل {وَمَا خَلْفَكُمْ} أي: من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يخلفها الإنسان وراءه.

ولكن يجاب عن هذا: بأن الذي بين أيديهم حقيقة هي الدنيا، وأما خلفهم فإن الخلف هو الوراء قد يطلق بمعنى الأمام، ومنه قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)} قال العلماء: معناه: أمامهم. وكقوله تعالى: {وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)} أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ {مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ} المعاصي التي في مستقبلهم ويخشى أن يفعلوها {وَمَا خَلْفَكُمْ} المعاصي الماضية فيجعلون المراد بما بين أيديهم وما خلفهم من الأعمال لا من عذاب الله، وقد سبق أن قلنا: إن الآية إذا كانت تحتمل المعاني المقولة فيها بدون تعارض فإنها تحمل على الجميع. وقوله: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)} لعل هنا للتعليل، أي: لأجل أن يرحمهم الله ﷻ إذا قيل لهم هذا الشيء، فجمع لهم بين الترغيب والترهيب، الترغيب بقوله: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)} والترهيب في قوله: {اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُم} فهؤلاء

=

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦).

{وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين}[1].

=

جمع لهم بين الترغيب والترهيب ومع ذلك لا يستجيبون، بل يعرضون ويستكبرون ويسخرون، ويقولون: هذا أساطير الأولين، وما أشبه ذلك مما هو معروف عن هؤلاء إذا دعوا إلى الله تعالى.

(١) قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)} [يس:٤٦].

قال الطبري:"وما تجيء هؤلاء المشركين من قريش آية، يعني حجة من حجج الله، وعلامة من علاماته على حقيقة توحيده، وتصديق رسوله، إلا كانوا عنها معرضين، لا يتفكرون فيها، ولا يتدبرونها، فيعلموا بها ما احتج الله عليهم بها".

قال ابن كثير:" {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ} أي: على التوحيد وصدق الرسل {إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها".

قال السمعاني:"أي: معرضين بالجحد والتكذيب".

قال مقاتل:"فلا يتفكروا".

قال الزمخشري: اي:"دأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة".

قال قتادة:"يقول: ما تأتيهم من شيء من كتاب الله إلا أعرضوا عنه".

عن الحسن، قوله: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ}، قال:"ما يأتيهم من رسول".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)} {وَمَا تَأْتِيهِمْ} الضمير يعود هنا على المكذبين للرسل، {مِنْ}، مهو هنا زائدة لفظًا، وزائدة في المعنى، أي: تعطيه معنى جديدًا، والمعنى الجديد تأكيد النفي والتنصيص على عمومه، أي: أي آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها، بل

=

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧).

{وَإِذَا قِيلَ} أَيْ قَالَ فُقَرَاء الصَّحَابَة {لَهُمْ أَنْفِقُوا} عَلَيْنَا {مِمَّا رَزَقَكُمْ الله} مِنْ الْأَمْوَال {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} اسْتِهْزَاء بِهِمْ {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاء الله

=

يعرضون عنها ويستكبرون، والآيات التي تأتي من الله ﷻ تنقسم إلى قسمين:

الأول: آيات كونية.

الثاني: آيات شرعية.

فالآيات الشرعية ما جاءت به الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، والإعراض عنها يكون بالتكذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراض عنها أنه لا يهتم بها، وأن لا تحرك منه ساكنًا، وأن لا يوجل منها قلبه، وأن يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤)} أو كالذين يقولون: إن الكسوف ليس أمرًا مخيفًا، لأنه شيئًا طبيعيًّا، ولا ينبغي أن يخيف -نسأل الله العافية-، أو كالذين يرون الزلازل، والغرق، والدمار من الرياح العاتية وغيرها، ثم يقولون: هذا أمر طبيعي، ولا يحرك له ساكنًا، ولا ريب أن هذا يدل على قسوة القلوب وموتها، وإلا فإن الواجب على الإنسان أن يتعظ بهذه الآيات، فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدم المبالاة بها، وعدم الاكتراث بها، وأن لا تحرك من الإنسان ساكنًا، ولا تهز له عاطفة {إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)} أي: إلا قابلوها بالإعراض، ولا يتأملونها، ولا يفكرون فيها، فإذا جاءت الآيات الشرعية في خبر كذبوها، وقالوا: هذا كذب، هذا سحر، هذا شعر، وإذا جاءت الأحكام الشرعية استكبروا عنها، ولم يذعنوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكترثون بها ولا يهتمون بها.

أَطْعَمَهُ} فِي مُعْتَقِدكُمْ هَذَا {إنْ} مَا {أَنْتُمْ} فِي قَوْلكُمْ لَنَا ذَلِكَ مَعَ مُعْتَقِدكُمْ هَذَا {إلَّا فِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن وَلِلتَّصْرِيحِ بِكُفْرِهِمْ مَوْقِع عَظِيم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن الكلبي؛ قال: نزلت في الزنادقة.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٤٤) عن معمر عنه به. والكلبي كذاب.

* قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} [يس:٤٧]، أي:"وإذا قيل للكافرين: أنفقوا من الرزق الذي مَنَّ به الله عليكم".

قال الطبري: يقول:"وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله: أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم، فأدوا منه ما فرض الله عليكم فيه لأهل حاجتكم ومسكنتكم".

قال يحيى:"وهذا تطوع".

قوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ} [يس:٤٧]، أي:"قال الكفار للمؤمنين مُحْتجِّين: أنطعم من لو شاء الله أطعمه؟ ".

قال الطبري: يقول:"قال الذين أنكروا وحدانية الله، وعبدوا من دونه للذين آمنوا بالله ورسوله: أنطعم أموالنا وطعامنا من لو يشاء الله أطعمه".

قال الحسن:"اليهود تقوله".

قال الزجاج:"كأنهم يقولون هذا على حد الاستهزاء. وجاء في التفسير أنها نزلت في الزنادقة، وقيل في قوم من اليهود".

قال ابن فورك: معناه:"أنهم يوهمون أن الله لما كان قادرا على إطعامه وليس يشاء إطعامه فنحن أحق بذلك، وذهب عليهم موضع التعبد في تكليف الإطعام".

قال الزمخشري:"كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا، ولو شاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا، =

=

فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله، لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع".

وذكر القتيبي في كتاب «المعارف»: "أن أبا الأسود الدؤلي كان من خلقه أغناهم، فهذا حجة البخلاء في البخل، وهي حجة باطلة؛ لأن الله تعالى منع الدنيا من الفقراء لا بخلا ولكن ابتلاء، وأمر الأغنياء بالإنفاق لا بحكم الحاجة إلى أموالهم لكن ابتلاء شكرهم".

قوله تعالى: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يس:٤٧]، أي:"ما أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال ظاهر واضح حيث تأمروننا أن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله".

قال السمعاني:"أي: في خطأ بين".

قال الزمخشري:" {إن أنتم إلا في ضلال مبين}: قول الله لهم. أو حكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين".

وفي قوله تعالى: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [يس:٤٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أن يكون من قيل الكفار للمؤمنين، والمعنى: ما أنتم أيها القوم في قيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم، إلا في ذهاب عن الحق، وجور عن الرشد مبين لمن تأمله وتدبره، أنه في ضلال.

قال الطبري:"وهذا أولى وجهيه بتأويله".

الثاني: أن يكون ذلك من قيل الله للمشركين، فيكون تأويله حينئذ: ما أنتم أيها الكافرون في قيلكم للمؤمنين: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، إلا في ضلال مبين، عن أن قيلكم ذلك لهم ضلال.

قال يحيى:"يقوله المشركون للمؤمنين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} قال المصنف: [أي قال فقراء

=

=

الصحابة: أنفقوا علينا مما رزقكم الله من الأموال]، هكذا سار المصنف في تفسير الآية فجعل القائل هم الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفقراء من الأغنياء أن ينفقوا، أي: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن ينفقوا تهكموا بهم، وقالوا: كيف نطعمكم، والله تعالى لم يشأ أن نطعمكم، ولو شاء أن نطعمكم لأعطيناكم بدون سؤال، هذا توجيه الآية على ما مشى عليه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لكن الذي ينبغي أن نجعل الآية عامة؛ لأنه أبهم فيها الفاعل، وإبهام الفاعل يراد به في بعض الأحيان التعميم، فـ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} أي: إذا قال لهم أحد من الناس، سواء كان الفقراء يسألونهم الإنفاق، أو كانوا الأغنياء يحثونهم على الإنفاق، لأن الأغنياء من الصحابة رضي الله عنهم مثلًا ينفقون فيحثون الأغنياء من الكفار على أن ينفقوا أيضًا، فالصواب أن نبقي الآية على إبهامها ليكون أعم، وقوله: {أَنْفِقُوا} الإنفاق بمعنى البذل والإعطاء وقوله: {مِمَّا رَزَقَكُمُ} أي مما أعطاكم الله، وفي قوله: {مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} دون قول: (أنفقوا من أموالكم) فيه تنبيه على أن هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع، ولكنه من رزق الله تعالى، فكان عليكم أن تنفقوا من هذا الذي رزقكم الله، لأن الله يأمركم به، فالذي أمركم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال، فكيف تنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تنفقون؟! هذه هي الفائدة من قوله: {مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ} فما كان الجواب: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ} قوله: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ...} اللام هذا الأصح أن المراد بها الصلة، يعني قالوا قولًا يصل للذين آمنوا، والذين آمنوا هم الذين قالوا لهم أنفقوا مما رزقكم الله {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} قال المصنف [استهزاء بهم] يحتمل ما ذكره المصنف أنه استهزاء، ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عنادًا وتبجحًا يقولون: {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ} و {مَنْ} هنا بمعنى الذي، ويجوز أن تكون نكرة

=

موصوفة، أي: نطعم أحدًا لو يشاء الله أطعمه من دوننا، أو أنطعم الذي لو يشاء الله أطعمهم، و {لَوْ} هنا حرف امتناع الامتناع، وشرطها قوله: {يَشَاءُ} وجوابها: {أَطْعَمَهُ} وقد أتت على خلاف الأكثر حيث حذفت اللام من الجواب، والأصل (من لو يشاء الله لأطعمه) فإن جواب (لو) إذا كان مثبتًا فالأكثر فيه إثبات اللام، وقد تحذف اللام، وقد اجتمع الأمران في قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)} ثم قال: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)} فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السابقة، وحذفت من الآية الثانية، وهذه الآية من سورة يس من باب محذوف اللام {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ} قال المصنف: إنهم يقولون ذلك [استهزاء بهم] يعني: أنطعم قومًا لو شاء الله أطعمهم، فإطعامهم إلى الله، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: يحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فرارًا من اللوم، يعني: أنطعم قومًا أن لو يشاء الله أطعمهم فأطعمناهم، ولكن الله تعالى لم يشاء أن نطعمهم فلا نطعمهم.

الوجه الثالث: يحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضًا على القدر، كما يقوله الاشتراكيون والشيوعيون، أي: لماذا يجعل الله هذا فقيرًا، ولا يعطه، فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله، ويقولون: الذي يطعمهم، والمسؤول عنهم هو الله، وكان على الله أن يطعمهم، لكن لم يشأ ذلك، فيكون في هذا نوع من الاعتراض على القدر.

فهذه ثلاثة أوجه:

الأول: الاستهزاء.

=

الثاني: الاحتجاج بالقدر.

الثالث: الاعتراض على القدر.

ثم قالوا: {إِنْ أَنْتُمْ} قال المصنف: [أي: في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا {إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)} بين] يعني هؤلاء الكفار الذين أمروا أن ينفقوا على الفقراء، يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقد أن الله لو شاء أطعمهم فيقول: نعم أعتقد ذلك، فيقولون: إذن كيف تأمرنا أن نطعمهم، والأمر بمشيئة الله ما أنت إلا في ضلال مبين وقوله: {إِنْ أَنْتُمْ} {إِنْ} هنا نافية، لوجود (إلا) بعدها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إن) فهي دليل على (إن) نافية و (إن) ترد في اللغة العربية على أربعة أوجه هي:

الأول: تأتي زائدة، ومثاله قول الشاعر:

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ... ولا صريف ولكن أنتم الخزف

الثاني: تأتي شرطية، مثاله: {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا}.

الثالث: تأتي نافية، مثاله: {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧)}.

الرابع: مخففة من الثقيلة، مثاله قول الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن.

وقال المصنف: [مبين أي: بيّن] فهي من أبان القاصر، وأبان تأتي متعدية، ولازمة، فيقال: أبان الشيء، أي: أظهره، ويقال: أبان الصبح، أي: ظهر، إذن {مُبِينٍ} من الرباعي من أبان، يبين، فهو مبين ويحتمل أن تكون بمعنى (بين) على أنها من القاصر.

ويحتمل في غير هذا السياق أن تكون بمعنى (أبان) مثل {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١)} ليس المعنى: وقرآن بين، بل وقرآن مبين للحق.

قال المصنف: [وللتصريح بكفرهم موقع عظيم] أي في قول الله تعالى: {وَإِذَا

=

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨).

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْد} بِالْبَعْثِ {إِنْ كُنْتُمْ صادقين} فيه(١).

=

قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} ولم يقل: (قالوا) بل قال: {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا} فله موقع عظيم لأنه:

أولًا: التصريح بكفر هؤلاء، لو قال (قالوا) لقلنا لعلهم قالوا ذلك ليس بسبب الكفر، ولكن بسبب البخل، هذه فائدة، أن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم.

الفائدة الثانية: أن مثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر، فيكون الكفر عامًّا لكل من قال هذه المقالة.

وقد مر علينا فيما سبق أن الإظهار في موضع الإضمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: التصريح بالحكم على هؤلاء الذين يرجع إليهم الضمير.

الفائدة الثانية: أن من قال بمثل هذا فهو كافر، أو ظالم حسب السياق.

الفائدة الثالثة: العلة، وأن هذا القول سببه كذا وكذا حسب ما يوصف.

{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا} اللام بمعنى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا: يعني قالوا في حق الذين أمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون {أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ}.

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)} [يس:٤٨].

قال الطبري:"ويقول هؤلاء المشركون المكذبون وعيد الله، والبعث بعد الممات، يستعجلون ربهم بالعذاب {متى هذا} الوعد بقيام الساعة {إن كنتم صادقين} أيها القوم، وهذا قولهم لأهل الإيمان بالله ورسوله".

قال يحيى:"{ويقولون متى هذا الوعد}، أي: هذا العذاب، {إن كنتم صادقين} يكذبون به".

=

=

قال السمعاني:"أي: وعد القيامة".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ؟ {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨] ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)} أي يقول الكفار المكذبون بوعد الله ﷻ ومنه القيامة {مَتَى} هنا استفهام استبعاد وتحدي، أي: يقولون مستبعدين هذا الأمر متحدين من يقوله {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)}، و {مَتَى} خبر مقدم و {هَذَا} مبتدأ مؤخر؛ وذلك لأن {مَتَى} واقعة موقع النكرة و {هَذَا الْوَعْدُ} معرفة، والمعهود أن المعرفة هي المبتدأ، والخبر يكون نكرة، وقد يكون معرفة، لكن إذا وجد نكرة ومعرفة، وأمكن أن تكون المعرفة للمبتدأ فهي المبتدأ؛ لأن المبتدأ محكوم عليه فلابد أن يكون معرفة، والمعرفة تعين المدلول وتخصصه، فلابد أن يكون المحكوم عليه معلومًا، ولهذا قال العلماء في هذه القاعدة: (إذا وجدت كلمتان إحداهما معرفة والأخرى نكرة، وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتدأ فلتكن هي المبتدأ)، وتعليل ذلك أن المبتدأ محكوم عليه، فلابد أن يكون معلومًا متعينًا يقول: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)} أي: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)} بأننا نبعث فمتى يكون، ولا شك أن هذه الشبهة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يعينوه بيوم معين، وانظر إلى حجتهم في آية أخرى تكن أبين {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)} وهل الذين قالوا: إنهم يبعثون قالوا يبعثون في الدنيا حتى يقولوا: ائتوا بآبائنا، وإنما قالوا ستبعثون يوم القيامة، وقولهم: (ائتوا بآبائنا) أي: ابعثوهم لنا، هذا التحدي في غير محله، لأنه ما قيل لهم: إنكم ستبعثون في الدنيا، بل في يوم القيامة، وهنا يقولون:

=

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩).

قال تعالى {مَا يَنْظُرُونَ} أَيْ يَنْتَظِرُونَ {إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة} وَهِيَ نَفْخَة إِسْرَافِيل الْأُولَى {تَأْخُذهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} بِالتَّشْدِيدِ أَصْله يَخْتَصِمُونَ نُقِلَتْ حَرَكَة التَّاء إِلَى الْخَاء وَأُدْغِمَتْ فِي الصَّاد أَيْ وَهُمْ فِي غَفْلَة عَنْهَا بِتَخَاصُمٍ وَتَبَايُع وَأَكْل وَشُرْب وَغَيْر ذَلِكَ وَفِي قِرَاءَة يَخْصِمُونَ كَيَضْرِبُونَ أَيْ يَخْصِم بعضهم بعضا[1].

=

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)}. الجواب: ذكر الله تعالى هذا في القرآن: {قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} فالوعد لم يحن وقته بعد، انتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

(١) قوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ} [يس:٤٩].

قال الطبري: يقول:"ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله إياهم، إلا صيحة واحدة تأخذهم، وذلك نفخة الفزع عند قيام الساعة".

قال يحيى بن سلام:"ما ينظر كفار آخر هذه الأمة الدائنين بدين أبي جهل وأصحابه، {إلا صيحة واحدة}، يعني: النفخة الأولى من إسرافيل، -وهو تفسير السدي- بها يكون هلاكهم".

قال ابن كثير:"أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر

الله تعالى إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يُطَوِّلُها ويَمُدُّها، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتًا، ورفع ليتًا - وهي صفحة العنق - يتسمع الصوت من قبل السماء. ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار، تحيط بهم من

=

=

جوانبهم".

قال قتادة:"قضى الله ألا تأتيكم الساعة إلا بغتة".

عن ابن زيد، قوله: " {ما ينظرون إلا صيحة واحدة}، قال: النفخة نفخة واحدة".

وقال ابن زيد:"هذا مبتدأ يوم القيامة، وقرأ {فلا يستطيعون توصية}، حتى بلغ: {إلى ربهم ينسلون} ".

قوله تعالى: {وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} [يس:٤٩]، أي:"وهم يختصمون في شؤون حياتهم".

قال يحيى:"في أسواقهم، يتبايعون، يذرعون الثياب ويخفض أحدهم ميزانه ويرفعه، ويحلبون اللقاح وغير ذلك من حوائجهم".

عن السدي:"{وهم يخصمون}، قال: يتكلمون".

قال الزجاج:"وقرئت: «يختصمون»، وهي جيدة أيضا ومعناها يأخذهم وبعضهم يخصم بعضا، ويجوز أن يكون تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون في الحجة في أنهم لا يبعثون، فتقوم الساعة وهم متشاغلون في متصرفاتهم".

عن عبد الله بن عمرو قال: "لينفخن في الصور وإن الناس لفي طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، وحتى إن الرجل ليساوم الرجل بالثوب والثوب بينهما في يد هذا وهذا فلا يدعانه حتى يصعق بهما، وحتى إن الرجل ليغدو من بيته وما يرجع حتى يصعق به، وتلا هذه الآية: {فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون} ".

عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ، قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلط في حوضه، فما يصدر حتى تقوم».

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)} قال المصنف: [{مَا يَنْظُرُونَ} أي: ينتظرون {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} وهي نفخة إسرافيل الأولى] (نظر) تستعمل متعدية بنفسها، بمعنى الانتظار مثل: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ} ولها أمثلة كثيرة، وأن تعدت بـ (في) صار المراد بها نظر الفكر تقول: (نظر في كذا) أي: فكر فيه وتأمله، وإذا تعدت بـ (إلى) فهي النظم بالعين تقول: (نظرت إليه)، ومنه قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)} {صَيْحَةً} يعني يصاح بهم، وذلك بالنفخة الأولى في الصور؛ لأن هذه النفخة يكون لها صوت عظيم مزعج يفزع الخلائق، قال الله تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ} فكل الخلائق تفزع إلا ما شاء الله ﷻ، فيفزعون فزعًا شديدًا يؤدي إلى صعق إلى الموت وحينئذ تكون نفخة واحدة فيها فزع، وفيها صعقة {تَأْخُذُهُمْ} أي: تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تمهلهم ولا تنظرهم {وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتشديد، أصله يختصمون نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت في الصاد، أي: وهم غفلة عنها بتخاصم وتبايع، وأكل وشرب وغير ذلك، وفي قراءة (يَخْصِمون) كيضربون أي: يخصم بعضهم بعضًا].

القراءات التي ذكر المصنف قراءتان فقط، يقول: بالتشديد أصله يختصمون، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وحركة التاء هي الفتحة، وأدغمت التاء بالصاد فصارت على هذه القراءة (يَخْصِمُونَ)، والقراءة التي في المصحف {وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)} بكسر الخاء، والقراءة الثالثة (يَخْصِمُونَ)، كيضربون، والقراءة الرابعة التي أشار إليها الجمل في حاشيته هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة خالصة، ولا مكسورة خالصة وإنما تختلس الفتحة، فتكون بين الفتحة والكسرة، هذه

=

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠).

{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} أَيْ أَنْ يُوصُوا {وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ بَلْ يموتون فيها.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١).

{وَنُفِخَ فِي الصُّور} هُوَ قَرْن النَّفْخَة الثَّانِيَة لِلْبَعْثِ وَبَيْن النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَة {فَإِذَا هُمْ} أَيْ الْمَقْبُورُونَ {مِنْ الْأَجْدَاث} الْقُبُور {إِلَى رَبّهمْ يَنْسِلُونَ}

=

القراءة الرابعة، والثالثة التي في المصحف لم يشر إليها المفسر، ووجه المحشي القراءة الموجودة في المصحف {يَخِصِّمُونَ (٤٩)} بأن الحركة أزيلت من التاء، فصارت ساكنة، فلما صارت ساكنة حركت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل، فالمهم يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أي: وهم في غفلة عنها بتخاصم وتبايع وأكل وشرب وغير ذلك.

فالصيحة إذن أخذتهم على غرة، وهم غافلون عنها، لاهون بأمورهم ودنياهم، يتخاصم بعضهم مع بعض، وهذا يدل على عدم ائتلاف قلوبهم في تلك الساعة، وأنهم من جنس البهائم، ولهذا لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، ولم يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ سوى التخاصم كأن أكثر ما هم عليه في ذلك الوقت هو التخاصم والتباغض والتدابر، لأنهم ليس عندهم إيمان، فهم شرار الخلق في معاملة الله، وشرار الخلق في التعامل فيما بينهم، وفي قراءة (يَخْصِمُونَ) كيضربون، أي يخصم بعضهم بعضًا، فيكون الظهور للغالب في الخصومة لا للحق، لأنهم في هرج ومرج، وليس عندهم إيمان، ولا مروة، ولا خلق، هم شرار الخلق، فكانت هذه -والعياذ بالله- حالهم عند قيام الساعة.

يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} [يس:٥٠].
قال يحيى بن سلام:"أن يوصوا".
قال ابن كثير:"أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك".
قال الطبري: يقول:"فلا يستطيع هؤلاء المشركون عند النفخ في الصور أن يوصوا في أموالهم أحدا".
قال الزجاج:"لا يستطيع أحد أن يوصي في شيء من أمره".
عن قتادة: " {فلا يستطيعون توصية}، أي: فيما في أيديهم".
قوله تعالى: {وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} [يس:٥٠]، أي:"ولا يستطيعون الرجوع إلى أهلهم، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم".
قال يحيى:"من أسواقهم وحيث كانوا".
قال الطبري: " يقول: ولا يستطيع من كان منهم خارجا عن أهله أن يرجع إليهم، لأنهم لا يمهلون بذلك. ولكن يعجلون بالهلاك".
قال الزجاج:"لا يلبث إلى أن يصير إلى أهله ومنزله. يموت في مكانه".
عن قتادة: " {ولا إلى أهلهم يرجعون}، قال: أعجلوا عن ذلك".
قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [يس:٥١].
قال يحيى:"وهذه النفخة الآخرة، والصور قرن".
قال الطبري:"يعنى بهذه النفخة، نفخة البعث".
عن ابن عمر، قال:"جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه» ".
عن قتادة:"{ونفخ في الصور}: في الخلق".
عن مجاهد:"{ونفخ في الصور}، قال: كهيئة البوق".
=

=

عن مجاهد: " {الصور}: البوق".
قال مجاهد:"هو القرن، صاحبه آخذ به، فقبض مجاهد قبضتين بكفيه على طف القرن، بين طرفيه، وبين قدر قبضة أو نحوها قد برك على ركبة إحدى رجليه، فأشار فبرك على ركبة يسراه مقعيا على قدمي عقبه تحت فخذه وإليته وأطراف أصابعه في التراب، قد نصب ركبته اليمنى ووضع قدمها في التراب".
قال الطبري:"{مِنَ الْأَجْدَاثِ} يعني: من أجداثهم، وهي قبورهم، واحدها: «جدث»، {إلى ربهم ينسلون}، يقول: إلى ربهم يخرجون سراعا، والنسلان: الإسراع في المشي".
قال الزجاج:"«الأجداث»: القبور، واحدها: جدث، و «ينسلون»: يخرجون بسرعة".
قال السعدي:"أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأنِّي والتأخر".
عن ابن عباس، قوله: " {مِنَ الْأَجْدَاث}، يقول: من القبور، {يَنْسِلُونَ} يخرجون". وروي عن قتادة مثله.
عن قتادة، قال: "فإذا هم من القبور إلى ربهم يخرجون، يعني: جميع الخلق".
وفي الحديث: "شكونا إلى رسول الله -ﷺ- الضعف، فقال: «عليكم بالنسل» ".
قال العثيمين: قوله تعالى: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)} أي: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل لا يستطيعون الكلام لشدة ما هم فيه من الفزع. {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً} أي: لا يستطيعون أن يوصوا إلى أهليهم، وإلى صغارهم، وإلى سفهائهم؛ لأن الأمر عظيم لا يتكلمون فيه {وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)} لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم، ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحدًا، وهذا

=

=

يدل على أن الأمر الذي أخذهم أمر عظيم، وهو كذلك لأن الله تعالى يقول: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)} {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)} قال المصنف عن الصور: [وهو القرن، النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة] {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} النفخ في الصور يذكره الله ﷻ دائمًا بالبناء المجهول (نُفِخَ)؛ لأن الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذكر الفاعل، ولهذا تجد قول الله تعالى: {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)} أبلغ مما لو بين هذا الذي غشيهم، فالإبهام أحيانًا يفيد التهويل والتعظيم، وهنا أبهم النافخ وفي كل الآيات النافخ مبهم البيان عظم هذا الأمر، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذي وكل بالنفخ في الصور هو إسرافيل عليه الصلاة والسلام أحد حملة العرش، وقد ذكر الله تعالى النفخ في الصور في هذه الآية، وفي سورة الزمر، وفي سورة النمل، وفي سورة الأنعام وغيرها، وقد اختلف العلماء رحمهم الله في النفخات هل هن ثلاث أو هما اثنتان؟

فمنهم من قال: أنهن ثلاث.

النفخة الأولى: فزع، والنفخة الثانية: صعق وموت، والنفخة الثالثة: بعث.

وفي سورة الزمر قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)} فذكر اثنتين، وفي سورة النمل {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)}. ثم ذكر يوم القيامة وطوى ذكر الثانية، فيكون هذا الفزع قبل الموت، ثم الموت ثم البعث.

ومنهم من قال: إنهما اثنتان.

والظاهر أنهما اثنتان فقط، لكن الأولى منهما فيها فزع وصعق، والثانية فيها بعث،

=

قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢).

=

وهذا ظاهر ما ذهب إليه المصنف حيث قال: [النفخة الثانية للبعث].
{فِي الصُّورِ} الصور قرن عظيم واسع، ورد في الحديث: أن سعته كما بين السماء والأرض، ينفخ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه، وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمره في الدنيا لا تخطؤه على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصور، حتى لو قدر أن عشرات الناس دفنوا في مكان واحد فإن روح كل واحد لا تأوي إلا إلى جسده تقدير العزيز العليم ﷻ.
{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١)} {فَإِذَا هُمْ} الفاء عاطفة و (إذا) حرف دال على المفاجأة و {هُمْ} مبتدأ وجملة {يَنْسِلُونَ (٥١)} خبره و {مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ} متعلقة بـ {يَنْسِلُونَ (٥١)} {فَإِذَا هُمْ} أي: بمجرد ما يحصل النفخ لا يحصل وقت بين النفخ في الصور والخروج من القبور {مِنَ الْأَجْدَاثِ} أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مسرعين، وقوله: {فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ} الضمير في {هُمْ} قال المصنف: [أي المقبورون] وعلمنا أن المراد المقبورين؛ لقوله: {مِنَ الْأَجْدَاثِ}؛ لأن الأجداث هي القبور، وقوله: {فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ} هذا بناء على الأغلب الكثير؛ لأن من الناس من لا يكون في جدث بل يلقى في اليم، أو يلقى في الأرض على ظاهرها، أو تأكله السباع، أو يحترق وتذروه الرياح، لكن الغالب والأكثر أنهم في القبور، وقوله: {إِلَى رَبِّهِمْ} فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر، يعني لا ينسلون إلى دنيا، أو إلى قريب، أو إلى صديق، وإنما ينسلون إلى الله ﷻ، والنسلان معناه: السير بسرعة، كما قال تعالى: {وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦)} أي: يخرجون بسرعة.

{قَالُوا} أَيْ الْكُفَّار مِنْهُمْ {يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلنَا} هَلَاكنَا وَهُوَ مَصْدَر لَا فِعْل لَهُ مِنْ لَفْظه {مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدنَا} لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَيْن النَّفْخَتَيْنِ نَائِمِينَ لَمْ يُعَذَّبُوا {هَذَا} أَيْ الْبَعْث {مَا} أَيْ الَّذِي {وَعَدَ} بِهِ {الرَّحْمَن وَصَدَقَ} فِيهِ {الْمُرْسَلُونَ} أَقَرُّوا حِين لَا يَنْفَعهُمْ الْإِقْرَار وَقِيلَ يُقَال لَهُمْ ذَلِكَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} [يس:٥٢].

قال الطبري:"قال هؤلاء المشركون لما نفخ في الصور نفخة البعث لموقف القيامة فردت أرواحهم إلى أجسامهم، وذلك بعد نومة ناموها، {يَاوَيْلَنَا} من أيقظنا من منامنا، وقد قيل: إن ذلك نومة بين النفختين".

قال ابن كثير:"يعنون: من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد".

قال القرطبي: "وقال أهل المعاني: إن الكفار إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب صار ما عذبوا به في قبورهم إلى جنب عذابها كالنوم".

قال الزجاج:"هذا وقف التمام، وهذا قول المشركين، {مِنْ مَرْقَدِنا}، هذا الذي كنا راقدين فيه".

قال أبو عبيدة:"{مِنْ مَرْقَدِنا}، أي: من منامنا".

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: إنما قالوا هذا، لأن الله تعالى رفع عنهم العذاب فيما بين النفختين".

عن أبي بن كعب، قوله:"{يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}، قال: ناموا نومة قبل البعث".

عن منصور، عن رجل يقال له خيثمة في قوله:"{يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}،
=

=

قال: ينامون نومة قبل البعث".

قال قتادة:"هذا قول أهل الضلالة. والرقدة: ما بين النفختين".

عن مجاهد، قوله: " {يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}، قال: الكافرون يقولونه".

قال قتادة:"تكلم بأول هذه الآية أهل الضلالة وبآخرها أهل الإيمان، قال أهل الضلالة: {يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}، قال المؤمنون: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} ".

وفي قراءة ابن مسعود: «من أهبنا من مرقدنا هذا».

وفي قراءة ابن مسعود -أيضا-: «من ميتنا».

قوله تعالى: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس:٥٢]، أي:"؟ فيجابون ويقال لهم: هذا ما وعد به الرحمن، وأخبر عنه المرسلون الصادقون".

قال السعدي:"أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رَأْيَ عين، لا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} {وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن، في هذا".

في قائلي هذا الكلام: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس:٥٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قول المؤمنين، قاله قول مجاهد، وقتادة، وابن أبي ليلى.

قال مجاهد:"مما سر المؤمنون يقولون هذا حين البعث".

قال قتادة:"قال أهل الهدى: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون".

الثاني: أنه قول الملائكة لهم، قاله الحسن، وزيد بن أسلم، ومقاتل، والفراء، وابن قتيبة.

=

عن زيد بن أسلم، قال: "قال الكفار: {يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا} [يس: ٥٢] قالت الملائكة: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون} [يس: ٥٢] ".

قال الفراء:"يُقال: إن الكلام انقطعَ عند المرقد. ثُمَّ قالت الملائكة لَهُم: {هَـذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون} ".

الثالث: أنه قول الكافرين، يقول بعضهم لبعض: هذا الذي أخبرنا به المرسلون أننا نبعث ونجازى، قاله ابن زيد، والزجاج.

قال ابن زيد:"ثم قال بعضهم لبعض: {هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون}، كانوا أخبرونا أنا نبعث بعد الموت، ونحاسب ونجازى".

قال الطبري:"والقول الأول أشبه بظاهر التنزيل، وهو أن يكون من كلام المؤمنين، لأن الكفار في قيلهم {من بعثنا من مرقدنا} دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جهالا ولذلك من جهلهم استثبتوا، ومحال أن يكونوا استثبتوا ذلك إلا من غيرهم، ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك".

عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «بين النفختين أربعون، الأولى يميت الله بها كل حي، والآخرة يحيي بها كل ميت» ".

عن عكرمة، قال: "النفخة الأولى من الدنيا، والنفخة الثانية من الآخرة".

وقال الحسن: "القيامة اسم جامع يجمع النفختين جميعا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [يا للتنبيه {يَاوَيْلَنَا} هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه {مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا} لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ يا للتنبيه. بناءً على أن الويل ليس له عقل وإرادة، وإذا وجه النداء إلى من ليس له عقل ولا إرادة كان للتنبيه.

=

ولكن لو قيل: إن (ياء) للنداء بدليل أنها عملت فيما بعدها، لأن {يَاوَيْلَنَا} منصوب بياء النداء، كأنه قال: يا ويلنا أحضر، وهذا نظير قوله تعالى: {يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ} ونظير قوله تعالى: {يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}.

والويل هو الهلاك، وهو مصدر ليس له فعل من لفظه، كما تكون بعض أسماء الأجناس ليس لها مفرد من لفظها، كإبل ليس لها مفرد من لفظها، وتكون بعض الأفعال ليس له مصدر مثل (يذروا) فإن أكثر النحويين يقولون: إنه ليس لها مصدر. وبعضهم يقول: لها مصدر وهو الوذر. {مِنْ} للاستفهام التعجبي أي ما الذي أخرجنا {مِنْ مَرْقَدِنَا} والمرقد مكان الرقادة، والمراد بها القبور، أي: من بعثنا من هذه الأمكنة التي كنا راقدين فيها. واختلف العلماء في هذا: هل إنهم يرقدون ثم يستيقظون عند النفخة الثانية، أو أن وجودهم في القبور بالنسبة إلى ما يشاهدونه في القيامة كأنه رقود، لأن الشيء إذا نسب إلى ما هو أعظم منه صار هينًا؟

القول الأخير هو الأصح، وهو الذي مشى عليه ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره، لأنه ليس هناك دليل على أنهم ينامون بين النفختين كما ذكره المصنف بقوله: [لأنهم كانوا بين النفختين نائمين لم يعذبوا] وهذا يحتاج إلى نقل صحيح؛ لأنه من أمور الغيب، والمرقد قد يكون للإنسان وإن كان يتألم بعض التألم، فها هو الإنسان ينام ويرى في منامه أحلامًا مزعجة مروعة حتى إنه من شدتها في بعض الأحيان يستيقظ، ومع ذلك فإنه إذا قام يقال: قام من مرقده.

فالصواب أن المرقد هنا مكان الرقاد، وأن عذابهم في قبورهم بالنسبة لعذاب الآخرة كالرقاد كما قال تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)}.

{هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} قال المصنف: [{هَذَا} أي: البعث {مَا} أي: الذي {وَعَدَ} به {الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ} فيه {الْمُرْسَلُونَ} أقروا حين لا ينفعهم الإقرار

=

=

وقيل: يقال لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكتة ينبغي الوقوف إن لم يجب على قوله: {مِنْ مَرْقَدِنَا} عند بعض القراء، لأجل أن يستأنف، فيقال: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} وهذا الجملة قيل: إنها تقال جوابًا لهم حين قالوا: من بعثنا من مرقدنا؟

وقيل: إنها منهم يقرون إذا شاهدوا أقروا فقالوا: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)}. والآية محتملة: يحتمل أنهم يقولون ذلك، ويحتمل أنه يقال لهم، وفي سورة الصافات قال الله تعالى: {وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)} فظاهر هذه الآية أن القائل هم هؤلاء وأن بعضهم يقول لبعض: هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون. فآية الصافات أظهر من هذه الآية من سورة يس، ولو قال قائل: هل يمكن أن يكون القول صادرًا منهم وإليهم؟ فالجواب: أن هذا ليس ببعيد، وإن كان الإنسان لا يكاد يجزم به. {هَذَا} المشار إليه البعث {مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} ما اسم موصول والصلة قوله: {وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)} وقدر المصنف العائد بقوله: [به] والمعروف أن العائد المجرور لا يحذف إلا إذا كان عامل الموصول موافقًا لعامل المحذوف لفظًا ومعنى، هذا هو المعروف عند النحويين، ولكن الراجح أنه يجوز حذف العائد، سواء كان عامله من جنس عامل الموصول، أو من غير جنسه، وأن القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: (وحذف ما يعلم جائز) عامة لكل شيء ليست خاصة بالمبتدأ والخبر بل لكل شيء، وقوله: {مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} {الرَّحْمَنُ} اسم من أسماء الله ﷻ المختصة به، التي لا تطلق على غيره فلا يسمى أحد {الرَّحْمَنُ} أما رحيم فيوصف به الخلق، قال الله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} لكن رحمن لا يجوز أن يوصف بها أحد، والفرق بين

=

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣).

{إِنْ} مَا {كَانَتْ إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة فَإِذَا هُمْ جَمِيع لَدَيْنَا} عِنْدنَا {مُحْضَرُونَ}(١).

=

الرحمن والرحيم: أن الرحيم باعتبار الفعل، والرحمن باعتبار الوصف، فإذا قال "الرحمن" يعني ذو الرحمة الواسعة، والرحيم الذي تصل رحمته إلى من يشاء من عباده، وهنا ذكر {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} ولم يقل: (ما وعد الله)، لأن رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجليًا أكثر منها في الدنيا، فإن لله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة، التسعة والتسعون الباقية، والرحمة الأولى، وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم، ولهذا قال هنا: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} والرحمن مشتق يدل على صفة الرحمة، ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نؤمن بالاسم، وما دل عليه من الصفة، والأثر المترتب على ذلك، ويجوز أن نقول والحكم، فهنا {الرَّحْمَنُ} اسمه، والرحمة صفته، ويرحم من يشاء فعله سبحانه وتعالى، وهو أثر الرحمة قال: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ} وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يبعث فيه الناس، فيجزي فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ومجازاة المحسن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، {وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} أخبر بالصدق (وصدق القائل) بمعنى التصديق من المخاطب، فالصدق من المتكلم، يقال: صدق، ويقال: صدق بمعنى أخبر بالصدق. قال الله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} وصدق القائل، أي: أقر بقوله واعترف به، قال الله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} فهو صادق وصدق والله أعلم.

(١) قوله تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً} [يس:٥٣].

قال الطبري: يقول:"إن كانت إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا صيحة واحدة، وهي

=

=

النفخة الثالثة في الصور".

قال البيضاوي: أي:"ما كانت الفعلة. إلا صيحة واحدة هي النفخة الأخيرة".

قال النسفي:"{إن كانت} النفخة الأخيرة {إلا صيحة واحدة} ".

قال السعدي:"{إِنْ كَانَتْ} البعثة من القبور {إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً} ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد".

قال السدي:"{إِنْ كانَتْ} يعني: ما كانت {إِلّا صَيْحَةً واحِدَةً} قال: وكذلك كل «إن» خفيفة تستقبلها «إلا» ".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس:٥٣]، أي:"فإذا جميع الخلق لدينا ماثلون للحساب والجزاء".

عن مجاهد، في قوله: {فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ}، قال: "عند الحساب".

قال الطبري: "يقول: فإذا هم مجتمعون لدينا قد أحضروا، فأشهدوا موقف العرض والحساب، لم يتخلف عنه منهم أحد".

قال السمعاني: {مُحْضَرُونَ}، أي: "حاضرون".

قال النسفي:"للحساب".

قال السعدي: أي:"الأولون والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبوا على أعمالهم".

قال الزجاج:"المعنى: إن إهلاكهم كان بصيحة وبعثهم وإحياءهم بصيحة".

قال البيضاوي: اي:"{محضرون} بمجرد تلك الصيحة، وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر واستغناؤهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}.

وهو كقوله تعالى: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ}. قال قتادة:

=

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤).

{فَالْيَوْم لَا تُظْلَم نَفْس شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إلا} جزاء {ما كنتم تعملون}[1].

=

(ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة: إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء).

وكقوله جلّ ذكره: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}. وكقوله جل ثناؤه: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ}. فيكون معنى الآية كما قال أبو جعفر: (إن كانت إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثالثة في الصور. {فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}. يقول: فإذا هم مجتمعون قد أُحضروا فأشهدوا موقف العرض والحساب لم يتخلف عنه منهم أحد).

وقوله: {جَمِيعٌ} خبر للمبتدأ {إِذَا هُمْ}، وقوله: {مُحْضَرُونَ} صفة. أي جميعهم قد أحضروا موقف الحساب في المحشر.

(١) قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [يس:٥٤].

قال السدي:"يعني: في الآخرة، يقوله يومئذ".

قال الطبري: يقول:"{فاليوم}، يعني: يوم القيامة {لا تظلم نفس شيئا} كذلك ربنا لا يظلم نفسا شيئا، فلا يوفيها جزاء عملها الصالح، ولا يحمل عليها وزر غيرها، ولكنه يوفي كل نفس أجر ما عملت من صالح، ولا يعاقبها إلا بما اجترمت واكتسبت من شيء".

قال السعدي: أي:"لا ينقص من حسناتها، ولا يزاد في سيئاتها".

قوله تعالى: {وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [يس:٥٤]، أي:"ولا تُجْزون إلا بما كنتم تعملونه في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: ولا تكافئون إلا مكافأة أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا".

=

=

قال السعدي: أي:"من خير أو شر، فمن وجد خيرا فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه".

قال الزجاج:"المعنى: من جوزي فإنما يجازى بعمله".

قال البيضاوي: " حكاية لما يقال لهم حينئذ تصويرا للموعود وتمكينا له في النفوس".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)}.

(اليوم) أي: يوم القيامة حين يحضر الناس للفصل والقضاء، فـ (أل) هنا للعهد الحضوري، أي: ففي حضرتهم ذلك اليوم حينما يحضرون {لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} أي: لا تنقص، والنقص يكون بأحد أمرين: إما بزيادة السيئات، وإما بنقص الحسنات، وكلا الأمرين منتف كما قال الله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)} أي: لا يخاف هضمًا من حقه من الحسنات، ولا ظلمًا بزيادة السيئات، يقول: {لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} ونفس نكرة في سياق النفي، فتشمل كل نفس، حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله، ولهذا قال: {وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)} أي: لا تكافئون على أعمالكم إلا ما كنتم تعملون، قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون] إنما قدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (جزاء) لئلا يتسلط الفعل على نفس العمل، والعمل قد مضى وانقضى، والذي يوجد في يوم القيامة هو الجزاء، ولهذا قال: [إلا جزاء ما كنتم تعملون] لا نفس العمل؛ لأن العمل إنما كان في الدنيا وليس في يوم القيامة، والذي في يوم القيامة هو الجزاء فلهذا قدر المصنف [إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فإن قال قائل: كلام المصنف هنا: أفلا يكون منتقدًا؛ لأنه كالاستدراك على كلام الله عَزَّوَجَلَّ؟

=

=

فالجواب على هذا: أن يقال ليس بمنتقد، وليس مقتضاه الاستدراك على كلام الله، لأن المصنف أراد أن يفسر المعنى المراد، ولم يرد أن في الكلام نقصًا، وقد علم في البلاغة أن الإيجاز نوعان: إيجاز حذف، وإيجاز قصر، وإيجاز الحذف معناه أن تكون الجملة فيها شيء محذوف يعلم من السياق، وإيجاز القصر أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة، ولها معاني كثيرة، فعلى كلام المصنف يكون في الكلام إيجاز حذف.

فإذا قال قائل: إن هذا التركيب الذي ذكره المصنف فيه شيء من الركاكة [لا تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون].

فالجواب: نعم القرآن أفصح بلا شك، وأبين، وأسد، لأن التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على الففس، فإذا علم الإنسان أنه لا يجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المحرمات، وسوف يقوى على فعل المأمورات؛ لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيجزاه يوم القيامة، فالذي يظهر لي أن الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لأن جعل العمل هو الذي يجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النفس كما قررناه، وقوله: {إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)} أي: هذا في الدنيا {تَعْمَلُونَ (٥٤)} خبر كاف، وتحتاج الجملة إلى عائد يعود على الموصوف (ما)؛ لأنه قد تقدر في علم النحو: أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته، كما أن كل خبر للمبتدأ يكون جملة يحتاج إلى رابط، يربط بين الجملة الخبرية وبين المبتدأ التي هي خبر عنه، هنا نقول: إن العائد محذوف أي: ما كنتم تعملونه، والعمل يطلق بلا شك على فعل الجوارح، ويطلق على القول، ويطلق على عمل القلب، وهو الركون إلى الشيء، والاطمئنان به، فإذا أطلق العمل شمل هذه الثلاثة: عمل القلب وهو ركونه إلى الشيء ورضاه وطمأنينته به، قول بمعنى عمل اللسان، فعل عمل الجوارح، هذا

=

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥).

{إنَّ أَصْحَاب الْجَنَّة الْيَوْم فِي شُغْل} بِسُكُونِ الْغَيْن وَضَمّهَا عَمَّا فِيهِ أَهْل النَّار مِمَّا يَتَلَذَّذُونَ بِهِ كَافْتِضَاضِ الْأَبْكَار لَا شُغْل يَتْعَبُونَ فِيهِ لِأَنَّ الْجَنَّة لَا نَصَب فِيهَا {فَاكِهُونَ} نَاعِمُونَ خَبَر ثَانٍ لِإِنَّ وَالْأَوَّل فِي شُغْل[1].

=

إذا أطلق العمل، أما إذا قيل: عمل وقول، أو قيل: اعتقاد وعمل، فإن العمل يفسر هنا بعمل الجوارح، وهذا يكون كثيرًا في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، وهو أن الشيء إذا أفرد يكون شاملًا، وإذا قرن بغيره صار خاصًّا؛ لأنه إذا قرن بغيره صار الكلام على جهة التقسيم، والتقسيم لابد فيه من مقسم، والمقسم يكون كل قسيم منه ضد القسيم الآخر، والخلاصة الآن أن المراد بالعمل هنا عمل القلب، والجوارح، واللسان الذي هو القول، لأن هذا كله يجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هل يشمل العمل الكف، أي: إذا ترك الإنسان المعصية، هل يقال: إن هذا عمل يجزى عليه؟

الجواب: نعم، يقال إنه عمل يجزى عليه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "من هم بالسيئة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة". لأن تركها لله فما وجه كون الترك عملًا؟ لأن الترك كف النفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل وحينئذ نقول كلمة: {يَعْمَلُونَ} تشمل أربعة أشياء هي: عمل القلب، واللسان، والجوارح، والترك. ويجزى عليها الإنسان.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)} [يس:٥٥].

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن أهل الجنة: أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا في روضات الجنات: أنهم في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم".

=

=

قال السعدي:"لما ذكر تعالى أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم {فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ}، أي: في شغل مفكه للنفس، مُلِذٍّ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذه العيون، ويتمناه المتمنون، ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات".

واختلف أهل العلم في معنى «الشغل» الذي وصف الله جل ثناؤه أصحاب الجنة أنهم فيه يوم القيامة، على أقوال:

أحدها: أن ذلك افتضاض العذارى، قاله ابن مسعود، وابن عباس، سعيد بن المسيب، وقتادة.

وقال مقاتل:"يعني: شغلوا بالنعيم، بافتضاض العذارى عن ذكر أهل النار فلا يذكرونهم ولا يهتمون بهم".

قال يحيى: "بلغني أن أحدهم يعطى قوة مائة شاب في الشهوة والجماع، وأنه يفتض في مقدار ليلة من ليالي الدنيا مائة عذراء بذكر لا يمل ولا ينثني وفرج لا يحفى ولا يمنى في شهوة أربعين عاما".

الثاني: في ضرب الأوتار، قاله ابن عباس- في رواية عنه - ومسافع بن أبي شريح.

الثالث: أنهم في نعمة، قاله الحسن، ومجاهد.

وقال الحسن:"شغلهم النعيم عما فيه أهل النار من العذاب".

الرابع: في شغل مما يَلقى أهل النار، قاله إسماعيل بن أبي خالد، وأبان بن تغلب.

الخامس: في التزاور. قاله ابن كيسان.

السادس: في ضيافة الله. حكاه الزمخشري.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال كما قال الله جل ثناؤه: {إن أصحاب الجنة} وهم أهلها {في شغل فاكهون} بنعم تأتيهم في شغل، وذلك الشغل الذي هم فيه نعمة، وافتضاض أبكار، ولهو ولذة، وشغل عما يلقى أهل

=

=

النار".

وروي بضم الغين «شُغُل» وقرئ بتسكينها، وفيها وجهان:

أحدهما: أن «الشغل» -بالضم-: المحبوب.

الثاني: «الشغل»، -بالإسكان-، يعني: المروة، فعلى هذا لا يجوز أن يقرأ بالإسكان في أهل الجنة ولا يقرأ بالضم في أهل النار.

ويقرأ: «فكهون»، بغير ألف. وفي اختلاف القراءتين وجهان:

أحدهما: أنها سواء ومعناهما واحد، يقال: فاكه وفكه كما يقال: حاذر وحذر. قاله الفراء.

الثاني: أن معناهما في اللغة مختلف:

أ - «الفكه»: الذي يتفكه بأعراض الناس، تقول العرب للرجل إذ كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس: إن فلانا لفكه بأعراض. قالت خنساء أو عمرة بنتها:

فكه على حين العشاء إذا... حضر الشتاء وعزّت الجزر

ب- «الفاكه»: كثير الفواكه، صاحب فاكهة، قاله أبو عبيد، وأنشد قول الحطيئة:

ودعوتنى وزعمت... أنك لابن بالصيف تامر

قال الراغب:"الشَّغْلُ والشُّغْلُ: العارض الذي يذهل الإنسان".

وفي معنى «فاكهون» -ها هنا- أربعة وجوه:

أحدها: فرحون، قاله ابن عباس، والحسن، وبه قال الزجاج.

الثاني: ناعمون، قاله قتادة، السدي، ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: ناعمين في ظلال كبار القصور".

الثالث: معجبون، قاله حسن-في رواية عنه-، ومجاهد، و وقتادة-في رواية عنه-.

الرابع: ذو فاكهة، كما يقال: شاحم لاحم، أي: ذو شحم ولحم. قاله أبو عبيدة،

=

=

وأنشد قول الحطيئة:

ودعوتنى وزعمت... أنك لابن بالصيف تامر

أي: ذو لبن وتمر، أي: عنده لبن كثير وتمر كثير.

قال الزمخشري: "{إن أصحاب الجنة اليوم في شغل} حكاية ما يقال لهم في ذلك اليوم. في مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود، وتمكين له في النفوس، وترغيب في الحرص عليه وعلى ما يثمره في شغل في أى شغل وفي شغل لا يوصف، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التي هي دار المتقين، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم، ووقع في تلك الملاذ التي أعدها الله للمرتضين من عباده، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم، وذلك بعد الوله والصبابة، والتفصي من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية، وتخطى الأهوال، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط. ومعاينة ما لقى العصاة من العذاب".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)} لما ذكر الله ﷻ أن ذلك اليوم يجازى فيه العامل بعمله، ذكر أصناف العاملين، وهم صنفان: الصنف الأول: أصحاب الجنة، والصنف الثاني: المجرمون.

وأصحاب الجنة لم يذكر الله تعالى في هذه الآية عملهم، لكنه ذكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكون سببًا لدخولهم الجنة، قال: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)} {أَصْحَابَ} جمع صحب، وصحب اسم جمع صاحب، والصاحب هو: الملازم لمصحوبه، ولا يسمى الشيء صاحبًا للشيء إلا بعد الملازمة حسب ما يقتضيه العرف، إلا شيئًا واحدًا استثناه العلماء وهو صحابة رسول الله ﷺ، فإن صحبته تثبت بمجرد اللقاء ولو للحظة، فكل من اجتمع بالنبي عليه الصلاة والسلام ولو للحظة مؤمنًا به ومات على ذلك فهو صحابي

=

=

له، {الْجَنَّةِ} تقدم أنها في اللغة العربية اسم للبستان الكثير الأشجار، وسمي بذلك لأنه لكثرة أشجاره، يجن من فيه وما فيه، ويجن بمعنى يستر، لأن هذه المادة (الجيم والنون) كلها تدور على هذا المعنى وهو الاستتار، ومنه سمي الجنين؛ لاستتاره في بطن أمه، وسمي الجن؛ لاستتارهم عن الأعين، وسميت الجُنة؛ لأن المقاتل يستتر بها عن السهام، فالجنة في اللغة كل بستان كثير الأشجار، وسمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه من الساكن، وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة، هذا هو أصل معنى هذه الكلمة في اللغة، ومعناها شرعًا هي: الدار التي أعدها الله سبحانه وتعالى للمتقين: فيها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)}.

ولا يصح أن تقول: إن الجنة في الآخرة هي البستان كثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزلت من قيمتها في نفوس الناس، لكن إذا قلت: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، صار ذلك حافزًا للعمل لها، وقوله: {الْيَوْمَ} يعني يوم القيامة و (أل) هنا للعهد الذكري، لأن سبق ذكره و (أل) تكون للعهد الذكري إذا سبق ذكر مدخولها، ومنه قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)} فإذا كان مدخول (أل) سبق ذكره فهي للعهد الذكري. {فِي شُغُلٍ} الجار والمجرور وهو خبر {إِنَّ} {فِي شُغُلٍ} يقول المصنف: [بسكون العين وضمها] شغْل وشغُل، والقرآءتان سبعيتان، لأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من طريقه أنه إذا قال: في قراءة، وفي قراءة، فهما متساويتان، أي كلتاهما قراءة سبعية، أما إذا قال: وقرئ. فإن هذه القراءة تكون شاذة، فليعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه. فيجوز لنا أن نقول: {إِنَّ

=

=

أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ} و {شُغْلٍ}.

وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة، أو أنه نقرأ تارة بهذه وتارة بهذه؟ الصحيح أن الأفضل أن نقرأ بهذه تارة وبهذه تارة، لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ ونحن إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات على أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ، فالأولى أن نقرأ مرة بهذه ومرة بهذه إلا أمام العامة فلا تفعل ذلك، لأنك إذًا قرأت بقراءة مخالفة لما بين أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة، ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله ﷻ، لكن إذا كنت تقرأ لنفسك، أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [في "شغل" بسكون الغين، وضمها، عما فيه أهل النار مما يتلذذون به، إذا هم منشغلون عما فيه أهل النار، ولو أن المصنف جعلها مطلقة على إطلاقها لكان أولى، فهم في شغل عن كل شيء بما يتلذذون به، يعني كأنهم لا يفكرون في أي شيء آخر، لأن هذا الذي هم فيه من النعيم قد شغلهم، وانشغلوا به عن غيرهم هذا كقوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)} أي: لا يبغون تحولًا أو نزولًا عما هم فيه، بل ولا صعودًا حتى النازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيمًا، فالأولى أن نطلق ونقول: {فِي شُغُلٍ} أي: أنهم مشتغلون بما هم فيه من النعيم عن كل شيء، لا ينتظر أحدهم نعيمًا أرقى مما هو فيه بحيث يرى أن نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبدًا {فِي شُغُلٍ} قال المصنف: [كافتضاض الأبكار] والكاف للتشبيه، وليس للحصر، أي: من جملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار، من نساء الدنيا وكذلك الحور العين، وإنما مثل المصنف بذلك لقوله تعالى: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ} قال [كافتضاض الأبكار لا شغل يتعبون فيه، لأن الجنة لا نصب فيها]، أي لا تعب، فهذا الشغل ليس شغلًا يتعبون فيه، ولكنه شغل يستريحون فيه، لأنه شغل فيما

=

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦).

{هُمْ} مُبْتَدَأ {وَأَزْوَاجهمْ فِي ظِلَال} جَمْع ظُلَّة أَوْ ظِلّ خَبَر أَيْ لَا تُصِيبهُمْ الشَّمْس {عَلَى الْأَرَائِك} جَمْع أَرِيكَة وَهُوَ السَّرِير فِي الْحَجْلَة أَوْ الْفُرُش فِيهَا {مُتَّكِئُونَ} خَبَر ثَانٍ متعلق على[1].

=

يسر وفيما يحصل به التنعم، قال: {فَاكِهُونَ (٥٥)}: قال المصنف: [ناعمون خبر ثان، لـ (إن) والأول {فِي شُغُلٍ}] أي قوله: {فَاكِهُونَ (٥٥)} خبر ثان لـ (إن) والأول {فِي شُغُلٍ} الجار والمجرور، فتكون (إن) لها خبران، والخبر يجوز أن يتعدد، قال تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)} فهذه خمسة أخبار، فالخبر يجوز أن يتعدد، لكن تعدد الخبر قد يكون لكل كلمة منه معنى مستقل، وقد تكون الكلمتان في معنى كلمة واحدة، فمثلًا إذا قلت هذا البرتقال حلو حامض، فهاتان كلمتان، لكنهما بمعنى كلمة واحدة: (مُز) أي: جامع بين الحلاوة والحموضة، لكن لو قلت: فلان قائم مسرور، فالخبران كل واحد منهما بمعنى مستقل، بدليل أن أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مستقل، والخلاصة: أننا فهمنا من كلام المصنف أن الخبر يجوز أن يتعدد سواء كان منسوخًا كما في الآية، أم غير منسوخ.

(١) قوله تعالى: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)} [يس:٥٦].
قال السعدي: "{هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ} من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق. {فِي ظِلالٍ عَلَى الأرَائِكِ} أي: على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن. {مُتَّكِئُونَ} عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة".
قال السمعاني: {الْأَرَائِكِ} " في التفسير: سرر من الذهب مكللة بالدر والزبرجد والياقوت، عليها حجال، وقوله: {مُتَّكِئُونَ}، أي: أنهم ذوو اتكاة، وذكر الاتكاء
=

=

في الجنة؛ لأنهم لا ينامون".

قال ثعلب: "لا تكون «الأرائك» أريكة حتى تكون تحت حجلة".

عن مجاهد، قوله:"{هم وأزواجهم في ظلال}، قال: حلائلهم في ظلل".

قال مجاهد:"الأرائك: من لؤلؤ وياقوت".

قال ابن عباس:"«الأرائك»: السرر في جوف الحجال... عليها الفرش منضود في السماء فرسخ".

قال مقاتل:"{هم وأزواجهم}، يعني: الحور العين حلائلهم، في ظلال كبار القصور {على الأرائك}: على السرر عليها الحجال متكؤن".

قال أبو عبيدة:"«الْأَرائِكِ»، واحدتها: «أريكة»، وهى السّرر فى الحجال، قال ذو الرّمّة:

خدودا جفت فى السّير حتى كأنما... يباشرن بالمعزاء مسّ الأرائك

وقال الأعشى:

بين الرّواق وجانب من سترها... منها وبين أريكة الأنضاد".

قال الزجاج: «الأرائك»:"هي الفرش في الحجال، وقيل: انها الفرش، وقيل: الأسزة، وهي على الحقيقة الفرش كانت في حجال أو غير حجال".

وفي قراءة عبد الله: «فِي ظُلَلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئِينَ».

قال العثيمين: قوله تعالى: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)} {هُمْ} أي: أصحاب الجنة {وَأَزْوَاجُهُمْ} جمع زوج، وتطلق على الذكر والأنثى، فيقال: هذا زوج فلانة، ويقال: هذه زوج فلان، لكن أهل العلم قالوا: يجب التفريق -وإن كان لغة ضعيفة- في باب الفرائض فيقال: زوجة للأنثى، ويقال: زوج للرجل، لئلا يشبه على المتعلم كون المسألة المتوفى فيه زوج ذكر أو زوج أنثى، وإلا فاللغة العربية الفصحى حذف التاء من زوج، سواء كان للأنثى

=

=

أو الذكر ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظلة، خبر للمبتدأ هم، أو جمع ظل، والمعنى لا يختلف كثيرًا، فهم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم، أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار، قال بعض أهل العلم: كالنور الذي يكون بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، فهو نور ساطع ولكنه لطيف، لأن ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت فهو ظل ظليل ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال المصنف: [جمع أريكة، وهو السرير في الحَجَلَة، أو الفرش فيها] ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع الأريكة هي السرير في الحجلة، أو الفراش فيها، ولكن الأكثر أنها السرير، والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير، أي أنها بمنزلة الحجرة الخاصة بالمنام فيما نعرفه بيننا، فالدار مثلًا تشمل حجرًا كثيرة متعددة، والحجرة الخاصة بالنوم هي مثل الحجلة، خيمة صغيرة تكون خاصة بالرجل وأهله، أو بالرجل وحده، أو بالمرأة وحدها ﴿مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾ قال المصنف: [خبر ثانٍ متعلق على] أي: على الأرائك متعلقة بمتكئون، وعلى كلام المصنف يكون المبتدأ (هم) وفي (ظلال) خبر و (متكئون) خبر ثان، فالجملة على كلامه واحدة لكنها متعددة الخبر: (هم في ظلال متكئون) و ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ متعلقة بمتكئون، ومناسبة تقديمها على عاملها: مراعاة فواصل الآيات، والقرآن الكريم يكون فيه مراعاة الفواصل حتى كان أدى إلى تقديم المفضول على الفاضل في سورة (طه) في قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠)﴾ فقدم هارون على موسى، مع أن موسى أفضل، مراعاة للفواصل، لأن الفواصل إذا كانت متفقة كان لها تأثير في الاستماع والإصغاء والقرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المصنف، ولنا رأي ثان في الإعراب أن تكون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ خبر مقدم ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ مبتدأ مؤخر، وعلى هذا فتكون لدينا جملتان، جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ والثانية: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكون

=

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧).

{لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَة وَلَهُمْ} فِيهَا {مَا يَدَّعُونَ} يتمنون[1].

=

متكئين على الأرائك مع الزوجات، أو بدون زوجاتهم، وعلى كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ يقتضي أن يكونوا متكئين على الأرائك مع الزوجات.

(١) قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ} [يس:٥٧].

قال الطبري:"يقول لهؤلاء الذين ذكرهم تبارك وتعالى من أهل الجنة في الجنة فاكهة".

قال ابن كثير:"أي: من جميع أنواعها".

قال السعدي:"من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين ورمان، وغيرها".

قال المراغي:"وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس- ذكر ما يتمتعون به من مآكل ومشارب، ولذات جسمانية وروحية فقال: {لهم فيها فاكهة}، أي: لهم فيها من الفواكه مالذ وطاب، مما تقر به أعينهم، وتسر به نفوسهم، كما هو شأن المترفين المنعمين في الدنيا".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ} [يس:٥٧]، أي:"ولهم كل ما يطلبون من أنواع النعيم".

قال الطبري:"يقول: ولهم فيها ما يتمنون".

قال الواحدي: أي: ما"يتمنَّون".

قال مقاتل:"يتمنون ما شاءوا من الخير".

قال ابن كثير:"أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ".

قال المراغي: أي:"ولهم فوق ذلك كل ما يتمنون وتشتاق إليه نفوسهم".

قال السعدي:"فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه".

قال ابن قتيبة:"ومنه يقول الناس: هو في خير ما ادعى؛ أي: ما تمنى. والعرب

=

=

تقول: ادع علي ما شئت؛ أي: تمن علي ما شئت".

وقال يحيى بن سلام: {ولهم ما يدعون}، أي:"ما يشتهون، يكون في في أحدهم الطعام فيخطر على باله طعام آخر فيتحول ذلك الطعام في فيه ويأكل من ناحية من البسرة بسرا ثم يأكل من ناحية أخرى عنبا إلى عشرة ألوان أو ما شاء الله من ذلك، ويصف الطير بين يديه، فإذا اشتهى الطير منها اضطرب ثم صار بين يديه نضيجا، نصفه شواء ونصفه قدير، وكل ما اشتهت أنفسهم وجدوه كقوله: {وفيها ما تشتهيه الأنفس} [الزخرف: ٧١]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧)} أي لأصحاب الجنة {فِيهَا} أي: الجنة {فَاكِهَةٌ} أي: ما يتفكهون به، وكل أكل أهل الجنة فاكهة، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه لا على سبيل الحاجة والضرورة، ففي الدنيا قد نأكل أحيانًا تفكهًا، وأحيانًا للحاجة، وأحيانًا للضرورة، أما في الجنة فكل ما نأكله للتفكه؛ لأنه ليس هناك ضرورة أو حاجة، ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحًا مثل العرق، أطيب من ريح المسك، وليس فيها بول أو غائط.

فإذا قال قائل: إذا جعلت الفاكهة اسمًا لكل ما يأكلون، لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه، فكيف تجيب عن قوله تعالى: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} والأصل في العطف أن يكون للمغايرة، والنخل والرمان يؤكل.

فالجواب: يعلم مما ذكرنا آنفًا وهو أن الشيء إذا أفرد صار له معنى عامًّا، وإذا قرن بغيره صار له معنى خاصًّا مقابلًا لما قرن معه، لأن التقسيم يقتضي أن يكون المقسم إليه من طرف، غير المقسم إليه من الطرف الآخر، فنقول: النخل والرمان نص عليهما بخصوصهما لخاصية فيهما، وإلا فهما من الفاكهة، فيكون هذا من جنس عطف الخاص على العام، وعطف الخاص على العام في اللغة

=

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨).

{سَلَام} مُبْتَدَأ {قَوْلًا} أَيْ بِالْقَوْلِ خَبَره {مِنْ رَبّ رَحِيم} بِهِمْ أَيْ يَقُول لَهُمْ سَلَام عليكم[1].

=

العربية كثير، مثل: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا} والروح هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو من الملائكة، ثم قال المصنف: {وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧)} كل ما يتمنونه فإنه حاصل، بل إن الله يعطيهم أكثر مما يتمنون؛ لأن أمنية الإنسان محدودة، قد يرى أن هذا أكبر شيء، وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يدركه. فالإنسان في الآخرة يعطى كل ما يتمنى، بل يزاد على ما يتمنى.

فإذا قال قائل: هل إذا اشتهى الإنسان الشيء في الجنة يحصل بمجرد هذه الشهوة، أو لابد من الطلب؟

فالجواب: أن هذا الأمر محتمل، يحتمل أن الإنسان إذا اشتهى شيئًا حصل له، ويحتمل أنه لابد أن يدعيه، والدعوى بمعنى الطلب، وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة، كما أن الفعل يدل على صدق الإرادة، فلو أن أحدًا من الناس قال: أريد أن أزور فلانًا، فإن هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل، وإلا فما دام لم يقم بالفعل فإن الإرادة قد تكون غير صادقة، وعلى كل حال يكفينا أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ} فإن ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه وإن لم تطلبه يحصل لك.

(١) قوله تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس:٥٨].

قال السعدي:"ولهم أيضا {سَلامٌ} حاصل لهم {مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: {قَوْلا} وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك،

=

=

الرب العظيم، الرءوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدا، فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك".

واختلف أهل العلم في تفسير الآية، على قولين:

أحدهما: أنه تبشير الله تعالى لهم بسلامتهم. حكاه الماوردي.

الثاني: أنه سلام الله تعالى عليهم إكرامًا لهم، قاله ابن عباس، وعمر بن عبدالعزيز.

قال ابن عباس:"فإنّ الله هو يُسَلِّم عليهم".

قال ابن أبي زمنين:"قوله: {سلام قولا} منصوب على معنى: لهم سلام. يقوله الله قولا".

قال ابن فورك:"أي: ولهم سلام يسمعونه من الله - ﷻ -، يؤذنهم بدوام الأمر والسلامة، وشيوع النعمة والكرامة".

قال السمعاني:"أكثر المفسرين أن معناه: يسلم الله عليهم سلاما. وقوله: {قولا} أي: يقول قولا".

قال مقاتل:"وذلك أن الملائكة تدخل على أهل الجنة من كل باب يقولون سلام عليكم يا أهل الجنة من ربكم الرحيم".

قال عمر بن عبد العزيز: "إذا فرغ الله من أهل الجنة وأهل النار، أقبل يمشي في ظلل من الغمام والملائكة، فيقف على أول أهل درجة، فيسلم عليهم، فيردون عليه السلام، وهو في القرآن {سلام قولا من رب رحيم}، فيقول: سلوا، فيقولون: ما نسألك وعزتك وجلالك، لو أنك قسمت بيننا أرزاق الثقلين لأطعمناهم وسقيناهم وكسوناهم، فيقول: سلوا، فيقولون: نسألك رضاك، فيقول: رضائي أحلكم دار كرامتي، فيفعل ذلك بأهل كل درجة حتى ينتهي، قال: ولو أن امرأة

=

=

مـن الحـور العـين طلعـت لأطفـأ ضـوء سـواريها الـشمس والقمـر، فكيـف بالمسورة".

قال ابن قتيبة:"أي: سلام يقال لهم فيها، كأنهم يتلقونه من رب رحيم".

وقال يحيى:"يأتي الملك من عند الله إلى أحدهم فلا يدخل عليه حتى يستأذن عليه يطلب الإذن من البواب الأول، فيذكره للبواب الثاني، ثم كذلك حتى ينتهي إلى البواب الذي يليه، فيقول البواب له: ملك على الباب يستأذن فيقول: ائذن له، فيدخل بثلاثة أشياء، بالسلام من الله، والتحفة، والهدية، وبأن الله عنه راض، وهو قوله: {وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا} [الإنسان: ٢٠] ".

قال سهل:"أهل القرآن يلحقهم من الله السلام في العاجل بقوله: {وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ} [النمل: ٥٩]، وسلام في الآجل، وهو قوله: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس: ٥٨] ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{سَلَامٌ} مبتدأ {قَوْلًا} أي: بالقول. خبره] على أنه منصوب بنزع الخافض، لأنه قال: أي بالقول. والنصب بنزع الخافض في غير (أنا) و (أن) ليس بمطرد، بل هو سماعي، إن سمع عن العرب النصب عمل به، وإن لم يسمع لم يعمل به، وقاعدة ذلك: أنه قد يحذف حرف الجر، فإذا حذف حرف الجر صار مدخوله منصوبًا، ويقال فيه: منصوب بنزع الخافض، ولكنه كما قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

في أن وأنا يطر ومع أمن ... لبس كعجبت أن يدم

فالمصنف مشى على أن {قولًا} منصوب بنزع الخافض أي سلام بالقول من رب رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة، ويجوز أن يكون {سَلَامٌ} خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سلام يعني الجنة، سلام كما قال تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو

=

=

إِلَى دَارِ السَّلَامِ} ويجوز أيضًا أن يكون الخبر قوله: {مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} أي سلام بالقول واقع من الله ﷻ، وهذه الوجوة لا ينافي بعضها بعضًا من حيث المعنى، فإن المعنى كله واحد وهو أن الله تعالى يسلم عليهم بالقول، ويقول لأهل الجنة: سلام عليكم، وقوله: {مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} الرب في اللغة العربية يطلق على عدة معانٍ:

فيطلق على رب العالمين ﷻ، وهو بهذا المعنى يشمل الخلق، والملك، والتدبير، فالرب هو الخالق المالك المدبر.

ويطلق الرب على الصاحب، مثل قولهم: رب البيت، أي صاحب البيت، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام في ضالة الإبل: "معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها"، أي: صاحبها.

وقوله: {مِنْ رَبٍّ} المراد به المعنى الأول يعني الله تعالى، فالله تعالى هو الرب، أي: الخالق، المالك، المدبر و {رَحِيمٍ} من الرحمة وهي صفة ذاتية، لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزال متصفًا بها، لكن أفرادها تجدد باعتبار المرحوم، فالله ﷻ يرحم من يشاء، ومعلوم أن المرحوم يتجدد، فرحمة الله تعالى لهذا المرحوم تتجدد، أما أصل المعنى فإن الله تعالى لم يزل ولا يزال رحيمًا، وأهل السنة والجماعة وهم السلف يفسرون "الرحمة" بمعنى يليق بالله ﷻ. وأهل التحريف يفسرون "الرحمة" إما بالإحسان، وإما بإرادة الإحسان فيقولون: معنى رحيم، أي: محسن، أو مريد للإحسان، قالوا: لأن الله لا يمكن أن يتصف بالرحمة، فإن الرحمة تدل على الضعف، وعلى الرقة واللين، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى. وفسروها بالإرادة، لأنهم يثبتون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأن الإحسان منفصل عن الله ﷻ وهو مخلوق، ولا شك أن هذا تحريف، والرحمة إن كان يلزم منها الرقة واللين فهذا باعتبار رحمة المخلوق، أما باعتبار رحمة الخالق فلا

=

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩).

{و} يقول {امْتَازُوا الْيَوْم أَيّهَا الْمُجْرِمُونَ} أَيْ انْفَرِدُوا عَنْ الْمُؤْمِنِينَ عِنْد اخْتِلَاطهمْ بِهِمْ[١].

=

يلزم منه هذا المعنى، على أننا نمنع أن يكون من لازمها الرقة واللين؛ لأنا نجد الملك القوي الشجاع يكون فيه رحمة، ولا ينقص ذلك من قوته وسلطانه شيئًا، لكن لو سلمنا جدلًا أنها تستلزم الرقة واللين فإنما ذلك باعتبار رحمة المخلوق.

(١) قوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)} [يس:٥٩].

قال ابن قتيبة:"أي: انقطعوا عن المؤمنين وتميزوا منهم. يقال: مزت الشيء من الشيء -إذا عزلته عنه- فانماز وامتاز وميزته فتميز".

قال الطبري: يقول:"وتميزوا من المؤمنين اليوم أيها الكافرون بالله، فإنكم واردون غير موردهم، داخلون غير مدخلهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عمّا يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يتميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} [يونس: ٢٨]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الروم: ١٤]، {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدْعَين فرقتين، {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٢٢، ٢٣]".

عن ابن عباس:"{وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}، قال: "تفرقوا".

قال أبو العالية: "تميزوا".

قال السدي: "كونوا على حدة".

قال قتادة:"عزلوا عن كل خير".

=

=

قال الضحاك: "إن لكل كافر في النار بيتًا يدخل ذلك البيت ويردم بابه في النار، فيكون فيه أبد الآبدين، لا يرى ولا يُرى".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم، ثم يقول: {ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان} .. الآية، إلى قوله {هذه جهنم التي كنتم توعدون} {وامتازوا اليوم أيها المجرمون}، فيتميز الناس ويجثون، وهي قول الله: {وترى كل أمة} ... الآية".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[ويقول: {وَامْتَازُوا}] يعني أن القائل الله ﷻ، وفي الجزم بذلك نظر، فقد يكون الله ﷻ هو الذي يقول للمجرمين: امتازوا، وقد يكون القائل ملك من الملائكة، ولهذا لو قال المصنف: (ويقال) لكان أولى؛ لأن الجزم بأن القائل هو الله يحتاج إلى توقيف، أي: إلى النص من الشارع، {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)} {الْيَوْمَ} المراد باليوم يوم القيامة، فأل هنا فيه للعهد الذكري {أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)} قال المصنف: [أي: انفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم]، يعني يقال يوم القيامة: امتازوا أيها المجرمون، وتميزوا عن المؤمنين، وانفردوا عنهم؛ لأن طريق المجرمين غيرُ طريق الأبرار، فالأبرار طريقهم إلى الجنة، وهؤلاء طريقهم إلى النار، قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)} فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء، يقال لهم: {وَامْتَازُوا} على سبيل التوبيخ والإهانة، لأنك إذا رأيت مجتمعًا فقلت مثلًا: أيها الطائفة الفلانية امتازوا وابتعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر، وقوله: {أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)} المجرم فاعل الإجرام، والإجرام هو: الذنب والإثم، أي: أيها الآثمون المذنبون امتازوا عن

=

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠).

{أَلَمْ أَعْهَد إلَيْكُمْ} آمُركُمْ {يَا بَنِي آدَم} عَلَى لِسَان رُسُلِي {أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَان} لَا تُطِيعُوهُ {إنَّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِين} بَيِّن العداوة.

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١).

{وَأَنْ اُعْبُدُونِي} وَحِّدُونِي وَأَطِيعُونِي {هَذَا صِرَاط} طَرِيق {مستقيم}[(١)].

=

المؤمنين المطيعين.

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [يس:٦٠].

قال السدي:"يعني: ألا تطيعوا الشيطان في الشرك".

قال يحيى بن سلام:"أنهم عبدوا الأوثان بما وسوس إليهم الشيطان، فأمرهم بعبادتهم، فإنما عبدوا الشيطان".

قال الطبري:"في الكلام محذوف تقديره: ثم يقال: ألم أعهد إليكم يا بني آدم، يقول: ألم أوصكم وآمركم في الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله".

قال ابن قتيبة:"{ألم أعهد إليكم} ألم آمركم ألم أوصكم؟! ".

قال ابن كثير:"هذا تقريع من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [يس:٦٠]، أي:"إن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة".

قال الطبري:"يقول: وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين، قد أبان لكم عداوته بامتناعه من السجود، لأبيكم آدم، حسدا منه له، على ما كان الله أعطاه من الكرامة، وغروره إياه، حتى أخرجه وزوجته من الجنة".

=

=

قال ابن عباس: "يريد: بيّن العداوة، أخرج آدم من الجنة، وهو القائل: {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢] ".

قال قتادة:"حسد عدو الله إبليس آدم على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني. فكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم".

قوله تعالى: {وَأَنِ اعْبُدُونِي} [يس:٦١]، أي:"وأمرتكم بعبادتي وحدي".

قال الطبري:"يقول: وألم أعهد إليكم أن اعبدوني دون كل ما سواي من الآلهة والأنداد، وإياي فأطيعوا".

قال ابن كثير:"أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي".

قوله تعالى: {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس:٦١]، أي:"فعبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان هي الدين القويم الموصل لمرضاتي وجنَّاتي".

قال الطبري: يقول: "فإن إخلاص عبادتي، وإفراد طاعتي، ومعصية الشيطان، هو الدين الصحيح، والطريق المستقيم".

قال ابن كثير: أي" وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به".

قال يحيى بن سلام: أي: " دين مستقيم، والصراط: الطريق، مستقيم على الجنة".

عن مجاهد، {صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} : " يعني: الإسلام: الدين الحق".

عن مجاهد في قوله: " {صراط مستقيم} ، قال: الحق".

عن عاصم الأحول، عن أبي العالية:"الصراط المستقيم، قال: هو النبي ﷺ وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية ونصح".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

=

=

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [آمركم {يَابَنِي آدَمَ} على لسان رسلي {أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} لا تطيعوه {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)} بين العداوة {وَأَنِ اعْبُدُونِي} وحِّدوني وأطيعوني {هَذَا صِرَاطٌ} طريق {مُسْتَقِيمٌ (٦١)}].

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ} الاستفهام هنا للتقرير، والغالب أنه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدل على النفي فالاستفهام للتقرير مثل: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)} فهذا للتقرير {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ} للتقرير {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} للتقرير {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} للتقرير {أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} للتقرير، وهكذا كلما جاء ما يدل على النفي بعد أداة الاستفهام فإن الاستفهام يكون فيه غالبًا للتقرير، هنا يقرر الله ﷻ أنه عهد إليهم، ولهذا يصح أن تحول -في غير القرآن- إلى فعل ماض، فيقال: قد عهدت إليكم.

فإذا قال قائل: ما المراد بهذا التقرير؟

فالجواب: المراد به التوبيخ، يعني يقرر الله هذا الأمر توبيخًا لهم، وإقامة للحجة عليهم، إن الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان، والعهد إلى الشيء فسره المصنف أنه الأمر، فقال: [آمركم] ولكنه في الحقيقة أبلغ من الأمر، لأن العهد إليه كأنه متضمن للعهد والميثاق، وهو كذلك فإن الله أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إياه، وأن لا نعبد الشيطان؛ لأنه عدو، وقوله: {يَابَنِي آدَمَ} تشمل الذكر والأنثى، وإن كان الابن يقال في الأصل للذكر، والبنون تقال في الأصل للذكور، لكن إذا كان يراد به القبيلة، أو الجنس فإنه يشمل الذكر والأنثى، حتى إن الفقهاء رحمهم الله قالوا: إذا وقف على بني تميم، شمل ذكورهم وإناثهم، لكن إذا وقف على بني فلان. أي: واحد من الناس ليس قبيلة، فإنه يختص بالذكور فقط، فبنوا آدم هنا قبيلة بل شامل لكل القبائل فيشمل الذكور والإناث، وقوله: {أَنْ لَا

=

=

تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} فسر المصنف العبادة هنا بالطاعة؛ لأن طاعة الغير في محارم الله تعالى نوع من العبادة، كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم -يعني لسنا نصلي، أو نركع، أو نسجد لهم-، قال: "أوليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ " قال نعم، قال: "فتلك عبادتهم". وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا ولكن الواقع أن طاعة غير الله في مخالفة أمر الله نوع من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التذلل والخضوع، وطاعة الأمر تذلل وخضوع، وقوله: {الشَّيْطَانَ} هل المراد بذلك الجنس، أو المراد الشيطان المعين؟ الظاهر أن المراد به الجنس، فيشمل شياطين الإنس، وشياطين الجن، فكما أن للجن شياطين فللإنس شياطين، يوجد من الإنس شياطين يأمرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البر والإحسان، وقوله: {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)} {إِنَّهُ} أي: الشيطان {لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)} فكل أحد يأمرك بمخالفة أمر الله سبحانه وتعالى فإنه عدو لك شعر بذلك أم لم يشعر، وعلى رأسهم الشيطان الأول الذي يقود كل شيطان {عَدُوٌّ} العدو ضد الولي، والولي من يتولاك ويحوطك ويعتني بك، فالعدو ضده وهو الذي لا يريد لك الخير، وإنما يريد لك الشر، وقوله: {مُبِينٌ} قال المصنف: [بين العداوة] وفسر {مُبِينٌ} ببين، لأنها من (أبان) و (أبان) تأتي بمعنى أظهر، وتأتي بمعنى ظهر، فإن كانت بمعنى أظهر فهي متعدية، وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة، ولا يمكن أن نقول: إنها من المتعدي، أو اللازم، إلا بقرينة من السياق، فهنا نقول: {مُبِينٌ} إذا فسرناها بما فسرها المصنف [بين العداوة] صارت من اللازم، مع أنه يمكن أن نجعلها من المتعدي، ونقول {مُبِينٌ} مظهر للعداوة؛ لأنه يأمرك بالشر، لكن هذا ضعيف، إذ

=

=

لو أبان عداوته ما تبعه أحد، وإنما يغر الناس كما قال تعالى: {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ} إذن فجعل {مُبِينٍ} هنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر {وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)} {لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} {وَأَنِ اعْبُدُونِي} هذا نفي وإثبات، وهو حقيقة التوحيد {وَأَنِ اعْبُدُونِي} (أن) هنا مصدرية، ويصح أن تكون مفسرة، لأن أعهد متضمنة معنى القول، وإذا سبق (أن) ما يتضمن معنى القول دون حروفه صارت تفسيرية، مثل قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ} قوله: {وَأَنِ اعْبُدُونِي} أن الله عهد إلينا أن نعبده وحده، أي: تذللوا لي بالطاعة، والمصنف قال: [وحدوني وأطيعوني] وهذا المعنى صحيح، فالعبادة توحيد الله ﷻ بالطاعة، والتذلل له بامتثال أمره، واجتناب نهيه {هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)} المشار إليه ترك عبادة الشيطان وإفراد الله بالعبادة {صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)} الصراط فسره المصنف بالطريق، ولكن الصحيح أنه ليس مطلق الطريق صراطًا، بل الصراط هو الطريق الواسع المتساوي؛ لأنه مأخوذ من الصّرط أو من الزرط، والزرط كما نعلم هو ابتلاع الشيء بسرعة، ولا يكون الطريق طريقًا ذا سرعة إلا إذا كان واسعًا وكان سهلًا، وأما قوله: {مُسْتَقِيمٌ (٦١)} فهذا وصف له، والاستقامة تشمل اعتدال السير، وتشمل أيضًا انبساط الأرض، فإذا قدر أن الطريق يذهب يمينًا وشمالًا، لم يصح أن نقول: إنه مستقيم، وإذا كان فيه مرتفعات ومنخفضات فليس بمستقيم، لأن بعضه مرتفع وبعضه نازل، فالاستقامة معناها أنه خال من الانحراف يمينًا وشمالًا، وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه وقوله: {صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)} أي: إلى الله ﷻ، والله سبحانه وتعالى أضاف الصراط إلى نفسه، وأضاف الصراط إلى خلقه فقال سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} فأضاف الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم، وقال: {وَإِنَّكَ

=

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢).

{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا} خَلْقًا جَمْع جَبِيل كَقَدِيمٍ وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الْبَاء {كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} عَدَاوَته وَإِضْلَاله أَوْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ الْعَذَاب فَتُؤْمِنُونَ وَيُقَال لَهُمْ فِي الْآخِرَة[1].

=

لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين الإضافتين؟

فالجواب: نقول: أضاف الله الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم؛ لأنهم السالكون له، وأضافه إلى نفسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعباده، وهو موصل إليه، كما تقول: هذا طريق مكة، أي: الموصل إلى مكة، وتقول: هذا طريق فلان -إذا كان هو الذي وضعه للناس وشقه لهم-، أو هو الذي سلكه ومشى عليه.

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا} [يس:٦٢].

قال الطبري: يقول: " ولقد صد الشيطان منكم خلقا كثيرا عن طاعتي، وإفرادي بالألوهة حتى عبدوه، واتخذوا من دوني آلهة يعبدونها".

قال ابن قتيبة:"أي: خلقا. «وجبلا»: بالضم والتخفيف، مثله. و «الجبل» أيضا: الخلق. قال الشاعر:

جهارا ويستمتعن بالأنس الجبل".

عن مجاهد: " {ولقد أضل منكم جبلا}، قال: خلقا".

وقال ابن عباس:"خلقا كثيرا". وروي عن مجاهد، ومطرف مثله.

قال قتادة:"جموعًا كثيرة".

وحكى الضحاك:"أن الجِبِلّ الواحد: عشرة آلاف، والكثير ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى".

=

=

قال السدي:"يعني: قد أغوى إبليس منكم جبلا، يعني: خلقا كثيرا".

عن سفيان في قوله: " {واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين}، ثم قرأ: {ولقد أضل منكم جبلا كثيرا} ".

قال ابن عباس: "يريد ما رأيتم من الأمم قبلكم ألم تعقلوا فتعتبروا بما رأيتم من الأمم قبلكم".

قوله تعالى: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس:٦٢]، أي:"أفما كان لكم عقل -أيها المشركون- ينهاكم عن اتباعه؟ ".

قال السدي:"فكفروا فلم يكونوا يعقلون".

قال الطبري: " يقول: أفلم تكونوا تعقلون أيها المشركون، إذ أطعتم الشيطان في عبادة غير الله، أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم وعدو الله، وتعبدوا غير الله".

قال ابن كثير:"أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُولُكم إلى اتباع الشيطان؟! ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)} {وَلَقَدْ} هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي: القسم المقدر؛ لأن اللام موطأة للقسم، واللام، وقد، والتقدير: والله لقد أضل.

فإذا قال قائل: كيف يقسم الله ﷻ وهو الصادق بالقول بلا قسم؟

نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول: الإشارة إلى أن هذا أمر هام يحتاج إلى القسم عليه، لأنه لولا أهميته ما أقسم عليه.

الوجه الثاني: أن القرآن نزل باللغة العربية، ومن أساليب اللغة العربية أن الشيء إذا أريد إثباته وتحقيقه فإنه يقسم عليه.

الوجه الثالث: أن المقسم به إذا كان مصرحًا به، فإن الإقسام به يدل على عظمته

=

=

فإن الله لا يقسم بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء، مثل قوله: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)}. وما أشبه ذلك مما أقسم الله به فإنه يدل على عظمة المقسم. {أَضَلَّ مِنْكُمْ} بمعنى أضاع وصرف عن الطريق المستقيم، يعني قادكم إلى ضلال ليس فيه هدى {جِبِلًّا}، قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [جبلًا: خلقًا جمع جبيل كقديم، وفي قراءة جُبُلًا بضم الباء] والقراءة هذه سبعية؛ لأن اصطلاح المصنف: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال: مثلًا بضم الباء، فهي سبعية. وإذا قال: وقرئ فهي شاذة، إذًا فيها قراءتان سبعيتان: جُبْلًّا، وجُبُلًّا، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المصنف (جِبِلًّا) وفيها قراءة رابعة (جِبِلًا) بدون تشديد اللام، ولكن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ليس تفسيره جمعًا للقراءات، إنما يذكر ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره، ولكن لا شك أنه لو ذكرها لكان أحسن؛ لأنه أحيانًا يذكر قراءات متعددة في صفة الحرف كما ذكر القراءات المتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل {أَأَنْذَرْتَهُمْ} من التسهيل، والتحقيق، والحذف وما أشبه ذلك، ولكن الإنسان بشر، أحيانًا يغفل ويهمل ما ينبغي أن يذكر، أو يذكر ما لا يحتاج أن يذكر، {جِبِلًّا} أي: خلقًا كثيرًا، ولا يعني ذلك أن الأكثر لم يضل من قبل الشيطان، بل هو أضل أكثر الخلق. لأنه ثبت في الحديث الصحيح أن الله يوم القيامة يقول: "يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: أخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، فيقول: يا ربي وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين"، هؤلاء كلهم في النار من بني آدم وواحد في الجنة، فشق ذلك على الصحابة وعظم ذلك وقالوا: أينا ذلك الواحد يا رسول الله؟ قال: "أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج" وهو كذلك فإن من شاهد الخلق الآن ونحن في جزء يسير من العصور وجد أن تسعمائة وتسعة وتسعين كلهم على ضلال، حتى المنتسبون منهم للدين الإسلامي عند طوائف منهم ضلال عظيم يبلغ بهم الكفر،

=

=

وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام: إذًا المراد بالكثير هنا الأكثر، قال: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)} الهمزة هنا للاستفهام، والمراد بالاستفهام التوبيخ، يوبخهم على عدم العقل، والفاء هنا عاطفة، والمعطوف عليه: إما ما سبق، وإما جملة مقدرة مناسبة للمقام، رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إن حرف العطف يعطف ما بعده على ما قبله، ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بين حرف العطف والهمزة، ولو جعل كل واحد مكانه لكان اللفظ (فألم تكونوا تعقلون).

ومنهم من قال: إن الهمزة في محلها، وأن الفاء عاطفة على مقدر يفهم من المقام، أو من السياق، وهذا قد يكون أقرب إلى القواعد لكنه أصعب، إذ إنك في بعض المواضع لا تستطيع أن تقدر شيئًا، ولا تعلم أي شيء يناسب، وحينئذ يكون الثاني هو الأيسر، والقاعدة عندي فيما إذا اختلف النحويون في مسألة: أن الراجح هو الأيسر، ما لم يلزم منه اختلاف المعنى، بحيث يكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذ لا نتبع الأيسر؛ لأنه يخل بالمعنى ويؤدي إلى معنى غير صحيح. لكن ما دام المعنى مستقيمًا على الوجهين، فالأيسر هو الراجح (يسروا ولا تعسروا) {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)} يعني أنه وبخهم على عدم عقلهم، والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك، وهو الذي يترتب عليه التكليف. وعقل بمعنى التصرف، وهو الذي يترتب عليه المدح، أو الذم، فالأول هو مناط التكليف وهو الذي يقول فيه الفقهاء من شروط العبادة (العقل) والمراد بالعقل في الآية العقل الثاني قطعًا؛ لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مكلفين ولا يتوجه إليهم باللوم، لكنهم انتفى عنهم عقل التصرف، فلم يحسنوا التصرف، فصاروا عقلاء غير عقلاء، عقلاء باعتبار الإدراك المترتب عليه التكليف، وغير عقلاء باعتبار التصرف المترتب عليه المدح أو الذم، فهم أعطوا ذكاء ولم يعطوا

=

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣).

{هذه جهنم التي كنتم توعدون} بها(١).

=

عقلًا، وما أحسن عبارة شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في المتكلمين حيث قال في وصفهم: (إنهم أوتوا ذكاء، وما أوتوا زكاءً، وأوتوا فهومًا، ولم يؤتوا علومًا، وأوتوا سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم، ولا أبصارهم، ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله، وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً -نسأل الله العافية- فكان ذكاؤهم حجة عليهم، وأوتوا فهومًا عندهم فهم لكنهم ما عندهم علم، والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلمه ضل وضاع، فلابد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك. فهؤلاء أوتوا عقولًا تقوم عليهم بها الحجة، ولكنهم حرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذم التي هي الرشد وحسن التصرف، فلم يستعملوا عقولهم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعهم، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)} عداوته وإضلاله، أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون] يعني لو أنكم عقلتم عداوته وإضلاله، أو عقلتم ما حل بالمتبعين له من العذاب والنكال لكنتم تخالفونه ولا تعبدونه، ولأمنتم بالله وحده، ولكن الهوى غطى الهدى كما قال ﷻ: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ}.

(١) قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} [يس:٦٣].

قال الطبري: "يقول: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله، فكنتم بها تكذبون. وقيل: إن جهنم أول باب من أبواب النار".

قال ابن كثير:"يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعًا وتوبيخًا: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم، {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} ".

=

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} قال المصنف في تقدير الكلام: [ويقال لهم في الآخرة {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} {هَذِهِ} الإشارة هنا إلى قريب؛ لأن إشارة البعيد (تلك) وهنا يقول: {هَذِهِ جَهَنَّمُ} إشارة إلى قربها منهم، لأنه يؤتى بها يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، تقاد ويؤتى بها ويشاهدها الناس ويلحقهم من الرعب العظيم ما لا يقدر الواصفون على وصفه، ويقال لهؤلاء المجرمين: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} وفي آية أخرى قال الله فيها: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)} كانوا قبل أن يدعوا إليها يقال لهم: {الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} فإذا دعوا إليها، والدع يدل على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفًا منها، ولكنهم يدفعون دفعًا بقوة -والعياذ بالله- إليها ويقال: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)}. والتكذيب عنف في رد الحق، والدع عنف، فصار الجزاء من جنس العمل، أما حين عرضت عليهم وقربت منهم قيل لهم: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)}. أي: توعدون بها ولكنهم يكذبون كما قال الله تعالى: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)} فهم توعدوا بها لكنهم كذبوا -والعياذ بالله- ويوم القيامة يوبخون على هذا التكذيب ويقال: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)} {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)}.

وهنا إشكال وهو: أنه قيل: إن الوعد في الخير والإيعاد في الشر، وعليه قول الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وهنا قال: {تُوعَدُونَ}؟

=

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤).

{اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون}[1].

=

فنقول: الأمر -كما قال المفسر- على حذف معلوم وهو قوله: (بها) أي توعدون بها، لا توعدونها. لو قال: (توعدونها) لصار للإشكال محل؛ لأن الجنة قال الله فيها: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} {وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ} لكن هؤلاء وعدوا بها، يعني أنه قيل لهم: إنكم سوف تلاقونها، وهذا هو الواقع.

(١) قوله تعالى: {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)} [يس:٦٤].

قال الطبري: "يقول: احترقوا بها اليوم وردوها؛ -يعني باليوم: يوم القيامة-، بما كنتم تجحدونها في الدنيا، وتكذبون بها".

قال أبو الليث:"يعني: اصلوها اليوم بما كفرتم في الدنيا عقوبة لكم في الدنيا".

قال ابن كثير:"كما قال تعالى: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ} [الطور: ١٣ - ١٥] ".

قال الماتريدي:"ادخلوها اليوم بما كنتم تكذبون بها".

قال النسفي:"ادخلوها بكفركم وإنكاركم لها".

قال البيضاوي:"ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا".

قال يحيى:"{بما كنتم تكفرون} في الدنيا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)}.

هذا الأمر كوني -إن كان من الله- وإن كان ممن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضًا أمر كوني، والمراد به الإهانة والإذلال، وإذ من المعلوم أنهم لن يستطيعوا أن يصلوها، لكن يقال ذلك على سبيل الإهانة والإذلال {الْيَوْمَ} أل هنا للعهد الذكري، وقد يكون بالنسبة لمخاطبة هؤلاء الكفار للعهد

=

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥).

{الْيَوْم نَخْتِم عَلَى أَفْوَاههمْ} أَيْ الْكُفَّار لِقَوْلِهِمْ وَاَللَّه رَبّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ {وَتُكَلِّمنَا أَيْدِيهمْ وَتَشْهَد أَرْجُلهمْ} وَغَيْرهَا {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فَكُلّ عُضْو

=

الحضوري، يعني: هذا اليوم للحاضر اصلوا النار فيه.

ويتردد علينا كثيرًا العهد الحضوري، والذكري، والذهني فما هو الفرق بينها؟

العهد الحضوري ما كان معهودًا لحضوره، والذكري ما كان معهودًا لذكره، والذهني ما كان معهودًا في الأذهان.

مثال العهد الذهني: إذا قلنا: اذهب إلى القاضي، وأنت مثلًا في بلد، فتذهب إلى قاضي البلد نفسه؛ لأن هذا معروف في الذهن.

مثال العهد الحضوري إذا قلت: اليوم نكرمك، كقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}.

ومثال العهد الذكري قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)} يعني الرسول المذكور وليس رسولًا آخر.

{بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)} (ما) مصدرية، أي: بكونكم تكفرون، والباء للسببية، أي: بسبب، وقوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)} أي تكفرون به بالدنيا، فقد كفروا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبكل ما أخبر الله به، ولهذا لم يقوموا بطاعته؛ لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يقال لهم {بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)} لإقامة الحجة عليهم، وبيان أنهم لم يظلموا، ولهذا {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)}.

يَنْطِقِ بِمَا صَدَرَ مِنْهُ[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} [يس:٦٥].

قال الطبري: يقول:"اليوم نطبع على أفواه المشركين، وذلك يوم القيامة".

قال السدي:"فلا يتكلمون".

قال ابن كثير:"هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت ".

عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: " أتدرون مم أضحك؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: "من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز علي إلا شاهدًا من نفسي، فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حَسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودا. فيختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي. فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا، فعنكنَّ كنتُ أناضل".

قوله تعالى: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} [يس:٦٥]، أي:"وتُكلِّمنا أيديهم بما بطشت به".

قال الطبري: يقول:"{وتكلمنا أيديهم} بما عملوا في الدنيا من معاصي الله".

قوله تعالى: {وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يس:٦٥]، أي:"وتشهد أرجلهم بما سعت إليه في الدنيا، وكسبت من الآثام".

قال الطبري: " قيل: إن الذي ينطق من أرجلهم: أفخاذهم من الرجل اليسرى {بما كانوا يكسبون} في الدنيا من الآثام".

عن قتادة، قوله:"{اليوم نختم على أفواههم}.... الآية، قال: قد كانت خصومات وكلام، فكان هذا آخره، {نختم على أفواههم} ".

=

=

قال الشعبي:"يقال للرجل يوم القيامة: عملت كذا وكذا، فيقول: ما عملت، فيختم على فيه، وتنطق جوارحه، فيقول لجوارحه: أبعدكن الله، ما خاصمت إلا فيكن".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)} {الْيَوْمَ} يعني يوم القيامة قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{أَفْوَاهِهِمْ} أي: الكفار لقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} وغيرها {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)} فكل عضو ينطق بما صدر منه {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} الختم على الشيء بمعنى إغلاقه وعدم الوصول إليه، ومنه ختمت الكيس إذا أحكمت شده، وختمت عليه بالشمع ونحوه كما يقولون، ومعنى {نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ} أي نسدها فلا تتكلم، وذلك أن المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا، تكلموا وتبرؤا من الشرك، وقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، أي: أقررنا بأننا غير مشركين لعلنا ننجوا كما نجا أهل التوحيد، وحينئذ يختم على أفواههم، لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيختم على أفواههم، وتنطق الجوارح بما عملت، والجلود بما مست، فإن الجلد يمس المحرمات كمس المرأة لشهوة مثلًا فتشهد عليهم الجوارح؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} نفس اليد تتكلم تقول: عملت كذا، عملت كذا، {وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} نفس الأرجل تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا، وتأمل الفرق بين اليد والرجل، في اليد قال الله تعالى: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} والأرجل قال: {وَتَشْهَدُ} قال بعض العلماء: لأن اليد تخبر عما فعلت، والرجل تخبر عما فعل غيرها؛ لأن الأصل في المباشرة اليد، ولهذا دائمًا يعلق الكسب باليد فيقال: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} أو {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} فلهذا كانت الأيدي مباشرة، والأرجل شاهدة؛ لأن الشاهد هو الذي يخبر عما فعل غيره، والفاعل هو الذي

=

=

يخبر عما فعله هو بنفسه -هكذا قال بعض أهل العلم- وهو فرق لا بأس به، مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} فإقرار الإنسان على نفسه شهادة عليه، لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء وذكرناه آنفًا فرق لا بأس به، قول المصنف: [وتشهد أرجلهم وغيرها] قوله: (وغيرها) لا يعني ذلك أنه يستدرك على القرآن، لكنه ينبه على موضع آخر من القرآن، ففي آية أخرى بين الله تعالى أنه تشهد عليهم الجلود {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ} فالسمع والبصر والجلود لم تذكر هنا في آية سورة يس، وإنما ذكرت الأيدي والأرجل، ولهذا قال المصنف (وغيرها) إشارة إلى أن هناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ} فالسمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مس {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} ولم يقل: (وقالوا لأبصارهم، وسمعهم: لم شهدتم) لأن عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله، لكن عذاب السمع والبصر خاص بالسمع والبصر، ولهذا قالوا لجلودهم: {لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا} لأن العذاب سيكون على الجلود، كما قال تعالى: {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} والحاصل أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء ستة: الأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلود، والألسن، فقد ذكر الله تعالى في سورة النور أن الألسن تشهد {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فاللسان أيضًا يشهد عليهم، لأن اللسان هو أعظم الجوارح

=

=

خطرًا؛ لقول النبي ﷺ لمعاذ: "ألا أدلك على ملاك ذلك كله؟ " قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، وقال: "كف عليك هذا"، قلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم" أو قال: "على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"، وكل صباح تكفر الجوارح اللسان يعني أنها تجعل الأمر مناطًا به، ولهذا قال في سورة النور: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} ونص على الألسن في سورة النور لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة كالقذف مثلًا، وأعظمه قذف عائشة رضي الله عنها ولهذا ذكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول، فقال: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)}.

{بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)} تنازعه عاملان الأول: (وتكلم) والثاني: (تشهد) والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد، مثل أن تقول: أكرمت ورأيت زيدًا، فإن أكرمت ورأيت عاملان على معمول واحد وهو: زيد، أما أيهما يعمل هل هو الأول أو الثاني؟ فالعلماء اختلفوا في ذلك: يقول ابن مالك:

والثاني أولى عند أهل البصرة ... واختار عكسًا غيرهم ذا أصبح

فالعامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

{بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)} ولم يقل: (بما كانوا يعملون)، لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان، فقد يكون العمل خطأ فلا يؤاخذ به الإنسان، فلا يكون من كسبه، بل الذي يكون من كسبه هو العمل الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} ولم يقل: (لها ما عملت، وعليها ما عملت) فالكسب أخص من العمل؛ لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسبًا، فقد يكون وقع عن سهو، أو جهل فلا يؤاخذ به

=

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦).

{وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنهمْ} لَأَعْمَيْنَاهَا طَمْسًا {فَاسْتَبَقُوا} ابْتَدَرُوا {الصِّرَاط} الطَّرِيق ذَاهِبِينَ كَعَادَتِهِمْ {فَأَنَّى} فَكَيْفَ {يُبْصِرُونَ} حِينَئِذٍ أَيْ لَا يُبْصِرُونَ(١).

=

الإنسان، وقد يكون عن غير قصد فلا يؤاخذ به الإنسان، لكن مع ذلك أحيانًا يطلق العمل ويراد به العمل الذي هو كسب مثل قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} يقول المصنف: [{بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} فكل عضو ينطق بما صدر منه] فاليد تنطق بما بطشت، والرجل بما مشت، والعين بما رأت، والأذن بما سمعت، والجلد بما مس، كما تقدم.

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} [يس:٦٦].

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} [يس:٦٦]، وجهان:

أحدهما: لأعمينا أبصار المشركين في الدنيا فضلوا عن الطريق فلا يبصرون عقوبة لهم، قاله الحسن، وقتادة.

قال الحسن:"لو يشاء لطمس على أعينهم فتركهم عميا يترددون".

قال قتادة:"لو شئنا لتركناهم عميا يترددون".

قال ابن قتيبة:"المطموس: هو الأعمى الذي لا يكون بين جفنيه شق".

الثاني: لأعمينا قلوبهم فضلوا عن الحق فلم يهتدوا إليه، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"يقول: أضللتهم وأعميتهم عن الهدى".

قال الطبري:"والقول الأول" أشبه بتأويل الكلام، لأن الله إنما تهدد به قوما كفارا، فلا وجه لأن يقال: وهم كفار، لو نشاء لأضللناهم وقد أضلهم، ولكنه قال: لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عميا لا يبصرون طريقا، ولا يهتدون له؛ والطمس على العين: هو أن لا يكون بين جفني

=

=

العين غر، وذلك هو الشق الذي بين الجفنين كما تطمس الريح الأثر، يقال: أعمى مطموس وطميس".

قوله تعالى: {فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} [يس:٦٦]، أي:"فبادَروا إلى الصراط ليجوزوه، فكيف يتحقق لهم ذلك وقد طُمِست أبصارهم؟ ".

قال الطبري:"يقول: فابتدروا الطريق، فأي وجه يبصرون أن يسلكوه من الطرق، وقد طمسنا على أعينهم".

قال ابن قتيبة:"{فاستبقوا الصراط} ليجوزوا. {فأنى يبصرون} أي فكيف يبصرون؟! ".

عن قتادة:"{فاستبقوا الصراط}، الطريق".

عن قتادة:"{فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} فكيف يُبصرون إذا أغشيناهم؟! ".

عن مجاهد، قوله: {فاستبقوا الصراط}، قال: الطريق"، " {فأنى يبصرون}، وقد طمسنا على أعينهم".

قال ابن عباس، وقتادة، وعطاء:"يعني: ولو نشاء لفقأنا أعين ضلاقهم وأعميناهم عن غيهم، وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فاهتدوا وأبصروا رشدهم، فأنى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم؟! ".

وقال الحسن، والسدي: "يعني: ولو نشاء لتركناهم عميًا يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ". وفي رواية عنهما:"فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم؟! ".

وعن ابن عباس: " {فأنى يبصرون}، يقول: فكيف يهتدون".

وقال ابن عباس:"يقول: لا يبصرون الحق".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ}

=

=

لأعميناهم طمسًا {فَاسْتَبَقُوا} ابتدروا {الصِّرَاطَ} الطريق ذاهبين كعادتهم {فَأَنَّى} فكيف {يُبْصِرُونَ (٦٦)} حينئذ أي: لا يبصرون].

قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ} (لو) حرف امتناع لامتناع، والذي امتنع الطمس لامتناع المشيئة، فإذًا هي حرف امتناع لامتناع. لو جاء زيد لأكرمتك، امتنع المجيء والإكرام، و (لولا) حرف امتناع لوجود و (لما) حرف وجود لوجود، فهذه الأدوات الثلاث تنازعت الوجود والعدم (لو جاء زيد لأكرمتك) امتناع الامتناع، (لولا زيد لأكرمتك) امتناع لوجود فإن شئت قلت (لولا مجيء زيد لأكرمتك) لكي ينطبق المثلان هنا {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ} (نشاء) الضمير ضمير جمع، يعني لو نشاء نحن، وهذا من المشتبه؛ لأن النصراني ادعى تعدد الآلهة لمثل هذا الضمير، قال: فالله ﷻ يعبر عن نفسه بنحن و (نشاء) (نريد) وما أشبه ذلك إذًا فهو متعدد، ولكننا نرد عليه بأن الجمع هنا للتعظيم وليس للتعدد، لأنه عميت عينه وعميت بصيرته عن الآيات الصريحة المحكمة الدالة على أن الله إله واحد {إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ولكن كما قال الله ﷻ: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} إذًا الضمير (نشاء) وهو ضمير جمع للتعظيم وليس للجمع قطعًا، لأن الله واحد {لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} الطمس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطمس إزالة العين مرة واحدة ليس لها أثر، والعمى يكون مع بقاء العين، لكن قد تكون قائمة في صورتها وقد تختلف، المهم أن الطمس إزالة العين ومعالمها نهائيًا، لو شاء الله تعالى لفعل ذلك بعد وجود العين، لأن الله قال: {لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} والله ﷻ على كل شيء قدير، فكما كان قادرًا على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشق، وإذا كان البشر ربما يخيط الشق حتى يتلاءم فما بالك بالخالق ﷻ، الذي يقول للشيء: (كن) فيكون {فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)} هو يعني طمس على أعينهم فصاروا يتسابقون لعلهم يدركون الطريق

=

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧).

{وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ} قِرَدَة وَخَنَازِير أَوْ حِجَارَة {عَلَى مَكَانَتهمْ} وَفِي قِرَاءَة مَكَانَاتهمْ جَمْع مَكَانَة بِمَعْنَى مَكَان أَيْ فِي مَنَازِلهمْ {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} أَيْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَهَاب وَلَا مَجِيء[1]

=

الذي يوصلهم إلى مقصودهم، وكأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحمر لعلهم يهتدون إلى الطريق، وهل يمكن للأعمى أن يدل الطريق من حيث الدلالة البصرية؟ ! لا يمكن، ولهذا قال: {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)} يعني كيف يبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم؟ ! والمقصود بهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى طمس قلوب هؤلاء، ولو شاء لطمس أعينهم، فصار الطمس حسيًّا معلومًا، وكما أن المطموسة عينه لا يبصر، فكذلك المطموسة بصيرته لا يبصر الحق، كيف يمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يبصر الحق ويهتدي؟ هذا شيء متعذر كما أن من طمس الله بصره لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ} [يس:٦٧].

قال الطبري: يقول:"ولو نشاء لأقعدنا هؤلاء المشركين من أرجلهم في منازلهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ} [يس:٦٧]، أربعة وجوه من التفسير:

أحدها: لأقعدناهم على أرجلهم، قاله الحسن، وقتادة.

قال الحسن:"لو نشاء لجعلناهم كسحا لا يقومون".

الثاني: لأهلكناهم في مساكنهم، قاله ابن عباس.

الثالث: لغيّرنا خلْقهم فلا ينقلبون، قاله السدي.

الرابع: معناه: لجعلناهم حجارة. قاله أبو صالح.

=

=

قال الزمخشري:"أي: أقعدناهم في منازلهم قردة وخنازير، و «المسخ»: تحويل الصورة".

قال ابن قتيبة:"{على مكانتهم} هو مثل مكانهم. يقال: مكان ومكانة ومنزل ومنزلة".

قوله تعالى: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس:٦٧]، أي:"فلا يستطيعون أن يَمْضوا أمامهم، ولا يرجعوا وراءهم".

قال الطبري: "يقول: فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم".

قال ابن كثير:"{فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا} أي: إلى أمام، {وَلا يَرْجِعُونَ} أي: إلى وراء، بل يلزمون حالا واحدًا، لا يتقدمون ولا يتأخرون".

وفي قوله تعالى: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ} [يس:٦٧]، وجهان:

أحدهما: فما استطاعوا لو فعلنا ذلك بهم أن يتقدموا ولا يتأخروا، قاله قتادة.

الثاني: فما استطاعوا مُضِيًّا في الدنيا، ولا رجوعًا فيها، قاله أبو صالح.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)} في الآية السابقة {لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} انتفاء الدلالة، وفي الآية انتفاء السير. {لَمَسَخْنَاهُمْ} قيل: المراد بالمسخ -كما قال المصنف- [قردة وخنازير، أو حجارة].

وقيل: المراد بالمسخ الإبقاء على ما هم عليه، يعني يمسخون على مكانتهم فلا يستطيعون التحرك وهو آدمي، لكنه ممسوخ لا يستطيع الحراك، وأيًّا كان فالله على كل شيء قدير، فقد قلب الله تعالى بني إسرائيل قردة وخنازير، {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)} {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير،

=

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨).

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ} بِإِطَالَةِ أَجَله {نَنْكُسهُ} وَفِي قِرَاءَة بِالتَّشْدِيدِ مِنْ التَّنْكِيس {فِي الْخَلْق} فَيَكُون بَعْد قُوَّته وَشَبَابه ضَعِيفًا وَهَرِمًا {أَفَلَا يَعْقِلُونَ} أَنَّ الْقَادِر عَلَى ذَلِكَ الْمَعْلُوم عِنْدهمْ قَادِر عَلَى الْبَعْث فَيُؤْمِنُونَ وَفِي قِرَاءَة بِالتَّاءِ[1].

=

والنبي عليه الصلاة والسلام قال: "أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار، أو يجعل صورته صورة حمار"، والأمر هين على الله سبحانه وتعالى يقول: (كن) فيكون، فيقول: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ} أي: حولنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير، أو جعلناهم حجارة، أو أننا أبقيناهم ماكثين كالجماد. المهم أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون، ولهذا قال: {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)} أي فما استطاعوا أن يمضوا؛ لأنهم مسخوا على مكانتهم وبقوا ثابتين، ولا يستطيعون أن يرجعوا، والذي لا يستطيع أن يمضي ولا يرجع ثابت، كالعمود لا يتقدم أمامًا ولا يتأخر خلفًا، لو شاء الله ﷻ لمسخهم على هذا حتى ظهر أمرهم محسوسًا، أما بالنسبة للخير والتقدم إليه فهم لم يتقدموا للخير، ولكن تأخروا عنه إلى الشر، ولهذا كان سيرهم الذي يسيرون عليه في العمل عكس الاتجاه الصحيح، بل مضاد له تمامًا.

(١) قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} [يس:٦٨].

قال الماتريدي:"أي: نصيره ضعيفا بعد أن كان قويا".

قال ابن الجوزي: أي:"من نطل عمره ننكس خلقه، فنجعل مكان القوة الضعف، وبدل الشباب الهرم، فنرده إلى أرذل العمر".

قال الجصاص:"ومثله قوله تعالى: {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} [النحل: ٧٠] وسماه أرذل العمر؛ لأنه لا يرجى له بعده عود من النقصان إلى الزيادة ومن

=

=

الجهل إلى العلم كما يرجى مصير الصبي من الضعف إلى القوة ومن الجهل إلى العلم، ونظيره قوله تعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة} [الروم: ٥٤] ".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره ردّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط، كما قال تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤]. وقال: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥].

والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ} [يس:٦٨]، قولان:

أحدهما: أنه بلوغ ثمانين سنة، قاله سفيان.

قال سفيان:"إذا بلغ ثمانين سنة تغير جسمه".

الثاني: هو الهرم، قاله قتادة، ويحيى بن سلام.

قال قتادة:"هو الهرم. يتغير سمعه، وبصره وقوته، كما رأيت".

وقال قتادة:"يقول: من نمد له في العمر ننكسه في الخلق، لكيلا يعلم بعد علم شيئا، يعني: الهرم".

قال ابن قتيبة:"أي: نرده إلى أرذل العمر".

قال مقاتل:"فنطول عمره".

وفي قوله تعالى: {نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} [يس:٦٨]، وجهان من التفسير:

أحدهما: نردُّه في الضعف إلى حال الضعف فلا يعلم شيئًا، وهذا معنى قول يحيى بن سلام.

قال يحيى:"فيكون بمنزلة الصبي الذي لا يعقل، كقوله: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى

=

=

أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [الحج: ٥] ".

الثاني: أن التنكيس في الخلق هو ضعف الجوارح بعد قوتها، أي: نغير سمعه وبصره وقوته، قاله قتادة.

قال الزجاج:"معناه: من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفا وبدل الشباب هرما".

قال الزمخشري:"أي: يرده إلى أرذل العمر شبه حال الصبي الذي هو أول الخلق، وقيل: يصيره بعد القوة إلى الضعف، وبعد الزيادة إلى النقصان، وبعد الحدة والطراوة إلى البلى والخلوقة، فكأنه نكس حاله".

وقال ابن عباس-في رواية عطاء-: "ومن نعمره يريد المشركين، نرده إلى ذهاب العقل، كما قال {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [التين: ٥] يريد الكافرين من ولد آدم".

قرأ حمزة: «ننكسه»، مشددة مع ضم النون الأولى وفتح الثانية، والباقون: بفتح النون الأولى وتسكين الثانية من غير تشديد وعن عاصم كالقراءتين.

قوله تعالى: {أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس:٦٨]، أي:"أفلا يعقلون أنَّ مَن فعل مثل هذا بهم قادر على بعثهم؟ ".

قال السمعاني:"معناه: أفلا يعقلون آياتي؟ ".

قال ابن الجوزي: أي:"أفلا يعقلون أن من فعل هذا قادر على البعث؟ ".

قال ابن كثير:"أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى نفس الشَّبيبَة، ثم إلى الشيخوخة؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة".

قال يحيى:"يعني به المشركين، أي: فالذي خلقكم، ثم جعلكم شبابا ثم جعلكم شيوخا، ثم نكسكم في الخلق، فردكم بمنزلة الطفل الذي لا يعقل شيئا قادر على

=

=

أن يبعثكم يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:"أفلا يعقل هؤلاء المشركون قدرة الله على ما يشاء بمعاينتهم ما يعاينون من تصريفه خلقه فيما شاء وأحب من صغر إلى كبر، ومن تنكيس بعد كبر في هرم".

وقرئ: «أفلا تعقلون»، بالتاء على وجه الخطاب.

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)}.

هذه الجملة شرطية، فعل الشرط قوله {نُعَمِّرْهُ} وجوابه: {نُنَكِّسْهُ} يقول الله ﷻ: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ} أي: نجعل عمره طويلًا، ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[بإطالة أجله {نُنَكِّسْهُ} وفي قراءة بالتشديد من التنكيس]، القراءة التي جعلها المصنف أصلًا (نُنْكِسْهُ) من الإنكاس، والقراءة التي في المصحف {نُنَكِّسْهُ} من التنكيس، والإنكاس والتنكيس بمعنى الرد من حال كاملة إلى حال ناقصة، وقوله: {نُنَكِّسْهُ} أو {نُنَكِّسْهُ} {فِي الْخَلْقِ} يقول المصنف في تفسيرها: [أي: خلقه، فيكون بعد قوته وشبابه ضعيفًا وهرمًا]. فكلما طال العمر بالإنسان فإنه يرجع للوراء، ليس في القوة البدنية فحسب، بل في القوة العقلية، والقوة البدنية، والقوة الفكرية، فيضعف ويعود إلى أرذل العمر، كما قال الله ﷻ، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا}، وقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} والغرض من هذا التنبيه -وإن كان أمرًا واقعًا وكل يعرفه- الغرض منه أن يبادر الإنسان عمره مادام في قوته وشبابه، لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية، ولا القدرة الفكرية، ويكون تفكيره محدودًا كتفكير الصبي لا يفكر إلا بما يحيط به جدران بيته، ويكون عقله كذلك محدودًا لا يستطيع أن ينظر ويعقل، ويفكر في الأمور، ويوازن بينها ويحكم عليها، كذلك أيضًا يكون حفظه للأشياء محدودًا، فيمر به الشيء في الصباح ولا يستطيع التعبير

=

=

عنه في المساء، وكل هذا أمر واقع وظاهر، بل من الناس من يسلب عقله نهائيًا، وربما يصل إلى حد يشبه الجنون فيؤذي أهله بالصراخ والعويل والأناشيد وما أشبه ذلك حسب ما كان عليه حين الصغر، حتى قيل: إن الإنسان إذا كان جمالًا مثلًا، وكان ينشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يبدأ ينشد هذه الأشعار فكل هذا أمر لابد منه، ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم

فكل إنسان عاقل إذا تذكر أن مآله إما موت عاجل، وإما هرم، فإنه لا يطيب له العيش، ولكن العاقل ليس معنى أنه لا يطيب له العيش أنه يبقى في ندم وفي حزن، بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لابد منها، {أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)}. قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إن القادر على ذلك المعلوم عندهم قادر على البعث فيؤمنون به، وفي قراءة بالتاء] أي: (أفلا تعقلون)، وهي سبعية كما تقدم من اصطلاح المصنف. هكذا قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحالة الدانية على أن الله تعالى قادر على أن يبعثهم، وهذا الذي قاله ممكن، لكن أحسن منه أن يقال: إن معنى قوله: {أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)} أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال؟ تبادروها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم، حتى إذا وصلتم إلى هذه الحالة، وإذا أنتم على أتم استعداد لها، وغالبًا أن الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله سبحانه وتعالى إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطاعات، كثير من المسلمين إذا هرموا تجده يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ، أو تجده يصلي دائمًا، أو تجده يقرأ القرآن دائمًا، أو يذكر الله تعالى دائمًا، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها، وعكس ذلك سيكون بالعكس من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيء، نسأل

=

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩).

{وَمَا عَلَّمْنَاهُ} أَيْ النَّبِيّ {الشِّعْر} رَدّ لِقَوْلِهِمْ إنَّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ الْقُرْآن شِعْر {وَمَا يَنْبَغِي} يَسْهُل {لَهُ} الشِّعْر {إنْ هُوَ} لَيْسَ الَّذِي أَتَى بِهِ {إلَّا ذِكْر} عِظَة {وَقُرْآن مُبِين} مُظْهِر لِلْأَحْكَامِ وَغَيْرهَا[1].

=

الله العافية والسلامة.

(١) قوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس: ٦٩].

قال الطبري: يقول:"وما علمنا محمدا الشعر، وما ينبغي له أن يكون شاعرا".

قال يحيى:"{وما علمناه الشعر}، يعني: النبي عليه السلام. {وما ينبغي له} أن يكون شاعرا ولا يروي الشعر".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ: أنه ما علمه الشعر، {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}، أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جِبِلَّته؛ ولهذا وَرَدَ أنه، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتًا على وزنٍ منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه".

قال الزجاج:"أي: ما علمنا محمدا ﷺ قول الشعر. {وما ينبغي له}، أي: ما يتسهل له ذلك، وليس يوجب هذا أن يكون النبي ﷺ لم يتمثل ببيت شعر قط. إنما يوجب هذا أن يكون النبي عليه السلام ليس بشاعر، وأن يكون القرآن الذي أتى به من عند الله، لإنه مباين لكلام المخلوقين وأوزان أشعار العرب، والقرآن آية معجزة تدل على أن نبوة النبي ﷺ وآياته ثابتة أبدا".

عن قتادة، قوله: " {وما علمناه الشعر وما ينبغي له}، قال: محمد ﷺ، عصمه الله من ذلك".

قال الشعبي:"ما وَلَد عبد المطلب ذكرًا ولا أنثى إلا يقول الشِّعر، إلا رسول الله ﷺ".

=

=

قال الإمام الشافعي:"لا يكاد يجود شعر القرشي؛ وذلك أن الله جل ذكره، قال لنبيه ﷺ: {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو} الآية، ولا يكاد يجود خط القرشي؛ وذلك أن النبي ﷺ كان أميا".

عن الحسن البصري،:"إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت:

كَفَى بالإسْلام والشيْب للمرْء نَاهيًا

فقال أبو بكر: يا رسول الله:

كَفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا

قال أبو بكر، أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} ".

وروى البيهقي في الدلائل: أن رسول الله ﷺ قال: للعباس بن مرداس السلمي: "أنت القائل:

أتجعل نَهبي ونَهْب العُبَيد بين الأقرع وعيينة".

فقال: إنما هو: "بين عيينة والأقرع" فقال: "الكل سواء".

قال ابن كثير:"يعني: في المعنى، صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر السهيلي في "الروض الأنف" لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه، عليه السلام، في هذا البيت مناسبة أغرب فيها، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَة بن بدر الفزاري؛ لأنه ارتد أيام الصديق، بخلاف ذاك، والله أعلم".

روى الأموي في مغازيه: "أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر، وهو يقول: "نُفلق هَامًا................ ".

فيقول الصديق، رضي الله عنه، متمما للبيت:

مِنْ رجَال أعزَّةٍ عَلَيْنَا... وَهُم كَانُوا أعَقَّ وَأظلما".

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضي الله عنه إنشاد آخره لأنه

=

=

كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى: {وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ}.

عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر، تمثل فيه ببيت طَرَفَة:

ويَأْتِيكَ بالأَخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ".

وقالت عائشة-رضي الله عنها-:"ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط، إلا بيتا واحدًا:

تَفَاءلْ بما تَهْوَى يَكُنْ فَلَقَلَّمَا... يُقَالُ لِشَيْءٍ كَانَ إلا تَحَقَّقَا".

عن قتادة: " قيل لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس، فيجعل آخره أوله، وأوله آخره، فقال له أبو بكر: إنه ليس هكذا، فقال نبي الله: "إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي".

وثبت في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة، ولكن تبعًا لقول أصحابه، فإنهم يرتجزون وهم يحفرون، فيقولون:

لاهُمَّ لوْلا أنت مَا اهْتَدَيْنَا مَا اهْتَدَيْنا... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنزلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا... وَثَبِّت الأَقْدَامَ إنْ لاقَيْنَا

إنّ الألى قَدْ بَغَوا عَلينَا... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ويرفع صوته بقوله: "أبينا" ويمدها.

وقد روي هذا بزحاف في الصحيح أيضًا. وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة، يُقدم بها في نحور العدو:

أنا النَّبِيّ لا كَذِبْ... أَنَا ابْنُ عُبْد المُطَّلِبْ

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقًا من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير
=

=

قصد إليه.

وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غار فَنَكِبت أصبعه، فقال:

هَلْ أَنْت إلا إصْبَعٌ دَمِيت... وفي سَبيل الله مَا لَقِيت

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما عُلِّم شعرًا ولا ينبغي له؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم، الذي {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤٢]. وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة، ولا مفتعل، ولا سحر يُؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضُّلال وآراء الجُهَّال.

وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعًا وشرعًا، كما رواه أبو داود... عن عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أبالي ما أوتيت إن أنا شَربت ترياقًا، أو تعلقت تميمة، أو قلت الشعر من قبل نفسي» ".

عن أبي نوفل قال: "سألتُ عائشة: أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه. وقال عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك".

روي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا، خير له من أن يمتلئ شعرًا".

عن شَدَّاد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة، لم تقبل له صلاة تلك الليلة".

قال ابن كثير: "وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة. والمراد بذلك نظمه لا إنشاده، والله أعلم. على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام،

=

كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رَوَاحة، وأمثالهم وأضرابهم، رضي الله عنهم أجمعين. ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه النبي الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»، وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبي ﷺ مائة بيت، يقول عقب كل بيت: "هيه". يعني يستطعمه، فيزيده من ذلك".

وقد روى أبو داود من حديث أُبي بن كعب، وبُريدة بن الحُصَيْب، وعبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: "إن من البيان سحرًا، وإن من الشعر حكما".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: ٦٩]، أي:"ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، وقرآن بيِّن الدلالة على الحق والباطل، واضحة أحكامه وحِكَمه ومواعظه".

قال الطبري: يقول: " ما هو محمد إلا ذكر لكم أيها الناس، ذكركم الله بإرساله إياه إليكم، ونبهكم به على حظكم، وهذا الذي جاءكم به محمد قرآن يبين لمن تدبره بعقل ولب، أنه تنزيل من الله أنزله إلى محمد، وأنه ليس بشعر ولا مع كاهن".

قال ابن كثير:"أي: ما هذا الذي علمناه، {إلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ}، أي: بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره".

قال السمعاني:"أي: تذكرة وقرآن بين".

عن قتادة:"{إن هو إلا ذكر}، قال: هذا القرآن".

قال سهل:"هو الذكر والتفكر".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ} أي: النبي {الشِّعْرَ} رد لقولهم: إنما أتى به من القرآن شعرًا {وَمَا يَنْبَغِي} يسهل {لَهُ} الشعر {إِنْ

=

هُوَ} ليس الذي أتى به {إِلَّا ذِكْرٌ} عظة {وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} مظهر للأحكام وغيرها] قوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} {وَمَا عَلَّمْنَاهُ} (نا) تعود إلى الله سبحانه وتعالى، وأما الضمير (الهاء) فيعود إلى النبي ﷺ.

فإذا قال قائل: أين مرجع الضمير لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكر للنبي ﷺ؟

قلنا: إن الضمير يعلم مرجعه من السياق السابق، أو السياق اللاحق، وهذا يشبه العهد الذكري في (أل)، أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهومًا عند المخاطب، وهذا كالعهد الذهني، وهنا يعلم مرجع الضمير في قوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} ومعلوم أن الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو محمد ﷺ، يقول الله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ} أي: ما علمنا النبي ﷺ الشعر؛ لأن الشعر لو علمه الله تعالى النبي ﷺ لكان في ذلك حجة للمبطلين المكذبين، ولقالوا: إنما هذا القرآن من جملة الشعر الذي علم إياه، ولهذا لم يعلم الشعر، ولم يعلم الكتابة كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)} فالنبي ﷺ لم يقل شعرًا أبدًا، وإذا قدر أن جرى على لسانه كلام موزون وزن الشعر فإنه ليس عن قصد وإرادة، وإنما جاء عفوًا، والذي يأتي عفوًا ليس مقصودًا فلا يكون معلومًا مثل قوله ﷺ:

"أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب"

فإن هذا رجز، ولكنه ليس عن قصد، فلا يكون ذلك شعرًا، أما الشعر فإنه الكلام الموزون المقفى الذي يأخذ باللب، وسمي شعرًا لأنه يأخذ بالشعور، ولهذا تجد أن النظم يأخذ باللب أكثر من أن يأخذ النثر، فربما تسمع خطبة بليغة جيدة جدًّا، وتجد ما يماثلها في المعاني بالنظم ولكنك ترى أن تأثير النظم أشد، وأقرب للشعور أكثر، ولهذا سمي شعرًا، وبه نعرف أن ما يسمى الآن بالشعر المنثور

=

=

ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر، فهو ليس بشعر وليس بنثر، وإنما هو كالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا يطرب إليه من يطربون إلى النثر والخطب، ولا يطرب إليه من يطربون إلى الشعر والقصائد، فهو في الحقيقة ليس بشيء، ولكن لكل امرئ من دهره ما تعود، والذين أحدثوه يطربون له، ويرون أنه أشد شاعرية من شعر امرئ القيس. {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ} قال المصنف: [ردّ لقولهم: (إن ما أتى به من القرآن شعر] والمكذبون والذين يقومون ضد -أي إنسان- لا بد أن يصفوا قوله بالمعائب لأجل أن ينفر الناس عنه، ولكن كما قال الله ﷻ: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} وقال الله سبحانه وتعالى في سورة الذاريات: {كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢)} كل الرسل وصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السحر، والجنون، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أيضًا وصف بذلك، وصفوه بأنه ساحر، وشاعر، ومجنون، وكاهن، وكذاب، كل ذلك من أجل أن ينفروا الناس عنه، ولكن هل حصل الأمر وهل نفر الناس؟ أبدًا، لأن الحق -والحمد لله- سيعلو مهما قوبل به من صدمات فإن العاقبة له.

فإذا قال قائل: هذا الوصف للرسول عليه الصلاة والسلام هل يتعدى إلى أتباعه؟ **فالجواب**: نعم. كل ما وصفت به الرسل يوصف بمثله أتباعهم، ألم تعلموا أن المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)} يصفونهم بالضلال، وفي عصرنا يصفونهم بالرجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي ينفرون الناس بها عن الحق، وأهل البدع يصفون أهل السنة والجماعة بألقاب السوء يقولون: إنهم نوابت، غثاء، حشوية، مجسمة، مشبهة، وما أشبه ذلك، كل هذا من أجل التنفير عمّا هم عليه، ولكن الحمد لله أن الأمر يكون ثوابًا لهؤلاء الذين يوصفون بهذه العيوب، وامتحانًا لهم بالصبر على ما هم عليه من

=

=

الحق، ثم العاقبة تكون لهم، {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} الشعر قال المصنف: [أي: ما يسهل له الشعر]. بل هو صعب عليه إنشاءً، وصعب عليه إنشادًا، فهو عليه الصلاة والسلام إذا أنشد شعر غيره ينشده أحيانًا على غير الوزن المعروف، لأنه ليس له عناية بالشعر أو تحفظ له، أما بنفسه فلا ينشد.

ولكن الأولى أن نفسر {وَمَا يَنْبَغِي} أي: ما يمكن ولا يصلح له، ولا يليق به، لأنه كل ما جاءت في القرآن {وَمَا يَنْبَغِي} فالمراد بها الممتنع غاية الامتناع، كما في قوله تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)} أي: مستحيل غاية الاستحال، ومثل قوله تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ} يعني هذا شيء مستحيل أن تدرك القمر هذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس {وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} أي ما يمكن ولا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يكون شاعرًا. فلا يصح ولا يمكن أن يُعلم أو يتعلم الشعر؛ لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجًا من المبطلين كما في قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)} فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إن هذا القرآن شعر مما تعلمه.

سؤال: لماذا وصف العرب الجاهليون القرآن بالشعر مع أن الفرق بين الشعر والنثر واضح لدى عامتهم فضلًا عن خواصهم؟

الجواب: المبطل يموه بكل شيء، وإذا كثرت الدعايات والكلام والقول فقد ينقلب الأمر، فهم يعرفون أن هذا ليس بشعر، لكن قد يقولون: هذا شعر على وجه جديد وما أشبه ذلك، يروجون لدعايتهم حتى يشتبه الأمر.

سؤال: يقول من يروج للشعر الحديث: إن الشعر كان عند العرب بهذا الشكل بدليل أنهم نعتوا القرآن بالشعر وليس موزونًا ولا مقفى؟

الجواب: هذا من باب الترويج، ولهذا لا تستطيع أن تأتي بقصيدة واحدة أبدًا

=

=

على مثل شعرهم هذا.

كما أنه لو كان يكتب لقالوا إن هذا شيء مما كتبه. {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} قال المصنف: [ليس الذي أتى به إلا ذكر] فأفادنا بأن (إن) هنا نافية، أي: ما هو إلا ذكر، و (إن) تأتي لعدة معانٍ: تأتي زائدة، وشرطية، ونافية، ومخففة من الثقيلة. والذي يعين المعاني المتعددة في الكلمة الواحدة هو السياق، وهذه قاعدة في كل كلمة ذات معاني متعددة أنه يعينها السياق، وقرينة الحال، وهي هنا نافية، قال {هُوَ} الضمير يعود على المصدر المفهوم من {عَلَّمْنَاهُ}، وكون مرجع الضمير مصدرًا معلومًا من الفعل السابق أمر لا يستغرب، ألم تر إلى قوله تعالى: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} {هُوَ} أي: العدل المفهوم من كلمة: (اعدلوا) وهنا {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين. قوله: {إِلَّا ذِكْرٌ} قال المصنف: [عظة] يعني موعظة يتذكر بها من تذكر، والذي يتذكر بهذا القرآن بينه الله تعالى في قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)} وهذا باعتبار الاستعداد والقبول، وجاء في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن، فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة "ق" بيان الذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر، وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل، وكلما ازداد الإنسان عملًا بالقرآن ازداد تذكرًا به، وهذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في معنى الذكر هو أحد المعاني؛ لأن الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معان:

المعنى الأول: ما ذكره المصنف وهو العظة والتذكر به.

المعنى الثاني: إنه ذكر يذكر به الله، وهو أشرف أنواع الذكر، لأن القرآن كلام الله

=

=

ﷻ، فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمته ﷻ؛ ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب؛ ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها؛ ولأنه يشتمل على أحكام من لدن حكيم خبير، هي أعدل الأحكام وأقومها لمصالح العباد؛ ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف، وكل هذا ذكر، فالقرآن نفسه ذكر لله ﷻ؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بينها الله تعالى في كتابه.

المعنى الثالث: أنه رفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به لقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤)} والذكر بمعنى الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)} أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم. ولا شك أن من تمسك بالقرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق، ولهذا فإني أحثكم على أن تمسكوا بهذا القرآن العظيم، وإذا تمسكتم به عقيدة، وعملًا، وهديًا فستكون العاقبة لكم، ولا تظنوا أنكم قليلون -لو كنتم قليلين- فإن الاهتداء بالقرآن يستلزم أن ينجذب الناس للمهتدي به حتى يكثروا شيئًا فشيئًا، كالحجر تلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليم كله، فالحاصل أن الإنسان إذا تمسك بهذا القرآن الكريم فسوف يكون له الشرف والسيادة والظهور على جميع الخلق، قال: {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} قرآن يحتمل أن يكون معنى مفعول، وأن يكون بمعنى فاعل؛ لأن قرآن مصدر مثل: الشكران، والغفران، والنكران، وما أشبهه، والمصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، ويأتي بمعنى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارئ ومقروء، أما كونه قارئًا فلأنه من القر يعني الجمع فهو جامع للأحكام، والأخلاق، والآداب الموجودة في الكتب السابقة قبله، كما قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

=

=

يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} وجامع أيضًا لكل ما تقوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو أيضًا مقروء أي: متلو؛ لأنه يتلى، والقراءة بمعنى التلاوة. {مُبِينٌ} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ[مظهر للأحكام وغيرها] فـ {مُبِينٌ} هنا من (أبان) بمعنى أظهر، وقد سبق لنا مرارًا أن (أبان) يكون لازمًا، ويكون متعديًا، يكون لازمًا بمعنى ظهر، وهو كثير في القرآن مثل: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)} أي: بين ظاهر، وتأتي مبين من (أبان) بمعنى أظهر، أي: المتعدي كما في الآية: {مُبِينٌ (٦٩)} أي مظهر، مظهر للأحكام وغير الأحكام، كما قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القرآن، لكن وجوده في القرآن: إما أن يكون على وجه صريح، أو على وجه ظاهر، أو على وجه الإيماء والإشارة، أو على وجه الشمول والعموم، أو على وجه اللزوم، فالمهم أن القرآن مبين لكل شيء، تارة يذكر الدليل على المسألة، وتارة يذكر التوجيه إلى الدليل فمثلًا: هناك مسائل لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الركعات في الصلوات، وتقدير أنصبة الزكاة، وما يجب فيها، وما أشبهها لكن في القرآن ما يشير إليه مثل قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} فهذه الآية إذا وجهتها إلى السنة شملت جميع السنة، وشرعنا كله لا يعدو الكتاب والسنة، إذًا فالقرآن مبين لكل شيء، وهو أيضًا مبين لكل ما سبقنا من الحوادث التي يكون في بيانها مصلحة كقصص الأنبياء، وقصص الأولياء، وقصص المكذبين للرسل وغير ذلك، فكل ما سبق مما فيه مصلحة لنا فهو مذكور، أما ما ليس فيه مصلحة فإنه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشيء الذي لم يذكر موكولًا إلى عقول الناس وتجاربهم، كما في كثير من طبائع الأشياء الأمور الطبيعية سواء الفلكية، أو الجولوجية، أو غير ذلك نجد أن القرآن لم يفصلها ولم يبينها؛ لأنه ليس فيها فائدة، فائدتها تكمن

=

=

في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله، ويتحركون حتى يدركوها، ولهذا تجد بعض المسائل التي يتنازع فيها الناس كمسألة دوران الأرض ليست موجودة في القرآن على وجه صريح، ولو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثباتًا أو نفيًا لكان الله ﷻ يبينه بيانًا واضحًا كما بين الأمور التي لابد لنا من الاعتقاد فيها على وجه صريح، إذًا هذه موكولة للناس، واستخراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح العظيمة التي لم يطلع عليها إلا أخيرًا هذه أيضًا لم تذكر في القرآن، وإن كان في القرآن إشارة إليها، لكنه لم تذكر على وجه التفصيل بل قال الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} وقطع من صيغ جموع التكثير لو تقول: "إنها ملايين القطع" لم يخرج عن دلالتها، هذه القطع لولا أنها تختلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله {قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} إذًا هي متباينة. في هذه الآية تستطيع أن تقول: إن الله أرشدنا إلى استخراج المعادن من الأرض، لأن الله بين أنها قطع، وليست القطع التي فوق التراب فقط، ففيه أشياء كثيرة ما تعلم وربما تعلم في المستقبل، وربما بعضها علم الآن، فالقرآن مبين لكل شيء، وإذا تدبرت القرآن مرة بعد أخرى لا تعيد التدبر مرة ثانية إلا ظهر لك معنى جديدًا غير الأول، ولا يمكن لأحد أن يحيط بمعاني القرآن، لكن كلما تدبره الإنسان طالبًا للحق، مريدًا للصواب فإنه يهتدي إلى معاني كثيرة، سئل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء - لأنه كان يروج في ذلك الوقت - من وقت علي والشيعة يروجون بأن النبي ﷺ عهد بالخلافة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فسئل هل عهد إليكم رسول الله ﷺ بشيء؟ يعني من الخلافة، أو من العلوم التي كتمها عن الناس؟ فقال: لا والذي برأ النسمة، وفلق الحبة إلا فهما يؤتيه الله تعالى من شاء في كتابه، وما في هذه الصحيفة، والذي في هذه الصحيفة العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم

=

=

بكافر. الشاهد قوله: "إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء من كتابه" وهذا الفهم يختلف فيه الناس اختلافًا كثيرًا جدًّا جدًّا، ترى بعض العلماء يتكلم عن آية يستخرج منها فوائد محدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها ويستخرج منها أضعافًا مضاعفة بالنسبة لما استخرجه الأول، وكل هذا بحسب استعداد الإنسان وفهمه وبصيرته، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا وتقوى ازداد هدى بالقرآن {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)}.

(منبهة): قال الله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩)) [يس: ٦٩].

وفي الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رجلا قال له: "يا أبا عمارة، وليتم يوم حنين ؟ قال: لا والله، ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى سرعان الناس؛ فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب". أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، حديث (٢٨٦٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، حديث (١٧٧٦).

وعن الأسود بن قيس قال: سمعت جندبا رضي الله عنه يقول: "بينما النبي ﷺ يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه؛ فقال: هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت".

* ظاهر الآية الكريمة أن الشعر ممتنع تعلمه ونظمه على النبي ﷺ، وأما الحديثين فقد جاء فيهما ما يوهم معارضة هذا الظاهر؛ إذ فيهما أن النبي ﷺ أنشد ذينك البيتين من تلقاء نفسه، وهذا يوهم قدرة النبي ﷺ على النظم، وهو خلاف الآية.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآية والأحاديث:

=

=

اتفق العلماء على أن الشعر ممتنع نظمه على النبي ﷺ، أخذا بظاهر الآية الكريمة، واختلفوا في حكم تمثل النبي ﷺ بشيء من الشعر وإنشاده، حاكيا عن غيره، والصحيح جوازه، وعليه الجمهور من العلماء.

وأما أحاديث الباب - التي يوهم ظاهرها أن النبي ﷺ قال شيئا من الشعر من تلقاء نفسه - فقد اختلفوا في الجواب عنها على مذاهب:

الأول: أن النبي ﷺ قال ذلك النظم اتفاقا ولم يقصد به قرض الشعر؛ والكلام قد يخرج موزونا على وزن الشعر من غير معرفة أو قصد من قائله.

وقد حكى ابن القطاع اللغوي، وأقره النووي، الإجماع على أن شرط تسمية الكلام شعرا أن يقصد له قائله.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن النبي ﷺ لم يقصد نظما ووزنا فيكون شعرا، إذ قد يأتي في الكلام والقرآن ما يتزن بوزن الشعر وليس بشعر، كقوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) [آل عمران: ٩٢]، وقوله: (وجفان كالجواب وقدور راسيات) [سبأ: ١٣]، وقوله: (نصر من الله وفتح قريب) [الصف: ١٣]، وكثيرا ما يقع للعوام في كلامهم: المقفى الموزون، وليس بشعر، ولا يسمى قائله شاعرا؛ لأنه لم يقصده، ولا شعر به، والشعر إنما سمي بذلك؛ لأن قائله يشعر به، ويقصده نظما، ووزنا، ورويا، وقافية، ومعنى.

وعلى هذا المذهب جماهير العلماء، من مفسرين ومحدثين، وممن قال به: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وابن قتيبة، وأبو الليث السمرقندي، والزمخشري، والمازري، والقاضي عياض، وابن عطية، والفخر الرازي، وأبو عبد الله القرطبي، والبيضاوي، وابن جزي، والطيبي، وأبو حيان، والذهبي، والحافظ ابن كثير، والزركشي، والحافظ ابن حجر، والسيوطي، وأبو السعود، والملا علي القاري، والمناوي، والشوكاني، والآلوسي، وابن عثيمين.

=

=

المذهب الثاني: أن تمثل النبي ﷺ ببيت واحد من الشعر لا يلزم منه أن يكون عالما بالشعر، ولا شاعرا؛ لأن إصابة القافيتين من الرجز وغيره لا يوجب أن يكون قائلها عالما بالشعر، ولا يسمى شاعرا باتفاق العقلاء.

والذي نفى الله عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر؛ بأصنافه، وأعاريضه، وقوافيه، والاتصاف بقوله، والنبي ﷺ لم يكن موصوفا بشيء من ذلك باتفاق.

وهذا جواب: الزجاج، والطحاوي، والنحاس، والجصاص، وأبي العباس القرطبي.

المذهب الثالث: أن الذي قاله النبي ﷺ هو من الرجز، والرجز لا يعد شعرا، والذي نفاه الله تعالى عن نبيه إنما هو الشعر لا الرجز.

وهذا مذهب: الخليل، والأخفش الأوسط، وابن التين.

وهو اختيار: البيهقي، والسهيلي، والعيني.

أما الخليل فيرى أن ما جاء من السجع على جزأين فإنه لا يكون شعرا.

وأما الأخفش فيرى أن الرجز لا يكون شعرا؛ لوقوعه من النبي ﷺ، والله تعالى يقول: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له).

وقال ابن التين: "لا يطلق على الرجز شعرا؛ إنما هو كلام مرجز مسجع؛ بدليل أنه يقال لصانعه: راجز، ولا يقال: شاعر، ويقال: أنشد رجزا، ولا يقال: أنشد شعرا". اهـ

وقد اختلف العروضيون وأهل الأدب في الرجز هل هو من الشعر أم لا؟ مع اتفاق أكثرهم على أن الرجز لا يكون شعرا.

قال أبو العباس القرطبي: "والصحيح في الرجز أنه من الشعر، وإنما أخرجه من الشعر من أشكل عليه إنشاد النبي ﷺ إياه فقال: لو كان شعرا لما علمه النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) قال: وهذا ليس

=

=

بشيء؛ لأن من أنشد القليل من الشعر، أو قاله، أو تمثل به على الندور، لم يستحق به اسم الشاعر، ولا يقال فيه إنه تعلم الشعر، ولا ينسب إليه، ولو كان ذلك للزم أن يقال عن الناس كلهم شعراء، ويعلمون الشعر؛ لأنهم لا يخلون أن يعرفوا كلاما موزونا مرتبطا على أعاريض الشعر". اهـ

المذهب الرابع: أن النبي ﷺ قال هذين البيتين متمثلا، وهما من نظم غيره وليسا من نظمه.

وهذا جواب ابن الجوزي، حيث يرى أن كل ما نقل عن النبي ﷺ من الشعر فهو لغيره، وإنما كان النبي ﷺ يتمثل به، وأما قول الشعر من قبل نفسه ﷺ فإنه ممتنع عليه، ولا يتأتى منه.

وأجاب عن قوله ﷺ:

أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب

باحتمال أن يكون النبي ﷺ سمعه بلفظ:

أنت النبي لا كذب... أنت ابن عبد المطلب

فغيره وأضافه لنفسه.

وأما قوله ﷺ:

هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت

فقد جزم الطبري، وابن التين: بأن هذا الرجز من شعر عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه -.

قال الحافظ ابن حجر: "ويؤيد قولهما أن ابن أبي الدنيا في "محاسبة النفس" أورد هذين الشطرين لعبد الله بن رواحة، فذكر أن جعفر بن أبي طالب لما قتل في غزوة مؤتة - بعد أن قتل زيد بن حارثة - أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل فأصيب إصبعه فارتجز وجعل يقول هذين القسمين، وزاد:

=

=

يا نفس إن لا تقتلي تموتي... هذي حياض الموت قد صليت

وما تمنيت فقد لقيت... إن تفعلي فعلهما هديت

قال: وذكر الواقدي: أن الوليد بن الوليد بن المغيرة كان رافق أبا بصير في صلح الحديبية على ساحل البحر، ثم إن الوليد رجع إلى المدينة، فعثر بالحرة، فانقطعت إصبعه، فقال هذين القسمين". اهـ

المذهب الخامس: أن النبي ﷺ قال: "لا كذب" بتنوين الباء مرفوعة، وبخفض الباء من عبد المطلب على الإضافة، وهذا ليس على وزن الشعر.

وقوله:

هل أنت إلا إصبع دميت... وفي سبيل الله ما لقيت

إنما يكون شعرا موزونا إذا كسرت التاء من "دميت" و "لقيت"، فإن سكنت لم يكن شعرا بحال؛ لأن هاتين الكلمتين على هذه الصفة تكون فعول، ولا مدخل لفعول في بحر السريع، ولعل النبي ﷺ قالها ساكنة التاء أو متحركة التاء من غير إشباع.

وهذا جواب: ابن العربي، والكرماني.

وتعقبهما الحافظ ابن حجر فقال: "وقولهما هذا مردود؛ فإنه يصير من ضرب آخر من الشعر، وهو من ضروب البحر الملقب بالكامل، وفي الثاني زحاف جائز ". اهـ

و الزحاف في الشعر: حرف بين حرفين، وهو تغير يقع في الركن إما بزيادة أو نقص، ويقال لذلك الركن الذي تغير: مزاحفا وغير سالم، والزحف إذا وقع في الصدر سمي: ابتداء، وإذا وقع في العروض سمي: فصلا، وإذا كان في وسط البيت سمي: اعتدالا. انظر: المصدر السابق، ص (٩٠٥).

و الذي يظهر صوابه – والله تعالى أعلم – أن ما روي عن النبي ﷺ من إنشاده

=

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠).

{لِيُنْذِر} بِالْيَاءِ وَالتَّاء بِهِ {مَنْ كَانَ حَيًّا} يَعْقِل مَا يُخَاطِب بِهِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ {وَيَحِقّ الْقَوْل} بِالْعَذَابِ {عَلَى الْكَافِرِينَ} وَهُمْ كَالْمَيِّتِينَ لَا يعقلون ما يخاطبون به[1].

=

لبعض الشعر إنما قاله اتفاقا، ولم يقصد به نظم الشعر.

وتمثل النبي ﷺ ببيت واحد من الشعر لا يلزم منه أن يكون عالما بالشعر، لأن الذي نفى الله عن نبيه ﷺ هو العلم بالشعر، بأصنافه، وأعاريضه، وقوافيه، والاتصاف بقوله، والنبي ﷺ لم يكن موصوفا بشيء من ذلك باتفاق، فخرج أن يكون شاعرا أو عالما بالشعر.

وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعا وشرعا، فعن أبي نوفل بن أبي عقرب قال: "سألت عائشة: هل كان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه".

وعن ابن عمر - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا".

وكان ﷺ لا يحفظ بيتا على وزن منتظم، وإن أنشده زحفه أو لم يتمه، وهذا مما يؤكد أن النبي ﷺ لم يكن يحسن صناعة الشعر، ولا تقتضيه جبلته، والله تعالى أعلم.

(١) قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا} [يس: ٧٠].

قال الطبري: " يقول: إن محمد إلا ذكر لكم لينذر منكم أيها الناس من كان حي القلب، يعقل ما يقال له، ويفهم ما يبين له، غير ميت الفؤاد بليد".

قال ابن كثير:"أي: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حي على وجه الأرض، كقوله: {لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، وقال: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ

=

=

مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]. وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب، مستنير البصيرة ".

عن قتادة:"{لينذر من كان حيا}، قال: حي القلب، حي البصر".

عن الضحاك، قوله: " {لينذر من كان حيا}، قال: من كان عاقلا".

وقال مقاتل:"يعني: لتنذر يا محمد بما في القرآن من الوعيد من كان مهديا في علم الله- ﷻ-".

قال الزجاج:"معنى: {من كان حيا}، أي" من كان يعقل ما يخاطب به، فإن الكافر كالميت في أنه لم يتدبر فيعلم أن النبي ﷺ وما جاء به حق".

قوله تعالى: {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [يس: ٧٠]، أي:"ويحق العذاب على الكافرين بالله؛ لأنهم قامت عليهم بالقرآن حجة الله البالغة".

قال الطبري:"يقول: ويحق العذاب على أهل الكفر بالله، المولين عن اتباعه، المعرضين عما أتاهم به من عند الله".

قال ابن كثير:"أي: هو رحمة للمؤمن، وحجة على الكافر".

عن قتادة:"{ويحق القول على الكافرين}، بأعمالهم أعمال السوء".

قال الزجاج:"يجوز {ويحق القول}، أي: يوجب الحجة عليهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)}.

قال المصنف: [بالياء والتاء] {لِيُنْذِرَ} بالياء الضمير يعود على القرآن {لتنذر} الضمير يعود على رسول الله ﷺ، لكن على قراءة التاء قدر المصنف: [لتنذر به] فكلمة [به] تعود على القراءة الثانية وهي: [لتنذر]، أما القراءة الأولى [لينذر] فلا تحتاج إلى هذا التقدير، ولا شك أن القرآن نفسه منذر، وأن النبي ﷺ منذر به، فالقرآن فيه وعيد، وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد، وهذا هو الإنذار، كما أن فيه بشارة، وأوصافًا للمبشرين، وهذا هو التبشير، فالقرآن فيه بشارة وفيه

=

=

إنذار، والنبي ﷺ جاء بالقرآن، وأنذر به، وخوف به، ورغب به {مَنْ كَانَ حَيًّا} قال المصنف: [يعقل ما يخاطب به وهم المؤمنون] {مَنْ كَانَ حَيًّا} هل المراد هنا بالحياة الحياة المعنوية التي هي حياة القلب، أو الحياة الحسية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنه يشمل الأمرين، ولهذا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: من كان حيًّا على وجه الأرض. يعني من كان حيًّا حياة جسمية؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامة لجميع الخلق، فهو ينذر من كان حيًّا، أي: ينذر كل حي، أو من كان حيًّا حياة معنوية يعني حياة القلب؛ لأن حي يراد به من يعقل ويتبصر ويؤمن، وعكسه الميت، ميت الجسم، وميت القلب، أما ميت الجسم فلا يمكن إنذاره بالقرآن، لأنه انتقل إلى دار الجزاء، ولا يمكن أن يفهم ولا يعلم، وأما ميت القلب فلأنه طبع على قلبه – والعياذ بالله – فلا يصل إليه النور ولا يصل إليه الحق {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ} قال المصنف: [بالعذاب {عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} وهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به]، {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} كان المتوقع أن يقال: ويحق القول على من كان ميتًا، أو على الأموات؛ لأن هذا مقتضى المقابلة، لكن عُدل عن هذا إلى ذكر الكافرين فقال: {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمران:

الأمر الأول: أن المراد بالميت الكافر، وأن الكافر لا يمكن أن ينتفع بالقرآن.

الثاني: التسجيل على أن من لم ينتفع بالقرآن فهو كافر، ومن انتفع به في شيء دون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر، ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر، لكنها قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، فلهذا عدل الله عَزَّ وَجَلَّ والله أعلم – عن هذا إلى قوله {وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)} دون قوله: "ويحق القول على الميتين" بل قال {عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)}، ومن الأمثلة على هذا: -وهو كثير

=

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١).

{أو لم يَرَوْا} يَعْلَمُوا وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ وَالْوَاو الدَّاخِلَة عَلَيْهَا للعطف {أنا خلقنا لهم} في جملة الناس {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} عَمِلْنَاهُ بِلَا شَرِيك وَلَا مُعِين {أَنْعَامًا} هِيَ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} ضَابِطُونَ[1].

=

بالقرآن- قوله سبحانه وتعالى: {وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} لم يقل: (يقضون بالباطل) بل قال: {لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ} ليشمل الباطل وغير الباطل، يعني ليس لهم قضاء إطلاقًا؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء.

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} [يس:٧١].

قال الطبري: يقول:"{أولم يروا} هؤلاء المشركون بالله الآلهة والأوثان: {أنا خلقنا لهم} مما خلقنا من الخلق {أنعاما} وهي المواشي التي خلقها الله لبني آدم، فسخرها لهم من الإبل والبقر والغنم".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم".

قيل لابن زيد:"أهي الإبل؟ فقال: نعم، قال: والبقر من الأنعام، وليست بداخلة في هذه الآية، قال: والإبل والبقر والغنم من الأنعام، وقرأ: {ثمانية أزواج}، قال: والبقر والإبل هي النعم، وليست تدخل الشاء في النعم".

عن السدي: قوله: " {مما عملت أيدينا}، قال: من صنعتنا".

قال السمعاني:"أي: مما تولينا خلقه وإبداعه، والأولى في «الأيدي»: أن يؤمن بها ولا تفسر".

قوله تعالى: {فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [يس:٧١]، أي:"فهم مالكون أمرها".

قال الطبري:"يقول: فهم لها مصرفون كيف شاءوا بالقهر منهم لها والضبط".

=

=

قال ابن كثير: "أي: جعلهم يقهرونها".

قال قتادة: "أي: ضابطون".

قال الزجاج: "معنى: {مالكون}، ضابطون، لأن القصد ههنا إلى أنها ذليلة لهم ألا ترى إلى قوله {وذللناها لهم}، ومثله من الشعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا... أملك رأس البعير إن نفرا

أي: لا أضبط رأس البعير".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)} {أَوَلَمْ يَرَوْا} الاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير، سواء كانت أداة النفي حرفًا مثل: (لم)، أو فعلًا مثل: (ليس) فالاستفهام هنا للتقرير، والواو حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، أو أن المعطوف عليه مقدر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السياق، قال المصنف: [{يَرَوْا} يعلموا]. ففسر الرؤية هنا برؤية العلم، ويمكن أن يراد بها رؤية البصر، ورؤية البصر أشد وأقوى في التقرير من رؤية العلم، لأن رؤية العلم قد ينكر الإنسان، فيقول: أنا لا أعلم هذا، لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه لا يمكنه أن ينكر، والحقيقة أنها محتملة لهذا وهذا، فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء، لا شك أنها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء كما قال تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} وباعتبار المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يشاهد ويعلم ولا يمكن إنكاره، قال المصنف: [والاستفهام للتقرير، والواو الداخلة عليها للعطف] هل الواو داخلة أو مدخولة؟ المصنف يقول: الواو على الهمزة" لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو، فإذا قلت (سوف يقوم) فإن سوف دخلت على يقوم، فالداخل هو الأول، والمصنف يقول: الواو الداخلة عليها، يشير إلى القول الثاني في مثل هذا التركيب

=

وهو أن التقدير: (وألم يروا أنا خلقنا لهم) وهذا أحد القولين، فهنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جعل الواو داخلة على الهمزة، والواقع أن الهمزة حسب الترتيب داخلة على الواو، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن في المسألة تقديمًا وتأخيرًا، وأن الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله (وألم يروا) {أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ} قال: [في جملة الناس {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} عملناه بلا شريك ولا معين] {أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ} أي أوجدنا لهم من العدم أنعامًا، والله سبحانه وتعالى مختص بالخلق، فلا خالق إلا الله سبحانه وتعالى، وإضافة الخلق إلى المخلوق ليس على سبيل الإضافة بالنسبة إلى الله تعالى؛ لأن خلق الله تعالى للأشياء خلق إيجاد من عدم، وخلق المخلوق للأشياء ليس خلق إيجاد، ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال، أو من وصف إلى وصف، فإذا نجرت الخشبة بابًا فقد خلقتها بابًا، لكن هل أنت أوجدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا، لكن صيرتها إلى هيئة معينة، وهذا نوع من الخلق، ولهذا يقال: للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتم، مع أنهم لم يوجدوا الصورة من عدم، لكن غيروا ونقلوا من حال إلى حال، فالخلق الخاص بالله هو خلق الإيجاد، أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط {لَهُمْ} اللام في {لَهُمْ} للاستحقاق، ويصلح أن تكون للملك كما سيأتي في الآية نفسها {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} أي مما عملنا وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى وكان الواقع كذلك لقال: (مما عملنا بأيدينا) كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد، أما هنا فأضاف العمل إلى اليد {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} فهو كقوله تعالى: {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليد، والمراد الإنسان، كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يديه والمراد نفسه، أي: مما عملنا، ولو

=

قلنا: بأنه خلقها بيديه لكانت الأنعام أشرف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهنا قال: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} بالجمع فهل الله ﷻ له أكثر من يدين؟ الجواب: لا، ليس لله أكثر من يدين، ليس له إلا يدان اثنتان، وجمع هنا من أجل المناسبة؛ لأن الأفصح في المثنى إذا أضيف إلى جمع الجمع، ألم تر إلى قول الله تعالى {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} مع أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد، فهنا لما أضافه إلى الضمير المفيد للجمع - وهنا للتعظيم بلا شك - ناسب الجمع، وأيضًا فإن الجمع أبلغ في التعظيم فلهذا جمعت، وأيضًا فإن هذه الأنعام لا يحصيها إلا الله ﷻ فهي جموع كثيرة، كل واحد منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلق خاص، فجمع أيضًا باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام، وعلى كل حال فهذه الآية لا شك إنها تفيد إثبات اليد لله ﷻ، ولكنها لا تفيد أنه له أكثر من يدين لما تقدم من وجوه الجمع.

فإذا قال قائل: مأ هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟

قلنا: الدليل أن الله تعالى تمدح بهما في مقام المدح والعطاء والرزق، ولو كان له أكثر من ذلك لذكرها لاقتضاء المقام إياه، قال الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} ولو كان له أكثر من واحدة لقال: (بل أيديه) لأنه بلا شك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء وهذا باعتبار المخلوق، أما الخالق ﷻ فعطاؤه لا ينفد، ولا يعد، وليس له إلا يدان اثنتان، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

{أَنْعَامًا} قال المصنف: [هي الإبل والبقر والغنم] كأن المصنف رحمه الله تعالى خصها بالإبل والبقر والغنم س لقوله تعالى: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}. ولو قيل: بأن الآية أعم من ذلك؛ لأنه قد يكون هناك حيوانات يحصل بها من المنافع ما يحصل بهذه الأشياء الثلاثة: الإبل والبقر والغنم، {فَهُمْ

=

=

لَهَا مَالِكُونَ (٧١)} الفاء مفرعة على قوله: {أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ} أي: فعلى كونها خلقت لهم ولمصالحهم هم لها مالكون، وأتى بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت والاستمرار، أي: أن هذا الملك مستمر، وهذا الملك الذي ذكره الله ﷻ يقول فيه المصنف: [ضابطون] فهو من ملك التصرف، وليس من الملك الشرعي الذي يحصل بالبيع والشراء والهبة وما أشبهها. أي: أنهم يملكونها ويضبطونها ويتصرفون فيها كما شاءوا.

ومن فوائد الآية الكريمة: صحة نسبة العمل إلى الله؛ لقوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} لكن لا يسمى الله بالعامل، كما لا يسمى بالصانع أخذًا من قوله: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} وذلك لأن باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتسمية، فيجوز أن نشتق من كل اسم صفة، ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسمًا.

ولهذا نقول: (الصفات أوسع من الأسماء)، أي باب صفات الله أوسع من باب الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تتضمن اسمًا.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضا: إثبات اليد لله ﷻ؛ لقوله: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} وهذه اليد التي أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة، ولكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلًا وسمعًا، قال الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} وأما العقل: فإن كل عاقل يدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذات والصفات، فالواجب علينا أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أن ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، فمثلًا: السمع، والعلم، والقدرة، والحياة هذه صفات لازمة، ويسميها أهل العلم الصفات الذاتية، ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق وما أشبه ذلك، صفات غير لازمة،

=

=

ويسميها أهل العلم: الصفات الفعلية. فالله لم يزل ولا يزال خالقًا، لكن المخلوق يتجدد، فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق فإنه يكون حادثًا بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع، وليس حدوث جنس، لأن الله لم يزل ولا يزال خالقًا. والاستواء على العرش هذا لا شك أنه حادث؛ لأنه قبل العرش ليس مستو عليه، والذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد، والوجه، والقدم، والعين، هذا نظيره بالنسبة لنا جزء من الذات، أو بعض منها، ولا يصح أن نقول: إنه جزء من الله، أو بعض من الله؛ لأن الله ﷻ لا يتجزأ ولا يتبعض، إذ إن الجزء ما جاز وجود أصله بعدمه، فبالنسبة لله لا يمكن أن يكون هكذا، يعني لا يمكن أن تنفصل اليد مثلًا - وحاشا لله ﷻ أو الوجه، أو ما أشبه ذلك، بالنسبة للمخلوق يمكن أن تنفصل، ولهذا يجب أن نقول: ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا، ولا نقول ما هو أجزاء وأبعاض لله؛ لأن هذا منكر غاية الإنكار.

واليد نقول: إنها حقيقية، ثابتة لله على الوجه اللائق به، ولكن لا تماثل أيدي المخلوقين، وهذا مذهب السلف، وعليه جرى أئمة المسلمين، لكن ابتلي قوم بتحريف اليد وقالوا: إنها النعمة، أو القوة، بناءً على أن عقولهم تحيل أن يتصف الله ﷻ باليد الحقيقية، ولا شك أن هذا ضلال وجناية على النصوص. أما كونه ضلالًا؛ فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة، وهذا لا شك أنه ضلال، إذ كيف تحكم على الخالق بعقلك؟ والخالق ﷻ يقول عن نفسه: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} ويقول: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} ويقول: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} وأنت تقول ليس له يد. سبحان الله؟ ولولا تأويلهم لها، وقولهم: نحن نثبت اليد ولكن المراد كذا. لكان هذا تكذيبًا للنصوص، ونحن نعلم أن المكذب للنصوص كافر.

وكان جناية على النصوص من وجهين؛ لأنهم يقولون: إن الله لم يرد كذا، وأراد

=

=

كـذا، فنفـوا مـا أراد الله، وأثبتـوا مـا لـم يـرده، فكـان جنايـة علـى النـصوص مـن الوجهين: السلبي والإيجابي السلبي حيث نفوا ما أثبت الله، والإيجابي أثبتوا ما لـم يـرده الله. إذ قـال الله ﷻ: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} قـالوا: أراد باليـدين النعمـة أو القوة. نقول – سبحان الله – من الـذي أعلمـك؟ الله يقـول: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} وأنت تقول: ليس له يد، بل هي نعمة، من الذي قال لك هـذا؟ فنفيك قـول على الله بلا علم، وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم، فكان جناية على النصوص من وجهين، والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هـذا المسلك أئمة مشهود لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة، ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله ﷻ وأن الإنـسان مهمـا كـان فهـو ضـعيف وقاصـر، وإلا فـالله سـبحانه وتعـالى يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث، وأحسن الحديث، وصادر من أعلم بما يقول. ثم نقول: الله ما أراد هكذا، فيجب أن نؤمن بأن الله لـه يـد حقيقيـة لائقة به، لا تماثل أيدي المخلوقين بأي حال من الأحوال.

وهكذا يجب علينا أن نجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

فإن قيل: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} أي: بقوة.

فالجواب: أن نقول هذا صحيح (أيد) هنـا بمعنـى قـوة، لأن أيـدٍ مـصدر أد، يئيـد، أيدًا، كباع يبيع بيعًا، وكال يكيـل كـيلًا، ولا يجـوز أن نقـول هـي كقولـه: {أَيْدِينَا} لأن الله لم ينسبها إلى نفسه، فلم يقل: "والسماء بنيناها بأيدينا" وإذا لم ينسب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله، فكان يتعين أن نفسر قولـه: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} أي بقوة. وإذا لم يضف الله شيئًا إلى نفسه حـرم أن نـضيفه إليـه. لأنـا لو أضفناه إليه وهو لم يضف إليه لكنا نقـول علـى الله بـلا علـم. ألـم تـر إلـى قولـه تعـالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)}

=

اختلف السلف في قوله: {عَنْ سَاقٍ} هل المراد عن شدة، أو المراد عن ساقه ﷻ، ونحن إذا أخذنا القاعدة التي قررناها الآن بأن ما لم يضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نضيفه إليه، قلنا: إن المراد بالساق هنا الشدة ولابد، ولا يمكن أن نفسره بساق الله، لأن الله لم يضفه إلى نفسه فلم يقل: (يوم نكشف عن ساقنا) بل قال {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ} ولكن إذا تأملت سياق الآية الكريمة وما جاء في الصحيحين في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وجدت أن ذلك يقتضي أن يكون المراد به ساق الله فإنه في حديث أبي سعيد الطويل المشهور، أن الله يكشف عن ساقه فيسجد له كل من كان يسجد لله تعالى في الدنيا، ويعجز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا، فهنا {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)} نجد أن سياق الآية يوافق سياق الحديث، وحينئذ نقول: إن كلام الله تعالى يفسر بكلام الله تعالى، ويفسر بكلام رسوله ﷺ، فإذا دل سياق حديث أبي سعيد على ما دل عليه سياق الآية فإن الآية تفسر به، وحينئذ يكون القول الراجح أن المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المراد به ساق الله ﷻ، ولكنه نُكر للتعظيم، لأن التنكير قد يراد به التعظيم.

فإذا قال قائل: الآية التي معنا في سورة "يس" {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} فهل تصفون الله بأن له أيدٍ كثيرة أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان، وحينئذ نحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليه قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} وقوله: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ} وبين هذه الآية، {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)} وما أشبه ذلك.

قال أهل العلم: الجمع بينهما متيسر - ولله الحمد - لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت. ولا في كلامه من تفاوت أيضًا، فلا يتفاوت كلامه ولا يتناقض، كما لا يتناقض خلقه أيضًا، فالخلق منسجم بعضه مع بعض، وكذلك الشرع منسجم بعضه مع بعض. قالوا: إن المفرد المضاف يشمل؛ لأنه للعموم، ألم تر إلى قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا} نعم لا تحصى مع أنه قال: {نِعْمَتَ اللهِ} واحدة، لكن المفرد المضاف يكون للعموم فيشمل كل ما يثبت لهذا المفرد المضاف وإن كثر، إذًا {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} لو فرض بأن هناك أيادي كثيرة، فيدخل واليدان فإنه تدخل، إذًا لا منافاة بين المفرد وبين العدد جمعًا كان أو مثنى، فقوله: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} اليد مفرد مضاف. والضمير مضاف إليه، والمفرد المضاف يفيد العموم. أي: مفرد مضاف فهو مفيد للعموم. ومثال لذلك: لو قال رجل لامرأته: طالق، وله أربع نسوة يطلق كل النسوة إلا إذا نوى أنها واحدة، ولو قال: عبدي حر، وله أكثر من عبد عتق الجميع، ما لم يُرد واحدًا.

ولو قال: بيتي وقف، وله بيوت صارت بيوته كلها وقفًا ما لم يرد واحدًا. فالمفرد المضاف يعم.

بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين، والجمع الذي هو "أيدينا" كيف نجمع بينهما؟

والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن كثيرًا من علماء اللغة العربية يقولون: إن أقل الجمع اثنان، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} فهنا جمع مع أن المراد اثنان.

وبقوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ} (إخوة) جمع. مع أن الأم تحجب من الثلث إلى السدس باثنين. وبقول النبي ﷺ: "الاثنان وما فوقهما جماعة" أي: في الصلاة.

=

ولكن أكثر علماء اللغة -وهو المشهور- يقولون: إن أقل الجمع ثلاثة، وحينئذ يمكن الجمع.

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إن المراد بالجمع في قوله تعالى: {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} المراد به التعظيم، لأن الجمع يدل على التعظيم، ولهذا يأتي ضمير الجمع "نا" في مقام التعظيم. فكل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو (نا) فليس المراد به الجمع، بل المراد به التعظيم. فهنا الجمع للتعظيم، وللمناسبة أيضًا لأنه أضيف إلى ما يفيد الجمع فكان الأنسب أن يكون مجموعًا، فهذه المناسبة لفظية، وإرادة التعظيم مناسبة، معنوية. وبهذا يزول الإشكال.

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون: إن لله أيادي كثيرة؟

فالجواب: إن هذا يمنعه المعنى، لأن الله تعالى لما مدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين، ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر؛ لأنه أبلغ في المدح. فلما قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} عُلم أنه ليس له إلا يدان اثنتان، ومثل ذلك قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} فأثبت القبضة بيد، والسماوات مطويات بيمينه باليد الأخرى، والنصوص في هذا كثيرة، ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول: في صفة العين، العين وردت مجموعة، ووردت مفردة {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)} {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} فنقول: عين مفرد مضاف فيعم {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} إما أن نقول للتعظيم، أو بأن أقل الجمع اثنان، وليس لله أكثر من عينين اثنتين، ودليل ذلك حديث الدجال حينما تحدث النبي ﷺ عنه، وبيّن تمويهاته قال: "إنه أعور العين اليمنى، وإن ربكم ليس بأعور"، فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي عور عين الدجال، ومن العجب أن بعض الناس قال: إن

=

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢).

{وذللناها} سخرناها {لهم فمنها ركوبهم} مركوبهم {ومنها يأكلون[1]}.

=

المراد بالعور هنا العيب، يريد أن يثبت أن لله تعالى أعينًا كثيرة، بناءً على الجمع في قوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} ولكن هذا عور من هذا القائل؛ لأن الحديث صريح في أن المراد عور العين، حيث قال: "أعور العين اليمنى" ولم يقل: (أعور) فقط، فلو قال: (أعور) فقط، وربما يحتمل ما قاله، مع أن ما قاله ضعيف بعيد؛ لأن اللغة العربية لا تعبر بالعور عن العيب، فالرسول ﷺ قال: "أربع لا تجوز في الأضاحي: المريضة، والعجفاء، والعوراء، والعرجاء" فجعل العور غير العيب، فكل الثلاثة الأخرى عيوب، لكن جعل العور في العين، فنحن نقول لهم: أصل العور في العين ثم إذا جاء الحديث "أعور العين اليمنى" صار قاطعًا للاحتمال قطعًا نهائيًّا لا يمكن أن يراد به العيب.

فإذا قال قائل: ما وجهه؟

قلنا: وجهه: لو كان لله أكثر من عين لكان الرسول ﷺ يذكره؛ لأنه أدل على تعظيم الله، وأبين في التميز من أن يقال: أن الفرق هو أن هذا أعور، والرب محز وجل ليس بأعور، وبهذا يتبين أن دلالة حديث الدجال -وهو صحيح- دلالة واضحة ظاهرة، على أنه روي في حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مختصر الصواعق المرسلة "إذا قام أحدكم يصلي فإنه بين عيني الرحمن" وهذا الحديث فيه ضعف لكننا في الحقيقة لسنا بحاجة إليه، لأن الحديث الثابت في الصحيحين في قصص الدجال واضح والحمد لله.

(١) قوله تعالى: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ} [يس:٧٢].

قال السمعاني:"أي: جعلناها ذليلة لهم".

قال الطبري:"يقول: وذللنا لهم هذه الأنعام".

=

=

قال ابن كثير: أي: "وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه. وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر، لسار الجميع بسيرِ صغيرٍ".

وقال مقاتل:"فيحملون عليها ويسوقونها حيث شاءوا ولا تمتنع منها".

قوله تعالى: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ} [يس:٧٢]، أي:"فمنها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليها الأثقال".

قال الطبري:"يقول: فمنها ما يركبون كالإبل يسافرون عليها؛ يقال: هذه دابة ركوب".

قال ابن كثير:"أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال، إلى سائر الجهات والأقطار".

قال قتادة:"يركبونها يسافرون عليها".

قال مقاتل:"{فمنها ركوبهم}: حمولتهم الإبل والبقر".

قال السمعاني:"الركوب: ما يركب".

قال الزجاج:"معناه: ما يركبون، والدليل قراءة من قرأ: «فمنها ركوبتهم» ".

عن هارون، قال: "قراءة الحسن الأعرج وأبي عمرو والعامة: «فمنها ركوبهم»، يعني: ركوبتهم حمولتهم".

قوله تعالى: {وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [يس:٧٢]، أي:"ومنها ما يأكلون".

قال الطبري: أي:"لحومها".

قال ابن كثير:"إذا شاؤوا نحروا واجتزروا".

قال قتادة:"{ومنها يأكلون}: لحومها".

قال مقاتل:"يعني: الغنم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)}.

=

=

{وَذَلَّلْنَاهَا} أي: سخرناها وجعلناها ذليلة تنقاد لهم، وينتفعون بها كما يشاؤون، ولهذا نجد الصبي الصغير يقود هذا الجمل الكبير، وقد ذلل له ويقوده حيث شاء، بل إن الإنسان يقود البعير الكبير الجسم إلى مكان نحره وينقاد معه، ثم قسم الله ﷻ وجوه الانتفاع فقال: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ} الركوب فعول، بمعنى: مركوب، أي: فمنها ما يركبونه، مثل الإبل.

{وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} مثل الغنم، ومنها ما يجمع بين الأكل والركوب مثل الإبل، فهذه الأنعام منها: ما يركب ويؤكل، ومنها ما يؤكل ولا يركب. وإذا قلنا: إن الآية أعم مما قال المصنف، فإننا نقول: منها ما يركب ولا يؤكل، مثل: البغال والحمير والفيلة وغيرها.

فالله ﷻ جعل لهذه الأنعام فوائد متعددة: من الأكل والركوب، وفي سورة النحل ذكر أيضًا من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين. فالمنافع كثيرة في هذه الأنعام التي خلقها الله ﷻ لنا. وقوله سبحانه وتعالى: {فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} {من} في الموضعين هل هي للتبعيض، أو للابتداء، أو للجنس؟ مقتضى التقسيم أن تكون للتبعيض، أي: بعضها يركب وبعضها يؤكل.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أن أفعال المخلوقات مخلوقة لله، لقوله: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ} لكنها مفعولة للفاعل مباشرة. فهي تنسب لله ﷻ تقديرًا وخلقًا، وتنسب إلى الفاعل كسبًا وعملًا، فهذه الإبل المذللة الذي ذللها هو الله، إذًا أفعالها صادرة بخلق الله ﷻ. وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة، أي مسألة أفعال العباد هل هي مخلوقة لله، أو هي للعباد استقلالًا؟ والمسألة فيها ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجبرية، الذين يقولون: إن خلق الله ﷻ شامل لكل حركة في السماوات والأرض، وإن الإنسان مجبور على عمله ليس له فيه اختيار،

=

=

بل الحركة الإرادية الاختيارية، كالحركة الإجبارية التي ليس له فيها إرادة.
ويقولون: إن أفعال الإنسان كحركة السعفة بالريح ليس باختياره، فيقال لهم: إن هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء ويقول: هذا بغير اختياري، وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضًا: أن الله إذا عذب الإنسان على معصية كان ظالمًا له، ويلزم عليه أن مدح الطائعين لغو لا فائدة منه؛ لأنه لا يمدح الإنسان على أمر يجبر عليه بدون اختياره، ويترتب عليه أيضًا: أن ذم العاضين ظلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل. وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضًا مخالف للواقع، فإن الإنسان يجد الفرق بين فعله الاختياري، وبين فعله الاضطراري، يجد الفرق بين أن ينزل من السلم درجة درجة وبطمأنينة واختيار، وبين أن يأتي شخص ويدفعه دفعًا، حتى لا يتمكن من الوقوف، فالأمر واضح من الناحية الواقعية العقلية، أن هذا القول باطل من أبطل الأقوال. لكن الذي غرّ أصحابه أن الله ﷻ ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يريد إلى غير ذلك من الأشياء التي يتعللون بها، لكنهم في الحقيقة نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره، ولهذا قابلهم:

أصحاب المذهب الثاني: الذين نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع، فأنكروا أن يكون لله ﷻ إرادة، أو خلق في أفعال العباد، وقالوا: إن العبد مستقل بعمله يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وليس لله سبحانه وتعالى تعلق بفعل العبد.

وهؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان لا شك يجد أنه فاعل بالاختيار، فهو يدخل بيته، ويخرج من بيته، ويأتي للمسجد، ويخرج من المسجد، ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعر أبدًا بأن أحدًا يجبره

=

=

على ذلك، ولكن ظل هؤلاء بسلبهم إرادة الله ﷻ وخلقه عن أفعال الخلق واعتقادهم أن الإنسان مستقل بما يحدثه، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لمشابهتهم للمجوس في إثبات فاعلين للحوادث، وهم يقولون بإثبات فاعلين للحوادث. الذي من فعل الله، هذا من فعل الله، والذي من فعل الإنسان، وهذا من فعل الإنسان مستقلًا بها، فلهذا سموا مجوس هذه الأمة. وهؤلاء لا شك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئًا في ملك الله عن ملك الله.

المذهب الثالث: أهل السنة والجماعة توسطوا بين القولين وأخذوا بالدليلين، وقالوا: إن الإنسان لا شك يفعل باختياره، ويدع باختياره، وإن له إرادة تامة وقدرة، والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله ﷻ، فلو شاء الله سبحانه وتعالى لسلبه الإرادة، ولو شاء لسلبه القدرة، ولذلك إذا سلب الله العبد الإرادة لم يترتب على فعله حكم، فالمجنون - مثلًا - لا يؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفعلها باختياره والعاجز لا يكلف {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} إذًا فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان، قالوا: والإرادة والقدرة هما السبب في وجود الفعل، فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت، فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل، وإذا كانا مخلوقين لله فإن خالق السبب خالق للمسبب، فيضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية، أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل، فصار بذلك فاعلًا. كما أن الإحراق مثلًا بالنار ينسب إلى النار، والذي أودع فيها هذه القوة هو الله ﷻ، فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مباشرة، لكنه بتقدير الله سبحانه وتعالى خلقًا، وهذا الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، هو المطابق للمنقول والمعقول والواقع؛ لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية، ويصدق الأدلة الحسية. فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في طريق واحد، وهو الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد

=

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣).

{وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِع} كَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارهَا وَأَشْعَارهَا {وَمَشَارِب} مِنْ لَبَنهَا جَمْع مَشْرَب بِمَعْنَى شُرْب أَوْ مَوْضِعه {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} الْمُنْعِم عَلَيْهِمْ بِهَا فَيُؤْمِنُونَ أَيْ مَا فَعَلُوا ذَلِكَ(١).

=

لشُلت الحركة ولصار الإنسان اتكاليًّا لا يقول ولا يفعل، ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه ﷻ في مهماته وملماته، فهو باعتبار أنه مريد فاعل، يتحرك ويعمل، وباعتبار أنه مخلوق مدبر، يرجع إلى الله ﷻ، فلا يكون اتكاليًّا، ولا يكون أنانيًّا. يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه، ولن يكون اتكاليًّا يقول: إن قدر لي شيء صار، بل هو يعمل مستعينًا بالله معتمدًا عليه.

(١) قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ} [يس:٧٣].

قال الطبري: يقول:"ولهم في هذه الأنعام منافع، وذلك منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها باتخاذهم من ذلك أثاثا ومتاعا، ومن جلودها أكنانا، ومشارب يشربون ألبانها".

قال ابن كثير:"أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، {وَمَشَارِبُ}، أي: من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى، ونحو ذلك".

قال مقاتل:"{ولهم فيها منافع}: في الأنعام ومنافع في الركوب عليها، والحمل عليها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها، وأشعارها، {وفيها مشارب} ألبانها".

قال السمعاني:"أي: في الأنعام منافع من الأصواف والأوبار والأشعار، وقوله: {ومشارب}، أي: من الألبان".

عن قتادة:"{ولهم فيها منافع}، يلبسون أصوافها، {ومشارب}، يشربون ألبانها".

قوله تعالى: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ} [يس:٧٣]، أي:"أفلا يشكرون الله الذي أنعم

=

=

عليهم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة؟ ".

قال السمعاني:"يعني: هذه النعم".

قال الطبري: " يقول: أفلا يشكرون نعمتي هذه، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهية والعبادة، وترك طاعة الشيطان وعبادة الأصنام".

قال ابن كثير:"أي: أفلا يُوَحِّدُون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)}.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ}] كأصوافها وأوبارها وأشعارها {وَمَشَارِبُ} من لبنها، جمع مَشْرَب بمعنى شرب، أو موضعه {أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)} المنعم عليهم بها فيؤمنون. أي ما فعلوا ذلك].

المنافع أعم مما قاله المصنف: [كأصوافها وأوبارها وأشعارها] فالكاف للتشبيه، والأصواف للضأن، والوبر للإبل، والشعر للبقر والغنم، وكذلك ما ينتفع بها من الحرث والزراعة عليها ودك الأرض وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى، ولهذا أتى بصيغة منتهى الجموع. {مَنَافِعُ}. {وَمَشَارِبُ} إما موضع الشرب كما قال المصنف، أو الشرب، ولكن الأولى أن نقول: إن لهم فيها مشارب أي: شربًا، وهذه المشارب تكون من الإبل والبقر والغنم فكلها يشرب الناس من ألبانها، وينتفعون بها شربًا وبيعًا، ولهذا قال تعالى: {أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)} والهمزة للاستفهام، والمراد به التوبيخ، أي أنهم لم يشكروا الله عَزَّ وَجَلَّ فهم موبخون على عدم شكرهم.

وقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي ما فعلوا ذلك] لأنه يرى أن الاستفهام للنفي، وما ذكرناه من أنه للتوبيخ أحسن؛ لأن التوبيخ يدل على انتفاء ذلك، وأنهم موبخون على عدم الفعل.

وقد تقدم الكلام على معني الشكر ومتعلقه والفرق بينه وبين الحمد عند قوله

=

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤).

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره {آلِهَة} أَصْنَامًا يَعْبُدُونَهَا {لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ} يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَاب الله تَعَالَى بِشَفَاعَةِ آلِهَتهمْ بِزَعْمِهِمْ.

لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥).

{لَا يَسْتَطِيعُونَ} أَيْ آلِهَتهمْ نَزَلُوا مَنْزِلَة الْعُقَلَاء {نَصْرهُمْ وَهُمْ} أَيْ آلِهَتهمْ مِنْ الْأَصْنَام {لَهُمْ جُنْد} بِزَعْمِهِمْ نَصْرهمْ {مُحْضَرُونَ} فِي النَّار مَعَهُمْ[1].

=

تعالى: {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)}.

(١) قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤)} [يس:٧٤].

قال الطبري:"يقول: واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونها، طمعا أن تنصرهم تلك الآلهة من عقاب الله وعذابه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ".

قال مقاتل:"{واتخذوا}، يعني: كفار مكة، {من دون الله آلهة}، يعني: اللات والعزى ومناة، لكي تمنعهم".

قوله تعالى: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} [يس:٧٥]، أي:"لا تستطيع تلك الآلهة نصر عابديها ولا أنفسهم ينصرون".

قال السدي:"لا تستطيع الآلهة نصرهم".

قال مقاتل:"لا تقدر الآلهة أن تمنعهم من العذاب".

قال الزجاج:"أي: هم للأصنام ينتصرون، والأصنام لا تستطيع نصرهم".

قال الطبري: يقول: "لا تستطيع هذه الآلهة نصرهم من الله إن أراد بهم سوءا، ولا تدفع عنهم ضرا".

=

=

قال ابن كثير:"أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل".

قوله تعالى: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس:٧٥]، أي:"والمشركون وآلهتهم جميعًا محضرون في العذاب، متبرئ بعضهم من بعض".

قال الطبري: " يقول: وهؤلاء المشركون لآلهتهم جند محضرون".

قال ابن كثير:"يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها؛ ليكون ذلك أبلغ في خِزْيهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم".

واختلف أهل العلم في قوله تعالى: {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ} [يس:٧٥]، على أقوال:

أحدها: محضرون عند الحساب، قاله مجاهد.

الثاني: محضرون في النار، قاله الحسن.

قال الحسن:"هم لهم جند في الدنيا وهم محضرون في النار".

قال السمعاني:"وهو أنه يدعى بكل معبود عبد من دون الله، فيجاء به ومعه أتباعه، والذين عبدوه كأنهم جنده، فيحضرون النار، ومعناه: يدخلونها".

الثالث: محضرون للدفع عنهم والمنع منهم، قاله الحسن-في رواية أخرى-.

الرابع: المعنى: وهم لهم جند محضرون في الدنيا يغضبون لهم. وهذا قول قتادة.

قال قتادة: "المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيرا، ولا تدفع عنهم سوءا، إنما هي أصنام".

وقال مقاتل:"يقول: كفار مكة للآلهة حزب يغضبون لها ويحضرونها فى الدنيا".

قال الطبري:"وهذا الذي قاله قتادة أولى القولين عندنا بالصواب في تأويل ذلك،

=

=

لأن المشركين عند الحساب تتبرأ منهم الأصنام، وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جندا حينئذ، ولكنهم في الدنيا لهم جند يغضبون لهم، ويقاتلون دونهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ} أي: من غيره، ولا يمنع أن يكونوا اتخذوا آلهة مع الله، فهم اتخذوا من دون الله أي اتخذوا غير الله آلهة، وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر قوله تعالى: {مِنْ دُونِ اللهِ} أنهم لم يتخذوا الله إلهًا، بل اتخذوا هذه الآلهة من دون الله وتركوا ألوهية الله تعالى، مع أن هؤلاء يتألهون إلى الله تعالى وإلى غيره، ولكن قد يقال: إن الفائدة من التعبير بقوله: {مِنْ دُونِ اللهِ} مع أنهم يألهون الله تعالى ويألهون الأصنام أن الإنسان إذا اتخذ شريكًا مع الله فإن الله تعالى يتركه وشركه وكأنه لم يأله الله تعالى، كما جاء في الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى قال: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

{آلِهَةً} جمع إله، والإله بمعنى مألوه. أي: معبود، وفعال تأتي في اللغة العربية بمعنى مفعول في مواطن عديدة، منها: غراس بمعنى مغروس، وبناء بمعنى مبني، وفراش بمعنى مفروش. فهؤلاء - والعياذ بالله - يتألهون لهذه الأصنام كما يتألهون لله ﷻ يركعون لها ويسجدون وينذرون ويعكفون عليها.

{لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤)} قال المصنف رحمه الله تعالى: [يمنعون من عذاب الله بشفاعة آلهتهم بزعمهم].

النصر بمعنى المنع من تسلط الأعداء، ولكنه في الحقيقة ليس المنعة فقط، ولكنه في الغالب يطلق على غلبة الأعداء، أي: لعلهم يغلبون. والواقع أن متخذي الأصنام يتخذونها للأمرين: لتشفع لهم عند الله تعالى فينجو من عذاب الله ﷻ؛ لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ

=

=

زُلْفَى}.

وهم أيضًا ينتصرون بها عند الحرب والقتال، كما قال أبو سفيان في غزوة أحد: أعل هبل. فانتصر بإلهه واعتز به.

فهم اتخذوا هذه الآلهة للأمرين جميعًا: لدفع ما يكره، وحصول ما يحب. وهذا هو المناسب لقوله: {لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤)} لأن إطلاق النصر على مجرد دفع المكروه - هذا وإن كان واردًا - لكن إطلاق النصر على حصول المطلوب والعزة والرفعة أكثر في اللغة العربية. ولكن هل هؤلاء ينصرون بهذه الأصنام؟

الجواب: قال الله تعالى: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)}. أي: هذه الآلهة التي اتخذوها للنصر لا تستطيع أن تنصرهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودليل ذلك أنهم يضعون الأحجار بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله تعالى، ويذهبون إلى الشجرة ويعبدونها، وهم إذا احتاجوا إلى الحطب قطعوها وأوقدوا بها، فكيف وهي لا تنصر نفسها تنصر غيرها؟ وهذا شيء مستحيل أن تنصرهم، ولهذا إذا كان يوم القيامة فإنهم كلهم يحصبون في النار كما قال الله تبارك وتعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)} لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، فهي لا يمكن أن تنصرهم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)} فهم في الدنيا غافلون عنهم، لأنها جمادات، وفي الآخرة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم.

فإذا قال قائل: إنه يوجد من يدعو الصنم بحصول مطلوب، أو دفع مكروه، ثم يحصل له المطلوب، أو يندفع عنه المكروه فما الجواب؟

قلنا: الجواب: أن هذا فتنة من الله ﷻ يفتن من شاء من عباده، والذي حصل لم

=

=

يحصل بدعاء الصنم وإنما حصل عند دعاء الصنم، أي حصل عنده لا به، فالله ﷻ جعل هذا يحصل عند دعاء هذا الصنم ابتلاء وامتحانًا، والله ﷻ بحكمته قد ييسر أسباب المعصية ليبلو الإنسان هل يكون امتناعه عن المعصية خشية لله ﷻ، أو لعدم القدرة عليها، ألم تر إلى قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} فابتلى الله الصحابة وهم محرمون بالصيد ينالونه بأيديهم فيما يعدو، وبرماحهم فيما يطير، ليعلم الله من يخافه بالغيب فلا يأخذ من هذا الصيد، فلم يأخذوا رضي الله عنهم من هذا الصيد وتركوه خشية لله لا عجزًا عن الوصول إليه، كما ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين حرم عليهم الصيد يوم السبت بأن تأتي الحيتان يوم السبت شرعًا طافية على وجه الماء، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم، وهذا امتحان من الله ﷻ، لكنهم لم يصبروا على هذه المحنة، بل ذهبوا يعاملون الله ﷻ معاملة الغر الجاهل يخادعون الله فأتوا بحيلة ومكر ونصبوا الشباك يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت دخلت في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوها، فاحتالوا فقلبهم الله تعالى قردة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥)} فهؤلاء الذين يدعون الأصنام لجلب نفع أو دفع ضرر يمتحنون ويختبرون فيدفع عنهم الضرر ويحصل لهم النفع، لكن عند هذا الدعاء وليس بهذا الدعاء، نجزم بذلك يقينًا؛ لأن هذه الأصنام لا تأتي بخير، ولهذا قال الله تعالى: {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ}.

قال المصنف: [{لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ} أي: آلهتهم. نزلوا منزلة العقلاء {وَهُمْ} أي: آلهتهم من الأصنام {لَهُمْ جُنْدٌ} بزعمهم نصرهم {مُحْضَرُونَ (٧٥)} في النار معهم]. قوله: نزلوا منزلة العقلاء، لأن واو الجماعة خاصة بالعقلاء، والذي يأتي لغير العقلاء ما يدل على التأنيث سواءً كان بالإفراد أو

=

=

بالجمع، فلو مشى التعبير على الغالب لقال: (لا تستطيع نصرهم) أو الا يستطعن نصرهم) لكن قال: {لَا يَسْتَطِيعُونَ} تنزيلًا لهذه الأصنام منزلة العاقل؛ لأن هؤلاء يدعونها دعاء العاقل يرون أنها عاقلة تجلب النفع وتدفع الضرر فخوطبوا بما يعتقدون.

{وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)} المصنف - رحمه الله تعالى - مشى على أن {وَهُمْ} الضمير يعود على الأصنام، أي والأصنام لعابديها جند ينصرونهم حسب زعمهم {مُحْضَرُونَ (٧٥)} أي: معهم في النار، فهذه الأصنام جند لهؤلاء العابدين، لكن الجميع محضرون في نار جهنم يعذبون. وهذا قول فيه بعد عن ظاهر الآية وعن المعنى.

والصواب: أن الضمير في قوله تعالى: {وَهُمْ} يعود على العابدين {لَهُمْ} يعود على الأصنام {جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)} أي: حاضرون. فالمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع نصرهم، ولكن هؤلاء العابدين ينتصرون للأصنام ويكونون جندًا لها كما قال قوم إبراهيم: {حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨)} فهؤلاء العابدون يعبدون ما لا ينفعهم ولكنهم هم ينتصرون لهذه الأصنام {وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)} ليدافعوا عن هذه الأصنام، فيكون في هذا التصرف نقص من وجهين:

الوجه الأول: أنهم هم ينصرون هذه الأصنام وينتصرون لها ويدافعون عنها.

الوجه الثاني: أنهم انتصروا لشيء لا ينفعهم، والغالب أن الإنسان العاقل إنما ينتصر لمن ينفعه، وينتصر له، وأما من لا ينتصر له ولا ينفعه بشيء لايمكن أن ينتصر له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المتعين في الآية وهو المناسب، وهو الذي ينادي عليهم بالسفة والضلال.

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦).

{فَلَا يَحْزُنك قَوْلهمْ} لَك لَسْت مُرْسَلًا وَغَيْر ذَلِكَ {إنَّا نَعْلَم مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} مِنْ ذَلِكَ وَغَيْره فَنُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} [يس:٧٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين بالله من قومك لك: إنك شاعر، وما جئتنا به شعر، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك".

قال السمعاني:"أي: قولهم فيك إنه ساحر أو كاذب أو شاعر".

قال ابن كثير:"أي: تكذيبهم لك وكفرهم بالله ".

قال مقاتل:"كفار مكة".

قوله تعالى: {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [يس:٧٦]، أي:"إنا نعلم ما يخفون، وما يظهرون، وسنجازيهم على ذلك".

قال الطبري:"إنا نعلم أن الذي يدعوهم إلى قيل ذلك الحسد، وهم يعلمون أن الذي جئتهم به ليس بشعر، ولا يشبه الشعر، وأنك لست بكذاب، فنعلم ما يسرون من معرفتهم بحقيقة ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحودهم ذلك بألسنتهم علانية".

قال ابن كثير:"أي: نحن نعلم جميع ما هم عليه، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم على ذلك، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديمًا وحديثًا ".

قال مقاتل:"{ما يسرون}: من التكذيب، {وما يعلنون}: يظهرون من القول بألسنتهم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

=

=

.{(٧٦)

الخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ ومعنى {فَلَا يَحْزُنْكَ} أي لا يوقعك في الحزن، والحزن هو الندم والهم والتأسف لما مضى، والخوف هو الهم والترقب لما يستقبل. ولا شك أن هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ يقولون في الله ﷻ، ويقولون في رسول الله ﷺ قولًا عظيمًا، والنبي ﷺ يحزن لهذا؛ لأنه أنصح الخلق للخلق، فيحزنه أن يتكلم هؤلاء بما عاقبته سيئة عليهم، وإن كان هذا لا يضره، ولكن يحزن، فقال الله ﷻ: {فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} وهذا كقوله تعالى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} أي: لعلك مهلك نفسك لعدم إيمانهم، وقال الله ﷻ: {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} والآيات في تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام وتقويته على التحمل والصبر على تكذيب هؤلاء كثيرة، وقد قالوا أشياء كثيرة:

{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} وهذا طعن في الألوهية.

وقالوا: {لَسْتَ مُرْسَلًا} وهذا طعن في الرسالة، وقالوا: إن محمدًا ﷺ مجنون، وشاعر، وكاهن، وساحر، وهذا أيضًا عيب في شخصية الرسول ﷺ، ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صودمت دعوته في لبها وأصلها وقيل: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)} والإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلًا يحس بنفسه بضغط، لكن إذا كان سيهدم أصله يكون أشد وأعظم، وإذا عيب عيبًا ذاتيًّا يكون أشد وأشد.

ولهذا يُسلي الله نبيه محمدًا ﷺ في مثل هذه التوجيهات {فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ}.

{إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)}. هنا يجب الوقوف على قوله: {قَوْلُهُمْ} لأنك لو وصلت لأوهم أن تكون جملة {إِنَّا نَعْلَمُ} من قولهم، وليست كذلك بل هي جملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله ﷺ

=

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧).

{أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَان} يَعْلَم وَهُوَ الْعَاصِي بْن وَائِل {أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَة} مَنِيّ إلَى أَنْ صَيَّرْنَاهُ شَدِيدًا قَوِيًّا {فَإِذَا هُوَ خَصِيم} شَدِيد الْخُصُومَة لَنَا {مُبِين} بَيِّنهَا فِي نفي البعث[1].

=

وما جاء به، وحالهم أنهم مهددون بعلم الله ﷻ لما يسرون وما يعلنون، ما يسرونه فيما بينهم، وما يعلنونه للناس، ما يسرونه في أنفسهم، وما يبدونه لغيرهم، فعندنا إسراران:

الإسرار الأول: إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

الإسرار الثاني: إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم، ونضرب لهذا مثلًا:

هؤلاء قوم عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمر من الأمور، لكن لا يخرج لغيرهم فهذا إسرار، وأحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئًا لم يخبر به زملاءه فهذا أيضًا إسرار.

فقوله: {مَا يُسِرُّونَ} يشمل هذا وهذا، أي: ما أسره كل إنسان في نفسه، وما أسروه فيما بينهم دون أن يعلنوه لغيرهم، وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر، فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه، وسوف يجازيهم على ذلك يوم القيامة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} إلى قوله: {وَهِيَ رَمِيمٌ}؛ قال: جاء عبد الله بن أُبيّ إلى النبي ﷺ بعظم حائل فكسره بيده، ثم قال: يا محمد! كيف يبعث الله هذا وهو رميم؟! فقال رسول الله ﷺ: "يبعث الله هذا ويميتك، ثم يدخلك جهنم"؛ فقال الله -تعالى-: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٣/ ٢١)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما

=

=

في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٢٨)، و"الدر المنثور" (٧/ ٧٤). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وأخرج ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٣/ ٥٨٨)، والإسماعيلي في "معجمه" (٣/ ٧٤٢ رقم ٣٥٩)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٢٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٧٤) -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ٨٧ رقم ٨٢) - من طريق عمرو بن عون وعثمان بن سعيد الزيات كلاهما عن هشيم عن أبي بشر عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: إن العاص بن وائل السهمي أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم؛ يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم"، قال: ونزلت الآيات من آخر {يس (١)}. وهذا سند صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وصرح هشيم بالتحديث عند الحاكم.

وخالفهما يعقوب بن إبراهيم فرواه عن هشيم به مرسلًا، ولم يذكر ابن عباس.

أخرجه الطبري (٢٣/ ٢١). والذي زاد أكثر وأوثق؛ فهو مقدم على الإرسال.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٤) وزاد نسبته لابن المنذر والبيهقي في "البعث".

وعن قتادة في قوله -تعالى-: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ}؛ قال: نزلت في أُبيّ بن خلف جاء بعظم نخر؛ فجعل يذروه في الريح، فقال: أيحيي الله هذا يا محمد؟! قال النبي ﷺ: "نعم؛ يحيي الله هذا ويميتك ويدخلك النار".

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ١٤٦)، وابن جرير في "جامع البيان" (٢٣/ ٢١) من طرق عن قتادة به. وهو مرسل.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن

=

=

المنذر.

وعن أبي مالك؛ قال: جاء أُبيّ بن خلف بعظم نخرة، فجعل يفته بين يدي النبي ﷺ، قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ فأنزل الله -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)} إلى قوله: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" -ومن طريقه البيهقي في "البعث والنشور"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ١٦٧) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٤٦) من طريق هشيم ثنا حصين عن أبي مالك به. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء أُبيّ بن خلف الجمحي إلى رسول الله ﷺ بعظم نخر؛ فقال: أتعدنا يا محمد! إذا بليت عظامنا فكانت رميمًا أن الله باعثنا خلقًا جديدًا، ثم جعل يفت العظم ويذره في الريح، فيقول: يا محمد! من يحيي هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم؛ يميتك الله، ثم يحييك ويجعلك في جهنم"، ونزل على رسول الله ﷺ: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٤، ٧٥) ونسبه لابن مردويه.

وعن السدي في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا}؛ قال: نزلت في أُبيّ بن خلف، أتى النبي ﷺ ومعه عظم قد دثر، فجعل يفته بين أصابعه، ويقول: يا محمد! أنت الذي تحدث أن هذا سيحيا بعدما قد بلي؛ فقال رسول الله ﷺ: "نعم؛ ليميتن الآخر، ثم ليحيينّه، ثم ليدخلنه النار".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٥) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن عكرمة؛ قال: جاء أُبيّ بن خلف إلى النبي ﷺ وفي يده عظم حائل، فقال: يا محمد! أنّى يحيي الله هذا؟ فأنزل الله -تعالى-: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ}، فقال له رسول الله ﷺ: "خَلْقُها قبل أن تكون أعجب من إحيائها وقد كانت".

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف لإرساله.

وعن عروة بن الزبير؛ قال: لما أنزل الله على رسول الله ﷺ: أن الناس يحاسبون بأعمالهم، ومبعوثون يوم القيامة؛ أنكروا ذلك إنكارًا شديدًا؛ فعمد أُبيّ بن خلف إلى عظم حائل قد نخر، ففتَّه، ثم ذراه في الريح، ثم قال: يا محمد! إذا بليت عظامنا إنا لمبعوثون خلقًا جديدًا؟ فوجد رسول الله ﷺ من استقباله إياه بالتكذيب والأذى في وجهه وجْدًا شديدًا؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٦) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف لإرساله.

* قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} [يس:٧٧].

قال الطبري: يقول:"أو لم ير هذا الإنسان الذي يقول {من يحيي العظام وهي رميم} أنا خلقناه من نطفة فسويناه خلقا سويا".

قال السعدي:"هذه الآيات الكريمات، فيها ذكر شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ} المنكر للبعث والشاك فيه، أمرا يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه {مِنْ نُطْفَةٍ} ثم تنقله في الأطوار شيئا فشيئا، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب".

اختلف أهل العلم في الإنسان الذي عني بقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} [يس:٧٧]، على خمسة أقوال:

أحدها: عني به أبي بن خلف. قاله مجاهد، وقتادة، والسدي.

الثاني: أنه العاص بن وائل السهمي. قاله ابن عباس -في رواية-، وسعيد بن جبير.

الثالث: أنه أبو جهل بن هشام، وأن هذه القصة جرت له، رواه الضحاك عن ابن

=

=

عباس.

الرابع: أنه أمية بن خلف، قاله الحسن.

الخامس: أنه عبد الله بن أبيّ. قاله ابن عباس -في رواية أخرى عنه-.

قال ابن كثير: "وهذا منكر؛ لأن السورة مكية، وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة. وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أُبي بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما، فهي عامة في كل مَنْ أنكر البعث. والألف واللام في قوله: {أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ} للجنس، يعم كل منكر للبعث".

قوله تعالى: {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس:٧٧]، أي: "فإذا هو كثير الخصام واضح الجدال".

عن الحسن: "أنه المشرك. قال وهو كقوله: {أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين {٧٧} وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم {٧٨}} [يس: ٧٧ - ٧٨] ".

قال الطبري: " يقول: فإذا هو ذو خصومة لربه، يخاصمه فيما قال له ربه إني فاعل، وذلك إخبار الله إياه أنه محيي خلقه بعد مماتهم، فيقول: من يحيي هذه العظام وهي رميم؟ إنكارا منه لقدرة الله على إحيائها، وقوله {مبين}، يقول: يبين لمن سمع خصومته وقيله ذلك أنه مخاصم ربه الذي خلقه".

قال الواحدي: "يعني: ألا يرى أنه مخلوق من نطفة، ثم هو يخاصم! وهذا تعجيب من جهله، وإنكار عليه خصومته، أي: كيف لا يتفكر في بدء خلقه حتى يدع خصومته".

قال ابن كثير: "أي: أولم يستدل مَنْ أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ

=

=

مَعْلُومٍ} [المرسلات: ٢٠ – ٢٢]. وقال {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ}

[الإنسان: ٢] أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته؟ ".

قال السعدي:"وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعد ما تفرق وتمزق، من باب أولى".

قال الزمخشري:"قبح الله ﷻ إنكارهم البعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدل على تمادى كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادى، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار، وشرز صفحته لمجادلته، ويركب متن الباطل ويلج، ويمحك ويقول: من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إنشاءه من موات، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها".

عن بُسْر ابن جَحَّاش؛ إن رسول الله ﷺ بَصق يوما في كفِّه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: "قال الله تعالى: ابن آدم، أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَّيتك وعَدَلتك، مشيت بين بردَيك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بَلَغَت التراقي قلت: أتصدقُ وأَنَّى أوان الصدقة؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ} يرى بمعنى يعلم، والمعنى: أو لم يعلم، والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ، (والواو) حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مقدر بعد الهمزة، وإما ما سبق، وعلى الثاني تكون الهمزة

=

=

منقولة عن مكانها، وأصله على القول الثاني (وألم ير) وقوله: {الْإِنْسَانُ} قال المصنف: [وهو العاصي بن وائل] وعلى رأي المصنف تكون (ال) هنا للعهد الذهني، ولكن الصحيح أن (ال) للجنس، أي: جنس الإنسان، ومنه العاصي بن وائل؛ لأن الأصل في (ال) أنها لبيان الجنس، كقوله تعالى: {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)} يعني: جنس الإنسان {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} ووجه كون ذلك هو الأصل. أن العهد يحصرها في شيء معين، والأصل بقاء اللفظ على عمومه، فإذا قال قائل: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ} إنه فلان بن فلان، فنقول الله ﷻ، قال: {الْإِنْسَانُ} وهو شامل، إذًا فالصحيح أنه عام، لكن نجعل العاصى بن وائل مثالًا لمن قال هذا القول، أو لمن رأى هذا الرأي {أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ} قال المصنف: [مني إلى أن صيرناه شديدًا قويًّا {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ} شديد الخصومة لنا {مُبِينٌ (٧٧)} بينها في نفي البعث] فالإنسان خلق من نطفة، وهو هذا المني، المهين كما وصفه الله ﷻ، هذا الماء المهين الذي خلق منه الإنسان، إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنه كالنخامة ليس بشيء، ثم بعد هذا ينشئه الله ﷻ حتى يعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة، وبعد أن يتربى بنعم الله في بطن أمه، ثم من صدر أمه بالثديين، ثم بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله، وفكره، وذهنه فيكون خصيمًا، {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ} أي شديد الخصومة؛ لأن فعيل بمعنى فاعل، لكن تدل على المبالغة.

وقوله: {مُبِينٌ (٧٧)} أي: بيّن، والذي يظهر أنها {مُبِينٌ (٧٧)} بمعنى مُظهر، يعني مظهر لخصومته؛ لكونه شديد الخصومة قويها، وسيأتي إن شاء الله بيان نوع من جدل الإنسان وخصومته، فـ {مُبِينٌ (٧٧)} أي: مظهر للخصومة، خلافًا لقول المصنف: بينها.

من فوائد الآية الكريمة: أن الخصومة بالباطل مذمومة، ووجه ذلك أن الآية

=

=

سيقت مساق الذم لا مساق المدح.

أما الخصومة لإثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق، وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: جدال محمود، مأمور به: إما وجوبًا، أو استحبابًا.

القسم الثاني: جدال مذموم، منهي عنه.

القسم الثالث: وجدال بين بين.

أما الجدال الممدوح فهو الذي يقصد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، وهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله، فكما أن المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضد عدوه ويقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق ليدحض به الباطل.

والقسم الثاني: بالعكس وهذا مذموم منهي عنه قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}.

والقسم الثالث: بين بين، يعني لا يأمر به، ولا ينهى عنه، لكن لا شك أن تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس إلى الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لا شك أنه لا خير فيه، وأنه من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه.

ثم إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًّا عنه، وذلك إذا كان مع الجدال والمراء

=

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨).

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا} فِي ذَلِكَ {وَنَسِيَ خَلْقه} مِنْ الْمَنِيّ وَهُوَ أَغْرَب مِنْ مِثْله {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَام وَهِيَ رَمِيم} أَيْ بَالِيَة وَلَمْ يَقُلْ رَمِيمَة بِالتَّاءِ لِأَنَّهُ اسْم لَا صِفَة وَرُوِيَ أَنَّهُ أَخَذَ عَظْمًا رَمِيمًا فَفَتَّتَهُ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَتَرَى يُحْيِي الله هَذَا بَعْد مَا بَلِيَ وَرَمَّ فَقَالَ ﷺ نَعَمْ وَيُدْخِلك النار[1].

=

والمحاورة عداوة بين المتجادلين، أو تعصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تحزُّب.

وإن أفضى إلى مصلحة كان مأمورًا به، مثل: أن يكون المجادل مغرورًا بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فتجادله من أجل أن تكسر حدة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا فائدة في حد ذاته، لكن فيه فائدة لغيره وهي كسر غرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهيًا في نفسه، مترفعًا على غيره.

(١) قوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ} [يس:٧٨].

قال الطبري:"يقول: ومثل لنا شبها بقوله: {من يحيي العظام وهي رميم}، ونسي خلقنا".

قال الواحدي:"يعني: أنه ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي، يفته بيده، ويتعجب ممن يقول: إن الله يحييه، {ونسي خلقه} ".

قال يحيى:"{ونسي خلقه}: وقد علم أنا خلقناه، أي: فكما خلقناه فكذلك نعيده".

قال ابن كثير:"أي: استبعد إعادة الله تعالى - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده".

=

=

قال السعدي:"لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق".

قوله تعالى: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨]، أي:"وقال هذا المنكر للبعث: مَن يحيي العظام البالية المتفتتة؟ ".

قال الطبري:"يقول: فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق".

قال الواحدي:"قاس قدرة الله بقدرة الخلق، فأنكر إحياء العظم البالي لما لم يكن ذلك في مقدور الخلق".

قال السعدي:"أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعد ما بليت وتلاشت. هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لابتداء خلقه، فلو فطن لخلقه بعد أن لم يكن شيئا مذكورا فوجد عيانا، لم يضرب هذا المثل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا} يعني هذا الإنسان الذي كان خصيمًا مبينًا ضرب مثلًا لله ﷻ، يريد التعجيز والإنكار، وتقرير نفيه، وهذا المثل يبينه بقوله: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)} ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بيانًا لمبهم في قوله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا}.

{وَنَسِيَ خَلْقَهُ} يعني ابتداءخلقه، أنه خلق من ماء مهين، فكان هذا الإنسان الخصيم المبين، والجملة في قوله: {وَنَسِيَ خَلْقَهُ} جملة يحتمل أن تكون جملة خبرية، ويحتمل أن تكون جملة حالية، أي: وقد نسي خلقه، يعني أنه في ضرب المثل قد نسي أصله، وهو أنه من مني ثم كان إنسانًا سويًّا خصيمًا مبينًا.

المثل بيّنه بقوله: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)} يقول المصنف رحمه الله: [ونسي خلقه من المني وهو أغرب من مثله]. لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء

=

=

كائن، وخلقه من المني ابتداء خلق، وأيهما أشد امتناعًا لو كان فيه امتناع على الله تعالى؟ الابتداء، ولهذا قال الله ﷻ: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} فإذا كان كذلك فإن الإنسان الخصيم المبين يكون ضالًّا من وجهين:
الوجه الأول: استغرابه قدرة الله ﷻ على الإعادة.
الوجه الثاني: نسيانه أول الخلق، حيث نسي أنه خلق من ماء مهين، حتى صار إنسانًا قويًّا خصيمًا مبينًا.
{قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)} أي: بالية و {مَنْ} استفهامية، والمراد به النفي، أو الإنكار، يعني لا أحد يحيي العظام وهي رميم. فالإنسان إذا مات ورم، أي: ذهب لحمه، وعصبه، وصارت عظامه تتفتت لقدمها، فهي إذًا رميم، هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة؛ لأنها تشبه التراب فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تحيا هذه العظام؟ هذا وجه استغراب هذا الرجل المنكر {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)} قال المصنف: [أي بالية، ولم يقل رميمة بالتاء لأنه اسم لا صفة] الرميم تارة يراد به الصفة، يعني اسم المفعول، أو اسم الفاعل مرمومة، أو رامة.
وتارة يراد بها الاسم: يعني أن العظم إذا بلى يسمى رميمًا، فلما قصد به الاسم لم يحتج إلى التاء فقيل: (رميم) لأنه مثل أسد، وحجر، وشجر وما أشبه ذلك، لكن لو أريد الصفة لكان يؤنث فيقال: (رميمة) لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث لاسيما وأنه قال: {وَهِيَ} وهذه ضمير مؤنث.
قال المصنف: [روي أنه أخذ عظمًا رميمًا ففتته وقال للنبي ﷺ: أترى يحيي الله هذا بعدما بلي ورم؟ فقال النبي ﷺ: "نعم ويدخلك النار"]، المصنف ساق هذا الأثر بالتضعيف؛ (روي) وهو جدير بذلك، لأن هذا الرجل المنكر سواء أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه منكر بكل حال، وليس من عادة الرسول عليه

=

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩).

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّل مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق} مَخْلُوق {عَلِيم} مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا قَبْل خَلْقه وَبَعْد خَلْقه[1].

=

الصلاة والسلام أن يعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: "نعم ويدخلك النار" فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده، وفي صحته.

(١) قوله تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} [يس:٧٩].

قال الطبري:"يقول الله لنبيه محمد ﷺ {قل} لهذا المشرك: يحييها الذي ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا".

قوله تعالى: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس:٧٩]، أي:"وهو بجميع خلقه عليم، لا يخفى عليه شيء".

قال ابن عباس: "يريد حين ابتدأه وحين يعيده".

قال مقاتل:"عليم بخلْقهم في الدنيا، عليم بخلْقهم في الآخرة بعد الموت خلقًا جديدًا".

قال الطبري:"يقول: وهو بجميع خلقه ذو علم كيف يميت، وكيف يحيي، وكيف يبدئ، وكيف يعيد، لا يخفي عليه شيء من أمر خلقه".

قال ابن كثير:"أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت، وأين تفرقت وتمزقت".

قال السعدي:"هذا أيضا دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم".

عن رِبْعيّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله

=

ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: «إن رجلا حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمعوا لي حَطَبا كثيرًا جزَلا ثم أوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلت لحمي وخلَصت إلى عظمي فامتُحِشْتُ، فخذوها فدقوها فَذَروها
في اليم. ففعلوا، فجمعه الله إليه فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك. فغفر الله له». فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته يقول ذلك، وكان نبّاشا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)} يقول الله تعالى مبينًا قدرته على إحياء العظام وهي رميم: {قُلْ} الخطاب للرسول ﷺ {قُلْ} لهذا الذي أنكر أن يحيي الله العظام وهي رميم {يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} واعلم أن الله ﷻ إذا قال للرسول عليه الصلاة والسلام "قل" فهو أمر له بالإبلاغ. ومن المعلوم أن النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عمومًا لقوله: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}. فإذا خص شيئًا من الأحكام، أو من الأخبار بـ(قل) كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أمر أن يبلغه على وجه الخصوصية، ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم، وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيه ﷺ بقوله: (قل) فهذا أمر خاص بتبليغ هذه المسألة، سواء كانت خبرًا، أو كانت حكمًا. {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} لم يقل: (يحيها الله) ليكون الجواب متضمنًا للدليل، لأنه لو قال: (يحيها الله) فهم الإنسان أن الله هو الذي يحييها، لكن إذا قال: {الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} كان هذا الجواب متضمنًا للدليل {الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} والذي أنشأها أول مرة هو الله ﷻ، ولم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم ينشأها أول مرة، فإذا كان الله ﷻ أنشأها أول مرة، فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء. وهذا هو الدليل الأول على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم، {الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} ووجه الاستدلال

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠).

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ} فِي جُمْلَة النَّاس {مِنْ الشَّجَر الْأَخْضَر} الْمَرْخ وَالْعَفَار أَوْ كُلّ شَجَر إِلَّا الْعُنَّاب {نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} تَقْدَحُونَ وَهَذَا دَالّ عَلَى الْقُدْرَة عَلَى الْبَعْث فَإِنَّهُ جَمَعَ فِيهِ بَيْن الْمَاء وَالنَّار وَالْخَشَب فلا الماء يطفيء النار ولا النار تحرق الخشب[1].

=

بهذا: أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانيًا: قال: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)} قال المصنف: [{خَلْقٍ} بمعنى مخلوق] فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول، والذي يظهر أن المراد بالمصدر نفس المصدر، ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق، لكن إذا قال: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)} صار في هذا نصن على علمه بالخلق أي: كيف يخلق، وكيف ينشأ الخلق، فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا وهو بكل مخلوق، لأنك إذا قلت بكل مخلوق صار علمه بالمخلوق بعد خلقه، لكن إذا كانت الآية على ظاهرها {بِكُلِّ خَلْقٍ} يعني: أنه يعلم كيف يخلق، والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعصِ عليه، لأنه إذا كان عالمًا لم يبق إلا الإرادة، وإذا أراده وهو بكل خلق عليم، صنع ما علم ﷻ، فكونه بكل خلق عليم دليل على أنه قادر على أن يعيده، لأن الذي يعجز إما أن يكون لعجزه، وإما يكون لجهله، هنا لما قال: {الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} هذه القدرة {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)} هذا انتفاء الجهل، فإذا انتفى العجز المستفاد من قوله: {الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} وانتفى الجهل المستفاد من قوله: {وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)} صار الخلق ممكنًا.

(١) قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} [يس:٨٠].

=

=

قال قتادة:"يقول: الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه".
قال مقاتل:"فالذي يخرج من الشجر الأخضر النار فهو قادر على البعث".
قال الطبري:"يقول: الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر نارا تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجز عن إحياء العظام التي قد رمت، وإعادتها بشرا سويا، وخلقا جديدا، كما بدأها أول مرة".
قال الواحدي:"يعني: ما جعل من النار في المرخ والقفار، وهما شجرتان تتخذ الأعراب زنودها منها".
قال السعدي:"فإذا أخرج النار اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادهما وشدة تخالفهما، فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك".
قال ابن كثير:"أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضرًا نَضرًا ذا ثمر ويَنْع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء، وقيل: المراد بذلك سَرْح المرخ والعَفَار، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قَدْح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء، روي هذا عن ابن عباس، رضي الله عنهما.
وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المَرْخُ والعَفَار.
وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب ".
قال القرطبي:"دل على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود الندي الر طب. وذلك أن الكافر قال: النطفة حارة رطبة بطبع حياة فخرج منها الحياة، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة! فأنزل الله تعالى: {الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا}، أي: إن

=

=

الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فهو القادر على إخراج الضد من الضد، وهو على كل شي قدير".
قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ} [يس:٨٠]، أي:"فإذا أنتم تقدحون النار من هذا الشرج الأخضر".
قال الطبري:"يقول: فإذا أنتم من هذا الشجر توقدون النار".
قال الواحدي:"تقدحون النار، وتوقدونها من ذلك الشجر".
قال يحيى:"كل عود يزند منه النار فهو من شجرة خضراء".
قال العثيمين: قوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} قال المصنف: [أي: في جملة الناس {مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ} المرخ والعفار، أو كل شجر إلا العناب {نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)}].
{الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} {جَعَلَ} بمعنى صيَّر، والذي جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا هو الله ﷻ، وأراد المصنف بقوله: [في جملة الناس] أن هذا الجعل ليس خاصًّا بالمخاطبين، أي: برسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بل هو عام لكل أحد، فهو جعل لهم في جملة الناس من الشجر الأخضر، المصنف يقول: [المرخ والعفار]. وبناءً على كلامه تكون (ال) للعهد الذهني، ويكون عامًّا أريد به الخاص، ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر، وأن (ال) الأصل فيها أنها تفيد الجنس، أي: العموم.
فالصواب أن المراد {مِنَ الشَّجَرِ} أي: من كل شجرة كما قال، وقوله: [إلا العناب] لا نعرف عن هذا شيئًا هل إنه مستثنى، وأن العناب لا يمكن أن تأتي منه النار - الله أعلم - على كل حال نحن نقول عندنا الأصل: {مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا} عامة، والشجر الأخضر فيه الرطوبة، والرطوبة يلزم منها البرودة، والنار التي تخرج من هذا الشجر الرطب البارد، يابسة وحارة، فهذا اليابس الحار متولد
=

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١).

{أو ليس الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض} مَعَ عِظَمهمَا {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُق مِثْلهمْ} أَيْ الْأَنَاسِيّ فِي الصِّغَر {بَلَى} أَيْ هُوَ قَادِر عَلَى ذَلِكَ أَجَابَ نَفْسه {وَهُوَ الْخَلَّاق} الْكَثِير الْخَلْق {الْعَلِيم} بكل شيء[1].

=

من رطب بارد، ولا يخفى ما بين الرطوبة والبرودة وبين الحرارة واليبوسة من التنافر العظيم.

فإذا كان الله ﷻ يولد هذا الشيء الذي بينه وبين المولد منه من التنافر ما هو ظاهر، فهو قادر على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن كونه يخلق الضد من الضد، أبلغ في القدرة من كونه يخلق الشيء من لا ضد، وهذا أمر ظاهر.

إذًا هذا الدليل الثالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله: {فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} "الفاء" هنا عاطفة و"إذا" فجائية يعني: أنه بمجرد ما أن تضرب عودًا بعود من هذا الشجر تقدح النار، فتوقد منه، فلا يحتاج إلى كبير عناء، بل إن الإيقاد أمر سهل، مفاجأ للعملية، والمفاجأة استفدناها من كلمة {فَإِذَا} وفي قولنا {أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} دليل على استمرارية هذا العمل؛ لأن الجملة الإسمية تفيد الثبوت والاستمرار، وهذا أمر لا أحد ينكره، فلا أحد ينكر أنه يتولد من الشجر الأخضر نارًا يوقد الناس منها.

{فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تقدحون وهذا دال على القدرة على البعث، فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب، فلا الماء يطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب].

(١) قوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

=

=

مِثْلَهُمْ} [يس:٨١].

قال البيضاوي:"{أوليس الذي خلق السماوات والأرض} مع كبر جرمهما وعظم شأنهما. {بقادر على أن يخلق مثلهم} في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما، أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد".

قال الطبري:"يقول: فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم، فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمت وبليت؟ ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منبهًا على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، ومرشدًا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٥٧]. وقال هاهنا: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، وهذه الآية كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف: ٣٣] ".

قوله تعالى: {بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس:٨١]، أي:"بلى، إنه قادر على ذلك، وهو الخلاق لجميع المخلوقات، العليم بكل ما خلق ويَخْلُقُ، لا يخفى عليه شيء".

قال الطبري:"يقول: بلى هو قادر على أن يخلق مثلهم وهو الخلاق لما يشاء، الفعال لما يريد، العليم بكل ما خلق ويخلق، لا يخفي عليه خافية".

قال السعدي:"{بَلَى} قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. {وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ} وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار

=

=

خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه، فإعادته للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه".

قال البيضاوي:"{بلى}، جواب من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه. {وهو الخلاق العليم}: كثير المخلوقات والمعلومات".

عن قتادة، قوله:"{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ}، قال: هذا مثل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)}. أجاب الله تعالى نفسه بنفسه، وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساوون كوكبًا من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله ﷻ، والسماوات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)}؟ والذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادرًا على خلق الناس؛ الجواب: بلى والله، فالذي خلق هذه الأجرام العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة، قادر على أن يخلق مثلهم بالأولى والأحرى، وهذا هو الدليل الرابع.

قال: {وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)} قال المصنف: [الخلاق: الكثير الخلق، فجعل فعّالًا من صيغة المبالغة، ولا شك أن الله ﷻ كثير الخلق، لكن ينبغي أن نقول أيضًا: إن فعّالًا هنا نسبة، أي: أنه موصوف بالخلق، ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق، أو بفعل الخلق، يعني أننا لو قلنا: فلان نجار. ماذا يفيد قولنا: (إنه نجار) إذا جعلناه من باب النسبة، وماذا يفيد إذا جعلناه من باب المبالغة؟ إذا جعلناه من باب المبالغة: فالمعنى أنه كثير النجارة، فنجار يعني كثير

=

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢).

{إِنَّمَا أَمْره} شَأْنه {إِذَا أَرَادَ شَيْئًا} أَيْ خَلْق شَيْء {أَنْ يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون} أَيْ فَهُوَ يَكُون وَفِي قِرَاءَة بِالنَّصْبِ عَطْفًا على يقول[1].

=

النجارة، ولكن هل هو مجيدها؟ وهل هو مستحق لأن يوصف بهذه المهنة فيقال نجار؟ وهل النجارة وصفه، بمعنى أنه حاذق متقن لها؟ لا يلزم قد يكون وقد لا يكون.

أما إذا قلت: (نجار) على أنها نسبة، أي: صاحب صنعة، فهو أبلغ في الوصف، والنجار، أي: ذو الصنعة المتقن لها سواء نجر كثيرًا أو قليلًا فهو نجار متقن. فهنا يمكن أن نقول: {وَهُوَ الْخَلَّاقُ} نحملها على النسبة المفيدة لوصف الله ﷻ بهذه الصفة العظيمة، أي: ذو الخلق المتقن على أكمل وجه، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى اجتمع في حقه الوصف والفعل يعني كثرة الخلق، فلا شك أن خلق الله ﷻ لا يحصى أجناسًا، فضلًا عن الأنواع، فضلًا عن الأفراد، من ذا الذي يحصي أجناس الخلق؟ من ذا الذي يحصي أنواع هذه الأجناس؟ ومن الذي يحصي أفراد هذه الأنواع؟ لا يستطيع أحد أن يحصي ذلك.

إذن فقد اجتمع في حق الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة الوصفية كمال الوصف، والثاني: الكثرة التي تفيدها صيغة المبالغة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى خلاقًا، أي: من وصفه الخلق اللازم له، وكذلك كثير الخلق، هل يعجز عن أن يحيي العظام وهي رميم؟ لا.

{الْعَلِيمُ (٨١)} العلم دليل على القدرة على الإعادة؛ لأننا قلنا: إن عدم الإعادة إما أن يكون للعجز، وإما أن يكون للجهل، فكلما وصف الله نفسه بالعليم فإن ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق، وكيف ينشأ.

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} [يس:٨٢].

=

=

أي: إنما شأنه- سبحانه- في إيجاد الشيء، أنه إذا أراد إحداثه، أن يقول له كن، أي: كن موجودا فيكون، أي: فهذا الشيء يكون ويوجد في الحال.

قال مقاتل:"أمر البعث وغيره أن يقول له مرة واحدة {كن فيكون}، لا يثني قوله".

قال السعدي:"أي: في الحال من غير تمانع، و {شَيْئًا} نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء".

عن قتادة: قوله:" {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، قال: ليس من كلام العرب أهون ولا أخف من ذلك فأمر الله كذلك".

قال ابن كثير:"أي: يأمر بالشيء أمرًا واحدًا، لا يحتاج إلى تكرار:

إذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا... يَقُولُ لَهُ "كُنْ" قَوْلَة فَيَكُونُ".

قال البيضاوي:"هذا تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعا لمادة الشبهة، وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق".

عن الضحاك قال: " {فإنما يقول له كن فيكون}، وهذا من لغة الأعاجم. وهي بالعبرية: أصنع".

عن ابن عباس:"يقول له: كن فيكون، قال: فهو خلق الإنسان".

عن مجاهد: {ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة} [لقمان: ٢٨] قال: " يقول: القليل والكثير عليه سواء، إنما يقول له: كن فيكون ".

عن محمد بن إسحاق، في قوله تعالى: {قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}، قال:"إذا قضى أمرا يقول: مما يشاء. وكيف فيكون كما أراد".

عن أبي ذَر، رضي الله عنه، إن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني

=

=

جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له كن فيكون".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)}. قال المصنف: [{إِنَّمَا أَمْرُهُ} شأنه] يعني شأنه وحاله إذا أراد شيئًا أن يقول له: {كُنْ} فيكون، فلا يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلًا، أو إلى جنود يساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده ﷻ، بل يقول: {كُنْ} فيكون. وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [شأنه] قد ينازع فيها، ويقال: إن المراد بالأمر أمر التكوين، يعني أمره أن يقول: {كُنْ} بدون أن يكرر كما في قوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} فجعل الأمر واحد الأوامر. والمصنف يريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويمكن أن نقول بالأمرين جميعًا نقول: شأنه ﷻ في تمام قدرته أن يقول للشيء: (كن) فيكون، وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: (كن) بدون تكرار، {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)}. {إِذَا أَرَادَ شَيْئًا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي خلق شيء {أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} أي: فهو يكون]. والأولى أن لا نقيد {شَيْئًا} بالخلق، بل نقول: إذا أراد شيئًا خلقًا، أو إعدامًا، فالأولى إبقاء الآية على إطلاقها {شَيْئًا} سواء كان خلقًا، أو إيجادًا، أو إعدامًا وإتلافًا. ولكن الذي حمل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على أن يقول: [خلق شيء] لأن السياق للاستدلال على الخلق، وهو الإيجاد، فلهذا خصها به، ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام. فالأولى أن يقال: {إِذَا أَرَادَ شَيْئًا} أي إيجاد شيء وخلقه، أو إعدامه.

وقد يعتذر عن المصنف فيقال: إن الإعدام فيه نوع خلق؛ لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله ﷻ: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ} مع أن الموت عدم وفناء، والأمر في هذا سهل، قال: {أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} {كُنْ} هنا

=

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣).

{فَسُبْحَان الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوت} مُلْك زِيدَتْ الْوَاو وَالتَّاء لِلْمُبَالَغَةِ أَيْ الْقُدْرَة عَلَى {كُلّ شَيْء وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} تُرَدُّونَ فِي الْآخِرَة[1].

=

الظاهر أنها تامة، وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى: كن كذا. أي: تحول إلى كذا، لكن إذا جعلناها تامة صار المعنى أشمل، لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله إيجاده أصلًا. يعني {كُنْ} أي: أن يوجد ويتكون، أو (كن كذا) أي بأن يكون الطويل قصيرًا، والقصير طويلًا وما أشبه ذلك، فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل {فَيَكُونُ (٨٢)} قال المصنف: يقول: [فهو يكون، وفي قراءة بالنصب عطفًا على {يَقُولَ}] قراءتان سبعيتان لأنه قال: [في قراءة] واصطلاح المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: (وفي قراءة) وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة (قُرِئَ). في قوله: {فَيَكُونُ (٨٢)} على قراءة الرفع بالفاء هنا للاستئناف، وجملة (يكون) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير فهو يكون، أما على قراءة النصب فهي معطوفة على {أَنْ يَقُولَ} للشيء: كن فيكون، والفاء على كلا الوجهين دالة على الترتيب والتعقيب، يعني أن الشيء يكون فورًا بدون تأخير، وقد بين الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} ولمح البصر ليس شيء أسرع منه، وأمر الله عَزَّوَجَلَّ واحد كلمح البصر، وإذا كان هذا أمر الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرميمة: كوني إنسانًا سويًّا هل يمتنع عليه ذلك؟ لا، ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)} وقال في هذه السورة: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣)}.

(١) قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [يس:٨٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فتنزيه الذي بيده ملك كل شيء وخزائنه".

=

=

قال الواحدي:"نزه نفسه من أن يوصف بغير القدرة، فقال: {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء}، أي: ملك كل شيء، والقدرة على كل شيء".

قال الزمخشري:" {فسبحان}، تنزيه له مما وصفه به المشركون، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا، {بيده ملكوت كل شيء}، هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته".

قال البيضاوي:"تنزيه عما ضربوا له، وتعجيب عما قالوا فيه معللا بكونه مالكا للأمر كله قادرا على كل شيء".

قال ابن كثير:"أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر،.. ومعنى قوله: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} كقوله ﷻ: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} [المؤمنون: ٨٨]، وكقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]، فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورَحَمُوت، ورَهْبَة ورَهَبُوت، وجَبْر وجَبَرُوت. ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد والملكوت هو عالم الأرواح، والأول هو الصحيح، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم".

قال السمعاني:"{ملكوت كل شيء} أي: ملك كل شيء".

قال قتادة:"{مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}: مفاتح كل شيء".

قال مجاهد:"يعني: «خزائن كل شيء» ".

قال عطاء: ملك كل شيء".

قال النحاس:"ملكوتي وملكوت -في كلام العرب- بمعنى: ملك، والعرب تقول: «جبروتي خير من رحموتي» ".

وروي عن حذيفة؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: «الله أكبر -

=

=

ثلاثًا – ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة». ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم». ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحوا من ركوعه، يقول: «لربي الحمد». ثم سجد، فكان سجوده نحوا من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى». ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده، وكان يقول: «رب، اغفر لي، رب اغفر لي». فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة – أو الأنعام – – شك شعبة –".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس:٨٣]، أي:"وإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء".

قال أبو العالية:"ترجعون إليه بعد الحياة".

قال الطبري:"يقول: وإليه تردون وتصيرون بعد مماتكم".

قال الواحدي: أي:"تردون بعد الموت".

قال مقاتل:"إلى الله– ﷻ– بعد الموت لتكذيبهم".

قال ابن كثير: أي:"وإليه ترجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المتفضل".

قال البيضاوي:"وعد ووعيد للمقرين والمنكرين".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)}. (سبحان) بمعنى تنزيهًا، وهي اسم مصدر، والمصدر: تسبيح، وهي ملازمة للنصب على المفعولية المطلقة دائمًا، وملازمة أيضًا للإضافة حتى لو قطعت عن الإضافة لفظًا فهي مضافة تقديرًا. و (سبحان) معناها: التنزيه أي أن الله منزه عن النقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين، فمثلًا ينزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق، وينزه أن يعتري صفاته نقص بأي وجه، فمثلًا: العلم،

=

=

علم البشر ناقص ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا، ابتداءً؛ لأنه مسبوق بالجهل، وانتهاء؛ لأنه ملحوق بالنسيان، وشمولًا {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)} لكن علم الله ﷻ كامل من هذه الوجوه كلها ابتداء، وانتهاء، وشمولًا، فهو سبحانه وتعالى عالم بعلمه الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، وهو لا ينسى كما قال موسى عليه الصلاة والسلام، {عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)} وعلمه شامل لكل شيء، {إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)} {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)}.

فالله تعالى منزه عن النقص في صفاته الثابتة له، ومنزه عن مماثلة المخلوقين، وقلنا: مماثلة، ولم نقل مشابهة والفرق واضح:

أولًا: أن المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ولم يقل: "ليس كشبهه شيء" وقال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}.

ثانيًا: أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه، ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئًا.

فمثلًا: الوجود للمخلوق وللخالق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى، وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق، بينهما تشابه من حيث أصل المعنى لكنهما يختلفان.

فإذا نفيت المشابهة مطلقًا فهذا نفي للوجود في الواقع.

ثالثًا: أن المشابهة صار نفيها عند كثير من الناس نفيًا للصفات؛ لأن كثيرًا من أهل التعطيل يصفون من يثبت الصفات بالمشبهة، فإذا قلت: من غير تشبيه يعني من غير إثبات؛ لأن كل مثبت عندهم مشبه.

=

=

فلهذا كان التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبه من ثلاثة أوجه.
فتنزيه الله عن منقص دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم نقص ينافي التنزيه، فإذا ثبت أن الله ﷻ منزه عن كل نقص، لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.
{بِيَدِهِ} أي: بتصرفه مع إثبات اليد، فنحن نقول في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} وما أشبهها ليس المعنى أن الملك في يد الله ﷻ، لكن في تصرفه مع ثبوت اليد، كما قلنا في قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} بمرأى منا، مع ثبوت العين؛ لأن السفينة ليست في وسط عين الله ﷻ حاشا وكلا، فالمنكر أن تقول: بيده أي أمره بدون أن تثبت اليد، أما إذا قلت بيده بتصرفه وتدبيره مع ثبوت اليد فهذا هو المراد.
{مَلَكُوتُ} كما قال المصنف في أصل {مَلَكُوتُ} [ملك لكن زيدت الواو والتاء للمبالغة] أي: زيدت للمبالغة في ملك الله لكل شيء، لأن ملك الله لكل شيء ملك تام لم يسبق بعدم، ولا يلحق بزوال، بينما ملك غيره ملك ناقص بالأصل لم يملك هذا الشيء ثم ملكه بعد، ومع ملكه إياه فإن هذا الملك قابل للزوال، ثم إن ملكه إياه ليس ملكًا مطلقًا يفعل فيه ما يشاء بل هو ملك مقيد، أما ملك الله فهو تام. ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة {مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} أي ملك كل شيء.
وقوله: {بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ} دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكًا مطلقًا -مبالغًا فيه بالواو والتاء- قادر على أن يحول هذا المملوك إلى ما شاء، ولهذا فسر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ الملكية هنا بالقدرة، فقال: [أي: القدرة على كل شيء]، ولكن هذا الكلام فيه نظر، بل نقول: مالك لكل شيء، وإذا ملكه ملكًا مطلقًا فهو قادر على أن يتصرف فيه كما شاء.

=

{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)} قال المصنف: [تردون في الآخرة] أي: إليه لا إلى غيره ليجازيكم، ووجه الدلالة من هذه الجملة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم، ولو قلنا: بعدم القدرة لانتفى الرجوع إلى الله ﷻ، وإذا انتفى الرجوع إلى الله تعالى صار وجود الدنيا كلها عبثًا ولعبًا، وهذا لا شك أنه منافٍ لكمال الله ﷻ، فمجرد رجوعنا إلى الله تعالى يلزم منه القدرة على الإحياء. ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأنا إذا قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثًا، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله ﷻ على إحياء العظام وهي رميم، والله على كل شيء قدير، ولو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)} لكان كافيًا في بيان قدرته سبحانه وتعالى على إحياء العظام وهي رميم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) (سبأ: ٩)، وقال بعد: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (سبأ: ١٩) بالإفراد في الأولى والجمع في الثانية، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، أن الإشارة أولًا إلى قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) (سبأ: ٩)، ولم يتقدم ما حركوا إلأى الاعتبار به غير هذا، وقد انضم ذلك تحت ما الموصولة، ولفظها مفرد فروعي من حيث اللفظ فقيل: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) بالإفراد. وأما الثانية فتقدم قبلها قوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ) (سبأ: ١٠)، ثم قال: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ

=

بِإِذْنِ رَبِّهِ) (سبأ: ١٢)، ثم قال: (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ) (سبأ: ١٣) إلى قوله: (مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سبأ: ١٤)، ثم قال: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ....) (سبأ: ١٥)، فذكر سبحانه بالاعتبار بما منح داود من تسبيح الجبال والطير معه وإلانة الحديد، وبما سخر لسيلمان، عليهما السلام، من الريح تحمله وجنوده حيث شاء في السرعة التي أشارت إليها الآية، وإسالة عين القطر له وهو النحاس المذاب، وعينه معدنه، وعمل الجن بين يديه تسخيرًا فيما يريده من عمل ما شاء مما في قواهم، ثم ذكر ما كان لسبأ في مساكنهم من آية الجنتين عن يمين وشمال وأكلهم منها وتنعيمهم إلى أن أعرضوا فأرسل عليهم سيل العرم إلى آخر قصتهم، فهذه المعتبرات لم تدخل تحت موصول ولا اسم مفرد يضم جميعها بل ذكرت مفصلة، فقيل إشارةإلى جميعهما: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ)، ولا يمكن إلا هذا إذ لم يتقدم مفرد من موصول أو غيرذلك ما يجمع الكل يرجع إليه الضمير مفردًا كما في الآية الأخرى، فقيل هنا: (لآيات) ولم يمكن إفرادها هنا، وأمكن في الآية الأخرى لوحدية الموصول الجامع لما تفصل بعده، فروعي لفظه لأن ذلك أوجز من رعي معناه.

ثم إن المعلوم من لسان العرب إذا تقدم من الأسماء المفردة ما له لفظ ومعنى فإن رعي لفظه في عودة ضمير أو تفسير أولى، ثم قد يراعى المعنى لد فيعود الضمير بحسبه من تثنية أو جمع، ومن هذا قوله تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) (الطلاق: ١١)، فقوله: (يؤمن) (ويعمل) (وندخله) رعي للفظ (من) وهو مفرد فعاد الضمير إليه مفردًا، (وقوله بعد: (خالدين) ورجوعإلى المعنى، ويقل رعي المعنى بديهًا في هذه الألفاظ التي هي مفردات) تتها كثرة، ومنه بين الكتاب.

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من ياذيب يصطحبان

=

سُورَة الصَّافَّات(١)

=

فقال: يصطحبان، فأعاد على معنى من، والإعادة إلى اللفظ أكثر، وعليه قيل في الآية الأولى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) بالإفراد على الأولى والأكثر مع جواز وروده عائدًا على المعنى إن اعتضد ذلك.

أما الآية الثانية فجمع آيات فيها لا يمكن خلافه، فورد كل على ما يجب، ويمتنع العكس لما ذكر. فإن قيل: (إن) قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ...)، استئناف باللام التي تقع جوابًا للقسم، فقد يقال إنها تقطع ما بعدها عما قبلها. وإذا أمكن هذا فما المانع من رجوع اسم الإشارة إلى ما بعد قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ...) (سبأ: ١٥) وتلك قصة مفردة فكان يكون الواردهنا أي الآية على الإفراد رعيًا لمعنى القصة؟

فالجواب أنّا لو فرضنا هذا الاعتراض لازمًا لقلنا: إن قصة سبأ قد انطوت على تفصيل يقتضي جمع آيات، إلا أن الاعتراض أولًا غير لازم (إذ) قد يشار إلى مجموع قصص تفصلت ودخل كل قصة في أولها هذه اللام، فلم يمنع ذلط من عودة اسم الإشارة إلى الجميع كقوله تعالى: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ) (القمر: ٤٣)، والإشارة بأولئكم إلى كل من تقدم ذكره من أول قصة نوح، عليه السلام، إلى قصة آل فرعون، وقد ابتدئت كل قصة منها (بلقد)، ثم أشير (بعد) إلى الجميع ليعتبر بأحوالهم، فكذلك في البية التي نحن فيها، فسقط الاعتراض، وتبين أن لك (آية) واردة على أوضح التناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٠٨- ٤٠٩).

(١) قال ابن الجوزي:"هي مكية كلها بإجماعهم".
قال الفيروزآبادي:"السورة مكية بالاتفاق".

=

=

* عدد آياتها مائة وثمانون وآية عند البصريِّين، وآيتان عند الباقين. وكلماتها ثمانمائة واثنتان وستون. وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وستّ وعشرون. المختلف فيها: آيتان {وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ} مجموع فواصلها (قدم بنا).

* أسماء السورة.

تسمى «سورة الصافات» اسمها المشهور المتفق عليه «الصافات». وبذلك سميت في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف كلها.

ووجه تسميتها باسم «الصافات» وقوع هذا اللفظ فيها بالمعنى الذي أريد به أنه وصف الملائكة وإن كان قد وقع في سورة «الملك»، لكن بمعنى آخر إذ أريد هنالك صفة الطير، على أن الأشهر أن «سورة الملك» نزلت بعد «سورة الصافات».

قال الفيروزآبادي:"سميت «والصافات»، لافتتاحها بها".

وتسمى «سورة الذبيح» قال السيوطي: "رأيت في كلام الجعبري أن سورة «الصافات» تسمى: «سورة الذبيح»، وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر".

وتسمى «سورة الزينة» ذكر البقاعي أنها تسمى أيضًا «سورة الزينة»، ولعل هذه التسمية مأخوذة من قوله تعالى في السورة نفسها: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [الصافات: ٦].

* معظم مقصود السّورة: الإِخبار عن صَفّ الملائكة والمصلِّين للعبادة، ودلائل الوحدانية، ورَجْم الشياطين، وذُلّ الظَّالمين، وعِزّ المطيعين فى الجِنَان، وقهر المجرمين فى النِّيران، ومعجزة نوح، وحديث إِبراهيم، وفداء إسماعيل فى جزاءِ الانقياد، وبشارة إِبراهيم بإِسحاق، والمنَّة على موسى وهارون بإِيتاء الكتاب، وحكاية النَّاس فى حال الدّعوة، وهلاك قوم لوط وحبْس يونس فى بطن الحوت،

=

=

وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة، ودرجات الملائكة فى مقام العبادة، وما مَنَح اللهُ الأَنبياء من النُّصرة والتأْييد، وتنزيه حضرة الجلال عن الضّدّ والنديد فى قوله: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} إلى آخره.

* المتشابهات: قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}، وبعده: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ} لأَنَّ الأَوّل حكاية كلام الكافرين، وهم ينكرون البعث، والثانى قول أَحد القرينين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاءِ، وحصوله فيه: كان لى قرين ينكر الجزاءَ وما نحن فيه فهل أَنتم تطلعوننى عليه، فاطَّلع فرآه فى سواءِ الجحيم. قالَ: تالله إِن كدت لَتُرْدِين. قيل: كانا أَخوين، وقيل: كانا شريكين، وقيل: هما بطروس الكافر، ويهوذا المسلم. وقيل: القرين هو إِبليس.

قوله: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ} وبعده {فَأَقْبَلَ} بالفاءِ. وكذلك فى {ن والقلم} لأَنَّ الأَوّل لعطف جملة على جملة فحسب، والثانى لعطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام؛ لأَنه حَكَى أَحوال أَهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجرى فى الدنيا بينهم وبين أَصدقائهم، وهو قوله: {وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ} أَى يتذاكرون، وكذلك فى {ن والقلم} هو من كلام أَصحاب الجنَّة بصنعاءَ، لمَّا رأَوْها كالصَّريم ندموا على ما كان منهم، وجعلوا يقولون: {سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ}، بعد أَن ذكَّرهم التسبيحَ أَوسطُهم، ثم قال: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُوْنَ} أَى على تركهم الاستثناءَ ومخافتتهم أَن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين.

قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين} وفى المرسلات: {كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين}؛ لأَنَّ فى هذه السّورة حِيل بين الضمير وبين (كذلك) بقوله: {فَإِنَّهُمْ

=

=

يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مَشْتَرِكُونَ} فأَعاد، وفى المرسلات متَّصل بالأَول، وهو قوله: {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين} فلم يحتج إِلى إِعادة الضَّمير.

قوله: {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إلاه إِلاَّ الله} وفى القتال {فاعلم أَنَّهُ لاَ إلاه إِلاَّ الله} بزيادة (أَنَّه) وليس لهما فى القرآن ثالث؛ لأَنَّ ما فى هذه وقع بعد القول فحكِى، وفى القتال وقع بعد العِلْم فزيد قبله (أَنَّه) ليصير مفعولَ العلم، ثمّ يتصل به ما بعده.

قوله: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين} وبعده {سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ} ثم {سَلاَمٌ على مُوْسَى وَهَارُونْ} وكذلك {سَلاَمٌ على إِلْ يَاسِين} فيمن جعله لغة فى إِلياس، ولم يقل فى قصّة لوط ولا يونس ولا إِلياس: سلام؛ لأَنه لمّا قال: {وَإِنَّ لُوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، {وَإِنَّ يُوْنُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وكذلك؛ {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} فقد قال: سلام على كلّ واحد منهم؛ لقوله آخر السّورة {وَسَلاَمٌ على الْمُرْسَلِيْنَ}.

قوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين} وفى قصّة إِبراهيم: {كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين}، ولم يقل: (إِنَّا)، لأَنَّه تقدّم فى قصته {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين} وقد بقى من قصته شىء، وفى سائرها وقع بعد الفراغ. ولم يقل فى قصّتىْ لوط ويونس: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين}؛ لأَنَّه لمّا اقتصر من التسليم على ما سبق ذكر اكتفى بذلك.

قوله: {بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ} وفى الذاريات {عَلِيمٍ} وكذلك فى الحِجْر، لأَنَّ التقدير: بغلام حليم فى صباه، عليم فى كِبره، وخُصّت هذه السّورة. بحليم؛ لأَنه عليه السلام حَلُم فانقاد وأَطاع، وقال: {ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين} والأَظهر أَنَّ الحليم إِسماعيل، والعليم إِسحاق؛ لقوله: {فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} قال مجاهد: الحليم والعليم إِسماعيل. وقيل: هما فى السّورتين إِسحاق. وهذا عند من زعم أَنَّ الذبيح إِسحاق.

=

مكية وآياتها ١٨٢ نزلت بعد الأنعام.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١).

{وَالصَّافَّات صَفًّا} الْمَلَائِكَة تَصُفّ نُفُوسهَا فِي الْعِبَادَة أَوْ أَجْنِحَتهَا فِي الْهَوَاء تَنْتَظِر مَا تُؤْمَر به.

فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢).

{فَالزَّاجِرَات زَجْرًا} الْمَلَائِكَة تَزْجُر السَّحَاب أَيْ تَسُوقهُ.

=

قوله: {وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} ثمّ قال: {وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} كرّر وحذف الضمير من الثانى؛ لأنه لمَّا نَزَل {وَأَبْصِرْهُمْ} قالوا: متى هذا الذى تُوعدنا به؟ فأنزل الله {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} ثم كرّر تأْكيدًا. وقيل: الأُولى فى الدّنيا، والثانية فى العُقْبى. والتقدير: أَبصر ما ينالهم، وسوف يبصرون ذلك. وقيل: أَبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معاينةً. وقيل: أَبصر ما ضيّعوا من أَمرنا فسوف يبصرون ما (يحل بهم) وحُذِف الضّمير من الثانى اكتفاءً بالأَوّل. وقيل: التقدير: ترى اليوم (عِيرهم إِلى ذلّ) وترى بعد اليوم ما تحتقِر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدّنيا. وذكر فى المتشابه: {فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} بالفاءِ، وفى الذاريات {قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} بغير فاء؛ لأَنَّ ما فى هذه السّورة (جملة اتَّصلت) بخمس جمل كلّها مبدوءَة بالفاءِ على التَّوالى، وهى: {فَمَا ظَنُّكُم} الآيات، والخطاب للأَوثان تقريعًا لمن زعم أَنَّها تأْكل وتشرب، وفى الذاريات متَّصل بمضمر تقديره: فقرّبه إِليهم، فلم يأْكلوا فلمّا رآهم لا يأْكلون، {قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} والخطاب للملائكة. فجاءَ فى كلّ موضع بما يلائمه. بصائر ذوي التمييز (١/ ٣٩٣-٣٩٨).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣).

{فَالتَّالِيَات} أَيْ قُرَّاء الْقُرْآن يَتْلُونَهُ {ذِكْرًا} مَصْدَر مِنْ مَعْنَى التَّالِيَات.

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤).

{إن إلهكم} يا أهل مكة {لواحد}.

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥).

{رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَمَا بَيْنهمَا وَرَبّ الْمَشَارِق} أي والمغارب للشمس ولها كُلّ يَوْم مَشْرِق وَمَغْرِب[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} [الصافات: ١].

قال الطبري:"أقسم الله تعالى ذكره بالصافات، وهي: الملائكة الصافات لربها في السماء، وهي جمع: صافَّة".

قال السعدي:"أي: صفوفا في خدمة ربهم، وهم الملائكة".

قال ابن زيد:"هذا قسم أقسم الله به".

قال قتادة:"قسم أقسم الله بخلق، ثم خلق، ثم خلق، والصافات: الملائكة صُفوفا في السماء".

قال الثعلبي:"الصف: ترتيب الجمع على خط كالصف في الصلاة والحرب".

وفي قوله تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا} [الصافات: ١]، أقوال:

أحدها: أنهم الملائكة، قاله ابن مسعود، ومسروق، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال السدي:"يعني: صفوف الملائكة في الصلاة".

قال ابن عباس: "هم الملائكة صفوف في السماء، لا يعرف ملك منهم من إلى جانبه، لم يلتفت منذ خلقه الله ﷻ".

قال ابن الجوزي:"وقيل: هي الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة إلى أن =

يأمرها الله تعالى بما يشاء".

قال عطاء:"ليس في السموات السبع موضع شبر إلا عليه ملك قائم أو راكع أو ساجد".

عن عن أبي ذر، عن رسول الله -ﷺ-، قال:"إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله".

وعن عبد الرحمن بن العلاء بن سعد، عن أبيه – وكان ممن بايع يوم الفتح – أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: "أطَّت السماء وحُقّ لها أن تَئِطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد". ثم قرأ: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} ".

الثاني: أنهم عبّاد السماء، قاله الضحاك ورواه عن ابن عباس.

الثالث: أنهم جماعة المؤمنين إذا قاموا في صفوفهم للصلاة، حكاه النقاش لقوله تعالى: {صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤].

الرابع: أنها الطير، دليله قوله تعالى: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ} [النور: ٤١]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات} [الملك: ١٩]، حكاه الثعلبي.

الخامس: أنها صفوف المجاهدين في قتال المشركين. أفاده الماوردي.

واختلف من قال الصافات الملائكة في تسميتها بذلك على ثلاثة أقوال:

أحدها: لأنها صفوف في السماء، قاله قتادة.

الثاني: لأنها تصف أجنحتها في الهواء واقفة فيه حتى يأمرها الله تبارك وتعالى بما يريد، حكاه ابن عيسى.

الثالث: لصفوفهم عند ربهم في صلاتهم، قاله الحسن، والسدي.

=

عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ "فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا وجُعلت لنا تُربتها طهورًا إذا لم نجد الماء".

عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ "ألا تَصُفّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ " قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: "يُتِمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون في الصف".

قوله تعالى: {فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} [الصافات: ٢]، أي:"وأقسمُ بالملائكة التي تزجر السحاب، يسوقونه إلى حيث شاء الله".

قال السعدي:"وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله".

وفي قوله تعالى: {فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا} [الصافات: ٢]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الملائكة التي تزجر السحاب، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والسدي، ويحيى بن سلام. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال يحيى:"الملائكة، والرعد ملك يزجر السحاب وقد قال في آية أخرى: {فإنما هي زجرة واحدة} [الصافات: ١٩] وهي النفخة الآخرة ينفخ فيه صاحب الصور".

قال مقاتل:"وهو ملك اسمه الرعد يزجر السحاب بصوته يسوقه إلى البلد الذي أمر أن يمطره، والبرق مخاريق من نار يسوق بها السحاب، فإذا صف السحاب بعضه إلى بعض سطع منه نار فيصيب الله به من يشاء وهي الصاعقة التي ذكر الله- ﷻ- في الرعد".

الثاني: آيات القرآن التي زجر الله بها عما زَجر بها عنه في القرآن، قاله قتادة، والربيع.

الثالث: الأمر والنهي الذي نهى الله تعالى به عباده عن المعاصي، حكاه النقاش.

=

الرابع: أنها قتل المشركين وسبيهم. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"والذي هو أولى بتأويل الآية عندنا ما قال مجاهد، ومن قال هم الملائكة، لأن الله تعالى ذكره، ابتدأ القسم بنوع من الملائكة، وهم الصافون بإجماع من أهل التأويل، فلأن يكون الذي بعده قسما بسائر أصنافهم أشبه".

واختلف من قال إن «الزاجرات»: الملائكة في تسميتها بذلك على قولين:

أحدهما: لأنها تزجر السحاب، قاله السدي.

الثاني: لأنها تزجر عن المعاصي قاله ابن عيسى.

قوله تعالى: {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} [الصافات: ٣]، أي:"وأقسمُ بالملائكة التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه، مع التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد".

قال الطبري:"يقول: فالقارئات كتابا"

قال السعدي:"وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى".

وفي قوله تعالى: {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} [الصافات: ٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: الملائكة، قاله ابن مسعود، وأبو صالح، والحسن، ومجاهد، والسدي، ويحيى بن سلام. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال يحيى:"{ذكرا}، يعني: الوحي".

قال أبو صالح:"الملائكة، يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس".

وقال مقاتل:"يعني به: الملائكة وهو جبريل وحده- عليه السلام- يتلو القرآن على الأنبياء من ربهم، وهو، الملقيات ذكرا، يلقي الذكر على الأنبياء".

الثاني: ما يتلى في القرآن من أخبار الأمم السالفة، قاله قتادة.

الثالث: الأنبياء يتلون الذكر على قومهم، قاله ابن عيسى،رواه الضحاك عن ابن عباس.

قوله تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} [الصافات: ٤]، أي:"أي إن إلهكم الذي

=

تعبدونه أيها الناس إله واحدٌ لاشريك له".

قال ابن كثير:"هذا هو المقسم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو".

قال قتادة:"وقع القسم على هذا".

قال ابن الجوزي:" {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا} [الصافات: ١ - ٣]، هذا قسم بهذه الأشياء، وجوابه: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} [الصافات: ٤]. وقيل معناه: ورب هذه الأشياء إنه واحد".

قال الطبري: يقول:"إن معبودكم الذي يستوجب عليكم أيها الناس العبادة، وإخلاص الطاعة منكم له لواحد لا ثاني له ولا شريك. يقول: فأخلصوا العبادة وإياه فأفردوا بالطاعة، ولا تجعلوا له في عبادتكم إياه شريكا".

قال مقاتل:"وذلك أن كفار مكة قالوا يجعل محمد- ﷺ- الآلهة إلها واحدا فأقسم الله بهؤلاء الملائكة {إن إلهكم}، يعني: أن ربكم، {لواحد} ليس له شريك".

قال السعدي:"فلما كانوا متألهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة".

قوله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الصافات: ٥]، أي:"هو خالق السموات والأرض وما بينهما".

قال الطبري: " يقول: هو واحد خالق السموات السبع وما بينهما من الخلق، ومالك ذلك كله، والقيِّم على جميع ذلك، يقول: فالعبادة لا تصلح إلا لمن هذه صفته، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه في عبادتكم إياه من لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق شيئا ولا يُفْنيه".

عن ابن عباس:"قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن

=

=

ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".
وروي عن عثمان بن سعيد مثله.
روي عن عبد الله بن عون -رَحِمَهُ اللهُ- قال: "لو أن رجلًا انقطع إلى هؤلاء الملوك في الدنيا لانتفع، فكيف بمن ينقطع إلى من له السموات والأرض وما بينهما، وما تحت الثرى؟ ".
قوله تعالى: {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} [الصافات: ٥]، أي:"ومدبِّر الشمس في مطالعها ومغاربها".
قال الطبري: " يقول: ومدبر مشارق الشمس في الشتاء والصيف ومغاربها، والقيِّم على ذلك ومصلحه، وترك ذكر المغارب لدلالة الكلام عليه، واستغني بذكر المشارق من ذكرها، إذ كان معلوما أن معها المغارب".
قال السعدي:"أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيرا ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضا المشركون في العبادة، فيلزمهم بما أقروا به على ما أنكروه. وخص الله المشارق بالذكر، لدلالتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها".
قال الزجاج:"قيل: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقا، ومثلها من المغارب".
قال السدي:"المشارق ستون وثلاث مئة مَشْرِق، والمغارب مثلها، عدد أيام السنة".
قال قتادة:"مشارق الشمس في الشتاء والصيف".
أخرج يحيى بن سلام عن سعيد عن قتادة، قال: "لها ثلاث مائة وستون مشرقا وثلاث مائة وستون مغربا".
قال يحيى: "وسمعت غير سعيد يقول: هي ثمانون ومائة منزلة، تطلع كل يوم في

=

=

منزلة حتى تنتهي إلى آخرها، ثم ترجع في الثمانين ومائة، فتكون ثلاث مائة وستين، فهي كل يوم في منزلة".

أخرج عبدالرزاق عن قتادة، قال:"المشارق ثلاثمائة وستون مشرقا، والمغارب ثلاثمائة وستون مغربا في السنة، قال: والمشرقان: مشرقا الشتاء، ومشرقا الصيف، والمغربان: " مغربا الشتاء، ومغربا الصيف، والمشرق والمغرب: المشرق والمغرب ".

وقال ابن عباس -في رواية عطاء-:"يريد ثمانين ومائة مشرق في الشتاء وثمانين ومائة مشرق في الصيف؛ لأن الشمس في كل يوم تشرق من موضع غير الذي طلعت منه بالأمس".

وقال في رواية عكرمة: "إن الشمس تطلع كل سنة في ثلاث مائة وستين كوة تطلع في كل يوم في كوة لا ترجع إلى تلك الكوة إلى ذلك اليوم من العام المقبل".

قال العثيمين: قال الله ﷻ: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢)} الواو هنا للقسم، والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة.

فقولنا: "تأكيد الشيء" هذه هي فائدة القسم، أنه يفيد التوكيد بذكر معظم، كأن المقسم يقول: إنني أؤكد هذا، كما أؤكد عظمة المحلوف به، ولا يمكن أن أحلف بهذا العظيم عندي إلا على أمر مؤكد.

وقولنا: "بصيغة مخصوصة" هي صيغة القسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء.

فالواو: أكثرها استعمالًا. والباء أكثرها صيغة، يعني أن الباء يُحلَف بها مع وجود الفعل وحذفه، وتدخل على الظاهر وعلى المضمر. والتاء أخص من الواو.

فإذًا أعم حروف القسم بالنسبة للاستعمال الباء؛ لأنها تستعمل مع وجود الفعل فتقول: أحلف بالله لتفعلنَّ كذا. ومع حذفه فتقول: بالله لتفعلنَّ كذا.

=

=

وتستعمل أيضًا مع الاسم الظاهر مثل: أحلف بالله.

ومع الاسم المضمر مثل: إن الله -وبه أحلف- لعلى كل شيء قدير، فهنا دخلت الباء على الضمير.

أما الواو فهي أكثرها استعمالًا، لكنها لا تدخل إلا على الظاهر، ولا يذكر معها فعل القسم.

التاء هي أقلها استعمالًا وتختص بالظاهر، وتختص أيضًا بأسماء معينة، وهي: الله ورب، قال ابن مالك: والتاء لله ورب. فتقول: تالله لأفعلنَّ كذا، وتقول: ترب الكعبة لأفعلنَّ كذا، أو تالرب لأفعلنَّ كذا، ولا يذكر معها فعل القسم، فهي أضيقها استعمالًا.

{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١)} الصافات اسم مجرور بواو القسم؛ لأن حروف القسم تجر. والصافات لها معنى ولها مراد، فما دل عليه اللفظ باعتبار اللغة فهو معنى، وما كان مرادًا للمتكلم فهو المراد.

والمعنى في الصافات يعني الأشياء القائمات على خط واحد مستقيم، فكل شيء متعدد يقوم على خط واحد مستقيم يسمى صافًّا، {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ} [الصف: ٤] يعني على خط مستقيم. هذا المعنى للصافات.

لكن ما المراد به؟ قال المصنف: [الملائكة]، وأُنِّثت باعتبارها جماعات. وجماعات مؤنث.

وقد أخذ الزائغون بهذا الاشتباه أي تأنيث الملائكة، وقالوا: إن الملائكة بنات الله، ولهذا تذكر بصيغة التأنيث، ولكن لا شك أن هذا من باب التلبيس والتشبيه. فإن الله تعالى ذكر الملائكة بصيغة المذكر {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ} [الشورى: ٥] ولم يقل: يسبحن بحمد ربهن، وعلى كل حال أنثت الملائكة باعتبارها جماعات؛ لأن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- جماعات

=

=

مختلفة، كل جماعة لها وظيفة معينة، فمنها من وظيفتهم العبادة الخاصة لله من التسبيح والركوع والسجود وغير ذلك. ومنهم ملائكة موكلون بحفظ بني آدم، وملائكة موكلون بحفظ أعمالهم وكتابتها، وملائكة موكلون بأشياء أخرى، منها ما نعلم ومنها ما لا نعلم.

فإذا قال قائل: من الملائكة؟

فالجواب: أنهم عالم غيبي خلقوا من نور، واستعبدهم الله سبحانه وتعالى في طاعته، فقاموا بها على أتم وجه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قال قائل: هذا التعريف يرد عليه أن الملائكة قد تُرى، فإن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلق عليها، وله ستمائة جناح قد سد الأفق، وأحيانًا يأتي جبريل بصورة بشر؟

فالجواب: أن هذا على سبيل الندرة، وما كان نادرًا فإنه لا يخرم القاعدة، أو لا يبطل التعريف. والنادر كما يقول العلماء: ليس له حكم.

ما وجه كون الملائكة توصف بالصافات؟

قال المصنف:

١ - [تصف نفوسها في العبادة، أو أجنحتها في الهواء، تنتظر ما تؤمر به]. هذا الصافات، وصفت بها الملائكة؛ لأنها تصف أنفسها للعبادة، يعني تهيئها لها.

٢ - أو يصفون عند الله ﷻ كما قال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)} [الصافات: ١٦٥ - ١٦٦].

٣ - أو تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، كما قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ}. [الملك: ١٩]

فالطير إذا كان في الهواء وقد وضع أجنحته هكذا، لا تتحرك. يقال: إنه صاف.

فإذا قال قائل: (أو) في قول المصنف هنا للتنويع أو للشك أو ماذا؟

=

يحتمل أن هذه للتنويع، يعني أنها تصف هكذا وهكذا. أو أنها للشك للتردد بين قولين قال بهما المفسرون.

ولكن المعنى الأول أحسن؛ لأن هذا وصف للملائكة، فهي تصف أنفسها للعبادة، وكذلك تصف أجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به.

{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢)} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الملائكة تزجر السحاب، أي تسوقه].

إذًا فالموصوف شيء واحد، فالصافات هُنَّ الزاجرات، وقوله: [تزجر السحاب (أي تسوقه) لعل هذا على سبيل المثال من زجر الملائكة؛ لأن الملائكة تزجر السحاب أي تسوقه، وكذلك تزجر الميت الكافر عند موته، تزجر نفسه لتخرج، تقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة. وكذلك لعلها تزجر أشياء أخرى لا نعلمها.

المهم أن المراد بالزاجرات الملائكة. وكيف كانت زاجرة؟ نقول: لهذا عدة أوجه منها: زجر السحاب، وزجر النفوس الكافرة عند الموت، وغير ذلك مما يأمرها الله به أن تزجره.

قوله تعالى {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)} [أي قُرَّاء القرآن يتلونه {ذِكْرًا (٣)} مصدر من معنى التاليات]، قوله: {فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)} عدل المصنف بهذا الوصف عن الموصوف الأول فقال: [قراء القرآن يتلونه] أي النفوس التاليات، ولو قيل: إن المراد بها الملائكة أيضًا، لأن الملائكة تتلوا القرآن، كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)} [عبس: ١١ - ١٦] فالملائكة تتلوا القرآن، فيمكن أن نجعل هذه الأوصاف الثلاثة كلها للملائكة.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعرب {ذِكْرًا (٣)} على أنها مصدر من معنى التاليات. فاستفدنا من هذا فائدة نحوية، وهي أن المصدر قد يكون من اللفظ، وقد يكون من

=

المعنى، فإن كان من اللفظ، فهو مصدر لفظي، وإذا كان من المعنى فهو مصدر معنوي، فإذا قلت: قعدت جلوسًا، فجلوسًا مصدر معنوي. قعدت قعودًا مصدر لفظي، يقول المصنف: [ذكرًا مصدر من معنى التاليات]، يعني الذاكرات ذكرًا، فالتاليات عنده بمعنى الذاكرات، وذكرًا مصدر لها من معناها، ولكن الذي يظهر خلاف كلام المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ وأن {ذِكْرًا (٣)} مفعول للتاليات؛ لأن التاليات اسم فاعل قد استوفى شروط العمل لكونه محلى بأل، وذكرًا مفعول به، أي فاللاتي يتلين الذكر، والمراد بالذكر: القرآن وسمي ذكرًا:

١ - لأنه ذكر لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه من أفضل الذكر.

٢ - ولأنه يذكر الإنسان بربه.

٣ - ولأنه يذكر الإنسان بأحكام ربه.

٤ - ولأنه يذكر الإنسان بنعم ربه.

٥ - ولأنه ذكر لمن عمل به أي شرف ورفعة، كما قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ}. [الزخرف: ٤٤].

٦ - ولأنه يعظ صاحبه ويذكره، كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)}. [ص: ٢٩] فالقرآن ذكر من هذه الوجوه.

قوله تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)} الجملة هذه جواب القسم، ولذلك كسرت إنَّ هنا لوقوعها في جواب القسم؛ ولأنه اقترن خبرها باللام.

وإذا وقعت إنَّ جوابًا للقسم وجب كسرها، وإذا اقترن خبرها باللام، أو اسمها المؤخر، أو معمول أحدهما باللام وجب كسرها.

{إِنَّ إِلَهَكُمْ} الخطاب يقول المصنف: [يا أهل مكة]، ولكن الصحيح أنه عام يشمل كل من خوطب، ولكن الذي أوجب المصنف أن يجعله خاصًّا بأهل مكة؛

=

=

لأن هذه الآية مكية والمشركون هم أهل مكة.

ولكن لا ينبغي أن يقيد المعنى العام بمكان نزوله، وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المكان.

فالصواب {إِنَّ إِلَهَكُمْ} يعني أيها الناس {لَوَاحِدٌ (٤)} يعني لا شريك له، والواحد والأحد وما أشبههما تدل على الانفراد، أي أنه ﷻ لا شريك له، {إِلَهَكُمْ} فِعال بمعنى مفعول، أي مألوهكم، والمألوه هو الذي يعبد محبة وتعظيمًا، فبمحبته يقوم الإنسان بفعل الأوامر، وبتعظيمه ينتهي عن النواهي، إذًا إن معبودكم أيها الناس لواحد لا شريك له، فالله ﷻ لا شريك له في ربوبيته، ولا شريك له في ألوهيته، ولا شريك له في أسمائه وصفاته، دليل الربوبية قوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧] وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ} [الرعد: ١٦] ودليل الألوهية قوله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}. [محمد: ١٩].

ودليل الأسماء والصفات قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)} [الشورى: ١١]. فالله تعالى واحد في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، سبحانه وتعالى.

ويرد على هذا أن للمشركين آلهة متعددة؟

والجواب: أن نقول: نعم لهم آلهة لكنها آلهة باطلة، والدليل على أنها باطلة قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} [لقمان: ٣٠] وقوله سبحانه وتعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}. [النجم: ٢٣].

ثم قال: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (رب) إما أن تكون عطف بيان، أو خبر

=

=

مبتدأ محذوف، والتقدير هو رب السماوات والأرض.

ورب بمعنى خالق، ومالك، ومدبر، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملك السماوات والأرض، وهو المدبر للسماوات والأرض.

قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف: ٥٤] وهذا انفراده بالخلق والتدبير، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الجاثية: ٢٧] وهذا انفراده بالملك.

والسماوات جمع سماء وهي معروفة، وعددها سبع سماوات بنص القرآن. قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦)}. [المؤمنون: ٨٦] وقال سبحانه: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}. [الطلاق: ١٢]

الأرض كذلك سبع لظاهر القرآن وصريح السنة:

أما ظاهر القرآن ففي قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، [الطلاق: ١٢] فالمثلية هنا بالعدد؛ لأنه لا يمكن أن تكون الأرض مثل السماء في ذاتها ولا في سعتها وعظمتها، فالسماء أوسع وأعظم، ومادتها غير مادة الأرض؛ ولهذا يصف الله تعالى السماء بالقوة: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢)}. [النبأ: ١٢] {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا}. [الأنبياء: ٣٢] {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ} [الذاريات: ٤٧] ولم يرد ذلك في الأرض. إذًا يتعين أن تكون مماثلة في العدد.

أما السنة فصريحة مثل قوله ﷺ: "من اقتطع شبرًا من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين".

{وَمَا بَيْنَهُمَا} يعني ورب ما بينهما، ولا شك أن الذي بينهما مخلوقات عظيمة بدليل أنها جعلت قسيمة وعديلة للسماوات والأرض. فلابد أن تكون شيئًا عظيمًا، ليس هي مجرد ما نرى من السحاب المسخر بين السماء والأرض، بل

=

=

هناك أشياء عظيمة بين السماء والأرض من آيات الله ﷻ. نعرف منها السحاب فإنه بين السماء والأرض، والنجوم بين السماء والأرض، والشمس بين السماء والأرض، والقمر بين السماء والأرض، لقوله تعالى: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)} [الأنبياء: ٣٣] وما اشتهر عن علماء الفلك سابقًا من أن الشمس في السماء الرابعة، والقمر في السماء الدنيا، وعطارد وزحل والمشتري في السماوات الأخرى، وهي على هذا الترتيب.

زحل شرى مريخه من شمسه ... فتزاهرت بعطارد الأقمار

أعلاها زحل في السماء السابعة، (شرى) المشتري في السادسة، (مريخه) المريخ في السماء الخامسة، (من شمسه) الشمس في الرابعة، (فتزاهرت) الزهرة في الثالثة، بعطارد في الثانية، الأقمار في السماء الدنيا.

هذا هو المشهور عند علماء الفلك سابقًا، ولكن هذا خلاف الصواب؛ لأن ظاهر النصوص أن الشمس والقمر والنجوم كلها دون السماء، ليست ملصقة في السماوات، بل هي في فلك يدور بين السماء والأرض، والقمر هو أقربها إلى الأرض بدليل أنه يكسف ما فوقه كما شاهدناه وشاهده غيرنا، أحيانًا تجده يمر من تحت النجمة فتغيب به، وهذا يدل على أنه تحت النجوم، على كل حال نقول: ما بين السماوات السبع السحاب والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها من أمور لا نعلمها، قد لا نعلم هذه الأمور، ويمكن أن العلم فيما بعد يطلعنا على شيء كثير منها.

{وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي والمغارب للشمس، لها كل يوم مشرق ومغرب]، فكأنه من باب الاكتفاء بذكر المقابل عن مقابله، نظير قوله تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [النحل: ٨١] يعني والبرد، فإن السرابيل التي هي القمص وشبهها تقي الحر والبرد.

=

=

والمشارق جمع مشرق، فما المراد بالمشارق؟ هل المراد كما قال المصنف: مشارق الشمس لأنها كل يوم لها مشرق؟ أو نقول: إن المشارق أعم فتشمل مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما شرق. أيهما أعم؟ الثاني أعم. فنقول: رب المشارق يعني مشارق الشمس، ومشارق القمر، ومشارق النجوم، ومشارق كل ما يشرق. وذكر الله المشارق دون المغارب، لأن المشارق أدل على القدرة من المغارب، إذ إن الشروق ابتداء والغروب انتهاء.

وفي الشروق -أيضًا- ولاسيما في شروق الشمس إضاءة ونور يظهر فيه تمامًا كمال النعمة، وقوله {الْمَشَارِقِ} هنا بالجمع، وفي بعض الآيات جاءت بالتثنية، مثل قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)} [الرحمن: ١٧] وفي بعض الآيات جاءت بالإفراد كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)} [المزمل: ٩] فهل هذا تناقض أم ماذا؟

الجواب: لا، وليس في القرآن شيء من التناقض {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)} [النساء: ٨٢] فالقرآن لا يمكن أن يتناقض بنفسه، ولا أن يتناقض مع صحيح السنة. وانتبه نقول: مع صحيح السنة، لأنه قد تأتي سنة ضعيفة تناقض القرآن، ومناقضتها للقرآن يدل على ضعفها، لكن مع صحيح السنة لا يمكن، فإن وجد شيء ظاهره التعارض فإنه لابد أن يكون هناك وجه لتصحيح التعارض: إما بإمكان الجمع وهو المرتبة الأولى للعمل بالنصوص التي ظاهرها التعارض. وإما بالنسخ إن علم التاريخ وكان النص مما يدخله النسخ. وإما الترجيح يكون أحدهما أرجح من الآخر، ولابد من هذه المراتب الثلاث. لكن أحيانًا قد لا يتسنى للناظر وجه من هذه الوجوه، قد يعجز عن الجمع، وقد لا يعرف النسخ، وقد لا يمكنه الترجيح، فموقفه حينئذ التوقف، وأن يقول: الله أعلم، ولا يجوز أن يعتقد بأي حال من الأحوال أن في القرآن أو

=

=

صحيح السنة تناقضًا أبدًا، لكن هل له أن يحاول معرفة هذه المراتب، أو إذا أشكل عليه أول مرة وقف؟ يجب أن يحاول النظر مرة بعد أخرى حتى يتبين، لئلا يقع في نفسه شك فيزيغ والعياذ بالله، فهذه الفائدة جاءت عرضًا، وهي أنه ليس في القرآن تناقض لا في نفسه ولا مع صحيح السنة، فإن وجد شيء ظاهره التناقض والتعارض وجب أن نستعمل المراتب الثلاث.

أولًا: الجمع، فإن لم يمكن فالنسخ، فإن لم يمكن فالترجيح، فإن لم نصل إلى ذلك فالتوقف لكن مع محاولة الوصول إلى مرتبة من هذا المراتب.

فبناءً على هذه القاعدة يمكن أن ننزل الاختلاف الوارد في المشرق والمغرب فنقول: المشرق باعتبار الجهة يعني جهة الشرق، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ} [المزمل: ٩] يعني جهة الشرق والمغرب جهة الغرب، بدليل قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ} [البقرة: ١١٥]. أي جهة الله على أحد التفسيرين، وأما المشرقين والمغربين فالمراد مشرقا الصيف والشتاء، ومغربا الصيف والشتاء، فالشمس مثلًا لها منتهى في مشرقها صيفًا، وهو مدار السرطان، ولها منتهى في مدارها شتاء وهو مدار الجدي.

فالفرق بين المشرقين فرق كبير، لا يستطيع أحد من المخلوقين أن يحول الشمس من مدار السرطان إلى مدار الجدي ولا شعرة واحدة.

وكذلك نقول بالنسبة للقمر؛ لأنه يدور على هذه المعالم: المشرقين والمغربين.

المشارق والمغارب الجمع فيها واضح، إما باعتبار مشارق، كل ما يشرق ومغارب كل ما يغرب من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، وإما أنها المشارق اليومية للشمس، لأن كل يوم لها مشرق، وهذه المرتبة مرتبة الجمع، فالجمع بينها أن نقول: المشارق باعتبار مشارق كل ما يشرق، أو باعتبار المشارق مشارق الشمس كل يوم، والمشرقين باعتبار مشرقي الصيف والشتاء،

=

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦).

{إنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِب} أَيْ بِضَوْئِهَا أَوْ بِهَا وَالْإِضَافَة لِلْبَيَانِ كَقِرَاءَةِ تَنْوِين زِينَة الْمُبَيَّنَة بِالْكَوَاكِبِ.

وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧).

{وَحِفْظًا} مَنْصُوب بِفِعْلٍ مُقَدَّر أَيْ حَفِظْنَاهَا بِالشُّهُبِ {مِنْ كُلّ} مُتَعَلِّق بِالْمُقَدَّرِ {شَيْطَان مَارِد} عَاتٍ خَارِج عَنْ الطَّاعَة.

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨).

{لَا يَسَّمَّعُونَ} أَيْ الشَّيَاطِين مُسْتَأْنَف وَسَمَاعهمْ هُوَ فِي الْمَعْنَى الْمَحْفُوظ عَنْهُ {إلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى} الْمَلَائِكَة فِي السَّمَاء وَعُدِّيَ السَّمَاع بِإِلَى لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْإِصْغَاء وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ الْمِيم وَالسِّين أَصْله يَتَسَمَّعُونَ أُدْغِمَتْ التَّاء فِي السِّين {وَيُقْذَفُونَ} أَيْ الشَّيَاطِين بِالشُّهُبِ {مِنْ كُلّ جَانِب} مِنْ آفاق السماء.

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩).

{دُحُورًا} مَصْدَر دَحَرَهُ أَيْ طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ وَهُوَ مَفْعُول لَهُ {وَلَهُمْ} فِي الْآخِرَة {عَذَاب وَاصِب} دائم.

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠).

{إلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَة} مَصْدَر أَيْ الْمَرَّة وَالِاسْتِثْنَاء مِنْ ضَمِير يَسَّمَّعُونَ أَيْ لَا يَسْمَع إلَّا الشَّيْطَان الَّذِي سَمِعَ الْكَلِمَة مِنْ الْمَلَائِكَة فَأَخَذَهَا بِسُرْعَةٍ {فَأَتْبَعهُ شِهَاب} كَوْكَب مُضِيء {ثَاقِب} يَثْقُبهُ أَوْ يُحْرِقهُ أَوْ يَخْبِلهُ[1].

=

ومغربيهما المشرق والمغرب الجهة.

(١) قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} [الصافات: ٦].

=

=

قال ابن عباس: يريد التي تلي الأرض".

قال ابن عباس:"بضوء الكواكب".

قال السمعاني:"أي: بحسن الكواكب وضيائها".

قال ابن الجوزي:" {إنا زينا السماء الدنيا}، يعني: التي تلي الأرض، وهي أدنى السموات إلى الأرض بزينة الكواكب، أي: بحسنها وضوئها".

قال مقاتل:" {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا}: لأنها أدنى السماء من الأرض وأقربها، {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}: وهي معلقة في السماء بهيئة القناديل".

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ}، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك: ٥]، وقال: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر: ١٦ - ١٨]".

قال قتادة:"خلقت النجوم ثلاثا، رجوما للشياطين، ونورا يهتدى بها، وزينة لسماء الدنيا".

وقرأ عاصم: «بزينة الكواكب»، أي: بتزييننا الكواكب، وقرأ حمزة: «بزينة الكواكب»، بخفض الباء وتنوين الزينة، والكواكب على هذه الرواية تدل على الزينة، والمعنى: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب.

قوله تعالى: {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} [الصافات: ٧]

عن قتادة، قوله:" {وحِفْظًا} يقول: جعلتها حفظًا-وفي رواية: "جعلناها حفظا" - {مِن كل شيطان مارد} ".

=

=

قال الطبري: يقول:"{وحفظا} للسماء الدنيا زيناها بزينة الكواكب".
قال يحيى:"أي: وجعلناها، يعني: الكواكب حفظا للسماء".
قال ابن كثير:"تقديره: وحفظناها حفظًا، {مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ".
قال الزجاج:"يقذفون بها إذا استرقوا السمع".
قال السمعاني:"أي: وحفظناها حفظا، {من كل شيطان} متمرد، والشيطان: كل متمرد عات من إنس أو جن أو جنة، قال الشاعر:
ما ليلة القفير إلا شيطان...
والقفير: البئر البعيدة القعر".
قال البيضاوي:"«مارد»: خارج من الطاعة".
قال يحيى:"مرد على المعصية، أي: اجترأ على المعصية، وهم سراة إبليس".
قوله تعالى: {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى} [الصافات: ٨]، أي:"لا تستطيع الشياطين أن تصل إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومَن فيها مِن الملائكة، فتستمع إليهم إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مِن شرعه وقدره".
قال الطبري: أي:"وحفظا من كل شيطان مارد أن لا يسمع إلى الملإ الأعلى، ويعني بقوله {إلى الملإ}: إلى جماعة الملائكة التي هم أعلى ممن هم دونهم".
قال يحيى:"أي: لئلا يسمعوا. {إلى الملإ الأعلى} الملائكة في السماء، وكانوا يسمعون قبل أن يبعث النبي ﷺ أخبارا من أخبار السماء، فأما الوحي فلم يكونوا يقدرون على أن يسمعوه وكانوا يقعدون منها مقاعد للسمع، فلما بعث الله النبي ﷺ منعوا من تلك المقاعد".
قال السمعاني:"معنى الآية: "أنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى".
قال ابن كثير:"أي: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهي السماوات ومن فيها من
=

=

الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره".

عن قتادة: " {لا يسمعون إلى الملإ الأعلى}، قال: منعوا بها، يعني: بالنجوم".

عن السدي، قوله:"{لا يسمعون إلى الملإ الأعلى}، قال: الملائكة".

عن عروة، عن عائشة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إن الملائكة تنزل في العنان- وهو السحاب- فتذكر ما قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم".

قال الطبري-بعد أن ذكر الأخبار السابقة:"فهذه الأخبار تنبئ عن أن الشياطين تسمع، ولكنها ترمى بالشهب لئلا تسمع".

وقرئ: «لا يَسْمَعُونَ»، بتخفيف السين من يسمعون، بمعنى أنهم يتسمَّعون ولا يسمعون.

أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس رضي الله، عنهما:"أنه كان يقرأ: «لا يسمعون إلى الملا الأعلى» مخففة، وقال: إنهم كانوا يتسمعون، ولكن لا يسمعون".

قوله تعالى: {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا} [الصافات: ٨ - ٩]، أي:"ويُرْجَمون بالشهب من كل جهة طردًا لهم عن الاستماع".

قال الطبري: يقول:"ويرمون من كل جانب من جوانب السماء دحورا، والدحور: الدفع والإبعاد، يقال منه: ادحر عنك الشيطان: أي: ادفعه عنك وأبعده".

قال ابن كثير:"أي: يرمون من كل جهة يقصدون السماء منها رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك".

قال السمعاني:"أي: يرجمون، وقوله: {من كل جانب} من جوانب السماء، والدحر هو الإبعاد".

عن قتادة: " {ويقذفون من كل جانب دحورا}، قذفا بالشهب".

=

=

عن مجاهد، قوله: " {ويقذفون}، يرمون، {من كل جانب}، قال: من كل مكان. وقوله {دحورا}، قال: مطرودين".

قال ابن زيد:"الشياطين يدحرون بها عن الاستماع، وقرأ وقال: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب} ".

قال السعدي:"ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحداهما: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرما مظلما لا ضوء فيها، ولكن زينها فيها لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده إلى استماع الملأ الأعلى، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب {مِنْ كُلِّ جَانِبٍ} طردا لهم، وإبعادا عن استماع ما يقول الملأ الأعلى".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} [الصافات: ٩]، أي:"ولهم في الدار الآخرة عذاب دائم موجع".

قال الطبري: يقول:"ولهذه الشياطين المسترقة السمع عذاب من الله واصب".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} [الملك: ٥] ".

وفي قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} [الصافات: ٩]، وجوه:

أحدها: معناه: لهم عذاب موجع. قاله ابو صالح، والسدي.

الثاني: لهم عذاب دائم. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وأبو عبيدة.

وقال ابن زيد:"الواصب: الدائب".

قال السعدي:"أي: دائم، معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم".

=

=

الثالث: أنه الذي يصل وجعه إلى القلوب، مأخوذ من الوصب. حكاه الماوردي.
قال الطبري: "الصواب تأويل من قال: معناه: دائم خالص، وذلك أن الله قال: {وله الدين واصبا}، فمعلوم أنه لم يصفه بالإيلام والإيجاع، وإنما وصفه بالثبات والخلوص؛ ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

لا أشتري الحمد القليل بقاؤه... يؤما بذم الدهر أجمع واصبا

أي: دائما".

قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ١٠].

أي: إلا مَنِ اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء بسرعة، فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب المضيء قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقَدَر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب، فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكهنة، فيكذبون معها مائة كذبة.

قال الطبري:"يقول: إلا من استرق السمع منهم {فأتبعه شهاب} مضيء متوقد".

قال السمعاني:"قال أهل التفسير: هذا استثناء منقطع، ومعناه: لكن من خطف الخطفة، والخطف هو الاستلاب بسرعة، واختطافهم واستلابهم كلام الملائكة، {فأتبعه شهاب} مضيء، والشهاب: هو النجم ها هنا".

قال ابن كثير:"أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها، من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن
يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، أي: مستنير".

قال يحيى:"{إلا من خطف الخطفة}: استمع الاستماعة كقوله: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} [الحجر: ١٨]. قال: {فأتبعه شهاب ثاقب}، أي:

=

=

مضيء".

قال السعدي:"ولولا أنه تعالى استثنى، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يستمعون شيئا أصلا ولكن قال: {إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء".

قال سعيد بن جبير:"يقول: إلا من استرق السمع من أصوات الملائكة {فأتبعه شهاب}، يعني: الكواكب".

قال ابن زيد:"الثاقب: المستوقد، قال: والرجل يقول: أثقب نارك، ويقول استثقب نارك استوقد نارك".

عن قتادة، قوله: " {فأتبعه شهاب ثاقب}، من نار وثقوبه: ضوءه".

عن الضحاك:"{شهاب ثاقب}، قال: ضوءه إذا انقض، فأصاب الشيطان".

قال السدي:"شهاب مضيء يحرقه حين يرمى به".

وقال السدي الثاقب: المحرق".

قال الزجاج:"{شهاب ثاقب}: كوكب مضيء".

قال يزيد الرقاشي: "يثقب الشيطان حتى يخرج من الجانب الآخر، فذكر ذلك لابي مجلز رضي الله، عنه، فقال: ليس ذاك، ولكن ثقوبه ضوءه".

قال ابن عباس:"لا يقتلون بالشهاب، ولا يموتون، ولكنها تحرقهم من غير قتل، وتخبل وتخدج من غير قتل".

قال ابن عباس:"إذا رمي الشهاب لم يخطئ من رمى به، وتلا: {فأتبعه شهاب ثاقب} ".

=

=

وقال ابن عباس:"إذا رأيتم الكوكب قد رمي به فتوارى فإنه لا يخطئ، وهو يحرق ما أصاب ولا يقتل".

وقال الحسن:"أنه يقتله في أسرع من الطرف".

عن محمد بن سيرين، عن رجل قال: "كنا مع أبي قتادة على سطح فانقض كوكب، فنهانا أبو قتادة أن نتبعه أبصارنا".

قال عمرو: "سأل حفص الحسن: أأتبع بصري الكوكب؟ فقال: قال الله: {وجعلناها رجوما للشياطين} [الملك: ٥] وقال: {أولم ينظروا في ملكوت السموات} [الأعراف: ١٨٥] كيف نعلم إذا لم ينظر إليه؟ لأتبعنه بصري".

قال عبيد الله: "سئل الضحاك هل للشياطين أجنحة؟ فقال: كيف يطيرون إلى السماء إلا ولهم أجنحة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)} (إنا) الضمير يعود على الله ﷻ، واستعمال ضمير الجمع عائدًا إلى الله من باب التعظيم، وليس من باب التعدد؛ لأن الآية تقول: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)} لكن هذا من باب التعظيم، وقوله: {زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ} أي جعلنا عليها ما يزينها وهي الكواكب، ولهذا قال: {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)} وفي قراءة {بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} وكلاهما صحيح. (بزينةِ الكواكبِ) أي بالكواكب المزينة للسماء كما قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ} [الملك ٥] و (الكواكب) على القراءة التي ساقها المصنف مضاف إليه، وزينةِ مضاف غير منون (بزينةِ الكواكب)؛ لأن الكواكب نفسها زينة تزين بها السماء الدنيا.

فإذا قال قائل: السماء الدنيا. لماذا سميت دنيا؟

فالجواب: لأنها أدنى إلى الأرض مما فوقها، فهي دنيا، وربما نقول: إنها أدنى مما فوقها في السعة والقوة، لأنه كلما علوت اتسع المكان، لأن السماوات على

=

=

الأرض دائرة كالكرة، ومعلوم أنك كلما صعدت فسوف يتسع وكلما اتسع فسيكون أقوى، لأنه لو كان المتسع بقوة ما تحته ضعف، إذ كلما اتسع البناء لابد أن يكون أقوى، ونضرب لك مثلًا: لو أنك أتيت بمسلح خمسة أمتار يحتاج مثلًا إلى ١٠ سم لكن إذا جعلته ٢٠ يحتاج إلى أكثر، يعني يحتاج أن يكون سميكًا أكثر؛ لأنه لو كان بسمك الأول مع سعته لكان يهضم، وكلما اتسع فلابد أن يكون أشد بناء وأحكم.

وقوله: {بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦)} يعني أن الكواكب تزين السماء.

وسنورد على هذا إيرادًا، وهو أننا ذكرنا قبل آنفًا أن النجوم والكواكب في فلك بين السماء والأرض، وظاهر الآية أن تزين السماء الدنيا بشيء لاصق به.

والجواب على ذلك أن يقال: إن الشيء قد يزين بالشيء، ولو كان منفصلًا عنه. أرأيت لو وضعت ثريات خارج القصر فإذا نظرت إلى القصر والثريات بينك وبينه فإن هذه الثريات ستكون زينة للقصر مع أنها في الواقع ليست لاصقة به، فكل شيء يحول يكون بينك وبين شيء آخر فإنه سيتصف به الشيء الثاني، وسيكون في نظرك ملاصقًا له.

قال تعالى: {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)} يقول المصنف: [حفظًا منصوب بفعل مقدر: أي حفظناها بالشهب] أي حفظنا السماء الدنيا حفظًا. بالشُّهُب كما قال الله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: ٥] وقال هنا: {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)} (من كل) قال المصنف: [متعلق بالمقدر -وهو حفظناها- (شيطان مارد) عاتٍ خارج عن الطاعة]، شيطان نكرة يشمل كل شيطان، بل هو نكرة مضافة إليه (كل) فيكون فيه نوعان من أسباب العموم وهو التنكير وإضافة (كل) إليه.

وشيطان قيل إنه مأخوذ من شاط يشيط، وعلى هذا فالنون زائدة. وقيل: إنه من

=

=

شطن بمعنى بَعُدَ، فالنون أصلية، وهذا هو الظاهر أن النون أصلية وهو مأخوذ من شطن إذا بعد؛ لأن الشيطان قد بَعُدَ من رحمة الله، قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)} [الحجر: ٣٥].

وقوله: (مارد)، المارد هو العاتي القوي العتو، والعياذ بالله.

وقوله: {لَا يَسَّمَّعُونَ} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [أي الشياطين مستأنف وسماعهم هو في المعنى المحفوظ عنه]، {لَا يَسَّمَّعُونَ} الجملة -كما قال المصنف- استئنافية، يعني أن الشياطين المردة لا يسمعون إلى الملأ الأعلى. هذه الجملة المستأنفة هي في المعنى المحفوظ عنه في قوله {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧)} عن سماعهم إلى الملأ الأعلى، يعني أن السماء حفظت من الشياطين ألا يسمعوا إلى الملأ الأعلى {الْمَلَإِ الْأَعْلَى} الملائكة في السماء، وعُدِّي قال المصنف: [السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء].

الملأ في الأصل الجماعة، ويطلق في الغالب على الأشراف، كما يمر كثيرًا في المكذبين للرسل أن الله يقول: {قَالَ الْمَلَأُ}، فالغالب أن الملأ هم الجماعة الأشراف والأعيان في قومهم.

ولا ريب أن الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- أشراف؛ لأنهم عباد مسخرون لعبادة الله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، منهم من أقوم عباد الله في طاعة الله وسيأتينا إن شاء الله في الفوائد هل هم أفضل من البشر، أو البشر أفضل منهم. وهنا يقول: {الْأَعْلَى}، أي الأعلى مكانًا، فإن السماء أعلى من الأرض، ويمكن أن يراد به الأعلى وصفًا فيجمع بين الأمرين، كما أن الله سبحانه وتعالى إذا وصف بالأعلى فهو الأعلى مكانًا والأعلى وصفًا.

قال: [وعُدّي السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء]، هذا جواب عن سؤال مقدر، وهو أن {سَمِعَ} في اللغة العربية تتعدى بنفسها، كما قال الله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ

=

=

قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ} [المجادلة: ١] وهنا قال: {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ} ولم يقل: لا يسمعون الملأ، أجاب المصنف عنه بأن الفعل ضمن معنى الإصغاء، والتضمين معناه أن يكون الفعل متضمنًا لمعنى يناسب المعمول، سواء كان مفعولًا به أو مجرورًا، وهل التجوز إذا جاء مثل هذا التعبير هل يكون التجوز بالفعل أي أنه ضمن معنىً يناسب المعمول الذي تعدى إليه الفعل، أو أن التجوز في الحرف. ذكر أهل النحو في ذلك قولين:

القول الأول: وهو للكوفيين أن التجوز في الحرف.

والقول الثاني: أن الفعل متضمن معنى يناسب الحرف المتعدي إليه.

وأبين مثال لذلك قوله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ}. [الإنسان: ٦] لو أننا أخذنا بظاهر اللفظ لكان المعنى أن هذه العين يُشرب بها، ومعلوم أن العين لا يمكن أن يشرب بها، لأنه لا يشرب إلا بالإناء من العين، فالعين لا يُشرب بها وإنما يشرب منها، فهل نقول: إن الباء هنا بمعنى (من) فيكون تجوز بالحرف، أو نقول: أن يشرب متضمن معنى يروى {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا} أي يروى بها عباد الله بعد شربهم منها، ذكرنا في هذا قولين لأهل العلم، ولا ريب أن جعل التضمين في الفعل أولى من جعله في المعمول؛ لأنك إذا جعلت التضمين في الفعل استفدت فائدتين:

الفائدة الأولى: ما دل عليه لفظ الفعل.

الفائدة الثانية: ما دل عليه معنى الفعل المتضمن إياه.

أما إذا جعلت التجوز في الحرف فإنك لا تستفيد إلا معنى واحدًا، وهو نزع الحرف وإحلال حرف آخر مكانه، ولم نستفد شيئًا ويبقى الفعل على ما هو عليه بمقتضى دلالة اللفظ، فالحاصل أن القول بأن الفعل يتضمن معنى يناسب الحرف، أو يناسب المعمول أولى من القول بأن المعمول هو الذي فيه التجوز.

=

هنا {لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ} نقول: الفعل يتضمن معنى الإصغاء. يعني لا يصغون إليهم مستمعين.

وفي قراءة بتشديد الميم والسين {لَا يَسَّمَّعُونَ} وأصله يتسمعون، أدغمت التاء في السين فصارت يسَّمَّعون، والقراءة هذه سبعية؛ لأن في اصطلاح المصنف أنه إذا قال: في قراءة، فهي سبعية وإذا قال: قرِئَ، فهي شاذة {وَيُقْذَفُونَ} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ[أي الشياطين بالشهب من كل جانب من آفاق السماء، {دُحُورًا} مصدر دحره، أي طرده وأبعده وهو مفعول له]، {وَيُقْذَفُونَ}، الضمير يعود على الشياطين فإذا قال قائل: إنه لم يتقدم ذكر الشياطين، فالجواب: بلى، تقدم في قوله {مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ}، لأن كل شيطان عام، فيكون دالًّا على الجمع، إذن يقذفون أي الشياطين المعلوم جمعهم من قوله {كُلِّ شَيْطَانٍ}، {وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)}، الذي يقذفهم الله عَزَّ وَجَلَّ بأمره، يأمر هذه الشهب فتقذفهم، فالقذف هو الرمي بشدة {مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨)} أي من الجوانب التي تصيبهم من آفاق السماء. كما قال المصنف. {دُحُورًا} يعني طردًا وإبعادًا. وهي كما قال المصنف مفعول له، أي لأجل الدحور، والمفاعيل خمسة: المطلق، والمفعول به، والمفعول فيه، والمفعول له، والمفعول معه، وأمثلتها:

ضربت ضربًا أبا عمرو غداة أتى ... وسرت والنيل خوفًا من عقابك لي ضربت ضربًا مفعول مطلق، أبا عمرو مفعول به، غداة أتى المفعول فيه، وسرت والنيل المفعول معه، خوفًا من عقابك لي المفعول له.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩)} أي دائم فهم يعذبون في هذه الدنيا بهذه الشهب، ويعذبون في الآخرة بالعذاب الدائم؛ لأن الشياطين من أصحاب النار.

قال الله تعالى: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ[مصدر أي المرة، والاستثناء من ضمير (يسمعون) أي لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من

=

الملائكة فأخذها بسرعة {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ} كوكب مضيء {ثَاقِبٌ} يثقبه أو يحرقه أو يخبله]، لما قال {لَا يَسَّمَّعُونَ} وكان هذا النفي عامًّا: يعني لا يسمع أي واحد من هؤلاء الشياطين إلى الملأ الأعلى، استثنى الشياطين المردة الذين يخطفون الخطفة، ولهذا قال: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} يعني أخذ الشيء بسرعة، وخطفة مصدر يدل على الوحدة، يعني إلا شيطانًا يخطف الخطفة فهذا يسمع، ولكن هل إذا خطف الخطفة ينجو؟ قال الله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)} فهنا استثنى من نفي سماعهم إلى السماء، استثنى الذي يخطف الخطفة فهو يسمع، ولكن هل ينجو حتى يصل إلى الأرض؟ قال: {فَأَتْبَعَهُ} أي تبعه شهاب ثاقب يعني كوكب مضيء ثاقب أي نافذ ينفذ فيه فيخرقه أو يحرقه أو يخبله. وربما ينجو من هذا الشهاب إذا أراد الله ﷻ، ويصل إلى الكاهن ويوحي إليه بما سمع، ثم الكاهن يكذب مع ما سمع كذبات كثيرة مئة كذبة أو أكثر أو أقل، ثم يحدث الكاهن الناس بما سيكون، فإذا وقع قال: إنه يعلم الغيب، واتخذ من هذا دعاية لنفسه، ولهذا كان الكهان في العرب في الجاهلية كانوا معظمين يتحاكم الناس إليهم، لأنهم إذا أخبروا من هذه الأمور من علم الغيب وقع ما أخبروا به وصار لهم شأن كبير عند الناس، فصار الشياطين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قسم لا يمكنه السماع إطلاقًا.

القسم الثاني: قسم آخر يمكن أن يسمع على سبيل الخطف ويحرقه الشهاب.

والقسم الثالث: قسم يسمع على سبيل الخطف، وينجو، وكل هذا بإذن الله ﷻ وإرادته تبعًا لحكمته.

وكل هذه الآيات في بيان عظمة السماء، وأن السماء محفوظة محروسة لا يمكن أن يصل إليها أحد.

مسألة: في كيفية استراق الشياطين للسمع.

=

=

عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان -قال علي، وقال غيره: صفوان- ينفذهم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع، قبل أن يرمي بها إلى صاحبه، فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض -وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض- فتلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨).

قال العيني في عمدة القاري (٢٧/ ٤٠٥): قوله إذا قضى الله أي إذا حكم الله ﷻ بأمر من الأمور والقضاء فصل الأمر سواء كان بقول أو فعل وهذا بمعنى التقدير ويجيء بمعنى الخلق كما في قوله ﷺ لما قضى الله أي لما خلقه قوله ضربت الملائكة أي ملائكة السماء بأجنحتها قوله خضعانا بضم الخاء مصدر من خضع نحو غفر غفرانا ويقال خضع يخضع خضوعا وخضعانا وهو الانقياد والطاعة ويروى بكسر الخاء كالوحدان ويجوز أن يكون جمع خاضع وقال الكرماني أي خاضعين وقال شيخ شيخنا الطيبي إذا كان خضعانا جمعا كان حالا وإذا كان

=

=

مصدرا يجوز أن يكون مفعولا مطلقا لما في ضرب الأجنحة من معنى الخضوع أو مفعولا له وذلك لأن الطائر إذ استشعر خوفا أرخى جناحيه مرتعدا قوله لقوله أي لقول الله ﷻ قوله كالسلسلة على الصفوان تشبيه القول المسموع بالسلسلة على الصفوان كما شبه في بدء الوحي بقوله كصلصلة الجرس وهو صوت الملك بالوحي والصفوان الحجر الأملس وقال الخطابي الصلصلة صوت الحديد إذا تحرك وتداخل وكأن الرواية وقعت له هنا بالصاد أو أراد أن التشبيه في الموضعين بمعنى واحد قوله قال علي هو علي بن عبد الله شيخه قوله وقال غيره أي غير سفيان الراوي المذكور ينفذهم ذلك وهذه اللفظة هي زيادة غير سفيان أي ينفذ الله إلى الملائكة ذلك القول وروي ينفذ ذلك أي ينفذ الله ذلك الأمر والصفوان تلك السلسلة أي صوتها وفي تفسير ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة أي كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون ويرون أنه من أمر الساعة وقرأ حتى إذا فزع (سبإ٢٣) الآية وأصل الحديث عند أبي داود قوله فإذا فزع أي فإذا أزيل الخوف عن قلوبهم وزوال الفزع هنا بعد سماعهم القول كالفصم عن رسول الله بعد سماع الوحي قوله ماذا قال ربكم أي قالت الملائكة أي شيء قال ربكم قوله قالوا القائلون هم المجيبون وهم الملائكة المقربون كجبريل وميكائيل وغيرهما على ما رواه أبو داود من حديث ابن مسعود قال إذا تكلم الله ﷻ بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام فإذا جاء جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربكم فيقول الحق فيقولون الحق الحق قوله الذي قال أي الذي قالوا الحق لأجل ما قال الله ﷻ والمعنى أنهم عبروا عن قول الله وما قضاه وقدره بلفظ الحق قوله الحق منصوب على أنه صفة مصدر محذوف تقديره قال الله القول الحق

=

=

ويحتمل الرفع على تقدير قال المجيبون قوله الحق هكذا قدر الزمخشري في سورة سبأ في قوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق (سبإ٢٣) بالرفع والقول يجوز أن يراد به كلمة كن وإن يراد بالحق ما يقابل الباطل ويجوز أن يراد به القول المسطور في اللوح المحفوظ فالحق بمعنى الثابت في اللوح المحفوظ قوله فيسمعها أي يسمع تلك الكلمة وهي القول الذي قال الله ﷻ ومسترقو السمع فاعله وأصله مسترقون للسمع فلما أضيف حذفت النون وفي رواية أبي ذر فيسمعها مسترق السمع بالإفراد قوله ومسترقو السمع مبتدأ وخبره هو قوله هكذا ثم فسره بقوله هكذا واحد فوق آخر ووصف سفيان إلى قوله فوق بعض من الوصف وهو بيان كيفية المستمعين بركوب بعضهم على بعض وقال الكرماني وصف بتشديد الفاء ويروى ووصف قوله بيده ويروى بكفه أي بين ركوب بعضهم فوق بعض بأصابعه قوله بعضها فوق بعض توضيح أو بدل وفيه معنى التشبيه أي مسترقو السمع بعضهم راكب بعضهم مردفين ركوب أصابعي هذه بعضها فوق بعض قوله ووصف سفيان إلى آخره كلام معترض بين الكلامين قوله فربما أدرك الشهاب المستمع قد مر أن الشهاب هو النار وقيل هو كواكب تضيء قال الله تعالى إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد (الصافات٦) وسمى شهابا لبريقه وشبهه بالنار وقيل الشهاب شعلة نار واختلفوا في أنه يقتل أم لا فعن ابن عباس أنه يجرح ويحرق ولا يقتل وقال الحسن وغيره يقتل قوله إلى الذي هو أسفل منه بدل عن قوله إلى الذي يليه قوله وربما قال سفيان حتى ينتهي إلى الأرض أيضا معترض قوله فتلقى أي الكلمة التي يسترقها المستمع قوله على فم الساحر أي المنجم وفي الحديث المنجم ساحر وفي رواية سورة سبأ على لسان الساحر أو الكاهن وفي رواية سعيد بن منصور عن سفيان على الساحر أو الكاهن قوله فيكذب معها أي فيكذب الساحر

=

=

مع تلك الكلمة الملقاة على فمه قوله فيصدق على صيغة المجهول أي فيصدق الساحر في كذباته قوله فيقولون أي السامعون منه ألم يخبرنا الساحر يوم كذا وكذا وهو بضم الياء من الإخبار قوله كذا كناية عن الخرافات التي يذكرها الساحر قوله فوجدناه الضمير المنصوب فيه يرجع إلى ما أخبر به الساحر قوله للكلمة التي أي لأجل الكلمة التي سمعت من السماء جعلوا كل أخباره حقا ا. هـ

وقال العلامة الألباني في التوسل (ص١٧ - ٢٨): إذا عرفنا أن الوسيلة هي السبب الموصل إلى المطلوب برغبة فاعلم أنها تنقسم إلى قسمين، وسيلة كونية، ووسيلة شرعية.

فأما الوسيلة الكونية فهي كل سبب طبيعي يوصل إلى المقصود بخلقته التي خلقه الله بها، ويؤدي إلى المطلوب بفطرته التي فطره الله عليها، وهي مشتركة بين المؤمن والكافر من غير تفريق، ومن أمثلتها الماء فهو وسيلة إلى ريّ الإنسان، والطعام وسيلة إلى شبعه، واللباس وسيلة إلى حمايته من الحر والقر، والسيارة وسيلة إلى انتقاله من مكان إلى مكان، وهكذا.

وأما الوسيلة الشرعية فهي كل سبب يوصل إلى المقصود عن طريق ما شرعه الله تعالى، وبينه في كتابه وسنة نبيه، وهي خاصة بالمؤمن المتبع أمر الله ورسوله.

ومن أمثلتها النطق بالشهادتين بإخلاص وفهم وسيلة إلى دخول الجنة والنجاة من الخلود في النار، وإتباع السيئة الحسنة وسيلة إلى محو السيئة، وقول الدعاء المأثور بعد الأذان وسيلة إلى نيل شفاعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، وصلة الأرحام وسيلة لطول العمر وسعة الرزق، وهكذا.

فهذه الأمور وأمثالها إنما عرفنا أنها وسائل تحقق تلك الغايات والمقاصد عن طريق الشرع وحده، لا عن طريق العلم أو التجربة أو الحواس، فنحن لم نعلم أن

=

=

صلة الرحم تطيل العمر وتوسع الرزق إلا من قوله صلوات الله وسلامه عليه: (من أحب أن يُبْسَط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره فَلْيَصِلْ رحمه) وهكذا الأمثلة الأخرى.

ويخطئ الكثيرون في فهم هذه الوسائل بنوعيها خطأ كبيرًا، ويهمون وهمًا شنيعًا، فقد يظنون سببًا كونيًا ما يوصل إلى غاية معينة، ويكون الأمر بخلاف ما يظنون، وقد يعتقدون سببًا شرعيًا ما يؤدي إلى مقصد شرعي معين، ويكون الحق بخلاف ما يعتقدون.

فمن أمثلة الوسائل الباطلة شرعًا وكونًا في آن واحد، ما يراه المار في شارع النصر في دمشق في كثير من الأحيان، إذ يجد بعض الناس قد وضعوا أمامهم مناضد صغيرة، وعليها حيوان صغير يشبه الفأر الكبير، وقد وضع بجانبه بطاقات مضمومة كتب فيها عبارات فيها توقعات لحظوظ الناس، كتبها صاحب الحيوان، أو أملاها عليه بعض الناس كما شاء لهم جهلهم وهواهم، فيمر الصديقان الحميمان فيقول أحدهم للأخر: تعال لنرى حظنا ونصيبنا، فيدفعان للرجل بضعة قروش، فيدفع الحوين لسحب بطاقة ما، ويعطيها أحدهما فيقرؤها، ويطالع حظه المزعوم فيها! ترى ما مبلغ عقل هذا الإنسان الذي يتخذ الحيوان دليلًا ليعلمه ما جهله، وليطلعه على ما غُيِّب عنه من قدره؟

إنه إن كان يعتقد فعلًا أن هذا الحيوان يعلم الغيب فلا شك أن الحيوان خير منه، وإن كان لا يعتقد ذلك ففعله هذا عبث وسخف وإضاعة وقت ومال يتنزه عنه العقلاء. كما أن تعاطي هذا العمل تدجيل وتضليل وأكل لأموال الناس بالباطل.

ولا شك أن لجوء الناس إلى هذا الحيوان لمعرفة الغيب وسيلة كونية بزعمهم، ولكنها باطلة تدحضها التجربة، ويهدمها النظر السليم، فهي وسيلة خرافية أدى إليها الجهل والدجل، وهي من الناحية الشرعية باطلة أيضًا تخالف الكتاب

=

=

والسنة والإجماع، ويكفي في ذلك مخالفتها لقوله سبحانه في الثناء على نفسه: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول..} (الجن:٢٦ – ٢٧).

ومن الأسباب الكونية الموهومة ظن بعضهم انه إذا سافر أو تزوج مثلًا يوم الأربعاء أخفق في سفره وخاب في زواجه، واعتقادهم أنه من شرع في عمل هام فرأى أعمى أو ذو عاهة لم يتم عمله ولم ينجح فيه!

ومن هذه الأسباب أيضًا ظن كثير من العرب والمسلمين اليوم أنهم بعددهم الكبير فقط ينتصرون على أعدائهم من الصهاينة والمستعمرين، وأنهم على وضعهم الذي هم عليه سيرمون اليهود في البحر، وقد أثبتت التجارب خطأ هذه الظنون وبطلانها، وأن الأمر أعمق من أن يعالج بهذه الطريقة السطحية.

ومن الأسباب الشرعية الموهومة اتخاذ بعض الناس أسبابًا يظنونها تقربهم إلى الله سبحانه، وهي تبعدهم منه في الحقيقة، وتجلب لهم السخط والغضب، بل واللعنة والعذاب، فمن ذلك استغاثة بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء والصالحين، ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله سبحانه وتعالى، كطلبهم منهم دفع الضر وشفاء السقم، وجلب الرزق وإزالة العقم، والنصر على العدو وأمثال ذلك، فيتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور، ويهزونها أو يلقون إليها أوراقًا كتبوا فيها طلباتهم ورغباتهم، فهذه وسائل شرعية بزعمهم، ولكنها في الحقيقة باطلة، ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله تعالى وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواعها وفروعها.

ومن ذلك اعتقاد بعضهم الصدق في خبر يتحدث به إنسان ما إذا عطس هو أو أحد الحاضرين عند تحدثه بذلك.

ولعل مستند هذا الاعتقاد حديث: " من حدث حديثًا فعطس عنده فهو حق "

=

=

وهـو حـديث باطـل، وقـد أورده الـشوكاني في كتابـه "الفوائـد المجموعـة في الأحاديـث الموضـوعة" (ص٢٢٤).وهـذا ومـا بعـده أمثلـة جيـده لبيـان خطـر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وأثرها السيئ في نشر العقائد الباطلة، والعادات المسترذلة، مما يوجب على كل مسلم واع معرفتها والتحذير منها، ولا يتم ذلك إلا بالاهتمام بعلوم السنة ودراستها، وهذا مما حدا بي إلى وضع كتـابي "سلـسلة الأحاديث الـضعيفة والموضـوعة وأثرهـا الـسيئ في الأمـة" وقـد صـدر منه ثلاثـة مجلدات، يسر الله نشر المجلدات الباقية، وهذا الحديث تجد الكلام عليه وبيـان بطلانه مفصلًا فيه برقم (١٣٦). (طبع المكتب الإسلامي).

ومنها اعتقادهم بأن أحدًا من أصحابهم أو أقربائهم يذكرهم بخير إذا طنت آذانهم أصـل هـذه العقيـدة حديث موضـوع هـو: "إذا طنـت أذن أحـدكم فليـصل علـي، وليقـل: ذكـر الله بخيـر مـن ذكـرني " وأورده الـشوكاني في "الفوائـد المجوعـة" (ص٢٢٤)، وكذلك اعتقادهم بأن بلاء ينزل عليهم إذا قصوا أظـافرهم في الليـل وفي أيام السبت والأحد وقد تلقى هـذه العقيـدة الباطلـة بعـض المتفقهـة فنظمهـا شعرًا يلقن لبعض طلاب المدارس الشرعية، ومنها قوله:

قص الأظافر يوم السبت آكلة... تبدو وفيما يليه تذهب البركة

وعالم فاضل يبدو بتلوهما وإن يكن في الثلاثاء فاحذر الهلاكـة....، أو إذا كنـسوا بيوتهم ليلًا...، ومنها اعتقادهم أنهـم إذا حسنوا ظنهم بحجـر واعتقـدوا فيـه فإنـه ينفعهم و أصـل هـذه العقيـدة الـضالة حـديث: "لـو أحـسن أحـدكم ظنـه في حجـر لنفعه الله به " اورده الحافظ العجلوني في "كشف الخفـاء" (٢/ ١٥٢) ونقـل عـن ابن تيمية أنه كذب، وعن ابن حجر أنه لا أصل له، وعن صاحب "المقاصـد" أنـه لا يصح، ونقل عن ابن القيم قوله: (هو مـن كـلام عبـاد الأصـنام الـذين يحـسنون ظنهم بالأحجار) وانظر كتابي السابق، رقم (٤٥٠).

=

=

فهذه وأمثالها اعتقادات باطلة، بل خرافات وترهات، وظنون وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، وقد رأيت أن أصلها أحاديث موضوعة مكذوبة، لعن الله واضعها، وقبح ملفقها.

وعلى هذا فإن الوسائل الكونية منها ما هو مباح أذن الله به، ومنها ما هو حرام نهى الله عنه، وقد ذكرت فيما سبق أمثلة من هذه الوسائل بنوعيها مما يَهِم الناس فيه، ويظنونه مباحًا وموصلًا إلى القصد مع أنه بعكس ذلك، وأذكر فيما يلي بعض الأمثلة على الوسائل الكونية المشروعة وغير المشروعة.

فمن الوسائل الكونية المشروعة للكسب والحصول على الرزق اتخاذ البيع والشراء والتجارة والزراعة والإجارة، ومن الوسائل الكونية المحرمة الإقراض بالربا وبيع العينة والاحتكار والغش والسرقة، والميسر وبيع الخمور والتماثيل، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: {وأحل الله البيع وحرم الربا} (البقرة: ٢٧٥).

فكل من البيع والربا سبب كوني لكسب الرزق، ولكن الله تعالى أحل الأول، وحرم الثاني.

كيف تعرف صحة الوسائل ومشروعيتها:

والطريق الصحيح لمعرفة مشروعية الوسائل الكونية والشرعية هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، والتثبت مما ورد فيهما عنها، والنظر في دلالات نصوصهما، وليس هناك طريق آخر لذلك البتة.

فهناك شرطان لجواز استعمال سبب كوني ما، الأول أن يكون مباحًا في الشرع، والثاني أن يكون قد ثبت تحقيقه للمطلوب، أو غلب ذلك على الظن.

وأما الوسيلة الشرعية فلا يشترط فيها إلا ثبوتها في الشرع ليس غير.

فاتخاذ الحيوان في المثال الأسبق وسيلة مزعومة لمعرفة الغيب هو من الناحية الكونية باطل تدحضه التجربة والنظر، ومن الناحية الشرعية كفر وضلال، بين الله

=

=

بطلانه وحذر منه.

وكثيرًا ما يخلط الناس في هذه الأمور، فيظنون أنه بمجرد ثبوت النفع بوسيلة ما تكون هذه الوسيلة جائزة ومشروعة، فقد يحدث أن يدعو أحدهم وليًا، أو يستغيث بميت فيتحقق طلبه، وينال رغبته، فيدعي أن هذا دليل على قدرة الموتى والأولياء على إغاثة الناس، وعلى جواز دعائهم والاستغاثة بهم، وما حجته في ذلك غير حصوله على طلبه، وقد قرأنا مع الأسف في بعض الكتب الدينية أشياء كثيرة من هذا القبيل، إذ يقول مسطرها، أو ينقل عن بعضهم قوله مثلًا: إنه وقع في شدة، واستغاث بالولي الفلاني، أو الصالح العلاني، وناداه باسمه، فحضر حالًا، أو جاءه في النوم فأغاثه، وحقق له ما أراد.

وما درى هذا المسكين وأمثاله أن هذا- إن صح وقوعه- استدراج من الله ﷻ للمشركين والمبتدعين، وفتنة منه سبحانه لهم، ومكر منه بهم، جزاءًا وفاقًا على إعراضهم عن الكتاب والسنة، واتباعهم لأهوائهم وشياطينهم.

فهذا الذي يقول ذاك الكلام يجيز الاستغاثة بغير الله تعالى، هذه الاستغاثة التي هي الشرك الأكبر بعينه، بسبب حادثة وقعت له أو لغيره، ويمكن أن تكون هذه الحادثة مختلقة من أصلها، أو محرفة ومضخمة لإضلال بني آدم، كما يمكن أن تكون صحيحة، وراويها صادقًا فيما أخبر، ولكنه أخطأ في حكمه على المنقذ والمغيث، فظنه وليًا صالحًا، وإنما هو شيطان رجيم، فعل ذلك عن قصد خبيث، هو تلبيس الأمور على الناس، وإيقاعهم في حبائل الكفر والضلال من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

وقد تضافرت الأخبار على أن المشركين في الجاهلية كانوا يأتون إلى الصنم، وينادونه فيسمعون صوتًا، فيظنون أن الذي يكلمهم ويجيبهم إنما هو معبودهم الذي قصدوه من دون الله، وليس هو في الحقيقة والواقع غير شيطان لعين يريد

=

=

إضلالهم، وإغراقهم في العقائد الباطلة.

والمقصود من ذلك كله أن تعرف أن التجارب والأخبار ليست الوسيلة الصحيحة لمعرفة مشروعية الأعمال الدينية، بل الوسيلة الوحيدة المقبولة لذلك هي الاحتكام للشرع المتمثل في الكتاب والسنة وليس غير.

وأهم ما يخلط فيه كثير من الناس في هذا الباب الاتصال بعالم الغيب بطريقة من الطرق، كإتيان الكهان والعرافين، والمنجمين والسحرة والمشعوذين، فتراهم يعتقدون في هؤلاء معرفة الغيب، لأنهم يحدثونهم عن بعض الأمور المغيبة عنهم، ويكون الأمر وفق ما يحدثون أحيانًا، ويظنون ذلك جائزًا مباحًا، بدليل وقوعه كما يخبرون. وهذا خطأ جسيم، وضلال مبين، فإن مجرد حصول منفعة ما بواسطة ما لا يكفي لإثبات مشروعية هذه الواسطة، فبيع الخمر مثلًا قد يؤدي إلى منفعة صاحبه وغناه وثروته، وكذلك الميسر واليانصيب أحيانًا، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى فيهما: {يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما} (البقرة: ٢١٩) ومع ذلك فهما محرمان، وملعون في الخمر عشرة كما ثبت في الحديث (١).

فإتيان الكهان كذلك حرام، لأنه قد ثبت في الدين النهي عنه، والتحذير منه، قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-:"من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد".

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «من أتى عرافًا، فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

وقال معاوية بن الحكم السلمي للنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: إن منا رجالًا يأتون الكهان؟ فقال -صلى الله عليه وآله وسلم-: «فلا تأتهم.... ».

وقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه طريقة حصول الكهان

=

=

والسحرة على بعض المغيبات بقوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسلة على صفوان (١)، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان- أحد رواة الحديث- (وهو ابن عيينة كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره" (٣/ ٥٣٧) بيده، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه، وربما لم تدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الساحر، فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا، يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًا؟ «للكلمة التي سُمعت من السماء).

وورد مثل هذا في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- جالسًا في نفر من أصحابه، فاستنار نجم، فقال - صلى الله عليه وآله وسلم-: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ " قالوا: كنا نقول: يولد عظيم أو يموت عظيم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: «فإنها لا يُرْمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع، فيُرمَون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون).

فمن هذين الحديثين وغيرهما نعلم أن الاتصال بين الإنس والجن واقع، وأن الجني يخبر الكاهن ببعض الأخبار الصادقة، فيضيف إليها الكاهن أخبارًا أخرى

=

=

ملفقة من عنده، فيحدث الناس، فيطلعون على صدق بعضها، ومع ذلك فقد نهى الشارع الحكيم عن إتيان هؤلاء الكهان، وحذر من تصديقهم فيما يقولون، كما مر معنا آنفًا.

وبهذه المناسبة فلا يفوتنا أن نذكر أن الكهانة والعرافة والتنجيم ما يزال لها أثر كبير على كثير من الناس، حتى في عصرنا هذا الذي يدعي أهله أنه عصر العلم والتفكير، والتمدن والثقافة، ويظنون أن الكهانة والشعوذة والسحر قد ولّت أيامها وانقضى سلطانها، ولكن الذي يمكن النظر، ويطلع على خفايا ما يحدث هنا وهناك يعلم علم اليقين أنها ما تزال تسيطر على كثيرين، ولكنها لبست لبوسًا جديدًا، وتبدّت بأشكال عصرية، لا يفطن إلى حقيقتها إلا القليل، وما استحضار الأرواح ومخاطبتها، والاتصال بها بأنواعه المختلفة إلا شكل من أشكال هذه الكهانة الحديثة التي تضلل الناس، وتفتنهم عن دينهم، وتربطهم بالأوهام والأباطيل، ويظنونها حقيقة وعلمًا، ودينًا، والحقيقة والعلم والدين منها بُراء.

والخلاصة أن الأسباب الكونية، وما يُظن أنه من الأسباب الشرعية لا يجوز إثباتها، ولا تعاطيها إلا بعد ثبوت جوازها في الشرع، كما يجب في الأسباب الكونية إثبات صحتها وفائدتها بالنظر والتجربة.

ومما يجب التنبه له، أن ما ثبت كونه وسيلة كونية، فإنه يكفي في إباحته والأخذ به، أن لا يكون في الشرع النهي عنه، وفي مثله يقول الفقهاء: الأصل في الأشياء الإباحة. وأما الوسائل الشرعية، فلا يكفي في جواز الأخذ بها، أن الشارع الحكيم لم ينه عنها، كما يتوهمه الكثيرون بل لا بد فيها من ثبوت النص الشرعي المستلزم مشروعيتها واستحبابها؛ لأن الاستحباب شيء زائد على الإباحة، فإنه مما يتقرب إلى الله تعالى، والقربات لا تثبت بمجرد عدم ورود النهي عنها، ومن هنا قال بعض السلف: (كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه

=

=

وآله وسلم- فلا تتعبدوها)، وهذا مستفاد من أحاديث النهي عن الابتداع في الدين وهي معروفة، ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الأصل في العبادات المنع إلا لنص، وفي العادات الإباحة إلا لنص".فاحفظ هذا فإنه هام جدًا يساعدك على استبصار الحق فيما اختلف فيه الناس ا. هـ

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٢/ ١١٨): الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد: فقد شاع بين كثير من الناس أن هناك من يتعلق بالكهان والمنجمين والسحرة والعرافين وأشباههم ، لمعرفة المستقبل والحظ وطلب الزواج والنجاح في الامتحان ، وغير ذلك من الأمور التي اختص الله سبحانه وتعالى بعلمها كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} وقال سبحانه: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} فالكهان والعرافون والسحرة وأمثالهم قد بين الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ ضلالهم وسوء عاقبتهم في الآخرة وأنهم لا يعلمون الغيب ، وإنما يكذبون على الناس ويقولون على الله غير الحق وهم يعلمون ، قال تعالى: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} وقال سبحانه: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} وقال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا

=

=

يَعْمَلُونَ} فهذه الآيات وأمثالها تبين خسارة الساحر ومآله في الدنيا والآخرة ، وأنه لا يأتي بخير وأن ما يتعلمه أو يعلمه غيره يضر صاحبه ولا ينفعه ، كما نبه سبحانه أن عملهم باطل ، وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» متفق على صحته، وهذا يدل على عظم جريمة السحر لأن الله قرنه بالشرك ، وأخبر أنه من الموبقات وهي المهلكات ، والسحر كفر لأنه لا يتوصل إليه إلا بالكفر ، كما قال تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حد الساحر ضربه بالسيف» ، وصح عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر بقتل السحرة من الرجال والنساء ، وهكذا صح عن جندب الخير الأزدي رضي الله عنه أحد أصحاب النبي ﷺ أنه قتل بعض السحرة وصح عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان فقال: ليسوا بشيء ؛ فقالوا يا رسول الله إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه فيخلطوا معها مائة كذبة» رواه البخاري.

وقال ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبو داود وإسناده صحيح. وللنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه» وهذا يدل على أن السحر شرك بالله تعالى كما تقدم ، وذلك لأنه لا يتوصل إليه إلا بعبادة الجن

=

=

والتقرب إليهم بما يطلبون من ذبح وغيره من أنواع العبادة ، وعبادتهم شرك بالله ﷻ.

فالكاهن من يزعم أنه يعلم بعض المغيبات ، وأكثر ما يكون ذلك ممن ينظرون في النجوم لمعرفة الحوادث ، أو يستخدمون من يسترقون السمع من شياطين الجن ، كما ورد بالحديث الذي مر ذكره ، ومثل هؤلاء من يخط في الرمل أو ينظر في الفنجان أو في الكف ونحو ذلك ، وكذا من يفتح الكتاب زعما منهم أنهم يعرفون بذلك علم الغيب وهم كفار بهذا الاعتقاد؛ لأنهم بهذا الزعم يدعون مشاركة الله في صفة من صفاته الخاصة وهي علم الغيب ، ولتكذيبهم بقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} وقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} وقوله تعالى لنبيه ﷺ: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى} إلي الآية ، ومن أتاهم وصدقهم بما يقولون من علم الغيب فهو كافر ، لما رواه أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» ، وروى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» ، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد ، وبما ذكرنا من الأحاديث يتبين لطالب الحق أن علم النجوم وما يسمى بالطالع وقراءة الكف وقراءة الفنجان ومعرفة الخط ، وما أشبه ذلك مما يدعيه الكهنة والعرافون والسحرة كلها من علوم الجاهلية التي حرمها الله ورسوله ومن أعمالهم التي جاء الإسلام بإبطالها والتحذير من فعلها أو إتيان

=

=

من يتعاطاها وسؤاله عن شيء منها أو تصديقه فيما يخبر به من ذلك؛ لأنه من علم الغيب الذي استأثر الله به، ونصيحتي لكل من يتعلق بهذه الأمور: أن يتوب إلى الله ويستغفره ، وأن يعتمد على الله وحده ويتوكل عليه في كل الأمور مع أخذه بالأسباب الشرعية والحسية المباحة ، وأن يدع هذه الأمور الجاهلية ويبتعد عنها ويحذر سؤال أهلها أو تصديقهم ، طاعة لله ولرسوله ﷺ وحفاظا على دينه وعقيدته ، وحذرا من غضب الله عليه ، وابتعادا عن أسباب الشرك والكفر التي من مات عليها خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية من ذلك ، ونعوذ به سبحانه من كل ما يخالف شرعه أو يوقع في غضبه ، كما نسأله سبحانه أن يوفقنا وجميع المسلمين للفقه في دينه والثبات عليه ، وأن يعيذنا جميعا من مضلات الفتن ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ا. هـ

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٩/ ٣٠٤): قوله: «فيسمعها مسترق السمع»، أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

و" مسترق ": مفرد مضاف؛ فيعم جميع المسترقين.

وتأمل كلمة "مسترق"؛ ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاسا بسرعة، ويؤيده قوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} [الصافات: ١٠].

قوله: " ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض "، يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ، أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: " وصفه سفيان بكفه "، أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع: فالجن يتراكبون واحدا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ

=

=

لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٩].

قوله: " فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته "، أي: سمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته؛ أي: يخبره بها، و"من": اسم موصول، وقوله: "تحته " شبه جملة صلة الموصول؛ لأنه ظرف.

قوله: «ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها»، أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

والسحر: عزائم ورقى وتعوذات تؤثر في بدن المسحور وقلبه وعقله وتفكيره.

والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقد التبس على بعض طلبة العلم؛ فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولو فيما مضى؛ فهو كاهن، لكن ما مضى مما يقع في الأرض ليس غيبا مطلقا، بل هو غيب نسبي، مثل ما يقع في المسجد يعد غيبا بالنسبة لمن في الشارع، وليس غيبا بالنسبة لمن في المسجد.

وقد يتصل الإنسان بجني، فيخبره عما حدث في الأرض ولو كان بعيدا؛ فيستخدم الجن، لكن ليس على وجه محرم؛ فلا يسمى كاهنا؛ لأن الكاهن من يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير، وهو نوع من الكهانة في الواقع، إذا لم يستند إلى فراسة ثاقبة، أما إذا كان يخبر عما في الضمير استنادا إلى فراسة؛ فإنه ليس من الكهانة في شيء؛ لأن بعض الناس قد يفهم ما في الإنسان اعتمادا على أسارير وجهه ولمحاته، وإن كان لا يعلمه على وجه التفصيل، لكن يعلمه على سبيل الإجمال، فمن يخبر عما وقع في الأرض ليس من الكهان، ولكن ينظر في حاله، فإذا كان غير موثوق في دينه؛ فإننا لا نصدقه؛ لأن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} [الحجرات: ٦].

=

=

وإن كان موثوقا في دينه، ونعلم أنه لا يتوصل إلى ذلك بمحرم من شرك أو غيره؛ فإننا لا ندخله في الكهان الذين يحرم الرجوع إلى قولهم، ومن يخبر بأشياء وقعت في مكان ولم يطلع عليها أحد دون أن يكون موجودا فيه؛ فلا يسمى كاهنا؛ لأنه لم يخبر عن مغيب مستقبل يمكن أن يكون عنده جني يخبره، والجني قد يخدم بني آدم بغير المحرم؛ إما محبة لله -ﷻ-، أو لعلم يحصله منه، أو لغير ذلك من الأغراض المباحة، والسحرة قد يكون لهم من الجن من يسترق لهم السمع.

ولا يصل هؤلاء المسترقون إلا إلى السماء الدنيا؛ لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا} [الأنبياء: ٣٢]؛ فلا يمكن نفوذه إلى ما فوقه.

قوله: " فربما أدركه الشهاب... إلخ"، الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في التفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ} [الملك: ٥]؛ أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها؛ فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعا فيها، أما النجم، فلو وصل إلى الأرض؛ لأحرقها.

واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد، أو انقطعوا في وقته فقط؟

والثاني هو الأقرب: أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: " فيكذب معها مائة كذبة "، هل هذا على سبيل التحديد، أو المراد

=

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١).

=

المبالغة، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص؛ فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان؛ قالوا: إذن لا بد أن يصدق ا. هـ

وسئل العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (١/ ٢٩٢): هناك من يحضر الجن بطلاسم يقولها ويجعلهم يخرجون له كنوزًا مدفونة في الأرض منذ زمن بعيد فما حكم هذا العمل؟

فأجاب: هذا العمل ليس بجائز فإن هذه الطلاسم التي يحضرون بها الجن ويستخدمونهم بها لا تخلو من شرك في الغالب والشرك أمره خطير قال الله - تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} والذي يذهب إليهم يغريهم ويغرهم، يغريهم بأنفسهم وأنهم على حق، ويغرهم بما يعطيهم من الأموال فالواجب مقاطعة هؤلاء، وأن يدع الإنسان الذهاب إليهم، وأن يحذر إخوانه المسلمين من الذهاب إليهم، والغالب في أمثال هؤلاء أنهم يحتالون على الناس ويبتزون أموالهم بغير حق، ويقولون القول تخرصًا ثم إن وافق القدر أخذوا ينشرونه بين الناس ويقولون: نحن قلنا وصار كذا ونحن قلنا وصار كذا، وإن لم يوافق ادعوا دعاوى باطلة أنها هي التي منعت هذا الشيء، وإني أوجه النصيحة إلى من ابتلي بهذا الأمر وأقول لهم: احذروا أن تمتطوا الكذب على الناس والشرك بالله - ﷻ - وأخذ أموال الناس بالباطل، فإن أمد الدنيا قريب والحساب يوم القيامة عسير، وعليكم أن تتوبوا إلى الله - تعالى - من هذا العمل، وأن تصححوا أعمالكم، وتطيبوا أموالكم والله الموفق.

{فَاسْتَفْتِهِمْ} اسْتَخْبِرْ كُفَّار مَكَّة تَقْرِيرًا أَوْ تَوْبِيخًا {أَهُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} مِنْ الْمَلَائِكَة وَالسَّمَاوَات وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَفِي الْإِتْيَان بِمِنْ تَغْلِيب الْعُقَلَاء {إنَّا خَلَقْنَاهُمْ} أَيْ أَصْلهمْ آدَم {مِنْ طِين لَازِب} لَازِم يُلْصَق بِالْيَدِ الْمَعْنَى أَنَّ خَلْقهمْ ضَعِيف فَلَا يَتَكَبَّرُوا بِإِنْكَارِ النَّبِيّ وَالْقُرْآن الْمُؤَدِّي إلَى هَلَاكهمْ الْيَسِير.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢).

{بَلْ} لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَض إلَى آخَر وَهُوَ الْإِخْبَار بِحَالِهِ وَحَالهمْ {عَجِبْت} بِفَتْحِ التَّاء خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيْ مِنْ تكذيبهم إياك {و} هم {يسخرون} من تعجبك.

وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣).

{وَإِذَا ذُكِّرُوا} وُعِظُوا بِالْقُرْآنِ {لَا يَذْكُرُونَ} لَا يتعظون.

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤).

{وَإِذَا رَأَوْا آيَة} كَانْشِقَاقِ الْقَمَر {يَسْتَسْخِرُونَ} يُسْتَهْزِءُونَ بها.

وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥).

{وَقَالُوا} فِيهَا {إنْ} مَا {هَذَا إلَّا سِحْر مبين} بين وقالوا منكرين للبعث.

أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦).

{أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَبْعُوثُونَ} فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيق وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧).

{أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} بِسُكُونِ الْوَاو عَطْفًا بِأَوْ وَبِفَتْحِهَا وَالْهَمْزَة لِلِاسْتِفْهَامِ وَالْعَطْف بِالْوَاوِ وَالْمَعْطُوف عَلَيْهِ مَحَلّ إنَّ وَاسْمهَا أَوْ الضَّمِير فِي لَمَبْعُوثُونَ

وَالْفَاصِل هَمْزَة الِاسْتِفْهَام.

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨).

{قُلْ نَعَمْ} تُبْعَثُونَ {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} أَيْ صَاغِرُونَ.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩).

{فَإِنَّمَا هِيَ} ضَمِير مُبْهَم يُفَسِّرهُ {زَجْرَة} أَيْ صَيْحَة {وَاحِدَة فَإِذَا هُمْ} أَيْ الْخَلَائِق أَحْيَاء {يَنْظُرُونَ} مَا يُفْعَل بِهِمْ.

وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠).

{وقالوا} أي الكفار {يَا} لِلتَّنْبِيهِ {وَيْلنَا} هَلَاكنَا وَهُوَ مَصْدَر لَا فِعْل لَهُ مِنْ لَفْظه وَتَقُول لَهُمْ الْمَلَائِكَة {هَذَا يَوْم الدِّين} يَوْم الْحِسَاب وَالْجَزَاء.

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١).

{هـذا يـوم الفـصل} بـين الخلائـق {الـذي كنـتم بـه تكـذبون} ويقـال للملائكة[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} [الصافات: ١١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فاستفت يا محمد هؤلاء المشركين الذي ينكرون البعث بعد الممات والنشور بعد البلاء: يقول: فسلهم: أهم أشد خلقا؟ يقول: أخلقهم أشد أم خلق من عددنا خلقه من الملائكة والشياطين والسموات والأرض؟ ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقًا هم أم السماوات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: "أم من عددنا" - فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقًا منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما =

=

أنكروا. كما قال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [غافر: ٥٧]".

عن مجاهد: " {أهم أشد خلقا أم من خلقنا}، قال: السموات والأرض والجبال".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {أم من خلقنا}، قال: من الأموات والملائكة".

قال الزجاج:" {أهم أشد خلقا أم من خلقنا} من الأمم السالفة قبلهم وغيرهم من السماوات والأ رضين".

عن السدي: " {فاستفتهم أهم أشد خلقا}، قال: يعني المشركين، سلهم أهم أشد خلقا: {أم من خلقنا} ".

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «أهم أشد خلقا أم من عددنا».

عن الضحاك أنه قرأ: «أهم أشد خلقا أم من عددنا»؟ وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «عددنا»، يقول: {رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق}، يقول: أهم أشد خلقا، أم السموات والأرض؟ يقول: السموات والأرض أشد خلقا منهم".

عن قتادة: " «فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من عددنا» من خلق السموات والأرض، قال الله: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس}... الآية".

قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} [الصافات: ١١]، أي:"إنا خلقنا أباهم آدم من طين لزج، يلتصق بعضه ببعض".

قال الطبري:"يقول: إنا خلقناهم من طين لاصق. وإنما وصفه جل ثناؤه باللزوب، لأنه تراب مخلوط بماء، وكذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء؛ والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا".

قال ابن كثير:"ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

=

=

لازِبٍ} ".

قال يحيى: " يعني: خلق آدم، كان أول خلقه ترابا، ثم كان طينا، قال: من تراب".

قال ابن عباس:"اللازب، والحمأ، والطين، واحد، كان أوله ترابا، ثم صار حمأ منتنا، ثم صار طينا لا زبا فخلق الله منه آدم".

وفي قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} [الصافات: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: ملتصق، قاله ابن عباس، منه قول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-:

تعلم فإن الله زادك بسطة... وأخلاق خير كلها لك لازب

وقال ابن زيد:"اللازب: الذي يلتصق كأنه غراء، ذلك اللازب".

الثاني: اللازق، أي: الذي يلزق باليد، قاله قتادة، والضحاك-في رواية-.

وقال ابن عباس:"من التراب والماء فيصير طينا يلزق".

وقال ابن مسعود:"«اللازب»: الذي يلزق بعضه إلى بعض".

الثالث: لازم، قاله مجاهد، وبه قال أبو عبيدة، وانشد قول النابغة:

ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده... ولا يحسبون الشرّ ضربة لازب

وقول النّجاشيّ:

بنى اللوم بيتا فاستقرت عماده... عليكم بنى النّجّار ضربة لازب

قال الزجاج:"لازب، ولازم، ومعناهما واحد، أي: لازق".

قال الماوردي:"والفرق بين اللاصق واللازق أن اللاصق هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق هو الذي يلزق بما أصابه".

قال يحيى: "يلصق ويلزق واحد، هي لغة، وهي تقال بالسين يلسق أيضا، وقال مجاهد: {لازب}: لازم، وهو واحد ".

الرابع: لزج، قاله عكرمة.

=

=

الخامس: أن «اللازب»: الطين الجيد. قاله ابن عباس -في رواية أخرى-، والضحاك.

السادس: أنه الطين الحر الجيد اللزج. قاله ابن عباس -أيضا-.

وقال ابن عباس:"اللزج الطيب".

قوله تعالى: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} [الصافات: ١٢]

قال ابن كثير:"أي: بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك ".

وفي قوله تعالى: {عَجِبْتَ} [الصافات: ١٢]، قراءتان:

إحداهما: «عَجِبْتُ»، بضم التاء، قرأ بها علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، وقتادة، وأبو مجلز، والنخعي، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وابن أبي ليلى، وحمزة، والكسائي في آخرين.

وفي هذه القراءة: "ويكون التعجب مضافًا إلى الله تعالى، وإن كان لا يتعجَّبُ من شيء لأن التعجب من حدوث العلم بما لم يعلم، والله تعالى عالم بالأشياء قبل كونها".

قال شقيق: "قرأت عند شريح: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُون}، فقال: إن الله لا يعجب من شيء، إنها يعجب من لا يعلم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إن شريحا شاعر يعجبه علمه، وعبد الله أعلم بذلك منه. قرأها: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُون» ".

قال الفراء:"والرفع أحبّ إليّ لأنها قراءة عَليّ وابن مسعود وعبد الله بن عَبَّاس، و «العجب» وإن أُسند إلى الله فليسَ معناهُ من الله كمعناهُ من العباد، ألا ترى أَنَّهُ قال: {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ}، وليس السُّخْرِي من الله كمعناهُ من

=

=

العباد، وكذلك قوله: {اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}، لَيْسَ ذَلِكَ من الله كمعناهُ من العباد، ففي ذَا بيانٌ لكسر قول شُرَيح، وإن كَانَ جائزًا، لأن المفسرين قالوا: بَلْ عَجِبْتَ يا محمد ويسخرون هم. فهذا وجه النصب".

قال الزجاج:"وقد أنكر قوم هذه القراءة، وقالوا: الله - ﷻ - لا يعجب، وإنكارهم هذا غلط. لأن القراءة والرواية كثيرة والعجب من الله - ﷻ - خلافه من

الآدميين كما قال: {ويمكر الله}، و {سخر الله منهم}، {وهو خادعهم}. و «المكر» من الله والخداع خلافه من الآدميين.

وأصل «العجب» في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: عجبت من كذا وكذا، وكذا إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه: عجبت والله قد علم الشيء قبل كونه، ولكن الإنكار إنما يقع والعجب الذي يلزم به الحجة عند وقوع الشيء".

وفي تفسير «العجب» على هذه القراءة وجهان:

أحدهما: يعني بل أنكرت. حكاه النقاش.

الثاني: يعني: أنهم قد حلّوا محل من يتعجب منه. وهذا قول علي بن عيسى.

والقراءة الثانية: «عَجِبْتَ»، بفتح التاء. قرأ بها ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر.

وأضاف التعجب إلى رسول الله -ﷺ-، كأنه قال: بل عجبت يا محمد، ويسخرون هم، قاله قتادة.

قال ابن السائب: "أنت تعجب منهم، وهم يسخرون منك".

وفيما عجب منه، أقوال:

أحدها: من القرآن حين أعطيه، قاله قتادة.

=

=

قال قتادة:"عجب محمد عليه الصلاة والسلام من هذا القرآن حين أعطيه، وسخر منه أهل الضلالة".

وفي رواية عن قتادة:"عجبت من كتاب الله ووحيه ويسخرون بما جئت به".

قال الزجاج:"معناه في الفتح: بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك ويسخرون".

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة سخروا من النبي -ﷺ- حين سمعوا منه القرآن".

الثاني: من الكفار إذ لم يؤمنوا بالقرآن، وهو معنى قول ابن زياد.

الثالث: من إنكارهم البعث. ذكره الزجاج.

وفي قوله: {وَيَسْخَرُونَ} [الصافات: ١٢]، وجهان:

أحدهما: من الرسول إذا دعاهم.

الثاني: من القرآن إذا تلي عليهم.

قال أبو عبيدة:"{يَسْتَسْخِرُونَ} و «يسخرون»: سواء".

عن قتادة:"{ويسخرون}، يعني: أهل مكة".

قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ} [الصافات: ١٣].

قال الطبري: يقول:"وإذا ذكر هؤلاء المشركون حجج الله عليهم ليعتبروا ويتفكروا، فينيبوا إلى طاعة الله، لا ينتفعون بالتذكير فيتذكروا".

قال الشوكاني:"أي: وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ الله أو مواعظ رسوله، لا يتعظون بها ولا ينتفعون بما فيه".

قال مقاتل:"وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون".

قال قتادة:"أي، لا ينتفعون، ولا يبصرون".

قال القاسمي:"{وإذا ذكروا} أي: بما يؤيده، أو وعظوا وخوفوا من المخالفة، {لا يذكرون}، أي: ما يقتضيه؟ لتعنتهم وعنادهم. أو لا يخافون ولا يتعظون".

=

=

قال السعدي:"{و} من العجب أيضا أنهم {إِذَا ذُكِّرُوا} ما يعرفون في فطرهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه {لا يَذْكُرُونَ} ذلك، فإن كان جهلا فهو من أدل الدلائل على شدة بلادتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلا وعنادا، فهو أعجب وأغرب".

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ} [الصافات: ١٤].

قال الطبري:"يقول: وإذا رأوا حجة من حجج الله عليهم، ودلالة على نبوة نبيه محمد ﷺ، يسخرون ويستهزءون".

قال ابن كثير:"أي: {وَإِذَا رَأَوْا} دلالة واضحة على ذلك، يستهزئون ".

قال الزجاج:"أي: إذا رأوا آية معجزة استسخروا واستهزأوا".

قال مقاتل:"{وإذا رأوا آية}، يعني: انشقاق القمر بمكة فصار نصفين، {يستسخرون}: سخروا فقالوا هذا عمل السحرة".

قال قتادة:"أي: يسخرون منه ويستهزئون".

قال مجاهد:"يستهزئون، يستخسرون".

قال السعدي:"ومن العجب [أيضا] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون".

قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصافات: ١٥]، أي:"وقالوا: ما هذا الذي جئت به إلا سحر ظاهر بيِّن".

قال الطبري: يقول:"وقال هؤلاء المشركون من قريش بالله لمحمد ﷺ: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر «مبين»: يبين لمن تأمله ورآه أنه سحر".

قال ابن كثير:"أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ".

قال السعدي:"ومن العجب أيضا، قولهم للحق لما جاءهم: {إِنْ هَـذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ} فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء

=

=

وأحقرها".

قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [الصافات: ١٦]، أي:"أإذا متنا وصِرْنا ترابًا وعظامًا بالية أإنا لمبعوثون من قبورنا أحياء".

قال الطبري: " يقولون، منكرين بعث الله إياهم بعد بلائهم: أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا، ومصيرنا ترابا وعظاما، قد ذهب عنها اللحوم".

قال ابن كثير:"يستبعدون ذلك ويكذبون به ".

قال السعدي:"ومن العجب أيضا، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة الآدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعادا وإنكارا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ..} ".

قوله تعالى: {أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} [الصافات: ١٧]، أي:"أو يُبعث آباؤنا الذين مضوا من قبلنا؟ ".

قال الطبري: أي:"الذين مضوا من قبلنا، فبادوا وهلكوا".

عن قتادة: " {أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون}، تكذيبا بالبعث".

قال مقاتل:"قالوا ذلك تعجبا".

قوله تعالى: {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} [الصافات: ١٨].

قال الطبري: يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء: نعم أنتم مبعوثون بعد مصيركم ترابا وعظاما أحياء كما كنتم قبل مماتكم، وأنتم صاغرون أشد الصغر".

قال ابن كثير:"أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، {وَأَنْتُمْ} حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى {وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [النمل: ٨٧]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

=

=

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] ".

عن قتادة والسدي: " {وأنتم داخرون}، أي: صاغرون".

قال القرطبي:"أي: صاغرون أذلاء، لأنهم إذا رأوا وقوع ما أنكروه فلا محالة يذلون، وقيل: أي: ستقوم القيامة وإن كرهتم، فهذا أمر واقع على رغمكم وإن أنكرتموه اليوم بزعمكم".

قال السعدي:"ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم، فقال: {قُلْ نَعَمْ} ستبعثون، أنتم وآباؤكم الأولون {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله".

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} [الصافات: ١٩]، أي:"وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور".

قال الطبري: يقول:"فإنما هي صيحة واحدة، وذلك هو النفخ في الصور".

قال ابن كثير:"أي: إنما هو أمر واحد من الله ﷻ، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض".

قال القرطبي:"أي: صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية. وسميت الصيحة زجرة، لأن مقصودها الزجر أي يزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السوق".

قال السعدي:"ينفخ إسرافيل فيها في الصور {فَإِذَا هُمْ} مبعوثون من قبورهم".

عن السدي، قوله: " {زجرة واحدة}، قال: نفخة واحدة، وهي النفخة الآخرة".

عن مجاهد، قوله: {فإنما هي زجرة}، قال: صيحة".

قال مقاتل:"صيحة واحدة من إسرافيل لا مثنوية لها".

قال السدي:"يوم الحساب".

قال مقاتل:"يوم الحساب الذي أخبرنا به النبي- ﷺ- ".

=

=

قال أبو عبيدة:"{يَوْمُ الدِّينِ}: الثواب والحساب، تقول العرب: كما تدين تدان".

قوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)} [الصافات: ٢١]

قال الطبري: يقول:"هذا يوم فصل الله بين خلقه بالعدل من قضائه الذي كنتم به تكذبون في الدنيا فتنكرونه".

قال ابن كثير: فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ".

قال السعدي:"فيقال لهم: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق".

قال قتادة:"يعني: يوم القيامة".

قال السدي:"يوم يقضى بين أهل الجنة وأهل النار".

قال يحيى:"يوم القضاء، يقضى فيه بين المؤمنين والمشركين، فيدخل المؤمنون الجنة، ويدخل المشركون النار".

قال أبو عبيدة:"الفصل: قطع القضاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ}: قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [استخبر كفار مكة تقريرًا أو توبيخًا {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} من الملائكة والسموات والأراضين وما فيهما، وفي الإتيان بمن تغليب للعقلاء].

{فَاسْتَفْتِهِمْ} يعني اطلب منهم الفتوى، والفتوى في الأصل هي الإخبار بالشيء، ولكنها في اصطلاح الفقهاء: هي الإخبار عن حكم شرعي.

وهنا ليس المراد بذلك الفتوى الشرعية، وإنما المراد بها الفتوى اللغوية، يعني: استخبرهم واسألهم أهم أشد خلقًا أم من خلقنا؟ فسيقولون من خلق الله أشد. كل يعرف أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكذلك الذين

=

=

يؤمنون بالغيب يقرون بأن ما غاب عنا من مخلوقات الله أعظم مما نشاهد. اللهم إلا أحدًا يريد أن يكابر، ويقول: أنا أشد خلقًا، كما قال الشيطان لله ﷻ: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)} [الأعراف: ١٢] وكما قال فرعون لقومه: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)} [الزخرف: ٥٢] وقال: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)} [النازعات: ٢٤] وإلا فكل يعلم أن المخلوقات العظيمة كالسموات والأرض والشمس والقمر أعظم من خلق الإنسان.

قال المصنف: [وفي الإتيان بمن تغليب العقلاء]، أي في قوله {أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} ولم يقل: أما خلقنا. تغليبًا للعقلاء، وذلك أن ما خلقهم الله ﷻ فيهم العقلاء وفيهم غير العقلاء، يعني فيهم من يعقل وفيهم من لا يعقل. فالملائكة والجن يعقلون، والبهائم والجمادات لا تعقل، وإن كانت البهائم أقرب إلى العقل من الجمادات، ومع هذا كل هذه الأشياء لها عقل تدرك به خالقها ﷻ، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤] وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن جبل أحد يحب النبي ﷺ والنبي ﷺ يحبه. وغلب العقلاء مع أنهم الأقل لأنهم أفضل وأشرف.

قال: {إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي أصلهم آدم {مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١)} لازب يلصق باليد، المعنى أن خلقهم ضعيف فلا يتكبرون بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير]. لما قال: {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} بين أصل خلقهم ليبين هل هم أشد أم من خلق الله؟

والحقيقة أن الجملة {أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا} تحتاج إلى وقفة بالنسبة للإعراب. الهمزة للاستفهام و (هم): مبتدأ و (أشد): خبر، (خلقًا): تمييز. لأن

=

=

أفعل إذا جاء الاسم بعدها منصوبًا فهو تمييز. وأما (من خلقنا) فهذا هو المعادل، ولهذا فالهمزة هنا للتسوية يعني أيستوي هم ومن خلقنا؟ والجواب: لا. لا يستوون. بل من خلق الله أعظم. والله أعلم.

قوله تعالى: {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)} في هذه الآية قراءتان بفتح التاء، فيعود الضمير على رسول الله ﷺ، وبالضم على الله سبحانه وتعالى، هذا هو القول الصحيح، وإذا كان عائدًا إلى الله ﷻ فهل هو عجب حقيقي أو مجازي؟ الصحيح أنه حقيقي وأنه كسائر الصفات، فإذا قال قائل: إن العجب هو حالة تطرأ على الإنسان لفعل ما لا يخطر له على بال، أو لحصول ما لا يخطر له على بال، فكيف يمكن أن يوصف الله به؟

فالجواب أن نقول: إن أنواع العجب ثلاثة أقسام: عجب استحسان، وعجب إنكار، وعجب استفهام، والعجب الذي بمعنى الاستفهام لا يكون في حق الله؛ لأنه يكون لخفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه بحيث يأتيه بغتة بدون توقع، وهذا مستحيل على الله تعالى؛ لأن الله تعالى بكل شيء عليم. مثال: للعجب الذي يحمل عليه الاستحسان "يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة"، مثال عجب الإنكار من الله {بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)} هذا عجيب إنكار.

قوله: {وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)} المراد بالآية أي آية؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم وأما قول المصنف كانشقاق القمر فهذا للتمثيل فقط.

قال: {يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)} ولم يقل: يسخرون، أي سخرية مع تكبر وتعالٍ، {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)} (إن) نافية بمعنى ما، وخبرها {سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)} صفة لسحر، وهذا النوع من الاستثناء يسميه النحويون استثناء مفرغًا،

=

لأن ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها، فإذا كان ما بعد (إلا) يتطلبه العامل الذي قبلها سمي استثناء مفرغًا. تقول: ما قام إلا زيد، وما أكرمت إلا المجتهد، وما مررت إلا بعلي، فإذا كان الذي قبل (إلا) يتطلب ما بعدها سمي استثناء مفرغًا. فـ {مُبِينٌ (١٥)} بمعنى بيِّن ظاهر، وأبان تأتي لازمة ومتعدية، فإذا كانت لازمة فهي بمعنى "بان"، تقول: أبان الصبح، (أي بان وظهر)، وإذا استعمل متعديًا بمعنى أظهر. تقول: أبان الحق، (أي أظهر).

قوله تعالى: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)} المراد بهذا الاستفهام الاستبعاد والإنكار، يعني أننا ننكر ونستبعد أننا نبعث إذا كنا ترابًا وعظامًا.

قوله تعالى: {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)} أمر الله نبيه أن يجيب عن الاستفهام السابق بقوله: {قُلْ نَعَمْ}، يعني تبعثون، ونعم حرف جواب يجاب به الإثبات للتصديق، ويجاب به النفي كذلك للتصديق، فهو حرف جواب للتصديق: سواء كان الكلام نفيًا أو إثباتًا.

والخلاصة:

أن (نعم) يجاب بها للتصديق سواء كان نفيًا أو إثباتًا.

فإذا قلت: أقام زيد؟ وأجبت: بنعم، فهذا لتصديق القيام، يعني أنه قد قام.

وإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فأجبت: نعم يعني لم يقم. فصدقت النفي.

و(بلى) لا يجاب بها في الإثبات، وإنما يجاب بها في النفي لتكذيبه، فإذا قلت: ألم يقم زيد؟ فالجواب: بلى، يعني قد قام، خلافًا لما نفيت.

وأما (لا) فلا يجاب بها إلا في الإثبات لتكذيبه، أي لم يقم، أقام زيد، فقلت: لا، يعني لم يقم.

فهذه أحرف الجواب الثلاثة وأعمها (نعم) لأنها تكون في الإثبات وتكون في

=

النفي، وأما (بلى) و (لا) فكل واحدة مختصة بشيء (بلى) في النفي و (لا) في الإثبات.

{قُلْ نَعَمْ} هذه للتصديق يعني نعم تبعثون. ولهذا قدر المصنف ذلك في قوله تبعثون، يعني أنكم ستبعثون يوم القيامة بعد أن كنتم ترابًا وعظامًا ولكنكم لا تبعثون كما أنتم عليه في الدنيا في عزة وترف، بل {وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)} صاغرون، والجملة هنا حال من نائب الفاعل في الفعل المقدر بعد الجواب، نعم تبعثون وأنتم داخرون.

والدخور بمعنى الصغار والذل، يعني أنهم يبعثون يوم القيامة على وجه الصغار لا على ما كانوا عليه في الدنيا كما قال الله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشورى: ٤٥] بعد أن كان الواحد منهم في الدنيا يقلب مقلتيه كما شاء، فهم في الآخرة ينظرون من طرف خفي، مملوء بالخجل والخزي والعار -والعياذ بالله-.

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)} يعني إذا كان الأمر كذلك أنهم يبعثون فهل يحتاج الأمر إلى علاج وإلى مدة؟ الجواب لا، فإنما هي أي زجرتهم للبعث زجرة واحدة، هذا هو الأصح في مرجع الضمير، ولهذا قال المصنف [ضمير مبهم يفسره زجرة] فيكون الضمير مرجعه مستفاد من الخبر، أي فإنما الزجرة لبعثهم زجرة واحدة، وهذا الذي قدره المصنف لمرجع الضمير هو الصواب فيكون مرجع الضمير هو الخبر، وقال بعضهم: {فَإِنَّمَا هِيَ} أي البعثة التي يبعثونها، أي ما بعثتهم إلا زجرة واحدة أي بزجرة واحدة، ولكن ما قدره المصنف أولى. {زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ}، قال المصنف: [أي صيحة] يزجرون بها، فيقال: اخرجوا يعني من القبور. إذا قيل اخرجوا من القبور. خرجوا خروج رجل واحد لا يتخلف منهم أحد، ولا يخرجون ببطء لقوله تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا

=

=

وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} [القمر: ٥٠] فالمسألة لا تحتاج إلى تكرار طلب للخروج ولا إلى مهلة في زمان، بل بمجرد ما يقال: اخرجوا. فإذا هم قيام ينظرون. وهذا من تمام قدرة الرب ﷻ.

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ}. (الفاء) حرف عطف و (إذا) فجائية أي ففي الحال مفاجئة، هم ينظرون. و (إذا) الفجائية اختلف النحويون فيها: هل هي حرف لا محل لها من الإعراب أو هي ظرف؟ ونحن لا يهمنا أن نقدرها حرفًا أو ظرفًا، المهم أن نعرف المعنى، وهي أنها تدل على المفاجئة يعني يأتي بسرعة.

وقوله: {فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)} يدل على أنهم بمجرد ما يخرجون يكونون أحياء يشعرون، وليس كالطفل الذي يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، فالناس في الدنيا يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ولكن بعدئذ يجعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة. سمعًا يسمعون به ويعرفون، وإلا فالسمع موجود به منذ خلق. وبصرًا كذلك يبصرون به ويعرفون، ولهذا تجد الصبي أول ما يولد لا يلتفت إلى شيء، تمر من عنده بالمصباح من أسطع ما يكون ولا يدري ما هو؟ ثم شيئًا فشيئًا يبدأ يعرف الألوان إذا اختلفت عليه ويتابع النظر، ولكن الذين يبعثون من القبور لا ينتظر بهم هكذا، أي لا تنمو أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم شيئًا فشيئًا، ولكن بمجرد ما يخرجون فإذا هم ينظرون.

قال المصنف: [فإذا هم أي الخلائق أحياء ينظرون ما يفعل بهم] فإذا قال قائل: إن المصنف قال [الخلائق] مع أن سياق الآية يقتضي أن المراد هؤلاء المنكرون {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)} فإذا أخذنا بالسياق قلنا: إن الضمير يرجع إلى هؤلاء وآبائهم، وإذا نظرنا إلى الواقع قلنا: إن الضمير يرجع إلى جميع الخلائق. والواقع أن جميع الخلائق تخرج بهذه الصيحة فإذا هم ينظرون، وأفادنا المصنف بقوله ما يفعل بهم، أفادنا أن

=

=

النظر هنا نظر العين، وليس بمعنى الانتظار، مع أن الآية تحتمل أن يكون المعنى النظر بالعين وأن يكون المعنى الانتظار.
والنظر يأتي بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} [الزخرف: ٦٦] {يَنْظُرُونَ (١٩)} بمعنى ينتظرون.
{وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)} قالوا أتى بالفعل الماضي مع أن القول مستقبل، لتحقق وقوعه، وهذا كثير في اللغة العربية، والقرآن الكريم يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه، ومثاله قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ} [النحل: ١] فإن أمر الله لم يأت بدليل قوله {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: ١] لكن أتى هنا بمعنى يأتي، وعبَّر عن المستقبل بالماضي لتحقق وقوعه.
فقوله ﷻ هنا: {وَقَالُوا} أي ويقولون، لكن عبَّر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.
وقول المصنف رَحِمَهُ اللهُ[قالوا أي الكفار، صحيح، ولو أنه قال: وقالوا أي المنكرون للبعث الذين قالوا: {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)} لكان أدق في التفسير؛ لأن الكافر أعم من المنكر للبعث، قد يكفر بغير إنكار للبعث، لكن المسألة فيها شيء من التسامح في التعبير.
وقوله: {يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)} قال المصنف: [ياء للتنبيه ويل مصدر لا فعل له من لفظه]، ولكن يحتمل أن تكون ياء حرف نداء، وأنهم نادوا الويل، كأنهم قالوا: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك، والويل معناه هنا شدة التحسر والعذاب، قال تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)} [المرسلات: ٣٤] أي حسرة وعذاب، فهنا يا ويلنا أي يا حسرتنا ويا عذابنا احضر فهذا أوانك.
ويحتمل كما قال المصنف: إن (ياء) للتنبيه، ولكن إذا قال قائل: هل تأتي ياء للتنبيه؟ الجواب: نعم، فإذا طلب منا مثال لا يحتمل إلا التنبيه، قلنا كقوله تعالى:
=

=

{يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)} [يس: ٢٦] فإن ياء هنا للتنبيه، لأن ياء لا تدخل على الحروف، وإنما تدخل على الأسماء، ولكن جيء بها للتنبيه، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [ويلنا هلاكنا]، ولكن الويل كما قلت أخص من مجرد الهلاك، بل هو التحسر والعذاب، والويل مصدر لا فعل له من لفظه، ولكن من معناه.

قوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)}، قال المصنف: [وتقول لهم الملائكة هذا يوم الدين] فجعل المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ (هذا يوم الدين) من كلام الملائكة.

ولكن الصحيح أنه من كلام المنكرين يعني أنهم في ذلك اليوم يقرون بيوم الدين، ولكن لا ينفعهم الإقرار حينئذ، فهم يقرون بهذا اليوم إذا شاهدوه، {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)} المشار إليه الوقت الذي هم فيه ذلك اليوم الحاضر، والدين يعني الجزاء، واعلم أن الدين يطلق على الجزاء، ويطلق أحيانًا على العمل، فقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وقوله تعالى: {مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا} [الانفطار: ١٨ - ١٩] المراد بالدين الجزاء.

وهنا {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)} المراد به الجزاء، أي هذا يوم الجزاء، قال {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)}.

الجملة هذه يحتمل أن تكون من كلامهم، ويحتمل أن تكون من كلام الملائكة، فإن كانت من كلامهم فالمعنى أن بعضهم يقول لبعض: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)} توبيخًا وتقريعًا وتنديمًا.

وإذا كان من كلام الملائكة فلا إشكال فيه، لأنهم يخاطبون قومًا يكذبون به، وقوله: {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} بعد {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)} لأنه إذا أدين الناس وحوسبوا وجوزوا انفصلوا، انفصل بعضهم عن بعض: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

=

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢).

{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا} أَنْفُسهمْ بِالشِّرْكِ {وَأَزْوَاجهمْ} قُرَنَاءَهُمْ من الشياطين {وما كانوا يعبدون}.

مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣).

{مِنْ دُون الله} أَيْ غَيْره مِنْ الْأَوْثَان {فَاهْدُوهُمْ} دُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ {إِلَى صِرَاط الْجَحِيم} طَرِيق النار.

=

قد يفصل بين المرء وأبيه، وبين المرء وأمه، وبين المرء وأقاربه: هؤلاء في الجنة وهؤلاء إلى النار. فإذًا سُمي يوم الفصل؛ لأنه يفصل فيه بين الخلائق، فيصرف قوم إلى النار، ويصرف قوم إلى الجنة. وسُمِّي يوم الفصل (أيضًا) لأنه يفصل بين الخلائق بالحكم بينهم بالعدل، بأخذ حق المظلوم من الظالم، كما يفصل القاضي في الدنيا بين المتخاصمين، فيعطي المظلوم حقه من الظالم.

وقوله: {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)} كنتم أي فيما مضى، أما الآن فيصدقون به؛ لأنهم قالوا: {هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠)} لكن فيما مضى يكذبون بهذا اليوم، ويقولون: كيف يمكن أن تبعث الخلائق بعد أن كانوا عظامًا وترابًا؟ !

فإذا قال قائل: ما الفائدة من قوله: {الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)}؟

قلنا: الفائدة من أجل زيادة التحسر على هؤلاء؛ لأنهم إذا قيل لهم: الذي كنتم به تكذبون فسوف يتحسرون ويقولون: يا ليتنا لم نكذب، فيكون في هذا زيادة ألم في نفوسهم، ومن جهة أخرى: التوبيخ لهؤلاء ولومهم على تكذيبهم حيث كذبوا بالحق، ففي ذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: زيادة التحسر فيه.

والفائدة الثانية: التوبيخ واللوم على تكذيبهم بالحق.

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤).

{وَقِفُوهُمْ} احْبِسُوهُمْ عِنْد الصِّرَاط {إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} عَنْ جَمِيع أَقْوَالهمْ وَأَفْعَالهمْ وَيُقَال لَهُمْ تَوْبِيخًا.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥).

{مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ} لَا يَنْصُر بَعْضكُمْ بَعْضًا كَحَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَيُقَال لَهُمْ.

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦).

{بَلْ هُمُ الْيَوْم مُسْتَسْلِمُونَ} مُنْقَادُونَ أَذِلَّاء.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧).

{وَأَقْبَلَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ} يَتَلَاوَمُونَ وَيَتَخَاصَمُونَ.

قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨).

{قَالُوا} أَيْ الْأَتْبَاع مِنْهُمْ لِلْمَتْبُوعِينَ {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِين} عَنْ الْجِهَة الَّتِي كُنَّا نَأْمَنكُمْ مِنْهَا لِحَلِفِكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقّ فَصَدَّقْنَاكُمْ وَاتَّبَعْنَاكُمْ الْمَعْنَى أَنَّكُمْ أَضْلَلْتُمُونَا.

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩).

{قَالُوا} أَيْ الْمُتَّبِعُونَ لَهُمْ {بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} وَإِنَّمَا يَصْدُق الْإِضْلَال مِنَّا أَنْ لَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَرَجَعْتُمْ عَنْ الْإِيمَان إِلَيْنَا.

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠).

{وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَان} قُوَّة وَقُدْرَة تَقْهَركُمْ عَلَى مُتَابَعَتنَا {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ} ضَالِّينَ مِثْلنَا.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١).

{فَحَقَّ} وَجَبَ {عَلَيْنَا} جَمِيعًا {قَوْل رَبّنَا} بِالْعَذَابِ أَيْ قَوْله {لَأَمْلَأَن جَهَنَّم مِنْ الْجِنَّة وَالنَّاس أَجْمَعِينَ} {إنَّا} جَمِيعًا {لَذَائِقُونَ} الْعَذَاب بِذَلِكَ الْقَوْل وَنَشَأَ عَنْهُ قَوْلهمْ.

فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢).

{فأغويناكم} المعلل بقولهم {إنا كنا غاوين}.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣).

قال تعالى {فَإِنَّهُمْ يَوْمئِذٍ} يَوْم الْقِيَامَة {فِي الْعَذَاب مُشْتَرِكُونَ} أَيْ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْغَوَايَة.

إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤).

{إنَّا كَذَلِكَ} كَمَا نَفْعَل بِهَؤُلَاءِ {نَفْعَل بِالْمُجْرِمِينَ} غَيْر هَؤُلَاءِ أَيْ نُعَذِّبهُمْ التَّابِع مِنْهُمْ وَالْمَتْبُوع.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥).

{إنهم} أي هؤلاء بقرينة ما بعده {كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون}.

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦).

{ويقولون أئنا} فِي هَمْزَتَيْهِ مَا تَقَدَّمَ {لَتَارِكُوا آلِهَتنَا لِشَاعِرٍ مجنون} أي لأجل محمد.

بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧).

قال تعالى {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} الْجَائِينَ بِهِ وَهُوَ أَنْ لَا إلَه إلَّا الله.

إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨).

{إنكم} فيه التفات {لذائقوا العذاب الأليم}.
وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩).
{وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا} جَزَاء {مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}(١).

---

(١) قوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٤].
قال الطبري: في الكلام، محذوف، والتقدير:"فيقال: احشروا الذين ظلموا، ومعنى ذلك اجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعصوه وأزواجهم وأشياعهم على ما كانوا عليه من الكفر بالله".
قال ابن عباس:"تقول الملائكة للزبانية: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم} ".
وفي قوله تعالى: {وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٤]، أربعة أوجه:
أحدها: أمثالهم وأشباههم، قاله هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس-في رواية-، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والنعمان بن بشير.
قال قتادة:"أشباههم. من الكفار مع الكفار".
وقال مجاهد:"أمثالهم".
وقال مجاهد:"القتلة مع القتلة والزناة مع الزناة وأكلة الربا مع أكلة الربا".
قال عمر بن الخطاب:"ضرباءهم".
وفي لفظ آخر لعمر:"إخوانهم".
وفي لفظ لابن عباس، قال:"نظراءهم".
وعن زيد بن أسلم، في قوله:"{احشروا الذين ظلموا وأزواجهم} قال: أزواجهم في الأعمال وقرأ {وكنتم أزواجا ثلاثة} [الواقعة: ٧]، الآية {فأصحاب الميمنة} [الواقعة: ٨] زوج، {وأصحاب المشئمة} [الواقعة: ٩] زوج، {والسابقون} [الواقعة: ١٠} زوج".
قال القرطبي:"الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وصاحب
=

=

السرقة مع صاحب السرقة".

وروي عن عمر قال: يحشر صاحب الربا مع صاحب الربا وصاحب الزنا مع صاحب الزنا وصاحب الخمر مع صاحب الخمر".

الثاني: يعني: أتباعهم، ومن أشبههم من الظلمة. قاله ابن عباس.

الثالث: الذين ظلموا وأشياعهم، قاله قتادة، وأبو العالية. ومنه قول الشاعر:

فكبا الثور في وسيل وروض... مونق النبت شامل الأزواج

قال أبو العالية:"الذين ظلموا وأشياعهم".

قال قتادة:"وأشياعهم، الكفار مع الكفار".

الرابع: قرناؤهم من الشياطين الذين أضلوهم، قاله مقاتل.

الخامس: -وهو قول ابن زيد- يعني: "أزواجهم في الأعمال، وقرأ {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٧ - ١٠]، فالسابقون زوج وأصحاب الميمنة زوج، وأصحاب الشمال زوج، قال: كل من كان من هذا حشره الله معه. وقرأ: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧]، قال: زوجت على الأعمال، لكل واحد من هؤلاء زوج، زوج الله بعض هؤلاء بعضا، زوج أصحاب اليمين أصحاب اليمين، وأصحاب المشأمة أصحاب المشأمة، والسابقين السابقين، قال: فهذا قوله: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم}، قال: أزواج الأعمال التي زوجهن الله".

السادس: نساؤهم الموافقات على الكفر، رواه النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس -في رواية-.

وحكي عن الحسن:"أن أزواجهم: المشركات".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ} [الصافات: ٢٤]، أي:"وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام".

=

=

قال الطبري: يقول:"احشروا هؤلاء المشركين وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، فوجهوهم إلى طريق الجحيم".

قال ابن كثير:"أي: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم في أماكنهم".

عن قتادة: " {وما كانوا يعبدون من دون الله}: الأصنام".

وقال مقاتل:"يعني: إبليس وجنده، نزلت في كفار قريش نظيرها فى «يس» {ألم أعهد إليكم...} الآية {... أن لا تعبدوا الشيطان}، يعنى: إبليس وحده ".

قوله تعالى: {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [الصافات: ٢٤]، أي:"فعرفوهم طريق الجحيم ووجهوهم إليها".

قال ابن كثير:"أي: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧] ".

قال ابن عباس:"يقول: وجهوهم، وقيل: إن الجحيم الباب الرابع من أبواب النار".

وقال ابن عباس:"سوقوهم".

وقال ابن عباس:"دلوهم إلى صراط الجحيم قال: طريق النار".

قال مقاتل:"يعنى: ادعوهم إلى طريق {الجحيم}، والجحيم: ما عظم الله- ﷻ- من النار".

قال الصابوني:"وفي لفظ {اهدوهم} تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم".

قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، أي:"احبسوهم عند الصراط لأنهم سيسألون عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا، مساءلة إنكار عليهم وتبكيت لهم".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: احبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة {إنهم مسئولون} ".

قال ابن كثير:"أي: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا".

وفي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات: ٢٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: عن «لا إله إلا الله»، قاله يحيى بن سلام.

الثاني: للسؤال عن أعمالهم وعما دعوا إليه من بدعة، رواه أنس مرفوعًا.

قال عثمان بن زائدة:"كان يقال إن أول ما يسأل، عنه العبد يوم القيامة، عن جلسائه".

الرابع: محاسبون، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"احبسوهم إنهم محاسبون".

الخامس: معناه: وقفوا هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم إنهم مسئولون عما كانوا يعبدون من دون الله. حكاه الطبري.

السادس: يسألهم هل يعجبهم ورود النار. قاله ابن مسعود.

قال أبو الزعراء: "كنا عند عبد الله، فذكر قصة، ثم قال: يتمثل الله للخلق فيلقاهم، فليس أحد من الخلق كان يعبد من دون الله شيئا إلا وهو مرفوع له يتبعه قال: فيلقى اليهود فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد عزيرا، قال: فيقول: هل يسركم الماء؟ فيقولون: نعم، فيريهم جهنم وهي كهيئة السراب، ثم قرأ: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا}، قال: ثم يلقى النصارى فيقول: من تعبدون؟ فيقول: المسيح، فيقول: هل يسركم الماء؟ فيقولون: نعم، فيريهم جهنم، وهي كهيئة السراب، ثم كذلك لمن كان يعبد من دون الله شيئا، ثم قرأ

=

=

عبد الله: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُون} ".

قوله تعالى: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} [الصافات: ٢٥].

قال الطبري:"يقول: ما لكم أيها المشركون بالله لا ينصر بعضكم بعضا".

قال يحيى:"يقال لهم: {ما لكم لا تناصرون}: لا ينصر بعضكم بعضا".

قال ابن كثير:"أي: كما زعمتم أنكم جميع منتصر".

قال مقاتل:"يقول الخازن: {ما لكم لا تناصرون}، نظيرها في الشعراء: {هَلْ يَنْصُرُونَكُم} [الشعراء: ٩٣]، يقوله للكفار، ما لشركائكم الشياطين لا يمنعونكم من العذاب".

عن قتادة، قوله " {ما لكم لا تناصرون}، لا والله لا يتناصرون، ولا يدفع بعضهم عن بعض".

وقال السدي: لا يمنع بعضكم بعضا من دخول النار".

قوله تعالى: {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)} [الصافات: ٢٦].

قال الطبري:"يقول: بل هم اليوم مستسلمون لأمر الله فيهم وقضائه، موقنون بعذابه".

قال يحيى:"استسلموا".

قال مقاتل:"{مستسلمون} للعذاب".

قال ابن كثير:"أي: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه".

عن قتادة، قوله " {بل هم اليوم مستسلمون}، في عذاب الله".

قوله تعالى: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)} [الصافات: ٢٧].

قال الطبري:"قيل: معنى ذلك: وأقبل الإنس على الجن، يتساءلون".

قال مقاتل:"{يتساءلون}، يتكلمون".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما

=

يتخاصمون في دَرَكات النار، {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣١ - ٣٣] ".

عن قتادة، قوله: " {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون}، الإنس على الجن".

قال ابن عباس:"ذلك إذا بعثوا في النفخة الثانية".

قال النحاس:"فربما توهم الجاهل أن هذا من قول جلّ وعزّ: {فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ} [المؤمنون: ١٠١] وليس منه في شيء لأن قوله جلّ وعزّ: {فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ}، إنما هو لا يتساءلون بالأرحام فيقول أحدهم: أسألك بالرحم التي بيني وبينك إمّا نفعتني أسقطت حقّا لك عليّ أو وهبت لي حسنة، لأن قبله: {فلا أنساب بينهم}، أي: ليس ينتفعون بالأنساب التي بينهم كما جاء بالحديث «إنّ الرجل يوم القيامة ليسرّ بأن يصحّ له على أبيه أو على ابنه حقّ فيأخذه منه لأنها الحسنات والسيئات»، وفي حديث آخر «رحم الله امرأ كانت لأخيه عنده مظلمة في مال أو عرض فأتاه فاستحلّه قبل أن يطلبه به فيأخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات زيد عليه من سيئات المطالب»، و «يتساءلون» هاهنا إنما هو أن يسأل بعضهم بعضا ويوبّخه في أنه أضلّه أو فتح له بابا من المعصية يبيّن ذلك أنّ بعده: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ} ".

=

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} [الصافات: ٢٨]، أي:"قال الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قِبَل الدين والحق، فتهوِّنون علينا أمر الشريعة، وتُنَفِّروننا عنها، وتزينون لنا الضلال".

قال الطبري:"قالت الإنس للجن: إنكم أيها الجن كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق فتخدعوننا بأقوى الوجوه، واليمين: القوة والقدرة في كلام العرب".

قال السمعاني:"أي: عن الأيمان التي حلفوا بها أنهم صادقون".

واختلف اهل العلم في قوله تعالى: {تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} [الصافات: ٢٨]، على وجوه من التفسير:

أحدها: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء، قاله ابن عباس، وبه قال الفراء، والنحاس، و «اليمين»: القدرة والقوّة. وكذلك قوله: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ}، أي: بالقوّة والقدرة، وقال الشاعر:

إِذَا ما غاية رُفِعت لمجدٍ... تلقاها عَرَابةُ باليمين

أي: بالقدرة والقوة.

قال الفراء:"يقول: كنتم تأتوننا من قبل الدين، أي: تأتوننا تخدعوننا بأقوى الوجوه".

قال النحاس: أي:"إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي هي أقوى الجهات وهي جهة الدين فتشككوننا فيه، وقد قيل هذا في قوله جل وعز: {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧]، وهو معروف في كلام العرب. والله أعلم بما أراد".

الثاني: يعني: من قبل ميامنكم. قاله ابن خصيف.

الثالث: من قبل الخير فتصدوننا عنه وتمنعوننا منه، قاله الحسن، وقتادة، وبه قال الزمخشري.

=

=

قال الحسن:"كانوا يأتونهم، عند كل خير ليصدوهم، عنه".

وقال قتادة:"قالت الإنس للجن: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قال: من قبل الخير، فتنهوننا عنه، وتبطئوننا عنه".

وقال ابن زيد:"قال بنو آدم للشياطين الذين كفروا: {إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين}، قال: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان، والعمل بالخير الذي أمر الله به".

قال الزمخشري:"اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون، ويزاولون أكثر الأمور، ويتشاءمون بالشمال، ولذلك سموها: الشؤمى، كما سموا أختها اليمنى، وتيمنوا بالسانح، وتطيروا بالبارح، وكان الأعسر معيبا عندهم، وعضدت الشريعة ذلك، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين، وأراذلها بالشمال. وكان رسول الله ﷺ يحب التيامن في كل شيء. وجعلت اليمين لكاتب الحسنات، والشمال لكاتب السيئات، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه، والمسيء أن يؤتاه بشماله: استعيرت لجهة الخير وجانبه، فقيل: أتاه عن اليمين، أي: من قبل الخير وناحيته، فصدّه عنه وأضله، وجاء في بعض التفاسير: من أتاه الشيطان من جهة اليمين: أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق. ومن أتاه من جهة الشمال: أتاه من قبل الشهوات. ومن أتاه من بين يديه: أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب. ومن أتاه من خلفه: خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة".

الرابع: من قبل «لا إله إلا الله». قاله يزيد الرشْك.

الخامس: من حيث نأمنكم، قاله عكرمة.

السادس: من قبل الدين أنه معكم، وهو معنى قول الكلبي.

=

=

السابع: من الجهة التي نحبّها وننقاد إليها وتغرّونا بذاك. والعرب تتفاءل لما كان على اليمين، وتسميه: السانح. حكاه النحاس.

الثامن: تأتوننا مجيء من إذا حلف لنا صدّقناه: حكاه النحاس -أيضا-.

التاسع: من قبل النصيحة واليمين، والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ويجعلونه من دلائل الخير ويسمونه السانح، وتتطير بما جاء عن الشمال ويجعلونه من دلائل الشر ويسمونه: البارح، وهو معنى قول عليّ بن عيسى.

العاشر: من قبل الحق أنه معكم، قاله مجاهد، والسدي.

وقال السدي:"تأتوننا من قبل الحق تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق".

وقال مجاهد:"الكفار تقوله للشياطين".

قال مقاتل:"يعنون: من قبل الحق، نظيرها في الحاقة {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} [الحاقة: ٤٥]: بالحق".

الحادي عشر: من قبل الأموال ترغبون فيها أنها تنال بما تدعون إليه فتتبعون عليه، وهو معنى قول الحسن.

قوله تعالى: {قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الصافات: ٢٩]، أي:"وقال المتبوعون للتابعين: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان".

قال الحسن:"لو كنتم مؤمنين مُنِعْتُم مِنّا".

قال قتادة:"قالت الجن للإنس: {بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} حتى بلغ {قَوْمًا طاغِينَ} ".

قال الطبري:"قالت الجن للإنس مجيبة لهم: بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين، وكنتم للأصنام عابدين".

قال ابن كثير:"تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل

=

=

كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان".

قال الزجاج:"أي: إنما الكفر من قبلكم".

قال السمعاني:"أي: رؤساء يقولون ذلك للأتباع".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} [الصافات: ٣٠].

قال الطبري:"يقول: قالوا: وما كان لنا عليكم من حجة، فنصدكم بها عن الإيمان، ونحول بينكم من أجلها وبين اتباع الحق".

قال ابن كثير:"أي: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه".

عن السدي، قوله: " {وما كان لنا عليكم من سلطان}، قال: الحجة".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

قال مقاتل:"من ملك، فنكرهكم على متابعتنا".

قال قتادة:"قالت لهم الجن: {بل لم تكونوا مؤمنين}، حتى بلغ: {قوما طاغين} ".

قوله تعالى: {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ} [الصافات: ٣٠]، أي:"بل كنتم -أيها المشركون- قومًا طاغين متجاوزين للحق".

قال الطبري:"يقول: قالوا لهم: بل كنتم أيها المشركون قوما طاغين على الله، متعدين إلى ما ليس لكم التعدي إليه من معصية الله وخلاف أمره".

قال ابن كثير:"أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به، فخالفتموهم".

قال مقاتل:"{بل كنتم قوما طاغين}: عاصين".

عن السدي، قوله:"{بل كنتم قوما طاغين}، قال: كفار ضلال".

=

=

قال النحاس:"أي: متزايدين في الكفر، وطغى الماء إذا زاد".

قوله تعالى: {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)} [الصافات: ٣١].

قال السعدي:"أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سنذوق العذاب، ونشترك في العقاب".

قال ابن كثير:"يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة".

قال ابن قتيبة:"يعني: نحن وأنتم ذائقون العذاب".

قال الطبري: يقول:"فحق علينا قول ربنا، فوجب علينا عذاب ربنا، إنا لذائقون العذاب نحن وأنتم بما قدمنا من ذنوبنا ومعصيتنا في الدنيا؛ فهذا خبر من الله عن قيل الجن والإنس".

قال الزجاج: أي:"حقت علينا كلمة العذاب، {إنا لذائقون}، أي: إن الجماعة، المضل والضال في النار".

قال النحاس:"أي: فحقّ علينا ما كتبه الله جلّ وعزّ، وما أعلم به ملائكته صلوات الله عليهم أجمعين. وهذا موافق للحديث: «إنّ الله جلّ وعزّ كتب للنار أهلا وللجنّة أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم» ".

عن قتادة: " {فحق علينا قول ربنا}... الآية. قال: هذا قول الجن".

قوله تعالى: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)} [الصافات: ٣٢]

قوله تعالى: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} [الصافات: ٣٢]، أي:"فأضللناكم عن سبيل الله والإيمان به".

قال السدي:"الشياطين تقول {فأغويناكم} في الدنيا {إنا كنا غاوين} ".

قال الطبري:"يقول: فأضللناكم عن سبيل الله والإيمان به".

قال ابن كثير:"أي: دعوناكم إلى الضلالة".

=

=

قال السعدي:"أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم".

قال يحيى:"تقوله الشياطين للمشركين، أي: فأضللناكم".

قال النحاس:"أي: كنا سببا لغيّكم".

قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} [الصافات: ٣٢]، أي:"إنا كنا ضالين من قبلكم، فهلكنا؛ بسبب كفرنا، وأهلكناكم معنا".

قال يحيى:"ضالين".

قال الطبري: يقول:"إنا كنا ضالين؛ وهذا أيضا خبر من الله عن قيل الجن والإنس".

قال ابن كثير:"أي: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا".

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)} [الصافات: ٣٣].

قال السدي:"{فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ} ومَن أَغْوَوا في الدنيا {فِي العَذابِ مُشْتَرِكُونَ} ".

قال السدي:"لا يمنعُ بعضُكم بعضًا من دخول النار".

قال الطبري:"يقول: فإن الإنس الذين كفروا بالله وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله، والذين أغووا الإنس من الجن يوم القيامة في العذاب مشتركون جميعا في النار، كما اشتركوا في الدنيا في معصية الله".

قال السمعاني:"يعني: أنهم جميعا في العذاب".

قال النحاس:"أي: الضالّ والمضلّ".

قال ابن كثير:"أي: الجميع في النار، كل بحسبه".

عن ابن زيد: في قوله {فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون}، قال: "هم والشياطين".

قال يحيى بن سلام:"يقرن كل واحد منهم هو وشيطانه في سلسلة واحدة".

=

=

قال السعدي:"أي: يوم القيامة {فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائه".

وقال القشيري:"يشتركون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشتركون في الزلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم".

قوله تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)} [الصافات: ٣٤].

قال الطبري: يقول:"إنا هكذا نفعل بالذين اختاروا معاصي الله في الدنيا على طاعته، والكفر به على الإيمان، فنذيقهم العذاب الأليم، ونجمع بينهم وبين قرنائهم في النار".

قال البيضاوي:"مثل ذلك الفعل، نفعل بالمشركين".

قال يحيى:"{بالمجرمين}: بالمشركين".

قال الزجاج:"المجرمون: المشركون خاصة".

قال السمعاني:"«الجرم» -ها هنا-: هو الشرك".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)} [الصافات: ٣٥].

قال الطبري: يقول:"وإن هؤلاء المشركين بالله الذين وصف صفتهم في هذه الآيات كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: قولوا {لا إله إلا الله}، يتعظمون عن قيل ذلك ويتكبرون".

قال الزجاج: {إذا قيل لهم لا إله إلا الله}، " يعني: عن توحيد الله ﷻ، وألا يجعلوا الأصنام آلهة".

عن كعب، قال:"لا إله إلا الله: كلمة الإخلاص".

قال محمد بن إسحاق:"لا إله إلا هو، أي: ليس معه غيره شريك في أمره".

=

=

قال ابن كثير:" {إِنَّهُمْ كَانُوا} في الدار الدنيا {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ}، يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون".

قال البيضاوي: {يستكبرون} " عن كلمة التوحيد، أو على من يدعوهم إليه".

قال السدي:"يعني: المشركين خاصة".

وقال القشيري:"احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في وهدة عذابهم ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} [الأعراف: ٢٠٦]، وقال: {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} [النساء: ١٧٢]، فإن من عرف الله فلا لذة له إلا في طاعته".

عن قتادة، قوله: " {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون}، قال: قال عمر بن الخطاب: احضروا موتاكم، ولقنوهم لا إله إلا الله، فإنهم يرون ويسمعون".

عن أبي هُرَيرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله في كتابه – وذكر قوما استكبروا – فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ} ".

قال أبو العلاء: "يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيرًا. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: "لا إله إلا الله"، فيستكبرون. ثم يقال لهم: "لا إله إلا الله"، فيستكبرون. ثم يقال لهم: "لا إله إلا الله" فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال – قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير – قال أبو العلاء:

=

=

ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجي الله المؤمنين".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)} [الصافات: ٣٦].

قال الطبري:"ويقول هؤلاء المشركون من قريش، أنترك عبادة آلهتنا لشاعر مجنون يقول: لاتباع شاعر مجنون، يعنون بذلك نبي الله ﷺ، ونقول: لا إله إلا الله".

قال يحيى:"ويقولون، يعني: المشركين إذا دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان، {أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون}، يعنون: النبي ﷺ، أي: لا نفعل".

قال ابن كثير:"أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! ".

قال قتادة:"يعنون: محمدا ﷺ".

قال السعدي:"فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعرا مجنونا، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأيا".

قوله تعالى: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ} [الصافات: ٣٧].

قال الطبري:"هذا خبر من الله مكذبا للمشركين الذين قالوا للنبي ﷺ: شاعر مجنون، كذبوا، ما محمد كما وصفوه به من أنه شاعر مجنون، بل هو لله نبي جاء بالحق من عنده، وهو القرآن الذي أنزله عليه".

قال ابن كثير:"يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرْعة الله له من الإخبار

=

=

والطلب".

عن قتادة: " {بل جاء بالحق}، بالقرآن".

قال السعدي:"أي: مجيئه حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق".

قال البيضاوي:"رد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان".

قوله تعالى: {وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ٣٧]، أي:"وصدَّق المرسلين فيما أخبروا به عنه من شرع الله وتوحيده".

قال الطبري:"وصدق المرسلين الذين كانوا من قبله".

قال قتادة:"أي: صدق من كان قبله من المرسلين".

قال البيضاوي: أي:"ما جاء به من التوحيد تطابق عليه المرسلون".

قال ابن كثير:"أي: صدّقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره كما أخبروا، {مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} الآية [فصلت: ٤٣] ".

قال السعدي:"أي: ومجيئه صدق المرسلين، فلولا مجيئه وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم، ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذوا ذلك على أممهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم،.فلو قدر عدم مجيئه، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحا في صدقهم. وصدق أيضا المرسلين، بأن جاء بما جاءوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} [الصافات: ٣٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهؤلاء المشركين من أهل مكة، القائلين لمحمد: شاعر مجنون {إنكم} أيها المشركون {لذائقو العذاب} الموجع في الآخرة".

=

=

قال الصابوني:"أي: إنكم أيها المجرمون لمعذبون أشد العذاب".

قال يحيى: {الْأَلِيمِ}: "الموجع، يقوله للمشركين، يعني: عذاب جهنم".

قال عبدالقاهر الجرجاني:"خطاب متوجه إلى كفار قريش".

قال الماتريدي:"بالتكذيب والرد لذلك كله".

قال السعدي:"ولما كان قولهم السابق: {إِنَّا لَذَائِقُونَ} قولا صادرا منهم، يحتمل أن يكون صدقا أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ} أي: المؤلم الموجع".

قال البغوي:"قوله تعالى: {لذائقو العذاب}: الوجه الجر بالإضافة. وقرئ شاذا بالنصب؛ وهو سهو من قارئه؛ لأن اسم الفاعل تحذف منه النون، وينصب إذا كان فيه الألف واللام".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)} [الصافات: ٣٩].

قال الطبري:"يقول: وما تثابون في الآخرة إذا ذقتم العذاب الأليم فيها {إلا} ثواب {ما كنتم تعملون} في الدنيا، معاصي الله".

قال الخازن:"أي: في الدنيا من الشرك والتكذيب".

قال النسفي: أي:"بلا زيادة".

قال السعدي:"{وَمَا تُجْزَوْنَ} في إذاقة العذاب الأليم، {إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟ ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الخطاب من الله -والعلم عنده- إلى الملائكة، ومعنى احشروا أي اجمعوا كما قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ

=

=

لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن: ٩] وسُمِّي يوم الجمع وسُمِّي يوم الحشر؛ لأن الناس يحشرون فيه ويجتمعون، وقوله: {الَّذِينَ ظَلَمُوا}. قال المصنف: [ظلموا أنفسهم بالشرك، ولكن ينبغي أن يقال: ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى حذف المفعول به، وحذف المفعول به يؤذن بالعموم، فهم في الحقيقة ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، ولاسيما الرؤساء منهم الذين أضلوا أتباعهم فإنهم ظلموهم بتلبيس الحق بالباطل وإضلالهم.

{وَأَزْوَاجَهُمْ}، قال المصنف: [قرناءهم من الشياطين] كل زوج قرين، ومنه الزوج وزوجته فإنهما قرينان، وقيل المراد بالأزواج: الأصناف والأشكال، ومنه قوله تعالى: {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)} [ص: ٥٨] أي أصناف، والمعنى متقارب؛ لأن الغالب أن القرين من جنس المقارن، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل".

{وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)} أي والذي كانوا يعبدون في الدنيا، ولهذا أتى بالفعل الماضي {كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)} أي في الدنيا، وجملة (كانوا يعبدون) صلة الموصول، والعائد محذوف، وتقديره: وما كانوا يعبدونه من دون الله.

وقول المصنف: من الأوثان، إذا قال قائل: كيف تحشر الأوثان وهي جماد؟ وليس عليها حساب ولا عقاب؟

فالجواب: أنها تحشر إلى النار وتلقى في النار إهانة لعابديها، أما هي فلا شعور لها، لا تشعر بإهانة ولا كرامة، ولكن عابديها هم الذين يشعرون بالإهانة إذا كانت معبوداتهم تلقى في النار، فتلقى هذه المعبودات في النار إهانة لعابديها وبيانًا لكونها لا تنفعهم في أحوج ما يكونون إلى نفعها. وقوله: {وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ} هذه الآية عامة، وخصت بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)} [الأنبياء: ١٠١] لأننا لو

=

=

أخذناها على عمومها لكان في الناس من يعبد الأنبياء، وكان في الناس من يعبد الملائكة، فهل يحشر هؤلاء المعبودون مع هؤلاء العابدين؟ فالجواب: لا، {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)} [الأنبياء: ٩٨] ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)} [الأنبياء: ١٠١] وعلى هذا فالعموم هنا مخصص بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى} [الأنبياء: ١٠١].

وقيل: إن العموم باق على ما هو عليه، لكنه عام أريد به الخاص، أريد به هؤلاء الذين أنكروا البعث، والذين أنكروا البعث لم يعبدوا الملائكة ولا الرسل إنما كانوا يعبدون هبل واللات والعزى ومناة. وهبل واللات والعزى ومناة كلها في النار.

وعلى كل حال سواء قلنا: إن هذا عام أريد به الخاص، أي الذين يخاطبون الرسول عليه الصلاة والسلام وينكرون البعث. أو قلنا: إنه عام مخصوص، فإنه لا شك أن الذين يُعبدون من دون الله وهم من أولياء الله لن يحشروا إلى النار ولن يدخلوها.

{فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)} أي دلوهم، وهذه هداية الدلالة وهذا لا ينافي قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)} [مريم: ٨٥ - ٨٦] فإن الذي يساق يهدى أيضًا، أرأيت الرجل يسوق بعيره ويهديها، هؤلاء يساقون وفي نفس الوقت يقال اذهبوا من هنا، اذهبوا من هنا حتى يصلوا إلى النار، وقد ذكر الله أن هؤلاء يساقون إلى النار في حال يحتاجون معها إلى الماء، بل يضطرون إلى الماء، {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦)} [مريم: ٨٦] عطاشًا فإذا جاءوا لم يجدوا إلا النار المحرقة -والعياذ بالله- وهذا يكون كالصفعة على وجوههم حيث جاءوا وهم

=

=

يرجون أن يشربوا، ولكنهم يفاجئون بما يزيدهم لهبًا وعطشًا.

{إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)} صراط بمعنى طريق، والصراط نوعان: صراط حسي وهو ما تمشي عليه الأقدام، وصراط معنوي وهو ما تمشي عليه القلوب، فمن استقام في الصراط المعنوي على دين الله استقام في الصراط الحسي يوم القيامة حتى يصل إلى الجنة، ومن كان غير مستقيم في الدنيا على شريعة الله لم يكن مستقيمًا في الآخرة على طريق الجنة ولكن على طريق النار.

والصراط هنا حسي {الْجَحِيمِ (٢٣)} النار، فالجحيم إذًا من أسماء النار، وأسماء النار في القرآن كثيرة متعددة.

قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)} قفوهم يعني أوقفوهم، من وقف يقف، والأمر: قف. ووقف تستعمل لازمة ومتعدية، فإذا قلت: مشى فلان، فوقف، هذا لازم، وإذا قلت: وقفت القول، أو وقفت زيدًا عند المكان الفلاني فهذا متعد.

قفوهم لا شك أنه متعد، ووجهه أنه نصب المفعول به الهاء، والواو في {وَقِفُوهُمْ} فاعل.

وهنا فائدة: أن حرف المضارعة لا تحسب من بنية الفعل، ولهذا يقال: إذا أردت أن تصوغ فعل الأمر: فأتِ بفعله مضارعًا مجزومًا، ثم احذف حرف المضارعة، وهذه تفيد طالب العلم. فمثلًا: إذا أردت أن تأتي بفعل الأمر من: خاف. فتقول: خف. لأن المضارع المجزوم: يخف. احذف حرف المضارعة: خف.

مثال آخر: نامَ الأمر: نَم، نجريها على القاعدة لم يَنَمْ. احذف ياء المضارعة. نَمْ. الأمر من: مَال؟ مِلْ. على القاعدة. لم يَمِل. احذف ياء المضارعة (مِلْ). لأن الأمر مقتطع من المضارع. ووجه ذلك أنك تأتي بالمضارع مجزومًا ثم تحذف حرف المضارعة. الأمر من "خَشِيَ": اخْشَ، هات المضارع مجزومًا: لم يَخْشَ

=

=

إذا لابد أن نقول: اخشَ. لماذا؟ لأنه لا يمكن أن تبدأ بالسكون، لأنه لو حذفنا ياء المضارعة لبقي خاء ساكنة، والشين مفتوحة، والخاء الساكنة لا يمكن أن تنطق بها. إذا وجدت كلمة أولها ساكن، تأتي بهمزة الوصل، فتقول: "اخْشَ"، وفعل الأمر من رمى: "ارْمِ" لأن المضارع (لم يَرْمِ) أوله ساكن لابد أن يؤتى بالهمزة والله أعلمَ.

{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [احبسوهم عند الصراط]، الأمر من الله ﷻ والخطاب للملائكة فيما يظهر؛ لأن الملائكة هي التي تدبر الخلائق بأمر الله، فيقال للملائكة: قفوا هؤلاء المكذبين المشركين بالله {وَقِفُوهُمْ} يعني وقفوهم أي احبسوهم {إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)} قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[عن جميع أقوالهم وأفعالهم] وكلمة {إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)} إما أن تكون كما قال المصنف عامة يعني إنهم مسؤولون عن أقوالهم وأفعالهم وشركهم وانحرافهم وعن كل أحوالهم أو إنها مبينة بقوله: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} فيكون المسئول عنه شيئًا واحدًا وهي أنهم يوقفون ويسألون هذا السؤال {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} يقال لهم ذلك توبيخًا وتقريعًا كما قال المصنف: [ويقال لهم توبيخًا: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} لا ينصر بعضكم بعضًا]، فالآية في الحقيقة محتملة المعنيين:

المعنى الأول: أنكم مسؤولون عن كل الأحوال والأعمال.

المعنى الثاني: أنكم مسؤولون هذا السؤال وهو: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} وأيًا كان ففي الآية توبيخ وتهكم بهم حيث يقال لهم: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} كنتم في الدنيا تتناصرون والذي ينصر هم العابدون ينصرون هذه الأصنام كما مر علينا في آخر سورة يس، {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)} [يس: ٧٥] فالعابدون ينتصرون للآلهة، كما قال أبو سفيان قبل أن يسلم

=

=

في غزوة أحد قال: اعلُ هبل، يفتخر به وينتصر له، فيقال لهم يوم القيامة: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} يعني أي شيء لكم يمنعكم من التناصر؟ والجواب واضح يفيده قوله: {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)} منقادون أذلاء، وهذه الجملة المصدرة بـ"بل" تفيد الانتقال من أسلوب إلى آخر، يعني أنهم لا يتناصرون لأنهم اليوم مستسلمون هم وأصنامهم أذلاء صاغرون.

الاستفهام في قوله: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥)} المراد به التوبيخ والتهكم يعني أين نصر بعضكم بعضًا الذي كان في الدنيا أفلا تتناصرون اليوم؟ والجواب: لا يمكن أن يتناصروا لأنهم أذلاء مستسلمون {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)} أي منقادون لحكم الله فيهم جزاءً ولحكم الله فيهم قدرًا.

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧)} يعني أقبل بعضهم أي اتجه بعضهم إلى بعض، وجملة يتساءلون حال من الفاعل والمجرور، والفاعل في (بعضهم) والمجرور في (على بعض). أقبلوا يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا تلاومًا وتخاصمًا، فصاروا بعد أن كانوا في الدنيا على وفاق وأخلاء صاروا في الآخرة أعداء {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)} [الزخرف: ٦٧] يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا على وجه التوبيخ والإنكار، {قَالُوا} أي الأتباع منهم للمتبوعين، {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ[عن الجهة التي كنا نأمنكم منها، لحلفكم أنكم على الحق فصدقناكم واتبعناكم، المعنى أنكم أضللتمونا]، أي صار بعضهم يسأل بعضًا، الأتباع يسألون المتبوعين، والمتبوعون يسألون الأتباع، وكل يسأل بعضهم بعضًا لأنهم وقعوا في حيرة.

يقول بعضهم لبعض وهم الأتباع يقولون: {إِنَّكُمْ كُنْتُمْ} {إِنَّكُمْ} الخطاب للمتبوعين {كُنْتُمْ} يعني في الدنيا {تَأْتُونَنَا} يعني في خطابكم لنا ودعوتكم إيانا

=

=

{عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)}، عن للمجاوزة يعني تأتوننا إتيانًا صادرًا عن اليمين، فما المراد باليمين؟

قيل: إن المراد باليمين الحلف، لقوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ} [البقرة: ٢٢٤] جمع يمين، فمعنى عن اليمين عن الحلف أي أن المتبوعين يحلفون للأتباع أنهم على حق، وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)} [الأعراف: ٢١].

وقيل: إن المراد باليمين هو التفاؤل، يعني أنكم تعدوننا خيرًا، وتقولون: اتبعونا فإنكم إن اتبعتمونا نلتم العزة والغلبة فتعدوننا بالخير وأنتم كاذبون علينا.

وقيل: المراد باليمين القوة كما في قوله تعالى: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)} [الصافات: ٩٣] أي بالقوة، وقيل: باليد اليمنى على كل حال.

إذًا باليمين فيها ثلاثة أقوال:

١ - الحلف.

٢ - الخير.

٣ - القوة.

والحقيقة أن كل هذه الوجوه واقعة من المتبوعين، فهم يقسمون للأتباع أنهم على حق، وهم يتكلمون معهم عن طريق القوة، لأنهم متبوعون، وهم كذلك يعدونهم بالخير، يقولون: اتبعونا تكن لكم العزة والغلبة وما أشبه ذلك، فالآية شاملة لهذه الوجوه الثلاثة. يقول الأتباع للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا عن هذه الجهة الحلف أو القوة أو الخير.

والمصنف رَحِمَهُ اللهُ يقول في تفسيرها [عن الجهة التي كنا نأمنكم بها]، وكلامه هذا صالح للوجوه الثلاثة؛ لأن الناس يؤمنون إذا حلفوا، ويؤمنون إذا وعدوا بالخير، ويؤمنون إذا كانوا أقوياء، لأن الغالب أن الضعيف يرى أن القوي على حق، وأنه

=

=

بلغ هذه المرتبة لكونه محقًّا.

{قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)}.

{قَالُوا} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي المتَّبَعون] لو عبر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله المتبوعون لكان أوضح؛ لأن المتَّبَعون قد يقرأها الإنسان المتَّبِعون يعني الأتباع، والواقع أن الذي قال هم المتبوعون. {قَالُوا} أي المتبوعون للأتباع: {بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)} {بَلْ} هنا في إبطال ما ادّعوه في قولهم: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، يعني بل لم نأتكم عن اليمين ولكنكم لم تكونوا مؤمنين، ولو كنتم مؤمنين لصدق قولكم إنا أضللناكم، أما أنكم غير مؤمنين من الأصل فالجناية منكم على أنفسكم.

ولهذا يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)} وإنما يصدق الإضلال منا أن لو كنتم مؤمنين فرجعتم عن الإيمان إلينا]، تبرأ المتبعون الآن من الأتباع وجعلوا اللوم على الأتباع أنفسهم، قالوا كما يقول الشيطان: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا}. [إبراهيم: ٢٢] هؤلاء المتبعون يقولون كما قال الشيطان، يقولون للأتباع: أنتم الذين أضللتم أنفسكم، أما نحن فلم نضلكم؛ لأننا لم نخاطب قومًا مؤمنين، فأضللناهم بعد إيمانهم، إنما نخاطب قومًا انقادوا إلى الكفر باختيارهم، فاللوم عليهم لأنفسهم أما نحن فلا، وهذا مبين لقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)} [البقرة: ١٦٦].

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)} (ما) نافية و (كان) فعل ماض يرفع المبتدأ وينصب الخبر، و (من سلطان) اسمها المؤخر مجرور بحرف من الزائد إعرابًا، و (لنا) خبر مقدم. خلافًا لمن قال: إن =

=

(ما) حجازية و (كان) زائدة، لأنك لو قلت: (وما لنا عليكم من سلطان) لصح الكلام، لأن (كان) هنا مراد وجودها لأنها تدل على زمن مضى، بخلاف ما لو سقطت فإنها لا تدل على الزمن الماضي، فإن الجملة لا تدل على الزمن الماضي، فيتعين هنا أن تكون (ما) نافية و (كان) فعل ماض غير زائد.

قوله: {وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} المصنف رَحِمَهُ اللهُ: [أي من قوة وقدرة تقهركم على متابعتنا]، واعلم أن السلطان بمعنى السلطة، وهو في كل موضع بحسبه فتارة يراد بالسلطان العلم، كما في قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: ٢٣] أي من دليل وبرهان، وتارة يراد به القدرة والقوة والغلبة كما في هذه الآية، يعني ليس لنا عليكم من سلطان نقهركم حتى تتبعونا، بل أنتم اتبعتمونا باختياركم وإرادتكم فكأنهم يقولون: لا تلومونا ولوموا أنفسكم، كما قال الشيطان لما قضى الأمر {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} [إبراهيم: ٢٢] فهؤلاء المتبوعون يجعلون اللوم كله على الأتباع، ونحن إذا نظرنا إلى الواقع وجدنا أن اللوم يكون على الأتباع وعلى المتبوعين، أما المتبوعون فإنهم زينوا لهم أعمالهم ودعوهم واستضعفوهم حتى أمالوهم إلى الباطل، وأما الأتباع فإنهم لم يجبروا على ذلك ولم يسخروا عليه، بل هم الذين تبعوا هذا باختيارهم، فكان على كل واحد من اللوم ما يتناسب وفعله، {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)}، {بَلْ} هذه للإضراب الانتقالي لا لإبطال ما سبق، بل للانتقال من شيء إلى آخر فكرروا عليهم، قالوا في الأول: {بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩)} وقالوا الآن: {بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)} والطاغي هو الذي تجاوز حده، كما قال الله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)} [الحاقة: ١١] يعني لما تجاوز حده،

=

=

فهم يصفونهم بأنهم طاغون أي متجاوزون لحدهم الذي ينبغي أن يكونوا عليه وهو اتباع الرسل لا أتباع هؤلاء المضلين. وقول المصنف [ضالين] فيه نظر، لأن الطغيان أمر زائد على الضلال. فالصواب أن {طَاغِينَ (٣٠)} بمعنى المتجاوزون للحد الذي ينبغي أن يكونوا عليه من أتباع الرسل.

{فَحَقَّ} وجب {عَلَيْنَا} جميعًا {قَوْلُ رَبِّنَا} حق علينا أي ثبت ووجب وصار حقًّا ليس فيه ظلم ولا باطل، {قَوْلُ رَبِّنَا} يعني أن كل من خرج عن طاعة الله وكذب بآياته فهو في النار.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [و {قَوْلُ رَبِّنَا} بالعذاب أي قوله {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)}]. [السجدة: ١٣] هذا على ما قال المصنف هو المراد بقولهم: {قَوْلُ رَبِّنَا} وكأنه يشير إلى قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)} [هود: ١١٩] ولكن الظاهر أن المراد بقول الله المشار إليه هو قوله لإبليس {لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)} [الأعراف: ١٨] لأن الآية التي أشار إليها المصنف فيها بيان أن الله سبحانه وتعالى قدر بحكمته أن يملأ النار من الكافرين، لكن ليس فيه الخطاب الموجه للشيطان وأتباعه، {لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)} فإن هذا هو الذي فيه الوعيد المباشر لمن اتبع الشيطان، فتفسير قولنا بالآية الثانية أولى من تفسيرها بما قال المصنف، ثم قال: {إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [{إِنَّا} جميعًا {لَذَائِقُونَ} العذاب بذلك القول، ونشأ عنه قولهم {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} المعلل بقولهم: {إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)} {فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا} علينا الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين، {إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)} أيضًا يعود الضمير على الأتباع والمتبوعين. كأنهم يقولون إنا لم نخلص أنفسنا فكيف نخلصكم، ثم قال: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} يعني جعلناكم من أهل الغي

=

=

بصدكم عن طريق الرشد، {إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢)} هذا تعليل لقولهم: {فَأَغْوَيْنَاكُمْ} لقولهم أي بقول هؤلاء الذي نقله الله عنهم.

قوله تعالى: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)} هذا من قول الله تبارك تعالى وإن واسمها في إنهم، ومشتركون خبرها، وفي العذاب متعلق بـ (مشتركون)، ويومئذ يجوز أن تكون متعلقة بـ (مشتركون)، ويجوز أن تكون متعلقة بحال من الضمير في إنهم.

وقوله: {يَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ تقوم القيامة فالتنوين عوضًا عن جملة محذوفة، وقوله: {فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)} الضمير يعود على الأتباع والمتبوعين يشتركون يوم القيامة في العذاب أي في أصله، وإن كان بعضهم أشد عذابًا من بعض، لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا} [الأنعام: ١٣٢].

واشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم؟ لقوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)} [الزخرف: ٣٩] بينما الناس في الدنيا إذا اشتركوا في العذاب أو المصائب فإن بعضهم يسلي بعضًا ويقويه ربما يتحمل جزءًا من العذاب. لكن في الآخرة لا ينفع هذا، كل منهم يرى أنه أشد الناس عذابًا -والعياذ بالله- ولا ينفعه مشاركة غيره له.

{فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي لاشتراكهم في الغواية].

تفسير المصنف تعليل لاشتراكهم في العذاب لأنهم اشتركوا في الغواية.

والمعنى أن هؤلاء مشتركون في العذاب كل يعذب بقدر ذنبه فلا يظلم ربك أحدًا، ولا يمكن أن يسلم الأتباع من التبعة، وأن يسلم المتبوعون من التبعة، وأن هؤلاء انقادوا للضلال باختيارهم، وهؤلاء خدعوهم وغروهم، فكان على كل واحد من العذاب ما يستحقه وإن اشتركوا في أصله.

=

=

{إِنَّا كَذَلِكَ} [إنا كذلك كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين]، هكذا قدر المصنف كما نفعل بهؤلاء نفعل بالمجرمين.

ويحتمل أن يكون المعنى إنا كهذا الفعل نفعل بالمجرمين وهم مجرمون. إعراب هذه الجملة {إِنَّا} إن واسمها وجملة {نَفْعَلُ} خبرها {كَذَلِكَ} الكاف اسم بمعنى (مثل) منصوبة على المفعولية المطلقة، يعني إنا نفعل مثل ذلك الفعل بالمجرمين، وهذا التركيب يرد كثيرًا في القرآن، وإعرابه أن تجعل الكاف اسم بمعنى (مثل) وأن تجعلها منصوبة على أنها مفعول مطلق للفعل الذي يليها.

وقوله: {نَفْعَلُ} وصف الله نفسه بالفعل على سبيل التعظيم، حيث عاد الضمير إليه بصيغة الجمع، ومعلوم أنه سبحانه واحد، ولكنه وصف نفسه بهذا من باب التعظيم.

وقوله: {بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)} المجرم هو الذي اكتسب الجرم وهو الإثم، فكل مجرم فإن الله تعالى يفعل به هكذا، ولكن الجرم نوعان: جرم لا عمل صالح معه فهذا يفعل به هكذا قطعًا وليس أهلًا للعفو. وجرم معه عمل صالح فهذا تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} . [النساء: ٤٨].

قال المصنف: [{إِنَّا كَذَلِكَ} كما نفعل بهؤلاء {نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)} غير هؤلاء أي نعذبهم، التابع منهم والمتبوع]، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا مجرمين، لأنهم استحقوا من العذاب ما استحقه غيرهم.

[{إِنَّهُمْ} أي هؤلاء بقرينة ما بعدهم {كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)}] {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}، القائل الرسل بدليل قوله: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)} وربما نختار العموم يعني إذا قالت لهم الرسل أو غيرهم حتى غير الرسل ربما ينصحونهم ويقولون لهم: قولوا لا إله إلا

=

=

الله، ولكنهم يجيبون بهذا الجواب الباطل.

وقوله: {إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ} هذه الجملة هي كلمة التوحيد، التي دعت إليها جميع الرسل، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)} [الأنبياء: ٢٥].

وإعرابها أن نقول: لا نافية للجنس، وإله اسمها، وخبرها محذوف تقديره حق، وإلا أداة استثناء، ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف.

وقوله: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ}: إله بمعنى مألوه، والمألوه هو المعبود حبًّا وتعظيمًا، الذي تألهه القلوب وتنيب إليه وتخشع له، وإله أعني هذه الصفة فعال بمعنى مفعول تأتي كثيرًا في اللغة العربية مثل: البناء الفراش، بمعنى المبني، المفروش.

فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله.

ولو أورد علينا مورد، بأن هناك آلهة دون الله تعالى؟

فالجواب: أن ألوهيتهم ليست حقًّا، والدليل قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} [الحج: ٦٢] وقد فسر عامة المتكلمين (لا إله إلا الله) بقولهم: لا قادر على الاختراع إلا الله. هذا تفسيرهم لها، كما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في التدمرية يقولون: (لا إله إلا الله) أي: لا قادر على الاختراع إلا الله، ففسروها بما يقتضي توحيد الربوبية، وهذا التفسير غير حق. فإذا فسرنا معنى (لا إله إلا الله) أي: لا قادر على الاختراع إلا الله يعني على الخلق إلا الله، وهذا التفسير غير صحيح وباطل من أصله.

والدليل: أن المشركين لا يستكبرون عن أن يقولوا: إنه لا خالق إلا الله، بل يقرون بذلك، إذًا من فسره بهذا التفسير فقد أخطأ.

والمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ ما فسروه بهذا؛ لأنه لو فسروا بهذا ما استكبروا عنه.

=

=

إذًا فهذا التفسير يعتبر تفسيرًا باطلًا، ليس فيه قصور ولا نقص، بل فيه البطلان من الأصل.

سؤال: ما الفرق بين قولنا: لا معبود بحق إلا الله. وقولنا: لا معبود حق إلا الله؟

الجواب: إذا قلنا: لا معبود بحق إلا الله لم يأتِ الخبر، وصار (بحق) تعلق بمعبود، يعني لا أحد يعبد بحق إلا الله، ويكون الخبر على هذا هو (الله)، وهذا مشكل على قواعد النحو؛ لأن (لا) النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات.

وإذا قلنا: لا معبود حق. صارت (حق) خبر (لا) ولا تكون متعلقة بالمعبود. ولهذا قال بعضهم في تقديرها: لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح، لأن هناك موجودًا يعبد سوى الله. ولكن الصحيح أن نقول: لا معبود حق. كما لو قلت: لا أحد قائم إلا زيد. تكون قائم هي الخبر. لا معبود حق إلا الله.

وقوله: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} الله علم على الذات المقدسة لا يسمى به غيره، وهو أصل الأسماء، ولهذا تأتي أسماء الله تعالى غالبًا تبعًا له، ولا يأتي هو تبعًا لغيره إلا نادرًا، فالأكثر أن الأسماء تأتى كلها صفة لله {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)} [الفاتحة: ٢ - ٤] بسم الله الرحمن الرحيم. وربما تبعًا لها في مثل قوله: {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} [إبراهيم: ١ - ٢] فهنا أتت هذه الكلمة العظيمة (الله) تبعًا لما قبلها. أين جواب {إِذَا} في قوله {كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ}؟ جواب (إذا) {يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)}، ولكن قد يقول قائل: لماذا لم تجزم؟ كيف جعلتموها جوابًا لـ أن (إذا) ولم تجزموها مع أنها فعل مضارع، الجواب أن (إذا) حرف شرط غير جازم.

وقوله: {يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)} أي: يتعالون كبرًا وفخرًا، فيرون أنهم أكبر من أن يقال لهم: {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} ويأنفون من ذلك أي من قول هذه الكلمة، لأنهم يرون في أنفسهم أنهم أعظم وأكبر، ولهذا قال: {يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)} أي: يستكبرون عن

=

قولها فلا يقولونها ويستكبرون عمن قالها فلا يستجيبون له، فكبرياؤهم -والعياذ بالله- من الناحيتين.
الناحية الأولى: الاستكبار عن قول هذه الكلمة.
والثانية: الاستكبار عن الاستجابة لمن دعاهم إليها، ويقولون مع استكبارهم النفسي يقولون بألسنتهم: {أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا} في همزتيه أربع قراءات على حسب ما قال المصنف:
١ - أن تحقق الهمزتين.
٢ - أن تسهل الثانية.
٣ - أن تدخل ألفًا بينهما في حال التحقيق.
٤ - أن تدخل ألفًا بينهما في حال التسهيل.
قوله تعالى: {أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)} الاستفهام هنا للنفي، وأكدوا هذا النفي بقوله: {أَئِنَّا لَتَارِكُو} أكدوه بإنا واللام، يعني هل يمكن أن نترك آلهتنا لهذا القائل الذي وصفوه بهذين الأمرين: شاعر ومجنون، أي لأجل قول محمد ﷺ يعني لا يمكن أن نترك آلهتنا من أجل قول هذا الشاعر المجنون، والشاعر هو من يقول الشعر، والمجنون ضد العاقل، ومن المعلوم أن قولهم هذا كذب، ومع كونه كذبًا فهو متناقض. وجه التناقض أن المجنون كيف يكون شاعرًا؟ المجنون لا يمكن أن يأتي بكلام نثر منتظم، فكيف يأتي بكلام نظم يهز المشاعر، ويقال: إنه صدر من شاعر؟ ! لكن -والعياذ بالله- العمى إذا حل في القلب صار الإنسان لا يدري ما يقول، ربما يقول قولًا يتناقض وهو لا يدري.
ومن المعلوم أن الله تعالى كذبهم في هذا القول، فقال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)} [يس: ٦٩]] وقال تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢)} [القلم: ١ - ٢] بل

=

أنت أعقل العقلاء، فكذبهم الله ﷻ في قولهم هذا، وهم بلا شك كاذبون، فالنبي ﷺ أعقل الناس، والنبي ﷺ أتى بقول ليس بشعر، بل أتى بكلام الله ﷻ، ولهذا قال تعالى: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ} (بل) هذه للإضراب الإبطالي، أي بل كذبتم فيما قلتم، وإنما جاء رسول الله ﷺ بالحق، والباء هنا للمصاحبة يعني جاء مصحوبًا بالحق، فقوله حق وما جاء به أيضًا حق، فكون النبي ﷺ يقول: هذا من عند الله. نقول: هذا حق هو صادق، وما يشتمل عليه القرآن فهو حق وضده الباطل، فالحق هنا وصف لقول النبي عليه الصلاة والسلام إنه رسول الله، ووصف لما جاء به، فيكون وصفًا للخبر والمخبر به، فخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن من عند الله نقول: حق، وما جاء به أيضًا فهو حق، وذلك لأن القرآن مشتمل على كمال العدل وكمال الصدق، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] فتكون الأحقية هنا من جهتين: من جهة الخبر، ومن جهة المخبر به، الخبر أن قول النبي ﷺ: هذا من عند الله حق ليس فيه كذب، المخبر به: أن ما جاء به الرسول ﷺ فكله حق متضمن للحق، ليس فيه باطل، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] فالصدق وصف للأخبار، والعدل وصف للأحكام، والقرآن كله إما خبر وإما حكم، فخبره صدق وحكمه عدل.

{وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)} قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: [الجائين به وهو أن {لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} صدّق أي النبي ﷺ المرسلين الذين أرسلوا من قبله] وكيف صدقهم؟ نقول لتصديقه المرسلين وجهان:

الوجه الأول: أن مجيئه وقع مطابقًا لما أخبروا به، فيكون ذلك تصديقًا، كما لو قلت: سيقدم زيد غدًا، فإذا قدم صار مصدقًا لقولك وصار مجيئه مصدقًا لقولك.

=

=

الوجه الثاني: صدق المرسلين أي قال: إن الرسل صادقون. وكلنا يعلم أن من دين رسول الله ﷺ أن يقول الإنسان: آمنا بالله وبرسل الله {كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥] فتصديق رسول الله ﷺ لمن سبقه يكون على هذين الوجهين:

أولًا: أن مجيئه تصديق لما أخبروا به من أن سيبعث، وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام، قال لقومه: {إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦].

والثاني: أنه وصف ما جاءت به الرسل السابقون بأنه صدق.

قوله تعالى: {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)} قال [الجائين به، وهو أن لا إله إلا الله] في تفسير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ شيء من القصور؛ لأنه صدّق المرسلين في هذا وفي غيره، وكأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ خصها بقول (لا إله إلا الله) بناء على السياق، حيث كان السياق في التحدث عن (لا إله إلا الله) {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)} أي صدَّقهم بأن لا إله إلا الله، ولكن الأولى الأخذ بالعموم فصدقهم في هذا وفي غيره.

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)} هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين: أحدهما (إن) والثاني: اللام، وقوله: {لَذَائِقُو} هي الخبر وحذفت النون منها من أجل الإضافة؛ لأن المضاف تحذف منه النون إذا كان مثنى أو جمعًا، ويحذف منه التنوين إن كان مفردًا.

وقوله: {الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} الأليم هنا بمعنى المؤلم، وفعيل تأتي بمعنى مفعل، ومنه قول الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... تؤرقني وأصحابي هجوع

=

=

السميع بمعنى المسمع.

وقوله- ﷻ: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)}: فيه التفات، وذلك أن مقتضى السياق أن يقول: "إنهم لذائقوا العذاب" لأن الحديث كله جاء عن الغائب. {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)} فكان مقتضى السياق أن يقول: إنهم لذائقوا العذاب الأليم، ولكن كان في السياق التفات من الغيبة إلى الخطاب فما فائدة هذا الالتفات؟

ذكرنا فيما سبق أن كل التفات فإن له فائدة مشتركة، وهي تنبيه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد سها المخاطب أو القارئ، ولكن إذا تغير الأسلوب فإنه ينتبه، لماذا تغير؟ وما وجه التغير؟ فتشترك جميع الالتفاتات في كل موضع بأن الغرض من ذلك التنبيه، ثم ينفرد كل موضع بما يختص به، فهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، لأن الخطاب أبلغ في الزجر، {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} أبلغ من إنهم لذائقوا العذاب الأليم. ولهذا إذا تأملنا قصة الخضر مع موسى عليه الصلاة والسلام، أول ما عتب عليه قال له: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)} [الكهف: ٧٢] وفي الثانية: {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥)} [الكهف: ٧٥] فالخطاب لا شك أن فيه قرعًا للذهن مباشرًا، فيكون أشد وقعًا من ضمير الغيبة.

وقوله: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} هذا فيه حق اليقين؛ لأن هؤلاء تُوُعِّدوا بهذا العذاب، وتوعدهم بالعذاب هو علم يقين، ثم رأوا النار كما قال تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)} [الكهف: ٥٣] وهذا عين اليقين ثم قيل لهم: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} وهذا حق اليقين، فاجتمع في وعيد هؤلاء المراتب الثلاث: العلم،

=

=

والعين، والحق.

{الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)} المراد به عذاب جهنم -والعياذ بالله- لأنه مؤلم، وقد أخبر الله ﷻ عن إيلام هذا العذاب بأنواع عظيمة، ذكرها الله في كتابه، وذكر منها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا في السنة، قال: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)} أي: ما تجزون من هذا العذاب إلا شيئًا قدمتموه أنتم لأنفسكم، وهنا قال المصنف في تقدير الآية: [إلا جزاء ما كنتم تعملون]. وهذا أمر معلوم؛ لأن الذي عملوه كان وبان، إذ إن العمل كان في الدنيا ومضى، والجزاء في الآخرة، فهم لم يجزوا العمل نفسه، وإنما جوزوا جزاء العمل، ومن ثمَّ قال المصنف: إلا جزاء ما كنتم تعملون.

وإذا قال قائل: ما الفائدة من أن يُعبَّر عن الجزاء بالعمل؟

قلنا: الفائدة في ذلك أمران:

الأمر الأول: أن يعلم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما تدين تدان، فإذا عبر عن الجزاء بالعمل فإن هذا معناه أو مقتضاه أن هذا الجزاء بقدر العمل.

الفائدة الثانية: قوة التوبيخ لهؤلاء؛ لأن الجزاء من فعل غيرهم، فإذا عبر عنه بالجزاء فإنه يكون أهون بعض الشيء، لكن إذا عبر بالعمل عن الجزاء صار أشد في التوبيخ، كأنه يقال لهم: هذا فعلكم أنتم بأنفسكم، ولهذا عبر عن الجزاء بالعمل.

وقوله: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)} من حيث الإعراب: نقول: إن (الواو) نائب فاعل في (تجزون)، و (ما): اسم موصول في محل نصب مفعول آخر؛ لأن جزاء تنصب مفعولين، ولكن هل هي من باب ظن التي مفعولاها أصلهما المبتدأ والخبر، أو من باب (كسا) التي مفعولاها ليس أصلهما المبتدأ والخبر؟

=

=

الجواب الثاني: لأنه لو قدرت أن الواو مبتدأ، و (ما) خبر ما صح الكلام.

* **مسألة**: في معنى لا إله إلا الله.

الإله: فعال بمعنى مألوه، وكل ما اتخذ معبودا إله عند متخذه.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى -: "فـ "الإله" اسم صفة لكل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق وهو الله تعالى، وهو الذي يخلق ويرزق ويدبر الأمور".

فمعنى "الإله" يتضمن فعل الخلق والرزق والإثابة والعقوبة، ولهذا انفرد الله تعالى باستحقاق العبادة وحده؛ لأنه المنفرد بهذه الأفعال والصفات.

فالإله: هو المعبود المطاع الذي تألهه القلوب، أي: تتجه له وتقصده وتخضع له وتتعلق به خشية وإنابة ومحبة وخوفا وتوكلا عليه وإخلاصا تبارك وتعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين".

قال الشيخ سليمان بن عبد الله - رحمه الله تعالى -: "وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء والخوف المحبة، والتوكل والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئا مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله، فهو مشرك ولو نطق بـ "لا إله إلا الله"، إذ يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص".

فـ "لا إله إلا الله" معناها: لا معبود حق إلا الله، وغير الله إن عبد فباطل.

* الدليل من الكتاب: قال الله تعالى: {بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير} [الحج:٦٢] وقال تعالى: {فاعلم أنه لا إله

=

=

إلا الله} [محمد:١٩]، وقال تعالى: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له} [الزمر:٥٤] وقوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} [آل عمران ١٨]، وقال الله تعالى: {فاعبد الله مخلصا له الدين (٢) ألا لله الدين الخالص} [الزمر:٢،٣]، وقال تعالى: {قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين} [الزمر: ١١] {قل الله أعبد مخلصا له ديني} [الزمر:١٤]، وقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى} [البقرة:٢٥٦]. وقال ﷻ: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} [الحجرات: ١٥].

* الدليل من السنة: عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم انه لا إله إلا الله دخل الجنة"، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال في الشهادتين: "لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة".

وعن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل".

وعن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ ومعي نفر من قومي: "فقال أبشروا وبشروا من وراءكم إنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقا بها دخل الجنة".

=

=

وعن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول أخبرنا من شهد معاذا حين حضرته الوفاة يقول: اكشفوا عني سجف القبة أحدثكم حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال مرة: أخبركم بشيء سمعته من رسول الله ﷺ لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلوا سمعته يقول: "من شهد أن لا إله إلا الله مخلصا من قلبه أو يقينا من قلبه لم يدخل النار أو دخل الجنة" وقال مرة: "دخل الجنة ولم تمسه النار".

وعن أبي هريرة أنه قال: قيل: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: "لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه". وهو معنى قوله ﷺ في حديث عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدرا من الأنصار قال رسول الله ﷺ: "فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله".

١ - "لا إله إلا الله " أول واجب على المكلف:

قال العلامة عبد العزيز الرشيد صاحب أحكام وفوائد في التنبيهات السنية: "هذه الكلمة هي أول واجب وأعظم واجب على الإطلاق كما في الصحيح من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله"، وفي رواية: "إلى أن يعبدوا الله"؛ فدل على أن التوحيد هو أول واجب على العباد، خلافا لمن زعم أن أول واجب معرفة الله بالنظر أو القصد إلى النظر أو الشك كما هي أقوال لأهل الكلام المذموم، فإن معرفة الله فطرية فطر الله عليها عباده، قال تعالى: {أفي الله شك فاطر السماوات والأرض} [إبراهيم: ١٠] أي: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده مجبولة على

=

=

الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة كما قال ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه"".

٢ - تفسيرات باطلة لـ "لا إله إلا الله":

وإذا تبين أن معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وهذا تفسير أهل السنة؛ فينبغي التنبيه إلى أنها قد فسرت بتفسيرات باطلة، منها:

١ - أن معنى لا إله إلا الله أي لا موجود إلا الله، وهذا تفسير أهل الاتحاد.

٢ - أن معناها: أي لا معبود موجود إلا الله، وهذا باطل لأنه يلزم منه أن كل معبود عبد بحق أو باطل هو الله.

٣ - أن معناها: أي لا خالق إلا الله، أو لا رب إلا الله، ولو كان المعنى كذلك لما حصل نزاع بين النبي ﷺ وكفار قريش، ولما حصل نزاع بين الرسل وأممهم؛ لأن الأمم يقرون بأنه لا خالق إلا الله، فليس هذا المعنى فقط هو المراد منها. حيث يثبت بها توحيد الربوبية فقط.

٤ - وقيل معناها لا حاكمية إلا لله، وهذا أيضا جزء من معناها وليس هو المقصود لأنه بهذا المعنى تفسير ناقص لا يكفي.

٥ - ومنها أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، ولا مستغن عما سواه مفتقر إليه كل من عداه إلا الله، وهذا القول منسوب لبعض أئمة المتكلمين قال شيخ الإسلام عمن قال: "إن الإلهية هي القدرة على الاختراع، فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون" وهذا تفسير لكلمة التوحيد بشيء من أفعال الربوبية وهو وإن دلت عليه كلمة التوحيد بالتضمن فتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، إلا أنه أغفل المعنى المقصود من هذه الكلمة وهو إثبات توحيد الألوهية وأنه لا يستحق العبادة إلا الله.

وإنما معنى هذه الكلمة باتفاق السلف الصالح: أنه لا معبود بحق إلا الله وحده لا

=

=

شريك له كما قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} [الأنبياء: ٢٥].

قال البقاعي: "لا إله إلا الله، أي: انتفى انتفاء عظيما أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علما إذا كان نافعا، وإنما يكون نافعا إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف".

٣ - دلالة "لا إله إلا الله" على التوحيد:

قال عبد العزيز الرشيد في التنبيهات: "وأما دلالتها على التوحيد فإنها دلت على أنواع التوحيد الثلاثة، فدلت على إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلت أيضا على توحيد الربوبية، فإن العاجز لا يصلح إلها، ودلت على توحيد الأسماء والصفات فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء بل هو عدم محض كما قال بعض العلماء: المشبه يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما، والموحد يعبد إله الأرض والسماء.

قال الشيخ تقي الدين بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر"".

٤ - إعراب كلمة "لا إله إلا الله":

" لا": نافية للجنس تعمل عمل إن.

"إله": اسم "لا" مبني على الفتح، وخبرها محذوف والتقدير "بحق".

"إلا": أداة استثناء ملغاة.

"الله": لفظ الجلالة مرفوع على البدلية.

=

=

٥ - أركان "لا إله إلا الله":

لا إله إلا الله لها ركنان:

* الركن الأول: النفي.

* الركن الثاني الإثبات.

والمراد بالنفي: نفي الإلهية عما سوى الله تعالى من سائر المخلوقات. فتنفي جميع ما يعبد من دون الله فلا يستحق أن يعبد غيره.

والمراد بالإثبات: إثبات الإلهية لله سبحانه، فهو الإله الحق المستحق للعبادة وما سواه من الآلهة التي اتخذها المشركون فكلها باطلة {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل} [الحج:٦٢].

(فائدة): قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "جملة "لا إله إلا الله" مشتملة على نفي وإثبات، أما النفي فهو: "لا إله" وأما الإثبات فهو: إلا الله. و"الله" لفظ الجلالة بدل من خبر لا المحذوف والتقدير: لا إله حق إلا الله وبتقديرنا الخبر بهذه لكلمة: حق؛ يتبين الجواب عن الإشكال التالي: وهو كيف يقال: لا إله إلا الله؛ أن هناك آلهة تعبد من دون الله، وقد سماها الله تعالى آلهة وسماها عابدوها آلهة، قال الله تبارك وتعالى: {فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك} [هود:١٠١]، وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله ﷻ والرسل يقولون لأقوامهم: {اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف:٧٣].

والجواب على هذا الإشكال: يتبين بتقدير الخبر في "لا إله إلا الله" فنقول: هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقة وليس لها من حق الألوهية شيء، يدل لذلك قول تعالى: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير (٣٠)} [لقمان: ٣٠].

=

=

إذن فمعنى "لا إله إلا الله" لا معبود حق إلا الله ﷻ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ليست حقيقية أي ألوهية باطلة".

٧ - شروط الشهادتين:

جاء عن إياس بن أبي تميمة قال: "شهدت الحسن في جنازة أبي رجاء على بغله، والفرزدق إلى جنبه على بعير، فقال له الفرزدق: قد استشرفنا الناس، يقولون: خير الناس، وشر الناس، قال: يا أبا فراس، كم من أشعث أغبر ذي طمرين خير مني! وكم من شيخ مشرك أنت خير منه! ما أعددت للموت؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله قال: إن معها شروطا، فإياك وقذف المحصنة. قال: هل من توبة؟ قال: نعم".

وقال ابن رجب: "وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار، ومقتض لذلك. ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع. وهذا قول الحسن ووهب بن منبه وهو الأظهر".

وقد نظم الشيخ حافظ الحكمي الشروط في الأبيات التالية:

وبشروط سبعة قد قيدت ... وفي نصوص الوحي حقا وردت

فإنه لم ينتفع قائلها ... بالنطق إلا حيث يستكملها

العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادر ما أقول

والصدق والإخلاص والمحبة ... وفقك الله لما أحبه

ونظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك ... مع محبة وانقياد والقبول لها.

وهذه الشروط مأخوذة بالاستقراء والتتبع للأدلة من الكتاب والسنة، وقد أضاف

=

=

بعضهم إليها شرطا ثامنا ونظمه بقوله:

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأنداد قد ألها

وأخذ هذا الشرط الأخير من قوله ﷺ في حديث أبي مالك أبيه: "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله".

وذكره الشيخ عبد الرحمن بن حسن في قرة عيون الموحدين فقل: "إن لا إله إلا الله قد قيدت في الكتاب والسنة بقيود فقال منها:

العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول والانقياد، والكفر بما يعبد من دون الله".

وذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في "كتاب التوحيد" ثم قال بعده: "وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه".

وبعضهم يجعل هذا الشرط ضمن أركان (لا إله إلا الله) وقد تقدم في ذكر الأركان أن (لا إله) يبطل الشرك بجميع أنواعه ويوجب الكفر بكل ما يعبد من دون الله و (إلا الله) يثبت أنه لا يستحق العبادة إلا الله ويوجب العمل بذلك ويدل عليه قوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى} [البقرة:٢٥٦] فقوله: {فمن يكفر بالطاغوت} هو معنى الركن الأول (لا إله) وقوله: {ويؤمن بالله} هو، هو معنى الركن الثاني (إلا الله). وكذلك قوله عن الراهيم عليه السلام: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني فإنه سيهدين} الزخرف: ٢٧،٢٦] فقوله: {إنني براء} هو معنى النفي في الركن الأول. وقوله: {إلا الذي فطرني} هو معنى الإثبات في الركن

=

=

الثاني.

وعليه فإن شروطها مجملة ثمانية:

الأول: العلم بمعناها نفيا وإثباتا.

الثاني: اليقين وهو كمال العلم بها، المنافي للشك والريب.

الثالث: الإخلاص المنافي للشرك.

الرابع: الصدق المنافي للكذب، المانع من النفاق.

الخامس: المحبة لهذه الكلمة ولما دلت عليه والسرور بذلك.

السادس: الانقياد بحقوقها المنافي للترك: وهي الأعمال الواجبة إخلاصا لله وطلبا لمرضاته.

السابع: القبول المنافي للرد.

الثامن: الكفر بما سوى الله من الأنداد.

وسوف أتناول كل شرط بشرح يبين المقصود:

أولا: العلم بمعناها نفيا وإثباتا المنافي للجهل بذلك:

قال الشيخ عبد الله بن جبرين: "والمراد العلم الحقيقي بمدلول الشهادتين وما تستلزمه كل منهما من العمل، وضد العلم الجهل، وهو الذي أوقع المشركين من هذه الأمة في مخالفة معناها، حيث جهلوا معنى الإله، ومدلول النفي والإثبات، وفاتهم أن القصد من هذه الكلمة معناها، وهو الذي خالفه المشركون العالمون بما تدل عليه، حيث قالوا: {أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب} [ص: ٥].

وقالوا: {وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم} [ص:٦] ".

وللتوضيح فإن قولهم: العلم بمعناها نفيا وإثباتا يتضمن شطرها الأول نفي العبادة عما سوى الله ﷻ، كما يتضمن شطرها الثاني إثباتها له سبحانه وتعالى

=

فكما أن الحق جل وعز لا شريك له في ملكه وخلقه وتدبيره فإنه لا شريك له في عبادته. فلا بد من العلم بمعناها؛ لأن التلفظ بها دون معرفة معناها ومقتضاها لا ينفع صاحبها كالذي يتكلم بلغة لا يفهمها، ودل على هذا الكتاب والسنة قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم}
[محمد:١٩].

وقوله: {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} [الزخرف: ٨٦].

قال البغوي: "أراد بشهادة الحق قول: لا إله إلا الله كلمة التوحيد {وهم يعلمون} بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم".

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضال مخالف للكتاب والسنة والإجماع".

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: "أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع".

وقال رَحِمَهُ اللهُ: "ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضا بشهادة أن محمدا رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول، وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم، ولم يفعل شيئا من الشرك، فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب "الدر الثمين

=

في شرح المرشد المعين" من المالكية، ثم قال شارحه: "وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان". انتهى. ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا؛ لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين".

وقال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلم لابد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم، الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك.

والطريق إلى العلم بأنه - لا إله إلا الله - أمور:

أحدها: بل أعظمها تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله، وعظمته وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد ومجد، وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب به، ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر، والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير، أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله

=

=

إلا الله وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا، ورأيا وصوابا وعلما - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، تنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه".

ثانيا: اليقين:

قال في لسان العرب: "اليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر وهو نقيض الشك": وهو كمال العلم بها المنافي للشك والريب.

والدليل: قوله تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} [الحجرات: ١٥].

فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا فأما المرتاب فهو من المنافقين.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة".

وفي رواية قال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة".

وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة".

قال الشيخ حافظ الحكمي: "فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنا بها

=

=

قلبه غير شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط".

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله". فاليقين شرط في صحة الإيمان وهو حقيقة العلم بأن إلا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) فلا بد من انتفاء الشك وارتفاع الريب.

وقال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم: "باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لا بد من استيقان القلب".

قال الشيخ عبد الله بن جبرين: "من شروط - لا إله إلا الله - اليقين وضده الشك والتوقف أو مجرد الظن والريب، والمعنى أن من أتى بالشهادتين فلابد أن يوقن بقلبه ويعتقد صحة ما يقوله، من أحقية إلهية الله تعالى، صحة نبوة محمد ﷺ، وبطلان إلهية غير الله بأي نوع من التأله وبطلان قول كل من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ، فإن شك في صحة معناها أو توقف في بطلان عبادة غير الله لم تنفعه هاتان الشهادتان".

ثالثا: الصدق: المنافي للكذب المانع من النفاق:

فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم غير معتقدين لمدلولها.

* الدليل قوله تعالى: {الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} [العنكبوت:١ - ٣]، وقوله تعالى: {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} [البقرة:٨ - ١٠].

وثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "من أحد

=

=

يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار".

قال الشيخ عبد الله بن جبرين حفظه الله: "فأما من قالها بلسانه وأنكر مدلولها بقلبه فإنها لا تنجيه، كما حكى الله عن المنافقين أنهم قالوا: {نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} [المنافقون:١] ".

قال الشيخ صالح الفوزان: "فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم غير معتقدين بمدلولها".

رابعا: المحبة: لهذه الكلمة ولما دلت عليه:

وهذا بخلاف ما عليه المنافقون.

* الدليل قوله تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله} [البقرة:١٦٥]، وقوله: {ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم} [المائدة: ٥٤].

وثبت في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار".

قوله: "ثلاث من كن فيه " ... الخ. قال الحافظ النووي رحمه الله: "هذا حديث عظيم أصل من أصول الإسلام.

قال العلماء رحمهم الله: "معنى حلاوة الإيمان" استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضى الله ﷻ ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك محبة رسوله ﷺ".

=

=

قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث بمعنى الحديث المتقدم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا"؛ وذلك أنه لا تصح المحبة لله ورسوله ﷺ حقيقة وحب الآدمي في الله ورسوله ﷺ وكراهة الرجوع إلى الكفر إلا لمن قوي بالإيمان يقينه واطمأنت به نفسه وانشرح له صدره خالط لحمه ودمه وهذا هو الذي وجد حلاوته".. قال: "والحب في الله من ثمرات الله"".

وقد أفردت بابا في: "محبة الله" فراجعه في هذا الكتاب.

خامسا: الانقياد المنافي للترك:

ويبينها الشيخ صالح الفوزان حفظه الله بقوله: "الانقياد: بأداء حقوقها، وهي: الأعمال الواجبة إخلاصا لله وطلبا لمرضاته، وهذا هو مقتضاها".

* الدليل من الكتاب: قوله تعالى: {وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له} [الزمر: ٥٤]، وقوله: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن} [النساء: ١٢٥]، وقوله: {ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى} [لقمان: ٢٢] أي: بـ"لا إله إلا الله".

وقوله: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء: ٦٥].

في الدليل من السنة: قوله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به". وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلا يكون المؤمن مؤمنا حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات".

=

=

سادسا: القبول المنافي للرد:

لقوله تعالى: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون} [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وثبت عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الكل ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

قال الشيخ عبد الله بن جبرين: "ومن شروط - لا إله إلا الله - القبول المنافي للرد، فإن هناك من يعلم معنى الشهادتين ويوقن بمدلولها ولكنه يردهما كبرا وحسدا، وهذه حالة علماء اليهود والنصارى، فقد شهدوا بإلهية الله وحده، وعرفوا محمدا ﷺ كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك لم يقبلوه {حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق} [البقرة:١٠٩].

وهكذا كان المشركون يعرفون معنى لا إله إلا الله وصدق محمد ﷺ، ولكنهم يستكبرون عن قبوله، كما قال تعالى: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} [الصافات: ٣٥] وقال تعالى: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} [لأنعام:٣٣] ".

وفي تفسير آية الصافات يقول ﷻ: {إنهم كانوا} أي: في الدار الدنيا {إذا قيل لهم} بطريق الدعوة والتلقين {لا إله إلا الله يستكبرون} عن القبول يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون يستكبرون عن كلمة التوحيد ويمتنعون منها فهم لا يقبلونها كما قبلها المؤمنون الموحدون، ولم ينقادوا لما دلت عليه من

=

=
أداء حقوقها، ويدخل في ذلك حالة عباد القبور كما هو مشاهد اليوم، فإنهم يقولون (لا إله إلا الله) ومع ذلك لا يتركون عبادة القبور والذبح لها، فهم وإن تلفظوا بالشهادة إلا أنهم غير قابلين لها وغير ملتزمين بما دعت له.

* الفرق بين الانقياد والقبول:

قال الشيخ عبد الله بن جبرين في الفرق بينهما: "أن الانقياد هو الاتباع بالأفعال، والقبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول، ويلزم منهما جميعا الاتباع، ولكن الانقياد هو الاستسلام والإذعان، وعدم التعقب لشيء من أحكام الله". ثم ذكر - حفظه الله - الأدلة على الانقياد من القرآن فقال: "فهذا هو الانقياد لله تعالى بعبادته وحده، فأما الانقياد للنبي ﷺ بقبول سنته، واتباع ما جاء به والرضى بحكمه، فقد ذكره الله تعالى بقوله: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء: ٥٦] فاشترط في صحة إيمانهم أن يسلموا تسليما لحكمه، أي ينقادوا ويذعنوا لما جاء به من ربه. وقد يكون القبول بالقلب والانقياد بالقلب والجوارح فلا انقياد إلا بالقبول. وقد يكون القبول بالقلب والانقياد بالقلب والجوارح فلا انقياد إلا بالقبول".

سابعا: الإخلاص المنافي للشرك:

وهو تصفية العمل من جميع شوائب الشرك بأن لا يقصد بقولها طمعا من مطامع الدنيا ولا رياء ولا سمعة؛ لما جاء في الحديث الصحيح من حديث عتبان قال: "فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله".

وسوف يأتي لهذا مزيد بحث في (الإخلاص).

٨ - نواقض الشهادتين:

نواقض لا إله إلا الله كثيرة جدا، وقد عقد لها الفقهاء في كتب الفقه بابا خاصا
=

=

سموه باب الردة، وسيأتي الكلام عنها مفصلا في بابي (الردة) و (نواقض الإسلام).

٩ - متى ينفع الإنسان قول لا إله إلا الله؟:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث: "إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله" قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار كهذا الحديث، وحديث أنس قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل فقال: "يا معاذ": قال لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا حرمه الله على النار" ... ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة وليس فيها أنه يحرم على النار، منها حديث عبادة الذي تقدم قريبا، وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك - الحديث وفيه - فقال رسول الله ﷺ: "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة".

قال: وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: "أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها. كما جاءت مقيدة وقالها خالصا من قلبه مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين".

فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة.

فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج النار من قال: "لا إله إلا الله"، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرا ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت

=

=

بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها يقولها تقليدا وعادة ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: "سمعت الناس يقولون شيئا فقلته"، وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} [الزخرف: ٢٣]، وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحالة مصرا على ذنب أصلا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذه التوبة وهذا الإخلاص وهذه المحبة وهذا اليقين لا تترك له ذنبا إلا يمحى كما يمحى الليل بالنهار".

الفهرس

